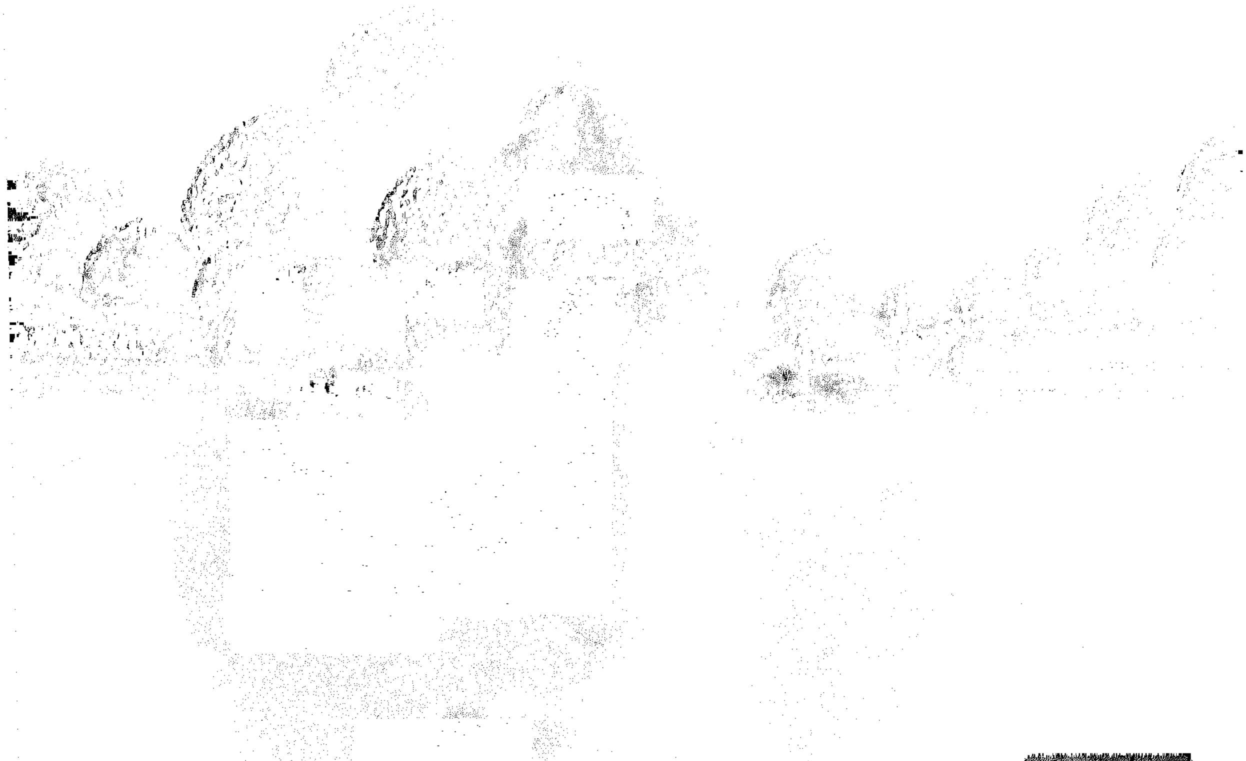
غادة السمّان

لَيلَةُ المِليَارْ



رواية

منشورات غادة السمان

لَيلَةُ المِليَارْ

تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
صورة الغلاف الأخير : المؤلفة بريشة الفنان المصري الكبير هبة عنايت (١٩٨٥) .
لوحة الغلاف : للمبدع جاك باردو .
تنفيذ الطبع : مطبعة دار الكتب — بيروت ـ لبنان

غادَة السَمّان

لَيلَةُ المِليَارْ

رواية

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

ص.ب ١١١٨١٣ بيروت

تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦

الطبعة الثانية

آذار (مارس) ١٩٩١

الاهــداء

إلى رعايا الحرية في أرض العروبة
نساء ورجالاً
الذين رفضوا الشرب
من نبع الجنون ،
أو مستنقعات التخدير .
صحوهم بطولة ،
وحمايتهم لبوصلة الديمقراطية مغامرة
وعمرهم أضحى مقامرة .
إليهم ، أينما كانوا ، كيفما كانوا ،
فهم قومي . .
وإليهم أنتمي

غادة

« . . هيراش هيورش هيروة هيشة طيطوش طيطواش عمارش قيروش مرنولش اجب يا ناصور واحضر لي في مكاني هذا بالسمع والطاعة لهذه الاسماء ايروش بريش جريوش دغرش هيرش ورروش زليش مطمارش بحق هـذه الاسماء انت واعـوانك وخـدامك من العفاريت واولاد الشياطين بحق شيوش برش برهيوم هوسيه اجيبوا مسرعين لـطاعة مـا سمعتموه بحق اطيش برطيوه طوه . . .

. . . رولش قمـارش ازرولش هياريش هـواطيش مطيعـين لهذه الاسـماء هشهبش مشهبش زجرتكم وقهرتكم بطر هاروش هواظيس اسمعوا قسمي وشموا بخوري واحضروا مجلسي بحق ما به عليكم عزمت وبالاسماء اقسمت وهمهمت الوحا العجل الساعة . . .

. . . اهطموش عجروخ اوطيش كناهيش وبحق سر سموه سوه انصرفوا من حيث اتيتم غير مطرودين انصرف يا ناصور أنت واعوانك وخدامك بملفقـوش مليقوش قـوش هيا . . .

عزمت عليكم يا معشر الجن والشياطين والعفاريت المتمردين والطيارين وجنود ابليس اجمعين وبني شيرا ح وبني سلاح وراكب الرياح واصحاب السلاح الطائرين في الهواء . . .

. . . والغواصين تحت الثرى والملوك العلوية والسفلية والهوائيـة والترابيـة والناريـة والمائية .

. . . واصحاب الزلزلة واصحاب الوعود واصحاب الغضب اين ميمون الازرق اين برقان اين ابو القاسم صاحب الزلازل اين طحت اين الأحمر اين عوف قائد القياد اين ابو القاسم الاصفر اين ابو الوكـير الاغير اقسمت عليكم بحق من خلقكم وقهـركم وباسم التعظيم وآه امية امية اطيش الله خلقكم وقدركم ثم السبيل سيركم انزلوا بخيولكم ورجالكم وسيوفكم تبرق وخيولكم تمهمه ونيرانكم تشتعل وانطلقوا اليه والقوافي في قلبه

خفقان واشعلوا في قلبه النيران وسيروه مع الريح سيران ومع السحاب ميران واجلبوه . . .

. . . . . فان اكل طعاما لا يتلذذ به وان شرب ماء لا يرويه وان جلس بين جماعة لا يجد قراراً ولا هدوءاً ولا اصطباراً وهو ينادي النار النار . . .

. . . يا معشر الخدام التزموا هذا المطلوب بألف عفريت عن يمينه والف جني عن يساره والف جني خلفه والف جني فوق رأسه والف جني تحته واذا نام نبهوه وان اكل غصغصوه وان شرب شرقوه . . .

. . . بحق ملاخ دملاخ براخ جولا هيلا . .

عزمت عليكم يا معشر الجن والابـالسة والجنـود والعفاريت والشيـاطين ان كنتم في مشارق الارض ومغاربها احضروا سكان الفيافي والمجازر والمقابر والسوق والطرق والبروج والمعروج اين ميمون الغمامي اين ميمون السحابي اين شمهورش الطيار اين برقان اليهودي اين الملك الابيض المعظم اين الملك الاحمر المعظم اين صاحب العمامة السوداء اين صاحب البغلة الدهماء اين الذي فيه الف رأس وفي كل رأس الف وجه وفي كل فم الف لسان وكل لسان يسبح الله تعالى بلغات لا تشبه بعضها بعضا . . . .

. . . . . . علكش بطط لهوشل مطيعوش بطريقوش يطفريوش بطبطيقوش مكشلاش الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . .

احرقه يا ميططرون بحق طحيطمغيليال وبحق آل شلع يعو يو بيه بتكه بتكفال بصعى كعى مميال بمطيعي لك يا آل جل زريال احترق . . .

احترق ايها المارد الظالم لنفسه » . . .

يعرف انهم يطاردونه . . .

يحدس حضورهم الذي يزداد اقتراباً ، بالحاسة نفسها التي كانت تنبهه في السجن الى ان الجلاد قادم ليسوقه الى قاعة الاعتراف او النسيان . . الى فتح قطب جراح الذاكرة ، او مسحها في عملية تجميل فكرية ارغامية . . .

يعرف انهم يطاردونه . . .

منذ اكتشفوا انه لم يمت في المقبرة تلك الليلة وهم مصممون على اعادته اليها . . . وهو حين لا يراهم عبر ثقب ستارة غرفة نومه اوكسور زجاج النافذة ، يعي حضورهم الخفي الشرير ، كما حضور الاشباح في بيت مسكون بظلمة متحجرة ، تزفر برداً وسط دهاليز الهمسات المبهمة والابواب المنتحبة . . .

ولكنه لا يتحرك الآن في بيته المسكون . . ولا في عتمة السجون . . انه يقود سيارته المهلهلة في الدرب الى المطار ، في وضح النهار ، وضح الساعة العاشرة ذات يوم اثنين صيفي ، وضح القصف ، وضح شمس السابع من حزيران ١٩٨٢ ، وضح الذعر والهرب . . . والموت العاري يحوم بين البحر والشهقة ، في المسافة بين السماء والدعاء ، الموت المعدني الشرس يروح ويجيء دونما قفازات ولا اقنعة ولا اردية شبحية ولا تهاويم مصاصي دماء الخيالات أو الواقع . . . فالسجان ليس قادماً الآن لارغامه على (التبرع) بالدم للمرة الثالثة في شهر واحد ، لجريح من (الفئة الفكرية) الاخرى تصادف ان دمه (البيولوجي) من فئته !

يعرف انهم يطاردونه . . .

الطائرات الاسرائيلية تحوم ، وهم ما زالوا يطاردونه . . .

مذعور ، والعدوى انتقلت الى بقايا سيارته التي تركض به مرتجفة وقد دبت فيها حياة

عضوية قابلة للخلل المفاجيء او تجاوز الذات غير المتوقع . . . وها هي تعدو كحصان فقد رشده ، هارب من بيروت ، وكل ما يحيط به يبدو لعينيه راعشاً . بقايا الاشجار المحروقة على جانبي الطريق . جثة البحر المزرقة الساكنة . اعمدة الكهرباء المقصوفة والممددة على الاسفلت المنخور كالقتلى المردة . .

يعرف انهم يطاردونه وان كان لم يلمحهم بعد . . . كهارب تحذير غامضة تسري في جسده كلما اقتربوا من كيانه المسور بالذعر . يعود ليحدق في مرآة السيارة ، ومستطيلها الفضي المغبر يتحول الى نافذة سحرية يرى عبرها جلاده ومصيره .

لم يستوقفه احد من جنود الحاجز المسلح المألوف في الدرب الى المطار . . لم يجدهم هناك ، ولم يحدقوا في وجهه . اكياس الرمل وحدها بقيت عيوناً متراصة ترابية تتأمل بحياد الدبابات مغلقة الكوى ، ومدافعها تتحرك ببطء صوب السماء . . .

في يوم كهذا لا احد يستوقفك ليسألك ما اسمك ما عمرك واين اوراقك الثبوتية ومن اين أنت قادم وإلى اين . . وتستطيع ان تموت اينما شئت او تقتل من شئت دون ان يزعجك احد او يعكر (مزاجك) شيء غير الطائرات الاسرائيلية التي تروح وتجيء منذ ثلاثة ايام وتقصف كل شيء : الحي والميت والارملة والطفل والملعب الرياضي والمدرسة ومخزن الذخيرة والمستشفى والسجن والسجين والسجان والمناضل والقاتل والرادع والمردوع وما بينهما . اشتعل في رأسه غضب مرير ، انساه ذعره في ومضة وعي حاقد .

(ثمة حمقى يتابعون باسترخاء ترف الاعيبهم في اسواق (السياسة) ، وخياناتهم التي يبررها لهم (استراتيجياً او تكتيكياً) كتبة محترفون مأجورون ، دون ان يتوقفوا جميعاً لحظة ليرقبوا الموت المعدني القادم من الأعلى لتدمير رقعة الشطرنج البيروتية . . . وابادتنا جميعاً . .)

مذعور . . لا يدري ، هل ستقتله قذيفة العدو او رصاصة (الصديق) . . . مذعور حتى النسيان التخديري . . ولولا صلوات زوجته المنتحبة الى جانبه وسعال احد طفليه لما تذكر اسرته . . . انه وحش صغير يركض في الغابة وخلفه تهرول الطيور البدائية بمناقيرها الحادة وصياحها المرعب ، وتدب الديناصورات وتزحف الافاعي والعقارب والسحالي العملاقة والافيال والضفادع الشاهقة لتقتله تواكبها نباتات شريرة تتكاثر خلفه بسرعة جهنمية وتمد لبلابها المجدول كحبال مشنقة وتتفتح قرب عنقه الازهار اللاحمة باسنانها الدقيقة الشوكية ومعدتها المخملية الارجوانية العارية . . وهو يكاد يسقط . . . آه . . .

واخيراً شاهدهم . ها هم يرتسمون داخل المستطيل الفضي المغبر لمرآة سيارته ، العاكسة للدرب خلفه . . . شعر بشيء من الراحة وهو يرقب سيارتهم السوداء كما تخيلها دائماً في كوابيسه ، تقترب منه بسرعة مجنونة . . . قريباً يقتله حلفاء الامس وينتهي قرع طبول الغابة ودبيب اقدام الوحوش وركض الاشجار المسلحة بالقصب والرماح الخشبية المدببة ، ويتوقف الدخان عن الخروج من عينيه واذنيه وفمه . تقترب السيارة . تلاصقه . صرخته خرساء . لا يجرؤ على الالتفات . تتجاوزه وهي لا تلوي على شيء في دربها الى المطار . . . تخاطبه زوجته « كفى » للمرة الأولى : ليسوا (هم) . انها اسرة اخرى مذعورة مثلنا . . . . اسرع يا خليل . . بربك اسرع . . .

يبدو مبنى المطار لعينيه ، والطائرات الاسرائيلية المغيرة في آن معاً . . . في اللحظة ذاتها ، تومض في مرآة السيارة صورة مطارديه ، ويعي يقيناً لا يناقش : لقد وصلوا . . . يلمح رشاشاً مصوباً الى الامام من نافذة سيارة زرقاء تلاحقه . . . يلتفت الى طفليه . وللمرة الأولى في حياته البائسة المسالمة يشعر بالندم لانه لا يحمل سلاحاً ولم يفعلها من قبل رافضاً مبدأ العنف . . الولدان نائمان . هكذا الاطفال دائماً . يفعلون ما لا تتوقعه منهم . طوال الليلة السابقة ، وصراخهم الآتي لحظة الاعدام المرتقبة يملأ اذنيه بالحسرة والشفقة على الذات وعليهما ، طارداً امكانية النوم ، وهاهما الآن يغفوان ، وسيموتان قبل ان يدريا بالأمر . . .

تتوالى الانفجارات . السيارة السوداء التي تجاوزته قبل قليل تنفجر امام عينيه وتلتهب . اصابة مباشرة . اذن فالطائرات الاسرائيلية تقصف السيارات المدنية ايضاً .

لعل الحمقى الذين يطاردونه يبدلون الآن رأيهم . يختبئون مثلاً ، او يصوبون رشاشاتهم نحو الطائرة المغيرة التي انطلقت صوبهم تحصد بمنجلها الناري درب المطار وابنيته ومخلوقاته . . . يسمع رامي وفادي ينتحبان بصوت خافت . اذن استيقظ المسكينان . داخل المرآة ، يرى جلاداً آخر يصوب رشاشه من النافذة الاخرى الخلفية ، مطلقاً النار صوبه لا صوب الطائرات المغيرة .

الزجاج الخلفي لسيارته يتحطم بينما يتجاوز بها لهيب السيارة السوداء المحترقة امامه بمن فيها . . . وكل شيء يحدث بسرعة مجنونة لم تدع مجالاً لبقية من ذعر . . . السيارة الزرقاء ما زالت تلاحقه ، والمسلح يطلق النار ثانية غير آبه لشيء . . .

الغضب لا الخوف يستولي على خليل ، يشعر برغبة مجنونة في التوقف في عرض

الطريق ، والنزول الى (زرق) السيارة اعزل اليدين كما كان دائماً ، ليقول لهم (رأيه الصريح) في الحماقة التي يرتكبونها ، ويمسك فوهات رشاشاتهم ويزيحها باصابعه الى الاعلى . . الى حيث كان يجب تصويب نيرانها . . .

(رأيه الصريح) ! . . ضحك بصوت مرتفع ضحكة هستيرية امتزجت بصراخ ولديه وانتحاب زوجته . . (رأيه الصريح) ! اليس هذا سبب وجوده هنا ، وموته واسرته هنا ، والجحيم يتدفق ، والنيران تشتعل على جانبي الطريق، والطائرات الاسرائيلية تغير ، وحلفاء الامس ما زالوا يطاردونه لخلافات تافهة وصغائر عابرة كأن ستارة ختمت بصائرهم عنها . غضبه مسعور مرير السخرية . . مد رأسه من نافذة السيارة وصرخ بهم كالمعتوه وهو يشير إلى طائرة جديدة مغيرة : انظروا . . . يا ناس يا عالم يا اخوان. . يا بلدي . . .

يخيل اليه ان حامل الرشاش يضحك . يظنونه قد جن . حسناً ، من هو غير المجنون في مسرح اللامعقول العربي هذا ؟ ها هو يواجه جلاده ، وثمة من اضرم النيران في خشب منصة الشنق ، لكن الجلاد ما زال يجدل الحبل ويحيط به عنقه دون ان تحين منه التفاتة الى الآتي لاحراقهما معاً . . ودون ان يرف له قلب امام الحقيقة الممددة عارية تحت شمس حزيران . فليقتل بعضكم بعضاً ايها الاخوة الاعداء ، واغطسوا الى قاع الحقد الصغير وانسوا الجرح الكبير الماضي والآتي .

وفي ومضة شبيهة بالحلم يعي ان الطائرة تغير وتقصف وتحصد ، ووسط جنون الانفجارات ، يرى السيارة الزرقاء تنفجر داخل المستطيل الفضي المغبر لمرآة سيارته ، وشظاياها تتطاير ، والمقود يخرج من يديه في لحظة انعدام سيطرة كلية . . . ويكاد يعوي ملء حنجرته ، ملء صمته ، ملء جرحه : « هل فهمتم الآن ؟ . . اللعنة . . . » .

. . لكن طفليه يصرخان كمن بهما مس ، وزوجته انعقد لسانها ، وشخص يقطن جسده ولا يعرفه يتابع الهرولة فوق حصانه الجريح ، ثم يتوقف قرب مدخل المطار . ينفض الزجاج عن نفسه حين يهبط . يحمل الولدين المذعورين من أوسطيهما كخروفين نجيا من الذبح ويركض بهما والزوجة تهرول وتسبق الجميع في الاحتماء بالبناء الحجري للمطار .

فوجيء حين وجد المطار مزدحماً بالناس . خلف عمود رخامي كوم طفليه الى جانب الاطفال الآخرين الباكين ، واخرج لفافة ما كاد يشعلها حتى قالت له زوجته بصوت زاجر :

اسرع واحضر الحقائب . . . شهق فأضافت بعذوبتها الآمرة « لقد انتهت الغارة . . . اسرع يا خليل قبل ان يعودوا » . . .

فاسرع .

***

نصف ساعة من الهدوء ، واستعاد مطار بيروت حياته المألوفة ! سبعة اعوام من التعايش مع الموت علمت الناس متابعة حياتهم اليومية العادية قبل التوقف لدفن موتاهم او بكاء احبائهم . . . سبعة اعوام صنعت مجتمعاً يبدو من الخارج شبيهاً بقطيع من النمل يدوسه عملاق جيئة وذهاباً ، ومن لا تصيبه الضربة القاتلة يتابع دربه ضاحكاً أو باكياً . . لكنه يستمر .

في مناخ كهذا تم اجراء المعاملات العادية للسفر . . . ضريبة المطار ام ضريبة الآخرة ؟ الأمن العام ام بواب السماء ؟ مفتشو الجمارك ام ملائكة الحساب ؟ ساحة المطار الى القارات الأخرى ام الى العالم الآخر ؟ . .

ولكن مناخ قاعة المسافرين الزجاجية الجدران كان مختلفاً . . الطائرات جاثمة امام العيون ، فهل تقلع بهم بعيداً عن هذا الجحيم ؟ ثمة نساء باكيات بلا دموع ، والمرأة المجاورة تحكي كيف احتل الاسرائيليون القرية الجنوبية فجر البارحة ، واستطاعت الهرب واولادها عبر الجبال. لبنانية متزوجة من فلسطيني يعمل في الخليج . في نبرة صوتها شيء ذكره بحقول التبغ فاستل لفافة اشعلها . تتابع حكايتها لا مبالية بأن ينصت احد او لا ينصت (انها مثلي تحارب الموت بالاستماع الى صوتها ، الى ذعرها المتوقد املاً) .

جاءت لزيارة اسرتها . سيقص الاسرائيليون رؤوس اولادها الفلسطينيين . ما زالوا صغاراً على القتال ، وجنود بيغن يفضلون ذبحهم صغاراً . . .

قررت المغامرة في الدرب الخطرة فقد تصل الى المطار وتقلع بها الطائرة . وصلت فجراً قبل المعارك الجوية . اقفل المطار مرتين هذا الصباح واعيد فتحه . . . بين غارة واخرى تتسلل طائرة مغامرة ويحسد الباقون ركابها . . . عليها ان تنتظر حتى المساء ، موعد اقلاع طائرة الخليج . . . ستذهب باطفالها الى الحمام للحظات ، هل يمكن ان يتفضلوا بالانتباه الى حقيبتي يدها المتورمتين ، الكبيرتين اكثر مما ينبغي لراكب طائرة ؟ سمع خليل زوجته كفى تجيب بهلع : « لا ، لا نستطيع . لقد حان موعد طائرتنا . . . فتشي عن شخص آخر » .

وجرت اسرتها بعيداً عن حقائب المرأة . سألها خليل : لماذا فعلت ذلك ؟ اجابت بغصة : « لم اعد اثق بأحد . . ما يدرينا ان حقائبها ليست ملغومة . . . بمعرفتها او بدون معرفتها ؟ ما يدرينا انها لن تنفجر ؟ ما يدرينا ان المرأة الهاربة ليست مزيفة او مخدوعة ؟ ما يدرينا » . . . وشعر خليل بنصل ناري من الحزن العميق يخترق قلبه . . وبالخجل . . لقد فقد ثقته بالجميع هو ايضاً . . . بالذين يحبهم والذين يكرههم على السواء . . . لقد تمت خلخلة القلوب ، ودخل الشك محل الوئام . .

صوت المذيعة ينادي على ركاب طائرة لندن . يهرولون نحو السيارة التي تقلهم الى الطائرات محفوفين بتنهدات الناس وحسدهم . وثمة امرأة مزخرفة بالذهب والمساحيق تصر على الصعود الى (باص) الدرجة الأولى لا السياحية . الم يخبرها احد ان الموت (درجة موحدة) ؟

المذيعة من جديد . تنادي على ركاب الطائرة المتوجهة الى جنيف . يتقدم جمع من الوجهاء والانيقات ، ويبدو خليل بلحيته الشعثاء وثيابه المهلهلة كخادم غير وجيه لزوجته الانيقة . . . كاد يشرح للمضيفة حكايته ، ولماذا يسافر هو « خليل الدرع » الفقير الى جنيف وببطاقة حمراء تخص الدرجة الأولى الثرية ، لا (الدرجة السياحية) ، لكنها لم تلحظه ونظرت اليه ولم تره كأنها تكلم شخصية اعتبارية معلقة فوق المصباح المكسور . . . « اسرعوا فقد تتكرر الغارة ، ويغلق المطار من جديد » . انتزع خليل نظراته عن حطام المصباح على الارض وهرول في مهرجان الذعر .

***

يبدو الامر مثل لعبة تعذيب عبثية لا متناهية كدهاليز الكوابيس . للمرة الثانية يصعدون الى الطائرة ، وتتحرك بهم فوق المدرج ، ثم يعود بها (الكابتن) قبل لحظة الاقلاع ، ويطلب منهم مغادرتها بسبب اغلاق المطار من جديد . حسناً . لم يقل لهم لماذا اغلق . نظرة من النافذة ، كانت تكفي لقراءة ذلك السطر الجهنمي المكتوب فوق الأفق . طائرات مغيرة وانفجارات . . انها الحرب . يهرولون من جديد الى قاعة الانتظار ، ومعركة جوية شرسة تدور امام اعينهم . . . معظم الركاب وقفوا امام الجدار الزجاجي للقاعة ، يرقبون الانفجارات في السماء والافق وارض المطار وهنا وهناك وفوق التل وتحت التل ونحو الجبال العالية . . . وهذه طائرة تحترق وتهوي . . وانفجار آخر اكثر قرباً يكفي ليطيح

بالزجاج كالخناجر في الاتجاهات كلها ، لتغمد في اعناق المتفرجين وصدورهم . . ولكن احداً لا يبالي حقاً ، حتى اطفاله واطفال الجميع وجدوا لانفسهم درباً بين الاقدام لتأمل الاستعراض الناري الملتهب . . ماذا يحدث ؟

اهذه شجاعة احياء ام لا مبالاة اموات ؟ هل ألفنا الموت حتى لم يعد ليثير فينا اكثر من شهية التأمل ، ام صرنا نشتهيه ونطارده وندعوه لمسح عيوننا الممزقة برحمة ظلماته ؟ . .

***

عبر سحب الدخان ، وطائرات (الميدل ايست) الفضية الجاثمة على الارض ، عبر الانفجارات والشهقات والطائرات الحربية المجنونة الزعيق بين كر وفر وهجوم وانقضاض ، وجناح الموت الشرس الذي نشر ريشه فوق المرئيات فحجب زرقة السماء وذهب الشمس ، واحال الدنيا الى لوحة كئيبة مرسومة بالرمادي والاسود، ابصر خليل طائرة ورقية ملونة هاربة من يد طفل تهاجم المشهد ، وتدخل الى الرؤى الحزينة مثل رجل يخطو داخل لوحة . . الطائرة الملونة الورقية ارتفعت في الجو حمراء زرقاء خضراء بنفسجية ، واضاءت شمس سرية داخلها ، وحملتها رياح خفية الى الاعلى بهدوء ، كما يمشي الثلج على رؤوس اصابعه في دروب السماء . . كانت تتابع صعودها المدهش وسط الطائرات المغيرة القاصفة . . . ولم يعد خليل يسمع صوت المعركة ، وبدت ادوات الموت اصغر حجماً من الطائرة الورقية الملونة التي تابعت طيرانها العذب المرهف الصامت والجليل . . .

ثوان ؟ دقائق ؟ لا يدري خليل الا ان المعركة الجوية توقفت وطائرة الطفل المجهول الذي تدخل بسلاحه تكبر وتكبر وتتابع رحيلها المبهم الملون . . الناس يتحدثون فيما بينهم عما شاهدوه للتو ، كجمهور يناقش فيلماً مثيراً في فترة الاستراحة ، ودهش خليل لان احداً لم يذكر (ماركة) الطائرة الورقية الملونة في معرض الشروح الحربية التي تطوع كثيرون للادلاء بها بعد تحولهم الى خبراء في الاسلحة والمعارك . . ام تراه لم ينصت جيداً ؟ . . .

« كفى » تنبهه الى خطر وشيك : « ماذا لو اغلق المطار ؟ كيف نعود الى البيت والقصف يلتهم الدروب كلها ومنطقة (الكوكودي) الملاصقة هدف اساسي ؟ سنجوع . . فلماذا لا نشتري بعض (السندويشات) قبل ان . . . . . »

يبدو ان كفى ليست وحدها التي وعت المأساة المرتقبة لو . . .

ففي اللحظة نفسها توجه العشرات مثله نحو بائع السندويش ، ووجد نفسه في خضم

بشري متلاطم تدب في كيانه الموحد رعشة الذعر من الجوع . . . عشرات الايدي والمناكب المتزاحمة والاقدام التي يطأ بعضها بعضاً ، وتحول الجمع الى حيوان واحد بدائي التكوين يمارس تدميراً ذاتياً لا واعياً وارتفعت صيحة مخيفة : « لم يبق خبز . . . » . . . وسمع النداء وهو يتناول الرغيف الاخير والبائع يقول : « هذا آخر ما لدينا » .

حاصرته النظرات الحاقدة ، فصرخ معتذراً بلا صوت : « هذه لطفلي الجائع » . تسلل هارباً الى اسرته ، ورفض الطفلان تناول قضمة واحدة . عادا الى هدوئهما العجيب يتأملان العالم المحيط بهما وهو يزداد توتراً وتشنجاً ، فيتثاءبان !

للمرة الثالثة تعلن المذيعة عن اقلاع طائرتهم . للمرة الثالثة يتجهون نحو المخرج رقم ٥ ، وهم يرتجفون خوفاً واملاً . . . وسيدة تشاكس : « كيف تقلعون بنا والحالة خطرة » . . ويصرخ بها رجل وجيه المظهر خيّل لخليل انه يعرفه : « لا احد يرغمك على ركوب الطائرة . من احب البقاء هنا فليبق» .

***

صعدوا جميعاً الى الطائرة ولم يرفض احد ذلك . . . حبسوا انفاسهم . تحركت ببطء ثم توقفت عشرة قرون او عشرة ايام او دقائق ، لا احد يدري بالضبط ، ثم انطلقت مجنونة فوق المدرج ولم يطمئن احد حين اقلعت عن الارض بنزق متجهة صوب البحر . . . فقد انفجر الجحيم من جديد ودوت الانفجارات وخشي الركاب من العودة الى (تعذيب المطار) ، او من اصابة مباشرة في الجو . . . ومن كل شيء خطر آخر يجهلونه ويعون كهارب حضوره لكن (الكابتن) تابع طيرانه وسط الفضاء الملغوم لا يلوي على شيء ، وحبس الناس انفاسهم ولم ينبس احد بكلمة وتوقفوا عن التنظير للمعركة حين (دخلوها) حقاً . . .

رغم كل شيء ، حدق خليل بأسى عبر النافذة البخيلة ، محاولاً عبثاً القاء نظرة اخيرة صوب بيروت . . . ها هو هارب كأي رعديد ، ووطنه يحترق . . . ولكنهم طاردوه حتى المطار ، ولم يتركوا له اي خيار . . .

الطائرة تحلق فوق قبرص . الركاب يصدقون انهم نجوا هذه المرة . تدب هستيريا مفاجئة . هذه تريد ان تقبل قائد الطائرة ، واخرى تقبل جارة لا تعرفها ، وكلٌ يحدث الآخر وقد تحولوا الى اسرة واحدة ستقتتل بعد لحظات على الخروج من باب النجاة لو هوت الطائرة الى البحر مثلاً . . . ولكن ريثما يقع ذلك فالكل سعيد وعاشق (والانسانية) تتدفق

من الجميع واللياقات الاجتماعية تصب في كؤوس المجاملات ، والمضيفات يتقدمن صوب الركاب لتتويج الفرحة بالطعام الشهي وماء النار . . . والرجل وجيه المظهر الذي توهم خليل انه يعرفه يبادله النظرات . يومض الاسم في رأسه فجأة . لقد عرفه . انه احد جيرانهم المهاجرين منذ زمن بعيد . نديم . نديم الغفير . يتظاهر بانه لم يره ويغمض عينيه مختبئاً خلف قناع النوم . . . لم يكن سعيداً بقدر ما ينبغي لرجل نجا من الموت عدة مرات هذا الصباح . . . ليتني لم انصت لتوسل هذه المرأة وتهديدها والتفاحة في يدها والدموع في عينيها وقد شهرت علي سلاح طفلينا ، والقمع يطاردني واسرائيل تقصفني . . . وانا مثخن بالوطن . . . ليتني بقيت هناك . . ومت هناك برصاص ابناء بلدي او تحت ركام قصف الاعداء . . . لو بقيت ، لربما وجدت فرصة للقيام بشيء . . . لربما عدت الى مسقط رأسي وقلبي في قريتي . . . ولكن الدروب كلها سدت في وجهي . . واهل قريتي انفسهم وصلوا بيتي هذا الصباح مهجرين لاجئين اليّ . . . مثخن بالوطن . . . حقائب . . . حقائب . . . وطن مشرد في حقائب . . .

حيوات معبأة في حقائب مهرولة بين القرى والمدن والشوارع والمتاريس وخطوط التماس والسيارات المتفجرة والابنية المتهاوية وقتال الاخوة الاعداء في الجبهات الجوالة عاماً بعد عام تحت القصف والمطر والخزي المرير . . .

حقائب . . حقائب . . حقائب هاربة من الجنوب الى بيروت . . وحقائب هاربة من بيروت الى المنفى . . .

حقائب التقت على الرصيف امام مدخل بيتي ، وكلنا مسرع كسارق نشل عمره من جيب القدر وهو هارب به . . .

حقائب حقائب . . .

(انزلوا حقائبهم من السيارة الى البيت ، وكنت خارجاً بحقائبي من البيت الى سيارة هرب اخرى . . . بعد الـ « اهلاً وسهلاً » صرخت بهم : لماذا لم تبقوا هناك ؟ وسألوني : ولماذا لا تبقى هنا ؟ . . .

كانت الحكاية طويلة طويلة . . . حكايتي وحكايتهم ، حكاية الحصارات التي عانوا منها وعانيت ، وشجار ذوي القربى الذي يمهد الدرب لحصار العدو ، لذا اكتفينا بالعناق الصامت . . لا هم قالوا لي ان احداً لم يساعدهم حقاً على الصمود بغير النظريات والحماسيات اللغوية ، ولا انا قلت لهم انني قضيت الاعوام الاخيرة في معارك مع الذين

كان يفترض ان اصمد واياهم الآن هنا . . . لكنني اكدت بمرارة وانا اودعهم : ليتكم ظللتم هناك . . . وكرروا : لماذا لا تظل انت ايضاً هنا ؟

وكدت أفعل لو لم تذكرني كفى بأن المسلح الذي اخطأني البارحة حين اطلق علي النار قام بجولة استطلاعية حول الشرفات والنوافذ ، قبل دقائق ، وانه ليس وحده . . . ولعل الوصول المفاجىء لاسرتي من الجنوب لعب دوراً انقاذياً في التعتيم على حقائب هربي التي تراكمت قرب حقائبهم وتكدس على الرصيف عشرات منها محشوة ببراعم الأمل وجثثه ، بالدموع والحقد والذكريات والرفض . . . وببعض الخبز والثياب . . آه مثخن بالوطن . . . مثخن بالوطن) .

يأتيه صوت المضيفة : . . . شاي ام قهوة يا سيدي ؟ (سم يا سيدتي)
تجاهلها وظل متظاهراً بالنوم .

***

استرخت كفى في مقعدها الوثير سعيدة كما لم تكن منذ زمن سحيق . . تعرف ان زوجها متظاهر بالنوم وهذا افضل لهما . فادي ورامي نائمان وقد عافا الطعام . الطائرة خلفت قبرص وراءها قبل لحظات ، وها هي تحلق بها وبأسرتها في الدرب الى حياة جديدة .

(حياة جديدة ؟ هل ثمة شيء كهذا ؟ هل في مقدوري انا - او اي شخص آخر - ايقاف عربة عمري فجأة لاقول : هذه ليست دربي . . وسأصوب مسارها ناسية عمري الذي مضى في درب « خاطئة » طوال الاعوام الماضية اللعينة ؟ هل سأنسى يوماً طفلتي وداد التي تناثر لحمها الغض وتفاح البائع المتجول ودمه ، ودم بقية الاطفال لحظة انفجرت القذيفة التي كانوا يلعبون بها « الكرة » بعدما وجدوها في « البورة » وخلفها لهم شجار لعين بين « تنظيمين محليين » ؟ هل في مقدوري ان انضو عني جراحي كما يخلع المرء ثوباً بالياً ؟ هل تشفى حقاً كدمات الروح ؟ حسناً . لقد سنحت لي الفرصة اخيراً لمغادرة الفخ الذي تعثرت فيه ايامي ، بينما ترتع شقيقاتي مع ازواجهن بالبحبوحة والامان في اقطار العالم الراقية . . وانا ساقطة في مدينة موسخة بالانفجارات . العنف . شبح الفقر ، قوافل البؤساء . القلق . خيبات الامل . الزجاج المحطم . الاحباب المتناثرة اشلاؤهم . . ووداد التي لن تعود . وزوجي الخارج من سجن الى آخر دون ان يدري بالضبط لماذا واين ، ومن ضد من ، ومن مع من ، ولماذا . . . آه ذلك الاحمق الذي كنت اعشق ،

والآن لم اعد اعرف شيئاً . . احببته بجنون ذات يوم لانه رائع لا يقول الا الصدق ، كما علمه والده القروي . ولم اكن ادري ان مبرر حبي لـه سيتحول يـوماً الى مبـرر بؤسي معه ! . . والمصائب كلها التي تعرضت لها واسرتي ، كانت نتيجة مباشرة لاصـرار هذا الاحمق على قول الصدق او ما يتوهمه صدقاً اينما كان كيفما كان . . . . مطالباً بـ « حريته في الحـوار » ! الاحمق ! من يحاور متـراسـاً ؟ من يحـاور خبـراء تعـذيب وامـراء طـوائف السادية ؟) . . .

انها لم تخلق لذلك كله منذ البداية . .

. . . ولكن . . كان ما كان . . وها هي الآن تخطو خطوتها الاولى في ارض الحلم ، في مقصورة الدرجة الاولى بطائرة متجهة صوب اوروبا . جنيف . . جنيف بالذات . .

الرجل اللطيف في المقعد خلفها ساعدها على وضع حقيبة يدها في المكان المخصص لذلك ، وبدا في عينيه ذلك البريق الذي اشتاقت الى وهجه وكادت تنساه : بريق الاعجاب الرجولي الفحل المسكوب في قالب التهذيب (الجنتلمـاني) . تعبت من بيروت وعـالمها الخشن المتوحش الخاوي من اي عزاء .

(الاثرياء لطفاء ، ينامون جيداً ويأكلون جيداً ويجدون بالتالي الوقت والمزاج لتذوق امرأة جميلة مثلي ورعايتها . . الناس الذين تضمهم هذه المقصورة هم الذين أتمنى ان يحيطوا بي وأعيش معهم بقية أيامي) .

صحيح انها باعت كل ما تملكـه من حطام الدنيا لتغادر بيروت ، بما في ذلك حليها ومجوهراتها الثمينة التي تلقتها من ابويها واهلها الاثرياء هدية زواج ـ قبل ان تأكـل نيران الحرب معظم اموالهم ـ ، لكنها استطاعت الحصول على مقاعد لاسرتها ، واضطرت لشراء بطاقات الدرجة الاولى حين افهموها ان مقاعد الدرجة السياحيـة محجوزة كلهـا مقدمـاً لاسابيع . . منذ الليلة الاولى للاجتيـاح . واستطاعت اخيـراً جر زوجهـا الى « الطريق الصحيحة » ، طريق النجاة ، حيث يتفرغ لاسرته ولبناء مستقبله قبل فوات الاوان . . شكراً للحمقى الذين حاصروه وقرروا تصفيته وهم يتوهمونه شخصاً خطراً . . لولاهم لما استطاعت جره من « سويسرا الشرق » التي تحترق بالجميع الى « سويسرا الغـرب » التي تنتظرها بسلامها الآمن المستقر ، وما تبقى من اسرتها بعد مصرع وداد .

(آه وداد . تراني انسى غصتي بها ، تلك الطفلة التي قتلت بيد عربية وحماقة رعناء لا تغتفر ؟ وكيف اتوهم انني سأنسى او اغفر ؟ اول البارحة ، بل قبل ذلك بيوم ، بالضبط

بعد ظهر الجمعة يوم بدأت الغارة الاسرائيلية الاولى على « المدينة الرياضية » ، احضرت جارتي مساء اشلاء طفلتها ندى بعدما قتلت في باص المدرسة على طريق خلدة . . . بكيت معها طويلاً . بكيت بغصة على وداد وبكت هي على ندى ، ووعيت ان طعم الموت ليس واحداً حقاً . ومصرع الحبيب على يد العدو موت له معنى ، ومصرعه على يد « اهل البيت » موت عبثي . . . ندى شهيدة . . ووداد ضحية . . ولكن يجب ان اغادر ارض الاحزان تلك وانسى . . . يجب ان انسى اذا كنت قد صممت على امتلاك حياة جديدة) .

وهي قد صممت بكل نبضة في شبابها على ذلك . .

وجه انيق يتلصص عليها من مقعده الامامي . . . تعرف وجهه . .

(يا الهي . . انه نديم الغفير . . . نديم الثري المحظوظ المقيم في العواصم الاوروبية كلها مرة واحدة . . . نديم جارنا الذي المحه يزور ابويه العجوزين المصرين على البقاء في البيت العتيق وبيروت المقبرة . . ما اغرب الناس) . . .

تبتسم له . تتذكر انها جميلة تشتعل سحراً ، وشيء ما في نديم يذكرها بشهواتها المنسية الى مقابض الابواب الذهبية والطائرات الخاصة والصالات المرمرية ومعاطف الفراء ، والاقراط الماسية ، والـ « كريديت كاردز » والـ « اميركان اكسبريس » و « الكافيار » والـ « بيلون » و « الكريب سوزيت » والـ « لانغوست » وكل ما يوحي به حضور نديم الغفير . توقظ زوجها غير النائم ، المعذب بصحوه السري وهي تهتف هامسة قدر الامكان : « انظر من معنا في الطائرة . . الاستاذ نديم الغفير » . . . يلتقط نديم كهاربها الممتلئة نداءً مسحوراً كأغاني عرائس البحر ، ويقف في مقعده متأهباً للذهاب اليها وتحية زوجها ! . . .

وما يكاد يضع سيجاره الضخم بين شفتيه حتى تدخل المضيفة من جديد جارّة عربة الشراب مفسدة تلك (اللحظة المباركة) . . لكن بطاقة نديم تستقر بين اظافرها الحمر الطلاء ـ بعدما شارك الركاب (اللطفاء) في نقلها من يد الى اخرى ـ ، مكتوبة بماء الذهب ، تحمل مجموعة ارقام هاتفية وعناوين مكاتب عدة توحي بالوجاهة ، وعبارة مختصرة بحبر اخضر :

« سيسعدني اتصالكما بي » .

يصمت خليل . تتورد كفى سعادة. لقد ظنهما اثرياء . انهم (مثله) من فئة ركاب مقصورة الدرجة الاولى وهم بالتالي يستحقون ضيافته بجدارة . . يكشر خليل في محاولة

بائسة للابتسام . . لو يعرف كم هم فقراء مذعـورون . المستقبل امـامهم ستارة سـوداء مسدلة . طفلاه يرفضان تناول الطعام لا تعففاً او بطراً ، ولكنهما لم يشاهدا من قبل هذه البيوض السوداء المرعبة كالنمل الميت الملقبة بالكافيار ، ولا يقدمان على التهامهـا ـ رغم الجوع ـ خوفاً من عضاتها ! . . اما ثيابه المهلهلة ، فليست من قبيل نزوات الاغنياء . . انها حقاً افضل ما يملك ! . . .

يغمض خليل عينيه من جديد ، كأن جفنيه ستارة يسدلها بينه وبين العالم الخارجي ويختبىء خلفها ليطوف في مسرح احزانه .

(الناس الذين تضمهم هذه المقصورة هم الذين اكره ان يحيطوا بي ، او اعيش معهم بقية ايامي . . ولكن . . ها انا داخل « كبسولة » واحدة ونديم الغفير ، الرجل الـذي احتقر كل ما يمثله من « لاقيم » . . الرجل الثري الناجح ، المغترب الساطع ، الذي يبيع كل شيء . . . الاسلحة والنساء والشعوب والطائرات والنفط و . . .

نديم الغفير الذي يقصفون بيت ابويه وبيتي وبيوتنا جميعاً بأسلحة يبيعها هو وامثاله ـ ومن وراءهم ـ للاطراف كلها . . .

ورفاق المقصورة لهم كلهم وجه نديم الغفير . . . والمقصورة ستظل تهيم بنا في الفضاء بأبدية مديدة من الاذلال لي . . . كأنني منذ الخطوة الاولى التي غادرت فيها بيـروت ، وضعت قدمي في المكان الخطأ ، وجالست الذين كدت ادفع حياتي ثمناً لانني طالما وقفت ضدهم) . . . .

تهتف كفى مستثارة : انظر يـا خليل . . اننـا نطير فـوق (المون بـلان) اعلى قمم الالب . . .

حدق في المساحة البيضاء الشاسعة ، وشعر انه يركض وسط الثلوج ممزق الثياب ، وحيداً ، يعوي ويسقط والانهيارات تغطيه . . . والثلج يسد منافذ جمجمته ويحشو فمه . . . ثلج وظلام . . . . وهو ابن الرمال والشمس . . آه ثلج وظلام . . . .

« وجدت عجوزاً تعقد الماء بالماء وتعقد النجم بالسماء وتعقد البحر بحيتانه وتعقد التاجر بميزانه قاطم لاطم بحق من قال للسموات والارض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا أتينا طائعين عقدت ذكرك يا نديم الغفير عن كافة المخلوقات من ذكر وانثى عقدة يهودية نصرانية مجوسية لا يحلها جن ولا جنية ولا إنس ولا إنسية » .

استنشقت دنيا الغفير رائحة البخور وسرت رعدة شماتة في جسدها الممتلىء نصف المترهل حينما ذكر الفلكي وطفان اسم زوجها . . . وبدا المكان مغارة خرافية من الظلال والتهاويم ، حتى انها حين غادرت الغرفة واغلقت الباب خلفها ، دهشت لوجود رقم فوق بابها . . . . وبعدما تجاوزت الدهليز ، توقفت امام المصعد الذي انفتح على مصراعيه فجأة . . . كانت تتوقع بعد تلك الجلسة جبالاً تتسلقها وغابات بدائية تقطعها .

ها هي الآن في ردهة الفندق السويسري الفاخر . . . تغادره وتجد نفسها في احد شوارع جنيف ، ومقابل الفندق ما زال ذلك البناء الشاهق منتصباً حيث كانت تعمل منذ ثمانية عشر عاماً قبل ان تتحول الى زوجة مليونير . . . ايام كانت تدرس وتعمل وتقرأ الكتب وتشاهد المعارض وتنصت للموسيقى وتحصي نقودها عدة مرات قبل التورط في شراء رف جديد لمكتبتها ، ايام كانت تفتش في الصحف عن اشياء اخرى غير عناوين (العلماء الروحانيين) و (الفلكيين) ايام كانت تلتقي مع « قرّاء الثقافة »لا « قرّاء الفناجين » . . .

صوت يناديها من الشرفة القريبة بالطابق الأول. يا إلهي كيف نسيت ان ليلى السباك تقطن هنا، في (شارع البوديه) المقابل للباب الخلفي للفندق؟ ترى هل شاهدَتْها تغادره ؟ ماذا ستقول للست « للي سبوك » كما ينادونها هنا بدلاً من ليلى السباك ؟ . . .

اختفت ليلى عن الشرفة . . ها هي الى جانبها تقول بأسلوبها الخاص المتأرجح بين ذروة اللؤم والبراءة ، وتجاهل العارف والسخرية : « عرفت انك قادمة للتبضع من حينا . .

سأرافقك الى السوبر ماركت » . . . اذن شاهدت (اللئيمة) سيارتها المتوقفة هناك ، ورصدتها كما تفعل اية صديقة لدودة بعد عمر من المحبة والشماتة المتبادلة . . ولكن ، هل جاءت لتقول لها فقط ـ دون ان تقولها ـ انها شاهدتها قادمة من الفندق اياه ؟ ام انها تضمر امراً آخر اكثر ازعاجاً ؟

تأملتها دنيا بحسد حائر . . . لا ريب انها في الاربعين من عمرها على الاقل . . . مثلها تقريباً . . لماذا تبدو اللعينة اصغر سناً ؟ الأنها مطلقة سعيدة معشوقة ؟ . . . الأنها نحيلة ورشيقة وكل ما فيها يرقص حرية . . شعرها الطويل ونظراتها اللامبالية شبه الساخرة ؟

« معذرة . . يبدو انك في حينا لشأن آخر . . . » .

اكدت دنيا : لا . . ابداً . . نديم يصل مساءً من بيروت ، وقد جئت لانتقاء بعض اشيائه الصغيرة المفضلة من طعام وشراب . سيزورنا بعض اصدقائه . . .

(حسنا لن اذكر لها شيئاً عن الحفل الكبير في بيتنا الليلة . . . لا اريد ان ادعوها . . ربما كنت اغار منها . . . ربما) .

هل كانت ليلى ساخرة حين اكدت برصانة : « الحب الزوجي يتغذى بحنان الزوجة . . وطعامها » .

سألت دنيا في اهتمام مفتعل محاولة تبديل ايقاع الحديث : وانت ماذا تفعلين هذه الأيام ، منذ تركت عملك كموظفة ؟ سمعت انك انخرطت في حقل العمل الخاص . . . الديكور على ما اظن . . .

ردت ليلى : انا الآن متفرغة لرغيد الزهران . لقد كلفني امر الاشراف الكلي على حفل « ليلة المليار الاول » . . . تعرفين ما اعني . . الديكورات . . الطعام والشراب . . . توجيه الدعوات . . . .

شهقت دنيا وعجزت عن اخفاء دهشتها . نعم . انها تعرف جيداً ما تعنيه ليلى . . مليون فرنك سويسري من الربح الخالص على الأقل أو أكثر . . والمزيد من العلاقات العامة في عالم اصحاب الملايين . الخبيثة (عملتها) . . ظننتها تطارد زوجها نديم تمهيداً لهجر الحبيب امير النيلي ، واقلقها ذلك ، ولم تكن تدري ان نديم هو (الواجهة) فقط والوسيلة للاقتراب من رغيد الزهران . ولماذا الساقية اذا قدرت على تملك النبع . نبع الذهب : رغيد الكبير . . . . انه (ضرب) العمر . . . **(وها هي ليلى قد « عملتها » كما نجح من قبل زوجي نديم . . ولكن ليلى كانت دوماً رجلاً بمعنى ما . . الا فيما يتعلق بالغالي امير) . . .**

لم توفر دنيا الضربة الاخيرة في نقطة الضعف الوحيدة المعروفة عن ليلى وسألتها : ما رأي امير النيلي بعملك الجديد هذا ؟

لقد اصاب السؤال مقتلاً . هذا واضح ، لأن ليلى لم تجب بغير الصمت او بعبارة مرادفة للصمت : دعينا نسرع . . . بدأ المطر يهطل وسنفسد تسريحة شعرنا .

ودنيا تعرف مدى لا مبالاة ليلى بتسريحة شعرها او طيات سروالها (الجينز) الذي فاجأت به الحضور ليلة رأس السنة . . . والنساء متبرجات مرتديات افخر الثياب الحريرية والمخملية والحلي والتيجان المربوطة الى تسريحات شعر باهرة . . . يومها دخلت ليلى وحيدة ، بشعرها الاسود الكثيف الذي مشطته الرياح وزينته زخة مطر ، وقد ارتدت بنطلون (الجينز) وفوقه معطف قصير من فراء الفيزون الاسود المضيء (البلاك دايمند) سارعت الى خلعه لتبدو في قميصها السبور واصابعها العارية من المجوهرات مثل طالبة هاربة من المدرسة . . . وقد احاطت عنقها بسلسال حديدي دقيق تدلى منه قرش اثري عتيق مثقوب استقر بين نهديها . . .

في تلك الليلة لاحظها رغيد الزهران . . . وبدا شديد الاهتمام بذلك القرش العتيق ، وتطوع زوجها نديم الغفير بصفته احد رجال رغيد ومساعديه بارتداء نظارات القراءة ومحاولة ترجمة الحروف نصف الممسوحة عن القرش الفريد ، كما تطوع للمهمة عدد كبير من اثرياء الحفل . . . التهموا بنظراتهم القرش الطريف ، والصدر الناهد الشهي الذي يحمله .

الشيطانة . . . لقد عرفت ـ رغم فقرها النسبي ـ كيف تخطف اضواء السهرة ، وتقطف الاهتمام وتطفيء بريق ملايين الدولارات المسكوبة في حلي النساء . . . بقرش واحد عتيق تصعب قراءة كلماته الطلسمية في الضوء الرومانسي لذلك الحفل الوجيه . . . واين حدث ذلك كله ؟ في بيتها هي . . . لقد دعتها لتساهم في (ترطيب) جو الحفل ، فالمطلقات نصف الفقيرات ضرورة للرجال المسنين الذين تمرض زوجاتهم عادة ليلة حفل رأس السنة . . . ولكن اللعينة استطاعت ان تكون نجمة الحفل . . بقرش واحد فقط لا غير . . . (**انه الحظ . . الحظ يا سيدنا الشيخ وطفان . اذن اصطادت رغيد الزهران . . رغيد شخصياً . . اكبر سمكة قرش في عالم المال ، اصطادته بقرش !**) .

الله يا دنيا . . . رغيد يريد دعوة اصحاب الملايين والمليارات للاحتفال . . . بحصوله على ملياره الأول ، وليلى ستتولى امر الحفل ، وتحصد مليونها الاول مقابل خدماتها . . . الله يا دنيا ، وهي التي كانت تخشى على زوجها منها ؟ زوجها نديم ليس اكثر من سردينة صغيرة

في بحر رغيد . . . وصار على نديم ان يخشى الآن منافسة ليلى بدلاً منها .
الله يا دنيا . .

(لقد حققت اللعينة ما تصبو اليه دونما وساطة رجل . انها امرأة تعرف كيف تتمسك بأخطائها مباشرة ، وهذا هو الصواب فيما يبدو . . اما انا فقد عملت خادمة لرجل تمارس الآن ليلى مهنته ببساطة . . عملت خادمة لـ (قيس) بدلاً من قطف الثروة مباشـرة . . ولكن لا . . يوم تزوجت نديم كنت احبه . ثم . . . ثم لم اعد اذكر . . . كأنني لم اكن اقصد ان افعل ما فعلت . . كأن ايامي كلها كانت غلطة املائية) . . .

وصلتا امام باب « السوبـر ماركت » . قـالت دنيا فجـأة : يا الهي . . لقـد نسيت « بيكاسو » عند الحلاق . . . يجب ان اعود لاصطحابه ، وسيعود سائقي فيما بعد لشراء ما يلزم من طيبات . . .

ـ ومن هو بيكاسو ؟

ـ انه كلبي الجديد . . هل نسيت ؟

فهمت ليلى الذكية معنى تشاوف دنيا بثرائها وكلبها المترف وسائقها . . بعد عمر من الصداقة اللدودة بين النساء يصبح لكل كلمة بريئة مدلولها الشبيه بوخز الدبابيس . . . .

ردت ليلى الضربة بسرعة ، ساخرة من (امتلاء) جسـد دنيا وتـرهلها وقـالت : يا الهي . . وانا نسيت موعدي في نادي اللياقة الجسدية (الفيتنس كلوب) . . .

وقبل ان تفترقا بسرعة امام باب « السوبر ماركت » لتمضي كل في درب مختلفة ، قالت ليلى موجهة الضربة القاضية : واليوم ايضاً يوم الاثنين . . والشيخ وطفان يستقبل الزبائن في الفندق . . . ما رأيك في ان اذهب اليه لـطلب تعويـذة تجلب الحظ ؟ ام انك لست من زبائنه ؟ . . .

اذن تعرف اللعينة انها تذهب اليه ! . . . وقد هبطت من شرفتها لتفهمها ذلك . . . كم تمقت تلك الحرة المتعجرفة وتتمنى لها الشر . . . .

وقبل ان تفترق (الصديقتان) ، قبلت كل منهما الاخرى بحرارة على وجنتيها عـدة مرات ! . . .

●●●

يعرف أنهم يطاردونه . .

يحدس حضورهم العدواني بالحاسة نفسها التي تنبهه الى سقوط مفاجىء في أسعار هذه الأسهم أو تلك ، وارتفاع مفاجىء في قيمة الذهب والـدولار والين والباهت والمارك والدينار وعملات هذا الكوكب كله . .

تغادر السيارة مكتبه الفخم في قلب جنيف التجاري ، متجهة نحو الضاحية حيث قصره الذهبي .

لا يتأمل نهر الرون البديع . لا يحدق في أشجار البحيرة وبجعها ومراكبها ، ولا يطيق (المناظر الطبيعية) . .

يعرف انهم يطاردونه . .

ثمة من يرغب في قتله . .

إنها نتيجة منطقية : رجل بمثل ثرائه ، سيحتفل بعيد امتلاكه لـ (المليار الأول) من الدولارات بعد أسابيع . . من لا يشتهي قتله غيلة ، غيرة على الأقل ؟

استرخى فوق مخمل سيارته الرولزرويس ، وتناول كأساً من ماء النار ثم اغلق البار الصغير المذهب . حدق في قبعة سائقه المائلة قليلاً ، وزجره طالباً منه أن يحسن ارتداءها . . حدق في الرأس الحليق لحارسه الشخصي فلم يجد فيه ما يستحق الزجر رغم شهيته لذلك . كثيرون يرغبون في قتله . . بدءاً بسائقه هذا ، مروراً بأعز أصدقائه وربما حراسه وانتهاء لرجال الذين دمرهم اثناء صعوده الى القمة ، وداسهم كدرجات السلم واحداً بعد آخر لفاً بعضهم في السجون وبعضهم الآخر في المصحات أو المقابر أو البيوت الفقيرة التي تلهج سنة أصحابها باللعنات عليه . . . والنساء . . . نسي النساء أيضاً . . كثيرات تتراكم وههن بعضها فوق بعض مثل رسوم على« البلكسيجلاس »الشفاف طبقة فوق اخرى ولا من هذا الكوم المرعب غير وجه له عشرات العيون والافواه المتقاطعة والشهقات . .

لهم يكرهني ، حتى كلاب حراستي . . . تبادلني كرهاً بكره . . . كرهاً علنياً من بكره سري من جانبهم . . هل من صيغة أخرى للحب ؟

وانا استمتع بمباهج الكراهية دونما خجل وامارس طقوسها الوضيعة بكل فخر . . لم ج وانجب اولاداً كي لا اضطر للتظاهر بحبهم . . . وانا الآن نادم ، ليتني انجبت داً أمارس واياهم الكراهية المتبادلة دونما ارتباك . . فأنا ثري استطيع ان اكون وحشاً

دون ان احاضر عن الانسانية ، وداعراً دون ان أحاضر عن الفضيلة ، ووغداً دون ان أتشدق بوفاء الصداقات الابدية . . والفارق ليس كبيراً جداً بيني وبينهم كما يحلو لهم ان يتوهموا . . كل ما في الأمر ، انني قادر على الاعلان عن مخالبي ما دمت أحمل دفتر شيكات اوراقه قادرة على حمل رقم مليار دولار) .

يعرف انهم يطاردونه . .

يتمنى لو يعرف اسم قاتله . . طالما استحلف الشيخ وطفان ليقرأ في كرته الزجاجية الشفافة اسمه . . طالما احضر له الزنجار والزرنيخ الاخضر والزنجفر والكافور والسنبل البغدادي وقلب ديك أزرق ولبانِ ذكر وبزر ريحان وبخوراً ليكتب له اسم قـاتله ، لكن الساحر اللعين ـ او الجني الذي يتملكه ـ يسخر منه باستمرار ولا يكتب له في المنـدل الا اسمه : رغيد ، ولانه يحب نفسه حتى العبادة ، ولا يمكن ان ينحرها ، فقد وظف وكالة تحريات للتأكد من ان أحداً من الذين يقتربون منه لم يحمل اسم رغيد يوم مولده . .

ورفع قناع الاسماء المستعارة عن شهادات ميلاد معاونيه جميعاً قديمهم وجـديدهم ، مقيمهم وعابرهم بـدءاً بنديم الغفـير وانتهاء بهـاني وعبد الغفـور وانطوان وحتى خـادمه نسيم . . وساحره نفسه ايضاً . . ولم ينس شريكه الحالي صخر الغنمالي وشقيقه والشركاء كلهم من السابقين واللاحقين . . . ولم يلح في الافق حتى الآن اي « رغيد » سواه . . .

ثمة من يرغب في قتله . . . وهو لن يجعل المهمة سهلة . . . إنه يشتهي ان يقتل سكان الكرة الارضية كلها لحظة موته . . . وهو لم يخف ذلك يوماً ، لكنهم جميعاً يعتبرون قوله هذا نكتتهم المفضلة . . .

حينما يقول الثري حماقة ما يُعتبر (اوريجينال) ويضحكون لخفة دمه . حينما يقولها فقير يعتبرونه وقحاً وسمجاً . آه كم يكره الفقر .

(اذا كنت وحشاً فأنا من صنعهم) !

السيارة تتوغل في الغابة المجاورة لقصره ، ويرى بحيرة ليمان تتوهج بذهب الغروب الذي أشعل قمم الاشجار . . إنه لا يحب المناظر الطبيعية الا حين تلونها الشمس بلون الذهب . . . يكره البحيرة ويحب الذهب . . . يكره الاشجار لانه لا يستطيع ان يمشي فوقها ويدوسها بقدميه ويحب العشب . . .

(ذلك البستاني اللعين يجب ان أطرده . . . لقد زرع شجرة خلسة في حديقة قصري المحظر زرع الاشجار او الازهار فيها أو كل ما يعلو عن الارض غير العشب . . لقد ادعى

البستاني ان الشجرة انبثقت وحدها ولم يطاوعه قلبه على قصها وهي صغيرة هكذا . . وادعى ان الازهار البرية تنبت وحدها في الربيع وسط العشب ، على الرغم من مقصاته وماكنات « حلاقة » الخضرة ، وكل ما ازوده به من أدوات حديثة لحفظ صفاء عرق العشب ، ونسله الذي يحني رأسه بكل خشوع حين أدوسه . . ذلك السائق السويسري اللعين ايضاً ، ضبطته مرة وقد أدخل طفلاً الى حديقتي وأخفاه في بيت البستاني . . . وهو يعرف ان ادخال الاطفال ممنوع لانني امقتهم . قال انه ابنه ، وتحدث عن عيد ميلاده الذي يصادف ذلك النهار ، وغير ذلك من الاعذار التافهة التي يتذرع بها البشر العاديون السخفاء للتهرب من اداء واجباتهم بدقة ساعة سويسرية) .

يتنهد رغيد مشمئزاً . يمس زراً عله يرى في التلفزيون ما ينسيه تفاهة البشر . .

يرى الحرائق تملأ الشاشة . منظر لطيف ، يرى القصف ، ومعركة جوية ، وموتاً وذعراً ونيراناً تلتهم الابنية . . وانفجارات مروعة . . والمذيعة الفرنسية تتحدث بأسى عما يدور في بيروت معلنة مصرع أحد زملائها المصورين في المعارك هناك .

(كنت اعرف انني ابيعهم بضاعة جيدة . بضاعة ممتازة للاطراف كلها . سيزداد عدد زبائني . . تجارة السلاح أفضل من تجارة اللحوم . . كنت اظن امور الغذاء اكثر اهمية من السلاح . . فجميع الناس يأكلون ثلاث مرات على الاقل كل يوم ، ولكن يبدو انهم في هذا الزمان يقتلون اكثر من ثلاثة اشخاص في اليوم ، وعدد الذين لا يأكلون غير وجبة في اليوم يتزايد . . فأشعلها ايها القدر تحت الشعارات كلها ، والغايات كلها فاضلها وحقيرها نبيلها ووضيعها . . اشعلها حرباً اينما كانت وخراجها عندي ، وستتحول الجثث المحروقة وآهات الارامل ، والسواد حول عيون الاطفال الى ذهب براق . . يصب في بركة سباحتي) .

يمس الزر ثانية ليسكت التلفزيون ، مطمئناً الى ان كل شيء على ما يرام بالنسبة اليه ، فيسمع المذيعة تعلن عن إقفال مطار بيروت الدولي بعد ان دارت معارك طاحنة فوقه بين الطائرات السورية والاسرائيلية . . وقصفت اسرائيل الطائرات الجاثمة على أرضه ، باستثناء طائرات قليلة تمكنت من الاقلاع قبل وخلال احتدام المعارك . .

اللعنة . اذن لن يعود نديم الغفير من بيروت الليلة ؟

وستتأخر الصفقة الكبيرة التي أرسله من أجلها ؟ اذا لم يأت ذلك الوغد سباحة من بيروت عبر البحر المتوسط والانهار ، سيسلخ فروة رأسه ويعلقها الى جانب جلود بقية

حيوانات مجموعته .

تضيق انفاسه . كيف يجمع ملياره الثاني اذا كانت الامور ستمضي في ايقاع بـطيء كهذا ؟ يمس زراً يفتح النافذة الى يمينه ، ثم يسارع الى اغلاقها خوفاً من رصاصة . . ويقبع مطمئناً داخل سيارته المصفحة ضد الرصاص ، بينما تفتح له أبواب قصره بعد لحظات من الاجراءات الامنية ، ثم تغلق خلفه . . الأسوار المحيطة بحديقته مكهربة لابعاد المواشي عن املاكه الخاصة ، لكن مشهد الاطفال الذين يتكهربون بها ، ويتلقون صدمة موجعة غير قاتلة أمر ممتع حقاً . . تلك الدهشة المتوجعة التي تبدو في عيونهم لحظة مس السور ، تذكره بنظرات الجميلات لحظة يتلقين أمر الطرد من فراشه بعد أن تمسه يد الرعشة مباشرة . .

يدخل الى قلعته الذهبية ويشعر بالأمان . . يحبها هكذا ، ضيقة النوافذ ، نصف معتمة ، محشوة بالكنوز والأسرار ، وببكاء الصبايا العذراوات لحظة تنفيذ عقد شراء البكارة ولحظة الطرد . . ولكن عددهن يتناقص كثيراً هذه الايام ، صارت العذراوات من القطع النادر ، ومن يدري ، فقد يضطر الى استيرادهن عما قريب ! . .

يستقبله خادمه اللبناني نسيم ويقول : اتصل بك الاخ سري الدين . . . عدة مرات . .

ـ من هو سري الدين ؟

ـ ألا تذكره ؟ انه الطالب الذي تبرع لك بكليته منذ عام . .

ـ تعني الذي اشتريتها منه بنقودي . . . فلماذا اذكره ؟ هل تتوقع مني ان اذكر كل بائع اشتري منه حاجة ما ؟

ـ معذرة . لعلك تذكر انه كان فقيراً وباع كليته ليدفع اقساط الجامعة ونفقات علاج امه لا ليؤسس تجارة بثمنها . . لقد نفدت نقوده وأمه ما تزال تتعذب بعد اخراجها من المصح . وهو يتوسل الي منذ ايام كي تمنحه دقائق يكلمك فيها . . السرطان يا سيدي يفترس أمه . . انه موجع . .

ـ لست طبيباً ، فلا تزعجني بهذا الأمر ثانية .

ـ وقد انهارت صحة المسكين منذ تبرع ـ أعني باعك ـ كليته . لم يعد يملك ما يكفيه للعناية بنفسه بعد العملية كما ينبغي . . . نفقات علاج أمه ، وأقساطه الجامعية وأدويته ، اعادته اكثر فقراً مما كان عليه قبل العملية . . .

جلس رغيد على مقعد حريري مذهب المقابض ، واسترخى بنشوة حين لامست

أصابعه الجلد البراق ، الدافىء البرد ، للذهب ، واجاب بكثير من اللامبالاة : هذا ليس شأني لانني لست جمعية خيرية . لقد عقد سري الدين صفقة ، وككل عملية بيع وشراء الخسارة ممكنة كما الربح . . . وقد خسرت تجارة صاحبك . . .

ـ اخشى ان يضطر لبيع مذكراته الى « شارلوت بارنز » . . . تعرفها تلك الصحافية الاوروبية المتخصصة بنشر فضائح العرب . . . انها تلاحقه منذ أيام ، وصحيفتها تغريه بمبلغ كبير . . . أخشى ان يضعف امام اغرائها يا سيدي . . تذكر كم كانت أصداء مقالها عن حياة الشيخ صخر الغنمالي سلبية . . .

هرولت السحب المعتمة داخل عيني رغيد ، أما بقية ملامح وجهه الصخرية فلم تفصح عن ومضة قلق لولا ارتجافة في الشفتين شبيهة بابتسامة سخرية ، ام تكشيرة حقد ؟ لم يدر نسيم ، لكن صوت رغيد جاء كعادته بارداً محايداً لا يعبر عن موقف عاطفي : « لا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام » . . . لا يدري نسيم لماذا شعر بقلق غامض . عبثاً حاول ان يستعيد في خاطره صورة رغيد كعجوز مريض مضحك ، متزوج من اعجابه بساحره ، يأكل وحيداً طعامه الخاص بالريجيم في غرفة المائدة (الطقوسية) الفخمة الأصولية ، ثم يتسلل ليلاً الى برادات المطبخ ويقف أمامها وهو يلتهم الطعام الشهي سراً وبشراهة . فكر بذعر : كون الرجل عجوزاً مريضاً طريف العادات لا يعني بالضرورة انه غير مؤذ .

فعاد يسأله مرتاباً : ماذا تعني يا سيدي؟

كرر رغيد ببطء : لا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . .

ـ كما تشاء . . .

ـ هل عاد الشيخ وطفان من الفندق ؟

ـ وصل قبل قليل ، وطلب مني عدم ازعاجه ، وابلاغك انه سينفذ مضمون مذكرتك . . ناولته اياها لحظة دخوله . . .

ـ هل عاد نديم من بيروت ؟

ـ الاستاذ نديم ؟ سألت عنه منذ نصف ساعة وقالت زوجته انه لم يصل بعد من بيروت . . .

ـ ثابر على الاتصال به كل نصف ساعة ، واذا وجدته قل له ان يحضر حالاً . . . والحق بي الى بركة السباحة ، ولا تنس احضار « دواء الضغط » كالعادة . . .

ـ ولكنني لست انـا الذي ينسى الـدواء . انا احضـره اليك بـاستمـرار وانت تنسى ابتلاعه . .

ـ « الحقني » به . . كلما نسيت اركض خلفي . مهمتك ان تتذكر . اني ادفع لك راتبك مقابل استئجار ذاكرتك أيضاً . .

ـ ولكن . . .

ـ هل علينا تكرار هذا الحوار كل مساء . . . هيا اغرب عن وجهي .

كظم نسيم غيظه ، وتذكر فقره ، واسرته ، ومدينته التي تحترق ، وحاجته الملحة الى عمله ، فجاء صوته كزفرة بركان : أمرك يا باشا .

واخيراً قالهـا « يا بـاشا». للمـرة الأولى يسمعها منـه . لقد نجـح في إذلاله. داسه كالعشب ، وقص أشجار كبريائه . امتلأ قلبه غبطة . . كم هو ممتع ايلام اولئك الحمقى الصغار الذين يمقتونه ويتوهمون انهم يخدعونه . .

نهض عن مقعده . اتجه صوب الهاتف . . . لم يلحظ ان نسيم كان يرهف السمع عبر الباب . . ولم يسمع نسيم ما قاله رغيد في المخابرة الهاتفية الخاطفة نصف الهـامسة . . . ولكن خيل اليه انه سمع اسم « سري الدين مختار » ام تراه كان واهماً ؟ استولى على قلبه ذعر غـامض ، فرغيـد لا يؤجل شيئـاً ، وهـو يعـرف نمط الاعمـال الشـريـرة التي يتحمس لأدائها . . . أم تراه يبالغ في شكوكه ؟ يكاد يفقد صوابه في هذا القصر المذهب الرهيب ، بين تعاويذ الساحر في جناحه الخاص ، ووحشية رغيد الناعمة الملمس في الجناح الأخر . . . لا طفل في هذا البيت . لا امرأة حقيقية ، وانما بضائـع تعبر السبيـل بين البـاب والممر فالباب ، في المسافة بين الرعب والدموع ، بين الفقر والشراهة الكسول . . . وهو يركض خلف الجميع ليكنس بقايا الدمـوع والكحل والكلمـات التي لم تقل ، وروائـح البخور المعششة في الزوايا تحول المكان الى معبد ذهبي تقدم فيه ضحايا بشرية في عبادة وثنية وحشية الطقوس . . .

●●●

« عزمت عليكم يا معشر الجن والأبالسة والجنود والعفاريت والشيـاطين إن كنتم في

مشارق الأرض ومغاربها احضروا سكان الفيافي والمجازر والمقابر والسوف والطرق والبروج والمعروج اين ميمون الغمامي اين ميمون السحابي ، أين شمهورش الطيار أين برقان اليهودي اين الملك الأبيض المعظم اين الملك الأحمر المعظم أين صاحب العمامة السوداء اين صاحب البغلة الدهماء اين الذي فيه الف رأس وفي كل رأس ألف وجه وفي كل فم ألف لسان وكل لسان يسبح الله تعالى بلغات لا تشبه بعضها بعضاً . . .

بعينين مغمضتين يتلو الشيخ وطفان تعاويذه التي حفظها (عن ظهر قلب) من كتبه العتيقة بعدما مارس المهنة زمناً ما . . .

عامان ؟ ثلاثة اعوام ؟ لم يعد يذكر . . . صوته يعلو ويخفت وهو ينادي اتباعه وأعوانه ، يهمس كأفعى تارة ، ويزمجر كأسد تارة اخرى . . . ولحظة بعد لحظة ، يشعر كأنه يغادر جسده الأرضي ، ويستحيل الى حضور هوائي . مائي . ناري . تتعاقب تقمصاته . يهب عبر السهول والجبال والمحيطات مخترقاً حاجز المكان والزمان ، ويتدفق سيالات روحية كهرطيسية جبارة تتحرك طليقة في الكون بسرعة السنوات الضوئية ، وقد تجتاح روحاً أخرى وتعطبها . . .

« علكش بطط لهوشل مطيعوش بطريقوش يطفريوش بطبطيقوش مكشلاش الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . .

. . احرقه يا ميططروق بحق طحيطمغيليال وبحق آل شلع يعو يو بيه بتكه بتكفال بصعى كعى مميال بمطيعي لك يا آل جل زريال احترق . . .

احترق ايها المارد الظالم لنفسه . . . احترق . . . احتـ . . . »

لا يدري ماذا دهاه . انه يتلعثم وعبثاً يلفظ عبارة « احترق ايها المارد الظالم لنفسه . . . احترق » . كأن في خصمه الذي ينوي احراقه قوة روحية خاصة خارقة تصد الكيد عنه وتصفّحه . . كأنه يستعصي على الابادة . . . عبثاً يتابع قراءة تعاويذه التي لم تعد تعني كلماتها ونصها (الحرفي) الكثير له ، بل صارت بمثابة نوطات موسيقية تساعده على شحذ اوتاره الداخلية ، وضبط ايقاعها ، وشحنها بالتسارع والقوة لتتطابق موجاتها ويلتقي بثها وقوى كونية طليقة اخرى . . . ويسخرها . لكنه عبثاً يعاود تركيز طاقاته ، ويطلق كهاربه لتحويل ذلك « المارد » الى رماد . . فعضلات لسانه تتشنج ، والشوك ينمو بسرعة فوق حباله الصوتية . . والم حاد ينشب مخالبه في عينيه وهو يحاول عبثاً التركيز على صورة لا مرئية داخل كرته الشفافة . . . ولم يعد في قدرته الاستمرار . . . وكأنما أعاده الألم الجسدي الى

حقيقته المادية الأرضية ، غطى وجهه بيديه وأغلق بهما الجمرتين الملتهبتين اللتين لا يدري أية قوة زرعتهما في موضع عينيه . . . تأوه وسأل كرته : ما سر هـذا الرجـل العجيب الذي يستعصي على سحري ؟ للمرة الأولى يستعصي انسي على سحري . . .

الكرة المسحورة لم تجب . . عادت كتلة زجاجية ميتة كأشياء الغرفة الباقية الهامدة . . . واشتعل فضول الساحر . . . كيف يحدث ذلك له . . . ما السر ؟ . . .

من يصفح ذلك « المارد » الذي توهمه مجرد أرضي بائس آخر ؟ من يتدخل بينهما ؟ . . .

(اعطاني رغيد صورة رجل وقال : هذا خصمي الاعظم والاوحد . . اريد ابادته . . شعرت بالدهشة وانا أحدق في الصورة . . كانت تمثل رجلاً عادياً يشبه اي رجل عربي في اية مدينة وقرية . . . رجلاً مألوف الوجه كأنني أعرفه منذ زمن بعيد . . كل ما في ملامحه لا يلفت الانتباه ، لكنه في الوقت ذاته يذكرني بمن عرفت في وطني . . برفيقي في المدرسة الذي نسيت اسمه ، ببائع الكعـك بالسمسم الجوال ، اسكافي الحي ، خادم الجامع ، اخوتي وأبي وأهلي . . . غمرني غم مفاجىء ، واستيقظ رجل نائم في داخلي وقال « لا » وعاد الى نومه . . .

- من هذا الرجل ؟

- لا اعرف ! . .

غريب أمر رغيد الزهران اليوم . لماذا يخفي عني سراً صغيراً كهذا ، وهو الذي باح لي بأسماء أمراء وحكام يريد ازاحتهم من درب (مشاريعه) بالسحر او الكيد ؟

- من هذا الرجل يا باشا ؟ ما اسمه ؟

ناديته يا باشا تحبباً ، فهـذا اللقب يروق لـه رغم انه ليس مصـرياً ولا من سـلالة الباشاوات . . .

كرر الاجابة ذاتها : لا اعرف . كل ما أعرفه هو انه خصمي . .

- ما دمت لا تعرف من هو بالضبط ، لماذا تريد ان نؤذيه ؟

- لانه عدوي الاول . . وأحدنا يجب ان يموت .

- ماذا تعرف عنه ؟

- كل شيء ، ولا شيء .

- يا باشا ، ما اسمه ؟

- ما الفرق ؟ ألا ترى انني قصصت صورته من احدى الصحف الصادرة في بيروت ؟

ـ ولماذا لم تحتفظ بالاسم وقصصت الصورة من دون الخبر ؟
ـ اسمه لا يهم . له ملايين الاسماء . . وملايين الوجوه . . كلما قطعنا رأساً نبتت موضعه العشرات الافعوانية . . كم أمقته . .
ـ ما حكايته ؟
ـ تقول الصحيفة انه مفقود ! . .
ـ شاب مجهول صغير مفقود في بيروت . . ماذا يقلقك في الأمر يا باشا وانت في قلعتك الحصينة في سويسرا ؟ ربما كان المسكين قد خطف أو ذبح والتهمت الكلاب بقاياه . . . ربما هاجر الى اوستراليا ولم يبلغ اسرته . . ربما . .

قاطعني رغيد : لا . . امثاله لا يهاجرون ولا يموتون . . انه موجود في مكان ما يكيد لي ويحيك المؤامرات ضدي . . حتى ولو هاجر ، فلن يفعل شيئاً آخر هناك . . وسيعود . .

أضجرني ، وعهدي به خارق الذكاء . . صارحته : تعرف ان سحري أقل فعالية اذا لم استعن بالحسابات الفلكية لاعرف الابراج التي تتحكم هذه الأيام بأهوائه . . . اريد كالعادة اسمه واسم امه وتاريخ مولده . . . صورة في صحيفة لا تكفي لتحقيق مرادك على أكمل وجه . .

لن أنسى كيف ارتجفت شفتا رغيد واحتقن وجهه وهو يبوح لي باسم خصمه . . ودهشت ، فالاسم مألوف وشائع جداً . . لكن تاريخ مولده صعقني ، اذ كيف يفوق سن ذلك الشاب الصغير آلاف الاعوام ؟ . . .

حين عزمت على صورته كنت اظنني أقدم خدمة هينة عابرة لرغيد ، بل خيل الي انها احدى مداعباته .

ولكن قوة خارقة تصفح ذلك الشاب المجهول الذي زلزلني . . .

آه كم انا منهك . . . انفاسي تضيق . . . وذعر غامض يجتاحني . . . انني خائف . . خائف كما كنت مع الناس من زمان ، قبل ان آنس لصحبة الجان . . .)

●●●

حين احتوت المياه الذهبية رغيد ، شعر برعشة خارقة من النمط الذي لا تقدر النساء

على منحه اياه . . . انه هنا يضاجع الذهب شخصياً ، الذهب المائي الدافىء ، الذهب الصولجان والترياق . . الذهب الذي طليت به بركة سباحته ، تلك التحفة المعمارية التي ساهم بنفسه في التخطيط لها . . . وشاهدها تنمو امام عينيه كطفل ذهبي لم يحب سواه . . كان مهندسه يريد للبركة شكل نجمة البحر المخمسة الاذرع ، فطالبه بأن يكون عدد الاذرع ثمانية ، وان يجعلها مقوسة . .

(خشي المهندس من ان يصير للبركة شكل الاخطبوط الذهبي . اكدت له : هذا هو المقصود بالضبط . . . أريد بركة مطلية بالذهب لها شكل الاخطبوط . .

ـ ولكن ، لماذا الاخطبوط لا نجمة البحر ، او حصان البحر اذا شئت . . .

ـ وهل انت ضد الحب ؟ سيكون بوسع ضيوفي العشاق الاستمتاع بضيافتي بصورة افضل . . . سينفرد في كل ذراع عاشقان ، تخيل ثمانية ازواج من العشاق ، وانا في المنتصف ، في موضع الرأس ارقب حبهم المذهب وأباركهم . . أليس ذلك لطيفاً ؟ . .

بدت الدهشة على وجه المهندس . لم يكن يعرفني رومانسياً ، ولم يصدقني . كان على حق في ذلك . من قال له انني اسمح لامرأة بتدنيس ذهب بركتي او الهبوط اليها ؟ . . يستطعن ان يسبحن خارجاً في البركة الاخرى المرمرية التي تتوسط الحديقة من الناحية الاخرى . . . اما هنا ، فلا . . صحيح انني لا ارفض الجمع بين عشيقتين في سريري في آن ، لكنني ارفض ان تكون « الحبيبة ـ الذهب » احداهن . . . اني مخلص في عشقي للذهب ، لا اشرك به حبيبة اخرى . . . ولن ادع اية انثى ، حتى « بو ديريك » او سواها من سيدات الـ ١٠/١٠ ان تجرني إلى خيانة الذهب على مرأى من بريقه ووهجه وعظمته . . . فكر المهندس طويلاً بصمت ثم افسد علي متعة افكاري وقال : ولكن الادوية المطهرة في ماء البركة قد (تأكل) معدن الذهب . .

ـ سنعيد طلاءها كل ستة اشهر . . . كل يوم . . لا يهم . . .

ـ ما رأيك ببعض التماثيل والتحف الفنية لتزيين زوايا البركة ؟ . . تماثيل نساء جميلات وأطفال و . .

ـ لا أريد نساء ولا أطفالاً . اريد تماثيل مذهبة تمثل العملات النقدية . . اريد تمثالاً للدولار وآخر للفرنك السويسري فالمارك فالين فسواها . . . ثمانية تماثيل ذهبية ، تمسك بها انحناءات (اذرع) البركة الثمانية . .

ـ والسلم ؟

ـ اريده من الذهب الخالص . . واريد ان تأتي الاضاءة من قاع البركة وجوانبها ليتأجج بريق المياه وينعكس على الجدران ظلالاً حية متحركة كأنها ارواح ذهبية استحضرها كلما حركت جسدي في الماء . . اريد ان يكون لون (الموكيت) المحيط بالبركة ذهبياً ، وقماشه غزير الريش كالعشب . . المقاعد اريدها مذهبة ، والمساند من (البروكار) الدمشقي المذهب . . . اريد حديقة نباتاتها من الذهب تحيط بالمقاعد بين الاذرع الثمانية للبركة ، وقبة زجاجية شفافة تغطي المكان ، زجاجها ضد الرصاص ومرشوش بطبقة رقيقة من رذاذ الذهب (السبراي) بحيث تبدو الدنيا عبر نوافذي كوكباً خرافياً من ذلك المعدن الحي الراعش الباهر الجاذبية لي وللملايين سواي . . . واريد قاعدة ذهبية لتمثال سأحضره بنفسي . . قال المهندس مرتبكاً : وكيف تحمي هذه الثروة الذهبية من السرقة ؟ ستكون بركتك غنية مثل « فورت نوكس » . .

ـ فليكن بابها شبيهاً بأبواب البنوك المصفحة ، وحدي اعرف الصيغة السرية لفتحه . . .

قال المهندس مازحاً : وهل تريد باب هذه التحفة المعمارية من الذهب . . .

قلت له : من الداخل ، أريده مطلياً بالذهب . . .)

لقد انفق رغيد ثروة خرافية لتحقيق حلمه ، ولكنه ليس نادماً . . هنا فقط ، داخل هذا الرحم الذهبي المياه والجدران يشعر بالامان . . يعوم وسط البركة ، ويعلو رأسه وتتموج المياه مع حركات جسده تحت الماء فيبدو الاخطبوط حياً ، تتوسطه عينا رغيد ، تدوران في محجريهما تحلمان بفريسة الغد . . .

كم يحب ان يسترخي هنا . . . هنا لا يعود جسداً نصف مترهل تفترسه الشراهة . . ضغطه الشرياني لم يعد مرتفعاً . قلبه لا يهدد بالتوقف . قامته ليست قصيرة . لم يعد رغيد الزهران . لم يعد في الستين من عمره . ليس مصاباً بالسكري الى جانب امراضه الاخرى . عيناه ليستا مهددتين بالعمى . لم يشتر كلية رجل آخر ولا يعيش بأعضاء مستعارة . وليس بحاجة الى سيجاره الضخم العريض كإعلان عن فحولاته المتعددة ، او كبديل عن عصا الماريشالية بينما هو يقود جيشه الهائل من المرتزقة والمخصيين والحمقى المخلصين الذين هم في دربهم ليصيروا خصياناً .

هنا لم يعد له زمان ولا مكان ولا تاريخ . . . انه الزمان والمكان والابدية . لم يعد الابن الشاطر للتاجر الميسور سامي الزهران المهدد بالافلاس رعباً من قوانين التأميم وعبد

الناصر ، لولا تولي الابن مقاليد الامور في الوقت المناسب . . . هنا يتجاوز كل شيء الى حقيقته : العظمة الكلية المتجاوزة لتفاهات البشر كلهم من حب وألم ومرض وموت . . . وفي محرابه هذا يجد الشيء الوحيد الذي يقطنه ويستولي عليه : الكراهية . الكراهية المقطرة للآخرين لانهم لا يستحقون بحماقاتهم غير ذلك . . . هنا لا يعود بحاجة الى ساحره . . ولا يعي صلعته . . لا يشعر بقصر قامته الذي يجعله يحيط نفسه بمساعدين قامتهم تميل الى القصر (قدر الامكان !) ، ولا يدعو الى سهراته متزوجاً بامرأة فارعة الا مضطراً ، لكنه لا ينتقي لفراشه غالباً الا « الزرافات » . هنا لم يعد هارباً من وطنه الاصلي لحظة اطل شبح التأميمات . . هذه البركة وطنه ، ومنها يمارس عداوته الحاقدة على الثورات العربية وشماتته بمعظمها . . هنا لم يعد رغيد الاعزب ، لانه متزوج من بركته وسيجاره ، ولماذا يتزوج وزوجات الآخرين طوع يديه ، وبناتهن احياناً . . . هنا لا يرتجف ليلاً خوفاً من البرق والرعد ما دام عاجزاً عن شرائهما وتطويعهما . رائحة فمه ليست كريهة . جراحه لا تتعفن هنا قبل ان تشفى . . هنا يستعيد ذاته المنهوبة من قبل عالم متوحش رباه منذ صغره على دروس القسوة ، فحفظ الدرس جيداً وهو المؤهل له بقسوة داخلية فطرية . . هنا يرجع عنصراً فريداً الى جانب العناصر الأخرى المائية ، الترابية ، الهوائية ، النارية . . هنا ينتمي الى العنصر الاكثر جبروتاً ، العابث بأقدار الرجال منذ اقدم العصور : الذهب . . الذهب المتربع فوق قمة العناصر الأخرى . . والكل يسجد له . .

حتى اميز النيلي وامثاله من « الراديكاليين » الذين يقضون عمرهم في التبشير بشروره والاعلان عن كراهيتهم له ، هم اسرى حضوره الدائم المهيمن سلباً او إيجاباً . .

(آه كم احب هذا المكان . . هنا اشعر بالامان الكامل . . بالسطوة المطلقة والحرية المطلقة والبهجة اللامتناهية ، وبنشوة الابحار في محيطات الذهب ، نشوة لم أعرفها في مرافىء أجمل النساء ومجاهل أعماقهن . . هنا أحس بنشوة العافية النضرة . . .)

يدخل نسيم فجأة ، وهو يحمل صحناً من الذهب تتوسطه كبسولة الدواء .

يصرخ به رغيد كمن سقط فجأة عن شجرة عالية : أيها اللعين . . لماذا جئت . . لماذا تضايقني . . .

ـ أحضرت لك كبسولة الدواء يا سيدي . .

ـ أي دواء . .

ـ دواء ارتفاع الضغط . .

ـ ضغط من ؟
ـ أنت . . انت طلبت مني ألا أنسى . . .
ـ اغرب عن وجهي أيها اللعين . . .

كم يكره نسيم . يزداد كراهية له يوماً بعد آخر ، وهو لذلك يزداد تمسكاً به ويزيد له راتبه . . نسيم ، ذلك الوغد الصغير الذي يتوهم انه يخدعه وهو لا يدري أنه كشف سره . . يعرف انه يتابع دراسته في جامعة جنيف سراً . . ويعرف انه يتتلمذ على يدي عدوه البغيض أمير النيلي . . ومخبروه يعلمونه بكل زيارة يقوم بها للجامعة أو الى أمير متسللاً متوهماً ان سيده لا يدري . . .

لو يدري نسيم أنه لم يحتفظ به لأمانته ، ولا لرفضه اللجوء الى العنف ـ كما في تقرير مخبريه ـ وانما لصلته بأمير . . انه ببساطة يستطيع عن طريقه ابلاغ أمير بما يتوهمه سراً خاصاً . . . يضلله . . كم يكرهه . . ذلك المتعجرف المطارد المنفي من بلده . . وكم فرح حين نجا أمير من محاولة اغتياله : لو مات لخسر فرصة تعذيبه ثانية وثالثة . . . هذه المرة سيؤلمه عبر ليلى . . . وفي المرة الثالثة سيجد اسلوباً آخر . . . المهم ألا يموت دفعة واحدة ، كي يقتله مرات عديدة .

(صار له وجه رجل ميت . . كان يحدق في التمثال ، ويقرأ على قاعدته توقيع والده الفنان مفيد النيلي ، وتاريخ نحته « خريف ١٩٥٦ » واسم التمثال « المناضل » ، ثم عبارة اخرى ممحية كان النحات قد خطها فيما يبدو ثم بدل رأيه . . وكنت قد عرفت حكاية هذه العبارة ، واعرف ان أمير يعرفها ، لكنني اريد ان اسمعها من فمه . . أريد ان ارى وجهه وهو يموت خيبة وقهراً . . . يومها طلبت منه ان يزورني لأنني ارغب في اصدار مجلة عربية جديدة أسخرها لقول الحقيقة ! صمت وتخيلت وجهه خلف الهاتف ، وانسكبت دهشته من السماعة بين يدي . . . وعرفت أن صنارة الدهشة قد نجحت في صيده وستقوده الي . .

جاء . استقبلته في وكري الذهبي المفضل ، في بركة السباحة . . كان واضحاً انه لم يصدقني . لم يصدق انني سأصدر مجلة لقول « الحقيقة » اجعل منه رئيساً لتحريرها . . جاء ليعرف ماذا اريد بالضبط منه . . حدق فيما حوله مذهولاً فغاضباً ، وجلس على المقعد الذهبي الذي قدمته له وجلست امامه ، وقبل ان يفتح فمه سارعت وتحدثت بالنيابة عنه : تريد ان تقول ان هذا الذهب يكفي لاطعام جياع العرب وتعليمهم ولا يحق لي

احتكاره . . .

ـ تقريباً . . .

ـ وتريد ان تقول انك لا تصدق حكايتي عن المجلة التي انوي اصدارها واعرض عليك رئاسة تحريرها . .

ـ تقريباً . . .

ـ وتريد ان تعرف السبب الحقيقي لدعوتي اليك ، ورغبتي في لقائك . . .

ـ تقريباً . . .

ـ خصوصاً وانك في كل ما تكتب خصمي ، وتقف ضدي وضد كل ما امثله . .

ـ بالتأكيد . .

ـ حسناً . . سأدعك تتأمل المكان جيداً ، وستكتشف وحدك ـ إذا كنت ذكياً حقاً ـ سبب وجودك هنا . . .

تركته ، وخلعت (البرنس) الابيض المطرز بخيطان الذهب وهبطت الى البركة في ثوب استحمامي الذهبي الحنون ، وحين توسطت أذرعها الثمانية شاهدته ينهض عن كرسي ذهوله ، ويدور ببطء في المكان مثل فريسة تفتش عن درب للهرب . . لا بد لي من الاعتراف بتوقد ذهنه ، بسرعة تجاوزه صدمة الذهب ، ورغم الاضاءة المنسكبة على وجهه نهراً من النار ، تعلقت نظراته بالشيء الوحيد الذي يبدو ناشزاً في المكان . . . انه التمثال الذي طلبت من مهندسي ان يوضب له قاعدة ذهبية ، وأحضرته بنفسي من سجنه في كهوف القصر ، بعدما سجنته داخل أحد الصناديق زمناً طويلاً . . . وقد سوره المهندس وفقاً لاوامري بقضبان الذهب لا لحمايته فحسب ، بل ليبدو سجيناً في قفص يليق به . . . أمير يدور حول التمثال . صار له وجه رجل ميت . . . وسعدت بالمشهد وتحركت في مياهي بعنف ونشوة فارتجفت أذرع البركة . ونظر إلي بحقد لكنه لم يقل شيئاً . . . ضايقتني قدرته على الصمت . اردته ان يتوجع بصوت عال ، ليزداد استمتاعي باللقاء ، فقررت استفزازه : والدك نحت هذا التمثال . . . أليس كذلك ؟

ـ ربما . . .

ـ بالتأكيد . . . لا أحد ينحت مثله . . . واي خبير فني مبتديء يستطيع ان يؤكد ان التمثال هو الأصل . .

ـ ربما . . .

ـ ماذا يمثل هذا التمثال ؟

- « المناضل » . . أليس ذلك ما كتبه عليه صاحبه الذي نحته . .
- نعم . . ولكنك تعرف ان هذا التمثال هو لجمال عبد الناصر . . . أي شخص أميّ يلقي نظرة عليه سيقول لك ان هذا هو عبد الناصر . .
- حسناً . . وماذا بعد ذلك ؟
- ما هي الكلمات الممحية على قاعدته . . ماذا كتب والدك ثم ندم عليه ومسح حروفه بإزميله ؟
- لا أدري . . .
- انك تدري وتتجاهل . . . الناس كلها تعرف الحكاية . . لقد اعجب والدك بعبد الناصر ، يوم أمم القنال في عيد الثورة ، في يوليو ١٩٥٦ ، وربما قبل ذلك ، لكنه بالتأكيد نحت التمثال وكتب على قاعدته الاهداء له ، ورفض بيعه رغم فقره لانه قرر ان يهديه للاجيال . . .
- لا أدري . .
- لقد سمعت الحكاية بالتأكيد فلماذا تتجاهل وتتستر على جرحك وعيوب أمثالك من (الثوريين) ؟ . . . لقد غضب والدك فيما بعد على ممارسات عبد الناصر اللاديمقراطية وقهره ان الثورة لم تكرس الحرية ، بل ورثت الممارسات القمعية التي كانت تدّعي انها جاءت لتزيلها . . .

- . . . . . .

- وذات ليلة كلها غضب وقهر ، محا الاهداء عن قاعدة التمثال احتجاجاً على طرد رجل من عمله واعتقاله من قبل زوار الفجر تعسفاً . .

- . . . . . .

- وهكذا حوصر والدك في رزقه . . وطرد بدوره من المجلة وكاد يتهم بالتجسس والعمالة . . واضطر الى بيع التمثال كي يتابع تعليمك ، وقد تصادف ان الرجل الذي اشترى التمثال كان والدي ! . . .

- . . .

- ومات والدك بعدها بأشهر قهراً وكمداً . . وبعد وفاته تم تكريمه ومنح وساماً ، وبالطبع تم تعليقه على تابوته . . .

- . . . . .

- لقد فعل والدك مع عبد الناصر ما فعله بيتهوفن مع نابليون . . . لقد اعجب بيتهوفن

في البداية بنابليون كممثل للثورة الفرنسية ، فكتب السيمفونية الثالثة واهداها اليه ، ثم كرهه فيها بعد حينما نصب نفسه امبراطوراً ، متحولاً في نظره من ثائر الى طاغية ، فسحب الاهداء واسمى السيمفونية (هيروييكا) اي « البطولة » . . . ونابليون لم ينتقم من بيتهوفن . . . اما عبد الناصر فقد انتقم من والدك . . .

ـ لم يكن عبد الناصر الذي انتقم ، بل بعض الاجهزة وقد اخفوا الخبر عنه . . .

ـ انت تعرف ان ذلك ليس صحيحاً . . ولكن المفكر الوحدوي الكبير أمير النيلي لن يرضى الاعتراف بهذه الحقيقة المرة . . وحتى اذا كانت (أجهزة) عبد الناصر هي التي اقدمت على قتل والدك قهراً وفقراً ، فذلك لا يعفيه من المسؤولية . . .

ـ . . . . .

ـ شعاراتكم جميلة وممارساتكم بشعة . . وانت تلعب مع الجماهير دور الطعم البراق . . . تجرهم الى الموت عبثاً من أجل أوهام . . .

للمرة الأولى اراه غاضباً . اشتعل وجهه بالدم الفائر ، وبدا ذلك واضحاً رغم الاضواء الذهبية المنسكبة عليه ، وقلت له اشياء كثيرة . . . أشياء واشياء ولكنني فشلت في استفزازه ثانية أو جره إلى نقاش مباشر . . . ذلك اللعين يعرف كيف يحمي جراحه في بئر السرية والكتمان . .)

دخول نسيم من جديد قطع عليه متعته البالغة في تذكر بقية الحكاية . . .

صرخ رغيد غاضباً : ماذا تريد ايها اللعين . .

ـ الطباخ يقول ان العشاء جاهز . . هل تريد ان احضر لك ابرة « الانسولين » الى هنا ؟ . .

ـ اغرب عن وجهي ايها اللعين . . . اخرج من هنا . . انك تحضر دائماً في الوقت الخطأ . . كأبناء طبقتك جميعاً ! .

* * *

خرج نسيم ، ولكن رغيد تابع صراخه : اوغاد . . حمقى . . غوغائيون . . لا تفهمون شيئاً عن براعة التوقيت . . .

(كان والدي خبيراً في التوقيت يوم اشترى تمثال عبد الناصر . . . ولكن التمثال لم يحمه من زحف شبح التأميمات لقد اشتراه لا حباً بعبد الناصر ، وانما خوفاً منه . . ولم

يزايله الخوف حتى بعد شرائه . . . والحق يقال ان والد أمير النيلي لم يبعه الا بعدما أبدى والدي شهية للحصـول عليه . . ومبلغاً خرافياً ثمناً له . . . فقد كان مفيد النيلي فقيراً منذ أيام الملك ، لم يكن من زبائن البلاط ولا رساماً للحاشية وحتى لو كان مصرياً واتيحت له الفرصة لما فعل ذلك . . ومـع ذلك قهره الذين أحبهم وقتلوه كمداً ، وهذا أقل عقاب يستحقه هو وامثاله من عشاق (الثورات) . . . أما أنا، فأتقنت توظيف التمثال في الوقت المناسب . . . وجمعت المليون الأول بفضله وكنت ما أزال شاباً يعمل تحت جنح والده . . . كانت الفكرة بسيطة : ما دام والدي مذعوراً من عبد الناصر ، فهذا معناه ان بقية التجار والاثرياء مذعورون أيضاً . . . وهكذا صبيت بمعونة فنان نصف موهوب آلاف النسخ عن التمثال . . . وأرسلت بائعاً جوالاً الى مكاتبهم يعرض على كل منهم شراء نسخة (يزين) بها مكتبه . . . لم يبق ثري سوري واحد في الشهر الاول للوحدة ، الا واشترى نسخة صدرها في مكتبه ودفع ثمنها باهظاً . . . لم يجرؤ أحد على الرفض . . . ظنوا أن (مدير مبيعاتي) هو أحد أفراد المخابرات ، وان شراء التمثال ضريبة مفروضة ، ولم يجرؤ أحد على الرفض . . وانتشرت تماثيل عبد الناصر في سوريا . . . وحصلت عـلى مليوني الـذهبي الأول . . . وحـين قتل صـانع التمـاثيل ومـدير مبيعـاتي ـ رحمهما الله ـ في حـادث سير « غامض » ، مات السر معهما ، ولم يسمع به أحد الا حين رويته للمرة الاولى لأمير في تلك الزيارة التي لا أشبع من استحضارها في ذاكرتي . . . صحيح ان الكاميرا السرية صورت لي على شريط الفيديو كل ما دار وقد شاهدته عشرات المرات حتى سئمته، لكن شريط الذاكرة لا يفقد روعته . . . وكلما استعدته كلما طربت له وازددت نشوة . . .) .

يدخل نسيم ، فيصرخ به رغيد قبل ان يفتح المسكين فمه : اغرب عن وجهي . . . اخرج حالاً . . اللعنة عليك وعلى أمثالك . .

●●●

(اني قلقة . . . ماذا لو لم يحضر ؟) . . .

تدور دنيا بين ضيوفها الوجهاء ، وقد سمعت للتو نبأ اغلاق مطار بيروت . . وتتابع طقوس الضيافة الفاخرة ، يواكبها فريق من الخدم أحسنت تدريبه . .

(ترى هل أقلعت طائرته أم انه سيبقى هناك مع والديه في البيت العتيق ، ويقتـل مطموراً معهما ، بعد ان تحولا الى ما يشبه الجذرين الهرمين اللذين يشدانه ابـداً للعودة معرضاً حياته للمخاطر ؟ . . والمهمات الخطرة كلها التي تتطلب تنفيـذاً في بيروت هـل يذهب نديم اليها طمعاً في المال حقاً ، ام رغبة غامضة في الالتصاق بذلك المكان الذي ما زال يحن اليه سراً وينفي بشدة هذا الامر ؟ . . . لماذا يصر على بقاء حضوره حياً بين صحبه وجيرانه هناك ؟ لماذا يصر على احاطة نفسه بالذين يعرفهم في بيروت ، يـدبر لهم المهن والوظائف ، ويرسل الهدايا باستمرار الى الباقين الرافضين الهجرة . . . السجائر المفضلة لهذا . . . الساعة الالكترونية التي يدعي ذاك انه لم يجدها في بيروت . . . ثياب لطفل رفيق الدراسة المولود حديثاً . . خاتم هدية رواج لرفيق الطفولة . . . الثياب الفاخرة لتتبختر بها امه في ذلك الحي الفقير ، والكل يسألها من اين هذا وتقول بفخر : ابني نديم . .

يريد ان يظل اسمه حياً هناك ، كأن حياته هنا مستعارة) . . .

تبتلع كأساً من ماء النار . صحيح انها عاهدت نفسها على التوقف عن ذلك ، امام الناس على الأقل ، بعدما صار أمر ادمانها موضع سخرية المدمنين الاكثر سريـة منها ، ولكنها تحس الليلة باضطراب بالغ . . .

(هل انا حقاً قلقة لغياب نديم ، ام انني قلقة من عودته ؟ هل انا خائفة عليه ام خائفة منه ؟ هل جعلتني زيارتي السرية للشيخ وطفان أعي الى اي درك هويت ، ام انه مقر عملي القديم . . . وتلك اللحظة البائسة المشحونة بانهيارات منجم العمر المنسي الدهاليز ، حين وقفت في منتصف الشارع ، اتأمل الى يميني الفندق الفاخر ، مقر الشيخ المؤقت حين يغادر مقره الدائم في قصر رغيد لقضاء حاجات الناس ، والى يساري المبنى الشاهق الآخر يوم كنت استيقظ في السابعة صباحاً كمعظم الناس وأهـرول لاكسب رزقي ، وكنت شابـة وسعيدة ومفعمة بالآمال والحيوية والطموح . . آه ماذا فعل النجـاح بنا ؟ . . . مـا هذا السقوط المروع الى القمة ؟ ما الذي دمرني ؟ وكيف انتهيت امرأة حاسدة حاقدة مفعمة بالخوف والغيرة تلجأ إلى السحرة والجان لتحتمي بهم ، بعد ان كنت شابة عاملة سعيدة تلطخ الاصباغ الزيتية اصابعها بدلاً من وجهها وترسم ، وتنفق راتبها في شراء قمـاش اللوحات بدلاً من قماش الثياب ؟ . . كيف انتقلت من رصيف العمل الى رصيف الفندق السري ؟ . . ماذا فعلت بك الدنيا يا دنيا ؟ ماذا فعل الثراء بك وبنديم ؟ كيف تركته يطلق على اصابعك رصاصة من ذهب ؟) . . .

تدور دنيا بين ضيوفها (ضيوفي ام ضيوف زوجي الذي وقته اموال ، ولن يضيع دقائق منها في تحيتي وسؤالي عن اوجاع روحي ، وانما سيذهب من الطائرة الى فراشه مروراً بحفل الكوكتيل الذي يراني فيه عرضاً كأي مدعو آخر غريب ، ولا يشكرني كما يشكر اي مستخدم آخر) . . يبدون اليوم مسرورين بها . المضيفة المبتسمة الصامتة هي الزوجة المثالية في اجواء كهذه . فلتعترف : انها تمقتهم . آه كم تمقتهم . لقد امضت اعوامها الأخيرة مع اشخاص لا يربطها بأحد منهم شيء حقاً . لم تفتح مرة قلبها لأحد منهم . لم تقل كلمة كانت تشتهي قولها ، ولم تمس اداة اللغة ولو مرة في معرض التواصل ، وانما تقول ما يفترض قوله لتسهيل تحصيل فواتير نديم ، وتوقيع عقود عمله . لم تجلس واياه منذ قرون في مقهى على شاطىء البحيرة المقمرة . (لست رومانسية ، ولا افتقد حقاً المقهى والقمر والبجع والقبلات الملتهبة . افتقد الجوهر . افتقد الحوار . . اينما كان ذلك اننا نتكلم ولا نتحاور) ، الوقت يتورم ويترهل وهي تهرول ولا تفعل شيئاً . ترافق زوجة ثري الى السوق ، او الى المستشفى بعد تحديد موعد للقاء طبيب شهير او الى (سمسار) البيوت لشراء فيلا ، وتدعو آخر الى العشاء واسرته او عشيقته او احدى (نجمات) العشق وفقاً لمزاج الزبون ومقتضيات العمل . . . وها هي الآن تقطن تلك الفيلا الفاخرة ، (المتواضعة بالنسبة الى قصر رغيد) ، فوق تلة الاثرياء المشرفة على « كيه غوستاف آدور» ومدينة جنيف ، وبحيرة ليمان تحت اقدامها . . وفي اعماقها طائر يرتجف محتضراً . .

ضيوفها يتحدثون اليها بشراهة وهي تهز رأسها بلطف كالدمية المزينة الصماء ، ونظراتها معلقة باللوحة التي تتصدر الجدار خلفهم ، والتي تمثلها قبل لقائها بنديم . . . لقد كانت اللوحة آخر ما رسمت ، وعلى غرار الفنانين العظماء كلهم الذين كانت تعجب بهم وتحاول ان تحذو حذوهم ، في ذلك الزمان الغابر ، رسمت نفسها في (سلف بورتريه) مجسدة في لوحتها كيف ترى ذاتها ، بل وكيف ترى الذات التي تتمنى ان تكونها . . .

ما اعظم الفارق بين وجهها الآن ، ووجه فتاة اللوحة . . . الفارق بينهما ليس السن وحده، ليس ثمانية عشر عاماً بل ثمانية عشر قرناً من الانحطاط . . . اين تلك النظرة في العين الحادة الشرسة المفعمة عزماً وتصميماً على الخلق ، من نظرة عينيها التي تواجهها في المرآة الملاصقة للوحة ، نظرة امرأة ليس لديها ما تفعله في الحياة ، خائفة ، حائرة ، خائبة ، مختبئة تحت قشرة من الرياء الامومي لأمومة لا تكفي وحدها لملء حياتها ، والاخلاص الزوجي بفعل الكسل والذعر لا الحب . . .

هذه اللوحة ، اهدتها لنديم في لحظة حب جارف قبل زواجهما ، ايام كانت موظفة صغيرة في ذلك المبنى الشاهق ، تعمل وتتابع دراستها للفن وعينها على الوطن ولحظة العودة ، وكان هو مهاجراً جوالاً في اوروبا ، يتأبط فقره وسحره وحبه الكاذب للفن وشبابه الفياض ويبحث عن الثروة، طائراً بين بيروت والغرب . . . حملت اللوحة اليه بنفسها الى المطار لحظة وداع غابرة ، اهدته اياها وهي تهديه نفسها وحقيقتها ، فعاد بعدها في اليوم التالي ليتزوج منها ، دون ان يتوقف لحظة بعد زواجهما عن طيرانه المحموم خلف طائر الفرصة الذهبية . . .

(واقتنص الطائر واضاعني) . . .

هل كان ضرورياً ان يحمل اليها اللوحة من بيروت في رحلته السابقة « ليفرحها بها » - على حد تعبيره - وذلك خوفاً عليها من الحريق ؟ . . . ومن يومها اشتعل الحريق في اعماقها ، واللوحة تخاطبها حين تتمل، وتسألها ماذا فعلت بها كما تسألها الآن ؟

(ما الذي فعلته بتلك الشابة الصغيرة التي كنتها ورسمتها ذات يوم ؟) . . وجهها في اللوحة ، ووجهها في المرآة الملاصقة للوحة ، وجهان مختلفان لامرأتين لا تمت احداهما الى الأخرى بصلة . . ايهما وجه اعماقها ؟ ام انها ايضاً امرأة ثالثة تجهلها ؟

ابتلعت دنيا كأس ماء النار الخامسة ، وأحد كبار ضيوفها يروي لها حكاية عن عظمته وخلوده ، وحماقة كل من حوله ، ولولاه لانهار العمل ولأفلست المدينة ولسقط كوكب الارض من مداره ، وهي تهز رأسها مؤكدة وتبتسم (معجبة) ، فتزداد سعادته بالمستمعة المثالية الصامتة . . .

(آه لم اعد ادري هل اكره نديم ام احبه . هل اتمنى لو يعود او يموت . هل ستكون حياتي بدونه افضل أم انني ألفت الكسل الوجداني وتحولت الى جزء من هذا الوحش الملون الخرافي المهرول تثاؤباً الملقب بالمجتمع الراقي ؟ . . وحش بآلاف الرؤوس المصففة الشعر المدهونة بالزيوت والعطور والوجوه القادمة من تحت اصابع خبراء المساج والزينة ، والالسنة التي تقول ما لا تعني ولو تأملت معظمها جيداً لشاهدت كيس السم المختبىء تحت فرعيها . . آه كم امقت المرآة ، وامقت لوحتي المجاورة لها . . . وارى فيهما امرأتين لم اعد اعرفهما . . . من أنا الآن حقاً ؟ ماذا ارغب في ان افعل لو كنت حرة حقاً ؟ هل بوسعي ان اطيق اختيارات الحرية ودروبها المتشعبة بعد الآن ؟ اما زلت احب نديم ؟ وان لا ، فلماذا تنتابني نوبات الغيرة الغامضة ، وتوصلني الى بائعي الوهم والسحرة ، واتوهم انه يضاجع

كل ما هو سواي . . ليلى ورغيد وكلبنا بيكاسو والخادمة وسائقه . . ؟

وان كنت احبه ، لماذا تشتعل روحي بالخيبة والمرارة حين ينفضّ عني تخدير الزحام المذهب ، وابقى وحيدة مع احزاني الغامضة اتأمل لوحتي ، ويتصاعد في روحي عزم على تحقيق امر نسيته ، وشهية الى مد جسوري مع بشر احببتهم ذات يوم ولم اعد اراهم لانهم فقراء وبيتنا لا يدعو غير الاغنياء ؟ ولماذا افشل كلما نويت ان ابدل واقعي المخـزي كما يتراءى لي احياناً ؟ ولماذا حين اقرر ان افعل شيئاً ما بحياتي الذاهبة هدراً كمياه المطر الليلي فوق ارصفة المدن واسفلتها ، ابتلع كؤوس ماء النار ، ومع كل كأس ابتلعها تتزايد نقمتي على ما فعله بي نديم ، ذلك الشخص الخطر ، الذي يلعب دور الصعلوك المنبوش الشعر مـدخن (الغولـواز) مع الفنـانين ، والثـري مدخن السيجـار المتقن (السشوار) مـع الاثرياء ، ويرتدي (الصندل) مع اليساريين ، ويحمل (الكلاشن) مع الثوار ، ويغني (الموال) مع ضيوفنا العرب البلديين ، وينشد الاوبرا مع شريكه الايطالي ، ويتحدث عن (فون كارايان) مع صاحب المصانع الالماني ، ويلتهم (الكتشاب) مع الحساء امام الزبون الاميركي ، ويرتدي العمامة والجبة مع البعض ، ويتلو (ابانا الذي في السموات) مع البعض الآخر ، ويختار السبت يوماً لعطلته حين يبرم الصفقة مع يهودي . . . كيف استطيع ان اعرف ما اذا كنت احبه او لا احبه وانا لا اعرف اي الوجوه وجهه . . . وماذا يخفي تحت هذه الاقنعة كلها . . ام ان هذه الاقنعة هي تقمصات متعددة لوجهه الحقيقي ، وليست له وجوه خارجها ، ولا وجه مستقلاً تحتها ؟ . .

ومع انتهاء الزجاجة الاولى من ماء النار اكون قد انتعشت ووضعت برنامجاً لحياتي ، للعودة الى ينابيعي وقومي وعملي واصولي ، في مجموعة من البنود وعلى رأسها الاقلاع عن ادمان ماء النار . . . وانام سعيدة . . ثم اصحو في الصباح والصداع يمزق رأسي ودوار (الهانغ اوفر) يشلني وطلبات الاولاد تطاردني والمسؤوليات والواجبات والمواعيد . . . وابتلع اقراصاً ألملم بها اعضاء جسدي بعضها الى بعض وارتقها مثل بقايا دمية مزقتها اسنان الكلاب ، واجد نفسي من جديد مجرد (برغي) صغير في ماكينة جهنمية طاحنة . . . مجرد مسمار صدىء اذا لم يتابع دورانـه داخل تلك الآلـة الضخمة المتشـابكة . انكسر . . . واتـابـع . . . واتـابـع . . . واطفـو . . . واغـرق . . . واتـذكـر . . . وانسى . . . وأحـار . . . واتأكـد من انني امقتـه . . . لقـد عبث بحيـاتنـا معـاً . . . بـاعنـا للصنم الذهبي . . . لرب الآلة . . . لا خلاص لي الا باختفائه . . . بموته . . اللعنة عليه . . ليته

لا يعود . . ليته يحترق في طائرته . .)

يفتح الباب . يدخل نديم متهللاً ، مرحباً بمدعويه . .

تركض دنيا لترتمي على صدره وهي تقول : « كم أنا سعيدة لأنك هنا » . .

سمعت صوتها ، ولم تكن تدري هل هي كاذبة ام لا . . ولم يكن ينصت . . قبلها برتابة لقاء فرشاة الاسنان بالشفتين ولم ينظر اليها بل نظر الى صدى القبلة على وجوه زوجات الآخرين ، وانخرط بينهم وحكايا مغامرات يومه الطويل والقصف واغلاق المطار ونجاته على الطائرة الاخيرة تتدفق نهراً من التظارف المتشاوف . .

***

وصول نديم جدد شباب الحفل ، وقصره عنقود اضواء . .

مغامرته البيروتية واخباره (الطازجة) اثارت ضيوفه ، وكل يحسب ارباحه او خسائره على ضوء ما استجد من الاحداث . . كفة الارباح ترجح هنا ، والجو منتعش والسرور ينشط ماساً بعصاه السحرية معظم الوجوه . . وحفل (الكوكتيل) سيكون حديث الاوساط (الراقية) . .

لم يبق ثري من (عرب سويسرا) لم يحضر . . جاءوا من زوريخ وغشتاد ومونترو وسان سيرج ومونتانا وانترلاكن وسواها ، وحتى من مراكز تجمعاتهم في فرنسا على خط الحدود الذي لا يبعد اكثر من نصف ساعة عن جنيف . . من فيرني وانماس وسان جوليان وآنسي . . و . . و . . ووزراء سابقون ولاحقون . . ملكات جمال سابقات ومطلقات وزوجات وسكرتيرات وعابرات سبيل حالمات . .

زعماء (تقاعدوا) ومعهم نصف خزينة بلدهم ، رجال اعمال غامضو المهنة والدخل قذفت بهم موجات بحر النفط في السبعينات الى شواطىء اوروبا . . متطفلون . . مفلسون لم يشع امرهم بعد ، يحاولون صيد فرصة نجاة بصنارة الاجواء (العهرية) الراقية . طبقة من محترفي « الغربة للغربة » لضرورات الوجاهة الثرية ، او « الغربة للهرب » من غضبة قومهم وعقاب شعوبهم . . وبعض نجوم « الادب » و « الفن » من الفقراء او الاغنياء ، تأكيداً لرقي هذا الجمع الكريم واحتضانه للثقافة والفكر . . وقد ينصتون بعد العشاء لفاصل من المقطوعات الشعرية بينما تروح افكارهم بعيداً ، والنساء (الديكوريات) ينشدن « آه يا سلام » ، وكل تتأوه لألف سبب وسبب لا علاقة لواحد منها بالشعر والنقد

الادبي . . . وبالتأكيد ليس في الحفل فقير كادح ـ باستثناء الخدم من غير الزوجات ـ ، او مفكر جاد او مناضل اصيل ، وان كان لا يخلو من بعض (الرموز) النضالية الخاوية من صدق الممارسة ، والتي تمتطي طائرة النضال لتمارس بهلوانياتها السلطوية والمالية والشعائرية وحتى النسائية . .

في لحظة وعي حادة ، ومـض ذلك كله كضربة برق شطرت رأس دنيا بالصداع وهي تتأمل الضيوف بذهول كأنها تراهم للمرة الاولى . . كأنها لا تدري ماذا تفعل هنا . . كأنها سقطت سهواً داخل هذا البيت من كوكب آخر .

(امير النيلي ، اول من وقف الى جانبي وشجعني كرسامة لا يمكن ان يدعى الى مكان كهذا . . الذين احببتهم حقاً واحترمتهم يرفضون الحضور حتى لو دعـاهم نديم . . . وزوجي مضيف مثالي ، لا يحب ازعاج ضيوفه بدعوة من يقلق الخاطر . . وفي الغربة كما في الوطن ، ننقسم نحن العرب الى « ابناء الست » و « ابناء الجـارية » ، والاختـلاط غير مرغوب به الا من موقع الهيمنة . . . وجارنا شحن سيارته « الرولزرويس » من بيروت ليتجنب الفقراء هناك ومضايقاتهم . . هنا يحس بالأمن وهو يستقلها بعيداً عن مخالب الجياع وانيابهم التي عبثاً يقتلعونها لهم . . آه كيف انتقلت الى هنا . . كيف انـزلقت من عالمي العتيق . . كيف) .

نديم يتأمل ضيوفه بفخر . . منذ ثمانية عشر عاماً كنت يا نديم تثمل لسماع اسمائهم . تتلصص عـلى صـورهم في صفحـات المجتمـع (المخمـلي) والـذهبي ببعض المجـلات والصحف ، وتتسكع امام ابوابهم . . بعضهم رجوته عملاً فرفضك ، وهو بالطبع لا يذكر اسمك او وجهك العتيق الذي كان نحيـلاً . . وبينهم من يرجـوك الآن خدمـة . خنت وغدرت واختلست واحنيت هامتك ومؤخرتك ومددت جسدك جسراً ليعبـر عليه رغيـد الزهران في المطر من عتبة الكازينو الى عتبة السيارة ، رغيد وصخر الغنمالي وامثالهما . . . تخليت عن كل خاسر الى غالبه . . وعن كل صديق قتيل لتلتحق بالعمـل وقاتله . . كانوا لا يبالون بك ، وتعلمت اللعبة بسرعة وصرت لا تبالي بغير ذاتك . . دونما حقد او ضغينة او عداوة دائمة او صداقة دائمة ، بل مصلحة دائمة . تخليت عن صخـر الغنمالي لتلتحق بخدمة صاحب المليار الآخر رغيد الزهران دونما كراهية للأول او محبة للآخر . . بل على العكس ، كان اعتراضك ان لصخر الغنمالي بقايا قلب ناشطة تفسد الصفقات والعمولات اما رغيد فلا تشوب عملية استئصاله لقلبه شائبة . صرت رجل اعمـال (عربيـاً كبيراً) ،

ومفتاحاً من مفاتيح ذهب العرب ، وغلاماً للخارجين من بلادهم لعرض ثرائهم وفحولتهم في الغرب ونشر لوائها عالياً في الأرض . .

صرت واحداً من مجتمع العرب الاثرياء في اوروبا والمهجر ليمتد . . المتحد حقاً في وجه كل محاولة لمس استقلاله عن كل ما يدور في الاوطان العربية من مآس ، الا من زاوية مسها للثروات سلباً أو إيجاباً . . . مئتا مليون عربي؟ مئة وخمسون مليوناً؟ثمانون بالمئة اميون؟ تسعون ؟ متوسط دخل الفرد منخفض ؟ . . بيوت التنك ؟ . الخيام ؟ . . التشرد ؟ . الجوع ؟ . هذه تفاصيل تصلح لاهتمام كاهن او مصلح اجتماعي . . وانت من فئة رجل الاعمال (البيزنس مان) المتعامل مع الواقع من زاوية اخرى . . زاوية الارصدة السرية في البنوك وهموم البورصة والصفقات والمباهج التي يجب ان يكافأ عليها رجل يمارس مهنة صعبة كهذه تتطلب تفوقاً كتفوقه . . . أنت البيروتي ابن الاسرة المتوسطة الحال الذي يجسد اسطورة التفوق ، في الحي كله . . صرت ضيفا دائما في الطائرات الخاصة الراحلة الى مدن الشقراوات والثلوج . . بثروات العرب المنهوبة . . . تواسي احياناً الاحزان المذهبة لاصحابها وهمومهم المرفهة وداخل رأسك كومبيوتر يحسب ارباح توظيفها لمصلحتك .

يدخل الخادم قائلاً بصوت نصف هامس : رغيد بك الزهران يريد ان تذهب اليه الآن . . .

يرن اسم رغيد الزهران وسط القاعة كسقوط سبائك الذهب من السقف واحدة بعد اخرى فوق ارض رخامية . . الف سبيكة لكل حرف من اسمه . . . رغيد الزهران . . . يسمع الجميع الاسم ، بصوت عال كالعاصفة . . . يخشعون ، وكلهم فقير في حضرته . . . هم اصحاب ملايين فقراء ، ملايين فقط لا مليارات ، وهو صاحب المليار المرشح للتكاثر . . . فالنقود تتناسل بسرعة وكثرة كالفقراء دون ان يدري المرء من اين تمطره بها السماء ، وفوائد الارصدة المجمدة في البنوك تتوالد بنسب اكبر من نسب توالد الفقراء وتنبت كما براعم الادغال الاستوائية ، وكذلك ارصدة الاموال المتحركة على اجنحة الاسهم النارية المالية الطالعة في سماء ليلهم كنجوم لا يرون غيرها . .

رغيد الزهران . .

يركعون جميعاً على الارض في حضرة الاسم وقد طارت في الجو غمامة ذهبية مخدرة . . وينشدون : هللويا . .

رغيد الزهران يريد نديم ؟ يا للشرف العظيم . لا حاجة به للاعتذار من ضيوفه .

يغادرهم دونما وداع ، والكل في وضع الركوع ينشد هللوياه . . . مجدوه . . حتى دنيا . . تركع وتتذكر بغصة انها كانت عشيقته لعدة ليال . . ترى هل يدري بذلك زوجها نديم ويتجاهل ؟ اهذا جزء من اخلاق المهنة ومواثيق هذه الغابة الذهبية ؟

●●●

يتوج خليل بؤسه بسيجارة . .

لم يقل احد كلمة منذ دقائق . . منذ ضمتهم غرفة الفندق بعد ذلك اليوم الطويل الطويل . . ارتمى كل فوق مقعد او سرير يحدق بذهول في الحمّال وهو يصف حقائبهم ويغادر الغرفة . . . لا يستطيع ان يصدق ان ذلك حدث في يوم واحد . . وانهم هذا الصباح بالذات غادروا بيتهم وبيروت وهربوا من موت الى آخر ، وعبروا نفق احزان الوطن تحت رصاص الصديق فقصف العدو ، فطائرة تتسلل بهم عبر معركة جوية كما في الافلام الحربية الرديئة لمبالغاتها . .

والشمس لم تغب بعد . . الشمس ذاتها التي كانت تشرق على ذلك الرعب كله ، تسطع الآن فوق ذلك البهاء الذي يطالعه من النافذة . . ويردد مذهولاً « كله في يوم واحد . . ما زلنا في اليوم ذاته . . الاثنين » . ينظر عبر النافذة دون ان ينهض عن مقعده : ثمة بحيرة خارقة السحر والهدوء ، غارقة بين الأزهار الوادعة والخضرة الهادئة وسكينة تتفجر من المرئيات كلها . . ايمكن ان يكون ذلك كله قد حدث في يوم واحد ؟ واليوم ما زال هو الاثنين ٧ حزيران ١٩٨٢ ؟ ومنذ اسبوع واحد ، في مثل هذه اللحظات كان يستعد للقاء موته حين سرى في الزنزانة نبأ تصفية جماعية تنتظرهم ، فالمكان ضيق والزبائن يتزايدون ؟ .

* * *

يتوج خليل ذهوله بسيجارة . . . .

(نكهة أقل ، ونيكوتين أكثر . . هذا ما انا بحاجة اليه) . .

. . . يحدق مذعوراً فيما حوله . . فالفندق فاخر بأكثر مما ينبغي لفقير مثله . . وهو يحتل

جناحاً خرافي البذخ . .

حسناً . يعرف انه قروي الأصل ابن شجرة ، لا يفهم شيئاً في الفنادق الفخمة البيروتية ناهيك عن السويسرية . . . وكفى ابنة اسرة بيروتية عريقة (بنت عيلة) ، مدللة لم تذق قسوة الحياة الا منذ عشقته . . ولعنت تلك الساعة . . وهي بلا ريب تحسن اختيار الأشياء (لا الازواج !) . . ولكن ، ادارة الفندق لن ترضى بشجرة العائلة بديلاً عن الفاتورة . . الارقام ؟ . لم يتعلم في الجامعة غير الارقام . . . لقد درس ادارة الاعمال ، لكنه تعلم الكثير من جمع الارقام الصغيرة قرشاً فوق الآخر لدفع الاقساط وثمن الكتب ولقمة الصباح ، وسيجارة الفجر التي يتوج بها بؤسه كلما وجد الى ثمنها سبيلاً . وكل ما يعرفه الآن هو انه لا يملك قرشاً واحداً ، ولا يدري كيف ولماذا هو هنا ، والى اين يمضي ؟ . . كفى دبرت كل شيء . . . جوازات السفر . . التأشيرات . . بطاقات الطائرة . . بينما كان هو مشغولاً بحفظ رأسه وسط تلك الشبكة العنكبوتية ، المعدنية الخيوط ، المتأججة ناراً ، التي وجد نفسه ساقطاً في دوامتها . . يكتوي بنارها ويهوي من متاهة الى اخرى . .

يتوج بؤسه بسيجارة . .

وكفى تمددت على الفراش مسترخية كمن يدخل حلماً ممتعاً . . .

رامي ، الطفل العذب يكتشف باب الحمام ثم يغادره بعد قليل حاملاً كأساً من الماء يقدمه اليه بصمت حنون . . اسلوب الاطفال في الحب الصامت يهزه حتى قاع روحه . . لا يحب الحب الفصيح على طريقة زوجته . . منذ عاد هارباً من موته ، ورامي وفادي ، يغمرانه بمحبة خارقة العذوبة . . يعاملانه كما لو كان طفلهما . . . اثناء تنقله بين سجن وآخر ، كان يؤرقه هاجس مرعب : ان يعود الى بيته ، فلا يعرفانه . . . ويسألا امهما بحياد : من هذا الرجل ؟

ويوم عاد ، لم يقل احدهما انه يحبه ، وانما واجهاه بذلك الحب المتقشف القروي ، رامي قدم له كأساً من الماء وفادي غطاه بورقة كلينكس حين تمدد مرهقاً . . . لم يرثا شيئاً عن امهما رغم خوفه عليهما من اجوائها واسرتها والخالات الثرثارات ، ورشواتهن الثرية لاقتناص الحب الطفل . . لم يرثا شيئاً من ملامحها الجسدية او النفسية . . الشعر الكستنائي ، والعيون الزرق ، والبشرة بياسمينية البياض لم تنتقل اليهما منها . . . يتأملها . . . كم هي جميلة . . كاد ينسى ذلك . . .

يتوج بؤسه بسيجارة . . .

لم يقل احد كلمة منذ ضمتهم الغرفة بعد ذلك اليوم الطويل الشاسع الممتد على افق ابدية العذاب والقهر . .

الولدان يستعيدان حيويتها ، ويدخلان في مرحلة اكتشاف الغرفة والحمامين الملاصقين لها ، وخزائنها الشاسعة والصالون والتلفزيون والبراد الصغير في الزاوية (الميني بار) وازرار الراديو والنور الملاصقة للفراش وحبال الستائر ، والتلفون الحديث الخالي من القرص المزود بنواتىء تحمل الارقام ، وخشب الورد المرقط الذي يغطي بعض الجدار والابواب وحاملة الحقائب المخملية المنزلقة .

يخرج خليل من كابوسه ، وتمعن كفى دخولاً في حلمها متقلبة فوق المخمل الفاخر لغطاء السرير . . الولدان يدخلان مرحلة القفز والشجار كالعادة . . .

يتوج بؤسه بسيجارة . . .

يشعر بأن مخمل المقعد من الشوك . . . يتذكر من جديد فقره ، ورغم انه عاهد نفسه على السكوت في ليلتها الاولى ، لكن خوفاً غريب المذاق يملأ فمه وهو يرى الحقائب المكومة في جانب الغرفة لما تفتح . . . وهي كل ما يملكان في هذه الجنة . .

ـ كفى . . الفندق .

ـ مابه ؟

يقول بقلق : جميل جداً ، فاخر

تكرر باسترخاء : جميل جداً . . فاخر فعلاً .

يتمشى صوب الباب ليطالع لائحة الاسعار الملصقة قرب الارشادات لاستعمال سلم النجاة في حال حريق . . وما يكاد يقرأ عبارة « ١٥٠٠فرنك في الليلة » حتى يشب في رأسه حريق ، ويقرر الهرب عبر سلم النجاة . . من اين يأتي بما يقارب الثلاثة آلاف ليرة لبنانية كل يوم ايجاراً لجناح فندق ؟ هل جنت كفى ؟

الصبيان يتعالى صخب شجارهما المعتاد : تنهض نحوهما لتهدئة الخواطر وقد فارقها بعض ذهولها . . هو لم يعد يقوى على الصمت . يسألها من جديد : كفى . . الفندق . . .

ـ ما به ؟.

ـ فاخر . . لا نملك ايجاره . . يجب ان نجد مكاناً آخر غداً . . غرفة اخرى . .

تعبس . يحاول استرضاءها : اعني شقة صغيرة من اجل الولدين . . سيختنقان في غرفة مغلقة . .

تجيب بهدوء من اعد خطة محكمة : الولدان يذهبان غداً الى مدرستهما الداخلية ريثما ندبر امورنا . .

ـ مدرسة داخلية في سويسرا ؟ هل لديك فكرة عن الاسعار ؟

ـ اجل . . واحمل في مظروف مستقل نفقاتهما لهذا الصيف ، وبالفرنك السويسري . . لقد بعت مجوهراتي كلها واستدنت من صهري وراهنت عليك . . . الولدان سيدرسان في الفصل الدراسي الصيفي (سامر سكول) استعداداً للتكيف مع البرامج التعليمية هنا ، والعام الدراسي المقبل اول الخريف .

اذن خططت لكل شيء . . منذ سبعة اعوام وهي تخطط لهذا اليوم . .

منذ انفجرت الحرب عام ١٩٧٥ توسلت اليه ان يهربا مع الهاربين . . قال لها : « انا شجرة . هنا ولدت . هنا اموت . لا اهاجر . مغادرتي لقريتي الى المدينة هجرة مريرة تكفيني . . ولم اخترها . قررها والدي » .

وها هو اليوم في هجرة اخرى لم يخترها ايضاً . .

ـ وماذا نفعل في الخريف حين يحين موعد دفع اقساط جديدة ؟

ـ غداً تستلم عملك . . . الصيف طويل والله كريم يفتحها في وجوهنا . .

ـ عملي ؟ اين ؟

ـ في المطعم الشرقي . حملت لك رسالة توصية من صهري الكبير الى مدير المطعم شفيق أبي عاطي صديقه الحميم . . ستعمل محاسباً او معاوناً له ، ريثما نجد ما يليق بنا . .

اذن اختارت له مهنته ايضاً . .

ولكنه لا يجرؤ على ان يقول لها شيئاً . . . لقد قضى الاسبوع الاخير هارباً من بيت صديق الى آخر . . ريثما يدبران امر هربه من بيروت . . لقد فعلت ما بوسعها . . صحيح انها فعلت ما كانت تتمناه منذ اعوام ، لكنه هذه المرة لم يكن في موقع يسمح له بالرفض . . بل بالتوسل ! . . .

وها هو بدلاً من شكرها يكاد يقرّعها . . لقد انفقت كل ما تملك من حلي الاسرة ومجوهراتها لتنجو به وبأسرتها . . يخترقه حس حاد بالندم . . .

***

يقترب منها ويضمها اليه . . يا لجسدها الحار الشهي . . لقد نسي طعمه . . لقد انقضى زمن طويل منذ المرة الاخيرة . . ثلاثة اعوام . . ربما اربعة اعوام . . لا يدري ما

الذي اصابه منذ ذلك اليوم المشؤوم .

(كنت ابدل الكتب في واجهة مكتبتي كعادتي في بداية الاسبوع قبل استقبال زبائن الكلمة . اذكر بوضوح انني كنت افرش على طول واجهتي وعرضها نسخاً من الكتاب الجديد للمناضل امير النيلي . . حسناً ، هو كاتب ، وانا اجده مناضلاً . . كل حرف لديه ينادي بالحرية والديمقراطية . . كاتب لم ينجح في شرائه احد . . انه منحاز حقاً إلى الفقراء ، لا إلى فقراء طائفة معينة أو نظام معين . منحاز حقاً إلى العروبة ، لا عروبة لبنان وحدها بل عروبة العرب كلهم ، وبينهم من يتشدق بها ولا يمارسها . منحاز إلى العروبة بمعناها الأصلي ، لا بمعنى القمع البوليسي والارهاب وقطع اوصال الأرض والبشر واعناقهم وارزاقهم كما يحدث في بعض الاقطار . . لم اكن يوماً موهوباً في الكتابة ، لكنني « مبدع قراءة » . . أرفض بيع كتاب أو منشور لا يحترم انسانيتي مهما كان سوقه رائجاً و (موجته) عالية . . . كان يوماً خريفياً باهراً من تلك الأيام التي تطلق فيه الطبيعة سراح الرياح وقطرات المطر بعد طول سجن صيفي . . . وتأتي سحب محملة بضياء رمادي فضي الزخم . . يوم تتنفس فيه رائحة الحرية ، ويستيقظ في قلبك شوقك لكل ما تلوكه من شعارات تحرم عليك ممارستها . . دخل مسلحان إلى مكتبتي . . حسناً هي دكان ، لكنها في النهاية مكان عملي ورزقي وكرامتي وكنت سأفعل الشيء ذاته لو كنت بائع سندويش فلافل أو بائع كتب . .

لقد طردتهما !

حاولا ارغامي على بيع منشور ، بعد ان ادفع لهما سلفاً ثمن النسخ فرفضت وطردتهما حتى قبل ان اقرأ اسم المنشور والجهة التي طبعته والافكار التي تحمله . . لم يكن في مقدوري ان ارضى يوماً بأساليب القمع للترويج حتى للحرية نفسها . . لم يكن في مقدوري ان ارضى بالاساليب الفاشية وسيلة لنشر افكاري او افكار حلفائي او الذين اؤمن بهم . . وتصادف ان كان المنشور يخص (اصحابي) . كنت لا اعرف كيف اعبر لغوياً عن ذلك الشعور بالمهانة حتى المرض العضوي حين ينتهك شخص ما حريتي . . . وكان امير النيلي يتقن ذلك في كتبه . . لو سألني احد : ما هي حريتك ؟ لما عرفت ماذا اقول . . ولكنني اعرف دائماً حينما يمسها احد بسوء او يحاول سرقتها مني . . واظن ان هذه هي حال البسطاء مثلي مع الحرية .

قلت للمسلحين : لا اريد ان اعرف اسم المنشور الذي تطالبانني بثمنه سلفاً كالخوة ،

وتطلبان مني بيعه . . وأنا قد اؤمن بكل حرف فيه ، ولكنني لا اؤمن بهذا الاسلوب في إقسار الناس على اقتنائه . . وارفض دفع الخوة لاصدقائي قبل اعـدائي . . وارفض ان يسرق حريتي حليفي قبل خصمي ، وارفض هذه الدروب التي تجرونا اليها . . .

وانهالا علي ضرباً بأعقاب الرشاشات التي دفعت الشعوب العربية ثمنها كي يضرب بها العدو لا الصديق . . هكذا صرخت بعد الضربة الاولى فتزايدت الضربـات . . قلت لهم : العدو هناك . . وهرولت نحو خارطة احتفظ بهـا على جـداري : انهم هناك . . ادلكم عليه . . يبدو انكم نسيتم . . .

وتابعوا ضربي حتى حينما قررت ان ادلهم عليه ونحن على الرصيف امام باب الدكان كمن يرشد سائحاً ضيع دربه . . وانهرت على الرصيف . . .

صحوت في المستشفى وعظامي المحطمة ليست وحدها التي تؤلمني . . . كان في داخلي شيء قد انكسر . . شيء يبكي بصمت مرتجفاً بلا عزاء . . ومنذ ذلك اليوم فقدت شهيتي للحياة والحب والشمس والنساء . . ولم امس زوجتي ولم اعد ألحظهـا هي او اية امـرأة اخرى . . ولم اعد اذهب الى حلقة الرفاق حيث نتحدث عن الـوطن والحريـة والمصير ونخطط لغد افضل ، لعمل فعال كل في حقله . ولم اعد ادخن النارجيلة في مقهى الروضة الشعبي على شاطىء البحر . . ولم اعد ألحظ شروق القمر . . ولم اعد احب الموسيقى ولا اطرب للغناء . . شيء واحد لم استطع ان اتوقف عنه . . قول الحق كما اراه . . الشهية الى حوار بعيداً عن اعقاب (الكلاشن) ، واعقاب السجائر التي يزرعها في لحمك اولئك الذين طالما زرعت قضيتهم في روحك . .

اجل ! لم اتوقف عن ذلك ، بل ازددت جنوناً . . ادمنت تنفيذ وصية ابي :

« لا تقل الا الحق » حتى نسيت ان بوسعي ان اصمت احياناً . . . كنت لا اصمت . لا اختار التوقيت . لا اختار الاذن التي اهمس فيها دواخلي . اقول الشيء ذاته للجميع ، واصادق من اراه جديراً بصداقتي حتى لو كان في دربه الى المشنقة او واقفاً يدخن سيجارته الاخيرة امام الجلاد . . وهكذا كسبت اصدقاء لا احبهم ، واعداء لا اكرههم ، ووجدتني محسوباً على فئات لا احترمها ، مرفوضاً من جهات تربطني بها قناعات فكريـة وتفرقنـا اساليب الممارسة . . وهكذا تنقلت بين سجن وآخر . وانا في اغلب الاحيان لا اعرف من هو سجاني ، وأحاول ان استشف ماهية ورطتي من لهجة جلادي . . . لكن الجلادين جميعاً ينطقون لغة مرتزقة واحدة .. وصعب ان تميز بين جلاد (جماعتك) وجلاد الجماعة

الاخرى . . . وبين سجن وآخر ، وشجار وآخر ، وقصف وآخر ، ونقاش وآخر ، كنت التقي زوجتي كمن يتفقد صديقاً نصف منسي ، واقبل اولادي قبلات اللقاء والوداع مرة واحدة ، وارمم مكتبتي المنسوفة وأبيع كتب امير النيلي ريثما يأتي احد اولئك الرجال المتشابهين كأنهم رجل واحد ، ويقول لي اتبعني فأتبعه ، وتتكرر الاسطوانة ذاتها في الاقبية المختلفة . . . من يمولك ؟ ممن تقبض ؟ ما نشاطك ؟ ما جماعتك ؟ تخريب ؟ متفجرات ؟ سرقات ؟

وعبثاً أقول لهم انني لم افعل شيئاً بعد استحق عليه العقاب او الثناء . . . لم يتركوا لي وقتاً لأفعل شيئاً . . وصرت احسهم جميعاً ، الصديق والعدو مؤسسة واحدة ذات فروع عدة في الاحياء المختلفة ، تحمل الشعارات المختلفة، ومهمتها الوحيدة ،اختراع التهم لنا والمحاكمات والعقوبات والاعدامات كي لا يتبقى لنا وقت نفعل خلاله شيئاً له معنى وجدوى وكي لا يتبقى في حنجرتنا كلمة من تلك الكلمات القديمة التي طالما صرخنا بها في المظاهرات الحاشدة او في عزلة غرفنا . . . صرخات كثيرة لم يبقَ منها في حنجرتي غير عبارة واحدة : الحرية . . . الحرية . .

وذات ليلة ، ساقنا الجلاد الى المقبرة لاعدامنا هناك تنفيذاً لخاطر عبقري تعب من نقل الجثث ورميها في الشوارع وتحت الجسور وفوق التلال ، وقرر توفير الجهد على نفسه وعلى اهلنا بإعدامنا في المقابر بحيث لا تعود ثمة حاجة لجمع اوصالنا المقطعة ونقلها الى البرادات والتعرف عليها ثم البكاء عليها ونقلها الى المقابر في مواكب وعرقلة سير رجال المخابرات بجنازات ضحاياهم . . .

تلك الليلة كنت حقاً لا اعرف سجين من انا . . ولماذا عذبت . وماذا كانوا يظنونني . ولماذا انا في دربي الى الموت ، وهل يحدث ذلك لي كجزء من ضمن صفقة جماعية لقتل اشخاص من طائفة معينة او لارهاب اشخاص آخرين يجري اعدادهم لمهمة ما . . او لخلق مناخ ارهابي يرفع اسعار الدولار ريثما يتم احدهم صفقة بورصة ما . . لا ادري غير انني كنت في مثل هذه اللحظة منذ اسبوع ، أو شهر او عام او قرون ، مع الهبوط الأول للظلام ، والشوارع خاوية ، ارتجف شبه معصوب العينين في الشاحنة المحشوة بنا . . . ورائحة عرق الذعر وكل افرازات الخوف البشرية تفوح من دربنا . توقفت الشاحنة . انزلونا . لم يكونوا بحاجة لضربنا كي نركض الى المقبرة . . كنا بشوق الى تلك اللحظة . . . شاهدت قبري في الظلام وقرأت اسمي مكتوباً على شاهدته بحروف من نور

بهي ، بل بحروف من النيون الفاقع الضوء البشع كما على ابواب الكباريهات الرخيصة . . . ثم انهرت ولم اعد احس بشيء . . . . ولم اسمع اصوات اطلاق الرصاص الذي حصد كل من كان حولي ، لانني حين صحوت وجدتهم قتلى .

صحوت . تحسست جسداً ساقطاً فوقي كان بارداً وثقيلاً وحاولت ابعاده عني والذعر أنشب مخالبه في عنقي وبدأت اختنق . . كان نصف متخشب . . تذكرت فجأة كل ما كان . . اذن اغمي علي قبل لحظة الاعدام ، وسقطت قبل انهمار الرصاص . . ونجوت . . نجوت ؟ . .

آه كيف انطلقت راكضاً من المقبرة ، متعثراً بقدمي اللتين نسيتا طعم المشي ناهيك عن الركض . . كانت الانفجارات تدوي لحسن حظي ولا احد يلوي على شيء . . . ومشهد شبح مثلي مغسول بالدماء طالع من المقبرة لا يستوقف احداً والكل هارب من موته في موجة قصف عشوائي دورية . . ولم اع كم انا مخيف ومرعب الا حين قرعت باب بيتي وفتحت زوجتي الباب ولم تعرفني . . . لم تميزني وظنتني سارقاً وكادت تصرخ وتجمع الجيران وعلى رأسهم المخابرات متعددة المشارب المندسة فيما بينهم ، لو لم أغلق فمها ببقايا قوة لا ادري من اي شيطان اتتني : اسكتي يا امرأة . . انا زوجك . . انا خليل . .) .

●●●

عزمت عليكم يا معشر الجن والابالسة والجنود والعفاريت والشياطين ان كنتم في مشارق الارض ومغاربها احضروا سكان الفيافي والمجازر والمقابر والسوق والطرق والبروج والمعروج اين ميمون الغمامي اين ميمون السحابي أين شمهورش الطيار اين برقان اليهودي اين الملك الابيض المعظم اين الملك الاحمر المعظم اين صاحب العمامة السوداء اين صاحب البغلة الدهماء اين الذي فيه الف رأس وفي كل رأس الف وجه وفي كل فم الف لسان وكل لسان يسبح الله تعالى بلغات لا تشبه بعضها بعضاً . . .

. . علكش بطط لهوشل مطيعوش بطريقوش يطفريوش بطبطيقوش مكشلاش ألوحا ألوحا العجل العجل الساعة الساعة . . .

. . احرقه يا ميططرون بحق طحيطمغيلبال وبحق آل شلع يعو يو بيه بتكه بتكفال

بصعي كعى ممیال بمطيعي لك يا آل جل زريال احترق . . . احد . . . اح . . . آ . .

●●●

« يا له من وغد . . . سأقتله » . . . صرخة دوت بصمت في أعماق نسيم وهو يرمي بصحيفة الصباح « جورنال دي جنيف » على الأرض ، وفيها نبأ مقتضب عن مقتل طالب عربي يدعى سري الدين مختار ، اجتاحته سيارة مجهولة .

حوالي الظهر ، اي قبل نهوض رغيد من النوم بقليل ، وصلت صحيفة « تريبون دي جنيف » وفيها النبأ ذاته مع مزيد من المعلومات حول الحادث ، وصورة سري الدين مهشماً قرب الرصيف . . القاتل لم يتوقف ، وأمه المريضة ترجح انه قذف بنفسه تحت عجلات السيارة ، لضائقة مادية وصحية . . والبوليس يفتش عن السيارة الجانية . . « يا له من وغد . . . أصدر امراً فقتلوا سري الدين بينما هو يسبح في بركته الذهبية هانئاً . يجب ان يقتله شخص ما » . . . ونسيم يتابع توضيب صينية الافطار الذهبية لرغيد ، كأي سفرجي مطيع . . الاواني كلها من الذهب ، وقد اعد الشاي .

(لماذا لا أضع فيه بعض الديتول الخاص بقتل جراثيم « الحمامات » ووساخاتها ؟ أليس رغيد جرثومة وسخة ؟ . انها لجريمة ألا اقتله ، ويجب ان يعاقبني القانون عليها . . . ترك رجال مثله احياء يجب ان تكون تهمة توجه لمن حوله . . لمن يعدون له طعام إفطاره مثلي ، ويعلفونه بقية النهار ، ويركبونه فوق ظهورهم ويركضون به ، ويلملمون ثيابه وفوضاه ونساءه من غرفة نومه ، ويعنون بتنظيم امور قذاراته كلها . . سري الدين دهمته سيارة في حادث ، أم تمت تصفيته ؟ ولماذا قتل في الضاحية القريبة لقلعة الذهب هذه ، في الدرب بين محطة القطار ومدخل القصر ؟ هل ثمة من واعده على اللقاء؟ ضرب له موعداً في القصر ، وأعد له قاتلاً في سيارة يترصده ؟ . . حادث سيارة ؟ ام اغتيال سريع قبل ان تنتقل الفضيحة الى الصحف ، وتنشرها شارلوت بارنز او تبتز رغيد ريثما يقتلها بدورها ؟ لماذا يموت الناس الذين يكرههم رغيد في حوادث مفاجئة باستمرار ؟) .

يحمل نسيم الافطار الذهبي الى رغيد ، ولا ينسى جريدة الصباح ، وبصقة على وردة الشوك الصفراء التي تخدش اصابعه كلما اعدها في إنائها الصغير ، ولكن رغيد يحب ان

تتوسط صينيته ، وتبدو مثل قنفذ ذهبي صغير جارح . . كأن هذا الخدش الصباحي البسيط والدامي أحياناً هو تحية الصباح من رغيد الى نسيم والى الناس جميعاً .

استغفر الله يا رجل . . لعله لم يقتله . . لعلها مصادفة . . لعل سري الـدين فقد صوابه ، وجاء ليلاً الى مقر رغيد للقائه عنوة وقد اعماه اليأس والغضب والمذلة ، فداسته سيارة مسرعة ثملة . . . تابع تمثيل دور السفـرجي ريثما تنفـذ خطتـك وتنال شهـادتك الجامعية . . تذكر ذلّك في بيروت واخوتك كلما طردكم المالك من بيته . . انت ابن الاسرة المهجرة من منطقة النبعة ، التي لم يجد عائلها السائق سقفاً يحميه واولاده العشرة وقطتهم في الليلة الاولى ، فخرج في الليلة السابعة على الناس شاهراً لا سيفه بل (مفك بـراغي) الاطارات . .

(كسر أبي قفل الباب الموصد للبيت الخاوي بـ« مفك براغي » سيارة التاكسي التي يعمل سائقاً لها ، ودخل واسرته وكلنا يرتعد إرهاقاً وخجلاً . . . ويوم عودة المالك من جزر الباهاماس حيث يقطن ومطالبته لنا ببيته ، غمرنا خجل وقح ، وبادرناه برفضنا غير المنطقي . . حسناً . . انت تملك البيت ، ولكن لماذا ينام البيت خـاوياً وننـام نحن على الرصيف ؟ اي وطن هذا الذي يسمح بنوم البشر في سرير الوحل بالحدائق العامة ، وثمة بيوت خاوية مختومة بشمع اللامبالاة والسفر المترف ؟ أنا محتل لبيتك ؟ ولكنك انت محتل لحقي في الحيـاة الكريمـة ، ومحتل لفـرصتي في العمل التي يفتـرض ان تكـون متكـافئـة وفرصتك . . . كلمات . . كلمات رد علينا بأقسى منها : انا كادح عصامي جمعت كـل قرش بعرق جبيني ، واشتريت هذا البيت بعد اغتراب وعذاب سنوات . . كلمات . . كلمات . . منه ومنا ، تذوب كلها تحت وقع نظرات الجيران الكارهة لحضـور أسرتنـا الفقيرة المهجرة في مبنى الأثرياء . . . إخوتي الصغار يلعبون كالوحوش ويخدشون مخمل آذان الجيران . . . انها القطيعة والاذلال اليومي الصامت ووحده ناطور المبنى يصادقنا ثم يطرد لأجل ذلك وتموت قطتنا « فلة » يوم طرده . . وانا اذهب الى الجامعة مشيعاً بالنظرات الكارهة واللعنات ، واعود منهكاً من عملي الليلي في المطعم وعبثاً اخفف عن اميّ وقع القطيعة الاجتماعية التي تخنقها . . هي التي الفت صحبة الجارات والاهل واولاد الحي . . كان ابي قد (احتل) الطابق العاشر . . وامي المصابة بمرض القلب تخجل ركوب المصعد ، كي لا تبقى تحت حصار النظرات العدوانية داخل صندوق صغير مغلق ، في مرمى كهارب الكراهية والاحتقار طوال الفترة التي يستغرقها وصول المصعد من الطابق الارضي حتى

التاسع على الاقل حيث الجارة الاخيرة . . . وهم يحدقون فيها ويغرسون في جسدها اسياخ نظرات البغض الفتاك . . في المصعد تكون قريباً جداً من الآخرين ، لا تستطيع ان تهرول وتتجاهلهم وانت لا تلوي على شيء كما في الشارع او على السلم . . المصعد هو الحصار . . ويوم حدث لها ذلك للمرة الاولى مع سيدة الطابق التاسع الثرية التي بصقت ولم تقل شيئاً ، ذكرت لي انها احست بوجع غامض في صدرها وبالمصعد يهبط ويهبط تحت الارض بدلاً من ان يصعد ، ويهبط بها في بئر بلا قرار . . ولم تعد تجرؤ على دخول المصعد . . . وبعد سنوات من الذل وجدتها ميتة بالسكتة القلبية على السلم امام باب الطابق التاسع . . . بالضبط ، فوق العتبات الاولى التي توصل الى العاشر بعد منعطف المصعد . . .

ووالدي يعتذر عاماً بعد آخر من المالك . . . لقد اقسم في العام الأول على دفع الايجار ومغادرة البيت حين يستطيع تأمين ثمن غرفة واحدة . تنازل المالك عن الايجار والح على ان نغادر بيته وهو يدفع لنا ما يعادل الايجار !! . . . لكن الاعوام تتلاحق . . والمصائب تتكاثر . . . والفقر يتفاقم . . . والاقساط المدرسية ترتفع . . ومستوى المعيشة ينخفض . . . ومسلحون يسلبون ابي سيارته لاستعمالها في تحرير « وطن سليب » . . . ويذهب الى احد رؤسائهم طالباً سيارته ، فيأسف الثاني بصدق لأن الذين « عملوها » يتسترون بشعاراتهم ويسرقون سيارات الناس مستغلين حبهم للقضية . . انه لا يعرفهم . . . مخربون . . . قتلة اندسوا بين الثوار . . اين الغربال ؟ . . . مرض ابي وانهار . . يعمل يوماً وينهار يومين . . . ينشط يوماً ويقعده الغم عامين . . يذوي . . . هو ايضاً لا يجرؤ على ركوب المصعد مثل امي . . . وعبثاً نجد فكاكاً من (الدور) العاشر القاتل . . . وينصحنا البعض ، باحتلال بيت آخر اكثر فخامة له بئر ومولد كهربائي في الدور الأول او الثاني ، خصوصاً وان المياه ووقود المولدات والكهرباء مقطوعة عن الاغنياء والفقراء معاً ، والبؤس يعم . . والجولات تتوالى . . الحروب تتلاحق . . قذيفة تدمر نصف الطابق الذي نحتل ولكننا نخجل من احتلال بيت آخر بعد سرقة ما تبقى من اثاث هذا البيت وبيعه كما فعل سوانا حين اضحت الاخلاق ترفاً لا يقدر الفقير على ممارسته . . ونقطن الغرفتين الباقيتين . توقفنا عن العيش بكرامة وضاعت احلامنا في مغادرة الفقر الى العدالة ، وانتشر الظلم ، وتوقفنا حتى عن الحلم لكننا لم نستطع التوقف عن النمو . . صرنا عشيرة من الشبان ، رغم النظرات الكارهة ، كبرنا وازدهرنا اسرة من العمالقة

المتفجرة صحة كورود المستنقعات ، وانا رب الاسرة ومعيلها قبل ان أبلغ سن الرشد . . . سننت القانون الاول للبيت : العلم . كلنا يتعلم . يتعلم في الجامعة ، يتعلم صنعة ، لكنه يتعلم . ممنوع العمل (مرتزقة) في الميليشيات براتب . مسموح بدون راتب . . . ممنوع الانضمام الى الميليشيا السائدة التي تدفع ، وحين تهزم نبدل (معتقداتنا) وننضم الى الميليشيا المنتصرة ونقبض منها ، وهكذا على التوالي . . انجح يوماً . . أفشل يوماً . . . نأكل يوماً ونجوع اياماً وموارد الرزق تضيق وبيروت تختنق وأنا لا أجد عملاً يوم تخرجي من الجامعة غير عملي الاصلي كنادل في مطعم . . . الكل يضحك حين اذهب بحثاً عن عمل واقول لهم انني احمل شهادة في « الدراسات الانسانية » . . . حتى نديم الغفير ، جار صديقي ضحك طويلاً من (اختصاصي) . . . كان يحاول اقناع صديقي بالعمل سفرجياً لثري في جنيف ، ورفض صديقي مغادرة بيته ، وتوسلت اليه ان يأخذني بـدلاً منه . . سأتابع دراستي هناك وسأسكن مجاناً وآكل مجاناً وأحول الى أبي واخوتي راتبي الشهـري بأكمله . . . قلت ذلك بصراحة لنديم فقال : شرط ان « تعملها » سراً . فالثري الذي ستعمل عنده لا يحب « المثقفين » اذا ضبطك تدخن الحشيشة سيضحك ، تشم الكوكايين يشجعك ولا يشاركك ، أما اذا ضبطك طالباً جامعياً في « كلية الدراسات الانسانية » يا ويلك . .) .

آه يا ويلي الجرس يقرع وصوت رغيد يدوي في المطبخ عبر « الانترفون » : . . . « اين افطاري يا ابن . . . . » .

يعيد نسيم تسخين الشاي والحليب . يهرول . حين يضع الصينية الذهبية امام وجه رغيد المتورم نوماً ورخاء يتذكر وجه زميله الجامعي سري الدين في الصورة ، المهشم على قارعة طريق الليل . . . ويشعر بالندم لأنه كان واسطة الصفقة . . كان يقصد خيراً . . . لم يكن يدري انها ستجر الى هذه المأساة . . إنه حقاً صغير مندفع وغرير وبلا تجربة كما قال له أمير النيلي . . يتأمل رغيد حاقداً . انه في الستين او اكثر لكنه يبدو في الخمسين بوجهـه المستدير المرفه المتورد وصلعته الشبيهة بجبهة طفل مدلل وعينيه الخضراوين المشاكستين . سأله رغيد : ألم تصل صحف أخرى ؟ . . ألم تصل جريدة « لاسويس » . وصرخ نسيم بلا صوت : « تريد أن ترى صورة الجثة في الصحف كلها ؟ ألن تكفيك صورة واحدة ؟ ذات صباح . . سأقتلك . . . سأخنقك في سريرك . . في بركتك الذهبية . . سأخنقك . . » . ولكن صوته جاء يقول : أمرك يا سيدي ، سأحضر بقية الصحف فور وصولها .

ـ هل حملت الافطار للشيخ وطفان ؟
ـ لم يقرع الجرس بعد . . انه لا يصحو في وقت محدد كما تعرف . .
ـ ابلغه حين يستيقظ انني اريد ان اراه . . .
(سأبلغه انني سأقتلك ولن يحميك مني ساحر ولا ابليس ولا ملاك رحمة . . . مع امثالك لا تجوز الرحمة . .) . .

ينهض رغيد بقامته الممتلئة القصيرة ، ويمضي نحو الحمام في مشيته الغندورة ، شبه مخدر بالرضى عن نفسه . . . ويسمع نسيم وهو يغادر غرفته صوتاً معيناً قادماً من الحمام . . . ويكاد يجن . . **(إنها كلية سري الدين ما تزال تعمل في خدمة ذلك الوغد . . . وسري الدين مات . . ولن أراه ثانية . . . آه كيف أواجه أمه) . . .**

***

يعود نسيم الى المطبخ جالساً تحت مولاه الجرس . . . لحظات ويأتيه صوت الساحر مرتجفاً كشبح عبر الانترفون : نسيم. تعال . يضغط زراً ويسأل : هل تريد افطارك يا سيدي الشيخ ؟
ـ لا . أريد شيئاً آخر . . احضر حالاً .

يمضي اليه عبر الدهاليز الطويلة للقصر نصف المعتم ، والجدران تغطيها لوحات عتيقة لوجوه اوروبية ومشاهد قنص وصيد واسترخاء ومرح وسط غابات وجبال وبحيرات ذات طبيعة سويسرية منقوشة فوق سجاد يتدلى على الجدران . . صور غريبة عن عالمه . . . ليست بشعة ولكن مكانها في المتاحف أو في بيت لا يقطنه . . انها تلهب حسه بالغربة ، وتلك النوافذ الضيقة التي زودها رغيد بقضبان حديدية مطلية بالذهب تذكره بأنه سجين . . سجين لقمة العيش محاصر بالغربة العسيرة والوطن العسير ، محاصر بالاذلال هناك وهنا ، وبالوحشة والثلوج والطقس البائس والشوق الى اخوته . . آه متى ينجز اطروحته وينال شهادته ويغادر هذه القلعة الذهبية الرهيبة ؟ لا . ليس قديساً . فكر مرة بسرقة احدى اللوحات او التحف أو صنبور ذهبي من احد المراحيض ، وبيعها ، والانفاق على اقساطه واقساط اخوته بعيداً عن هذا التعذيب اليومي . . لن يلحظ رغيد وسيشتري هو عامين من عمره . . . ولكن لم يستطع . . . لا يدري لماذا لا يقدر على السرقة . . . إنه يؤمن حقاً بـ « الاخلاق السامية » بالرغم من كل شيء ـ وربما بسبب كل شيء ـ ولم يفكر يوماً بغير

الحوار كوسيلة تبديل إلا اليوم حين شاهد صورة سري الدين . . . ان خنق رغيد بين يديه يختصر المراحل . . ويقصر دورة عذاب الفقراء . . . ولكن ، بالمقابل ، سيحل مكانه « رغيد » آخر كما قال أمير النيلي ، وستظل الماكينة الجهنمية تدور وتطحن اجساد الفقراء امثاله . . . لا . . . . قطع رأس رغيد لا يجدي ما دام كذنب الحرباء الذي ينمو ثانية بعد قتله . . لا بد من تعطيل (الماكينة) بأكملها . . ولكن كيف ؟ كيف ، ومعظم الذين يدعون محاولة تعطيلها ، يحافظون عليها فيما بعد حين يمتلكونها ، وتظل الماكينة تطحن الفقراء ولكن تحت شعارات جديدة ؟. كيف ؟. .

يقرع باب الساحر . . . ويدخل . . . يراه في فراشه ، نحيلاً ، صغير السن نسبياً ، لم يجتح الشيب لحيته وشعره الكث الا قليلاً، شاحباً، لا يخيف قطة . . فقط حين يحدق فيه ، تسري في جسده رعدة طفولية . . للشيخ وطفان عين بنية ، وأخرى خضراء . . ام انه واهم ؟ يقولون ان احداً لا يجرؤ على التحديق في عينيه طويلاً ، وهو لن يفعل على اية حال ! . . .

ـ صباح الخير شيخ وطفان .

ـ صباح الخير يا ابني . . . هات ورقة وقلماً واكتب . . . انني بحاجة الى بعض الاشياء . .

دوماً يملي عليه طلباته . لا يعطي احداً كلمة مكتوبة بخطه الشخصي . هل يخاف من السحر المضاد ؟ يكاد يضحك بصوت مرتفع ولكنه لا يجرؤ على اغضابه . لا . لا يخاف من سحره وعفاريته ، لكنه منذ أوكلت اليه مهمة احضار المواد السحرية الأولية وجد فرصة إضافية لمغادرة قلعة الذهب بحجة التفتيش عنها ـ وبعضها يستحيل الحصول عليه في جنيف ـ أو بحجة المرور بالمكتب وتوصية كابتن الطائرة الخاصة او المضيف بتأمينها من بلد المورد . . . وبصفته آمر الصرف في هذا المجال ، فقد استطاع مرة توفير مبلغ من ثمن بزر الكرفس والزنجبيل أرسله قسطاً مستعجلاً لشقيقه الثالث الذي التحق بالجامعة اللبنانية أول هذا العام . . . ثم أنبه ضميره على هذا (الاختلاس) أو (السرقة) وهاجمته الكوابيس رغم ان المبلغ زهيد وينقذ شقيقه من الالتحاق بـ (ميليشيا) لا يؤمن بها تحت ضغط الفقر والحاجة . . على اية حال لم تهدأ نفسه الا حين أقسم لها في عتمة الليل ألا يكررها ، وان يعيد المبلغ حين « يسهلها » الله . يعرف ان مليار رغيد لن يتأثر بدريهمات . . ثم ان المليار بأكمله مسروق أصلاً . . ولكن . . .

ينهض الشيخ من فراشه فيبدو مرعباً بعض الشيء . . قامة شاهقة وعباءة تنحدر عن كتفيه الى الارض يضيع داخلها جسده النحيل فيبدو مثل شبح قام للتو من تابوته . . . له بالتأكيد عين بنية واخرى خضراء ، ولكن تلك قضية تخص عالم « البيولوجيا » والطب الذي يجده امراً عادياً ، لا عالم العفاريت والارواح .

ـ اني جاهز يا سيدي . .

ـ سجل عندك : جوزة طيب . اوقية فلفل أسود . أوقية فلفل ابيض . اوقية زنجبيل . اوقية لسان عصفور . اوقية اهليج . اوقية عود قرح . اوقية عود صليب . اوقية سنبل بغدادي . اوقية بهمن أحمر . اوقية لبان ذكر . اوقية بزر ريحان . اوقية بزر كرفس . اوقية بزر رشاد . اوقية بزر فجل . اوقية بزر بصل . اوقية حبة سوداء . عسل نحل صافي .

ـ هذا كل شيء ؟

ـ نعم .

ـ الا تريد طعام الافطار ؟

ـ ليس الآن . . . . سأدعوك حينما يحين الاوان .

ـ « الباشا » يريد ان يراك .

ـ سأدعوه حينما يحين الأوان . .

يغادر الغرفة . اوقية لسان عصفور . . . هذه وحدها تؤمن له اجازة يوم كامل . . . سيقول انه ذاهب لصيد العصافير وقطع ألسنتها ، وسيفرم بعض القطع المشابهة من مؤخرة الخنزير . . وسيقضي يومه في مكتبة الجامعة لانجاز المزيد من اطروحته . « بركاتك يا سيدي الشيخ » . . . ان مهنة « معاون ساحر » ليست رديئة لشخص مثله لا يخاف العفاريت . . . حسناً . . انه لا يجرؤ على استبعاد امكانية وجود قوى كونية لم يحط العلم بها بعد . . ولكنه لا يخاف العفاريت الشعبية ، ربما لكثرة ما ألفها . . إنها الخلفية لحياته منذ طفولته ، امه تهدده بأن يأتي الجني ويخنقه ، وجدته تحذره من سكب الماء الغالي على العتبات كي لا يحضر العفاريت (**كنت في العاشرة من عمري حين ضبطتني أمي أبلل سجادتنا الوحيدة بالماء المغلي . ضربتني فاعترفت : كنت اسكب الماء المغلي فوق العتبة لا السجادة وفعلت ذلك لاحضار عفاريت نلعب معهم وإخوتي . سمت بالرحمن وسألتني بذعر : هل حضر « الاسياد » ؟ هل شاهدتهم ؟ لم اجب**) .

جوز طيب . فلفل . زنجبيل . اهليج . بزر ريحان . كرفس . عسل . . . الى

آخره . . هذه الوصفة صرت أعرفها . . يبدو ان الشيخ صخر عاد يطلبها رغم اصابته بالقرحة . فالمطربة الشهيرة « إياها » تغني الآن لعرب جنيف ، وكلما حضرت يزدهر زبائن « الوصفة » ، وكلما رحلت تزدهر اوجاع قرحاتهم الهرمة ، والرصيد المالي لاطبائهم الاجانب . . . أم ان رغيد يحضر (شبوبيته) لصغيرة مسكينة يبيعونها له ذات بعد ظهر او تبيع نفسها ؟ . هذا ليس شأنه . . لن يسقط في فخ البطولات الجانبية . . يجب ان ينهي دراسته بنجاح ويعود الى وطنه . . الدراسة اولاً . هذا هو القانون الذي سنه لنفسه ولاسرته الصغيرة ويجب ان يتذكره باستمرار . انه عابر سبيل في قلعة الذهب . . عابر سبيل في حياة الساحر . . عابر سبيل في حياة سري الدين مختار وموته .

ورغيد . . ليته يستطيع . . ليته يستطيع الامتناع عن قتل ذلك الوغد . . الرغيد .

جرس الباب .

موعد وصول باقة الازهار اليومية المهداة الى رغيد . كل يوم باقة جميلة ضخمة ، يبعث بها الى نفسه لأن احداً لا يحبه حبه لنفسه . . انه يكرهها مزروعة في حديقته . يكرهها حية ، ويحبها هكذا مقطوفة الاعناق في دربها الى الذبول . . يحمل الازهار الى غرفة المكتبة كما تقضي التعليمات ، ويعود الى موضعه في المطبخ بانتظار اوامر مولاه الجرس وسيده الانترفون . . الطباخ الألماني وصل ، وهو كعادته يشتم بلغة لا يفهمها نسيم . يفتشونه كل صباح ولا يدخل ملكوت القصر الا حاملاً نصف ثيابه . . . رغيد تأكد من ان نسيم لا يفقه كلمة ألمانية واحدة ، والطباخ لا يعرف سواها . . هكذا لن يكون بوسعهما الحوار معاً . . . اذ لا يمكن ان يجتمع اثنان دون ان يتآمرا عليه ! . . .

***

هموش مدقهر قشوش طهيش فنش مهر صيعي هول يا كليم يا متكلم يا هيت يا ليت أنوا منه نهى منه هيا يا أبا نوخ أنوخ بندخ توكل يا رماح وانت يا صباح أجب يا شمعون واطمس على العيون وانت وخدامك يا ميمون الطيار بحق النار والنور والظل والحرور بالله العزيز الغفور اجب يا شمعون واطمس على العيون وانت وخدامك يا ميمون الطيار أجب يا شمعون وانت يا زيتون وانت يا ميمون وافعلوا ما امرتكم به ألوحا العجل الساعة . . .

***

غرفة مكتب رغيد وحدها من دون القصر تتمتع بنافذة شاسعة من الـزجاج المضـاد للرصاص . . ليس حباً بالمناظر الطبيعية ، ولكن رغيد يحب ان يرصد من حوله من سارقين ومتآمرين وقتلة . . . قصره الخاص لا يدخله الا نسيم والطباخ الألماني والسائق وعاملات التنظيف اللواتي يتم تبديلهن باستمرار ويعملن تحت رقابة نسيم في اوقـات محددة ولكن متباينة لاسباب أمنية ! وثمة بناء آخر لحراسه ولمستخدميه الآخرين في أقصى الحديقة يفصله عنهم جدول مائي عميق غير رقراق يشبه الخنادق المحيطة بالقلاع المحاصـرة في العصور الوسطى . . . ويستحيل عبوره سباحة . . وثمـة جسر ضيق يربط الضفتـين ، له بـاب حديدي مكهرب يقفل ليلاً ولا يفتح الا من جهة القصر . . . فيحضرون حين يشاء سيده لا حين يختارون . . . ولا درب اخرى بينهم غير الجسر الضيق الذي يحرسه ليلاً محترف أخرس جاء ومعه كلابه المرعبة المدربة التي تمقت البشر جميعاً ، او تبدو كـذلك حـين تكشر عن أنيابها . . .

نديم يجلس متحفزاً مثل كلب صيد جاهز لتنفيذ اوامر سيده ، ويطفىء سيجاره في حضرة سيجار رغيد ، ويخيل الى نسيم وهو يدخل بالقهوة انه يهز بذيله وبرأسه كما تفعل الكلاب حين يلاطفها سيدها برضى ورغيد يقول : اني راض عنك . لقد نفذت المهمة بأسرع مما توقعت . . . يغادر نسيم الغرفة وقد اشتعل غضباً وشكوكاً . . بينما يقول نديم : ولكنني قلق على أمي وأبي . . . لقد أصابت بيتهما شظية في الجولة الماضية . . . كرر رغيد عبارته المألوفة : لا تقلق . . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . . . يتساءل نسيم بمرارة : هل كانا يتحدثان عن مصرع سري الدين ؟ (**تعقل يا رجل . . . ربما كانا يتحدثان عن رحلة بيـروت أو مشاريـع أخرى . . ان أعمـال رغيد لا تحصى . . . شـركـات . فنادق . . . . استثمارات . شركات فيديو واستديوهات سينمائية . . مبيع طائرات . . مقاولات . . . مصارف . . . مدارس . . مدن سياحية وكل ما لا يخطر بالبال . . . تعقل يا رجل واستغفر ربك . . .**) . . .

وصار نسيم يدمدم : قل أعوذ برب الناس .

وظل يكرر: « من شر الوسواس الخناس » . . مرات عديدة . . ثم أمسك برأسـه وصورة سري الدين مهشماً تشتعل داخل عينيه ، وكاد ينهار ، وانتحب بصمت (**سأقتل ذلك الوغد . انه يحاصرني بالحقد والقهر . . في مرآة قسوته ترتسم امام عيني في كل لحظة**

شرور عالمي العربي . . إنه يهدد حياتي بإرغامه لي على قتله . . اني محاصر بفقر أسرتي الفاحش وبثرائه المدقع . . محاصر . . .) . . .

***

رغيد يستقبل الشيخ صخر الغنمالي امام مدخل القصر ، رغم انزعاجه من قامته المديدة ، وهو يصافحه ، ويسير الى جانبه نحو غرفة مكتبه . نديم يزحف خلف (وحشي) المال محاذراً مضايقتهما حتى بصوت تنفسه او حفيف قميصه الحريري . . كأنه يسبح تحت المياه الخطرة الى جانب سمكتي قرش هائلتين . . .

حين يستقران فوق المقاعد الوثيرة الـ (شسترفيلد) ، يشهر رغيد سيجاره بفخر من يعلن عن فحولة ذكورته الثرية ، ويقابله الآخر بشهر سبحة تشع جواهر حباتها وذهب خيوطها المطهمة بالماس .

شيء ما في حضور الشيخ صخر يشيع بهجة ودية دافئة ، عكس حضور رغيد البارد العدواني . . . وجهه وسيم ببشرته الابنوسية ، وأنفه المعقوف كالصقر ، وشفتيه الشهوانيتين المكتنزتين ، وليس في خديه الجميلي الاستدارة ما يفصح عن سنه الخمسيني ، أو اوجاع قرحته . . وشعره الفاحم متقن الصباغ ، يلتمع بحيوية حين يكون في زيه الأوروبي بدون العقال كما هو اليوم . . . وأصابعه تعبث بحبات سبحته الثمينة : ثروة (مضمومة) في خيط ذهبي اطرافه مطعمة بالماس ، يرميها تارة ، ويمسك بها أخرى بكثير من اللامبالاة الثرية . . يشعل لفافة (بولاعته) المذهبة المطعمة بالاحجار الكريمة باللامبالاة نفسها ، فيخيل الى ناظره انه سيرمي بها في المنفضة كما لو كانت عود كبريت تم استهلاكه ! . . . نديم يتأمل عيني صخر الجذلتين . لا احد سواه يعرف انه مصاب بعمى الألوان ، لا يميز اللون الاحمر بوضوح ولا الاخضر . . لا الدم ولا الاشجار والواحات . لقد رافقه يومها الى الطبيب واقسم على كتمان السر ، والبوح بالسر لرغيد ليس خطيئة بل واجباً . . لكنه في هذه اللحظة نادم لأنه فعل ويكاد يحن الى ايام عمله وصخر . إنه مرح . صريح . مباشر . بشري . التعامل معه مريح واقل تعقيداً من التعامل ورغيد ، ولم يره يوماً يحمل ضغينة لأحد . . يتنهد نديم وهو يحدق في سيده السابق وتومض داخل رأسه كالبرق لحظة ندم مشحونة بالذكريات . . . اجل . . . كانت الحياة معه اكثر مرحاً وطراوة ، وحكاياه وحريمه المتنقل وعشيقاته واولاده الذين ينسى باستمرار عددهم لم تكن لتخلو من الطرافة . وعلاقاته

مع الصحافيات الاجنبيات اللواتي يصطدن حكايا مباذله طمعاً بثروة صغيرة كانت خاتمتها لا تخلو من الضحك في غرفة نومه . . لا عنف . . لا قتل . . . بل جذل دائم وكرم متأجج في مناخات الحياة الرغدة و (لافي أون روز) . . .

يعزي نفسه : لكن التعامل ورغيد مربح . . مربح حقاً . صخر محترف حياة ، وصياد نساء ، والنساء يعشقن المال ، اذن هو ايضاً كذلك . . . يحبهن ويحتقرهن في آن ، فالنساء بالنسبة اليه زوجات او عاهرات ، ولكل ثمنها في (سوبر ماركت) اللذات . لا يعترف بوجود المرأة العاملة او الرسامة الفنانة الجادة فكلهن حريم والباقي تفاصيل . . . والعاملات الناجحات مسترجلات وهن بالتالي على خانة الرجال .

اجل ، صخر نواسي المزاج ، ولا يعبأ كثيراً بصفقة اضافية رابحة او خاسرة ، اما رغيد فيحب المال لذاته ومعه ضاعفت ثروتي عدة مرات ، فهو يتقن جمعه ، ولا يضيع لحظة واحدة أو صفقة عابرة . . . لا يضيع اكثر من عدة كلمات في المجاملات ثم يدخل في صلب الموضوع كما يفعل الآن اذ يخاطب صخر دونما مقدمات : أريد المطار . . .

ـ هلال يرفض

ـ لماذا !

ـ يكرهك !

ـ لماذا ؟

ـ تعرف لماذا . . . لألف سبب وسبب . . .

ـ لا أذكر سبباً وجيهاً لكراهيته . . .

ـ الحكاية قديمة . . دوماً نتشاجر لأجلك . . . وقد قاطعني طويلاً يوم اعطيتك (التزام) المدرسة الكبيرة الرسمية . . . وغيرها . . . وغيرها . . .

ـ لماذا يكرهني ؟

ـ يعتقد انك أفسدت حياتي . . .

ـ هذا المطار اريده . . . لقد وعدت اصدقاءنا المشتركين بأنني سأحصل على الالتزام . . سأنفذه بإتقان كالعادة . . . ستكون فخوراً به اؤكد لك . وسنتقاسم بضع مئات الملايين . . .

ـ هلال مصرّ هذه المرة . . . وصل البارحة للعلاج ، ولا اريد الشجار واياه ثانية . . . يكاد يكرهني بسببك . .

ـ ولكن . . .
ـ يعتقد انك جررتني الى درب النساء والخمرة والميسر ولذائذ الدنيا المحرمة . . .
ـ لم افعل . . أنت هكذا . . لكنني ارشدتك الى بعض المفاتيح . . يضحك صخر تلك الضحكة الطفولية التي لما تفارقه ، ويردف معابثاً : تقصد ان البذور كانت موجودة ؟ حسناً ولكنك ساهمت في تنميتها وسقيتها بعضاً من ماء النار . . .

نديم يفهم الاشارة ويسارع الى تقديم كأس من ماء النار للشيخ صخر ، لا يرفض الرجل ذلك . . بل يشكو مثل شحاذ سرقوا حذاءه : اتخذنا التعديلات اللازمة فور وصول أخي هلال . . . أخفينا كل رجس في القبو . . . الخمرة الى الصناديق . . . النسـاء الى الفنادق . .

ينتهز رغيد فرصة الانشراح : إليك مقدار جوزة من هذه الوصفة . .حضّرها ساحري خصيصاً لك . : . تناولها قبل اللقاء بساعة ، وستكون لك قوة عشرة أحصنة . . . انها وصفة «سحر الخصب» .

ـ اني بحاجة اليها فعلاً . . . تلك الصحافية الحسناء شارلوت بارنز ما تزال تطاردني . تتظاهر بالحب ، وأتظاهر بالغباء ، هي تريد فصلاً تكتبه لمؤلفها عن الاثرياء العرب ، أو شيكاً كي لا تذكرني فيه كما فعلت في صحيفتها ، وانا اريد الحب والحب فقط . . . لن أشفى يوماً من الشقراوات . . .السمراء ممنوع ان تخطو إلى فراشي بعد ان تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . . . أما الشقراوات فالضوء اخضر أمامهن حتى سن الثلاثين . . .
ـ ما رأيك بـ « للي سبوك » ؟ اليست جميلة ؟
ـ وهل هي امرأة ؟ انها مسترجلة ، تعمل بهمة الرجال . . لا أطيق المسترجلات . . . ثم انها عجوز طاعنة في العمل . . . كل سمراء تتجاوز سن الثامنة عشرة هي متقاعدة في نظري . . .

يشرب صخر وتتورد وجنتاه ويشاركه نديم الشراب تهذيباً . . . هكذا تقضي أصول التعامل مع اولياء نعمته . . . أما صداعه فقضية جانبية ، سيداويها فور عودته الى المكتب بشجار مع احد موظفيه . . . ومعاونيه . . .

يتدفق صخر في حديث النساء ويستفيض : ابني نجم أحضر صديقته . . . كانت جميلة وشهية فاستعرتها منه مقابل استيلائه على حصاني الأبيض . . . وزوجتي الجديـدة ، هل تعرف انها هجرتني ؟
ـ هل يضايقك ذلك ؟

ـ لا أدري . . . افتقد الاولاد فقط . . . حملتهم وعادت بهم الى أهلها في بلدنا . . تعرف انها ابنة ابنة عمي ؟ . . .

ـ تقريباً . . . أعني ، كنت اظنها الزوجة قبل الاخيرة . . . .

ـ بل الاخيرة فالزوجة التي لا تنجب غير (محسوبة) . . وابني الكبير من ابنة ابنة عمي ما زال صغيراً . . . صبي في الثالثة عشرة من عمره يذهب إلى المدرسة هناك . . المدرسة التي عمرتها أنت . . تذكر ؟ سبحان الله ، لقد ساعدتك في الحصول على الصفقة ، ولم اكن ادري انني أربح مدرسة لابني . .

ـ الى جانب عدة ملايين فرنكات . .

ـ انفقتها على جانين . . . وجينا لولو وريتا ملكة جمال الكون . .

ـ قبل ربع قرن . . . . . .

يضحكون . . . رغيد لا يضيع وقته هدراً . . يلتقط لحظة الصفاء ويحولها الى طعم قائلاً : حاول اقناع شقيقك بأنك ستقطع علاقات العمل معي . . . وصفقة المطار هي التعويض . . وتسريح بإحسان . .

يؤكد صخر : سأحاول . . . .

يحدق في ساعته وينهض ملدوغاً وقد أبعد كأس ماء النار بذعر . . . ويقول : حان وقت الصلاة . . . اغفر يا رب لعبدك الحقير . . اريد الوضوء . . عن اذنكم . . . لست ثملاً . لم اشرب شيئاً بعد . . . ويشهد نديم على ذلك بشدة ، ويفرش سجادة الصلاة على أرض المكتب ، ويعدلـها صخر صوب القبلة التي تشير اليها ساعته الذهبية المصنوعة في سويسرا خصيصاً للأثرياء العرب وتضم بوصلة تشير صوب القبلة . . فيطالعه مبنى الخدم ويسد عليه درب القبلة . . يقول لرغيد مؤنباً غامضاً : كيف تعمر جناح الخدم والموظفين صوب القبلة ؟ هل يريد مني مهندسك اللعين ان أصلي باتجاههم ؟ . . . سأذهب لأصلي في مكان يصون كرامتي . . . .

يغادرهما شبه غاضب . . وريثما يصل الى الباب يكون قد نسي سبب انزعاجه واستعاد مزاجه المرح ، فيضم اليه رغيد ، ويسأل نـديم خدمـة : ابني صقر بحـاجة الى مـرافق مترجم ، هل تعرف شخصاً ـ سواك ـ يمكن الوثوق به ؟

يقولها ساخراً وينفجر ضاحكاً بتلك القهقهة الخاصة الايقـاع التي تغطي المـدينة ثم يقطعها فجأة قبل الذين يشاركونه اياها . . رغيد يقول له نصف هامس : كلمة سريعة قبل

ذهابك . . لدي وسيلة لاقناع هلال بشأن المطار .

يعرف نديم ان عليه ان ينسحب وينتظرهما امام الباب . . نصف ساعة . . ساعة . . ما الفرق ؟ هذا جزء من المهنة . يغادران الغرفة بعد زمن قصير ، وصخر يطلق قهقهته الخاصة ، ويؤكد : لن يرضى هلال بأي عرض . . . النقود لا تعني له شيئاً . . انه يعيش في بلادنا كبقية الفقراء او متوسطي الحال . . . ورغيد يطبق بشفتيه على سيجاره بصرامة ولا يقول شيئاً ، ولا يشارك صخر ضحكاته التي يظل يطلقها حتى يبتلعه جوف سيارته المخملي . . ولوحتها المصنوعة من الذهب الخالص تضيء تحت شمس سويسرا البخيلة ، وترسل سكاكينها اللماعة المتلاحقة داخل عيني نسيم وميضاً موجعاً ممزقاً بينما هو يغلق الباب خلف موكب الضيف .

(رغيد ونديم . . . ايهما أقتل ، المحرض أم الاداة ؟ ترى هل جاء نديم البارحة ليلاً إلى القصر للاشراف على التنفيذ ؟) . . . .

***

رغيد يتنهد بارتياح ويخرج من جيبه سبحة الشيخ صخر ويقول منتصراً : صادرتها . . أممتها . . .

نديم لا يدهش للسرقة . يعرف هوايته هذه ، وقد شاهد مجموعته الفاخرة منها . . وكلها مسروق . . بل انه يمارس ذلك بنفسه حين يغيب رغيد عن المسرح . . . في حضور رغيد لا يدخن السيجار ولا يسرق (المسابح) ولا يغازل النساء ، وانما تتعطل حياته ، ويتكرس وجوده لأداء اية خدمة له . . . سيطرته عليه مطلقة . . مع رغيد لا هم له غير ارضائه . . . لا زوجة له ، لا موقف اخلاقياً من الاشياء . . . .

يراه احياناً رجلاً من ذهب ، وهو يزحف خلفه ليلملم التبر المتناثر . . . ويثري . . . ويثري . . . **(حتى يوم لملمت بعض الذهب المتناثر فاختلست ذلك المبلغ الكبير ، خفت وكنت حقاً أنوي إعادة المبلغ . . . لكن رغيد الذي لا تفوته شاردة مادية ولا واردة ، وضع يده على السجلات في الوقت المناسب . . . وقدم لي المبلغ « هدية » ، واحتفظ بالاوراق المزورة « تذكار صداقة ، ذهبية » كما اسماها . . . حذرتني دنيا يومئذ :**

« اعد له النقود وخذ الوثائق . . ألا ترى انه يستطيع ان يزج بك في السجن متى

شاء ؟) . . .

رغيد يسأل ، ودماغ نديم يعود صفحة خاوية كسبورة ممسوحة جاهزة لاستقبال سطور اوامر جديدة : هل تظن اننا نستطيع تأمين مرافق لابن الشيخ صخر . . .

ـ بالتأكيد يا باشا

ـ شخص نثق به نحن ، لا هم . . . .

ـ حاضر . . . يا باشا

ـ شخص لا يفهم الكثير عن الصفقات المالية . . .

ـ بالطبع . . . يا باشا

ـ لا أريده ان يتحول الى طرف ويعقّد الامور . .

ـ صواب . . . يا باشا

ـ أريده من النمط الذي يمكن ان يطرد بعد شهر مثلاً . . .

ـ موجود . . . يا باشا

ـ وان يتجسس لصالحنا . . أعني يثرثر دون ان يلحظ أحد أو هو نفسه انه جاسوسنا . .

ـ مدهش . . . يا باشا

ـ اريد ان اعرف ما يدور بين صخر وتوأمه هلال . . وبين صخر والاسرة في وطنه . . .

ـ سنعرف . . يا باشا

ـ لم اعد واثقاً من قدرته على تأمين الصفقات . .

ـ آه . .

ـ لم يعد قومه يحترمونه . . انه مبذر ومهذار ومكشوف الفضائح اكثر مما ينبغي لرجل من اسرته . . .

ـ بالفعل . . .

ـ وهم ليسوا حمقى كما يحلو لبعض الناس التوهم . كانوا أقل خبثاً واكثر شهامة من بعض العرب . . هذا كل ما في الامر . . وقد تنبه معظمهم للفضائح التي يثيرها البعض في الغرب . . وفي الوطن . . . والأموال المهدورة . . . وصارت مهمتنا اكثر صعوبة . . .

ـ . . أكثر صعوبة . . .

ـ وصار علينا ان نفكر باسترضاء هلال . . . الأخ الصالح . . وذلك اكثر صعوبة . . هلال رجل يستحيل شراؤه وليس كشقيقه التوأم صخر . . . صخر ايضاً ليس للبيع ، لكن

المرء يستطيع النفاذ الى أعماقه عبر نقاط ضعفه الكثيرة المنتشرة كالثقوب في شخصه . . أما هلال ، فلا . . انه اكثر صعوبة .

ـ اكثر صعوبة يا باشا . . .

ـ وعلينا التفكير بوسيلة لتلميع صورتي امامه . . . كأن اقوم بعمل انساني ما نحيطه بهالة دعائية . . . كأن انقذ امرأة جميلة من الموت بكل فروسية وشهامة . .

ـ سنجدها وننقذها . . .

ـ وعلينا تلميع صورتي على الصعيد العام . . العملي . . . كأن نبني جامعاً نقدمه هدية لهم . . جامع صغير في المطار . . للمرة الاولى مطار له جامعه ، يؤمه المصلون ، لا سوقاً حرة فقط ، ومطعماً وبنكاً وغير ذلك من شؤون الدنيا الفانية . . . سجل الفكرتين عندك .

ـ سجلت

ـ كي تظل الاعمال تتدفق يجب ان يحبني الناس . انتهى عصر الرجال الفاسدين امثال صخر . سيكون علينا من الآن فصاعداً ان نتعامل وامثال هلال . . وذلك يتطلب صورة جديدة لشخصيتي . . . صورة الرجل المحسن الشهم المحبوب . . . .

ـ انهم يحبونك بالطبع . . وسنزيد في حبهم لك ان شاء الله . .

ـ اصمت ولا تتملقني !

ـ حاضر يا باشا . .

ـ لكل انسان نقاط ضعفه باستثنائي طبعاً . .

ـ طبعاً . .

ـ وعلينا ان نكتشفها في هلال . .

ـ ضروري . .

ـ من تقترح كجاسوس . . أعني كمرافق لابن صخر . .

ـ . . . . . .

ـ أريد شخصاً مناسباً الآن . . .

ـ حاضر . . انه موجود يا باشا

ـ اسمه ؟

ـ خليل . . خليل الدرع ـ ان لم تخني الذاكرة ـ لبناني عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، صاحب مكتبة . قروي الأصل . جامعي وطني وليس حزبياً كما سمعت من

أبوي ، لكنه كثير المتاعب والمشاكل مع صحبه . فقير ومتكبر ، لكنه صار مؤخراً يتمسح بالاغنياء فيما يبدو ، ويركب مقصورة الدرجة الاولى بالطائرة وثيابه المهلهلة وأظافره الوسخة غير المقلمة وساعة يده العتيقة الرخيصة تشي به . . من الواضح انه يحاول التمسح بالاغنياء بحثاً عن فرصة ، في البداية ، شاهدت هندام زوجته وظننتهما أثْرَيا في الحرب . . . وحين جاءت المضيفة بالطعام ، ولم يعرف كيف يستخرج صينية الطعام المخفية داخل ذراع المقعد أدركت انه يركب مقاعد الدرجة الأولى للمرة الأولى . . . زوجته اكثر حذقاً اذ قالت للمضيفة بصوت عال متعجرف سمعته بوضوح : « ارجو ان تسحبي الصينية ، لأنني اخشى كسر أظافري » . . حسن تخلص . بنت أصل . لو لم أذكرها لخشيت الرجل ، ولظننته مدسوساً لاختطاف الطائرة او شيء من هذا القبيل . . . كان والدها تاجراً ثرياً ، البيتموني . .

ـ سليم البيتموني ؟

ـ نعم . . المرحوم سليم البيتموني . .

ـ هل مات المسكين ؟

ـ اجل . . جاءت الحرب والتهمت ثروته فمات قهراً . . .

ـ المسكين . . أعرفه . . ونصحته منذ زمن بعيد بتهريب أمواله ومغادرة بيروت . . منذ جاء عبد الناصر الى الحكم قلت لأصحابي كلهم : هذا رجل جاد . . ستكون له اخطاء كثيرة ، لكنه نزيه الكف وقد يستعصي على الشراء . . إنه الزلزال . . سينتقل من مصر إلينا ، ومن قطر الى آخر وسيلتهم أموالنا . . . . . . انها قضية زمن لا اكثر . . والدي رحمه الله حدس ذلك ، منذ شاهد صورته وسمع خطبه يوم تأميم القنال . . . لقد مرض . . . لم يعد يعرف كيف يعمل . . كان يكفي ان يسمع باسمه حتى يرتفع ضغطه وتسوء حساباته ويخسر الصفقات . . استلمت اعماله وهي على شفير الهاوية . . . هربت بما تبقى لنا من أموال . . وتعرف بقية الحكاية . . .

ـ سأفتش عن خليل الدرع . . او اي بديل مشابه . .

ـ لا . . أريد صهر البيتموني بالذات . . . ابنته تستحق شرف حضور سهراتنا . . . واهتمامنا . . . ورعايتنا . مسكين والدها فقد كان شريفاً ، يخاف ايذاء نملة . . . فانتهى به الأمر مفلساً بالطبع . . . اتصل بها الآن . . .

ـ لا أعرف عنوانها . . التقيتها البارحة في الطائرة .

ـ إعرفه . . اكتشفه . .
ـ حاضر .
ـ هذا كل شيء الآن . . بالمناسبة ، هل احضرت لي أفلام (فيديو) جديدة ؟ . . .
ـ نعم يا سيدي . . . صورناها في الاستوديو الخاص ، بمعاونة المصور الجديد . . . شاهدت جزءاً قبل حضوري ستدخل السرور على قلبك . . .
ـ قد نحول خليل الدرع الى قسم الفيديو بعد انتهاء مهمته مع ابن صخر الغنمالي . . ومن يدري ، فقد يصلح لمستقبل باهر ما . . . مثلك . .
يمتعض نديم حين يشبهه رغيد بذلك (الصعلوك) ويسأل : هل تأمرني بشيء آخر ؟
ـ لا . . تستطيع الانصراف . .
وحين بلغ نديم الباب الخارجي ، قرع جرس « الانترفون » وصدرت الاوامر اليه بالعودة الى حضرة رغيد ، فأطفأ سيجاره الذي كان قد أشعله وهو في دربه الى الباب الخارجي وعاد بأذنين متدليتين كأي كلب مطيع . .
ـ نسيت ان أسألك أما زلت قلقاً على والديك ؟
(اللعنة . . . لماذا يدير اصبعه في جرحي الذي أحاول نسيانه ؟) . . .
تابع رغيد بلهجة شبة ساخرة : لن يصيبهم الا ما كتب الله لهم ! . . فاطمئن . .
غادر نديم القصر وفي فمه مرارة شبيهة بطعم الذل سرعان ما ذابت في طعم سيجاره الفخم .

* * *

« . . . قدوس قدوس إلهاً جبار أجليا جلينا أشمخ طلمخطا محطاء يابطميناخ . . .
. . . شملاه همطمهيل يا موخ مدوخ قيمطارخ أرخ أرخ بياخذاء أشمخ حامونين يشتهون النهاريش مطوش يوطوش طوش اللهم اني أسألك بحق هذه الاسماء العظيمة التي تكلم بها الملك عسيائيل الموكل بالنور . . .
. . . . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما اوقدوا ناراً للحرب أشعلها ابليس وجنوده توكل يا ابليس والق بين صخر ابراهيم الغنمالي وهلال ابراهيم الغنمالي العداوة والبغضاء وفرق بينهما بحق شفشفي شفاً شفى دملاخ قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ألوحا العجل الساعة راب وغنم والهزيل ومصدع وشبيط وعمير وسالف وقدار وسمعان رأس الماكرين بأسرهم وما هي إلا فرقة ودمار . . . . » .

* * *

حين غادر رغيد جناح ساحره توجه الى القاعة الخاصة بالفيديو والتلفزيون تتصدرها شاشة كبيرة لعرض الافلام السينمائية أيضاً . تبعه نسيم متلصصاً . . . لم يجرؤ من قبل على اقتراف ذلك ، لكن موت سري الدين المفاجىء شحنه بجنون ملتهب من نمط لم تألفه نفسه المسالمة . ماذا يصورون لهذا الوغد الرغيد ؟ أفلاماً جنسية خاصة به تقدمها زوجات مساعديه ، وليس بينهن امرأة لم تمر يوماً بغرفة نومه ؟ أم الصغيرات اللواتي يمتعه شراء حق المرور في غاباتهن البكر قبل اي عابر آخر ؟ . . . . أم تراهم يصورون له عمليات القتل التي يأمر بتنفيذها ، ليتلذذ بمشاهدة وجه الضحية وهي تتجرع غصات الذعر والموت ؟ . . . هل سنرى الآن وجه سري الدين وعجلات السيارة تصدمه في موضع الكلية التي اعطاها لرغيد ، فوق قطب الجرح نصف المندمل ، يطير عن الارض ويهوي ممزقاً مثل دمية انتهى دورها في مسرح الدمى ، فقطع صاحب المسرح خيوطها ورمى بها إلى الليل والنسيان ؟ . . . هل سنرى وجهه يتهشم ؟ . . .

رغيد مستقر في مقعده الملكي وشريط الفيديو يدور والصور تتلاحق على الشاشة ، والأصوات . . . . ورغيد يقهقه احياناً بصوت مرتفع . . . مر زمن طويل ، ورغيد يبدل (الكاسيتات) بين آن وآخر ونسيم يلهث على الارض مختبئاً خلف المقعد الاخير في الصالة ، والدهشة تسري رعدة في جسده حتى ليكاد يشهق . . .

يخيل الى رغيد انه سمع شيئاً . . يلتفت بعد ان يكون نسيم قد غادر القاعة لا يلوي على شيء . . . يهرول الى المطبخ . . الطباخ الالماني منكب على اعداد صلصة ما كما لو كانت وصفة طبية . . . يركض اليه نسيم شبه باك ويقول له : « اعرف انك لن تفهم حرفاً مما اقول ، لكنني سأجن اذا لم أقل شيئاً لانسان . . . ارجوك . . انصت ولو لم تفهم . . ما الفرق ؟ » . . . يتوقف الطاه عن العمل ويتأمل نسيم . نظرته محايدة ووجهه متحجر القسمات . . .

يتابع نسيم والدموع تتدفق من عينيه : « هل تستطيع ان تصدق ما يشاهده هذا الرجل ؟ انه يشاهد رجالاً آخرين يبكون قهراً وفقراً ويروون خيباتهم . . . يأتون (بالمقطوعين) في اوروبا ، الخائبين في اوطانهم من السذج والثوار المطرودين والمناضلين الصغار المقهورين والهاربين المنفيين والكادحين المخدوعين الباحثين عبثاً عن الثروة فاللقمة . . . الفقراء العرب . . الطلاب الرافضين لانظمتهم القامعة . . . يأتون بهم ، وكل يروي قصة عذابه مقابل مبلغ مغر من المال . . . ومن يرفض يتم استدراجه للكلام

وتصويره وتسجيل الشريط دون ان يدري . . يصطادونه في لحظة ضعف انثوية او (خمرية) او (رفاقية) ويتم التصوير الرديء احياناً . . لكنه يتم . . . انها هواية هذا المجنون . . . يريد ان يشمت بالثوار والمناضلين وبالانظمة التقدمية العربية وغير التقدمية . . وبعضها يمنحه للاسف مادة دسمة لافلامه . . . يريد ان يشمت بالاخوة الاعداء . . بالثوار المتخاصمين الذين يقتل بعضهم بعضاً دون ان يلتفتوا للعدو القادم بالزلزال . . ويستمتع بمشاهدة مباذل بعض الذين يتشدقون بالمبادىء السامية ، ويبيعون شعوبهم في حمامات الدم ليسبحوا هم سراً في حمامات الذهب . يريد ان يثبت ان كل ما حدث على الارض العربية منذ ايام عبد الناصر كان خاطئاً لمجرد انه ضايق والده وصحبه التجار الكبار . . . وضيق على الاقطاع . . . لقد اخبرني أمير بذلك كله من قبل وظننته يبالغ . . انه بالتأكيد على حق . هذا رجل لا يعرف غير متعة الشماتة . . الشماتة بعرب اوروبا الاثرياء كلما سنحت الفرصة . . والشماتة بعرب اوروبا الفقراء والشماتة بالمغتربين وبأهل الوطن وبالعرب في كل مكان . . . يلتقطونهم له من الشوارع . . والحانات . . والمعامل . . والارصفة . . والكليات وابواب السجون والمستشفيات وما اكثرهم . . هل تصدق انه كان يرقب للتو سري الدين وهو يفاصل نديم على ثمن كليته ؟ آه سأقتله . أقسم لك انني سأفعل . . هل تصدق انه يحتفظ بتمثال شبيه بعبد الناصر في غرفة السباحة المذهبة ، وانه يخاطبه ويشتمه ويروي له يوماً بيوم أخبار مآسي بعض العرب ولا مبالاة بعضهم الآخر ، ويقرعه صارخاً مؤنباً شامتاً ؟

« لو وضعت يدك في يدنا لحكمنا العالم ، لكنك اخترت الحمقى الفقراء والجماهير ، فقتلوك حزناً وخيبة » . . . هكذا سمعته مرة يصرخ وصوته يثقب الزجاج المرشوش بـ (السبراي) الذهبي . . . ومرة انبه لانه لم يتقن القمع ، ولم يعرف كيف يستخدم النظام البوليسي كما نجح في ذلك بعض ورثته . . . رغيد يريد قتل كل فقير . . . وسرقة اعضاء كل شاب . . . يمتص دماءنا . . . سيطلب منك ذات يوم ان تطبخ له كبدي . . قد ينصحه بذلك ساحره المجنون . . من يدري » . . .

ينهار نسيم على المقعد ويدفن وجهه بين يديه ويبكي . . يد الطاهي الالماني على كتفه . . . كهارب حنان تسري منها الى الجسد المرتجف . . . يحس نسيم بدفء التواصل الانساني . . . ثمة شريان غامض يمتد احياناً بين الدورة الدموية لانسان وآخر . . . شيء يتجاوز اللغة وربما عرفه الانسان قبل ان يعرفها . . شيء لا يمكن تزويره . . شيء لا اسم له

يحسه قادماً من حضور رفيقه عبر يده الممسكة بكتفه . يرفع نسيم وجهه نحوه ، والدموع تلطخ ملامحه . . . ويتناول الطاهي خرقة المطبخ القذرة ، ويمسح بها وجه نسيم ببطء وعناية ، ثم يعود الى طنجرته .

***

في الليل ، نهض نسيم من كابوسه محموماً والدموع تغطي وجهه . . لقد جاءه سري الدين والدم يسيل من عينيه ترافقه أمه . قال له شيئاً لم يفهمه ، وحين ءافحه فوجىء بأن اصابع يده سلاميات هيكل عظمي . .

لم يكن قد استيقظ جيداً حين انفجر جنون مسعور في رأسه : سأخنق رغيد بهاتين اليدين . . استطيع . . لا استطيع . . سأسأله عن الحقيقة على الاقل . . . سأهدده بالقتل اذا فشلت في قتله . . يجب ان افعل شيئاً . . اي شيء . .

يصعد السلم وهو لا يدري بالضبط ما الذي ينوي ان يفعله . . يصل الى غرفة رغيد ، لا ضوء . يدير مقبض الباب ببطء وهو يعرف سلفاً انه مقفل . سيستيقظ رغيد وينهض ليستطلع الأمر ، ولكل حادث حديث ، يتابع ادارة مقبض الباب . ينفتح بيسر ! يدهش ثم يغمره ذعر مفاجىء . انه ليس مقفلاً . يمضي بهدوء شبح نحو الفراش وقلبه طبل مسعور يقرع في غابة . يجد السرير فارغاً . يتلفت حوله كمن يتجول داخل كابوس . لا يرى رغيد في الغرفة . لم يكن ممكناً ان ينام فيها دون ان يوصد اقفالها الثلاثة . يغادرها خائفاً . ترى هل ينام في مكان آخر مجهول غير فراشه خوفاً من محاولة اغتياله ؟ هل ينام كمصاصي الدماء في سرداب ما داخل قلعة الاسرار هذه ؟ أم انه يزور ساحره ؟

يسمع صوت انتحاب بشري . من يبكي ؟ اللوحات ؟ الساحر ؟ يتبع الصوت حافي القدمين . يتجاوز غرفة وطفان عبر ممر البخور والتمتمات والتعاويذ ، والنواح المنتحب قادم من مكان آخر . . . من الاعلى . . .

يلاحقه . . .

يجد نفسه أمام الغرفة المذهبة ، المحرم على احد دخولها ، التي تعتلي القصر وتحتل طابقه الاخير .

رغيد كان قد اعلن عن رغبته بأن يدفن فيها . . وكرس ثروته وقفاً لكل زائر لها ، شرط دخوله حافي القدمين صامتاً محني الرأس وفي وضعية الاحترام كما تزار قبور العظماء والامكنة

المقدسة جميعاً ! . . . كان يظنه مازحاً حين اعلن اهداء ميدالية ذهبية تصك عليها صورته ، تمنح تذكاراً لكل زائر . . . وبذلك لا يرث ثروته الطائلة الا ضيوف القبر ! . . . .

الباب ليس مغلقاً جيداً ، وشعاع من الضوء يتسرب عبره . يقترب مرتجفاً ويحدق . وسط القاعة الشاسعة يشاهد رغيد راكعاً امام التابوت الذي أعده لنفسه متصدراً المكان ، ومصابيح خاصة (سبوت لايتس) تشعل ذهب التابوت ، وثمة عتمة نسبية مسدلة فوق الممر البيضاوي الرخامي الطويل والضيق ، الذي يفترض ان يمشي الزوار عليه تباعاً فيما بعد حين يزورونه ! . . . لقد سمعه مرة يتناقش ومحاميه وطبيبه عن كيفية دفنه ، ممدداً في التابوت ، او واقفاً فيما يشبه الخزانة الذهبية الشفافة الباب . . . يذكر ان طبيبه قال شيئاً عن صعوبة الاحتفاظ بالجثة واقفة عمودياً ، وفضائل تمديدها . . وأصر رغيد على ان يظل واقفاً ليرمق الناس من عل ، محاميه اقنعه بأنه لن يرمق احداً يومئذ ، وهم سيرمقونه ، وبالتالي الوضعة الافقية أفضل ، لكي يضطر الناس الى احناء رؤوسهم حين يلقون على قبره نظرة التعظيم . . .

وها هو رغيد ينتحب امام قبره بصوت عال كطفل مذعور . . والتابوت فارغ . . . وهو يرتقيه تارة ويتمرن على التمدد داخله ، ثم يغادره ليتابع انتحابه .

تتحجر يدا نسيم .

لم يكن بمقدوره قتل رجل وهو يبكي ، او يصلي ، او يأكل ، مهما كان وغداً .

ينهض رغيد ويمشي فوق ممر الزوار متأملاً التابوت عن بعد ، ممثلاً في (بروفة) موته دور البطل والمتفرج معاً ، مختنقاً بدموعه المدرارة . .

نسيم يعود الى غرفته مصعوقاً ، متخشباً كجثة ، في فمه طعم الجنون ، وقد استيقظ تماماً من نومه ، ليرجع الى فراشه .

يتساءل بذهول وهو يلف الاغطية حوله كرحم : هل انا قادر حقاً على القتل ؟ هل كنت قادراً على قتل رغيد ؟

***

. . . برهتية برهتية كرير كرير ترقب ترقب برهش برهش غلمش غلمش خوطر خوطر قلنهود قلنهود برشان برشان كظهير كظهير نمو شلخ نموشلخ برهيولا برهيولا بشكليخ بشكليخ قزمز قزمز انغلليط انغلليط قبرات قبرات غياها غياها كيدهولا كيدهولا شمخاهير شمخاهير

شمخاهير شمخاهير شمهاهير شمهاهير بكهطهونية بكهطهونية . . . . .

***

يتقلب نسيم في فراشه نصف محموم . . . يحاول ان يستعيد هدوءه وتماسكه . . وعقله . . العقل هو ما يؤمن به . يجب ان اغادر هذا المكان قبل ان اقتله . . يجب ان استرجع ذاتي . . . اتذكر قراري القديم . . ان اقف واخوتي خارج جيل ينتحر بجدارة او يتخدر بجدارة او يقتتل وأخاه بمأساوية شكسبيرية . . . او يضحي وتهدر تضحياته وتكوم الجثث في دهاليز المستشفيات جنباً إلى جنب . . جثث الابطال والخونة . . جثث القاتل والمقاتل والسارق والمسروق . .

(ذهبت الى المستشفى للتعرف على جثة صديق بعد معركة طاحنة في شوارع بيروت . . . كانوا قد كوموهم جميعاً بعضهم فوق بعض في ممر المستشفى ، بعدما امتلأ براد الجثث وأسرة الجرحى ولم تعد المستشفيات تستوعب نهر الاموات المتدفق من الشوارع . . . بحثت عن صديقي طويلاً ، فقد كانوا مكومين هكذا ، القاتل الى جانب القتيل أو فوقه او تحته . . بدوا لي جميعاً ، اولئك الاخوة الاعداء في حالة عناق . . . كانوا في الموت متعانقين ، متشابهين ، وعلاقة جدلية تربط موت احدهما بالآخر وتقود اليه . . . ثمة خلل ما لا اعرف تسميته جعلهما يتعانقان امواتاً بدلاً من التفاهم احياء . . . وحين شاهدت صورهم في الصحف في اليوم التالي ، سقطت ثانية تحت وطأة الاحساس العبثي ذاته . . .)

يجب ان اظل واقفاً خارج دائرة العنف ، في ورطة الوطن وفي ورطة المنفى . . . خارج جيل لم يعد ينفع شيء في اصلاحه ، ولا اريد ان تنتقل إليّ عدوى أمراضه وسيزيفيته وساديته وماسوشيته واتقانه لعنف الهدر والتخدير ، وخارج زمن يكاد يحولني الى قاتل قبل ان ابلغ السادسة والعشرين من عمري . . ولكن ، هل بوسعي ذلك ؟ هل يمكن رسم خندق بين جيل وآخر ، وعام وآخر ، وزمن وآخر ؟ . . .

المهم ان اغادر هذا القصر الملعون قبل ان اقتله . . ليتني استطيع . . ليتني لا أستطيع .

●●●

(لماذا لا اعترف ببساطة انني ما زلت احبه ؟ الاحزان كلها التي سببها لي ، الخيبات والمصائب ، وما زال دمي يشتعل لذكرى تلك الايام المتوهجة . . ما زلت اسيرة جسده القروي الخشن الذي يتقن التجوال في المغاور . . . يتحسس الجدران الرطبة والصخور في ظلمة النشوة ، ويتقن ملاحقة الانهار الباطنية حتى ينابيعها . . وبضربة واحدة تنشق الصخور وتتفجر المياه الحارة القادمة من جذور الكوكب وترتجف المغاور بالزلزال الملون . . . وتنهمر الألعاب النارية الكاوية) . . .

غادرت كفى مدرسة (كوليدج دي ليفار) في ضاحية (فرسوا) وقد خلفت اولادها في عهدة مدير القسم الداخلي الذي تمنته سويسرياً ، فوجدته غريباً مثلها : ايطالياً . . . وقعت الاوراق . دفعت الرسوم . طلبوا منها وثائق اضافية ، شهادة صحية وشيء من هذا القبيل ووعدت بتأمينها . . صدمت قليلاً بمناخ المدرسة . كانت تتوهم المدارس الداخلية السويسرية حلم العلم والانضباط ، وفوجئت ببعض مظاهر الفوضى ، ومراعاة الاهل الاثرياء . سارعت الى التاكسي متلهفة للوصول الى الفندق ، حيث خلفت خليل نائماً كوسادة . الصخب كله الذي اثاره رامي وفادي لم يوقظه ، ولا دخول الجرسون حاملاً طعام الافطار ، ولا اخراج الحقائب الى التاكسي . لم توقظه ليودع الولدين . سيراهما في عطلة نهاية الاسبوع . انه لم ينم منذ اسبوع على الاقل ، ولن يصحو قبل ذلك فيما يبدو . . . على النقيض منه ، استيقظت هي باكراً متوردة ، متأججة حيوية ، متأهبة لملاقاة حلمها الكبير : مغادرة بيروت العنف والعيش وما تبقى من اسرتها في مكان آمن مرفه .

التاكسي يقطع طريقاً خارقة الجمال في درب العودة من « فرسوا » الى جنيف ، وكفى تتأمل البحيرة مبهورة بجمالها وتتمنى لو كان خليل الى جانبها يستمتعان معاً . . كم تفتقده . مضحك ان تفتقد امرأة زوجها ولكن هذا ما تصنعه بيروت بها وبسواها ، بين سجن وآخر ، وخطف وآخر ، وشجار وآخر . لقد انقضت اعوام منذ « المرة الاخيرة » ، ولم تعد تطيق صبراً . . بل انها صارحته بذلك قبل اعتقاله الاخير .

(اشتعلت بذلك الاحساس الكاوي الارعن الذي لا شفاء له في نظري عبر الفلسفة او العلم او التصعيد الى اهداف اخرى سامية او سائر المعارف العلوية التي نصحني بها خليل ليبعدني بها ! . . هاجمته مفترسة . . كنت ارتجف ، ولم اعد ارى بوضوح ، تنحّت هذه الحاسة وافسحت مكانها لسواها . استسلمت لذلك الجموح بلا رادع ، ولم الرادع ؟ أليس زوجي مثلاً ؟ . .

... صرخ بي مداعباً : كفى يا كفى ...

انشبت اظافري في كتفيه وحاولت الالتحام بذلك القروي الخارق . . وفاحت رائحة حريق السنديان ممزوجة بالصعتر البري ، وعطر ازهار الليمون ، والتبغ ، والبهارات ، والورود الاستوائية بدأت تزفر أنفاسها الحارة ، وقد تفتحت تويجاتها مرتجفة في ظلمة ليل يتعرق تنهدات . . . تابع تهربه المازح: «ماذا تفعلين؟هل تحاولين اغتصابي؟» . . . كنت قد تجاوزت ارض الكلام ، ودخلت فوهة البركان ، اسبح في موجات الحمم النارية وانهار « اللافا » ، فعجزت عن الاجابة وتابعت ابحاري نحو قاع البركان حيث تغلي الحمم وتقذف العناصر الجامحة في كل اتجاه . . .

رمى بي زوجي الى الارض كعذراء تدافع عن شرفها ، وصرخ غاضباً : انت لا تحبينني . . .

وهبت الرياح الباردة من فمه ، وتدفقت عاصفة صقيع خرافية من عبارته . . وهطل فوقي مطر مثلج وزمهرير وصفعت وجهي حبات البرد المتحجرة وانا ابكي في غابة تجلدت اغصانها واحرق الصقيع خضرتها « اجل . . انت لا تحبينني » . . .

ـ انت احمق . . . ماذا تسمي تدفقي اليك ؟

ـ انت تعشقينني ولا تحبينني . .

ـ عدنا الى « الكلامولوجيا » لنخفي عجزنا عن العمل . . انك في الحب كما في السياسة . . هل كنت تريد محاضرة حول ممارسة الحب ؟ . .

ـ انت قلتها : في الحب كما في السياسة . . . ولكن هذا القول هو ضدك . . . ويشهد لي . . .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني ان الرقة في الحب مرادفة للديمقراطية في السياسة . . وانا محروم من كليهما . . .

ـ ربما كنت محروماً من الديمقراطية ، ولكنك لست محروماً من الرقة في الحب وغير الرقة . . انت ترفضني . . .

ـ انا ارفض عشقك ، واشتهي حبك . .

ـ عدنا الى التنظير الشفهي هرباً من الممارسة . . . كيف اعشقك ولا احبك ؟

ـ الحب هو ان تفهمي جرحي ، تتحسسيه بحنان . . الحب هو ان تكوني صديقتي

ايضاً . . . العشق هو ان تحاولي امتلاكي حياً او ميتاً . . سعيداً أو تعيساً . . .

ـ لا افهم . . .

ـ نحن حليفـان ولسنا صـديقين . . . حلفنـا وليد مصـالح مشتـركـة : الاولاد . الاسرة . . . صداقتنا لم تولد بعد . . .

ـ لا افهم . . .

ـ لم تحبينـي في اي يوم . . . لقد عشقتني عشقاً جارفاً . . . رغبت في امتلاكي .

ـ لا افهم . . .

ـ لقد تحديت اسرتك الثرية واصهرتك ووالدك ومجمع التجار البيروتي بأكمله لاجل اتمام صفقتك التجارية الخاصة : امتلاكي . . . لم تخرجي عنهم ، بـل تابعت تقـاليدهم المهنية حين لم تأبهي لمصالح احد أو رأي أحد في إبرامك لشراكة تشتهينها . . .

ـ انت مجنون . . .

ـ انا احبك . . . اي انني اكلف نفسي عناء فهمك ، وآبه لما تفعلينه بنفسك ولو من اجلي . . انا اشعر بالحنان نحوك لان والدك اسماك « كفى » ، فقد كنت البنت السابعة لتاجر يشتهي صبياً واحداً في الاسرة غير اصهرته . . . منذ صغرك كبرت نصف مرفوضة . كان على والدتك ان تنجب صبياً ، وكنت فرصتها الاخيرة . . وفوتِّ عليها الفرصة ، فلم تبالغ في حنانها نحوك او كرمها . . كنت دوماً الفتاة التي جاءت بالنيابة عن شقيقها . . وهو ما لا يغفره مجتمعك بالذات . . . القرويون الفقراء امثالنا يغضبون لولادة البنت كأهلك ، ثم يقولون : تأتي ويأتي رزقها معها . . ثم يحبونها كالصبي . . . الثري يظل يشعر بالغصة كلما شاهد تجارته تزدهر وامبراطوريته تنمو بلا وريث . . .نحن لا نشعر بهذه الغصة الكاوية طويلاً ، اذ ليس لدينا ما نورثه لأولادنا غير الفقر والشقاء . . . اجل . . شعرت بالحنان نحوك . . احسست انني ساحة معركـة . . تريـدين ان تتحديهم . : تثبتـي انك صلبـة كصبي . . انك لم تخرجي عن طاعتهم حقاً حين تزوجتني ، بل اثبت لهم انك قادرة على العصيان كصبي . . قوية كصبي . . انني ارى فيك وجه والدك البيتموني الكبير . . .

ـ وأنا ارى فيك الغباء وقلة الوفاء . . .

ـ وانت خاسرة من النوع الرديء . . . لا تعرفين كيف تواجهين الخسارة . . وجهك هذه الايام شبيه بوجه والدك والنيران تلتهم دكاكينه وعقاراته واحداً تلو الآخر . . .

ـ انت حقير . . لقد ضحيت بأسرتي لاجل الزواج منك . .

- هذا غير صحيح . . . لقد غمروك بالهدايا والمجوهرات بعد الزواج . . عوضوك عن ثمن الشقة التي كان يفترض تقديمها اليك كهدية عرس أسوة بأخواتك الست . . . ولم يقاطعك احد منهم . . قاطعوا صلتك بي ، فكانوا يزورونك حين اغيب عن البيت . .

- انت حقير . . . بدلاً من شكرهم لرعايتي وانت تتشرد بين سجن وآخر عاطلاً عن العمل مهملاً لاسرتك حارماً اطفالك من المال والامان . . . تتمرد وتشكو ؟ .

- تدّعين حبي ، وتلعبين دور الزوجة المظلومة المحرومة . . . هل سألتني مرة واحدة بماذا احس نحو ما يدور في وطني ؟ بماذا افكر حين ارى القمع ؟ اي ذعر يجتاحني وانا ارى العدو يلتهمني والصديق يهملني والحليف يضربني ؟

- انت تعرف انني لا احب السياسة . . .

- هذه ليست (سياسة) . هذه حياتنا نحن . . هذه الامور تقرر هل سينسف بيتنا ام لا ؟ هل ستجدين ثياباً لاطفالك ام لا ؟ . . هل سيبقى لنا وطن ؟ وهل ؟ ام اننا سنصير من سكان الارض المحتلة ؟ . . انت تفكرين بالسفر لا بالوطن . . الحرب يشغل بالك ، ومستقبل اطفالي يشغل بالي . . . في ظل اي عَلَم سيتفتح شبابهم ؟ هل يكتب القتال عليهم كما كتب علينا الاقتتال الذاتي اللعين ؟ . .

- انت تعرف انني لا احب العنف . . . وامقته في اشكاله كلها . . لكن ذلك لا يعني انني لا احبك . لو لم احبك لتخليت عنك منذ زمن بعيد دونما لوم اجتماعي . . .

- ستتخلين عني يوم تشفين من لعنة جسدي ، ويوم تقنعين بأنني لن أكون مطية لتحقيق احلامك . . . انا اداة في حياتك ، وانت لا تحبينني لذاتي وانما لما يمكن ان تفعليه بي . . . تريدينني حصاناً يمضي بك الى ارض اللذات والثراء . . . لا تفكرين لحظة واحدة بالتساؤل : هذا الرجل ، ما الذي يعذبه ؟ من هو حقاً ؟ .

- وانت هل فكرت مرة بما يعذبني ؟

- تعذبك شهية الرحيل الى الحلم ، وتعذبني شهية البقاء في الوطن بأي ثمن . . .

- ما امهرك في حقل التنظير . . . ان انبهارك بمهارتك اللفظية في رسم الحقائق كما تشتهي يجعلك تقفز من فوق جثة ابنتنا . . وداد . . وانا اتحاشى ذكرها رأفة بك وبنفسي . . . نعم . . اريد ان ارحل لأحمي ما تبقى من اولادنا من الموت . . . أهذا وطن الذي تدّعون انكم تعيدون خلقه ايها الرجال المتوحشون ؟ ابنتك قتلت إثر شجار بين

رفاقك من اجل « كيفية » تحرير فلسطين . . فلبنان . . كانت لكل منهم نظرية مختلفة . . . وداد الطفلة ابنة الخمسة اعوام دفعت الثمن . . . قتلت لا من اجل تحرير فلسطين ولبنان بل من اجل خلاف على كيفية تحريرهما .

ـ ان شماتتك بالثوار اعظم حتى من حزنك على ابنتك . . انك حقاً ابنة طبقتك . . .

ـ ها انت تنسحب من جديد الى قلعة الكلمات والتنظيرات . انتم مجموعة من المزورين الهاربين . . تهربون من مواجهة جسد المرأة التي تحبون ، وتهربون من مواجهة العدو الذي تكرهون . . . وتهربون من الصدق الى البلاغة . . . تذكر يا خليل . . طفلتنا قتلت لانكم لا تعرفون الحوار الا في معرض الهرب من الحقائق . . . وتزويرها . . .

ـ لا تحاربيني بسلاحي . . وتمعني غرس اظافرك في جرحي . تعرفين حرقة قلبي لمصرع وداد . . . وتعرفين حرقة قلبي من اجل الحرية والديمقراطية شرط ممارستها في ظل الحوار . . وبالاحرى لاستحالة ممارستها في غير ظل الحوار . . . تعرفين ان السبب الاساسي لمتاعبنا كلها هي قولي « لكلمة الصدق »كلما خيل الي انني وجدتها . .

ـ عدنا الى المحاضرة . . . كنت اذكرك بمصرع وداد لاقول لك انني لا اريد لرامي وفادي ان يقتلا خصوصاً واننا على الارجح لن ننجب بعدهما ونحن على هذه الحال . . .

ـ في البداية تهينين جرحي . . والآن رجولتي . . حسناً . . انت مسؤولة عن مصرع وداد . . انت التي تركتها تلعب في الشارع وذهبت الى الحلاق . . .

ـ ما اسخفك ؟ هل تعني ان كل امرأة تذهب الى الحلاق يجب ان تساق الى المحكمة بتهمة الشروع في قتل اولادها ؟ . .

ـ من يسمعك يظنك خريجة نقابة المحامين لا كلية البنات الخاصة بتعليم بنات الاغنياء فنون التدبير المنزلي واللغات والبيانو . . .

ـ كوني بنت رجل غني لا يلغي حقي في الدفاع عن النفس . . . لم يعد في مقدور أمّ تقطن بيروت ان تسجن اولادها داخل البيت اكثر مما فعلت ، كي تخلي الشوارع للعب الكبار . . لعبهم يطول سنوات لكنهم لا ينظفون الملاعب من البقايا . . . فيأتي اطفالنا ويلعبون ببقايا دمى الكبار . . كان ذلك ذنبها واولاد الجيران . . لعبوا بقنبلة غير متفجرة في البؤرة المجاورة . . فانفجرت بهم . . .

ـ تستعملين ذكراها لتنفيذ مخططك . . .

ـ ليست خطيئة ان ادافع عما تبقى من اطفالي . . هذه المدينة لم تعد صالحة لنمو الاطفال

ولا الافكار ولا النضال . . . ليست جريمة ان اشتهي الرحيل واسرتي كما فعل الآلاف . . . لن اسمح لك ولاصحابك بقتل المزيد من اطفالي بعد احتلال ملاعبهم وتخليف الالغام بين دماهم . .) . .

يتوقف السائق امام الفندق . يسألها : هل تريدين الذهاب الى مكان آخر ؟ . . . . تفهم تأنيبه المهذب . نسيت انها جالسة في تاكسي وعليها ان تنصرف . تقرأ الرقم في العداد بصمت . تدفع بصمت . . . تغادر السيارة محاولة تخليف كابوسها فوق المقعد الخلفي وتصفق الباب بسرعة كي لا يلحق بها ويرافقها بقية يومها .

●●●

استيقظ خليل فوجد نفسه ممدداً على فراش في غرفة فخمة . اين انا ؟ ومض السؤال وتدفق الجواب شلالاً من الاحداث المروعة .

تذكر البارحة . الهرب . درب المطار . القصف . الطائرة . جنيف . هل يمكن ان يكون ذلك كله قد حدث البارحة فقط ؟ . . . كل ما يعرفه هو انه نام ونام ، وشاهد فيما يرى النائم كفى تنهض وترتدي ثيابها ، ورامي وفادي يتضاحكان ويلتهمان افطاراً ، وحقائب تحزم ، « جرسون » يدخل وآخر يخرج ، وكل في ثياب رسمية ، وهو يطفو ويغرق . . . يرى ولا يرى . . . يفتح فمه ليقول شيئاً ثم يتلاشى . . يحضر ويغيب ويتقلب وكل عضو في جسده مشلول بإرهاق لا يقاوم .

تطلع إلى ساعة يده. إنها الثانية عشرة والنصف. كشف الستارة فطالعته شمس لعوب من خلف حجاب شفاف . هل يمكن ان يكون قد نام طويلاً هكذا ؟ ولم لا يفعل ؟ انه لم ينم منذ سبعة أيام . . بل منذ سبعة اعوام . . . نهض متثاقلاً ، وحدق عبر النافذة ، ولم يتملك نفسه فشهق وهو يرى المشهد الباهر الجمال الذي طالعه . شاهد بحيرة خرافية البهاء ، وبجعاً ابيض يسبح فوق صفحتها الهادئة بأعناق طويلة مثل شارات استفهام راكضة فوق الماء . ونافورة عملاقة تشق زرقة الفضاء مثل نهر ينبع من هذا السحر الارضي ليصب في السماء . . واشجاراً متعددة الالوان . . وازاهير . . ومراكب ملونة

الاشـرعة وتـلالاً في الجانب الآخـر مزروعـة بالخضـرة ، بذلـك اللون المركب المتـدرج الخضرة الذي يحتوي عشرات الالوان الخضر . . وبأبنية حمر القرميد . . هل يقطن هذه البيوت بشر مثله ؟ لهم اطفال ؟ يحدقون عبر هذه النوافذ في الجمال المحيط بهم كله دونما شهقة او حس بالذنب او بالذعر او الحيرة ؟ غمره شعور لا يصدق بالاسى ، شعور شبيه بالغثيان امام ذلك الجمال المذهل كله الذي يستعصي على الملامسة او الاحتواء . . . شعور كأنه الغيرة او الغصة امام المستحيل . . ذكّره المشهد بجسد كفى . . . وشعر بالذل . . . ها هي تتحول الى رجل البيت ، تأخذ الأولاد الى المدرسة ، وتنفق من نقودها الخاصة ، وهو ينام في فندق فاخر لا يملك اجرة ليلة واحدة فيه كأية غانية لا تصحو قبل الظهر . . . ها هو ينتهي حيث كـان يخشى : رجل فقـير تنفق عليه زوجتـه الثريـة . . . لقد مشى في درب معاكسة ، درب النضال ، فرماه الرفاق على عتبة بيته حطاماً وطاردوه حتى المطار .

سيرتدي ثيابه ويذهب للتفتيش عن عمل ، سيتوج بؤس يومه بسيجارة . يعود الى الطاولة لالتهام سيجارة ، فيجد رسالة (التوصية) بشخصه البائس الى جانبها . . .

تركتها له كفى حيث لا يمكن الا ان يراها : قرب سجائره . . .

سيذهب الى المطعم مسرعاً . سيبدأ عمله اليوم . هل تتوهم تلك الحمقاء ان محاسباً شريفاً يمكن ان يكسب ثروة في أي مدينـة في العالم ، ام انها تحـاول ان تدفعه الى اداء (الاعمال) الجانبية الاخرى المهينة التي تدر نقوداً؟ المصائب كلها التي حدثت له لا توازي مصيبة ان تنفق عليه امرأة يحبها او لا يحبها . . . صهرها كتب رسالة التوصية ؟ صهرها الثري مصاص الدماء الذي اغتنى في الحرب من تجارة الزجاج والرز والطحين والبانزين والسبيرتو والفاليوم ومصابيح الغاز ومولدات الكهرباء البيتية وكل ما جعلته ويلات الحرب ضرورات اضافية للمواطن المسكين ؟ . حسناً ، سيذهب الى عمله ولو كان ابليس شخصياً هو الذي وقع الرسالة بنفسـه . . . المهم ان يستلم عمله اليوم . . الليلة . . اذا لم يكن المطعم بحاجة الى محاسب ، فسيعمل جرسوناً او ماسحاً للاحذية . . اي شيء باستثناء ان تنفق كفى عليه نقود آل البيتموني . . .

حين غادر الفنـدق من الباب الآخـر ، لم يلمحها وهي تخـطو نحو المصعـد مطرقـة الرأس . .

***

استقل التاكسي ، وقرأ للسائق العنوان المكتوب على خطاب التوصية .

(ها انا ذاهب الى مكان اجهله ، في مدينة لم أطأها من قبل ، لأستلم عملي في اليوم الأول لوصولي ، وقبل ان اتناول لقمة واحدة . . . انها سياحة الفقراء . . .) . . . دهمه جوع شرس ، وتذكر انه لم يحلق ذقنه ، وانه يرتدي ثياب الهرب اياها نصف الممزقة ، والسيارة تركض به في شوارع هادئة كنوم الاطفال ، نظيفة وخالية من النفايات والفقراء . . . الرفاهية تغلف الأشياء بهالة شفافة ذهبية من الاسترخاء الرغد . . . تتدفق من أناقة سائق التاكسي ، وعافية العابرين ، والجمال المصقول للعابرات والعجرفة في نظرات الكلاب المدللة ، وتوثب الاطفال ، وخلفية ثرية تحتضن الجميع في صورة واجهات باذخة المعروضات يضيء زجاجها نظافة . . تهرول السيارة فوق جسر « المون بلان » . . تمضي وعشرات منها في صمت هادىء مرهف ، لا بوق يصرخ ، ولا عصبية مكهربة تشع من الوجوه . . ونهر « الرون » ينزلق في القاع محفوفاً بتنهدات الازهار والبط والعشاق والسواح والبجع الابيض واشجار الافق . . . والشمس تسبغ بركتها على المرئيات ، والمدينة تتعرى تحت وقع اصابعها الذهبية الدافئة . . . صبايا مرميات على مقاعد الحدائق العامة والارصفة نصف عاريات ، وعجائز ما زلن يطاردن البركة البرونزية ، والسيارة تغادر ذلك المهرجان لتدخل شارعاً جانبياً والسائق يتوقف امام مطعم وجيه المدخل . . صعق خليل حين تذكر انه لا يملك فرنكاً سويسرياً واحداً ،لكنه مد يده الى جيبه على اية حال تمهيداً لشرح الحال للسائق . . فوجىء بقطعة ورقية من فئة الخمسين فرنكاً .

(تلك المرأة الخطرة تفكر بكل شيء . . بالتفاصيل كلها ما دام الامر يروقها . . . خمسة اعوام وهي تلعب دور الزوجة المغلوبة على امرها المستسلمة كي تهرب من حمل اية مسؤولية . . اما الآن ، فهي ربان باخرة الرحيل الذي لا يغفل عن التفاصيل . . . ولا تفوتها شاردة في خطتها النابوليونية لغزو . . سويسرا) . . . .

يدفع باب المطعم ويدخل . يواجهه جرسون جرماني يشير الى ساعته ويقول : « لا نقدم الطعام هنا بعد الواحدة والنصف ظهراً . آسف» .

لم يبد آسفاً ، بدا شامتاً ومهذباً . قال خليل : لست هنا للاكل . اريد ان ارى شخصاً .

وشهر الرسالة ، وتابع دربه الى الصالة الشاسعة شبه المعتمة ، كملجأ للغارات ، والشموع تتصدر الطاولات ، ام ان هذه هي « الاضاءة الرومانسية » ؟ كاد ينسى . صارت

الشمـوع في نظره تحمـل منـاخـات القصف وانقـطاع الكهـربـاء وبؤس الحـرب وبكـاء الاطفال . . . وصارت الاضاءة الساطعة على طول سقف لم تخترقه القذائف هي « الاضاءة الرومانسية » ! تأمل المكان بنظرة شاملة . .

زبائن قلائل كانوا يرشفـون قهوتهم ، وطـاولة اخـرى يواجـه احد افـرادها فـاتورة الحساب . . يتجه نحو ركن العمال ، وطاولة الفواتير ، والموظف الجالس خلف مـاكينة الجمع بلا طرح وصندوق المال . . . الموظف عربي الملامح يتحدث الى شخص آخر يقف الى جانبه . . خيل الى خليل انـه شاهـد الشخص الواقف في مكـان ما ، وارتعش شيء في اعماقه ، وكاد اسم يطفو فوق صفحة ذاكرته ، ثم ضاع كل شيء كالفقاعات حين لاحقه الجرسون الجرماني مرتاباً : ماذا تريد ايها السيد ؟

امسك خليل بالرسالة كطوق نجاة . . داهمه حس مفاجىء بالذل . . **(ها انا غريب في مدينة لم ارها من قبل ، جائع ، وقادم للتفتيش عن شخص لا اعرفـه ليمنحني عملاً اكراماً لرجل امقته وامقت عشيرته وكل ما يرمز اليه)** .

جمع الاطراف المقضومة لشجاعته ، وتجلد كي يأتي صوته غير مرتجف ، لكنه لم ينطق حرفاً بالفرنسية منذ زمن بعيد . . منذ ايام الجامعـة ، فلم تسعفه الكلمـات بغير الاسم المكتوب على الرسالة: السيد شفيق أبي عاطي. أريد أن أرى السيد شفيق أبي عاطي . أحمل له رسالة . .

وانفجر الثلاثة ضاحكين كما لو القى بنكتة . . قال الموظف الجالس خلف الصندوق مداعباً : هذا صعب الآن . .

ـ ارجوك . . يجب ان اقابله . .

وعادوا الى الضحك ، ولم يكن في مزاج يساعد على المشاركة . تجهم قلبه ، وتجمع الحزن والقهر في حلقه سحباً مالحة كالدمع السري . . . وتحالف الجالس خلف الصندوق والجرسون الجرماني على معابثته : انه مجهول الاقامة الآن ، لكنك تستطيع ان تحاول لقاءه في مكان آخر اذا كنت مصراً . .

تجلد وكرر : اريد مقابلة السيد شفيق من فضلكم . .

ـ مستحيل ، واذا نجحت في ذلك ورجعت الى هنا . . . صرت مليونيراً . . .

يكرر مهذباً يائساً :

ـ أحمل له رسالة يجب ايصالها باليد . . .

اهانه الجرماني بكل تهذيب فقال : اذهب وفتش عنه ولا تعد الى هنا ، لأنه لن يعود الى هنا . . .

تقدم منه الرجل الذي خيل إليه أنه يعرفه حاسماً الموقف المربك ، ونوبة العبث التي دهمت رفيقيه ، وقال : السيد شفيق مات . . .

يردد مصعوقاً : مات . . . مات . . .

(الوغد . . . مات كي لا يقدم خدمة لفقير مثلي . . اعرفهم اولئك الناس ، انهم مستعدون للموت من اجل ضمان موتك . . والآن ماذا افعل ؟ فواتير الفندق الفخم . . . والاولاد في المدرسة) . . .

تابع محاوره : اجل مات منذ شهر . . الناس يموتون ايضاً في جنيف . . حتى الاثرياء منهم . . .

ـ مات . . . مات . . .

ـ هل انت احد اقربائه . . .

أشار الى ثيابه شبه الرثة ، التي اتسعت عليه بعد نحوله ايام السجن والاعدام والهرب من المقبرة وسأل ببساطة : وهل يبدو علي ذلك ؟

ـ لماذا فجعك موته اذن ؟

« لأن موته قد يعني موتي أيضاً». . . لم يقلها ، صمت وانسحب معتذراً .

كان الزبائن قد بدأوا بالانصراف ، ولحق به الرجل المألوف الوجه بعدما ودع رفيقه الجالس خلف الصندوق وسأله : هل أنت عربي ؟

ـ اجل

ـ هل لديك مانع اذا حدثتك بالعربية . . .

كادت الدموع تتابع صعودها من حنجرته الى عينيه . . .

ـ اهلا بك يا اخي . . .

ـ هل استطيع ان اقدم لك خدمة ؟

ـ كنت أحمل رسالة توصية للمرحوم بخصوص ايجاد عمل . . .

ـ إني اسف . . .

ـ شكراً لك . لكنها ورطتي . . .

ـ لكل ورطته الحقيقية او الموهومة . . لكن ورطة البحث عن عمل حقيقية . . اعاني

منها باستمرار بين عمل وآخر . . كلما طردت . . .

تأمل كل منهما محدثه على ضوء الشموع ، فلم ير الكثير . كانا قد توقفا قرب السلم الذي يقود الى الضوء والخارج . الهاجس في صدر خليل تحول الى صوت اخرس « اعرف هذا الرجل . . . كأني اعرفه . . . » . . . بعفوية ، خاطب رفيقه :

- اسمي خليل الدرع وذلك لا يعني شيئاً طبعاً . . .
- اسمي امير النيلي ، ولست اميراً إلا في الفقر . . .
- امير النيلي ؟ . . انت امير النيلي . . .
- بكل غرور وتواضع . . . وذلك لا يعني شيئاً طبعاً لأحد . . .

(. . ضربت لأجله . . حملت حروفه وطفت بها بين الخنادق والمتاريس والسجون والاخوة الاعداء وكدت اقتل وانا اروج كلماته كمدمن مهووس . . وقرأت سطوره أكثر مما قرأت ابجدية جسد زوجتي ، ولامست عذابه اكثر مما تحسست جراح وداد الممزقة . . . تجول في بيتي ، وزارني في سجني ، واقتحم احلامي ، وخرجت كلماته من حنجرتي في ليالي القصف والانكسار ، وشاركني قهوتي وطعامي ، وغسلني صوته كلما اتيحت لي فرصة نعمة الاستحمام ، وبركة الفراش النظيف . . . وخطط دون ان يدري للسنوات الاخيرة من حياتي، وها انا اقف امامه كأي غريب آخر . . . كم هو موجع حب القارىء لكاتبه الذي لا يدري عنه شيئاً . . . كم هي محزنة تلك الغربة بين انسان يعرف الآخر بكل وله ، وآخر يجهله ببراءة فتاكة . . . كم هي خطرة ومدمرة تلك الصلة الانسانية من طرف واحد ، بين الكاتب وقارئه . . . الكاتب يعشق قراءه « بالجملة » ، كما لو كانوا شخصية اعتبارية خرافية لها عشرات آلاف الوجوه ، والقارىء يعشق كاتبه بصورة حية مباشرة شخصية . . . ولكنني احمق . . . انا اعشق الافكار التي تصادف انها تحمل اسم امير النيلي وكان يمكن ان تحمل اي اسم آخر . . . ولائي للافكار ، لا لهذا الرجل الغريب الواقف امامي) . . وبالرغم من هذه القناعة العقلية امتلأ قلب خليل بمرارة طفلة ونقمة غامضة شبيهة بالحب الاخرس الجارف . . . تابع امير: تبدو متضايقاً . . هل تقبل دعوتي لفنجان قهوة ؟ هز خليل رأسه موافقاً .

حين خرجا الى الرصيف ، تأمل خليل صاحبه وفوجىء به . . . إنه اصغر سناً بكثير مما كان يتوقع . . . واكثر وسامة من صوره . . . تصوره في الخمسينات من عمره ، وفوجىء به في اوائل العقد الرابع . . . بسيط الملبس . . شاب الحركة ، قوي البنية دونما سمنة . . .

يبتسم بسهولة وبساطة ، فتشتعل عيناه بعسل طفل وتضيء اسنانه المتناسقة . . . وجهه يضيء بود غير مصطنع ، واهتمام حقيقي بالآخر . . .

(ها انا اتأمله وهو يفعل الشيء ذاته . . لم احلق ذقني . سيلحظ الهالات السود المحيطة بعيني . سيقرأ خطوط الهم المبكر على جبيني . اعرف انه لن يخجل بي وانا في ثيابي المهلهلة هذه . . انه ـ في كتبه على الاقل ـ صديق الرجال الذين يشبهونني والذين لا يميزهم شيء حقاً . ليسوا الاكثر وسامة ولا الأكثر نجاحاً ولا الاكثر قوة . . انهم الأكثر هماً) . . .

جلسا في المقهى وجهاً لوجه صامتين . توج خليل بؤسه بسيجارة ، وحين جاء الجرسون سأله امير : ماذا تأكل مع قهوتك ؟

إذن يبدو جائعاً .

ـ لست جائعاً . . اؤكد لك . .

ـ سندويش جبنة ؟ دجاج ؟

ـ لست جائعاً . . .

خاطب امير الجرسون : اربع سندويشات جبنة ، واربع سندويشات دجاج . . واربع زجاجات ليمون . . وفنجان قهوة لي . . .

وانفجر الرجلان ضاحكين طويلاً . . . ثم صمتا طويلاً . .

توج خليل بؤسه بسيجارة جديدة ، مترقباً الظهور المبارك للطعام . . لم يلحظ احداً في المقهى . . لم يتأمل الديكور . . . استولى الجوع عليه فجأة ، ورفع راياته فوق الحواس الباقية كلها . . . والافكار . . والاحزان . . وحين وصل الطعام بعد عدة دهور او دقائق بدأ التهامه دون خجل من امير . . . شعر بأنه يفضل ان يأكل كالوحش هنا على مرأى من انسان يفهم جوعه على أن يأكل بالشوكة والسكين الفضية في مطعم الفندق الفاخر ثم تدفع كفى الحساب من بقايا ثروة آل البيتموني . . وحين انجز وجبته ، تدفق الدم في عروقه ، واستعاد قدرته على المحبة والكراهية والرفض والاعجاب وملاحظة زبائن المقهى وحضور امير المربك الذي لم يوجه اليه اي سؤال شخصي . . . كأن يسأله : هل تقرأ ؟ هل تعرف انني كاتب مشهور ومفكر عربي كبير؟ هل قرأت لي ؟ متى ستسجد امامي اعجاباً ؟ هل سترجوني ان اتصور معك او اوقع لك تذكاراً على كتابك او قميصك او انقشه وشماً فوق لحم صدرك او مؤخرتك ؟ هل ستقول لي انني رائع وانك سعيد بملامسة يدي حين تصافحني ، اليد التي بها اكتب ؟ او كأن يتخذ الحوار منحى آخر يقود طبعاً الى جوهر الموضوع : « عبقريته » ، ومدى اعجاب الآخر به . . كأن يسأله : ما حكايتك ! قص علي حكاية

فشلك لأروي لك حكاية نجاحي العصامية وعظمتي وسر نجوميتي . . .

ولو سأله امير في تلك اللحظة عن حكايته ، لما نطق بحرف واحد من الحوار الذي طالما تخيله واياه . . . كأن يتم على هذا النحو . . .

(ـلماذا؟

ـ مشرد بسببك !

ـ كيف ؟

ـ رفضت رفع كتبك عن واجهة المكتبة لعرض صحفهم ومناشيرهم . . .

ـ اين ؟

ـ في بيروت . . حيث نقاتل بوحشية من اجل السلام . . . ويقمع كل منا الآخر كي تسود الحرية والديمقراطية ! .

ـ متى ؟

ـ منذ فجر المتطرفون والمغامرون والعملاء تناقضاتنا ، تحقيقاً لمكاسب ذاتية سياسية او شخصية . . وتلهى كل منا بالتهام الآخر ، ونسينا لماذا حملنا السلاح اصلاً . . . حتى بلغ بنا الأمر حد الاقتتال في ظل طائرات تقصفنا جميعاً دون ان نلتفت اليها . . .

ـ ثم ؟

ـ نفذنا عكس ما تخطه في كتبك . . وفعل البعض ذلك مستشهدين بتفسيرهم الخاطىء لأقوالك . . واجتهادهم الشخصي المنبثق عن كلماتك وأمثالك . . . مارسوا القمع تحت شعارات الحرية . . والاغتيال تحت شعار التحرير . . . وكرسوا الرياء والتفرقة وتزوير الحقائق وقهر الناس وسرقة ارزاقهم واعمارهم بحجة الضرورات التكتيكية وصادقوا العدو واهانوا الصديق بحجة الاستراتيجية . . .

ـ ثم . .

ـ ثم صحونا . . واذا المتاريس تمتد من الشوارع الى داخلنا . . . خطوط التماس تسللت الى اعماقنا . . . توحشنا فصار المرء يخطف ذاته ويذبحها على الذكريات . . . ولم يعد القصف وحده مأساتنا . . تحول كل منا الى قذيفة تنطلق نحو هدف عشوائي وتصيب من احبابه مقتلاً قبل اعدائه . . صرنا نحن القصف العشوائي ، وكل منا شحنة متفجرات متحركة صوب الآخر لتفجيره . . كل منا صاروخ حي موجه ولكن للدمار . و «الخراب الجميل» الذي تمنيناه بداية لبناء اجمل ، تحول الى خراب عام ودائم ومطلق .

- ولكن . .

- الكوابيس التي توهمناها ولدت حلماً انتهى زمنها . . . سقطنا في الحلقة المفرغة ، وعاد الحلم ليلد كابوساً فكوابيس جديدة . . . لقد صادروا الحلم وزوجوه القمع ، فكانت الكوابيس نسلها الاكيد) . . . .

ظل الرجلان صامتين حتى سأل امير صاحبه : فنجان قهوة؟

- لا شكرا . .

اخرج امير قلماً ، ومزق قطعة من محارم الورق الخاصة بالمطعم وكتب عليها رقماً هاتفياً ، اعطاه لخليل وهو يقول : اتصل بي اذا رغبت . . . علي ان امضي الآن . . . آسف لما حدث لك . . . اتمنى لك التوفيق . .

ونهض بسرعة . . دفع الحساب ، وابتلعه زحام الشارع . . .

ظل خليل جامداً في مكانه . . . هل كان هذا حقاً امير النيلي نفسه ام . . . ؟

هل كان يحلم ؟ هل بدأ يمشي في ارض الهذيان ؟ **(لقد اطعمني دون ان يحاول ادهاشي ، او يجعلني ادفع الفاتورة تملقاً واعجاباً . . انه لم يعرف انني اعرفه . . ولا يدري انه مدين لي بشيء . .)**

غادر المقهى . وجد نفسه في شوارع لم يرها من قبل . . كيف يذهب الى الفندق ؟ سيسأل عن الدرب ويوفر اجرة التاكسي . ولكن كيف يسأل وهو لا يعرف اسم الفندق ؟ . . .

احس بالذعر لبرهة ، ثم هدأت روحه حينما اخرج علبة الثقاب التي لمها من الغرفة مع سجائره، ووجد عليها اسم الفندق وعنوانه . . .

استقل التاكسي وتوج بؤسه بسيجارة ، وتظاهر بأنه لا يعرف قراءة اللافتة الحمراء المثبتة لصق « المنفضة » محذرة من التدخين . . .

من حق السائق هنا ان يحافظ على رئتيه لمباهج عطلة نهاية الاسبوع ، اما هو فكان عليه ان يكون ميتاً منذ اسابيع ، وقد انجزت ديدان المقبرة التهام رئتيه . . . النيكوتين اكثر رحمة بهما من مصيرهما الأول . السائق العجوز يلتفت نحوه مرتاعاً مشيراً الى لفافته كما لو كانت رشاشاً . يمتثل . . ستعيش الى الابد يا صديقي السائق !

***

التقى بكفى في ردهة الفندق خارجة من « صالون الحلاق » . . . بدت خارقة الجمال والرفاهية ، بشعرها الكستنائي الذي شذبته في تسريحة عصرية ، والزرقة الداكنة لعينيها الموروثة من جدة اناضولية يقال انها كانت ابنة لأحد الباشاوات . . . قامتها الفارعة المحكمة الاستدارات ، وثيابها الانيقة . . .

تحسس لحيته خجلاً ، وسارع بها الى المصعد فوق الموكيت الباذخ الذي يغطي الردهة والممرات والغرف . . . ما كاد يمس زر المصعد حتى انتفض تحت وقع لسعة كهربائية خفيفة لكنها موجعة قليلاً . . . وتثير الذعر كثيراً . . ها انت في مكان يفيض جمالاً وامناً كأنه ردهة الاستقبال الى الجنة ، وفجأة تأتيك تلك اللسعة المنبهة للألم والدهشة معاً . . . وربما الرعب الذي يبدأ في الانتشار فوق المرئيات كلها وانت تتساءل : اية لسعات تخفي تلك الاشياء المخملية الارجوانية ، كأن تجلس على المقعد الوثير القاني الحمرة وتسترخي مغمضاً عينيك متمتعاً بالرغد الثري ، ثم تنهض لتجد ثيابك ملطخة بالدم . . .

تسأله كفى : ماذا حدث ؟

ـ طردت بكل احترام . . اهنت بكل تهذيب . . .

ـ ماذا تعني ؟ الم تقابله ؟

ـ كان ذلك صعباً .

ـ ستعود غداً . . هل تركت له الرسالة ؟ هل سجلت رقمك الهاتفي ؟ سيتصل بك بالتأكيد . . .

قال وهما يغادران المصعد: لن يتصل بي ولن التقيه ولن اجد عملاً . لقد مات . . .

شهقت : مات ؟ اللعنة عليه . . كيف يفعل ذلك بي ؟ . . .

انفجر خليل ضاحكاً ببعض الشماتة . . اولئك الاثرياء يجدون الموت شيئاً خارقاً ، يتوقفون امامه طويلاً في طقوس تثير اشمئزازه . . البسة خاصة . . طعام . . . بكاء . . عويل . . ولا احد يبكي الفقيد حقاً . انهم يبكون كون الغني ممكن الموت وقابلاً للفناء . . . يبكون موتهم الآتي ، ولأن حياتهم تبدو لأعينهم ثمينة جداً ، فإن عويلهم شديد الضراوة . . .

يفتح باب الغرفة بالمفتاح ، ثم يمسك بالمقبض ويدفعه . . . يقفز من جديد مكهرباً ، وتنفجر ضاحكة بدورها : لديك حساسية مفرطة ضد « الستاتيك إلكتريسيتي».

ـ ومن هي « الستاتيك الكتريسيتي » ؟

ـ الكهرباء السكونية . . « الموكيت » يولد حقلاً كهربائياً وجسدك يمتصه بشراهة وحين تمسك بأداة معدنية يصير جسدك مثل سلك .

ـ اني مصاب بحساسية نحو شيء آخر . نحو المكان ككل . . الغربة تكهربني . . . مثل جلاد الوطن !! . .

تعد له حماماً ساخناً .

مغطس شهي ، ماء ملون وفقاعات ورائحة عطرية وتقول له : لماذا لا تغسل عنك سنواتك الماضية ؟

ـ وماذا عن الآتية ؟ انني بلا عمل . . .

ـ سنتدبر شيئاً . . لا تخف . . المهم اننا غادرنا مطار الموت احياء . . . اعني بيروت الجهنمية . .

بدت سعيدة حقاً ، تتحرك مثل فراشة مطلقة السراح ، ينهار هو داخل مغطس الحمام مثل حجر ثقيل قذفت به العاصفة الى حيث لا يدري . . يسترخي ويغمض عينيه . . منذ متى لم يحظ بحمام كهذا ؟ . . . احس بالشفقة على جسده . . دلله ، واعتنى بوجهه مزيلاً لحيته ثم تأمل الوجه الذي طالعه وبدا له مألوفاً بشعاً نصف منسي .

(تلك الحمقاء . . كيف تجدني وسيماً ؟ كم انا بشع !) جاءه صوتها وهي تتحدث على الهاتف . ثمة آلة اخرى في الحمام الى جانبه ، فكر بأن يرفعها وينصت الى ما تقول ، ومن تكلم . . لكن دهشته لوجود آلة هاتف اخرى اضافية داخل الحمام غلبته . . اولئك الاثرياء يعرفون حقاً كيف يدللون انفسهم . . يشفقون على اقدامهم من عناء الذهاب الى الغرفة المجاورة للرد على الهاتف . . . وهو الذي لم يشفق على قدميه من عذاب الفلق حرصاً على كتب امير النيلي في واجهة مكتبته . . هذا غير صحيح . . لقد كان حريصاً على كرامته . . . انها قضية مبدأ . . كل شيء في النهاية قضية مبدأ . . ولكنها لن تفهم ذلك . . (لماذا لم تخبرها بلقائك وامير ؟ هل كان حقاً امير ؟ حسناً . انك تخشى منها . تعرف انها تكرهه وتعتبره مسؤولاً عن دمارك : تجده سمم افكارك وافسد صعودك على سلم الوجاهة والثراء . والآن ، هل ستتصل به وتطلب منه مساعدتك في ايجاد عمل ؟ من لك سواه في هذه الجنة المكهربة ؟) . .

يغادر الحمام . يجدها متهللة سعيدة .

ـ هيا بنا لشراء ملابس جديدة لك . . . يعبس . يذعن . يعرف انها ورثت عن امها

عادة تفتيش جيوبه وتجنب الاستجواب المباشر . معها يبدأ الامر دوماً بنوبة تحبب مفاجئة ، انها مرحلة الترغيب . واذا لم يقر لها بسر رقم هاتفي مكتوب على ورقة مهملة او عنوان مجهول ، تنتقل الى مرحلة الترهيب . . . يفكر بسؤالها عن هاتفها الخاطف وهو في الحمام ، ثم تغمره اللامبالاة . . . لعلها تشكو كعادتها من امر ما . . . احد ازرار التلفزيون لا يستجيب للمسة . . احد المصابيح لا يضيء كما يجب . . اكثر مما ينبغي او اقل . . مقبض النافذة الحديدي قاس . . او شيء من هذا القبيل . . . تفاصيل . . . تتوقف دوماً عند التفاصيل الصغيرة لمظهر الاشياء . . لا تتعامل مع الجوهر وربما لا تعي وجوده . . . وهي لذلك سعيدة ، ومرشحة باستمرار لحزن مفاجىء . . تسأله : كم الساعة ؟ يحدق في ساعته ويجيب: انها الثانية عشرة والنصف . . تردد : غير معقول . غير ممكن . ساعتك متأخرة . . . اصلح وقتها . . .

يهمل الامر ويظل صامتاً . يغادران الفندق . . يتأمل البحيرة ، وتتأمل واجهة الدكان الملاصق للفندق . تشده من يده قائلة : انه باهظ الثمن ، لكنه يناسبك . في المخزن ، يشاهد عربياً ثرياً يشتري دزينة من القمصان الحريرية بالألوان كلها ودزينة من البزات بإشارة من اصبعه والبائعات الجميلات يحطن به مشجعات مدللات .

يغادران المكان بعد ان انفقت ثروة صغيرة لتجعله يبدو كأحد اولاد الاغنياء المرفهين . يشعر بالخجل وهو يرفل في حرير القميص الفاخر والسروال المخملي وقد كسته بمال آل البيتموني . . . ينسى كل شيء عنهم جميعاً حين يرى مهرجان الحياة تستقبلهما جنيف به . . . ها هما مقابل الجسر الذي عبره في دربه الى الطرد قبل قليل . . . يقرأ اللافتة : (كي دي مون بلان) . . . يعبران الجسر الى الضفة الاخرى وسط مظاهرة حيوية باهرة . . .

الثياب الخفيفة ، والاجساد التي تمتص اشعة الشمس بشراهة . . . ابتسامات يتبادلها الغرباء السعداء . . نظرات تفيض لطفاً وتهذيباً . . . مع الرفاهية يصير اللطف تقليداً متبعاً كأنه سعادة فائضة الى الخارج . . . خيل اليه ان الناس في تظاهرة الرصيف يحملون لافتات كتب عليها عبارات مثل : « ايتها الحياة . . . احبك » او « حمصي بشرتي ايتها الشمس وتقدم يا حبيبي » . . . او « انا ثري ووسيم . من يطاردني » او « تملقوني . انا مدهش » او « شابة وفقيرة . مطلوب ثري عجوز » وهذه الكوكبة من السائحات العربيات في ثيابهن الوطنية يحملن لافتات مثل . . «املكماية وخمسين مليون دولار . . بعدد فقراء شعبي » او « متى يشتري ابي جنيف ؟ » او « خذوا ثروتي وامنحوني حريتي » او شيء من هذا

القبيل . . . يصلان الى رصيف يتسع متحولاً الى حدائق عامة باهرة الجمال . . . والدفء يرقص في فرحة الاطفال شبه العراة وتفتح الازهار . . وهذه صبية باهرة الحسن أم مخلوقة نورانية تطير ؟ شفافة البشرة شعرها ضوء متماوج تهب كالريح العابرة وتسري بين الناس وفي قدميها حذاء له عجلات . . . وعلى اذنيها سماعتان وشريطان ومذياع صغير سعيد بملاصقة الصدر المتوثب . . . لها موسيقاها الخاصة ، ورقصتها العذبة الطائرة ، ونضارتها الطفلة كعصفورة نادرة . . . ما اجمل المرأة حين تكون طفلة ومجهولة وليست زوجتك . . . يتذكر وداد ويغص . . كانت تلعب ببقايا الرصاص الفارغ فوق طحالب المزابل على انغام القصف الذي يوجه للعدو مرة وللصديق الف مرة . . . كان يطمح الى منح وداد وطناً صالحاً للنمو ، فانفجرت بها قذيفة كتبت عليها عبارة : من اجل الحرية والديمقراطية ، نسيها احبابه في غمرة قتالهم العابث . . يتطلع الى كفى بحنان . . . يلومها ولا يلومها . . لم يعد يدري . . . تقترح : هل استطيع دعوتك الى فنجان قهوة ؟ . . . كوكا كولا ؟ ماء معدني؟

المقهى جزء من رصيف الحدائق مسور بالازهار . . يجلسان . . يرق صوته وهو يهمس «سآخذ ما تطلبين» .

- « ارجو ان تحضر لنا زجاجتي كوكا » تقولها بفرنسيتها الراقية . . اما هو فينطق الفرنسية بلهجة عربية قروية . . . يتوج متعته المنغصة بسيجارة . . . يشرب الكولا من زجاجتها مباشرة كعادته دون ان يمس الكوب الفاخر ونظراتها تزجره . . سيظل قروي المسلك في بيروت او في جنيف . . . شجرة عتيقة الجذور .

تنتشر في المكان موسيقى عذبة آتية من بعيد . . ثمة فرقة موسيقية تعزف للناس مجاناً في الحديقة العامة . . . يتأمل الاطفال ، يرفلون في العافية والموسيقى ويتذكر ولديه رامي وفادي . ربما كانت كفى على حق . من واجبه ان يؤمن لهما مناخاً انسانياً للنمو . . .

ولكن . . هل مناخ الغربة صالح للنمو مهما كان مرفهاً وباذخاً ؟ هل قطع طفليه عن وطنهما عملية انسانية ؟بالمقابل هل تركهما يقتلان هناك اكثر انسانية ؟ يأتيه ذلك الصوت من اعماقه كأنه صوت امير: « **الحلول الفردية لا تجدي** . . **تهرب بطفليك** . . **وماذا عن بقية اطفال المدينة والقرية والوطن والعالم العربي** ؟ » اللعنة . . . لماذا لا يقدر على انزالهم عن كتفيه ليستريح كما فعل عشرات آلاف المواطنين سواه ؟ لماذا يتملكه خجل حقيقي كلما نجح

في تحقيق خلاص فردي مهما كان صغيراً ؟ . . لقد بدأ الامر بالكوابيس ، وقال لنفسه اصبر ايها الرجل ، انه مخاض الحلم ، ولكن الحلم انجب من جديد قبيلة من الكوابيس ووجوه مقنعة ترقص هوجاء متوحشة بدائية في كرنفال بهيمي للسرقة والنهب والارهاب والطائفية ، كرنفال يحمل شعارات الحلم ويتستر بها . . كفى تقول شيئاً ما وتضحك . يضحك بصورة آلية دون ان يسمع . . لقد اعتاد هذا النمط من الحوار معها . . يترك لها ابتسامته ويعود حيث كان . . . الى الكرنفال المتوحش . . والقتل . السرقة . سفك الدماء . ظلم المساكين والابرياء . . وكل ذلك تحت شعار تحريرهم . . . كيف ؟ كيف سقطنا في تلك الحلقة المفرغة . . كابوس . حلم . كابوس . حلم . يغرق . يطفو . يغرق . يطفو . كرنفال من الكوابيس ، وهم الذين كانوا يطمحون لصنع مهرجان حياة كذلك الذي يتدفق امامه ويشحنه بالغصات . . . يتأمل زجاجة الكوكا كولا . . . يتذكر التظاهرة التي خرج فيها بعد هزيمة حزيران . . كان ما يزال شاباً صغيراً في الثامنة عشرة من عمره . . . اقسم يومها الا يدخن لفافة اميركية . . الا يشرب الكوكا كولا ولا يرتدي الثياب المستوردة وشاركه الرفاق ذلك . . . كان الغضب عظيماً والمأساة فادحة والصحو شعاراً . . ماذا حدث ؟ كيف تحولنا الى مجموعة من السفاكين ، يغتال كل منهم صاحبه لأنه يخالفه الرأي في كيفية تحقيق الهدف ؟ لماذا هذا الشجار المرير على اختيار الطريق والكل يدعي انه ذاهب الى مكان واحد ؟ . . . كيف انتهى به الامر ، هارباً ، طريداً ، مهاجراً ، يشرب الكوكا كولا في مقهى رصيف بحدائق جنيف ووطنه يحترق؟ . . .

تأتي نحلة . تقف على فوهة زجاجة الكوكا كولا . تلعق . تحوم وتدور حول اطراف الفوهة ثم تهوي الى داخل الزجاجة كأنها تخدرت او تسممت . . . تسقط الى القاع . . يظنها ماتت . . . تنتفض . تقف على قدميها من جديد وتحاول التحليق . تنفض جناحيها وتمشي في القاع كأنها تكتشفه ، تقترب من الجدار الشفاف محاولة الخروج وتكتشف انها سجينة اسر مخادع شفاف ، ويراها خلف عبارة كوكا كولا المكتوبة بحروف كبيرة على الزجاجة ، تحاول التحليق وتعلو وترتطم بالجوانب وتسقط ثم تحاول من جديد في محاولة يائسة للعودة الى الفوهة من حيث اتت . . . يتأملها مثل عراف يحدق في كرته الزجاجية ، ويحزن لسقوطها المتوالي ويدهش لمحاولتها المستميتة للتحليق من جديد كل مرة وهي تصدر ازيزاً يشبه الانتحاب والشتائم . .

تدفع كفى الحساب ، ويغادران المكان ، وعينه على زجاجة الكوكا كولا ، ويرى ان

النحلة ما تزال تحلق داخل سجنها متابعة محاولاتها المستميتة للنجاة .

***

ـ كم الساعة ؟

ـ الثانية عشرة والنصف .

ـ ساعتك معطلة . . . اشارت بيدها الى ساعة ذهبية بديعة تتوسط زقاقاً طويلاً مسقوفاً بالزجاج الشفاف . كانا قد وصلا الى ممر « جاليري دي جان مالبيزون » .

انها الخامسة والنصف والشمس ما زالت مشرقة . . ترى هل تغيب عن المدن السعيدة ايضاً ؟ يجلسان الى مقهى الرصيف (إسكال) في الزقاق الضيق بعد طول تجوال . . .

ـ اضبط ساعتك ، وحركها . . لعلك نسيت ان تملأها . .

إذن هي الخامسة والنصف . وساعته حرنت عقاربها وتوقفت مشيرة إلى الثانية عشرة والنصف . هل كان ذلك هو لحظة اقلاع طائرة المنفى ؟ . . . هل يصدق ان تلك الاحداث كلها بدأت صباح البارحة فقط ؟ هل يصدق انه منذ تسع وعشرين ساعة كان ما يزال يطأ ارض وطنه ؟ بل منذ ثلاثين ساعة اذا حسب فارق التوقيت بين القارتين . . . وهل سيقضي وقته هنا يحصي الساعات بدلاً من الايام ؟ . . . يسترخي في مقعدة مشفقاً على فرحة كفى من كهارب بؤسه . . . تلك المسكينة ماذا تفعل مع رجل مثله ؟ ركبها حب التملك ، فكسته بهيكل الحلم ، ثم تحطم الحلم وبقي الاطفال . . والعادة . . والتكـرار . . تزوجـا قبل الحرب بزمن ما ، وحين رزقا بفادي وقررا الطلاق جاءت الحرب ونسيا الشجار . . . وجاء رامي ، ولحقت به وداد ، وهدأت الاحوال قليلاً فعادا الى حديث الطلاق . . . لكنهما لم يتمكنا من متابعته كما ينبغي بين اعتقال وآخر . . . صبرت ، حتى انهكه الزمن وخذله عالمه فالتقطته وجاءت به الى بر النجاة . . بر نجاتها هي . . ولكن ماذا عنه ؟ . . . لقد الفت صمته الطويل ولم تعد تبادره بالكلام الا نادراً . . ام انها مشغولة عنه بالتجسس على حلمها الذي تقمص مدينة ؟

مهرجان الحياة يتابع تدفقه في الزقاق . . . يتأمل شاباً في مطلع الثلاثينات من عمره ، يرتدي الشورت ويضم اليه فتاته وهما يتطلعان الى واجهة الصيدلية المواجهة « فـارماسي برينسيبال » . . .

كم هو شاب ومتوثب ووجهه خال من سطور الهم . . كأنه ليس في مثل سنه . . كأنه

ابنه . . . يتبادل وحبيبته قبلة . لا يلتفت اليهما احد من العابرين غير العرب . . . يتأمل الدكان الآخر الذي اشتعلت واجهته بالأضواء والماس والذهب . . . ينشق بابه عن مجموعة من السيدات العربيات المحجبات وصاحب الدكان يلحق بهن مودعاً حتى الشارع وزوجته متهللة الوجه . . . ها هن يتبضعن الماس والزمرد والكنوز . . ويعرفن دونما شك عن ظهر قلب اسعار اونصة الذهب وقيراط الماس . . . هل بينهن من تعرف ان اسرائيل ابتلعت جنوب لبنان في ثلاثة ايام ، وانها البارحة ظهراً كانت تفترس اطراف بيروت وتدمر مطارها ؟ انه صامت لانه لا يجرؤ على ان يبوح لكفى بما يعتمل في قلبه . . . ويستطيع ان يقرأ نظرة الحسد في عينيها . يعرف انها تتمنى لو كانت مكانهن ، تتمنى لو لا تسمع كلمة عن بيروت ولبنان والوطن العربي . . . لا شيء غير اسعار الذهب والماس شرط ان تقدر على الشراء . . اجل انها تعشقه ولا تحبه . تجده بالغ الوسامة ، وهو يعرف انه ليس كذلك ، تتوهمه قاسياً و (حمشاً) وتناديه مدللة (يا واد يا تقيل) وقلبه يذوب اسى لأشياء اخرى كثيرة غير النساء ، وتحلم بطعم فحولته القروية التي ذاقتها في سنوات الزواج الأولى وادمنتها ، وتحاول عبثاً اعادة الشاب الى صباه . . . ها هي تتدفق حيوية وسحراً ، وتشهق اعجاباً بين حين وآخر ، وترمق ما يدور باهتمام بالغ ، واعين الرجال العابرة ترمقها بإعجاب متبادل . . **(انها جميلة حقاً . . . . وانت احمق حقاً . . . تأمل مهرجان الحياة هذا ودع نفسك تنزلق في مباهجه . . . لقد فشلت في تحقيق حلمك ، فلماذا لا تشاركها حلمها ؟ جرب قليلاً . . .)** طلب كأساً من ماء النار وابتلعه . . . سرى دفء في اوصاله . . . شجعته كفى على تناول جرعة اخرى ولفافة اخرى ولكنها لم تشاركه ليس حرصاً على الفضيلة ، ولكن خوفاً على وجهها من التجاعيد ! . . . بدأ ينصهر في ايقاع الجمع المتوهج حياة . . لم يعد متفرجاً . . . يسمع صوتاً موسيقياً عذباً تصدره اجراس لطيفة . . . يلتفت . . يرى الساعة في آخر الزقاق وهي تعلوه كتاج تقرع ست دقات وقد انفتح احد ابوابها الباهرة النحت وخرج موكب من الدمى المذهبة متحركاً فوق درب ضيقة محددة ، محفوفاً بالموسيقى والاضواء متجهاً نحو باب آخر في الطرف الثاني للتحفة الممتدة على عرض الزقاق . . . . ببطء ثري باذخ يمضون في دربهم ثم يغيبون داخل الباب الآخر ويغلق الباب خلفهم . . . شعر بأنه احدى تلك الدمى المذهبة في المهرجان الآخر للزقاق ، دماه المتحركة بشرية موسيقاها تنبع من الاصوات المزقزقة غزلاً وشهقات اعجاب شجية . . .

هذه قافلة من الشابات والشبان الاوروبيين يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الخاص

بعدة السياحة الفتية ويمشون بحيوية ضاحكة . . . يوم كـان في مثل سنهم كـان يمشي في المظاهرات . .

وفوجيء خليل بمشهد نادر وهو يتأمل الشبان والشابات السائحات ، ثمة رجل يتبعهم ويرتدي مثل ثيابهم . . . القميص القطني . . الشورت . . الصنـدل . . . ويتدلى عـلى ظهره الكيس الخاص بالترحال الكشفي ، الذي يضم على الارجح عدة نوم ونظافة واكل كاملة . . . ولكن الرجل كان في السبعين من عمره على الاقل ، ولم يكن يبدو عليه الجنون (لقد سرقوا شبابنا منا) . تابع العجوز بأنظاره الحاسدة . . كان يبدو سعيداً ، ولحم ساقيه المترهل يرتجف لكل خطوة ، لكنه يخطوها مرحاً ولو كان في دربه الى قبره ! . . . شعر خليل بالخجل امام هذا العجوز الرائع المتوهج شهية لمعانقة مباهج الكون المجانية البريئة ، والمصر على تذوق متعة الحياة حتى اللحظة الاخيرة . . كاد يأتيه ذلك الصوت اللعين من اعماقه ليسأله : « ولكن ما هي المتعة الحقيقية للحياة ؟ » فأسكته برشفة اخيرة من كأس ماء النار ، والتهم شفتي زوجته في قبلة شرهة ، شراهة جائع بعد سنوات عجاف . . . سمع صوته مخنوقاً بالشهوة ، كالحشرجة ، يقول : هيا بنا الى الفندق يا كفى . . .

***

. . . باهرة الحسن ، ممددة فوق زرقة الافق . . . تهب رياح حارة وتنفخ في قاربه . . . يبحر . . ترف طيور البحر البيض وتأتيه اصواتها كاللهاث . . . يتابع ابحاره . . . موانىء العاج والبهار . . مقالع الرخام والمرمر الدافىء . . . صلابة الطراوة . . . تنفخ الريح وينشر القارب شراعه ليحتوي الافق ، ويتسارع ابحاره . . يعلو ويهبط فوق الامواج . . ينزلق بين الاعشاب البحرية ويمضي في كهوف الشطآن المسحورة . . رطبة دافئة هي اغاني عرائس البحر وصداها فوق جدران المغاور . . . يسرع المركب ، يعلو ويهبط في دربه الى المرفأ . . . آه المرفأ . . . يحاول ان يرمي بمرساه فلا يستطيع . . . كأنما صدئت السلاسل . . يبـذل جهداً بالغاً . . . يتصبب العرق منه ، ويعلو لهاثه ولا يستطيع . . . لا يستطيع . . . يتذكر مباهج المرفأ . . . قرع الـطبول . . . نهر النيـران الحنون . . . الـزلزال البهيـج في قوس القزح . . . ولا يستطيع . . . يأتيه صوته ذليلاً : إني آسف . . .

لا يجرؤ على اشعال النور . لا يجرؤ على رؤية خيبة وجهها . . . .

تنهره : حاول ثانية . . .

يضمها اليه ، فتنغرس في صدره كتلتا الاسلاك الشائكة في موضع صدرها ، جرس الهاتف يرن . لايجد صوتاً يرد به . . . مهزوم امام ابواب جسدها المدينة . . . مهزوم امام قلاعها الشهية . . مهزوم وقد استحالت امرأته الى جديلة اسلاك شائكة . . .

ترد على الهاتف بهدوء يدهشه . . . تزقزق : « اهلا » استاذ نديم . اجل ، سألت عنك ولم اجدك فتركت عنواننا . . . صحيح ؟ هذا لطيف حقاً . . . آه . . .

كنا نتنزه قليلاً . . . ماذا ؟ حسناً سأقول له ، وانا واثقة من ان اللقاء سيسعده هـو ايضاً . . وانا بالطبع . . . الليلة ؟ . . . آسفة ، غير ممكن . . . اننا مرتبطان . . . حسناً . الى الغد ، مع السلامة » .

تغلق سماعة الهاتف وتقول بسطوة الاقوى ، الآمر الناهي : هذا نديم . اتصلت به حين كنت في الحمام ولم اجده . يريد ان يراك . . . يرانا . . . ذكر شيئاً عن عمل ما قبل ان اطلب شيئاً منه . . . غداً تكلمه . . . هكذا اتفقنا . . .

لم يجب . . . كان عرق بارد يغسله مثل رجل محموم، ومناجم تنهار فوق رأسه وهو يركض في الدهاليز وعبثاً يجر جسده المتعب ، الخاوي مثـل طلقة فـارغة داخـل مسدس صدىء . .

اضاءت النور . . . ثم ضغطت زراً ثانياً فتوهجت شاشة التلفزيون . . . تطلع الى ساعته وكانت تشير الى الثانية عشرة والنصف . . وتطلع الى التلفزيون فامتلأت الشاشة بسـاعة تشـير عقاربهـا الى السابعـة والنصف تقـريبـاً ، وعقـرب الثـواني يـدور مـرتجفـاً وبصمت . . . اذن غادر بيروت منذ يوم وليلة وبعض اليوم ليأتي الى بر الامان ، يـرمي بأطفاله في مدرسة داخلية دونما وداع ويفشل في امتلاك جسد زوجته . .

يتوج بؤسه بسيجارة . .

تمام السابعة والنصف . تختفي صورة الساعة الصامتة بعقربها النـابض كشريـان ، وتتدفق موسيقى متوترة تغطي خارطة القارات ، ثم يطل وجه المذيعة . . وجه مريح وذكي النظرات ، لا يشبه وجه زوجته او بعض مذيعات بلاده بتبرجهن المفرط ، وبأقراطهن الملونة المتدلية كزينة اشجار عيد الميلاد . .هذه انسانة، تستمع اليها ، بدلاً من التحديق في وجهها الاحتفالي متسائلاً : لماذا تبتسم والمدينة تحترق ، ولماذا تتدلع على انقاض قذيفة ؟ . . .

لبنان النبأ الأول .

تظل كفى مسترخية في السرير ، ويقفز خليل متوتراً . . .

يكشف الستائر عن النافذة ، فيتدفق ضوء النهار الطويل . .

تتحدث المذيعة عن القصف الاسرائيلي المستمر لليوم الخامس على التوالي منذ بدأ بعد ظهر الجمعة ٤ / ٦ بقصف المدينة الرياضية ومخيم صبرا . . . وتعرض شريطاً وثائقياً نادراً قام مندوبهم بتصويره وقتل وهو يحمل الكاميرا وجرح مساعده . . . تذكرت كفى طفلة الجارة التي احترقت في باص المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم المشؤوم وسعدت بحظها الذي نقلها واطفالها من ذلك الجحيم وشكرت في سرها اولئك الحمقى الذين حاولوا اغتيال زوجها الذي لا يصلح لشيء ـ لكنهم يجهلون ذلك ـ فلولاهم لكان اقتلاع سنديانة قريته بيديها اسهل من اقتلاعه من وطنه . . .

تتجمع الدموع في حنجرة خليل وهو يرى اسرائيل تقصف ، والشوارع التي يعرف ويحب تتحول الى حرائق وخرائب . . . يرى جانباً من المدينة الرياضية . اهذا برج البراجنة ام مخيم شاتيلا ؟ . هذه طريق بئر حسن ، اوتوستراد خلدة والناعمة . يعرف انها تغير ايضاً على سيارات المدنيين في الشوارع . . يعرف طعم ذلك . صيدا مطوقة . . جحافلهم تزحف . قلعة الشقيف تم احتلالها .

(ماذا افعل هنا ؟ ماذا فعلوا بي ؟ ماذا فعلت بنفسي ؟ ماذا فعل كل منا بصاحبه ؟ كيف كيف نامت نواطيرنا عن العناقيد ؟ . .).

وتؤكد المذيعة اغلاق مطار بيروت الدولي في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم السابق ـ الاثنين ـ بعدما اقلعت منه طائرات قليلة حتى الظهر . . . تفرح كفى . . اذن نجوا من ذلك الجحيم على متن الطائرة الاخيرة . .

خليل يصمت **(اذن اغلق المطار ولم يعد في مقدوري العودة . . كان يجب ان اكون هناك بدلاً من هنا احارب فوق تلال جسدها وعبثاً اغرس راياتي . . كنا نستعد ليوم كهذا . . . وها انا سجين هذه الجثة المكهربة) . . .**

السيجارة المنسية ابداً بين شفتيه تستحيل الى رماد يتساقط فوق ملاءة الفراش رماداً متناثراً كبقايا انسان احرق حياً . . ولا يدري لماذا يتذكر الطيران المحموم للنحلة داخل زجاجة الكوكا كولا في المقهى . .

تنهره كفى : لماذا تصر على نثر رمادك فوق السرير والارض وكل مكان . . خذ

المنفضة . . . تناول المنفضة ، وخيل اليه ان احد اعقابها يحمل صورة وجهه ! . . .

●●●

« . . . باسم قاهر جليل هلخ ملخى هملوخي هملوخيم اجب ايها السيد طحيطمغيليال بالذي ذلت له الرقاب وخر له الشم الباذخات وعنت الوجوه وهو الله الحي القيوم مالك السموات والارض وقيومها اسألك بحق هذه الاسماء وهذه الآيات ان تسخر لي روحانية صخر الغنمالي حتى يكون طوع يدي ويقضي حاجتي . . . » .

يجلس رغيد في حضرة الساحر كالطفل . . . انه يؤمن بالارقام والمنطق والكومبيوتر التي يستخدم عشرات منها في مكاتبه ، يؤمن بالفيديو وجداول اللوغاريتمات وبالتلكس والرشوة المادية والنسائية ولكنه ما زال يرتاح لتأييد الساحر . . . والدته كانت تذهب الى البصّار (المنجّم) في مسقط رأسه بتلك المدينة العربية الجميلة الحجرية الابنية . . . ووالده كان يذهب اليه خلسة . . والوزراء ورجال الحكم كانوا يتسللون الى بيته تحت جنح الظلام في ذلك الزمن الغابر . . . وقيل له ان النظام تبدل والزمان تحول لكن (الجدد) ما زالوا يذهبون الى المنجم . . . تبدل الزبائن وبقيت الطقوس . . .

قال رغيد للشيخ وطفان من غير ان يجرؤ على التحديق في وجهه : ارجوك ان تعقد لي لسان شقيقه التوأم هلال . . انه يريد بي شراً ويحول بين الناس والخير . . . اريد تعمير مطار لهم وهو يريدهم على الدواب . . ارجوك يا سيدي الشيخ . . .

« ارجوك يا سيدي » عبارة لا يقولها الا للساحر . . وحتى في لحظات لقائه والملوك والامراء والثوار والمرتزقة ورؤساء الدول لم يكن في حاجة الى استعمالها . . . وحده ساحره يخيفه ويؤمن بمقدرته . . .

« . . . . سم حم . . . صم بكم بكم عمي فهم لا يبصرون اللهم كما ربطت افواه الاسود عن دنيال ان تربط ألسنة الخلق عن رغيد الزهران .

. . . شقيوش شقيوش شردلوش شردلوش ليطوش ليطوش قاطوش قاطوش شانيوش شانيوش كيلموش كيلموش ماينوش ماينوش هيدبوش هيدبوش شارنوش . . خرفيدوس . . ناريوش . . امسك لسان هلال الغنمالي الوحا العجل الساعة .

. . . حمطم ٩٢١١٩ وله اليوم تختم على افواههم اللهم اختم على لسان هلال الغنمالي . . . »

- ارجوك يا سيدي الشيخ ، اريده مريضاً . . . زد في مرضه فهو الآن هنا في جنيف . . جاء يستشفي . . . دع الطب لا ينفعه في شيء . . . .

- احضر لي بيضة وقطراناً ومداداً اسود ومثقاباً للبيضة . . . سأكتب عليها ما يلزم يوم السبت أو الثلاثاء واثقبها واجعلها على احجار ثلاثة حتى يسيل جميع ما فيها وأنا اعزم عليها ٣١ مرة ، ثم دع نسيم يدفنها في قبر لا يزار . .

- ارجوك يا سيدي الشيخ . . الآن . . . اعزم الآن

« . . . عزمت عليكم ايتها الارواح المتوكلين بالامراض ان تمرضوا هلال الغنمالي بحق هذه الاسماء والقلفطريات بحق بعضكم على بعض وبحق ما انتم في طاعته وبحق لجش ولويش وشويش وبحق ابك لش حلاش افعلوا ما تؤمرون به الوحا العجل الساعة . . »

- المزيد يا سيدي الشيخ ، المزيد . . .

- يوم الاربعاء بعد صلاة العصر احضر لي قطعة من اللحم النيء ، واسم والدة هلال الغنمالي ، وسأكتب عليها ما يلزم ونجعلها في نار دائمة الوقود . . . تذكر ان تحضر لي اسم والدة هلال الغنمالي . .

- المزيد يا سيدي الشيخ . . المزيد . . . يريد حرمان الناس من العلم والحضارة والنور . . . لا يريدني ان اشيد المطار . .

- عد الي يوم الخميس في ساعة الزهرة او ساعة المشتري وسأكتب لك ما يلزم لعقد الالسنة وجلب الزبون . . .

« . . تغياب سيغاب سليوب هيطوب ططيوب سطيوب طاطوب . . . .

. . . يا اهيا شراهيا ادوناى اصباؤت آل شدى القوى الطابقة هو رب النور الاعلى الذي اذا نظر اليه جبريل الملك العظيم خضع وتواضع لعزة هذه الاسماء كذلك يخضع ويذل ويتواضع كل من يرى رغيد الزهران الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . . »

تتدفق الدموع مدرارة من عيني رغيد . . يبكي كطفل بين يدي ساحره كما يبكي امام موته الآتي المرتسم في قبره ، بينما تناول ساحره ورقة خاصة شفافة كجلد بشري مقدد وكتب فوقها : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا افمن هذا الحديث الآية اللهم اني اسألك بحق سوسم دوسم براسم طراسم كراسم

وبحسن حسنك وبنور وجهك وببساط رحمتك والسبعة والثمانية بأسرارهـا المتصلة منك وباسمك المكنون وبطاه يرطاه وبكاه بركاء وبما عقد به السنة الموتى والبهايم وبما عقد الله السباع عن دنيال والياس ٣ سنين و ٧ اشهر وبما عقدت به المطر فلم ينزل من السماء على الأرض اسألك اللهم ان تعقد عن حامل كتابي هذا رغيد الزهران السنة الخلق والشر من كل انثى وذكر فلا يتكلمون الا بخير ويصمتـون وبحق سلسال رؤوسهم كـالجبال والسنتهم كالبرادع صفا صفاً وله برعا اللهم انك سددت فم المساء بالكواكب وسددت فم الكواكب بالشهب اللهم اني اسألك ان تسد افواه الخلق والبشر من كل انثى وذكر عن رغيد الزهران حامل كتابي هذا لا يتكلمون الا بخير او يصمتون » . . .

عبر ابخرة البخور ، طوى الساحر الورقة بطريقة خاصة وناولها لرغيد قائلاً : لا تفتحها ولا تقرأها ، واحملها معك في حلك وترحالك . . .

ـ سؤال اخير يا سيدي الشيخ . . هل حضر احد من جماعتي اليك في الفندق ؟ هل اعرف احداً ممن زارك ؟

ـ هذه اسرار الجان لا ابوح بها لإنسي . حاجات الناس اقضيها ، فأنا لست اكثر من واسطة بين البشر والقوى الخفية . . لست محققاً لأعرف ما اذا كان احدهم ظالماً حقاً او مظلوماً . . . يحاسبون على نياتهم وافعالهم امام خالقهم . . .

ـ الا يمكن ان تلازم القصر هنا وتنقطع عن الذهاب الى مقرك السابق في الفندق ؟ . . سأدفع لك ما تشاء . . سأحضر لك ما تشاء ، وتنقطع لتحويل المعادن كلها الى ذهب . . .

ـ سأفكر بالأمر . . .

●●●

غادر امير المقهى وهام على وجهه وقد خلف على منضدتهـا شابـاً آخر سيجـوع بعد ساعات . . . . وقد قذف به الوطن الى الجنة الموعودة . . . ماذا كان اسمه ؟ خليل الدرع ؟ ما الفرق . . . كل يوم ينزف الوطن ويرمي بهم الى الغربة نهراً من الهدر . انه بالتأكيد ليس من فئـة الاثريـاء الهاربـين بكنوزهم من وهـج الثورات التي يخشـونها . . . ولا من ابناء الباشاوات . تراه من اولئك المغامرين الباحثين عن الثروة والمغامرة بين فتات موائد بعض

الاثرياء العرب الذين اتخذوا من اوروبا وكراً وملجأ ، اولئك الذين وطنهم المال وجواز سفرهم دفتر شيكاتهم وبيوتهم طائرات خاصة تنقلهم بين غرف نوم متناثرة في ارجاء الأرض ، لا قضية عامة تشغلهم ، ولا خاصة غير ان يصير الثري اكثر ثراء . . . هل هو قادم للتمسح بهم ؟ هل هو مرشح قواد لراقصة او مطربة ؟ لا يبدو ذلك على وجهه الصارم ، وسيفشل في ذلك حتى لو حاول . ليست لديه (الموهبة) ، ويفتقر الى (خامة وغد) . . .

ام تراه من تلك الفئة التي قررت ببساطة ان ثمة حياة افضل في مجتمعات اخرى غير بلادهم ؟ . . شاب متعلم ، مرهف ، ضعيف امام قسوة الحياة ، جرب محاولة التبديل في وطنه وفشل وركب الطائرة هارباً بعد المحاولة الأولى . . .

او لم يكلف نفسه عناء التجربة ، وانما قرر ان ما تبقى من عمره على هذا الكوكب لا يزيد على نصف قرن ، وهو زمن اطول بكثير من ان يقضيه في البؤس ، واقل بكثير مما يلزم لتطوير وطنه . . . فيمم وجهه شطر الغربة اثر خيبة ذاتية صغيرة ضخمها ودفنها في قبر وبنى حولها (تاج محل) جديداً ؟ . . . اليس ذلك ما فعلته تلك المجنونة الغالية ليلى السباك ؟ الم تقرر ان الوطن العربي مفصل على قياس الرجال ، وهي كفتاة متعلمة متخرجة من ارقى الجامعات الاوروبية لن تعود للعمل في الوطن . . . معظم القوانين هناك تعاملها كمواطنة من الدرجة الثانية ، وكلما ارادت جواز سفر مثلاً كان عليها ان ترافق شقيقها المعتوه الى دائرة الشرطة بصفته ولياً لأمرها ، هي الاستاذة الجامعية . . . وهو المعتوه المتنقل بين البيت والمصح . . . وسيكون عليها مرافقة زوجها بعد شقيقها ، لاجراء المراسيم ذاتها في كل حقل . . . لن تنجح الا اذا رضي ذكور العائلة ، ولن تنال قضمة من رغيف النجاح الا اذا وافق ذكور المجتمع على ذلك . . . فقررت ان تتزوج اوروبياً وتبقى في الغرب . . . حيث تستطيع على الاقل ان ترث زوجها في حال وفاته ، بدلاً من طردها من البيت اذا لم تنجب ذكراً لاستيلاء ذكور العائلة من اشقائه على جني العمر المشترك . . .

اجتاز امير جسر « المون بلان » وتابع دربه نحو (كي ويلسون) مشياً على الاقدام صوب بيتها . . لماذا لا يستطيع ان يتأمل جمال البحيرة وحسن الصبايا العابرات بدلاً من الغرق في بحيرة افكاره ؟

لماذا يكتب باستمرار ، بصورة خاصة حين لا يكون ممسكاً بقلم ، ولا جالساً خلف منضدة وانما ماشياً في درب جميلة تخدر الناس عادة بمباهجها عن كل شيء ؟ لماذا يظل يكتب

داخل رأسه ، يكتب دراسات وابحاثاً وعرائض احتجاج يوقعها باسمه ملايين المرات عن ملايين الصامتين المخدرين ؟ لا . لا يبدو ان خليل من فئة ليلى . . . لا تبدو غربته شاعرية وجودية . . . كان شبيهاً بشخص سقط سهواً في المطعم والمقهى ، مثل غلطة مطبعية اقترفتها الحياة بحقه . . يتذكره مذعورا ومكهرباً بالذل والقلق .

تراه من الفئة الثالثة ، التي حاولت البقاء في الوطن والتبديل رغم سياط القمع وقوى التشريد وقهر الناس في رزقهم وكراماتهم ؟ خليل هذا ، هل (اشتغل بالسياسة) كمحترف ؟ لا يبدو عليه ذلك ايضاً . . . ام انه كان يتجرأ على قول رأيه فقط ، وتلك جريمة لا تغتفر ؟ ينبذه بعض مجتمعه المقموع خوفاً من زيادة سياط القمع على الجميع بسبب امثاله ، يحاول اهله اسكاته قبل اعدائه . . ثم يسجنه مجتمعه بالقطيعة ويسوره في قفص الرفض لسلوكه الشاذ ، قبل ان تسجنه سلطات ما في دهاليزها. سيواجه الحصار من قبل الاهل قبل اجهزة القمع . . . تراه مشروع مناضل ، جرحته الخيبة ، وقتله جوعه الى الديمقراطية والحرية اللتين يتناقص اوكسجينهما يوماً بعد آخر في فضاء معظم الوطن العربي ، هرب ليس طمعاً بالنقود والاثراء بل لأنه ـ بكل بساطة ـ فقد طاقته على الاحتمال ؟. هل انهارت احلامه ويئس من التبديل نحو الاقل رداءة فقرر الهرب من الطوفان حاملاً بؤسه وحلمه معه ؟.

ام انه طالب علم يفتش عن مورد رزق اضافي ؟ المأساة انهم لا يعودون بعد ذلك الى الوطن . . معظمهم لا يعود . يتفرنجون ويبقون في اوروبا ويتزوجون وينجبون اولاداً لا ينطقون كلمة عربية واحدة . . . انه يحاول تحذير طلبته دوماً من مصير كهذا ، ولكن . . .

هل هو مشروع مثقف قادم للارتزاق و (الاسترلام) لمن يدفع اكثر ؟

أم تراه عنصراً فعالاً في احدى شبكات المخابرات العربية، يجرب الاندساس بين شبكات المناضلين العرب ؟ هل كان يتجسس عليه شخصياً ؟ هل قرروا اعادة الكرة بعد محاولة اغتياله السابقة الفاشلة وأحسنوا اختيار تنكر جلاده الجديد ، كفقير متعب ؟

ام انه جلاد سابق مطرود من عمله ، ومرتزق هارب من غضب زبائنه السابقين واولادهم واحفادهم ؟ . . . ما الذي قذف به الى هنا ، اللقمة ام البطر ؟ القمع ام شهية الرفاهية ؟ . . . اهو من فئة المناضلين الهاربين ؟ ام من فئة القامعين الهاربين من القمع الجديد البديل ؟ هل هو جلادي الخاص المرتزق ؟

لم يعد المرء يعرف شيئاً . . . يتجاوز حديقة « مون ريبو » وينعطف في الاتجاه المعاكس

لحديقة « بيرل دي لاك » ليمشي صعوداً صوب فندق الانتركونتيننتال وحي (البودية) . . . يهاجمه سرب من ملايين البعوض مثل غيمة تحيط برأسه ، يحاول ردها عن وجهه بيديه ، فتزداد كثافة . . . تقطع عليه تدفق افكاره ، ولحظة يكف عن الكتابة داخل رأسه تختفي ! . . . لا . . . لا يعتقد ان ذلك الشاب الغريب خليل الدرع ، من الجواسيس والارهابيين ، ولكن المرء لم يعد يعرف شيئاً حقاً هذه الايام . . المفاجآت كلها ممكنة . . من كان يصدق ان امرأة رائعة مثل ليلى تقبل بالعمل مع وغد هو رغيد الزهران ؟ . . بل انها كما قيل له تحاول جهدها لتفوز برضاه ، وهي التي كانت تحتقر امثاله . . .

منذ ثماني عشرة سنة ، هربت من بلادها كي لا تتزوج من النسخة المحلية عن رغيد الزهران ، وحلمت لنفسها بمصير آخر ، وهي اليوم تحاول جذب انتباهه وامثاله ؟ انه لم يفاتحها بالامر . . . ينتظر ان تتبلور الامور . . . صبره طويل ، اطول من عمره . . . صبره يمتد على عشرات الاعوام ، بل ومئاتها . . . وحين يخطط لوطنه يرى الاشياء من ضمن هذا المنظار ، فلماذا لا يترك ليلى تقرر مصيرها بهدوء خلال العام المقبل على الاقل ؟

سحابة اخرى من البعوض تهاجمه وتحيط برأسه تدخل الى انفه ، وتحاول احتلاله ويكاد يشرق بها ثم يحبس انفاسه . . . كالهالة . . . بعوض البحيرة هذا ، لماذا لا يصورونه في البطاقات السياحية ؟ لماذا لا يشرق الناس به حينما يتلمظون باسم جنيف كالحلم الشهي المستحيل ؟ . .

(لا تكن جاحداً . لا تفتش عن العيوب في كل مكان غير وطنك ، ولا تنظر الى مكان مدهش كهذا بعين السخط ، وتتأمل ذباب وطنك بعين الرضا . . . تستطيع ان تحب وطنك من غير ان تتحامل على الاوطان الاخرى . . . لو لم تمنحك جنيف ملجأ هادئاً لكان جلاد بلدك قص رأسك وتناوله طعاماً للافطار . . . لولا امنها لذبحك الجلاد الجوال . . . ولما وجدت مكاناً تخط فيه سطورك دونما خوف ، وتكتب وتكتب، وناشرك يتوسل اليك تخفيف (الدوزاج) ويشطب لك البعض ويرفض نشر الآخر . . . لكن كتبك تتناسل وتتكاثر كالاطفال العرب ، ولم تعد غريباً حقاً ولك في معظم البيوت الفقيرة موضع . . قلب . . . بحجم غلاف كتابك) . . . . .

يصل الى حي (البودية) الهادىء . كأنه مكرس للطبقة العربية البورجوازية من غير اصحاب الملايين . . لاصحاب الملايين حي آخر وللفقراء نسبياً احياء كالمكان الذي يقطنه في (السيرفيت) . وكما في الوطن كذلك في الغربة . . . كأن مجتمعهم هنا صورة بدائية مصغرة

مفصلة على عشائرهم هناك . . يصعد السلم مشياً . . .

(هل انا ذاهب حقاً لعيادة ام ليلى المريضة ، ام انني اتخفى خلف اللياقات الاجتماعية التي لم آبه يوماً بها ؟) .

انها تقطن في الطابق الأول ولا حاجة به لدخول ذلك التابوت الخشبي الحضاري الملقب بالمصعد . كم يفتقد هذا المكان . يرن الجرس . منذ زمن بعيد لم يزرها . يرن ثانية . لم يتشاجرا ، ولكن كلا منهما انحسر داخل صدفته ، فقد كان اي حوار سيقود الى قطيعة ، فتجنباها معاً . . يرن ثالثة . . . تفتح ليلى الباب مضطربة . . . وتعود راكضة الى الداخل وهي تقول : اعذرني . . . امي . . . . .

يدخل . . . يتجه صوب غرفة الأم . . . يعرف المكان جيداً ويفتقده . يجد الجدة ممددة في فراشها ، شاحبة وبلا حراك ، الحفيدة امام النافذة ، مرتبكة ونصف مذعورة . . يسألها بالفرنسية : ميريام . . ماذا حدث ؟ . . . تقول : لا ادري . لم تكن امي قد وصلت بعد . . نادتني جدتي . كانت تلهث شاحبة ، احتضنتها ، وصارت تقول لي اشياء بالعربية وانت تعرف انني لا افهم العربية وهي لا تنطق كلمة واحدة بالفرنسية ، وبدت متوجعة ، وحاولت ان اركض الى الهاتف لاتصل بأمي او بالاسعاف لكنها تمسكت بي بقوة خارقة وكادت تجرح يدي . . . وتابعت كلامها وكأنها تؤنبني لذنب اجهله ، مثل مجنونة معذبة . خفت وخيل الي ان هذه ليست جدتي حقاً او انني لم اعرفها ، وحاولت التملص منها ولم استطع وصرت ابكي واصرخ وهي تصرخ في وجهي كأنها غاضبة مني او تريد ان انقل لامي وصية او لعنة وتلفظ اسمها واسمي واسماء اخرى كثيرة لا اعرفها ، لعلها اسرتها في وطنها . . . ثم انهارت بين يدي صامتة . . وصلت امي . . . حدث ذلك كله بسرعة خارقة . . . منذ دقائق . . .

امير ينحني فوق فراش الجدة . . . وجهها مسترخ كالشمع . . . لا نأمة . . . لا ومضة . . التجاعيد مسترخية . في عينيها نظرة شبيهة ببريق مصباح انطفأ . . نظرة . . انحسرت الى دهليز سري في الداخل . . . هل يمكن ان تكون ماتت ؟ . .

تناول يدها بين يديه ليجس نبضها . . شاهد الوشم الازرق على ذراعها . للمرة الأولى يلحظه ، كأنه رسالة بدوية من الصحراء لم يمحها شيء . . تدخل ليلى هامسة : الطبيب قادم . . اتصلت بالاسعاف ايضاً . . .

تظل يد امير ممسكة باليد الهامدة . . كأنها ماتت وانتهى الأمر . . . لم تبرد بعد لكنها

ماتت . . لا يجرؤ على ان يقول ذلك ، ولعل ليلى حدستـه وهي تتلمس وجهها الفـاتر المسترخي . . .يظل يحدق في الوشم الازرق . . .يتذكر ان ام ليلى لم تزر احداً هنا يوماً ولم تُزر وظلت تستميت لانكار الغربة وتجاهلها ولم تتحدث الى جارة ، وظلت معتصمة ببيتها لا تخاطب بائعاً ولا تمشي في شارع . . . ولا تصادق اجنبية لانها لا تعـرف الفرنسيـة ، ولا تصادق عربية لانها لا تريد ان تعترف بأنها غريبة . . . ملتصقة بابنتها في صمت حزين ، قائمة على تربية حفيدتها مريم حتى سن الثانية حين تم الطلاق بين ليلى وزوجها الفرنسي . . والغريب ان مريم كبرت وهي لا تنطق العربية ، فقد عاشت مع والدها حتى المراهقة في باريس ، وعادت الى امها بعد موته منذ اشهر . . . هذه هي ليلى ، قوية لا تأبه لعواطفها امام قناعاتها ، لم تشأ ان تنشأ مريم ممزقة مثلها ، تمنتها فرنسية فقط كوالدها ، دون ان تورثها وشم الجدة ، وغصات الغربة واللاانتماء في قلبها هي . . . فتركتها له يربيها لوطن واحد . .

وصل رجال الاسعاف . احدهم تحسس المريضة . اضاء مصباحاً صغيراً في عينيها . انصت الى قلبها ، ثم اسدل جفنيها بلا مبالاة روتينية وغطى وجهها .

خرجت مريم راكضة نحو الشارع ولحق بها فريدريك، صديقها المراهق السويسري الذي كان جالساً في الصالة بهدوء مهذب وهو يناديها : ميريام . . . ماري . . ولمح امير وجه الفتاة الهاربة وظلمة ما خلف الباب تغيبها ، وخيل إليه انه شاهد على ذراعها وشماً ازرق بدويا كوشم جدتها . . .

اقترب من ليلى مواسياً. قالت بأسى كـأنها لا تسمعه : انـا التي قتلتها . . . وظلت تكررها وهو يقول اشياء تقليدية نصف غبية . . .

- العوض بسلامتك .

- انا التي قتلتها .

- كلنا على هذا الطريق .

- انا التي قتلتها .

- اني آسف . . لا ادري ماذا اقول . . .

- انا التي قتلتها . . انا قتلتها . . .

انفجرت باكية وهي تردد العبارة ذاتها في هذيان محموم . . .

(اوصلت ليلى الى البيت بعد سهرة ممتعة . اخرجت مفتاحها ، وقبل ان تدخله في القفل همست حارة كرغيف طازج : قبلني . الآن . امتلكني هنا . على السلم .

ارتبكت . لم يحدث ان قبلت امرأة امام بيتها. كنت ارى ان ذلك يحدث في الافلام الاميركية وطالما شاهدت العشاق يتبادلون القبلات امام الباب والتاكسي ينتظر العاشق وعينه على العداد ، والاب يراهما ولا يبالي . . . لكنني لا استطيع ان اكون في وضع حميم مع امرأة ، في مكان غير حميم . . . صارت تشاكس كطفلة . . . « ارجوك قبلني الآن . » . . . تناولتها من شعرها الاسود الطويل الممتد حتى اقاصي الليل ، وابحرت على ثغرها الى جزيرة الفرح الاستوائي . . وفجأة ، فتحت امها الباب . ابتعدتُ وقد انسكب المطر البارد فوق رأسي ، وغمرني خجل عميق مذعور كما لو عدت مراهقاً . . . ليلى بدت لامبالية . . . الام لم تقل شيئاً . . لكنها رمقت ابنتها بنظرة كلها دهشة . . دهشة طفلة مفعمة بالحزن ، مثل فتاة صغيرة اكتشفت ان امها المعبودة غانية رخيصة . . . بدت ليلى متماسكة وناضجة كأم قاسية ، وبدت امها مضطربة مذهولة كطفلة ! . . . .

ظلت الام مسمرة لثوان او سنوات لا ادري ، ودمدمت انا ببعض الكلمات معتذراً . . . لعلي قلت : ستتزوج . . . المعذرة . . . آسف . . . او شيئاً من هذا القبيل ، اما الام فانسحبت . . واغلقت ليلى الباب وجرتني من يدي هامسة : تعال نتمشى قليلاً . عدنا الى الليل . . . والارصفة . . . والقمر السويسري الفاحش الجمال في اطلالاته النادرة . . . قالت ليلى نصف ساخرة : رافقتني امي الى الغربة حفاظاً على «سمعتنا» يوم قررت العمل هنا وهجر الوطن .

ـ ردة فعل طبيعية . . .

ـ قالت لي انني اعاني من عقدة العظمة والتفوق ، وان اقامتي في اوروبا نزوة ستنقضي لنعود معاً دونما فضائح . .

ـ وجهة نظر . . .

ـ لكنني تزوجت فرنسياً كما تعرف . . . ووجدت هي نفسها في مكان تعجز عن تحديد موقعها فيه وموقفها منه . فرفضته. باختصار . . . رفضته حتى جنون المكابرة . . . سجنت نفسها في هذه العلبة الملقبة بالبيت ، على امل يوم العودة الى الوطن . . . رفضت الانضمام الى « الجالية العربية المغتربة هنا » ، فهي عابرة سبيل في دربها الى الوطن ولا تريد الاعتراف بغير ذلك . . . .

ـ وانا مثلها . . .

ـ وصبرت طويلاً داخل قوقعة عزلتها الموحشة وغربتها الخالصة . ولم تكن تغادر

البيت الا الى الحدائق العامة ، وتقضي ساعات في اطعام العصافير ، تحمل اليها فتات الخبز ولا تخاطب سواها . . .

. . . كرهتْ زوجي لمجرد انه ليس عربياً ، وسعدت بطلاقي منه ،وبكتْ طويلاً يوم عادت الينا مريم واكتشفت انها هي ايضاً لم تعد تعرف العربية . كان امراً بائساً ان العب دور المترجم بين امي وابنتي . . . وذات يوم اعلنت امي انها ستذهب بها في اجازة الصيف الى الوطن ، لتقابل اخوالها واسرتنا ، وربما تتزوج عربياً . . . ترجمت ذلك لمريم فسخرت من الزواج بعربي معلنة عزمها على الزواج من فريدريك امام جدتها ، التي لا تعرف الفرنسية لحسن الحظ ، ام تراها تفهمها وتتجاهل ؟

ـ لا ادري . . لكنني مرتبك جداً لما حدث . .

ـ مرتبك ؟ لو شاهدت وجهها يوم ذهبت ميريام للمبيت مع فريدريك في بيته . . .

ـ وانت ؟ هل سمحت لها ؟

ـ ولم لا . . . هل تريدها ممزقة مثلي بعضها عربي وبعضها الآخر غربي ، يتشاجران طوال الوقت ؟ . . انها فرنسية ، فلتعش مثلهم !

ـ انني مرتبك جداً . . لا ادري كيف سأواجه امك بعدما حدث . . .

ـ ايها العربي الهزلي . . . انها تعرف اننا عاشقان وانني اقبلك وتقبلني ، فلماذا لا تقع الكارثة الا اذا شاهدوا ذلك يحدث ؟ لماذا يفرضون علينا السرية الارغامية ؟ . .

ـ هذا تبسيط مبالغ به في النظر الى الاشياء . . .

ـ اجل ! ولكنك انت ايضاً تمارسه . . . كقولك لها مثلاً اننا سنتزوج . . .

ـ المعذرة . تعرفين حكاية زواجي واولادي الخمسة . . . هي لا تعرف . ستظنني ألهو معك .

ـ اعرف الاسطوانة . زوجتك مثل صديقة . لا حب بينكما ولا تفاهم ، لكنك تشعر نحوها بالجميل فهي سيدة فاضلة تحسن تربية اولادكما وتصبر على تشردك ولن تجرح الاولاد بالطلاق الى آخره . . . .

ـ ارجوك يا ليلى . . . كانت امسية خارقة العذوبة ، فلا تبالغي بإفسادها ، كما تبالغين باعتبار امك « الرمز » لكل ما تكرهينه هناك . . .

ـ انت تؤكد باستمرار انني « مثقفة فضفاضة الانتماء » وانني اسبب لنفسي ألما بالغاً وادمر حياتي . . . وان الانتماء حاجة لا ترف . . الا ترى انك انت أيضاً فضفاض الانتماء

الزوجي ؟ . . .

ـ هل انت جادة في رغبتك بالزواج مني ؟

ـ انا جادة في رغبتي بأن ترغب انت في الزواج مني !! . . وقد اقبلك بعد ذلك او ارفضك . . .

ظللت صامتاً ووجـوه اولادي تتألق داخل رأسي في ضوء القمر . . . ولم نتبادل كلمة واحدة حتى اوصلتها ثانية الى البيت .

قالت بإصرار كما في المرة الأولى : قبلني . هنا . الآن . امام الباب . . . لن تكررها امي ثانية . . .

ـ وانا ايضاً لن اكررها ثانية !

وركضت هارباً وضحكتها المشاكسة تلاحقني ونظرة امها تشلني) . . .

لا تزال ليلى تنتحب وتكرربين لحظة واخرى عبارة واحدة : انا التي قتلتها . . انا التي قتلتها .

لم يتركها امير بعد ساعات الا وقد مددها في فراشها كالطفلة ، وملأ جـوفها ببعض الاقراص المخدرة المنومة . . . واستمع واياها بصمت الى موسيقى جريك وشومان وبرامز التي تحب . . ولم يجرؤ على وضع شريط عربي من تلك التي فوجىء بـوجودهـا ، فلطالما سخرت ليلى من الموسيقى العربية كلها . . (لعل احدهم نسيها هنا) . . . . ثم انصرف على رؤوس اصابعه . . . وحدس ان مريم لن تعود الليلة فهي تقيم وفريدريك منذ اسابيع قبل ان يتفقا على الزواج بزمن . . .

هـبـط السلم مشيا ببطء . . . والوشم الازرق للجدة يرقص امام عينيه ، وملمس يدها الذاوية نصف الباردة كملمس رمل الصحراء في ليل شتائي ما يزال بين يديه . . . حين غادر باب المبنى ، توقف تحت الشجرة يلتقط انفاسه ويحدق في النجوم التي كانت تبدو ثقوبـاً مضيئة في ليل بلا نهاية . . . تطلع الى غرفة ليلى وفوجىء بالنور يضاء فيهـا . . . وصوت موسيقى باخ تتوقف فجأة بعدما كان قد ادار اسطوانتها قبل ان يغادر . اذن لم تنم ليـلى حقاً . . دخلت كعادتها في الصمت . . . جمد في مكانه . . . وبعد قليل جاءه صوت ام كلثوم في اغنية قديمة شجية . . . من كان يصدق ان ليلى تحتفظ باسطواناتها ، وتستمع اليها سراً ؟ . . .

كان لديه كثير يقوله لليلى . . . عن علاقتها ، وبالتحديد عن علاقتها هي برغيد .

لكن الجدة قالت كل ما لديها الليلة . . . بصمت . . . بضربة واحدة من يدها المضمخة بـالـوشم البـدوي الازرق . . . . . هـل سـتـدفن هـذه اليـد في مقبـرة (الجـرانـد ساكونكس) ؟ . . . وهل ستهدأ عظامها هناك ؟ وهل يتساءل الناس بعـد ذلك عن سر اشباح الموتـى في المقابر ؟ لماذا لا يرقد الاموات ويدعون الاحياء بسلام ؟ ربما لأن الاحياء لم يدعوهم يموتون في سلام . . . ترى هل شبح الميت هو ببساطة ضمير القاتل المثقل مرتسماً على شاهدة القبر المستطيلة كتلفزيون الابدية ؟

ترى هل ستظل تلك اليد العجوز تصفع ليلى في احلامها والوشم الازرق يتوهج في ليل الكوابيس ؟ . . .

ألن يخرج شبحها كل ليلة من مقبرة (الجراند ساكونكس) صارخاً في وجه ليلى ، طالباً العودة الى البادية ؟ . . . هل كان موتها هدية العرس لمريم وفريدريك ؟ وهل سيكون في مقدوره يوماً انه ينسى ذلك المثلث الجهنمي : الجدة ، ليلى ، مريم ، حتى لو نسي يوماً حبه العميق لليلى المتناقضة المتوهجة ؟

وهل يستطيع الامتناع عن التساؤل : ماذا قالت الجدة بالعربية لحفيدتها التي لا تفهم غير الفرنسية ؟ . . . . لن يدري احد ذلك . .

ترى هل تستطيع مريم ان تتابع حياتها من غير ان تتساءل عما صرخته في وجهها تلك الجدة ، وهي تمد يدها ذات الوشم البدوي وتشير بإصبع الاتهام لحظة احتضارها ؟ . . .

●●●

اعدت كفى نفسها للعشاء (الانتيم) كما سماه نديم . . مرت بصالون الحلاق لاعادة تصفيف شعرها (كودي بين)، وارتدت ثوباً ازرق يكشف مفاتنها ويبرز زرقة عينيها. حينما ترتدي لوناً كهذا ، يعرف خليل انها ذاهبة الى الصيد للايقاع برجل ما بصنارتها الزرقاء . هذا ما فعلت يومٍ صارت تتردد على مكتبته ريثما جرته بحبل ازرق الى بحارها . . خليل ما يزال يرتجف قهراً بعد الزيارة الارغـامية لبـائع المـلابس ، لشراء زي رسمي (معـاصر) للسهرة ، لا كثيابه العتيقة التي قررت كفى انها لا تصلح لشخص يحاول شق دربه الى الثراء وبداية حياته من جديد مع اشخاص (محترمين) من اهل القمة . . .

شيء آخر يعذبه بينما التاكسي يحملها الى فيللا نديم ، الساعة الآن هي الثامنة الا الربع كما اكدت كفى ، وقد فاتته نشرة الاخبار التلفزيونية في قناة (السويس رومان) وتبدأ في السابعة والنصف ، كما ستفوته في القناتين الفرنسيتين (تي إف ١) و (فرانس ٢) في الثامنة . . صحيح انه قضى صباحه يقرأ في الصحف كل حرف عن لبنان ، ويفتش عن مواعيد بث الاخبار التلفزيونية ، واستطاع مراقبة (الفلاش) الاخباري في الواحدة ظهراً رغم الحاح كفى بتأجيل ذلك والذهاب الى أحد المطاعم قبل موعد اغلاقه كي لا تفوتها وجبة طالما حلمت بها في مطعم « لوباتو ».الراسي على ضفة البحيرة ولكنه يتحرق لسماع اخبار بلاده ، كأنه خلف كيانه هناك ، وجثته تتحرك وحيدة في المنفى . . . قرب الـ « جاردان انجليز » وساعة الأزهار .

سيكون همّه الليلة محاولة العودة قبل العاشرة والنصف ، للاستماع الى نشرة الاخبار . . . هل استطاعوا احتلال الجنوب حقاً ؟ خلدة ؟ ماذا يريدون ؟

(كم انا مضحك . . . لقد اعلنوا على الملأ ما يريدون ، وبيغن يؤكده كل يوم بحروف مكتوبة بتشكيلات الطائرات المهاجمة القاصفة . . هل ثمة من يستطيع متابعة أكل الخيار المملح على الشرفة والتأكيد بأن تلك المذابح الماضية والآتية كانت نتيجة سوء تفاهم لا أكثر ؟) .

. . . انه حزين وخجل لأنه هنا ، وسط ذلك المساء المشع ، والنهارات الطويلة المغسولة بالترف وهناء العيش ، وقومه يذبحون هناك . . وقريته ، هل تم احتلالها ؟ هل قصفت السنديانة العتيقة . . . رفاقه . . دنياه . . مكتبته . . قبر وداد وامه ؟ . .

وها هو ذاهب الى بيت رجل يحسده في بيروت اهل الحي جميعاً ـ ولا يحترمونه ـ طمعاً في إيجاد عمل ، كي يظل طفلاه في المدرسة الداخلية السويسرية وتشتري كفى ساعة (بياجه) وولاعة (كارتيه) وتايور (تيد لابيدوس) وماكياج (ايف سان لوران) وحذاء (شارل جوردان) ، وبقية (الفظاعات المترفة) التي قضت يومها تحوم حول واجهاتها وتجره معها وتخطط لمستقبلها معاً: هي والبضائع ! . . وهو ذاهل عن ذلك كله ، كمن غادر فخاً ليسقط في فخ من نمط آخر . . .

فيلا «الجوهرة» . . .

حديقة . سلم رخامي . باب خارجي من الخشب المحفور ينم عما بداخله . كفى ترن الجرس . صوته موسيقي رخيم . ينشق الباب عن خادمة في ثياب خاصة ، ودنيا من

التحف الفاخرة . . . يدخلان ، لا ينظر احدهما إلى الآخر . . . كفى تتأمل السجاد العجمي ، لمباديرات (الجالية) المضاءة البهية الألوان ، ولها اشكال نباتات الفطر . . المقاعد الخشبية التي حفرتها يد فنان ولونتها ، كريستال الثريات ، المزهريات (السيفر) الفاخرة ، مقابض الابواب الذهبية ، مخمل الجدران . . . ثم تشهق شهوة وغيرة وغصة ويسمع خليل صوتها شبيهاً بفحيح افعى . . . لا يلتفت . . . منذ دخوله جذبته عينان لامرأة في لوحة تتصدر الجدار ، فاتجه نحوها غافلاً عن كل شيء آخر . . زيتية تمثل شابة في بداية عشريناتها ، حلوة القسمات ، في عينيها نظرة تصميم وتحد وامل دونما تشنج أو صرامة . . او غنج . . وجه انساني كثيف الحضور ، وقد أكد الرسام ذلك حين رسم العنق والكتفين بلون ضبابي شاحب مؤكداً حضور الروح الوثابة الايجابية وغياب مادية الجسد . . . حدق في الشفتين ، اهذه ابتسامة التفاؤل أم الثقة بالنفس التي تتجاوز التفاؤل الرومانسي ؟

دخل نديم بعد برهة ، كأنما ترك لضيوفه فسحة من الوقت لالتقاط الانفاس والاعجاب بهذا المتحف الصغير ، ترافقه سيدة اربعينية الملامح في ثوب اسود تزينه ماسات اشتعلت هنا وهناك ، عند الصدر والعنق والاذنين والاصابع .

قدمها نديم اليهما : زوجتي دنيا . . .

تأملت كفى مجوهراتها باعجاب وحسد بالغين ، وشدت على يدها بحرارة وهي تصافحها . . . اما خليل فتعلقت نظراته بالعينين الحزينتين في الوجه نصف الذابل ، (**حملها بحنان وركض بها بسرعة ووضع رأسها تحت (الدوش) وغسل عنه اكداس طبقات الماكياج بيديه ، ثم ابعد شعرها عن جبينها ووجهها وامسك بخديها بين راحتيه وشاهد الوجه المميز لفتاة اللوحة بعدما مرت به عاصفة الزمن ، وتركتُ بصماتها فوق كل شيء : الخدين والشفتين والعينين . . . وحتى تلك النظرة المتوثبة ، تحولت الى شعاع اسود حزين بعيد الغور . . . لكن شيئاً ما لم يتبدل حقاً . . .**) صافحها صامتاً وهو يقول : اهلاً سيدة دنيا . . .

نديم لا يضيع وقته . . . يخاطب خليل وكلٌ يستقر في موضعه : دعوتكما قبل وصول بقية الضيوف . اريد ان اتحدث اليك حول عمل (بيزنس) على انفراد . . .

زقزقت كفى : قلت ان العشاء «انتيم» . . .

اجابت دنيا : وهذا يعني ان عدد المدعوين لن يفوق العشرين شخصاً . . ولن ينقص . .

ضحكوا لقولها كما لو كان نكتة . . . وبدأ كل منهم يتأمل الآخر بامعان مثل قطيع من قطط الشارع التقى تحت الشجرة . . . وكل يدور حول صاحبه بعينيه وهو جالس في مقعده بكل (تحضّر) . تأملت كفى دنيا وحسدتها (كم هي انيقة وثرية ومحظوظة . . . ماس وزوج ناجح ومدهش المظهر والهندام وبيت فخم كالمتحف واستقرار في أكثر مدن الدنيا استقراراً) . . .

تأملت دنيا كفى وحسدتها (كم هي شابة ونضرة وجميلة ، لعلها لم تتجاوز اواخر عشريناتها . . . وزوجها شاب صغير وسيم ويبدو مرهفاً . . ما تزال اختيارات الحياة مفتوحة امامها) . . .

تأمل خليل دنيا في جلستها الانيقة ، واللوحة التي جذبته على الجدار خلفها (انها هي ، فتاة اللوحة . . . انها هي وليست هي . . . كان في مقدوري ان احب فتاة كهذه ، ذكية النظرة وجادة وحنوناً ، لكن الشمس اختطفتها ودارت الأرض عشر مرات قبل ان تستعيدها . . . وحدث ذلك كله قبل ولادتي . . . لقد غُدِرْت ! . . . لو كانت اصغر بعشرة اعوام ، وأقل وزناً بعشرة (كيلوات) لـ . . .) .

قال نديم : تعال يا خليل نخرج الى الشرفة . . . الطقس جميل . . ستتحدث . . .

استدار نحو السيدتين وقال وقد انحنى برأسه بتهذيب (جنتلماني) سحر كفى : معذرة من السيدتين .

راقبتهما كفى يمشيان جنباً إلى جنب ، نديم وزوجها . . . (يا للفارق . . . نديم بسيجاره الضخم المتصب كرمح ، وزوجي بسيجارته المنكسة المنسية بين شفتيه كراية مهزومة نصف محترقة . نديم اكثر رشاقة ولياقة ، حسناً ، انه أقل طولاً من خليل لكن الطريقة التي يحمل بها جسده مختلفة . . إنه يمشي كمن يحمل باقة زهور يفخر بها ، وزوجي يمشي كمن يحمل معولاً ورفشاً في مقبرة . . . نديم يرفل في حلته ، ويبدو جسده منسجماً مع حرير القميص ، وجلده متعاطفاً ومسترخياً داخل شرنقته الثمينة، اما خليل فيبدو في زيه الأنيق كمن يتشاجر وثيابه) . . . تلحظه وهو يرفع أكمامه متضايقاً تارة ، ويزيح ياقة القميص عن عنقه تارة اخرى ، وهما في طريقهما الى الشرفة . اللعنة . انه فج وستحاول ان تصقله (كنا نشتري الثياب الفاخرة . لم يقدر عملي . لم يعرف مغزى ان انفق نقودي على ثيابه بدلاً من شراء ثياب لي اشتهيها . كعادته حول كل ما اغمره به من رعاية الى تهمة وقال : انك لا تشترين لي الثياب حقاً . انك تشترينها لنفسك وترغمينني على ارتدائها

كي ينسجم مظهري والدور الذي تلعبينه في الحياة . . . انك ببساطة توظفين نقودك في مظهري ، آملة في الربح .

ــ اعرف انني لن اسمع منك كلمة شكر مهما فعلت لأجلك . . . ما رأيك بربطة العنق هذه ؟

ــ تعرفين كم اكره ربطات العنق . . لا ادري لماذا تعني هذه الخرقة الشيء الكثير . . . كأن قدرة المرء على الاحتفاظ بخرقة ثمينة نظيفة يحيط بها عنقه هي صك ولاء للقطيع) .

يتواريان وراء الباب . . . تتنهد كفى ، تشاركها ذلك دنيا وفي قلب كل منهما تتماوج عوالم من الأهواء والاسرار . . .

يبدأ الضيوف بالتوافد . . . تشتعل كفى سعادة بلقاء «علية القوم» الذين حرمت عشرتهم الناعمة منذ غادرت بيت والدها للعيش مع خليل . .

(انها غلطة . هذا الزواج غلطة فادحة . . . هكذا صرخ والدي . وقفت خلف الباب انصت لحوارهما وقالت امي : انها البنت الصغيرة المدللة . . لقد كرهتها يوم ولادتها وكنت قد شبعت من البنات فأسميتها كفى ، ثم احببتها حباً يفوق كل حد وافسدتها بدلالك . . صارت عنيدة . . . تريد امتلاك ما يحلو لها . . .

ــ بعد ليلة الدخلة ، سيدخل الفقر من الباب ويهرب الحب من النافذة . . .

ــ انه شاب ، ومتعلم ، سنساعده وسيعمل معك ويجمع ثروة . . . صهرنا الثالث لم يكن بأفضل منه وهو اليوم من كبار التجار . .

ــ خامته مختلفة . .خليل يبدو لي غير قابل للصقل . . . انه فقير ومتغطرس في آن . . الا تلحظين بأي جفاء يقابلنا ، بدلاً من الزحف على السجادة الكاشاني امامنا لاننا قبلنا باستقباله في بيتنا ؟ . .) .

عادا من الشرفة . ترى هل اتفقا؟ ما هو العمل؟ كم الراتب؟ الأرباح! عمولة؟ نديم يبدو لا مبالياً سادراً في استرخائه المزهو الذي يسحرها ، وخليل يبدو متوتراً محتقن الوجه. . . تنساه وهي تتحدث الى علية القوم من الزوار، وقد قطفت اعجاب الوافدين واحداً بعد آخر بقوامها الممشوق وزرقة عينيها وملامحها الشرقية التي تزيد زرقة عينيها حلاوة وغرابة . . . بالإضافة الى جمالها المصقول الراقي . الشعر المقصوص في تسريحة عصرية . الثوب (الموضة) . الجوارب . الحذاء . . هذه ليست جميلة فحسب ، بل (بنت اصل) يسعد الجمع حضورها كعضوة في اتحادهم السري فازت بكرسيها عن جدارة . . . ثم انها

تعرف اصول مخاطبة الناس ، وقد عرف احد المدعوين والدها المرحوم البيتموني الكبير مما عزز مكانتها وتوجهـا ملكة للسهرة . . . خليل جلس صامتاً وهي فضيلة يحبهـا ثرثـارو السهرات ، مما جعله احد اقطاب السهرة بمعنى ما . . . فكان كلٌ يحمل كأسه ويقف أمامه ليحدثه واسراب الذباب تخرج من فمه وخليل يصمت متجلداً نصف مبتسم ، والطرف الآخـر يسأل ويجيب في الـوقت ذاته ثم ينسحب بعـد ان يؤكد انـه سعيد جـداً بمعرفتـه وبحوارهما !

النساء احببنه ايضاً . . انه خشن الوسامة . . (بروت) . . صامت وهادىء . انيق . غامض النظرات ، ثم انه شاب صغير . . فحل جذاب ! . . . هذا على الاقل ما تتوهمه تلك الثرية نصف الثملة التي تروي له نكاتاً جنسية تضحك لها وهي تمسك بيده اثر كل نكتة ، بينما كفى تتأملها بفرح ورضى . . . ها هو زوجها يتعلم اخيراً كيف يتصرف في المجتمعات الراقية ، ثم تنقل نظراتها منه الى نديم . . . آه نديم . . كم هو وسيم .

داهم خليل حس مفاجىء بالهشاشة . . . (**لقد كنت دوماً قلعة حصينة . . . وهم يحاولون اختراقي . . لقد كان في داخلي رقعة صغيرة نظيفة احتفـظت بها لنفسي ، وهم يريدون تملكها ايضاً . . . وكفى حليفتهم ، تعرف نقاط ضعفي ولحظات سقوطي وتحسن توظيفها وتسمي ذلك حباً !**) . . .

سيدة اخرى تحدثه . . . كؤوس تروح وتجيء . . . وجوه تـطفو وتغـرق. . . وجوه النساء هنا كلها متشابهة ملونة بالمساحيق والشهوات . . لا يدري لماذا يخيل اليه ان لهن جميعاً الوجه ذاته والتعابير ذاتها مع تبديلات سطحية هنا أو هناك . تتعالى الهمهمات والموسيقى والضحكات . . . تهب روائح العطور ويزداد بريق المجوهرات . . يأتيه صوت كفى مشرقاً وهي تروي لحلقة احاطت بها حكـاية هـربهما عـلى متن الطائـرة الاخيرة التي اقلعت من بيروت . . اجل الطائرة الاخيرة . . . وفي مقصورة «الدرجة الأولى» التقينا بنديم . . . لم تنس التأكيد على الجزء المتعلق بمقصورة (الفيرست كلاس) . . . وكانوا يستعيدون حكايتها بين شهقات الاستحسان والخوف . . . آه . . أو لالالا . . . بيروت ؟ (سوفـاج) . . . متوحشة . . . كيف استطعت البقاء هناك حتى الآن ؟ سيدة متحضرة مثلك جيلة مثلك ، ناعمة مثلك ، تبقى بين الوحوش في بيروت ؟ أوه لا لا . . . . اوه لا لا لا لا لا . . .

لم يبد ان احداً يهمه مصير بيروت ، واطفالها وبشرها . . تساءل بغصة : « اليس لبقية العرب اطفال ؟ أعني إذا كانت فلسطين لا تهمهم ولا يعنيهم ان تكـون عربيـة ام لا ،

وليذهب لبنان الى الجحيم وليقلع شوكه بيديه ، حسناً هل يستطيع من يغسل يـديه من العروبة ان يغسلهما أيضاً من الانسانية ؟ أم ان الامرين يتلازمان جدلاً ؟

(وقفت انا خليل فوق البيانو الكبير . خلعت حذائي الفاخر الذي يؤلمني ، وربطة عنقي التي تخنقني ، حاملاً بيدي مصباح (الجالية) بعدما كسرته على طرف البيانو وشهرته كالهراوة صارخاً بالجميع : تتحدثون عن بيروت كأن الأمر لا يخصكم ولا يد لكم فيه . . انتم جزء من الموجـة التي استغلت جوعنا لسرقة حريتنا ، واستغلت جوعنا الى الحرية لسـرقة لقمتنـا . . لقد سـاهمتم في تدمـير بيروت لخلق نمـوذج تخـوفـون بـه شعـوبكم وتصرخون : انظروا عقاب الذين ركبوا رؤوسهم وتدخلوا في أمور السياسة !! انظروا جزاء الأولاد الملاعين المشاكسين ! هيا بسـرعة عـودوا الى اعمالكم الصغيـرة واحضان زوجاتكم واتركوا لنا امر حمايتكم والا كان مصيركم كمصير بيروت وأهلها) .

لم يسمعه احد لأنه لم يقل شيئاً، فقد ظل واقفاً في موضعه يبتسم بتهذيب كلما توقفت السيدة عن الكلام . . يقهقه معها حين تقهقه . . تحطم فجأة شعوره الدائم بالهيمنة على نفسه ، وحين تأمل الظلام الداكن خلف النوافذ داهمه هاجس بأن قنبلة تكمن داخله ، وستنفجر به في اية لحظة ويتطاير اشلاء توسخ ثياب الحاضرين ووجوههم . .

ــ تفضلوا الى المائدة . . .

كفى ضيفة الشرف . تجلس متألقة مزدهرة ، كمن عاد الى قبيلته بعد طول غياب . . . يجلس محرجاً ، خائفاً من مجموعة السكاكين والملاعق والشوك الفضية المحيطة بصحنه ، وهو لا يدري بأيها يبدأ كي لا يبدو متوحشاً . . .

(ارمي بـالادوات الفضية عن المـائدة . اشمـر الكمين عن سـاعدي ، واختـطف الدجاجة الجذابة من صحنها الفضي الكبير ، احتضنها براحتي يدي ، وادفن فيها وجهي متوحش الشراهة وانا اقضم وابتلع والهث ولا ارفع رأسي عنها الا لأبصق العظام الصغيرة على السجادة الفاخرة او في صحن جارتي او على صدرها فوق العقد الماسي بالضبط أو على سيجار نديم) يتنـاول الملعقة عن الـطرف الخارجي لصف العسـاكر الفضيـة التي تحف بصحنه ، ويغمسها في الحساء كما تفعل كفى ، ويبتلع محتوياتها محاذراً اصدار أي صوت . يحترق لسانه، يتوجع، لكنه يبتسم لدنيا بكل تهذيب قائلاً: كم هي لذيذة يا سيدتي. انك طاهية ماهرة . تبتسم دنيا بتكشيرة مسكينة الرياء مشابهة وتقول : شكراً لك يا سيدي . كم انت لطيف . **(المسكين . يظن ان من واجبه ان يتملقني ولكنه لا يحسن ذلك . الا يعرف**

ان سيدات المجتمع مثلي لا يطبخن الطعام بايديهن للضيوف او حتى للأولاد ؟ كان عليه ان يمضي الى المطبخ ليقبل الطاهية ويشكرها . . لماذا لا اجرؤ على ان اقول له ذلك ؟ كيف تحولت الى شريط تسجيل تقليدي لا يفصح عن دواخلي ؟ مسكين خليل . . هو وزوجته المبهورة بحالنا . . . زوجان آخران يأتي بهما نديم ، ليطعم بدمهما الشاب حلقتنا الذاوية المفترسة ، المحتاجة كل يوم الى عملية «نقل دم حي» يشعل دورتنا الدموية الثلجية ، دم جديد ، فضيحة جديدة ، مغامرة جديدة ، وكلاهما مشروع احتراق . . لكن سيتم استهلاكهما قريباً . ويلفظونهما جميعاً . . . يتجاهلونهما في الطريق الى المصح أو المستشفى أو المطار . . . قلائل هم الذين يكونون أكثر افتراساً ممن حولهم ، وينجحون في جمع ثروة تضمن دخولهم اعضاء دائمين في «نادي القتل المرح» الذي نشكله . . كفى قد تنجح . . تبدو مستمتعة حقاً بممارساتنا الوضيعة والرفيعة كلها ، ام تراها الصدمة الأولى وفرحة الاكتشاف ؟ خليل ، ليس من السهل ان يحدس المرء ما يخفيه خلف صمته الهادىء ، لكنه يبدو مرهفاً . . وهذه نقطة ضعف لا تغتفر في عالمنا . . سيأتي يوم وينكسر كما بدأت أنا انكسر) . .

بعد العشاء شرّف السهرة صخر الغنمالي وابنه صقر بمرورهما لشرب فنجان قهوة ، فقد كانا مدعوين في مكان آخر وهما ذاهبان الى حفل آخر . . . قدم نديم اليهما خليل وكفى ، واشتعلت عيناهما اعجاباً بها فلم يلتفتا طويلاً إلى خليل . . . ولم يمكثا طويلاً . . . وقد رافقهما نديم الى الباب مودعاً ، فقال له صخر : انه يفي بالمطلوب . . . هل انت واثق انه ليس جاسوساً وانه (نظيف) ؟ . .

ـ (انظف) مما ينبغي . . .

ـ وزوجته اجمل مما ينبغي . . لرجل مثله . . . واكد الابن رأي الوالد : والدي على حق . . .

اذن اعجب صخر الغنمالي بها . . . عاد نديم الى الغرفة يتأملها بعين جديدة . . . التقت نظراتهما . . . شعرت برغبة حارة جارفة في احتضان نديم . . . كأنها ستحبه . . . بل تحبه . . . (لم اخن زوجي من قبل . . كان ذلك على اية حال متعذراً في بيروت التي تفور برجال فقراء يطيلون شعورهم ويقصرون في مجال الاستحمام والاناقة . آه نديم . تلك الوسامة المصقولة ، الابتسامة الشهية . الجسد الواعد بخبرات المتعة . الشعيرات الفضية التي تتوج سواد شعره ، وتزيده جاذبية في عينيّ . . . هذا رجل خبر الحياة ومفاتيح اجساد

النساء . . كم دنيا محظوظة بزوج كهذا . . . بل انها تهمله . . . المسكين بحاجة الى حنان امرأة مثلي ورعايتها . . ولم ار زوجته طوال السهرة تبتسم له او تداعب وجهه الشهي أو تمسك بعنقه وتلصق شفتيها بغمازتيه وتلهبها انفاسه ورائحة عطره وضمة ذراعه . . آه ليتني زوجته بدلاً منها) .

كفى تتأمل دنيا بحسد . ها هي على الشرفة ، تحادث زوجها المملى خليل . . .

***

دنيا لم تجد خليل مملاً حقاً . وجدته مرهفاً كما حدست . . اشعل لفافتين بعفوية ، وقدم لها احداهما : ربما تدخنين نوعاً آخر . . .

منذ زمن بعيد لم يقدم لها احد سيجارة مشتعلة على طريقة الفنانين والبسطاء اللامبالين بالاصول . شعرت بشيء حميم يقربها منه . امتصت دخانها كأنه حريق ماض تحن إليه وأجابت : ادخن أي نوع حينما أكون بحاجة الى لفافة . أي دائماً . . .

ضحكا . قال : انها لوحة مدهشة . . اعني صورة الفتاة .

ـ انها صورتي منذ ثمانية عشر قرناً وقد رسمتها بنفسي . . .

ـ ترسمين ايضاً ؟

ـ لم اعد افعل ذلك للاسف . لا يمكن لأحد ان يرسم (ايضاً) . انه يرسم او لا يرسم، وإذا رسم لا يفعل شيئاً آخر . العمر لا يتسع للرسم ولسواه معاً . . . وهكذا ، منذ تزوجت توقفت عن الرسم .

ـ هذا مؤسف حقاً . . .

ـ ربما في نظرك . . . اما الاكثرية فترى انني نجوت من فخ الفن بزواج مزدهر . . قالتها ساخرة بمرارة . . سرت بينهما حرارة مصارحة ودية لا تنشأ عادة الا بين رفاق طائرة ما ، أو في المطارات أو (المنطقة الحرة) حيث يروي القلب لغريب آخر حكاية عمره دونما حرج . . .

قال خليل وقد نبض فيه حبه لآثار شيء فيها لا يعرف اسمه : الأجمل من فتاة اللوحة ، اليد التي رسمتها . الفتاة قد تذوي ، لكن الابداع يبقى ، والمرأة قد تنكسر على بلاط الزمن كإناء ، لكن الطاقة على الخلق قد تزدهر مع الزمن . . . من المؤسف انك توقفت عن الرسم أياً كانت الاسباب . . .

احست بسعادة منسية . هذا انسان يهمه حقاً ان يرى لوحة ما دون ان يفكر بشرائها او يسأل عن ثمنها ، بل هو يفكر بمصير راسمها (الفنان) . . كم تفتقد هذا النمط من البشر الذين كانوا صحبها قبل الزواج . . (لم يلحظ احد من جماعة نديم وصول اللوحة . . احدهم فقط سخر مرة من نظرة عينيها قائلاً انها ترعبه في الظلمة لأنها تحدق مثل ساحرة . . . وحين ثملت ، وقلت للصحب الساهرين انني «ارتكبت» ذلك ورسمتها بنفسي ، قيل لي في شهقة اعجاب مزيفة تقطر لا مبالاة : صحيح يا عزيزتي ؟ هذا لطيف حقاً . هل تتقنين حياكة الكانافاه ايضاً ! . . وقالت اخرى : ياقة ثوب فتاة اللوحة حلوة ، هل تعرفون ان «موضتها » رجعت ؟) . . كانا يتحدثان كأن احدهما يعرف الآخر منذ زمن بعيد . . .

همست بمرارة وهي تتأمل جنيف تشتعل في القاع مرجاً من النجوم : اننا لا نحقق دوماً احلامنا . . . ثمة رياح تعبث بحياتنا . . الا تؤمن بالقدر ؟

ــ اجل . وبضرورة عدم الاستسلام له قدر الامكان . . .

ــ هل انت قادر على تنفيذ ذلك ؟ أم انك تكرر عبارات امير النيلي ؟

ــ تعرفينه ؟

ــ كان أول من وقف الى جانبي يوم اقمت معرضي الفضيحة . . .

ــ يا إلهي كيف نسيت ؟ قرأت منذ زمن بعيد شيئاً حول ذلك . انت دنيا ثابت ، التي أقامت معرضها العاري لصور الرجال وتماثيلهم . . . انت المتحدية الثائرة على التقاليد التي لا تفهم لماذا رسم الرجال للنساء عراة فن ، والعكس فضيحة ؟ . . .

ــ انا ولست انا . . . كأن الزواج من نديم مهنة ايضاً . . لعل الزيجات كلها كذلك . . . مهنة قبل ان تكون علاقة عاطفية . . .

بدت له حزينة وهشة واحس برغبة في أن يروي لها حكايته . . يلتصق بها ، يتعانقان ويرتجفان رعباً في الظلمة من عالم يسحقهما دونما رحمة ، وينكل بنقاط ضعفهما . . .

وبدت له كفى عبر زجاج الشرفة وهي تتوهج في الضوء ، وترمي الحضور بنظرة عشق جماعية ، سعيدة مبهورة ، وقال لدنيا : افهم بالضبط ما تعنين . . . هذا مروع حقاً إذا كان المرء لا يحب «مهنته» . . .

ــ هل انت راض عن مهنتك الآتية مع ابن الشيخ صخر الغنمالي ؟

تلعثم ، وقبل أن يجيب ، دخل إلى الشرفة فجأة صبي جميل خاطب دنيا بالفرنسية دون

ان يلتفت اليه ثم انسحب بسرعة . . .

ـ هذا ابني باهر . انه للأسف لا يتكلم العربية كابنتي . . . لقد ولدا وكبرا هنا . .

ـ الا تذهبين بهما الى الوطن في زيارات ؟ . .

ـ لا وقت لدينا لغير العمل هنا ، وقضاء الصيف غالباً في «بالمادي مايوركا» أو «ماربيا» وفقاً لضرورات (البيزنس) . . في (نيس) أو (كان) ايضاً . . .

ـ اليست له جدة في بيروت او اخوال تبعثين به اليهم ؟

ـ لاحظت غلطتي (اعني غلطتنا نديم وانا متأخرين) . . . كانت ظروف العمل المتلاحقة تسرق عمرنا . . . ذهبت به منذ عامين . . بل ثلاثة . . . كره المكان . منذ اللحظة الأولى صعقته وساخة المطار ، وهجوم الحمالين الفقراء علينا من اجل اللقمة ، وكره بيروت وقذارة شوارعها وشراسة اهلها وجنون معاركها . . . نحن نمتلك بيروت الحلم ، ولذا نحبها كيفما كانت . . . اما اولئك الاطفال فلا يعرفون عن وطنهم غير صورته الراهنة البشعة . . .

كاد يقول لها : انتما مسؤولان على اية حال . . . فهو في النهاية سيبقى غريباً بلا وطن . . . ثم سكت . اليس ذلك هو ما يفعله الآن بأولاده ؟؟ . . .

بادرته بالقول : ابني باهر هو ابن الماكينات . والده التلفزيون ورفاقه الألعاب الالكترونية . . . (انتلفيجين) . . (اتاري) . . ان يقضي أوقاته في الحرب داخل الغرفة . . المعارك تجري على الشاشة وهو يحركها بازراره جالساً على مقعده خارج رقعة الموت . . .

كاد يقول لها : « صبي في مثل سنه ، الا يفترض ان يتحدث لغة بلاده ويخوض معركة حقيقية بعد سنوات كأي شبل في وطن يحترق ؟».

لكنه سكت في اللحظة الاخيرة وقد تذكر ان حاضر باهر هو مستقبل اولاده الآتي . . .
وامتلأ غماً قطعه دخول نديم وهو يخاطبها شبه مؤنب : بدأ الضيوف بالانصراف . . . سارعي لتوديعهم . . .

سقطا في بئر ، وهرولت هي الى الداخل وبقي خليل على الشرفة ، ولا يدري لماذا خيل اليه انه لمح في عتمة الغابة فتاة اللوحة وهي تركض بين الأشجار . . .

***

حين غادرا السهرة في سيارة نديم الفاخرة بعدما رفع سائقها قبعته وهو يفتح لكفى الباب ، قالت منتشية : هذه هي الحياة . . .

همس بحزن : هذا هو الموت ! . . .

وتـذكر النحلة السـاقطة داخـل زجاجـة «الكوكـا كولا» في المقهى ، وهي تستميت للخروج من عنقها الضيق ، وجناحاهـا ينكسران عـلى الجدران الصلدة . . . وامتـلأت دهاليز اذنيه بأزيزها الشبيه بصيحات استغاثة بشرية .

***

استيقظ على اصوات زقزقة العصافير . . . لم يحدث له ذلك منذ دهور . . منذ كان طفلاً يستضيفه جده في القرية . . . تطلع الى ساعته وكانت ما تزال تشير الى الثانية عشرة والنصف . . ساعة غرفة الفندق تشير الى السادسة فجراً . . . يجلس امام النافذة ويزيح الستارة قليلاً ، بما يكفي ليرى عبر النافذة من غير ان يتدفق النور ويزعج كفى . لا يريدها ان تستيقظ الآن . . . يريد ان يكون وحيداً ليفكر بمأزقه ، وبحلول اخرى . . .

عـلى الرصيف تتحـرك عربـة خاصـة صغيرة تتقـدمها مكـانس آلية ، تنـظفه بـالماء والصابون . . . ووسط الشارع شاحنة تنظيف اخرى . تذكر بغصة شـوارع القمامـة في بيروت ، والرائحة الكريهة لاحراقهـا فوق الأرصفـة . هكذا تمنى وطنـه ذات يوم . . . نظيفاً ، هادئاً ، يصلح لحياة الاطفال والعصافير . . . ولكن . . كان ما كان . . . ولم يعد عطر البحر يفوح من ليالي بيروت . .

تتقلب كفى في فراشها وتسأله : ماذا تفعل ؟ عد الى النوم . ما زال الوقت مبكراً . .

ــ لا أشعر بالنعاس . . . سأمشي قليلاً . . .

ــ لن ادعك تمشي قليلاً أو كثيراً . . . ستجد عربياً وتتحاوران وتخترع شجاراً ونلقى المتاعب من جديد . . . عد الى النوم لتستلم عملك وأنت في ذروة لياقتك . .

ــ . . . .

ــ لم تقل لي شيئاً البارحة عما اتفقتم عليه . . .

ــ . . . .

ــ لماذا غضبت وقاطعتني ليلاً ؟

ــ . . . .

ـ ألأنني اطفأت التلفزيون لاريحك واستريح من مشاهد دمار بلدنا ؟ الم تتعب من مشاهد العنف والخراب وجثث القتلى ؟ . . . لقد استرحنا من ذلك الى الابد ، فلماذا لا تريد ان تستريح وتريح ؟ . . . امقت العنف والدمار والقتل كما تكرهه كل ام . . تركنا لكم المدينة لتتفضلوا بتحرير فلسطين فحررتموها من اهلها وارزاقها وابنيتها . . . وها هي اسرائيل تكمل المهمة . . .

لقد نجحت في استفزازه . صرخ بها : لم يكن هذا بالضبط ما حدث . هذا اراده بعضهم ان يبدو كما لو كان يحدث كي تقول غبية مثلك كلاماً كهذا . . .

ـ كلامولوجيا . . . لا اسمع منك شيئاً آخر ، والجثث تتكوم وثمة من يحاول اقناعنا بأن طريق القدس يجب ان تمر من بيروت وطرابلس وغيرها . . وعلى اشلائنا . . . دعونا نعيش . . . لستم (جديين) مع قضيتكم . . .

ـ المؤسف انكم جديون مع قضيتكم . . وهي المثابرة على استغلالنا او تدميرنا بالوسائل كلها . . . بما في ذلك دفع الأخ الى قتل اخيه ، او دفعهما الى الانتحار . . .

ـ كلامولوجيا . . . تعبت من حديثك عن الحرية والسلام والرخاء والنضال ، وكل يوم يعودون الى الحي بشاب قتيل تندبه النساء . . .

ـ ان مستقبل الشعوب لا يبنى بعشرة ايام أو عشرة اعوام . . . ما اتحدث عنه قد لا يتحقق الا لاولادنا او احفادنا . . . ولكنه لن يتحقق ابداً إذا لم نفعل شيئاً . . . لعلنا اخطأنا في التكتيك ، لكن استراتيجية النضال لا غبار عليها . . .

ـ كلامولوجيا . . . تكتيك . . استراتيجية . . . دع اطفالك يكبرون في مكان انساني . . . دعنا من بيروت اللعينة وذكرياتها المقيتة . . .

ـ هذه ليست ذكريات مقيتة . قد تكون مؤلمة ، ومفجعة ، ومتوجة بالاخطاء . . . لنتعلم منها لا لنتنصل من وطننا . . .

ـ كلامولوجيا . . .

ـ النضال كالزراعة لا كتصفيف الشعر . . . نحن نزرع . . . قد تواتي الريح وقد تهب العاصفة . . . قد تمطر برداً وسلاماً وقد يحرق الصقيع البراعم . . . بذرة تموت ، اخرى تحيا . . هذه يطأها أحد خطأ ، واخرى يقصفها ذلك ظلماً ، وتلك تقتلها العوامل الطبيعية أو اهمال الناس . . . المهم ان نزرع وان نستمر . . . سيأتي يوم تزهر فيه جهود آلاف الطيبين والمخلصين الذين تعذبوا وربما استشهدوا .

ـ كم انت مضجر . . انت وامثالك . . تتحدثون مثل آلة محشوة بشريط تسجيل كله كليشيهات . . شاهدتكم تحملون المعاول وتحولون الحقول الى مقابر . . . دعني من الكلامولوجيا . . .

ـ لن تفهمي يوماً ما أقول لأنك لا تصغين . . . لكم دينكم ولي ديني . . .

عاد الى فراشه هرباً من مزيد من النقاش ، وتظاهر بالنوم . . . سألته : ماذا اتفقت ونديم ؟

انها مثابرة لا تستسلم بسهولة . حسناً ، سيقول لها : سأعمل سكرتيراً لابن الشيخ صخر الغنمالي . . . الراتب معقول ، ويقول نديم ان (الشاطر بشطارته) والفرصة سانحة للحصول على عمولات كبيرة . .

لم تبد عليها الدهشة . كأنها كانت تعرف . كأن مخابرة هاتفية ما تمت بينها وبين نديم دون معرفته . . من صالون الحلاق مثلاً . . . كأنها منحازة اليهم . . .

ظلت صامتة . . شعر بأن فتوراً ما يسري في سلوكها نحوه . . . لقد اعتاد تدليلها له ، غضبها عليه فحرارتها ، ودموعها . . . هزته لامبالاتها واخافته من نفسه . . . ترى هل يهمه امرها اكثر مما يحب الاعتراف به أمام ذاته ؟

ضمها اليه ، تأمل حسنها النضر وشعاع الضوء المتسلل من انفراجة الستارة يغسلها وتبدو وسط العتمة النسبية للغرفة مصنوعة من مادة بلورية مشعة . داعب شعرها وهمس : أرجوك . دعينا لا نتشاجر في الغربة . . . ألا نستطيع ان نكون اصدقاء ؟ . .

ـ وهل نحن أكثر من ذلك ؟ هل انت قادر على غير ذلك ؟

قالتها بلؤم ، بلهجة تعريض تتقنها النساء حين يتعمدن السخرية من فحولة رجالهن . . .

اخترقه الألم مثل نصل سكين ، وشعر بأشجار الكراهية السود تنمو على ضفتي الجرح . . . فكر بأن ينتزع خاتمه الزوجي من إصبعها ، ويهرع لاحضار ولديه من المدرسة ، ويعود بهما الى بيروت . . ولكن اما زالت ترتدي ذلك الخاتم الفقير ام انها تستحي به ؟ . . تأمل يدها المسترخية . . لم يجد الخاتم ، بل وجد خاتماً آخر ماسياً في موضعه . . صعقته المفاجأة .

ـ كفى . . من اين لك بهذا الخاتم ؟

ضحكت عابثة وقالت : سرقته !

قفز ملسوعاً : تمزحين ؟

ــ لا أمزح . سرقته .

ــ من اين ؟

ــ من حمام الضيوف في بيت دنيا . . .

ــ كيف؟

ــ اظنها نسيته. . دخلت بعدها لاغسل يدي ووجدته . . اخفيته في صدري بقية السهرة . . .

ــ الم تخشي من العقاب ؟

ــ بلى ، لكنني استمتعت . . كان قلبي ينبض ، وغمرتني نشوة خاصة . . .

ــ يا لك من وضيعة . سنعيده اليها الآن . . .

ــ لو كانت بحاجة اليه ، لتنبهت الى اختفائه . . . انظر كم هو جميل ، وماسته كبيرة وفريدة . . . انه شبيه بـ (السوليتير) الذي اهداه صهري الى اختي منال . .

نهض وارتدى ثيابه ، وغادر الفندق لا يلوي على شيء . . . سأله البواب في زيه الرسمي الانيق : هل تريد ان استدعي لك تاكسياً يا سيدي .

ــ لا . ارجو ان ترشدني الى (المحطة) . .

ــ آه . . الكورنافان . . . هذا سهل . . . مسيرة دقائق . . . تنعطف ، ثم تصعد في هذا الشارع . . . شارع الألب . . . بعد عدة دقائق من المشي تجد نفسك في ساحة كورنافان . المحطة تتوسطها . . .

مشى وهواء الصباح البارد يحنو على حريقه . . مر بحديقة «جرينزويك» ، وقطع شارع « الباكيه » ، صاعداً في شارع « تالبيرغ » وإلى يساره خميلة باهرة الأزهار . تنفس طويلاً وعميقاً كمن يكتشف رئتيه للمرة الأولى ، ثم سارع الى اشعال سيجارة كأنه لم يألف هواء نقياً كهذا . . . على الرصيف الثاني ميني سيارة ، في قاعدتها مكنسة عملاقة تتدفق عبرها المياه وتشطف الرصيف وتلمعه. . . تذكر ثانية اكوام القمامة فوق ارصفة بيروت المتوجة بالجثث وامتلأ غماً . وصل الى المحطة . لاحظ دقة اضواء شارات المرور والتكريم الخاص للمشاة . . (**هذه مدينة يستطيع ان يفكر المرء فيها من غير ان تدهسه سيارة او تقتله رصاصة طائشة من شجار فوري يتحول الى معركة ، ومن غير ان يشرد فيتخطى حاجزاً طياراً يطلق عليه النار بتهمة عدم الامتثال**) . . حسناً . . ليعترف : انها مدينة رائعة ،

ذنبها الوحيد انها ليست مدينته ، وانه ليس سويسرياً . . . انها حصيلة جهد وعمل وحروب ككل وطن آخر ، وهو لا يستطيع ان ينتقي الوطن الأكثر أمناً على الأرض ليقضي فيه أيامه هارباً من وطنه لأنه ليس وطناً حراً ديمقراطياً انسانياً . . . قال لها ذلك عشرات المرات . . . قال لها ان النازية احتلت معظم اوروبا خمسة اعوام على الاقل ، بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ ولكن الناس في هولندا وبلجيكا وفرنسا لم يحترفوا الهجرة بل مارسوا المقاومة . . . وألمانيا ظلت تقصف لندن شهوراً ، وكان اهلها ينزلون الى الملاجىء ولا يركبون البر والبحر هاربين الى بيروت مثلاً . . كيف وجد نفسه هنا ؟ . . . تذكر بغصة انه لم يهرب من اسرائيل ، كان هارباً من شيء آخر حين هاجم عساكر بيغن وطنه . . .

الم يكن دفعه الى السفر والآلاف من امثاله جزءاً من الخطة لتفريغ الوطن من المدافعين وتشتيت شملهم والهائهم بالشجارات الصغيرة تمهيداً لاسقاطه ؟ وتسهيل ابتلاعه ؟ . . . عفا الله عما مضى . . . ولكن ، هل يمكن لعربي ان يشهر سلاحه بعد اليوم في وجه عربي آخر ؟ . . بالتأكيد لا . . . لا يمكن ان يتخيل امكانية حصول ذلك في أي يوم بعد الآن . . .

يشتري تذكرة الى ضاحية «فرسوا» . . . الرصيف رقم ٤ . . السابعة ودقيقتان موعد اقلاع القطار . . . يدهشه ان ذلك يتم بكل دقة . . يستيقظ في نفسه شوقه المجنون العتيق الى الدقة واحترام المواعيد في المرافق العامة كجزء من احترام انسانية المواطن العادي . . . ربع ساعة . . يهبط في محطة ريفية . كلها ازهار وورود في احواض جميلة لعابري السبيل ، لا في قصور الوجهاء وحدهم . . .

يسأل عن موقع المدرسة . يرشده احدهم اليها : عشر دقائق من المشي في درب صاعدة بين الاحراش ، والمنعطف الثالث الى اليمين . . يمشي في الجنة ، ماء البحيرة الخرافي الجمال عند المنحدر ، والخضرة الشفافة تارة ، الدامسة تارة اخرى . . . هدوء مدهش الصمت والاسترخاء ، لا يشبه ذلك الهدوء التابوتي الذي يسود الاحياء في بيروت بعد ساعات القصف الطويل . . . انه هدوء الانتقال الى هدوء أجمل ، لا هدوء ما قبل عاصفة القصف التالية . . . يرى ابنية المدرسة وملاعبها . . . القرميد اللطيف الحنون فوق المنشآت الصحية الشرفات والنوافذ . . .

يتأمل ملعب (الفوتبول) القريب الذي لم يشاهده طفلاه الا في التلفزيون ـ في فترات البث النادرة بين انقطاع كهربائي وآخر ـ ولكن كرة القدم هي لعبتهما المفضلة ، وطالما مارساها ببقايا القنابل والشظايا المكورة وعلب التنك الصغيرة الفارغة . . . فكيف يبخل

عليهما بهذا الملعب النظيف الآمن المرسوم بدهان جديد يوحي بعناية فائقة بالتفاصيل كلها ؟ . . تدفق الاطفال الى الساحة قبيلة من الحيوية والصخب الضاحك المتأجج . . ببنطلونات (الشورت) النظيفة البيضاء والثياب الخاصة بالرياضة . . اليس الطقس بارداً بعض الشيء ؟ لا يبدو ان الاطفال يشاطرونه رأيه ، يركضون كالعفاريت المحببة ، واستاذ الرياضة الشاب يهرول معهم وبينهم والكرة تنشط طائرة بين الاقدام وتنشب معركة صغيرة ، ويصفر الاستاذ ، وتعلن هدنة . . لا ، بل ضربة جزاء . . . يفتش عن طفليه ، حارس المرمى لا بد وأن يكون فادي . . تلك هوايته . . والآخر يحب دور الهجوم . . . هذا طفله . . بل هذا . . . بل ذاك . . يا له من احمق ، ومن قال له ان طفليه بين اللاعبين ؟ . . . كاد يتجه نحو مبنى الاستقبال ليسأل عنهما بعدما طالت وقفته على الرصيف الضيق القروي ملتصقاً بسور من الاسلاك الشائكة قرب شجرة باسقة متأملاً ذلك المشهد الصباحي الانيس الجميل لاطفال يلعبون دون ذعر وينمون بحرية . . لكن الكرة تدحرجت صوبه ، وصبي يطاردها لاهثاً مبتسماً حتى اقصى الملاعب . . يمسك بها وهو يلعق شفته بلسانه منتصراً ويرفع رأسه ، فيرى وجهه بوضوح . . انه ابنه رامي . . تسمر في مكانه . . انغرس سور الاسلاك الشائكة في لحمه . لم يجد صوتاً يناديه به ، بل انه اختبأ خلف الشجرة كي لا يلمحه الطفل . . . رامي ركض بالكرة مشغولاً بها عن كل شيء ، وخليل ضم إليه الاسلاك الشائكة كما لو كانت جسداً حياً وتوأم عذاب وانفجر يبكي . . بكى كما لم يفعل من قبل . . . بكى لأنه عاجز عن انتزاع طفليه من هذه الجنة كذئب الغابة . . . يعرف الكلمات كلها التي تقال ضد موقف كهذا . . . (**لا جنة خارج ارض الوطن . . . يجب ان نصنع الجنة بأيدينا لاطفالنا كما فعلت الشعوب الأخرى . . . هذه جنة مستعارة لا نستحقها لمجرد اننا ندفع ثمنها من نقود بقية فقراء الشعب العربي . . هذا حل فردي ذاتي وهو بالتالي مرفوض** . . .) ولكنه يعرف أيضاً انه سيترك طفليه هنا في أمان . . وتناقضه مع ذاته سيعذبه الى الابد . . . ويعرف انه للمرة الأولى في حياته يرضى بممارسة لا تتفق وقناعته العقلية والضميرية . . اهذا ذل الابوة ، ام انه يأتي وقت يضعف فيه اقوى الرجال ؟ (**لقد كنت قلعة حصينة ، وتم اختراقي**) . . بكى خجلاً وقهراً ومرارة . . . بكى في حضن الشجرة (**لم أبك كذلك منذ مصرع امي المطلّقة . كانت في القرية حين زنر الاسرائيليون بيت الجيران لنسفه في عملية انتقامية من أهله الذين يأوون الفدائيين . انهارت الجارة والتف حولها الجيران مواسين ، فركضت امي لتخرج لها نارجيلتها وتبغها ، والجنود**

الاسرائيليون يمنعون الأهالي من الاقتراب وقد ضربوا طوقاً حول المنزل حرصاً على سلامة (!) أرواح أهل القرية . . لا احد يدري كيف اندفعت امي النحيلة من بين بنادقهم راكضة لتلبية رغبة الجارة ، باحضار نارجيلتها ، وما كـادت تطأ العتبـة حتى انفجر المكـان بها وضاعت بين الغبار والانقاض على مرأى من الجميع) . .

***

عاد خليل الى الفندق ، وكانت كفى تتناول طعام الافطار والخاتم الماسي يلتمع في اصبعها وتتأمل البحيرة والبجع . . . لم تسأله اين كان وإنما بادرته : اتصل بـك نديم . الشيخ صخر وابنه بانتظاركما . كلمه الآن ليمر بك . . بالمنـاسبة ، لـدينا دعـوة للعشاء الليلة . . .

ــ . . . . . .

ــ أرجوك يا خليل دعنا نستمتع بالحياة . . . أتوسل اليك . . دعنا ننسى بيروت . . أكره العنف . . أكره المسلحين جميعاً واتمنى لهم الشر ، كالذي أصابني على ايديهم . . حتى امهات المقاتلين يصلين ليخرج اللّه اولادهن من ورطة الموت على رصيف الحي بدل ارض فلسطين . . فكيف تريد مني ان لا أفرح لأنني غادرت بيروت ، بؤرة العنف الأولى على هذا الكوكب ؟ أرجوك . . تكفينا خسارة امك . .

ــ لم تكوني تحبينها . .

ــ وابنتنا وداد . . .

صمت واجماً . . . يستطيع ان يقول لها : انت سارقة . . لكنه لا يستطيع القول انها لا تحب ابنتها . . وانها منذ مصرعها تبدلت كثيراً . . كثيـراً . . . المرأة التي تـزوج لم تكن هكـذا . . . كـان فيهـا بعض من ذلـك ، بعض البـذور ، وكـانت تقف عـلى مفتـرق طـريقين . . . مصـرع وداد جعلها تتركه وتـركض مسعـورة في الـدرب الأخـرى . . . وحيدة . .

ــ ما هذا الدهان الأخضر الذي يلوث ثيابك الجديدة ؟

ــ انه دم اخضر . . . او دموع شجرة . . ما الفرق ؟

ــ لا فرق إذا بدلتها الآن وسارعت لاستلام عملك ! . . .

حـين بـدل ثيـابـه ، لم ينسَ محـرمـة الـورق الصغيـرة التي تحمـل الـرقم الهـاتفي

لأمير . . . كان ينقلها من جيب إلى آخر كأنها تعويذتـه الخاصة . . او طلقته الاخيرة . .

هذه المرة حدق في الارقام ودونها داخل ذاكرته رغم صعوبة ذلك ، وكان واثقاً من انه لن ينساها ما دام قادراً على تذكر اسماء اولاده . . .

عشرات المرات فكر بالاتصال بأمير . . . وتراجع . . ان مجرد اعجابه به ليس سبباً لطلب المساعدة . . وللرجل همومه الخاصة واحزانه كأي مواطن آخر . . . ليس سراً ان سلطات بلده تريد رأسه ، واسرته ممنوعة من السفر ولم ير أولاده منذ اعوام . . . كون امير مشهوراً لا يعني انه ملكية عامة ، وكونه معجباً به ليس فاتورة تستوجب التحصيل . . . لديه حاجة عميقة للكلام معه واستشارته ، ولكن من قال ان كاتبه المفضل يصبح بالضرورة طبيبه النفساني ؟ . . من يدري انه لا يقاسي من اوجاع سرية لا طاقة لسواه على الصبر عليها ، ولا يمكن ان يطلع عليها اي مخلوق آخر ؟ تراه اصبح كاتباً لطول ألفته مع الكتمان ، وإذا كتب فليحرص على سرية الجزء الباقي الأعظم من جبل الجليد الذي لا يطفو منه فوق المياه السرية العميقة المظلمة غير العُشر الأعلى السطحي . . . ؟

ثم ان الناس جميعاً يهاجرون بحثاً عن الرزق وسعياً وراء الأمان ، فلماذا يطارده هو وحده ذلك الحس بالذنب ؟

(اتابع سيري في طرقات العالم ، حاملاً كرة ارضية اكبر حجماً مني على كتفي والدم يقطر منها تاركاً على الاسفلت خطاً مرسوماً بحمرة العذاب . . لا احد يلتفت نحوي غير زوجتي التي تبصق على وجهي . . امشي وامشي حتى اصل الى مدرسة ولدي في « كوليدج دي ليمار » لاصطحبها معي ، في دوراني المعذب ، اقف خلف شجرة كبيرة كصدر الأم ، اترصدهما كالذئب محاولاً اختطافهما من ملعب لكرة القدم مفروش بالشاش والقطن المعقم تفوح منه رائحة السبيرتو . . يضحك الولدان راكضين ، يصفر الحكم ، وتكبر الشجرة وتتدلى من اغصانها اسلاك شائكة تحول بيني وبينهما . . انظر الى يدي فأجد اصابعي وقد تحولت الى اسلاك شائكة . . انزل الكرة الأرضية عن كتفي مهزوماً ، ادحرجها الى وسط الشارع حيث تمر شاحنة كبيرة تطحنها ، وانطلق راكضاً وأنا اعوي كذئب حزين الى قصر الشيخ صخر لاستلام عمل جديد آخر ، غير حمل الكرة الأرضية ليل نهار) . . .

●●●

صرخت السيدة «عنبرة» مذعورة : ابني الصغير يا سيدي الشيخ . . اتوسل اليك . .
ــ ماذا قال الاطباء ؟
ــ لا يعرفون . . قالوها بعد شهر وهم ينقلونه من آلة تصوير شعاعية الى اخرى . . . تكسرت عظامه الرقيقة بين النقالة والابرة الملونة وتخطيط الرأس والقلب . . وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره . . .

تأمل الساحر وطفان ذلك الصبي المرمي امامه، جميلاً كأمـه ، وقد لف وجهه ذبول مبكر . . وتاه في شبه اغماءة . .
ــ اين كان يوم اغمي عليه للمرة الأولى . . .
ــ في المدرسة الداخلية في اميـركا . . ارسله والـده اليها ، فهي واحـدة من افضل مدارس العالم كما قال . . . واخوته الكبار تعلم معظمهم هناك . . اعني اخوته من الزوجات السابقات للشيخ . . هذا اصغر ابنائه . . انه المدلل الاثير لديه . .
ــ هل كنت معه يوم اصيب بهذا العارض؟
ــ لا . . . كنت هنا في جنيف . . .
ــ حين قضيت الاجازات معه ، هل لاحظت شيئاً ؟
ــ لم اقض الاجازات معه . . والده يريده ان يكبر شاباً عصرياً . . يكتشف العالم منذ حداثته ويلتقي بالناس . . وهو لذلك يقضي اجازاته بعيداً عنا في مخيمات (كولوني دي فاكونس) . . كان للمرة الاخيرة في (ايل دي مان) . .
ــ وركبه العارض من جديد ؟
ــ تتحسن حاله تارة وينهار اخرى . . .
ــ اريد المجمرة . . . قولي لهم ان يوضبوها . .
ــ جاهزة . . .

تناولها الشيخ وطفان ، ورمى فيها بالبخور والكزبرة ولبان ذكر ، وتناول يد الصبي برفق وبدأ يتلو آيات قرآنية ، الفاتحة ، فآية الكرسي ، وأدعية اخرى ، قرأ طويلاً حتى كاد صوته يغيب كما لو كان آتياً من كهف نائية ، لا من جسده الناحل ، وكان صوته يأتي «عنبرة» ثم يغيب . . . بعد ذلك بدأ بتلاوة تعاويذ غامضة . . .

« . . . اقش اقش قشياموس قشياموش تشياموش يرقاش يرقاش ارقاش ارقاش انه من سليمان . . . . بحق من تجلى للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا . .

. . . اطع يا ميمون يا ابا نوخ والبس الكف وفرق الأصابع . . .

. . . ان كان به نظرة ففرق لي خنصره وان كان به طربة ففرق لي الوسطانية وان كان به سحر ففرق لي السبابة وان كان به ريح ففرق لي الابهام وان كان به عارض فقم بكفه على رأسه واصرعه بارك اللّه فيكم وعليكم » . . .

خيل الى عنبرة ان يد ابنها ارتفعت باكملها نحو رأسه ، ام تراه تضايق من رائحة البخور فحاول ابعادها عن انفاسه ؟ . . . ثم صار الصبي يتثاءب، وظنت ان النعاس داهمه في الغرفة شبه المظلمة وصوت الشيخ الرتيب وهو يقرأ او يتلو ويهمس لكن الشيخ قال ان مرضه من الجان ، والتثاؤب علامة ، ولا بد من طردهم . . وجاء صوت الصبي من أعماقه مختلفاً بعض الشيء عن عادته فقال الشيخ ان هذا صوت (الذي) يسكنه ، فهل هذا ممكن ام تراه مذعوراً بدل الذعر صوته لا أكثر ؟ كان يئن طالباً امه، ينشج ويقول انه يريد ان يبقى معها . . .

قال لها الشيخ : سأطرد العارض منه . . . وكتب على ورقة بعض الطلاسم واحرقها مع البخور : « هسيس هسيس . . عسيس عسيس . . . شلشال شلشال . . . اخرجوا ايها العارض السوء الفارس والوجع الطارق والعين والنظرة عن جثة براك ابن عنبرة » . . .

ــ ارجوك يا شيخ وطفان . . . طمئني . . .

ــ سيبرأ من «الرياح الأرضية» ويقوم معافى بإذن اللّه . . . « . . . . دمليخ . العفوش . اين ميمون السحابي اين ميمون السياف . . . الخطاف . . . الأحمر . . اين الذي كانت اعينهم تحت اجنحتهم . . .

. . . اجيبوا وعجلوا والبسوا الكف وفرقوا الأصابع وارفعوا الكف الى الرأس واصرعوا هذا العارض الظالم لنفسه المتمرد على هذه الجثة الآدمية الى الأرض بغير اذية ولا ازعاج العجل العجل الوحا الوحا الساعة الساعة . . . » .

وانتفض جسد الصبي فسارع الساحر الى كتابة ن مقلوبة بين عينيه وهو يتمتم : « حبستك بنون والقلم وما يسطرون » . . .

ثم كتب على جبهته فوق النون : « ذام ابحر وقفوهم انهم مسؤولون . . » .

ثم كتب على ظهر يده : «بلودهش بلودهش» وعلى اخمص قدميه العبارات ذاتها . .

همس لعنبرة : لا تخافي . . . ساستنطق الجني . .

ــ ما اسمك . . . قبيلتك . . دينك . . لماذا تتعرض لهذا الآدمي . .

ـ أمي . . . النجدة أمي . . دعوني اهرب . . . جاء صوت الصبي غريباً ، كأنه صوت مخلوق آخر يحتله حقاً ، أم تراها ابخرة اللبان والكزبرة والورق والحبر الأسود المتصاعدة من المجمرة ازكمت صدره وبدلت صوته؟

ـ لا بد من استنطاقك قبل اطلاق سراحك . .

صرخ الصبي : ارجوك . . دعني وشأني . . .

ـ لن ادعك قبل استنطاقك . . « انطق بحق قوله . . . . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا اللّه الذي انطق كل شيء وانطق النملة لسليمان بن داوود عليهما السلام وانطق الألسن بعد بكمها . . وانطق عيسى في المهد صبياً وتكلم بأشمخ شماخ العالي عن كل براخ اللّه العلي العظيم تكلم بحق بهش هنش هيلوش أرميوش شلها شيت طهش . ان كنت مسلماً فقل السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته وان كنت نصرانياً فقل حياكم اللّه وان كنت يهودياً فقل سلام على خيم وان كنت افرنجياً نيراً فنيراً انطق ولا تخف انك من الآمنين . . . » .

وظل الساحر يكرر : « انك من الآمنين » . . .

وصرخ الصبي بعد حين : ارجوك ان تدعني . . لن افعل شيئاً بعد اليوم . . .

ـ هل تهبني هذا المصاب . . .

ـ اهبك . . . قالها الصبي لاهثاً كمن يجثم ثقل على صدره . . . وكررها كمن يريد الخلاص من الساحر وبخوره بأي ثمن ، ام صدرت عن جني يقطنه حقاً ؟ . . تساءلت عنبرة وتابع الساحر :

ـ تعاهدني الا تعود اليه ابداً . . .

ـ اعاهدك . . .

وجعل الساحر يده في يد الصبي وجاء صوته : « قل العهد فاحفظه عن ظهر قلبك . . . عهد اللّه يلزمني وغليظ ميثاقه . . . وبالأمانة والعهود التي اخذها نبي اللّه سليمان بن داوود على جميع الجن والملوك وبما جاء على خاتمه من اسماء اللّه تعالى وبما تدين به لرب العالمين انك لا ترجع لهذا الآدمي براك بن عنبرة ولا تتعرض له لا ظاهراً ولا باطناً لا في ليل ولا في نهار لا في يقظة ولا في منام ولا في أكل ولا في شرب ولا في مشي ولا في وقوف ولا في نطق ولا في سكوت ولا في قيام ولا في قعود . . . لا انت ولا اهلك ولا احد منهم ولا من جندك ولا عشيرتك فإن تعديت ونقضت . . .

.... تكن مطروداً من قبائل الجن اجمعين وعليك اللعنة الى يوم الدين وبحق طنغور طغمر طيغاطه طاسه طشة طهشره حنجروشة فإن عدت وخالفت هذه الأسماء وجب عليك القتل والحرق ...

.... اشهدوا ايها الملوك الأرضية من الحاضرين ... » كرر ورائي : « وحق أوف اوف » . كرر الصبي والعرق يتصبب منه : «وحق أوف أوف » ..

ـ «أوش أوش اني لا اعود ابداً».

سكت الصبي فقال الساحر : كررها ايها الجني الشرير والا عذبتك ... قل «اوش اوش».

ـ « اوش اوش» .

ـ « اني لا اعود ابداً » .

ـ « اني لا اعود ابداً » ...

وانفجر الصبي باكياً هارباً الى حضن امه ، وفتح الساحر الباب والنوافذ تسهيلاً لخروج العارض !

تنفس براك ملء صدره ، وما لبث ان راح في اغفاءة عميقة ...

غادر الساحر وطفان الغرفة ترافقه عنبرة.

قال لها : سينام بسلام ... لقد انتهى الأمر ...

ـ هل سيعاوده العارض ؟

ـ لا اظن ذلك ... ولكن ، على سبيل الاحتياط ، هل يمكن ألا ترسلي الصبي الى مدرسة داخلية ؟

ـ سأفعل بالتأكيد ... ولكن لماذا ؟

ـ اريده ان يبقى الى جانبك اطول وقت ممكن .. حضور الأم يطرد الجان ... لا تتركيه لرعاية المربيات ، واقضي الاجازة الى جانبه ...

وليكن له رفاق من ابناء الفاضلين ... واشرفي بنفسك على كل صغيرة وكبيرة في حياته ...

ـ لا يسعدني شيء اكثر من ذلك ...

ـ قولي لوالده ، هذه نصيحة الشيخ والا فقدتما هذا الطفل الرقيق ...

ـ سأفعل ... على أية حال ، هذا ما فعلته صيتة زوجة صديقنا الشيخ صخر

الغنمالي . . . حملت اولادها وعادت بهم الى الوطن . . . وهم الآن يدرسون في مدارسنا . . . وتقول ان احوالهم تحسنت منذ العودة الى الوطن . . .

ـ هذه نصيحتي يا ابنتي . . .

قدمت اليه كيساً صغيراً من المخمل الزيتي . . وهمست بامتنان : ارجوك ان تحتفظ بهذه تذكاراً مني . .

ـ لا يا سيدة عنبرة . . . لقد غمرني فضلك . . .

ـ ارجوك يا سيدي الشيخ . . .

ـ لولاك لما كنت هنا . . . انت ارسلت في طلبي من بيروت . . . اني مدين لك بحياتي ونجاتي . . .

ـ ارجوك . . . طلبتك لأنني الفت ورع اسرتك منذ صغري . . . أمي كانت تزور المرحوم عمك أيام كان الاصطياف في بيروت وجبالها ممكناً . . . .

وكنت ارافقها واراك كثيراً . . الا تذكرني ؟ . . . انا بنت الشيخ التي امها لبنانية من بيروت . . . واحمل اسم جدتي « عنبرة » هل تذكر ؟ لقد اعتدت عليكم . . . ولما صار الذهاب اليكم خطراً ، اسعدني انك تفضلت بقبول دعوتي وشمل فضلك اهلي وأصحابي . . .

(هل اذكرك ؟ بل هل نسيتك ؟ وكيف ينسى الرجل المرأة الأولى والاخيرة التي احب في حياته القاحلة ؟ كيف ينسى حتى ولو كان ساحراً !) .

ـ انت بركة في حياتنا . . . ارجوك ان تبقى لتناول العشاء . . .

ظل الشيخ وطفان متماسكاً . بذل مجهوداً خارقاً ليأتي صوته هادئاً خافتاً كعادته : لا استطيع . علي ان اسارع للعودة الى الفندق . ثمة صحافي ينتظرني . . . انني اعد (الأوروسكوب) لمجلتهم . . .

ـ ماذا عن الغد ؟ هل تستطيع تناول الغداء معنا . . .

ـ معذرة . . . علي ان اعود الى قصر رغيد الزهران . .

ـ سمعت انك تقضي اوقاتك بين قصره والفندق . . .

ـ انه اعزب ووحيد . . .

ـ إنه لا يطمئن لسواك . . . هكذا سمعت . . .

ـ ثقة الناس نعمة من الله . . . الى اللقاء يا سيدتي ، ولا تنسي نصيحتي : طفلك في

حاجة اليك فلا تحرميه حضورك والا احتله الجان . . . رافقته عنبرة الى السيارة . تنهد منهكاً حين ضمته (الرولز رويس) الفاخرة وعنبرة تحدق في وجهه كأنها تنتظر منه كلمة اضافية .

(ألا يمكن ان يقول المرء لأم ببساطة : ابنك مريض بسبب الاهمال العائلي ؟ وهل من الضروري طرد الجان واحراق البخور والاشجار لافهامها هذه الحقيقة البسيطة ؟ ولكن كيف ، وهو ليس واثقاً حقاً من عدم وجود الجان ؟ . . . حسناً . . في البداية لم يكن واثقاً . . . ولكنه لطول ما ناداهم ، صار يخيل اليه انه يراهم حقاً . . . يخاطبهم حقاً . . يعايشهم ولكنه احياناً حائر كزبائنه جميعاً) . . .

حدث الأمر بسرعة . .

كانت عنبرة ما تزال واقفة امام باب السيارة المفتوح . السائق ابتعد من دربها . دست في يد الشيخ وطفان بشيء مخملي صغير وهي تشكره . ارتجف حين لامست يدها الندية اصابعه . لا . لا يريد منها اجراً ولا ثواباً . انه مدين لها بحبه ، وبرعايتها له . لها وحدها يفعل أي شيء دونما مقابل . يمنحها شمس عينيه ، بل ويمارس التفكير المنطقي بعيداً عن الجان لأجل مصلحة طفلها أو أي آدمي تحبه .

حاول التملص من قبضتها الرقيقة ، وإعادة « الشيء المخملي » اليها . . . ولكنها انحنت فجأة على يده وهي تقسره على قبول هديتها وقبلتها . . . قبلت يده مرة واحدة ، قبلة محمومة كشهقة طويلة ، واحس بوقع شفتيها على يده كالجمر الكاوي .

كان قد اختزن حبها الطفل العتيق في دهاليز اعماقه ، وكفنه بالغبار والمسافات والطلاسم حتى كاد ينساه ، ويألف النسيان ، ويعتاد الاقامة داخل دوره الفاتر معها : دور الساحر . . .

ولكن تلك القبلة المفاجئة احرقت يده ، وايقظت في صدره رجلاً كان يتوهمه قد مات . . .

وفوجيء بالدموع تتجمع في عينيه بسرعة سحب استوائية ، هو الذي لم يبك منذ دهور . . . وحدث ذلك كله بسرعة ، بسرعة خاطفة كما في الحلم واغلقت عنبرة باب السيارة عليه ، وتحرك به السائق ، وركضت راجعة الى الليل . . . فترك دموعه تتدفق بصمت في العتمة وتنهمر حتى شفتيه ولحيته . .

احتضنه مقعد المخمل والحرير ، فأحسه حقلاً من الصبار الحاد الاشواك . قبلتها على يده ما تزال محرقة كاوية **(هل قبلتني امتناناً وعرفاناً بالجميل ، ام ان في نفسها بعضاً مما في**

نفسي نحوها ؟ هل احبتني ذات يوم ، حباً صامتاً مكسوراً ، حب جميلة منذورة للزواج من ثري معمر ولا تملك لقدرها رداً ؟ هل لاحظت من زمان الفتى المختبىء داخل قشرة معاون الساحر ، فالرجل المعذب الوحيد ، كنملة بين أرجل الديناصورات المتقاتلة ؟ . .) تمنى لو كانت امامه . . ربما وجد الجرأة لسؤالها عن معنى تلك القبلة المفاجئة المتدفقة اليه من مغاور الزمن . . لكنها احسنت اختيار التوقيت الخاطف ، وخلفته وحيداً مع حيرته ، ومع الكيس المخملي الذي دسته في يده . . فتحه ، واخرج ما فيه ، فطالعته في ضوء الشارع الخافت حبة كبيرة من الزمرد تشتعل خضرتها كأنها غابات مقطرة طيلة عصور في جوهرة! امسكها بين اصابعه ، وتوجع كما لو كانت جمرة لا تحفة او ثروة . . توجع بعمق . . اذن هي هدية العرفان بالجميل لا اكثر . . والقبلة كذلك . . نعم . . لا . . آه لن يدري . . مع النساء لا يدري شيئاً . . كل ما يدريه ان تلك الزمردة تبعث في نفسه حزناً عميقاً كاوياً (ماذا دهاني ؟ منذ ثلاثة اعوام كنت لا أجد ما اسد به رمقي . وها انا اليوم انتقل من حرير الى حرير الى زمرد الى ماس الى ثروة في البنك . ومن قصر الى قصر الى فندق له فخامة القصور . وكل ذلك لأنني ركعت لملك الجن اخيراً ، وقبلت التحول من شاعر الى ساحر . . وتخليت عن حلمي وتزوجت من امكانياتي المحدودة . . ونسيت عروس الشعر ونسيت عنبرة او توهمت ذلك ، وتزوجت عروساً من الجن . . ثم انهم احرقوا كل شيء . . احرقوا كل ما حولي ، وكل ما احببت وكرهت ، ولم يتركوا لي خياراً آخر غير الكتب الصفراء العتيقة) .

توقفت السيارة امام باب الفندق . هبط السائق وفتح له الباب باحترام . . وجد الصحافي في انتظاره ملهوفاً : نكاد (نغلق) العدد . . ارجوك . . رئيس التحرير سيخرب بيتي . . لقد ارتفعت مبيعاتنا منذ قبلت استشارة النجوم عن طالع ابراج الناس . . انها موضة العصر حتى في اوروبا .

- انها حرفة عتيقة تناقلها اجدادي وتوارثناها . انا الأخير في الأسرة بعد عمي . .

- ووالدك ؟ . .

- جرب مصيراً آخر . . رافق جيش الانقاذ عام ١٩٤٨ لتحرير فلسطين . . قتل هناك لم يعد ولم تعد فلسطين . .

- إخوتك ؟

- إخوتي ايضاً جربوا مصيراً آخر غير السحر . . برقان وكنعان وغيلان . . كلهم جربوا

شيئاً آخر. . كانا قد دخلا الى المصعد المزدحم . فصمتا. شيء ما في قبلتها اعاده الى ماضيه واهله وحقيقته ، وشعر بحاجة للحديث عنهم ربما ليؤكد لذاته انه كان ذات يوم شخصاً آخر . . وله اسرة وماض وقلب كالناس جميعاً . ويتعذب . . ضايقه صمت المصعد فتحول الى ذئب صغير يعوي حزناً ولم يلحظه ركاب المصعد ، ولا الصحافي. تابع عواءه ، وتحت وقع نظراته ذاب حديد المصعد فغادره وقفز فوق قرص القمر ذئباً مستوحداً يطلق صرخاته ويعدو على غير هدى في قلب الظلمة وقلب الريح وقلب الأسى والنسيان . .

كم هو تعيس ووحيد ومذعور . . وفي اعماقه تقطن عذابات سنوات غامضة قلقة ومشوشة أيقظتها عنبرة بقبلة على يده . . كم احبها بصمت وهي ترافق امها اليهم من زمان . . وكم تألم بصمت يوم تزوجت كأمها ثرياً لكنه لم يقل شيئاً فهو رجل ضعيف . . منذ طفولته وهو اكثر إخوته الخمسة ضعفاً ، وحتى اخته « ودعة » كانت اقوى مراساً . . ماذا سوى ان يعود ذئباً صغيراً ، يقفز عن قرص القمر الى الذرى الصقيعية وهو يعوي في وجه العواصف ويبكي ، ويخافه ركاب الطائرات . .

توقف المصعد . غادراه .

حين ضمهما جناح الساحر عاد الصحافي يسأل بحكم العادة من غير ان يتوقع جواباً او يبالي بوطفان حقاً ، فهو شخصياً لا يؤمن بالفلكيين. . لكن القارىء هو الملك . . وبريد القراء هو الحاكم . .

- واخوتك ؟ اخوتك الذين جربوا مصيراً آخر ، ماذا حدث لهم ؟ اين هم الآن ؟ اين اهلك ؟ من انت حقاً ؟ . .

ضربه السؤال كصاعقة . صمت الساحر وقطب ، فانهمر الشرر من عينيه العجيبتين ، اليسرى الخضراء واليمنى البنية ، وسرت رعشة خوف طفولية في عروق الصحافي . . وسكت . . اجابه وطفان فجأة : كان لي اخوة . . وماتوا جميعاً وارلادهم .

بعدها ، لم يجرؤ على طرح مزيد من الاسئلة الشخصية ، ومضى بعد نصف ساعة حاملاً (الاوروسكوب) ، لم يقل خلالها غير عبارات مثل : « حاضر » ، «نعم»، « الى اللقاء » .

***

غادره الصحافي وبقي السؤال معلقاً في فضاء الغرفة : واخوتك . . أليس لك

إخوة ؟ . . (**لقد غادرت ارض الآدميين الى دنيا السحر لأنسى . . لا نسيان فيما يبدو . .**)

لماذا لم أجبه ؟ لماذا لم ابك قليلاً وأروِ لـه حكايتي لأرتاح . . اقول له : « ابي راح مع العسكر » . . اكررها حتى الهث . . وتأخذني غيبوبة . . وانشج واروي له كيف جربنا جميعاً مصيراً آخر وفشلنا . . كأنني لم انس . كأنني امشي في دروب الجان ، وقلبي النازف ما زال معلقاً فوق شبح باب بيتنا المحروق في بيروت . . اركض مع العفاريت وروحي تهيم في ذلك الزمن الغابر . .

كأنني اذكر الشجار بين جدي وأبي قبل ذهابه للحرب في فلسطين ، وكنت دون العاشرة من عمري ، ام ان أمي هي التي روت لي الحكاية وتولى خيالي الطفل تركيب مشاهدها ؟

(**صفع جدي والدي صارخاً : اللعنة عليك يا بهجت . . لم تخلق للحرب ، بل للسحر فلماذا تعاند ؟ كان يدين الانس له بالطاعة لا الجان وحدهم . تلقى والدي الصفعة وظل صامتاً . . وتابع جدي : انظر الى أخيك نجدت . . انه معاوني رغم انك الأخ الكبير . . انت تسخر من حرفتنا المقدسة ، وتقضي اوقاتك عاطلاً عن العمل ، ونحن نعمل ونعيل اسرتك . . لديك اربعة صبيان وبنت ، من يربيهم اذا مت ؟ . . . من يربي غيلان وبرقان وكنعان ووطفان وودعة ؟**

ـ **لست عاطلاً عن العمل . .**

ـ **كل من لا يعمل ساحراً في اسرتنا هو عاطل عن العمل . . انها حرفة تناقلناها أباً عن جد ، وستبقى في اسرتنا ، وانت تقرأ الكتب كلها باستثناء كتب الاجداد الموروثة . .**

ـ **تعني تلك الكتب الصفراء ؟ لا استطيع قراءتها . لا اؤمن بجدواها . .**

ـ **هذا ليس سحراً . . إننا نخدم الله والناس . .**

ـ **وانا ايضاً اخدم الناس . .**

ـ **انت اطفائي . . الا تخجل من مهنتك ؟**

ـ **بعض الناس يشعل النار في بيوت الناس . . ولا بد لأحد من اطفائها . . ثم انك** طالما قلت ان الابراج النارية تهدد اسرتنا . والارواح غير الحليفة تتآمر لاحراقها . . وها انا اعمل اطفائياً . .

تجاهل جدي لهجة السخرية في صوت ابي وتابع غاضباً يوبخه :

ـ وزوجتك ؟ واولادك ؟

ـ افعل ذلك من أجل اولادي . . اذا لم اقاتل انا فسيكون عليهم ان يفعلوا ذلك ، واذا

لم يفعلوا انتقلت المهمة لاولادهم . . لا مناص يا أبي . . هل دمعت عينا جدي غضباً ام حزناً لحظة وداعه ؟ لم ندر . . عانقته امي وبكت فبكينا) . .

أتذكر . . اتذكر وقلبي لا يشفق علي . . اتذكر انني لم أر تلك النظرة الدامعة في عيني جدي الا ليلة ابلغنا (والدكم قتل في فلسطين . ستتزوج امكم من عمكم الشيخ نجدت . . هذا افضل حل لنظل نقيم معاً من غير ان تأكلنا ألسنة الناس وغضب الاسياد . لم تعترض امي . . اظنها كانت تعيسة وتكره عمي نجدت بعينيه الخضراوين الخبيثتين ، لكنها لم تعترض . لم تجرؤ . . قال جدي : هذا أفضل للاولاد ولك . ولكن لم يكن حقاً « افضل حل لنا» . . كنا نكره عمنا ولا ندري بالضبط لماذا . . اظن اننا كنا نحدس كراهية امي له ، وخشيتها منه . . لم يرزقا باولاد ، وكان يضربها في البداية حين يتشاجران وتلتمع عيناه ببريق اخضر داكن شرير يذكرني بالخضرة التي تنمو على المقابر . . وكانت تبكي موت ابي الذي ينعته عمي بالفاسد السكير . كانت بالتأكيد تحب ابي . . تحتفظ بصورته : العينان البنيتان الواسعتان . الشاربان القادران على حمل صقر . .

لماذا اعذب نفسي بالذكرى ؟) . .

نهض الساحر وطفان ، ووقف امام النافذة ، وحدق في البحيرة الجميلة ، ثم في زجاج النافذة الابيض . . لا جدوى . . ثمة ليال تهاجم المرء فيها الذكريات من غير ان يدري ما الذي هاجها ؟ . . النسمات الاولى للصيف ؟ . . الدفء المفاجىء يهاجم ساحراً يلتصق ببرد الاشباح وصقيع الجثث الحية المعذبة ؟ فليعترف انه اللقاء مع الجميلة عنبرة تلك السيدة التي اخرجته منذ عامين او ثلاثة من جحيمه ، بعدما احترق بيته واشفق عليه جيرانه وآووه عندهم اياماً ريثما يصحو من الصدمة التي جاءت لتتوج عشرات المصائب الأخرى التي حلت بأسرته وبمعظم اسر وطنه الحزين : مصرع اخوته الثلاثة . . انتحار امه ، ثم حريق البيت بكل من تبقى من اسرته . كانوا فقراء ، مصائبهم تنافس مصائبه ، لكنهم جيران منذ خلق البؤس . .

(عدت الى البيت في وقت متأخر نسبياً ، وعرفت ان عمي سيزجرني فأنا عبد لديه . . فكيف اغيب اليوم بطوله ؟ كنت التقي صديقاً شاعراً قلما يأتي من قريته ليزور بيروت . يعمل مدرساً في احدى القرى الجبلية ، ويفضل الاقامة هناك وكتابة الشعر والنقد . يكره بيروت ويحبها . . كشأن معظم الناس معها . . له وحده كنت أكشف سري : احب الشعر . . واحب عنبرة التي تزوجت منذ أعوام ثرياً عربياً كأمها اللبنانية قبلها . . ليلتها

ودعني صديقي لأنه سيهجر الشعر ولبنان ويهاجر ! . . حين وصلت الى حيّنا وجدت رجالاً يمنعون الاقتراب من المكان . . وخيل الي في الظلام انني اسمع اصوات انفجارات وان الدخان ينبعث من بيتنا ، وقد تهاوت بعض جدرانه . . توسلت اليهم ان يدعوني امضي . . قلت لهم : هذا بيتي . . اقطن هناك . .

ـ هل تحمل سلاحاً ؟

ـ لا . . انا وطفان حصرم وبيتي في آخر الزقاق . . فتشوني فوجدوا في جيوبي قصائد وشهقات . . ومع ذلك لم يسمحوا لي بالمرور .

قالوا ان المنطقة مطوقة بسبب اشتباك محلي ، ورصاص القنص سيصرعني قبل ان اصل الى بيتي او الرصيف الآخر . وهمت على وجهي في الشوارع ، والمطر يطاردني من رصيف إلى آخر . ثم احتميت بمدخل أحد الأبنية الى جانب كلب اعرج والبرد يخترق عظامي . لا ادري لماذا لم افكر بالذهاب الى اي نزل لقضاء الليلة . وكنت كلما لملمت بقايا قوتي ، اعود الى منطقة بيتي محاولاً اختراق الحصار . . والمسلحون يطردونني ، ويتركون سواي يمر بالسيارات المدججة بالاسلحة . . ومر نهار ، وبعد الظهر هدأوا ، فانسحبوا ، وبدأت الوجوه تمتد من النوافذ ، وسيارات الاسعاف تعول . . وشعرت بالرغبة في الهرب وعدم الذهاب لتفقد بيتي . لا أدري لماذا شاهدته فيما يشبه الرؤيا والنار تلتهمه ، في لحظة بين الحلم والحقيقة . لم يحدث لي ذلك من قبل : ان يحتلني يقين بأن ما يشبه الوهم الذي عبر خاطري هو إطلالة خارقة تتجاوز فهمي المنطقي البارد للاشياء . . هل انا حقاً وريث اسرة تتمتع بحواس متميزة لا ينفيها العلم الحديث ويسميها البسطاء : السحر ؟ لم يكن ثمة وقت للتأمل في طاقات الدماغ البشري الغامضة . . بل ارغمت نفسي على الذهاب الى بيتي ، وللأسف صحت الرؤيا . . اتى عليه الحريق وعلى الاطلال يهطل المطر موحشاً متوحشاً . . وعرفت انهم جميعاً احترقوا قبل ان يخبرني احد . . كانت الصور تتدفق من ثقب سري داخل رأسي لم اكن اعيه . . لم اجد الباب ، وانما حدست موضعه . . وكالمجنون ركضت بين الحطام من غرفة الى اخرى . . كل شيء احترق . . لا احد في الدار . . ركضت نحو الخزانة الحديدية شبه السرية ، المغطاة بأكوام الخشب، لإخفائها عن انظار السارقين ، وجدت الخشب محروقاً . . وصرت انبش الركام والرماد والهباب المبتل بمياه المطر . . نبشت طويلاً كمن يحفر تلاً تكدست العصور فوقه والازمان حتى وصلت الى القاع ووجدت الخزانة الحديدية مطبقة وغير مقفلة ، لا قرش داخلها ولا ورقة

نقدية ، لا شيء غير كوم من كتب السحر العتيقة الصفراء . . تلفتّ حولي فلم أجد في الدار المحروقة شيئاً آخر غير الرماد والحطام . . لا شيء غير الكتب الصفر . كتب السحر كنت امقتها ، لكنني لا ادري لماذا لم امزقها ، بل حملتها كجثة بين يدي وركضت بها وانا اعرف انها كل ما تبقى لي . . وومض في رأسي خاطر مرعب هل احترقوا حقاً كما في الرؤيا ؟؟ . . قرعت باب الجيران فوجدته مفتوحاً وهم يرقبونني مشفقين : هل احترقوا ؟

ـ اجل يا ولدي . . رحمة الله عليهم . . لم ينج احد . . عمك نجدت واختك ودعة واولاد اخيك . . البيت عتيق والنار سريعة . . حدث كل شيء بسرعة لا تصدق . وانهرت . .

صحوت ، فوجدتهم وقد مددوني في فراش سوده الهباب ، وقال جارنا الفران معتذراً : دخان الحريق يا ولدي سود بيوت الحي كلها . . لم تبق وسادة غير رمادية . . لم يبق شيء ابيض . .

ـ ماذا حدث ؟

ـ كالعادة . خلاف بين « المقاتلين » على افضلية المرور . . ويقال انهم كانوا في دربهم صوب الجنوب واحدهم اصر على ان الدرب من اليمين والآخر على أنها من اليسار ، ويدعي صبي الدكان انه سمع شجارهم فقال ان الدروب كلها توصل الى المكان الذي يقصدونه شرط ان يتابعوا المسير . . ولم يقتنعوا . . المهم انهم تشاجروا كالعادة فيما بينهم دون ان يعرف احد بالضبط ما السبب ، واطلق احدهم رصاصة ، فرد الآخر باطلاق قذيفة « آر . بي . جي » اخطأت سيارتهم واصابت البيت ، فالتهب بسرعة فائقة . . كان اهلك في الطابق الثاني فيما يبدو ، وانهار بهم وسط أتون النار . . الذين حاولوا انقاذهم من أهل الحي ما زالوا يعانون من الحروق في ايديهم ووجوههم . . ثم انهم لم يستطيعوا الاقتراب بسرعة لأن « المقاتلين » تابعوا المعركة فيما بينهم فهربنا كلنا الى الملاجىء . .

ـ والمجرمون ؟

ـ كالعادة . . تابعوا المعركة طوال الليل ، وجاءت النجدة للفريقين ، ولعلهم الآن يجددون المطاردة في حي آخر . . بعدما دمروا نصف بيوت حينا وزجاجنا واعصابنا ونوم اطفالنا . .

ـ اللعنة . . احرقوا اولاد اخي اليتامى الثلاثة وهو الذي مات لأجلهم . . مسكين برقان .

- . . .
- اللعنة . . كلما جرب واحد مصيراً آخر قتله الاصحاب قبل الاعداء . .
- اذكر اسم الله يا ابني واهدأ . .
- واختي المسكينة ودعة ما ذنبها . . احترقت . . اللعنة . . اقسم بأن أكون ساحراً . . ولن أجرب مصيراً آخر بعد اليوم . .
- استرح يا ابني . .
- لقد قدمت اسرتنا ما يكفي من الضحايا . . وكنت اتشاجر وعمي المسكين للانضمام الى صف الضحايا . .
- نم يا ابني . . الصباح رباح . .

ولم يكن الصباح رباحاً ، بل عذاباً . . صحوت مع الفجر على اصوات قصف الاقتتال المحلي . . امتلأ قلبي كرهاً لكل عنف في هذه المدينة ، ولكل ما يتحرك . . قتال . . قتال . . موت . . دمار . . جثث) .

***

غطس الساحر رأسه تحت صنبور الماء وقلبه ينبض ويتضخم ويملأ جوفه ويكاد يفيض من حنجرته ويمنع عنه الهواء ويخنقه . . (وجاءني رسول السيدة عنبرة . . وجد البيت محروقاً . . قال له الكواء : المسكين مقيم في بيت الفران . . عائلة طيبة تخدم الناس بأبخس الأثمان . . وقررت الا اكرر خطيئة اسرتي الطيبة الحمقاء . . بشقيها : السحري والنضالي . . سأكون وريث البشاعات التي زرعوها في صدري كلها لمجرد انني مسالم وضعيف . . سأهرب من الخوف الى السلطة) . . .

اخرج رأسه من تحت المياه الباردة . . كان ثقيلاً ، عليه ان يسنده بيديه . . جلس الى الطاولة وحمله بين يديه . . كانت الكرة الشفافة امامه . . حاول ان يشيح بوجهه عنها . . لم يستطع . . شاهد داخلها شقيقه الاكبر يصرخ ، وامه تنتحب . . كان ذلك عام ١٩٦٨ . . لا يملك الا ان يتأملها داخل كرة السحر الشفافة . .

(غيلان ارجوك الا تذهب . . تكفيني مصيبتي بوالدك . . لقد قدمنا الى فلسطين شهيداً وانتهت حصتنا . .
- لم تبدأ بعد . . ارجوك ان ترضي عني يا امي .

ـ سيغضب عمك . .

ـ لـو ضربني بـالسوط لما ابهت له . . إني ذاهب . . فـدعيني اودعك بـالفـرح لا بالدموع . . دخل عمي غاضباً : ستنضم الى الفدائيين ؟ سنرى ما سيقوله جدك . .

ومضى . . ولم يقل جدي شيئاً . . وجدوه في فراشه صباح اليوم التالي ميتاً بالسكتة . .

وذهب اخي غيلان . . وقيل لنا انه شهيد . . وقيل انه ما زال حياً وقد يقرع الباب ويعود يوماً ما . . ولم تبك امي . . كأنها استهلكت حصتها من الدموع . .

وحتى يوم تزوج اخي الآخر برقان لم تبك فرحاً . . وحين رزق بأولاده لم تبد عليها المبالاة ، كأنها غسلت يديها من اسرة النحس تلك ويوم اكتشفت انه (فاسد) كأبي وشقيقي غيلان ، وانه (يشتغل بالسيـاسة) ، ويفضـل عمله كسائق تـاكسي على مهنـة الاجداد السحرة لم تقل كلمة . . عمي كان قد بدأ يشيخ ولم نعد نخشاه وكنت اعمل مساعداً له على مضض ، ولكن علاقته بالجان والجيران ظلت طيبة ، وظل ينفق على الاسرة بأكملها ، كما هي تقاليدنا . . وكان اخي برقان يتحفنا كل عام بفم جديد جائع ، ويأتينا من وقت الى آخر حاملاً رشاشه ومضروباً وثملاً حتى هربت زوجته وخلفت لأختي ودعة ثلاثة اطفال عليها ان تتبناهم . . وقيل لنا انه حائر ، يتنقل بين التنظيمات المختلفة ، يتشاجر ، ضيع الهدف وسقط في التناقضات . . كان بائساً وشرساً وكنت احبه ، ونتحادث سراً . . جرب مرة اقناعي بمرافقته الى التنظيم . قلت له انني حائر فاعترف لي بأنه هو ايضاً اضحى حائراً . قلت له انني جبان ، اخاف ، ولم اعد افهم شيئاً واحاول ان اجد في الشعر خلاصي فسخر مني . . وعاد مساء وقد تشاجر ورفاقه وسيبدل موقعه . . ثم اختفى عدة ايام ، هارباً من البيت وعاد الينا مثقوباً بالرصاص ومكوماً فوق سيارته التاكسي امام الباب . . كانوا ينتظرونه واعدموه . .

حمله اهل النخوة ، وكان ما يزال الدم حاراً يسيل منه . ادخلوه الى البيت وسمعت امي احدهم يقول انه مات . كنت واقفاً بالقرب منها حين لطمت رأسهـا بكلتا يديهـا وابقتهما فوقه كأنه كرة مقطوعة تخشى ان تتدحرج . صرخـة واحدة شبيهة بصوت حيوان يئن شهقتها . . صرخة لا انسانية . . صرخة مذبوحة مخنوقة كأنها قادمة من مكان بعيد بعيـد . . كان وجـه أخي برقـان مشوهـاً وقد فجـره الرصـاص ، ومشهد جثتـه يدمي القلوب . . وامي تحدق بلا صوت وعلى شفتيها صرخة خرساء ومعلقة .

ساد هدوء رهيب والرجال يقفون امامها بارتباك حاملين اليها جثة طفلها الرجل ،

ويتنظرون ان تكسر مهابة الموقف بصراخ نسائي نادب . لم تبك . كأنما قررت الا يبصر القلب ما تراه العين ، رحمة بالعقل . ام تراها وعت عبثية الاشياء حتى التحجر ؟ سرت في المكان كهارب حزن يتجاوز برهبته الاصوات ، كأن نساء المدينة استهلكن حصتهن من البكاء لقرون ، وتجاوزن تلك المرحلة المترفة للحزن البوحي . اقتربت من الرجال وانا انشج وابكي ، ولكن امي ظلت تمثالاً من الملح ، وسرت عدوى مهابتها المكسـورة الى الرجال الذين وقفوا بالجثة بين ايديهم منكسي الرؤوس كأنهم يلامسون جوهر الموت للمرة الأولى . .

آه كيف أنسى تلك النظرة في عيني امي ؟

بعد دقائق رهيبة من الصمت المتقشف الحزن ، بدا الخجل على وجوه الرجال الذين يحملون جثة برقان ، كأنهم هم قتلوه ، او شاركوا بمعنى ما في قتله . . كأن كل حي في بيروت مجرم بمعنى ما . . لم تكن نظرة امي عدائية ، لكن بدت على حامليه امارات حس غامض بالذنب مشوب بالرغبة في الهرب . . كأن جثة برقان صارت ثقيلة . . ثقيلة . . لها وزن جميع القتلى الذين سقطوا في بيروت مجتمعين . .

وحينما تحركوا لتمديد جثته فوق الفراش استعداداً للهرب من مناخ يتجاوز الحداد المألوف ، فتحت امي شفتيها وقالت لهم شيئاً خافتاً . .

أرهفنا السمع وكلنا يتوقع بداية هادئة لسيمفونية بكاء مجنونة ، ولم نكن نريد منهـا اكثر من ان تصرخ قليلاً وتبكي بكاء تقليدياً ليأخذ الموت مجراه عادياً مكرراً نصف رتيب، لكنها فاجأتنا بما لا يخطر ببال ولا يمكن ان يحدث الا في بيروت . . قالت للرجال بهدوء وهي ما تزال ممسكة بخرقة التنظيف المنزلي : « ألا ترون ان الدم يسيل منه ؟ ستوسخون لي الفراش . . ضعوه فوق ارض الشرفة . . » . . ولن انسى تلك النظرة الخارقة التي اطلت من عيني امي. . نظرة بيضاء مرتدة الى الداخل ، الى الفراغ المطلق أو المجهول السكوني) .

***

آه سيأتي الليل ، وسأكون وحيداً . . وستهاجمني تلك الصور كلها ، الا اذا عزمت وقمت بطقوسي الليلية للرحيل نهائياً الى ارض الجان . . ولكن هل اجرؤ ؟ لماذا قبلت عنبرة يدي ، الصقت شفتيها بجلدي وكسرت طلسم النسيان ؟

في بداية عملي كساحر كنت بعد ان يمضي اصحاب الحاجات ، ارتجف ذعراً وخوفاً ، واعرف انه سيأتي الليل من جديد ، وسأكون وحيداً ، وسأتذكر واتذكر وقلبي لا تأخذه رأفة بي . . وسأحدق في كرتي السحرية ، وستطل امي المسكينة التي اشقيناها جميعاً . . تلك المرأة المرصودة للعذاب البطيء ، حتى قررت الانسحاب . . وكنت اهرب الى عروس الجن واحيا في متع دنياها ، وهي التي تتقمص كل مرة آدمية مختلفة الجسد ، فلماذا جاءت عنبرة تزرع الاضطراب في روحي من جديد ؟

(بعد مصرع اخي برقان ظلت امي صامتة مدة اسبوع ، لا تكلم احداً ، ولا يستطيع احد محاصرة نظراتها الزائغة النائية . . حتى اطفال اخي لم يحركوا وتراً في وجهها المتصلب المزرق كوجوه الجثث . . تبدو وكأنها ماتت وتخلت عن روحها ، خلفتها تهيم في عوالم اقل بؤساً وانتهى الأمر . . بقي ان تتخلص من هذا الجسد الذي تحول الى سد يحول بينها وبين الهرب . .

قال اهل الحي انها جنت ، ولم يلمها احد . . مصيبتها كبيرة في اولادها الثلاثة وزوجها . . ومقتل برقان ولما تنقض اعوام قليلة على مصرع ابنها العريس كنعان حين رافق عروسه لزيارة اسرتها في الجنوب ودهست دبابة اسرائيلية سيارة الركاب التي كانوا يستقلونها . . ولم يعيدوا الينا يومها بقايا الجثة فقد كانت معجونة بالحديد ، وبجنازير الدبابة التي دهستهم لضرورات غطرسة غزو جنوب لبنان ١٩٧٨ . .

وقال عمي ان عفريتاً شريراً يحتلها وان مصرع ابي واخوتي غيلان وبرقان وكنعان لا يبرر شرودها بل هو عفريت يحتلها وسيستنطقه ويطرده بالقوة حتى ولو اضطر الى جلدها . . وبدأ يحضر البخور الخاص بالجلسة ، وتحفز بعض اهل الحي للحضور والمشاهدة وقال بعضهم الآخر ان مصائبنا المتلاحقة هي عقاب الله لنا على عبثنا بالقوى الخفية . .

وفجر اليوم التالي ، سمعنا صراخ امي ، وفاحت رائحة الكاز ولحم بشري : احرقت المسكينة نفسها . . شاهدت وجهها وسط ألسنة النيران وقد استعاد تعبيره الانساني المعذب ثم تحول الى فحم وبقايا) .

الرحمة ايها الليل . . ايتها الرياح الآتية من دهاليز الماضي . . الرحمة يا اشباح الاحباب دعوني وشأني ، واخرجوا من كرتي السحرية ومن كرة عيني الفانية ومن دورتي الدموية . . اشفقوا على شاعر اضطرته قسوة الحياة للعب دور الساحر ، فاستغرق فيه ولم يعد واثقاً من

قدرته على لقاء نفسه . . لقد دخلت الى المرآة ، خطوت الى وسطها وانتهى الامر . . ولم اعد اعـرف كيف اغادرهـا لاعود الى دنيـا الناس . . كـأنني بدأت اتـلاشي وسط ضبـابـات بخوري . . الرحمة يا عنبرة ، ايتها الطالعة من احلامي العتيقة المزقة ، دعيني انسى انني كنت انتمي الى اسرة ، وكنت شاباً ، شاعراً وعاشقاً واحبك . . وتلك الثروة التي جمعتها خلال عامين فقط ، لم يعد في مقدوري ان استمتع بها . كأنني صرت حبيس المرآة . . ولم يبق امامي غير التوغل في ارض الجان ، بعدما خلفوني خرقة على شاطىء الحريق . .

آه ما جدوى الشهرة والسطوة والقوة وانا بائس ومذعور ووحيد ومقتلع من تربتي اهيم مع البخور في فضاء الجان ! . . آه سيأتي الليل وسأرجع وحيداً . . مذعوراً . اقوى الرجال يرتعد في حضرتي ، واجمل النساء يبكين متوسلات . . يركع لي الحكام ، ولكنني مع الليل اعود مذعوراً وحيداً ارتجف لوقع خطى فراشة . . وانهار لوقع خطى الظلام الآتي . واهرب الى اول انثى تتقمصها عروس الجان . . امضي الى « شارع برن » نصف متنكر ، لالتقطها عن الرصيف ، وازرع في جسدها احزاني ، واغادرها بصمت . . او أضربها لأحـرر من جسـدها الجنيـة التي تقمصتها لأجـلي . . والليلة لا استطيـع الخروج الى غـارتي الليلية للتخدير . . عنبرة تحاصرني بتلك القبلة البريئة المختلسة في قلب المساء الدهري الحزين . .

●●●

يمشي نسيم وريح جنيف الصيفية الباردة تلسعه ، وفي اعماقه بركان (. . . وكل ليلة اقسم قبل ان انام على قتله ، وكل صباح اسعى لخدمته كالكلب الذليل . . . متى تنبت انيابي ومخالبي بما يكفي لتدمير وحش خرافي اسمه رغيد الزهران له آلاف الوجوه ويقيم في آلاف القصور ويتحكم بأرزاق الناس ومصيرهم خلف بحار وبحار . . . ويذلني وسواي في رزقي وكرامتي ، ويعرف انني ضعيف لأن وطني ينهار فيمعن في قهري . . لن اقدر على ذلك قبل ان انجز شهادتي واقف على قدمي واسرتي . . . مضحك انت يا نسيم . . . رب اسرة يتجاوز تعدادها العشرة افواه واقساط ، وانت لما تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرك وتريد رأس رغيد الزهران ، ولا يكفيك رأسه المقيم في القصر بل تطلب رؤوسه كلها المتناثرة في قلاع الأرض والمتعددة الملامح والاسماء والاقنعة) . . .

كان نسيم يمشي شبه مهرول في احد اروقة جامعة جنيف ، وحين انعطف متجهاً نحو المكتبة التقى بالدكتور امير النيلي الذي لم يلحظه . . . سارع خلفه وهتف بفرح حقيقي : دكتور امير . . صباح الخير . . كم انا سعيد لرؤيتك . . .

- اهلاً نسيم . . كيف استطعت الهرب صباحاً هذه المرة من عنكبوتك الذهبية ؟

- الفضل للساحر . . مطالبه تتكاثر ، وتزيد فرصي للهروب من الشبكة المذهبة وحضور بعض المحاضرات . . وجلب المراجع لاطروحتي . .

- كيف عملك عليها . .

- بطيء جداً . . عنكبوتي الذهبية تزداد جنوناً . . .

- المهم ان تنجز اطروحتك قبل ان تزدردك . . .

- كدت اقتله بيدي منذ ايام . . تصور . . انا نسيم البارد المنطقي العقلاني المولع بالحوار التصادمي من موقع المخالف . . . كدت اعود رجلاً ذا هراوة قادماً من قلب الغابة . . .

- هل تريد ان تروي لي ما حدث ؟

- ليس الآن . . لديك اعمالك ، وعلي ان انجز شيئاً سريعاً في المكتبة .

- عظيم . . اذن عملك مزدهر . . . الباقي تفاصيل . .

- بل اعمال الساحر مزدهرة . . ويبدو انه سينتقل من البخور والعقاقير الى مرحلة الضحايا الحية . .

- ماذا تعني ؟

- يريد عصفوراً ازرق له تاج . . بالأحرى حمامة زرقاء لطقوسه . . جئت لافتش في المكتبة عن اسم طائر كهذا ان وجد . . من اين اجد عصفوراً أزرق يحمل تاجاً . . .

- لماذا لا تحضر حمامة بيضاء نصبغها معاً بالأزرق ؟ . .

ضحكا ، وسرت الروح المرحة غير المفتعلة لأمير وتسللت الى الدورة الدموية لنسيم . تابع استاذه وصديقه امير : على اية حال ، ارجو ان تنجز اطروحتك قبل ان ينتقل من التضحيات بالحيوان والحمام الى الانسان . . وقد تختارك العفاريت والجان . .

ضحكا طويلاً ، واشفق نسيم مما سينقله الى امير من اخبار ليلى . . يعرف ان الضحكة ستموت عن شفتيه، ولكن لا مناص . .

همس نديم كجاسوس : آسف لما سأنقله اليك من اخبار السيدة ليلى فقد يؤلمك . لا

اريد ان العب دور « ياغو » الواشي ، لكنني اعرف مدى ثقتك بها وحبك لها . انها تتردد باستمرار علينا . . اعني . . على رغيد . مكالمات هاتفية عديدة في اليوم . .

ـ غريب . انها منذ البداية لم تذكر لي شيئاً عن صلتها برغيد . . .

ـ وأنت ، هل ذكرت لها شيئاً عني ؟ هل قلت لها انني تلميذك وجاسوسك ؟ سأخسر عملي إذا كشفت ليلى سري لرغيد.

ـ ليلى تعرف صلتك بي وطالما شاهدتك في بيتي . واذا كانت قد انضمت حقاً اليهم ، فذلك يعني انك قد تخسر عملك يا صديقي . اني آسف حقاً . لا اثق بالنساء عادة . يبدو انني كالرجال الحذرين جميعاً ، بالغ الحماقة حين احب .

ـ حسناً . ليكن ما يكون . لن اخفي شيئاً عنك على اية حال . في الزيارة الاخيرة حدث امر غريب . لقد باعته قرشاً بمبلغ يوازي ثروة . . قرشاً فلسطينياً قديماً . . . هل تصدق ذلك ؟

ـ اكمل . . .

ـ وتحدثا عن مشاريع مشتركة . « ليلة المليار » ، حفلة كبيرة يعتزم اقامتها بمناسبة حصوله على ملياره الأول ، وهي التي ستتعهد السهرة برمتها . انه مهتم بمكتب الخدمات الذي أسسته وقد زودها ببعض الزبائن الاثرياء وزكاها عندهم منذ زمن لا بأس به فيما يبدو . . والغنمالي بينهم ، ووعدها بالمزيد . بدا سعيداً كطفل بالقرش العتيق ، وحين مضت حمله ودخل به الى بركته المذهبة . . . تعرفها . . . صار يرغي ويزبد في وجه تمثال « المناضل » كعادته . . ثم فعل شيئاً غريباً . . . حاول ارغام التمثال على ابتلاع القرش ! . . . لم اكن اقصد التلصص ، لكنني كنت احمل اليه ادويته . . . هل يمكن لانسان ان يدفع ثروة صغيرة ثمناً لقرش عتيق يغيظ به تمثالاً ميتاً ؟ . . .

صمتا طويلاً . كاد امير يقول « القرش ما زال جديداً ، والتمثال ما زال حياً » لكنه امسك في اللحظة الاخيرة .

انه يكره كثيراً (القفلات) الخطابية ، حتى ولو كانت صحيحة ! . . . وبدأ نسيم يتلعثم ويكرر بعض ما سبق ونقله من معلومات . . . اكد من جديد : وليلة المليار الاسطورية . . . ستتولى الاعداد لها . .

ـ سبق وقلت لي ذلك . . .

ـ غازلها وتمنعت بلطف بالغ كأنها تؤجله ولا تطرده . .

ـ هذا غريب . . انه لا يتعامل الا مع العذارى والصبايا . . . وزوجات موظفيه . وهي في الاربعين . . .

ـ اظنها ايقظت فيه شهية حب التملك . . للرجال ! هذه السيدة تدير اعمالها كرجل . .

ـ . . . . . .

ـ ومن زبائنها صخر الغنمالي . . . من المفترض انها انجزت له ولرغيد تحفة ديكورية ما . . . لم اكن اعتزم استراق السمع ، ولكن ليست للاذن جفون تسدلها كما تفعل بعينيك حين لا تريد ان ترى . . .

ـ اكمل . . .

ـ هذا كل شيء . . .

تمالك امير النيلي نفسه وقال بلهجته المرحة المحببة : حسناً . وانا احمل لك معلومات تهمك وساحرك . . . الحمام الازرق ذو التاج موجود فعلاً ، وله تاج حقاً . . اسمه « حمامة الملكة فيكتوريا المتوجة » . . . وهو حمام بديع اللون يتوج هامته ريش ازرق خرافي التضاريس ، اطرافه بيضاء كالدانتيل . . موطنه الاصلي في غينيا الجديدة . . . والآن تستطيع الدخول الى المكتبة والعمل ساعتين على اطروحتك ، والعودة بهذه المعلومات بعد تلفون سريع للخطوط الجوية تستعلم منها عن ثمن بطاقة الطائرة الى اوستراليا . . . حيث يعيش طائرك الآن . وتستطيع ان تختفي اسبوعاً بحجة السفر الى هناك لاحضار الطائر . . . وساقوم بتأمينه لك هنا في جنيف من اصدقاء يحترفون تربية الطيور ويعرفون ولعي بها . .

ـ الهرب من عنكبوتي الذهبية ليس سهلاً . . . سيفتش عن تأشيرة الدخول الى اوستراليا في جواز سفري . . . قبل ان يصرف لي فرنكاً واحداً من راتبي . . . انه مدهش البخل والاسراف في آن . . بخيل على الفقراء ومسرف مع الاغنياء ثم انني خائف منه . هنالك لحظات اشعر فيها انني مراقب وانه يعرف صلتي بك . ويعرف انني طالب في كلية العلوم الانسانية احضر اطروحة عن « حقوق الانسان العربي » ، وانني خريج الجامعة اللبنانية فرع العلوم السياسية . . وانه يعرف كم امقته . آه ليتني اقدر على الانصراف الى عملي الاكاديمي سبعة ايام متوالية . . . انني اضطر احياناً الى اعادة المراجع للمكتبة قبل انجاز العمل عليها . . يحين الوقت ولما تسنح لي الفرصة لمطالعتها كما ينبغي . . . دراسة الفقراء الغرباء عذاب . . . يشعر المرء في بلده انه اقوى ، ربما لان حاجته الى النقود

تتضاءل . . .

ـ اكتب لي قائمة بالكتب وساستعيرها لك باسمي من المكتبة . . .

ـ كم انا شاكر لك . . . لا ادري كيف ارد لـك جميلك . . . لولاك لما استطعت المثابرة . . .

ـ انتم رفاقي واولادي والشكر علامة اغتراب . .

حين انصرف نسيم ، غاضت الابتسامة عن وجه امير . سار هائماً على وجهه . . . . مشى طويلاً صوب البحيرة والاشجار . . . دوماً هو هكذا . . . يفكر بصورة افضل حين يمشي ، ولو كان بوسعه لفرد جناحيه ولطار مع تلك العصافير التي يحب . . المشي لديه بديل بائس عن الطيران . . . فكر بها ، بتلك الغالية ليلى . . . ما الذي تفعله به وبنفسها ؟

ماذا دهاها منذ حاولوا اغتياله وفشلوا ؟ بدلاً من ان تزداد تعلقاً به فـرحاً بنجـاته ، صارت تتصرف كما لو مات وانتهى امره . . . غريب حقاً امر النساء . . . يتمسكن بك لاسباب تبدو لعينيك مبررات للفـراق ، ويهجرنـك لامور كنت تتـوهمها وقـوداً اضافيـاً للحب . . .

(ـ اني متزوج . . .

ـ احبك . . .

ـ لدي اولاد . . .

ـ احبك . . .

ـ واحبهم جميعاً . . .

ـ احبك . . .

ـ لن يكون في مقدوري الزواج منك في اي يوم . . . لا استطيع طعن ام اولادي التي وقفت الى جانبي في كوارثي ورعت الاولاد . . . انا مدين لها ، واحترمها . .

ـ احبك . . . امور تافهة كهذه لن تقف بيني وبينك) .

يركض الشريط فوق عينيه ، ويأتيه صوت ليلى ، عاشقاً لا مبالياً متوهجاً بحب حار لم يذق لطعمه مثيلاً . . . مزيج خارق من النضج والحرارة الاولى . . . معها نسي فقره . . . نسي بؤسه . . . نسي مرارة الغربة . . . ازدادت طاقته على العمل . . معها سطر اجمل كتبه وأفضلها . . . والآن ، ماذا حدث ؟

القرش الفلسطيني العتيق الذي اهداه لها كان اثمن ما يملك . . . انه قرش اعطاه اياه

رفيق نضال كان يحمله مع قروش اخرى كثيرة ضاعت في الطريق يوم الهرب وكان صبياً صغيراً . . . قرش مثقوب صدىء كتب على وجهه الأول : « فلسطين ـ ١٩٤٦ » بالعربية والانكليزية والعبرية . . . وعلى وجهه الآخر كتبت قيمته « ١٠ ملات » باللغات الثلاث نفسها . . لكن ١٠ ملات لم تكن حقاً قيمته . . ظل يحمله عاماً بعد آخر كتعويذة . . . في برد المعتقلات وصقيع بيوت التشرد واعوام القهر تمسك به واحتضنه داخل يده كمن يمسك بقلبه داخل راحته . .

كان اسم فلسطين المنقوش بالعربية والانكليزية والعبرية فوق القرش نصف الممسوح يشتعل كالجمرة التي تكوي يده وروحه وكيانه . . . كبر وهو يرى العرب يسمونها « اسرائيل المزعومة » ، ومعظم ما يدور ينذر بـ « بلاد العرب المزعومة » . . لكنه لم يفقد يوماً الأمل . . ولن . . . .

يقول نسيم ان رغيد غازلها ؟ وعجب لـذلك ؟ لعلهـا هي ايضاً عجبت لـلامر . . المسكينة . . . إنها لا تدري ان جسدها تحول الى ساحة معركة بينه وبين رجل آخر . . . لعلها لا تدري ان والده النحات مفيد النيلي هو صاحب تمثال البركة . . . وانه حاول شراء الابن بعد تمثال الاب وفشل . . . وها هو يشتري المرأة التي يحب . والقرش . . . لقـد اخبرته بالتأكيد انه هدية منه ، فاشتراه ليؤلمه لا ليكرمها . لقد سمع بحكـاية ليلة رأس السنة ، واستعمالها للقرش في موضوع الاثارة . . . وتألم . . . ولم يعاتبها . . .

(لقد اخطأت . كان علي ان اخبرها بتفاصيل علاقتي ورغيد ، والبواعث الحاقدة التي تتحكم بلعبة الشطرنج الذهبية الشاسعة التي يكاد يحولها الى حجر من احجارها .

كان علي ان اروي لها تفاصيل تلك الزيارة ، ورفضي العمـل رئيساً لتحـرير مجلة يصدرها تكون مركزاً لتدجين المثقفين الفقراء المشردين في الغرب الذين قد تضطرهم لعنة اللقمة الى الاستزلام والدفاع عن الشيء ونقيضه . . تمهيداً لنقل الشجارات العشائريـة والطائفية الى الجالية العربية في كل مكان) . . .

ولكن هو الفقير اللاجىء الملاحق المرفوض ، لم يشأ ان يبدو مغروراً حين (يتبجح) امام امرأة مثلها قائلاً : رغيد الزهران . . . صاحب المليار يكرهني حتى الخوف ، ولن يريحه غير شرائي . . . فانا في نظره لست رجلاً واحداً . . . انني تيار قد ينمو ويجرفه كما حدث مرات عديدة في التاريـخ من قبل وسيحـدث . . . رجال مثله يـرفضون الحـوار معي او الاعتراف بانسانيتي ، ولن يريحهم غير شرائي بأي ثمن . . . ذلك يضمن له انني تحولت الى

تابع . . تابع باهظ الثمن او بخس الثمن . . لا يهم . . تلك فوارق كمية لا نوعية . . رجال كرغيد لا يريحهم حتى ان يمدحهم شخص ما مجاناً . . . فذلك يعني انه ما زال حراً في تفكيره وبالتالي ما زال حراً في رفضه بعد حين ، وقت اكتشاف حقيقته . . . شراء الجميع ضروري ، الانصار والاعداء ، النصير كي يتحول الى عميل ، والعدو كذلك .

لقد وجده رغيد صامداً ، فجرب قهره وشراء بعضه . . ليلى . . . وطعنه في الصميم . . .

(اجل . كان علي ان اخبرها . . .) . .

لماذا لا يذهب اليها ويصارحها ببعض الامور ويتحدثان ؟

منذ محاولة اغتياله ونفورها منه ، لم يجرؤ على مفاتحتها بأي شأن يثير الشجون . . . واليوم يشعر بأن يد امها العجوز الموشومة تمتد امام وجهه وتمنعه من مضايقتها واثارة المزيد من احزانها . . حسناً . سيذهب اليها في مكتبها الجديد في شارع الرون . . سيبارك لها بالعمل الجديد ، واذا كان الجو مناسباً ربما يدعوها الى الغداء ويتحدثان بصراحة . . . آه ، لا يستطيع ان يدعوها . جيوبه شبه خاوية . . . ولا يملك ما يبذره . . لقد ساعد زميلاً لنسيم عجز عن دفع اقساطه . . . اولئك الطلاب العرب المساكين يكافحون لكسب العلم ، وسواهم يكافح لتبذير امواله . . . كان يظن ان ليلى تفهم ذلك كله وتتحسسه . . . كيف انقلبت عليه هكذا ؟ . . . تلك الصبية التي كانت صرخة احتجاج حية ، تخرج في كل مظاهرة احتجاج تراها في الشارع قبل ان تسأل لماذا . . . تلك التي كان الرفض مهنتها . . كيف تبدلت ؟ لقد بذل جهداً خاصاً لاخراجها من غربتها الذاتية الوجودية (الفضفاضة) وتوعيتها على الجذور الحقيقية لتلك الغربة في الوطن . . لقد (غرّبت) نفسها وكان موضعها هناك . . لقد استبدلت معركة ملموسة مع بني قومها لتبديل واقعهم الاليم ، بمعركة وجودية شبحية مع ضباب المدن الاوروبية وطقسها . . . كافح ميلها الى الغربة الفولكلورية الشاعرية واعاده الى اسبابه الحقيقية على الأرض . . . ارض الوطن . . . علمها ان تركز رفضها المشتت ، وعداواتها المبعثرة . . وأفهمها اولويات النضال : ان الكفاح من اجل اطفال بلادها أهم من الكفاح لأجل اولاد الفقمة . والحرب ضد بيغن اهم من الحرب ضد البدانة ، والخروج في تظاهرة لاجل العرب الذين يذبحون في الارض المحتلة هو الاصل لامرأة عربية مثلها ، لا الخروج في تظاهرة ضد اساءة معاملة الكلاب في احد الفنادق الخاصة بها في ضاحية جنيف كما كانت تفعل يوم التقاها للمرة الاولى . . . كان يظن انه

كسبها . . انها كسبت نفسها . . ضن على طاقاتها الخلاقة ولم يرض ان تتحول الى ساقية مهدورة في كؤوس الثملين . . وقف الى جانبها علناً وعرض نفسه للسخرية مراراً آملاً بأن تكسب القضية ثائرة مبعثرة مثلها ، ضالة مثلها ، حبيبة مثلها ، معذبة مثلها . .

فماذا فعلت ؟

ارتدت معطفاً من الفراء الذي كانت ترفضه في الماضي ، وذهبت للاحتفال بمحاولة اغتياله ، وعهرت القرش الرمز ، وتعرفت الى الرجل الذي يمثل نقابة ذابحي شعبه ومحاولي قتله ، وها هي اليوم تنافس نديم وامثاله لتكون أحذ مساعديه . . .

توقف أمير امام المبنى الفخم الذي يضم مكتبها ، وتأمل رقعة شطرنج من الذهب والماس ، حجارته من الفضة والذهب في واجهة دكان المجوهرات . من اين لها بالمال لاستئجار مكتب فاخر كهذا ، فوق الدكان الشهير ؟ . . . ظل يتأمل الشطرنج وهو يفكر بها . . ولم يدهش حين شاهدها داخل واجهة تاجر الحلي . . . ها هي ليلى الحلوة بشعرها الاسود الطويل وقد تحولت الى بيدق ذهبي فوق رقعة الشطرنج . . .

شاهدته يحدق بها ، فرفعت يدها وحيته صارخة : « بونجور » امير . الم تمت بعد ؟ . ما الفرق . . انت بحكم الميت . اما انا فقد اخترت الاقوى . . .

« ـ ان اختيارك له سيجعله الاقوى . . . لا تضعفي . . . كيف بعته القرش الذي لا يقدر بثمن ؟ » . .

لم يقل لها ذلك . خاف الا تسمعه عبر زجاج الواجهة . . . وخاف ان يظنه المارة مجنوناً يتحدث وبيادق الشطرنج . . . سيكون صعباً شرح ذلك للبوليس السويسري اليقظ ! . . .

كان متحمساً للصعود اليها . لا يدري لماذا خانته قدماه ومشتا به الى المقهى المقابل لمكتبها (**احبها اكثر مما كنت ادري ، اخشى غضبها ، ولا اريد ان اتصرف برعونة واخسرها نهائياً . من الافضل ان اجلس قليلاً في المقهى وارتب افكاري . ماذا اريد ان اقول لها بالضبط ؟ هل جئت لنتشاجر ؟ ما جدوى ذلك ؟ اهدأ ايها القلب الاحمق ودع المنطق يكتب مقالة او اطروحة في الخيانة والحب**) . . .

دوماً يسخر من نفسه . يريحه ذلك . منذ هجرته انكسرت بعض صلابته ، لكن لم يفقد تماسكه .

(**ـ اصفعها !** . .

قالها بسام ببساطة وتابع : كف عن التفكير المنطقي بأسباب هجرها لك . مع النساء يفشل استخدام المنطق لأنه لا منطق منطقياً لهن . اصفعها وستركع . . . .

ــ ليتك تواجه حياتك بالاسلوب الذي تريدني ان اواجه ليلى به . . انت يا بسام هارب من كل شيء . . لم تصفع يوماً وجه الحياة بقرار واحد ، وتريدني ان اصفع ليلى ؟

ــ ماذا تعني ؟

ــ أعني ان تحضيرك للدكتوراه منذ بدأت الحرب اللبنانية هو حجة للهرب . . وانت تعرف ذلك . محام ناجح مثلك ناضج مثلك مارس المهنة مدة عشرة اعوام، يترك كل شيء فجأة يوم اندلاع الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ مدعياً انه يريد متابعة دراسته للدكتوراه . . . اليس ذلك هرباً ؟ اهكذا تصفع الحرب اللبنانية ، ومآسي الوطن ، ام اننا لا نصفع الا النساء ؟

ــ انا حر . . . قررت انني راغب في الحصول على الدكتوراه من جامعة كامبردج . . . لقد حلمت دوماً بالدراسة هناك . .

ــ اربعة اعوام في كامبردج . . . ولم تنجز عملك فأبعدت . . وظللت تتنقل من جامعة الى اخرى ، وتنفق مدخراتك ، وتخشى من انجاز عملك كي لا تواجه لحظة الاختيار : العودة الى الوطن او الغربة . . انك تفضل ان تقطن الانتظار والغبار .

كان المطر يتدفق ، ومعه تدفق غضبي وحزني على غير هدى كالسيل . . . قلما افقد اعصابي مع انسان احبه . . . لا ادري ماذا دهاني حين نصحني بأن اصفعها . . . كان غضبي يتصاعد في حنجرتي متحولاً الى كلمات قاسية : اسمع يا بسام . . . تريد ان اصفعها لأنك جبان . . . تهرب من الزواج كي لا تخونك زوجتك . تهرب من الحب خوفاً من المسؤولية . تهرب من الجنس خوفاً من الأمراض . تهرب من الحياة خوفاً من الموت . تهرب من بيروت خوفاً من القتل والخطف والقنص ولا تلحظ انك تحولت الى ميت حي . تتوهمهم يترصدونك ويريدون قتلك لمجرد انك كنت احد اصدقائي تجالسني وتحضر بعض حلقاتي ولقاءاتي . . . انك مذعور ، لقد توقفت عن ممارسة أي نشاط منذ ثمانية أعوام ونسيك العالم . . . فلماذا لا تصفع حياتك وتواجهها بدلاً من ان تطلب مني صفع ليلى . . .

بدأ بسام يجمع ثيابه القليلة في حقيبة صغيرة . عرفت انه سيمضي . شعرت بخجل بالغ . تحول غضبي كله الى اسف نادم مخلص . قال بحزن : لقد اثقلت عليك اكثر مما

ينبغي بإقامتي معك . . . غضبك المبالغ به سببه انني اضايقك في بيتـك . المعذرة . اني ذاهب .

توسلت اليه : ارجوك الا تذهب ، وان تقبل اعتذاري .

ـ لقد قسوت علي لان علاقتك وليلى تأزمت منذ اقـامتي معك . اعـرف انني احمق ومفلس ولا اصلح لشيء ، ولكنني لم اقصد الوقوف في درب صلتكما . . . لم يعد لديكما اي مكان للقاء . انت تخشى امها وقلما تزورها . وهي لا تحبني ولا ترتاح لوجودي . ولستما من المـراهقين الصغـار لتكون الحـانات مسـرحـاً لغـرامكـما . . . لقـد افسـدت كـل شيء وسامضي . .

ـ لم تفسد شيئاً . الاشياء صارت تفسد من تلقاء نفسها في هذا الزمن الرديء . ليلى لم تتبدل وحدها ، بل هي رمز لعالم يتبدل . رمز التخلي عن القضايا . انني احترمك لانك رفضت العمل ورغيد حين حاول شراءك كما حاول شرائي . . اما هي فتبدلت كسواها من احبابنا الكثر . . . اعتقد انني لا اتألم بسببها وحدها . انها تذكرني بهم جميعاً مرة واحدة . تذكرني بذلك الكاتب النزيه الذي ظل دهراً يقف ضد خط سياسي معين لاحد اصحاب الجلالة ، ثم ذهب اليه منذ عام لامتداح (جلالته) وكرر هذه العبـارة في مقالتـه خمساً وعشرين مرة . . وتذكرني بذلك الشاب الذي كان درعاً لنا ، فصار مخبراً لهم . . . وذلك الاذاعي الذي كان ضد احد الرؤساء ، فتحول الى ملحق صحافي في بلاط « فخامته » . . . وتلك المجلة التي كرست نصف ايامها ضد ما يمثله احدهم والنصف الآخر لنشر مذكراته بكل فخر . . هذا مؤلم . . . ما جدوى ان اصفع ليلى، والغدر يصفعنا كل لحظة ، «كل شيء يتغير ، ويتساقط الواحد منا تلو الآخر »)

ولكنه ، وهو جالس هكذا في المقهى والذل يقطر من احزانه ، شعر بصدق انه يتمنى ان يصفع ليلى . ان يصعد اليها ليصفعها ويمضي . . . هل بدأ هو ايضاً يتبدل ؟ . . .

●●●

في غرفة المكتبة استرخى خليل وشعر للمرة الاولى بشيء من الامان ، فقصر الغنمالي عالم من التناقض الهذياني .

صحيح ان الشيخ صخر احسن وفادته منذ استلم عمله قبل ايام ، وابنه الشيخ صقر يبدو مسروراً به كدمية جديدة لما تكتشف او تكسر ، لكنه منذ وصوله الى هذا القصر البديع على ضفاف بحيرة ليمان وشعور غامض بالاضطراب يغمره . . . فالرجال في الحديقة يقطعون الاشجار ، من الساحة الأمامية ، والشاحنات تحمل الرمل وتفرغه فوق العشب وبقايا الجذوع ، لأن الشيخ صخر شعر بالغربة ويريد ان يصنع صحراء لناقته وربما يضرب فيها خيمة الى جانب قصره . . . تبدو الملامح الاولى لصحرائه العبثية مثيرة للاشفاق وسط بحار الخضرة والماء والمطر الصيفي الاوروبي والشمس السويسرية الشحيحة ، وتبدو الناقة التي احضرها بطائرته الخاصة ـ لأنه اعتاد شرب لبنها ـ مسكينة وذاوية وتائهة . . . قالوا انها ليست المرة الأولى . . الناقة السابقة كانت تمرض باستمرار فيأتون باخرى تموت وتستبدل . . . وهكذا . . ثم قرر الشيخ صخر في لحظة مزاجية صنع صحراء لناقته ولنفسه . . .

شقيقه التوأم الشيخ هلال لم يبد راضياً عما يدور ، وكان يصيح مؤنباً : الا تخافون الله ؟ ما هذا الهدر . . . لن اسمح بالمزيد من ذلك . هذا القصر يجب ان يباع ، لملموا فضائحكم وحريمكم وعودوا الى الوطن . . . سترك يا رب . . . اليست لديكم اهتمامات اخرى ؟ الا تبالون بما يحدث في أي مكان . . هل سمعتم بما يدور في لبنان ؟ الا تخافون امتداد النار ؟

كانت هذه العبارة اول ما سمعه خليل وهو جالس في الردهة هذا الصباح بانتظار صقر . . . وفوجىء بدخول الاب صخر متهللاً ضاحكاً مثل طفل مرح يؤنبه والده . . .

حين مر به الشيخ هلال رمقه باحتقار كما يفعل كل يوم ويتجاهله ، بينما استقبله صقر ببشاشة : اهلا بك . . يا عمي هلال هذا خليل الدرع من لبنان . . سكرتيري الجديد . .

لم يصافحه العم واكتفى بهزة من رأسه (**لماذا ألومه ؟ يظنني مثلهم . . السكرتير اللبناني الذي يدبر المخدرات والنساء وموائد الميسر في صالات التخدير . . . ولكن ألست في الدرب لأكون كذلك ؟ ولماذا اتصرف كالعذراء المرائية التي تبتلع كأس المخدر متظاهرة بالجهل بمحتوياتها ، ثم تندب عفافها صباح اليوم التالي ؟ انا سكرتير امير النيلي ام سكرتير صقر الغنمالي الدونجوان عاشق الحياة « الكييف » كما افهمني نديم بكلمات مهذبة ؟. وهل اظنه بحاجة الي لمشروع ترجمة الموسوعة الاميركية الى العربية وقاموسي وبستر واكسفورد ام انني قادم ملء ارادتي لاستلام عمل ارفض ان تلصق بي تهمته ؟**) . . .

فقط حين ضمته جدران غرفة المكتبة شعر بشيء من السلام يغمر نفسه وسط الكتب

البديعة التجليد العميمة الفائدة ، وقد حفرت اسماء هذه الكنوز بحروف مذهبة على عارضتها . . . قرأ : كتاب الكامل للمبرد . ديوان الحماسة . الاغاني للاصفهاني . المنقذ من الضلال . تهافت الفلاسفة للغزالي . مقدمة ابن خلدون . مروج الذهب للمسعودي . الأحكام السلطانية . قوانين الوزارة وسياسة الملك للماوردي . الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي . يتيمة الدهر للثعالبي . لسان العرب لابن منظور . طبقات الامم لصاعد الاندلسي . عجائب المخلوقات للقزويني . العقد الفريد لابن عبد ربه . تاريخ دمشق لابن عساكر . العمدة لابن رشيق . . . وغيرها . . كتب جميلة وثمينة قرأها فيما مضى ، او بعضها وأحبها . . وأحس بالانس في حضرتها . . . لعل الشيخ هلال أهداها لاسرة شقيقه (الضال) تثقيفاً لهم . من المؤسف ان هلال يحتقره سلفاً ويمقته وإلا لكان الحوار بينهما ممكناً . انتابته لحظة حماس . . . يا لها من كتب جميلة .

التراث ضرورة اساسية لكنه سيهديهم ايضاً كتب امير النيلي وكتباً اخرى معاصرة لا يستطيع ان يتذكر الآن اسماءها . . .

لاحظ صقر ان خليل يطيل النظر الى الكتب . غمرته رغبة في ادهاشه ، فاقترب من الرف الكبير وضغط القلم في يد تمثال اديب يزينه فتحرك جدار الكتب باكمله وانفتح آلياً ببطء فتكشفت الخزانة عن بار يحتوي عشرات من زجاجات ماء النار ، واما الكتب المرصوفة المجلدة فقشرة ديكورية ملصقة الى خشب باب البار ولا كتب . . . فقط اغلفة كتب وعناوينها ! . . . وما كاد الباب ينشق حتى اضاءت الخزانة تلقائياً ، واذا بجدارها الداخلي مرايا عديدة متداخلة في مثلثات ذات تشكيل خاص بحيث تبدو الزجاجة في المرآة وجوهاً متعددة لمئات من اوعية ماء النار الكريستالية . . . نعم . نجح في ادهاشه . لم يكن يدري ان بذخاً كهذا ممكن حقاً . . . وان لم ير شيئاً بعد . . قال ببساطة : لم ار شيئاً كهذا من قبل . . مدهش . .

ضحك صقر جذلاً وكشف له عن سر : شاهده والدي في احد مكاتب رغيد الزهران . . . صممته له للي سبوك سراً . . . لديها مواهب كثيرة هذه المرأة ـ الرجل . ورغيد الزهران يطربها . .

ــ ومن هو رغيد الزهران ؟

ضحك صقر حتى انقلب حقاً على قفاه فوق المقعد المخملي الوثير وقال : لم تسمع برغيد الزهران . . . يجب ان يسمع والدي بذلك . . سيطرب لك حقاً . . سيحبك لمجرد انك لم

تسمع برغيد الزهران . . ثم ان رغيد الزهران الذي لم تسمع به هو الذي دبر لـك هذه الوظيفة . . . وتوسط لاجلك عبر نديم . . .

ـ حسناً . . . ؟ ومن هي للي سبوك . .

وقهقه صقر من جديد : ولم تسمع بها ايضاً ؟ اين تعيش ؟

(انهض عن مقعدي ، واصفع الشاب العشريني صقر على خديه واقول له : انا اعيش في قلب الجرح مع شعبي ولكن قل لي انت اين تعيش)

لم يتحرك خليل . . ولم يجب . صار يقول الصدق الذي نصحه الوالد به ، ولكن بكلمات بلا صوت . فتابع صقر معاتباً : لـلي سبوك عجوز في الاربعين ، وهي المرأة الوحيدة التي تحصل على نقود منها دون ان يلمسها احدهما . . حسناً . . انها رجل لا امرأة ، وان كانت تبدو كذلك احياناً . . . لديها « مكتب خدمات » اسسته خلال الاشهر الاخيرة ونجحت . وهي نشيطة حقاً ولديها اتصالاتها هنا ومعارفها . . . وتلبي كل شيء سريعاً وبدقة . . . درست المحاماة وعملت في الامم المتحدة ثم انصرفت لعمل حر . يقال انها من اصل عربي . . . لكنني لا اظن ذلك . . انها امهر من ان تكون عربيـة . . انها بالتأكيد اجنبية ، وميزتها انها تفهم العربية ، مما لا يضطرني الى محاورتها بالفرنسيـة او الانكليزية . كان ذلك سيربكني لان لغتي الاجنبية محدودة . . الا تعرف انني خريج جميع كليات سويسرا . . طرداً ؟ . . . . .

وغرق من جديد في ضحكته الخاصة التي تنتهي غالباً بشهيق يشبه الاختناق تتوقف بعده فجأة . . . شاركه خليل الضحك . . . آه لو كان والده يملك النفقات لمتابعة دراسته اذن لاستطاع اكتساب العلم في افضل الجامعات . . . لقد كان عليه دوماً ان يعمل ويدرس في آن معـاً . . وحين انهى دراسته الجامعيـة في بيـروت شعـر بـأنـه خـارج من سبـاق (الماراثون) ، لكنه ظل يحلم بيوم يقدر فيه على متابعة علومه . . . وهذا الشاب يباهي بطرده من المدرسة . . ظل صامتاً . . ضحك صقر لسبب سري هذه المرة ، وقال : انك قليل الكلام . . هذا امر يسرني . . . لا احب سماع غير صوتي . . . انني مغرم بنفسي ، بكلماتي ، بضحكتي ، الا تراني جميلاً . . .

(لكمته وقلت له انه تافه ومغرور ويجب ارساله فوراً الى معسكر تدريبي وارغامه على حفظ خارطة وطنه العربي ومعرفة النسبة المرتفعة للذين يعانون الجوع والفقـر والمرض والقمع والامية فيه) .

خليل صامت ، وصقر يتابع مزهواً : صحتي ممتازة . . . بصري حاد كالصقر ، ولست مصاباً بعمى الالوان كوالدي . . .

ضحك خليل كما يفرض عليه واجبه . . . تابع صقر : لا امزح . . . لاحظنا انه لا يميز الالوان جيداً . . . تدخل راقصة في ثوب احمر فلا يميز لونه . رافقناه الى الدكتور بايال الشهير فقال انه مصاب بعمى الالوان . . انه عاجز عن رؤية اللون الاحمر . . .

(**هذا مؤكد ، ولا يحتاج لشهادة طبيب**) . . . ظل خليل صامتاً وتابع صقر : لذا الغينا رحلة اسبانيا . . ما جدوى مراقبة لعبة مصارعة الثيران وابي لا يرى خرقة المصارع وريش اسهمه . . . ثم علمنا ان الثور ايضاً لا يرى الاحمر وان ما يهيجه هو حركات المصارع لا لون القماشة التي يحمل . . . هل كنت تعرف ذلك من قبل ؟

ـ لا . . بالتأكيد لا . . . .

ـ هذا رائع . . لا احب الذين يعرفون اكثر مما اعرف . . . هل تعرف التزلج على الثلج ؟

ـ لا . . .

ـ عظيم . . . سترافقني الى قصرنا الشتوي في « غشتاد » هذا الشتاء وسأعلمك ذلك . . ثم نتنقل بين شاليهاتنا في « سان موريتز » و « كورتينا » . . لمتابعة دروسك في التزلج !

ـ اشكرك .

ـ هل تعرف التزلج على الماء ؟

ـ لا .

ـ مدهش . . سترافقني الى قصرنا الصيفي في «مونترو» واعلمك ذلك . .

ـ اشكرك . .

ـ هل تعرف كيف تركب الحصان ؟

ـ لا . . .

ـ هذا رائع . سنذهب الى قصرنا في ضاحية « ونتوورث» قرب لندن واريك اسطبلاتي وخيولي واعلمك فن ركوبها . .

ـ اشكرك . .

ـ هل تعرف كيف تقود طائرة هليكوبتر؟

ـ لا . .

ـ ساعلمك ذلك الآن . . .

ـ لا ارجوك . . اخاف . . .

ـ هذا يجعل الامر اكثر متعة لي . . هل تعرف كيف ترضي حريماً باكمله في ليلة واحدة ؟

ـ لا . . .

ـ بمعونة الله ، ومعونة عقاقير الشيخ وطفان سيسهل عليك ذلك . . والدي في الخمسين ويدعي انه في الاربعين لكنه ينجح في ذلك كابن العشرين . .

ـ برافو . . .

ـ هذا ما كنا نظنه حتى نزفت قرحته لكثرة ما تناول من عقاقير . . .

ـ سلامته . .

ـ هل تعرف لعبة البوكر ؟

ـ لا

ـ ماذا تعرف اذن ؟

ـ اعرف التدخين . هل تسمح . . .

ـ تفضل . هذه سيجارة حشيش . . من صنع بلدك .

تناولها خليل منه بذهول . لم يجرب ذلك من قبل .

سر صقر بذلك . . كان السكرتير السابق قد طرد قبل ان يستلم عمله لانه رفض ذلك . . وكان نديم قد زود خليل بهذه المعلومات ايضاً وسواها ، وهو منذ استلم عمله يتوقع الاسوأ بكثير . . . وما بيده حيلة .

قال صقر : سآخذك الى بيت الحريم . . . كنا نحتفظ بمعظمهن هنا ، والدي وانا ، شراكة فيما بيننا وبعض اخوتي وضيوفنا لاننا نؤمن بالتأميم والاشتراكية ، وحين وصل عمي هلال اضطررنا لنقلهن سريعاً الى عدة شقق مفروشة هنا وفندق هناك . . كم تعبنا . . شاقة هي حياتنا ! شاقة ومتعبة . . . لولا السونا والمساج لانهرت !

ـ سلامتك .

دخل الشيخ صخر غرفة المكتب فانسحب خليل بشكل تلقائي نحو الشرفة ، ولحق به صقر ضاحكاً فرحاً ، بينما تبع هلال شقيقه التوأم الى غرفة المكتبة ، وبدا انهما يتابعان شجاراً . . وكان الشيب يشتعل فوق صدغي الشيخ هلال الذي قال : حتام هذا الضلال ؟

البلد كلها تعرف انك تصبغ شعرك وشاربيك . . وتدور بحريمك المتنقل وبعض عشيقاتك . . . هذه الصحفية الاوروبية شارلوت بارنز نشرت فضائحك في الصحف . . . وحاكمنا غاضب حقاً . . انت تعرف نزاهة كفه وحرصه على الاخلاق . . ثمة من يترجم له ما تكتبه شارلوت بارنز وسواها عن تبذيركم .

ـ لانني لم ادفع لها . .

ـ اعرف ذلك . . . انها حقيرة ، لكن ذلك لا يبرر حقارة افعالك . .

ـ انني ادفع الزكاة . . والضرائب . . وبعد ذلك ، انا حر بمالي انفقه كما اشاء . .

ـ لست حراً في ايذاء الجماعة . اسلوبك في الانفاق مذبحة جماعية !

ـ انا حر ما دمت لا أخالف القوانين .

ـ انت تخالف روح الشرائع . سيبدل الناس القوانين لتطال أشخاصاً أمثالك .

ـ أنا حر . .

ـ لست حراً . الموبقات التي تقترفها تؤذيك وسواك في آن .

ـ ان الله غفور رحيم .

ـ الناس لا ترحم ولا تغفر . لقد تعبوا من امثالك . واذا لم نقومك بانفسنا ، سيفعلون هم ذلك . لقد لوثت اسم الغنمالي بالعار ! . . .

ـ ارجوك يا اخي ان تصون لسانك . . نحن توأم ، لكنني راض بمعاملتك لي على انك الاخ الكبير ما دمت سبقتني للخروج الى الدنيا بثوان . . .

وكعادته ، نسي الشيخ صخر سبب غضبه وتابع مازحاً : في الحقيقة انا اقول لصاحباتي انك اكبر سناً مني بعشر سنوات . . . انك تبدو كذلك على اية حال .

وانفجر صخر ضاحكاً ضحكة شبيهة بتلك الهستيرية التي يمارسها صقر بجذل . . .

خليل وصقر استمرا في تدخين اللفافات بهدوء على الشرفة ، وكانت اصوات الشجار تأتيهما كما لو من بئر بعيدة الغور . .

انفجر هلال : لا تستطيع الاستمرار هكذا . . لن يكون بوسعك تحويل سويسرا الى صحراء لمجرد انك مشتاق وعندك لوعة . . عد الى وطنك يا اخي وكفانا فضائح . . . دع بقية اولادك يلتحقون بالمدارس والجامعات . .

ـ لماذا الفضائح ؟ انكح بالحلال . . وما ملكت ايماني . . النساء في الدنيا زوجات فاضلات او عاهرات . . واعامل كلاًّ كما تستحق . .

ـ لا تكفر . . . لا تخبيء بشاعة افعالك خلف المقدسات . . . لماذا تراوغ ؟ لم يعد احد يجهل حقيقة ارتباطاتك. صفقاتك، وثرائك . . . الحاكم مهتم بما تفعل . . . ويعتبرك من الاسباب المباشرة للتذمر الشعبي ، الصحف الغربية تلهج بفضائحك ، واولادي الذين يدرسون في جامعة كامبريدج يدّعون انك لست قريباً ، والتشابه في الاسماء صدفة . حتى اولاد اخيك صاروا يخجلون من سلوكك . . وابنك الاكبر يرفض ان يزورك ويدعو ان يهديك الله بعد كل صلاة . . عيون الناس كلها تفتحت على صفقاتكما غير اللائقة وشريكك رغيد .

ـ وتلك المدرسة الرائعة التي عمرها رغيد الزهران . . . الا تعتبرها سبباً مخففاً ؟ . . . اعني ، افهم ان تكره تورطنا ، اعني تورطه ، في صفقات السلاح وسواها . . ولكن ماذا عن خدماتنا الانسانية الكثيرة وعلى رأسها المدرسة ؟

ـ في الحقيقة، حتى هذه الصفقة تحوم حولها الهمسات . . . يقول العمال ان تلاعباً خطيراً كان يجري بمواد البناء ومواصفات الاعمدة من حديد وخراسانات . . .

ـ اقسم لك انني لم آت هذا المنكر . . . بعض اولادي الصغار تلامذة فيها . . . ابني عبد الله يدرس فيها . .

ـ اعرف انك بريء واصدقك لكنني اخشى ان يكون الامر قد تم دون علم منك . . . انك وغد صغير ولم اقطع الامل في اصلاحك قبل قطع رأسك لاصلاحه . . .

ـ هل تعاكس صفقة المطار بسبب هذه الشائعات المغرضة ؟

ـ هذا احد الاسباب . . . لكنه سبب مهم جداً . . تصور مطاراً ينهار فوق رؤوس الناس . . . وارضاً تخسف تحت الطائرات .

ـ انك تبالغ . . . لم يحدث هذا من قبل لاي من تعهداتنا ورغيد . . . انه ماهر في الحسابات . .

ـ لعله مثلاً يحسب لانهيار المطار بعد عدة اعوام . . . بحيث ينحي باللائمة على صاعقة أو عاصفة أو هزة أرضية أو إهمال المستثمر أو شيء من هذا القبيل . . .

ـ انك تبالغ . . .

ـ اني حريص على وطني وعلى ابناء بلدنا . . كنت مثلي ، ثم تبدلت منذ عام ١٩٧٣ . . . جاءت الأموال وذهب صيف لبنان . هناك كنتم تستترون إذا بليتم بالمعاصي . . . في اوروبا سقط برقع الحياء . . . انا ضد هدر المال العربي . . . المال للناس

كلهم يا اخي . . . انك تسرق اموال الفقراء . . .
- انني لا اسرق ، لكنني انفق مما يرزقني اللّٰه به . .
- التبذير سرقة . . . فلا تقحم الله في سوء تفسيرك للرزق الحلال . .
قال صخر مبدلاً الحديث : طمئني ؛ كيف صحتك . .
- في تحسن والحمد لله . . . افكر بالعودة للاستشفاء في مستشفياتنا . . يبدو ان اطباءنا العرب اكثر مهارة مما كنا نظن . . لقد دفعت ثروة في عيادة ذلك الطبيب البريطاني ثم مستشفاه ليقول لي ما قاله لي الطبيب ابن البلد منذ المعاينة الاولى . . .
- بارك الله باولاد البلد . .
- آه . . . لقد تذكرت شيئاً . . اريد تحويل مليون استرليني الى المستشفى الذي عولجت به في لندن . . . ولا بأس في تحويل مليون آخر الى بلدية لندن لتحسين الحديقة العامة التي يطل المستشفى عليها . . . هل تظن المبلغ كافياً ؟
- بالتأكيد لا . . . هل تريد ان يقولوا ان العرب بخلاء ؟ ماذا عن الكرم الحاتمي الذي اشتهرنا به . .
- حسناً . . لنضاعفه ونسارع بتحويله بالاسترليني . .
- سيفعل ذلك خليل . . السكرتير الجديد لابني . . .
سمعه خليل وقرر بجنون
(سأحول المبلغ لمنكوبي حرب العرب في لبنان التي هرب منها معظم العرب حتى الآن) . . . كانت اللفافة الاخيرة قد انتهت ، وصحوه ايضاً . . . اذناه صارتا مرهفتين تسمعان كل حرف . . . ورأسه يعوم مقطوعاً في الغرفة يتنصت . قال صقر : لندن . . . آه تذكرت لندن . . . عندي موعد هناك . . سنسافر الآن يا خليل . . .
- لا استطيع . . . ليست لدي تأشيرة دخول . . .
- لفافة اخرى وتنسى التأشيرات . . .
- اعطها لموظف الشرطة في المطار وقت دخولنا لينسني . . وليس لي انا . .
ضحك صقر وقال : سنؤمن لك التأشيرة . . . اتصل مع للي سبوك في مكتبها وقل لها انني اريد تأشيرات . . . .
- ليست لدي بطاقة اقامة في سويسرا . . جئت بتأشيرة سياحية ولن امنح تأشيرة بسهولة فأنا لبناني . . . لا احد يريدنا فوق ارضه . . . كل سفارة ترى جواز سفر لبنانياً

ترمي به في وجوهنا . . . يظنوننا جميعاً ارهابيين او مهربي حشيش . . . ولكن . .

ـ لم تعد لبنانياً ولا عربياً . . . جنسيتك الآن « جيت سيت » فأنت سكرتيري . . .

ـ وهل لهذه الدولة جواز سفر؟ . . دولة الـ «جيت سيت»؟

ضحك صقر طويلاً كأي حشاش سعيد وقال : هذه الدولة تملك العالم كله . . . هيا اتصل بللي سبوك ودعها تنجز اقامتك واجازة عملك وتأشيرات دخول الى الاقطار الاوروبية كلها . سنتجول قليلاً . . . ولكن من الافضل ان تذهب اليها بنفسك فقد يكون توقيعك على بعض الأوراق ضرورياً . . . هذا عنوانها في شارع الرون . . . اذهب الآن . . . وسأكلمها هاتفياً واعلمها . . . انك قادم من قبلي . . . قل لي هل سافرت من قبل إلى هذه البلدان ؟

ـ لا . هذه رحلتي الأولى خارج لبنان . . . اعني زرت من قبل بعض البلدان العربية ، وذهبت في رحلات سياحية الى بوخارست وموسكو ولينينغراد . . . .

ـ هذه ليست رحلات رفاهية . هذه رحلات الفقراء . ساعلمك كيف يكون الرحيل الى النعيم والملذات. سجل عندك اسماء الدول التي سنبدأ بزيارتها . بالمناسبة ، لماذا لا نصطحب معنا السيدة الجميلة زوجتك ؟

ـ لانها . . . لانها حامل . . . في شهرها الثاني .

لا يدري لماذا كذب ، ربما للمرة الأولى في حياته .

اجاب صقر : ذلك لا يضايقني على الاطلاق .

ـ قد يضايق ذلك الطفل !

ـ خذ ، هذه الدفعة على الحساب .

ودس في يده بمبلغ كبير لم يمس مثله دفعة واحدة من قبل .

وغادر خليل المكان سريعاً ، ماراً بالصحراء الاصطناعية الصغيرة ، حيث مهمة الرجال منع العشب من النمو . .

ولمح الناقة من بعيد . . . . بدت له نقطة بنية ، تحتضر على ورقة خضراء . . .

***

لم يلمح امير ، خليل الدرع ، الذي هبط في شارع «الرون» من احدى سيارات « الرولزرويس» الخاصة بآل الغنمالي ، ولو لمحه لما دهش هو الذي لم يعد يصعقه شيء . . .

يتيم المطعم ، وجائع المقهى الرث الثياب يتحول في أيام إلى رجل مرفه المظهر يرفع السائق قبعته حين يفتح الباب له ؟ « كل شيء يتغير ، ويتساقط الواحد منا تلو الآخر » . . كان يرددها امير لنفسه بأسى ، ولم ير خليل حين وقف مذهولاً أمام واجهة بـائع المجـوهرات الخارقة البذخ والاسعار . . ثم يسارع صاعداً إلى مكتب « للي سبوك » كما تسميها البطاقة النحاسية ، كأنه هارب من رقعة الشطرنج الذهبي اياه .

كان امير ما يزال جالساً في المقهى ، يرشف قهوة باردة ، وثمة حزن موجع يثقل على صدره ، على الجانب الأيسر بالذات . وجع يشتد شيئاً فشيئاً ويمتد افعوانياً إلى كتفه الايسر فذراعه . .

ليلى تفعل ذلك ؟ . . هي من دون الناس جميعاً تتحول ببساطة الى للي سبوك ؟ ذلك مؤشر خطير . اصيلة مثلها ، مخلصة مثلها ، لا مبالية بالثراء والمظاهر مثلها ، تتخلى عن القرش المثقوب ؟ إذن فالخطة المحكمة الحلقات لتكفير الناس بمقدساتهم بدأت تثمر تمهيداً لمرحلة الاستسلام البائس لواقع الاشياء لا لحقيقتها الأصلية . وهذا بالضبط ما يفجعه . كأنه لا يبكي ليلى ، بل يبكي عشرات الرافضين المرتدين مثلها الذين لا يعرفهم . لن تكون سهلة محاولة تبرير انتقال اساليب القمع وكبت الحريات من بعض اليمين الى بعض اليسار ، وذلك القمع للحريات الديمقراطية الذي يمارسه معظم الذين دافع عنهم وخط النظريات لهم ، فكفر الناس بأساليبهم في الممارسة والتطبيق . . . وهربوا مرتدين . . هذا يهرب الى السحر ، وآخر الى المال ، وثالث الى الغربة ، ورابع الى التخدير . . . ثمة قناص في غير بيـروت ايضاً ، يتـرصد قلب كـل عربي منتـظراً لحظة ضعف تتسلل عبـرهـا رصـاصـة لامرئية . . .

لا . لن يـدع اليأس يتسلل اليـه او الى حروفـه . . . لن يدعهم يحققـون سحرهم الشرير ، حين ينقلب الأخ ضد اخيه بعد سلسلة من الاحقاد الهشة والتناقضات الهزلية ، ويقتـل قابيل هابيل ثم ينتحر ، والعدو يتظاهر بالاستنكار لوحشية ما يدور في بيانات لفظية رخوة لا تردع ولا تمنع . . .

ما دام الظلام دامساً هكذا ، فلا بد له من اعادة اختراع النار من جديد . . .

نعم . انه متهم بالتفاؤل ، وهذا غير صحيح . انه يجد ان التفاؤل مهنة جادة تتطلب كدحاً . . . وقد اختارها . . .

سيتحدث الى ليلى . . . بالود العتيق ذاتـه قدر الإمكـان . . صحيح انـه يتمنى ان

يصفعها ولكن ما جدوى ذلك ؟ ألا يتمنى عدوه رغيد سلوكاً كهذا منـه ؟ أليس خلاف الحلفاء امضى سلاح في يد عدوه ؟ . . . لا . . لن يدع مشاعره الخاصة الجريح وشهوات الانتقام الوضيعة تستولي عليه . . . وإذا قتل ذات يوم كائناً حيـاً ، فلن يكون ذلك ليلى او أي حليف آخر سابق . . . سيضرب قلب العدو الأصلي . . . ولن يدع الاضاءة «البسيكاديليك» للأحداث الدراماتيكية في «ستيريو العروبة» تضيع تركيزه عن مائدة العدو : الهدف الأصلي ونبع الشرور والأحزان . . .

ها قد عاد الى كتابـة فصل في مؤلفـه السياسي الشـاعري الـرومانسي ، او صفحـة لمجلة . . . الكتابة داخل الرأس عادة رديئة ، لكنها تساعده على الاسترخاء قليلاً ، تخفف اوجاع الجانب الأيسر من صدره وذراعه اليسرى التي بها يكتب .

حسناً يا هاملت العربي ، كفاك تأملاً ، اصعد الى ليلى العامرية وجابهها ولا تكن ضعيفاً كقيس ولا تطلب ناراً . . بل اطلب توضيحاً . . . لماذا تبدلت هكذا بعد محاولة اغتيالك ؟ صحيح ان الذين حاولوا قتلك لم يكونوا اعداءك الأصليين ، بل اعداء مستجدين تشاركهم في الاستراتيجية وتخالفهم في التكتيك مصراً على الحرية والديمقراطية كشرط اساسي في كل خطوة . . . ولكن ، ما شأن هجرهـا لك بـذلك ؟ كـاد حبيبها يقتـل ونجا . هـذا كل شيء . . . لا . . . هذا بعض من شيء . .

(ها أنا جالس انظّر لهجرها ، ومركبها غادر سواحلي منذ اشهر . لعل بسام كان على حق حين نصحني : اذهب واصفعها . انه بالتأكيد لم يقصد ذلك عملياً ، لكنه كان يلفتني الى أهمية مغادرة مرحلة التنظير الى الفعل . حسناً . انني ميال الى التنظير ، وتلك غلطة لا تغتفر حين لا أفعل شيئاً آخر بينما العدو ينفذ وأنا اتعفن . . . لقد ظلمت بسام وأسأت فهمه . كأنني المرادف الفصيح لصمته . هو سقط في السلبية الصامتة ، وانا في الببغائية . لقد رفض بسام العمل ورغيد يوم عرض عليه المنصب ذاته الذي عرض علي . رفض رغم فقره ، وذله ، وسخـرية الصحب من إقـامته في بيتي دونمـا عمل غـير حفظ الموسـوعة البريطانية غيباً ! ! . . . « اذهب واصفعها » . . كأن المسكين يلمّح لحقيقة ، وهي انني ميال للتنظير وغير فعال في زمننا) . . .

حين دخل امير مكتب ليلى ذهل لفخامة الديكور أولاً ، ولأن السكرتيرة حاولت منعه من الدخول الى غرفتها ثانياً، فلدى الست للي ضيف هام ولا تريد ان يضايقها احد . . . وحين خرجت سكرتيرة (الحراسة) لقضاء حاجة ، لم يستطع كبح جماح يده التي فتحت البـاب

ببطء ، ونظراته التي التهمت المكان ووجه ليلى . . . لاحظ انها لا ترتدي الثياب السود حداداً على امها ، ولكن ذلك لا يعني شيئاً بالضرورة . وجهها مطلي بالمساحيق الفاقعة الألوان . للمرة الأولى يراها هكذا ، وعهده بها لا تمس غير الكحل . شعرها مصبوغ بلون كستنائي محمر ، كما هي الموضة . كاد لا يميزها . . . كانت مشغولة عنه ، غارقة في عملها تدون شيئاً على ورقة امامها . تطلع الى الضيف الهام وميز فيه «جائع المطعم» نفسه . . . في اللحظة ذاتها ، بفعل حاسة سرية ، رفعت ليلى رأسها عن اوراقها وشاهدته . . . لم تتحرك من مكانها ، وقالت بفتور :

امير . . . اهلاً بك . .

ــ مرحباً ليلى . . كنت ماراً مصادفة فـ . .

تابعت ليلى بلهجة ساخرة : فكرت بأن تمر بي مصادفة أيضاً ونتحاور مصادفة عن امر هام . . لكنني كما ترى مشغولة . . . زيارتك مقبولة والحوار مؤجل . . .

صعق خليل . لم يدهشه الحضور المفاجىء لأمير . . . ولا الألفة المفرطة في تعاملها بقدر ما ادهشه ان الست للي تتحدث العربية وانها ليست اجنبية رغم انها استقبلته وكلمته بالفرنسية ، فقضى الدقائق الاخيرة مكافحاً للتركيز على تحسين لغته الفرنسية في مواجهة هذه المحامية السويسرية الذكية . . التي ادعى صقر انها من اصل عربي وتحسن اللغة . قدمته اليه ليلى : السيد خليل الدرع ، سكرتير صقر بن صخر الغنمالي . . .

صافحه امير مرحباً : اهلاً بك يا خليل . . . تذكرني ؟

وكأنما اطلقت المفاجأة لسانه ام تراها بقايا سجائر الحشيش : اذكرك ؟ وكيف لا يذكر المرء سبب خرابه ؟ بدأت متاعبي يوم قرأتك واعجبت بك ، وازدهرت يوم رفضت رفع كتبك عن واجهة دكاني لاستبدلها بجريدة (الرفـاق) ، تنفيذاً لتعـاليمك عن الممـارسات الديمقراطية . . . وتأزمت لأنني دعمتها بوصية أبي : قول الصدق دائماً بأي ثمن . فعلها هو فطلقته امي وزوجتان بعدهـا . . وفعلتها فمـورست ضدي الاشكـال القمعية الأخـرى كلها . . اعرفك ؟ انت دائي فكيف انساك . . . زوجتي وجدت رقمك الهاتفي في جيبي ولم اجرؤ على الاعتراف لها بأنني شاهدتك . . ما كانت ستصدق تلك المصادفة . .

ضحك أمير وليلى ودهش خليل . . لم يكن يداعب احداً . . كان يعني ما يقول . . قاطعه امير محاولاً ايقاف تدفقه . من الواضح انه لا يعرف شيئاً عن ليلى ورغيد وصخر وميولهم السياسية والفكرية . ولا يدري ان ليلى كانت حليفة وانتقلت الى معسكر الخصم ،

وانه قد يفقد عمله بسبب هذه المعلومات التي ستحملها بالتأكيد الى رغيد فصخر . . . وقال اول ما خطر بباله : آه زوجتك . . اعرف ذلك . . لقد اتصلت بالرقم ـ رقمي ـ وسألت عن اسم صاحبه ثم سألت إذا كنت موجوداً عندي فأخبرتها بأنني لم أرك ولا اعرفك فشتمتني . . حدث ذلك في صباح باكر ما . . . لعله اليوم . .

اردف خليل بود حقيقي : وها لعنتك الحبيبة تلاحقني حتى هنا . . . ستغتالك زوجتي كما حاول سواها . .

ــ هل عرفتم بالامر في بيروت؟

ــ بيروت وحدها هذه السنوات مفتوحة الاذنين والعينين والجرح ، في حين تغط معظم المدن العربية في شخير تاريخي يدعمه بعض الاعلام . .

تدخلت ليلى : ارجوكما . . . لا اريد سماع حديث السياسة . . لقد تخرجت من كلية العذاب هذه ، واعلنت انسحابي من المتاهة . . . قال خليل متحمساً : رغبتك لا تكفي . . المتاهة لن تنسحب من حياتك . . انها مفروضة علينا ، إذا لم نكافحها ابتلعتنا . . .

قالت ليلى بصوت ناء كالمنومة : لقد ابتلعتكما وانتهى الأمر . . اما انا فقد غادرت المتاهة قبل فوات الأوان . . . وانت يا استاذ خليل تبدو احد تلامذته المتحمسين . . . وقد حفظت كلماته ايضاً وتستعيرها . . . لماذا لا تزوره في بيته وتتابعان حفلة (الكلامولوجيا) هناك . . .

ــ وانت ايضاً تستعيرين عبارة زوجتي في السخرية منا ؟ . . صرت قانعاً من امر مخجل : النساء الجميلات لا يصلحن للنضال لأنهن يعتبرنه زينة . . . لم تنضج المرأة العربية بما يكفي لتمارس عملاً جاداً أو نضالاً جاداً . . .

ــ قبل قليل كنت جالساً أمامي بخشوع لأنني أوهمتك وسواك انني اجنبية . . . والآن حين عرفت انني عربية ، شجعك حضور استاذك على مهاجمتي وعلى التعميم . .

ــ معذرة . . كنت افكر بزوجتي . .

ــ هل هي رديئة الى هذا المدى ؟

ــ لا ادري . . . ربما كانت مذعورة . . .

فقد امير فجأة شهيته لـ (حوار مكاشفة) مع ليلى ، ربما لأنه وعى ان حضوره قد يتسبب في خسارة خليل لعمله ، وربما لأن ليلى لم تعد نفسها . . صارت تتنكر للغتها الأم ، ولأصلها ، وللوشم البدوي الذي لن ينساه في يد أمها . شعر بأنه يريد الهرب من شعرها

المصبوغ ومساحيقها ومظهرها الجديد وباطنها الغامض المدجج بالقسوة اللامبالية . . قال بسرعة : معذرة . افسدت عملكما . سأراكما في وقت آخر . .

انسحب بسرعة ، بينما ليلى تقول بلا مبالاة : تستطيع ان تبقى إذا شئت ! . .

لحق خليل به الى ردهة السكرتيرة ، وسأله هامساً : لا ادري ماذا يدور بينكما ، ولكن هل تريد ان انصرف الآن ؟

ــ لا . . انا الذي يجب ان ينصرف . .

ــ هل انت متعب ؟ مريض!

ــ لا . .

ــ تبدو كذلك .

ــ ابدو فقط . قل لي ، هل انت مرتاح في عملك ؟

ـ لا . . الا اذا كانت مهمة تدليل طفل في الثانية والعشرين من عمره تعتبر مهنة . . . صرت سكرتيراً لصقر بن صخر الغنمالي كما ذكرت لك ليلى . . تعرفها ؟ .

ــ للأسف نعم . . .

ــ ما رأيك بعملي . . .

صمت أمير . . . بدا صمته دهراً وشعر خليل بالخجل والمهانة ، لولا مداعبة امير وصوته الذي عاد مرحاً ، قائلاً : لنقل انك وجدت عملاً كمربية اطفال !! . . .

ومضى امير وهو يدمدم بلا صوت عبارة يبتس « **كل شيء يتغير ، ويتساقط الواحد منا تلو الآخر** » . . .

●●●

ثمة نار موجعة تسري في جسدها كاوية منبهة . . . (**لم اعد اطيق صبراً . . . الا يعرف الرجال ان ذلك يحدث لنا ايضاً ؟**) . . .

تحار . . . ماذا تفعل امرأة جميلة مثلها ، تشتعل شهوة وحياة حين يعجز زوجها عن تلبية حاجاتها النارية لمدة خمسة اعوام متوالية ؟

ماذا تفعل اية امرأة نهمة الى الحب ، وجسد زوجها مجاعة قحط ؟ . . .

هل ثمة رجل يعلن الصيام الجنسي لمجرد ان الظروف العقلية والمزاجية لزوجته عطلت لديها حاسة التجاوب ؟ أم ان المجتمع الذكوري اخترع لهم (سوبر ماركت) اللحم الاسمر والأبيض والمورد والزنجي ، لارضاء تلك المشاعر البركانية دونما عقاب يذكر (والرجل لا يعيبه) ؟ . . .

وهي ماذا تفعل ؟ وقد اججت حياة الكسل المترف في الفندق الفاخر شهواتها ، والفراش الكبير يحتل نصف مساحة الغرفة ، وزوجها يتقلص حين ينام الى جانبها مثل نملة صغيرة تختبىء تحت الوسادة . . . متزوجاً من همومه وهواجسه السياسية . . .

هل تملك الا ان تحب نديم ، ذلك الرائع الشهي المعتق الخبرات ، بابتسامته المحببة الآسرة ، وحيويته المتأججة التي تعيد اليها ذكريات النشوة شبه المنسية حية . . .

يوم قتلت وداد ، توهمت انها ماتت معها . . ولعلها فعلت . . . . ويوم ضُرب زوجها وصار ضيفاً دائماً لسجون الاصدقاء والأعداء ، توهمت ان جسدها دخل مرحلة الثلج والرماد . . . ولكن الحياة فيما يبدو تشبه دولاباً قذفه طفل عن حافة المرتفع ، انه يستمر في الدوران ، مرتطماً بالصخور تارة ، وبالازهار اخرى . . . لكنه لا يتوقف الا بالموت . . والشهوات كذلك . . .

مع نظرات نديم وهمساته الهاتفية المسروقة غادرت الرماد الى الجمر . . . وعاد جرح مباهجها مفتوحاً ومتأججاً . . منذ اللقاء الأول في الطائرة خطف اعجابها . . . حسناً ، كانت من قبل تراه من بعيد ، وتحسد اسرته لثرائه ولمكانته كما يحسد المرء فكرة مجردة . . . في الطائرة ارتدت الفكرة جسداً يثير الشهية الى التأوه الطويل المخنوق كمواء قطط شباطية ذات مساء في شارع مسدود . . . انه رجل قوي وهي تحب الرجال الاقوياء اصحاب السلطة . . . شيء ما في حضورهم الجسدي يخترقها بنشوة السطوة . . . كأنها بامتلاكها لهم تمتلك بعضاً من قوتهم وتشاركهم الامساك بعصا السلطة المثيرة . . .

يوم احبت خليل بدا لها قوياً ومنيعاً مثل قلعة . . . كان يتهرب منها ، ويلاقيها ببعض اللامبالاة ، فاشتعلت رغبتها في تطويعه . . طوقت قلعته بالاعلام الزرق لعينيها ، واحتلتها ، ووجدته حصاناً برياً في سهوب النشوة لا يشق له غبار . . ثم استحال خليل الى صحراء من الذبول والاحزان والخيبات تارة ، وكتلة نارية من الحماس تارة اخرى ، لكنها مهدورة في مجالات بعيدة (عامة) . . . ولما كانت هي (ملكية خاصة)، تم ختم ملذاتها بالشمع الأحمر، ونسي الجميع كل شيء عن متعتها وجسدها ، وهي على رأس الجميع . . .

ها قد عادت روحها تعلن العصيان . . . وذاكرتها تتعرى من اردية النسيان ، لتتذكر انها كانت دائماً امرأة مصنوعة للحب . . . والحب وحده . .

هل كان في مقدورها ان تقول لا ، حين هتف نديم يطمئنها الى مثابرة زوجها على عمله ، وقد لا يعود قبل وقت متأخر هذه الليلة ، فهل ترغب في تناول طعام الغداء معه ؟ . . . لم يقل ما إذا كانت زوجته ستحضر ام لا ، في البيت أم اين ، ولم تسأل . . . قالت : «نعم» . . كانت ستقول «نعم» لو سألها أي شيء آخر دونما استثناء . .

مر بها في الفندق . ما كادت تهبط الى قاعة الاستقبال (اللوبي) ، حتى فوجئا بوصول خليل . . اللعنة عليه . جاء لاحضار جواز سفره من اجل التأشيرات . . . والاقامة . . واجازة العمل . . . ارسلت به ليلى السباك لاحضاره والعودة ثانية . . . قال نديم برباطة جأش : ارسلني رغيد الزهران لابلغكما دعوته اليوم الى العشاء سينتظركما في الثامنة والنصف . . كنت سأكتب لك مذكرة بذلك واتركها مع موظف الاستقبال ، لكنني حظيت بلقاء السيدة كفى في (اللوبي) . . . الى اللقاء مساء . . .

انسحب ولم يرف له جفن . كانت ترتجف . . ترى هل صدق خليل الاكذوبة ؟ . . .

قال خليل : ما هذه الدعوة ؟ تبدو لي اشبه بمذكرة جلب منها الى دعوة للعشاء .

غمرتها الفرحة حين تذكرت الدعوة : ونسيت مخاوفها من زوجها ، وربما لم تعد تبالي بذلك حقاً : رغيد الزهران . . . سنراه ، وتتذمر ؟ . . . الم تسمع به ؟ لم نلق مدعواً في سهرة نديم لم يتحدث عنه . . انه الأعظم . . . امرك عجيب حقاً . . .

لا يدري لماذا تذكر امير . . . ربما لأن امره اكثر عجباً . . . ذلك رجل لا يهادن ولا ينحني للعاصفة . . ولا يدري لماذا لم يجرؤ على ان يذكر لها لقاءه به . . . تماماً كما اخفت عنه حقيقة امر لقائها بنديم . . . انه ليس بالاحمق . . . ونديم ليس بالرجل الذي يحضر لابلاغ رسالة كأنه موظف صغير . . . لديه عشرات الناس يقومون عنه بالمهمات التافهة . . . هل يمكن ان . . . لا . . . غير ممكن . . .

انفجر شيء داخل رأسه . . . واقتنع كما يحلو للرجال غالباً بأن ذلك غير ممكن . . . لعل نديم كان ماراً في دربه من هنا . . . لعله يحمل دعوات رغيد الزهران بنفسه . . .

اجل ! (ذلك) بالتأكيد غير ممكن . . . لا . . ان الزوج ليس آخر من يعلم ، انه ببساطة لا يريد ان يعلم أو يصدق . . .

وذلك بالطبع يحدث للرجال الآخرين فقط . . وليس له . .

●●●

ـــ اريد ان ابوح بسر لك يا سيدي الشيخ وطفان . .
ـــ هات ما عندك . . . سرك في أمان . .
ـــ يوم اشتريت هذا القصر القلعة ، قيل لي ان كنوزاً ذهبية دفنت فيه . . في حديقته أو اقبيته . . . حرام وكفر ترك الذهب واهماله وحرمان الناس منه . . . بذلت كل وسيلة لاكتشافه وتكريمه وفشلت . . هلا ساعدتني ؟
ـــ بكل تأكيد . .
ـــ وهلا شرفت مائدتي هذا المساء بحضورك ؟ . . . دعوت عدداً قليلاً من الأصدقاء تعرفهم جميعاً . . بالاضافة الى رجل وزوجته من لبنان . . . اسمه خليل الدرع . . . هلا كشفت لي برجه ليسهل تطويعه ؟
ـــ سأكون بحاجة لاسم امه وتاريخ ميلاده ، لأعرف «وفقه» . . . وهل يخضع للابراج النارية أم الترابية أم الهوائية أم المائية والله أعلم . . .
ـــ مكتوبة على هذه الورقة . . . لكن المحامية استخرجتها من جواز سفره . . ارجو ان تكون المعلومات صحيحة .
ـــ سنرى . .
ـــ بشأن العشاء ؟
ـــ قد انضم اليكم فيما بعد . . . والآن سأهتم بأمر الكنوز المدفونة . .

* * *

« . . . اجيبوا واحضروا يا زوبعة الرياح ويا صلعلة الأرض ويا طاوس ويا كراكيل ويا ميمون ويا شمرول الطيار ويا جلجيائيل ويا عامر هذا المكان ، ان كان في هذا المكان خبية او دفين من ذهب أو فضة فاظهروها بحق القادر المحيط رب الجيوش . . .
. . . . اظهروا المال الذي في هذا المكان بحق ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا اجمعوا

المال الذي في هذا المكان بحق ن والقلم وما يسطرون وبيوم الحشر والنشور الا ما شققتم هذه الأرض أو الحائط أو العامود او التنور واظهروا المال الذي في هذا المكان اجيبوا يا زوبعة الرياح ويا صلعلة الأرض ويا طارش ويا كراكيل ويا ميمون ويا شمردل ويا جلجيائيل ويا عامر هذا المكان بحق كهيعص حم عسق وبحق سورة التغابن وبيوم الحشر والنشور الا ما شققتم هذا الارض أو الحائط أو العامود أو التنور واظهرتم ما فيه من المال او الدفين أو الخبية من فضة أو ذهب او نحاس وافعلوا ما تؤمرون به بحق هذه الاسماء عليكم ومن يزغ منكم عن امرنا نذقه من عذاب السعير .

اجيبوا من قبل ان يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصرون او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر الله مفعولاً الوحا العجل الساعة . . . » .

وفاحت رائحة بخور : لبان ذكر . شمع خام . سندروس . سخاطر هندي . حب قرطم . . وكان الساحر يغذي شعلتها بشعيرات هدهد ، وشعر خنزير . .

ازكمت الرائحة نسيم ، وقد دخل الى الساحر حاملاً صينية الشاي بالياسمين . . . كان قد شاهد لتوه نشرة الاخبار في التلفزيون ، وكانت بيروت تحترق . . والساحر جالس خلف كرته السحرية الشفافة يحدق داخلها بهدوء منوم . . . شعر نسيم برغبة خارقة في تحطيم الكرة الزجاجية ، وجر الساحر من لحيته الى الشاشة الزجاجية للتلفزيون ليرى عبرها وطناً يحترق وبشراً يدمرون ويقهرون . . . واخوته . . . ما مصيرهم ؟ وهذا الساحر ، اليست له اسرة ؟ اخوة ؟ وطن ؟ أهو حقاً ينتمي الى عالم الجان ؟ اخوته الاشباح والأرواح ؟ وهو اداة مسخرة في يد رغيد ، ولخدمة الناس - كما يتوهم ؟ . . . اليس انساناً من لحم ودم ؟ اليس له مسقط رأس ومسقط قلب ، أما من دمعة في عينه ، شهقة في حنجرته ، شهوات في قلبه ، الا تهاجمه الكوابيس مرات ؟ هل يحلم ؟

نظر اليه الساحر شذراً كأنه يقرأ أفكاره . فكر نسيم غاضباً (**حسناً . انا اؤمن بالتخاطر ، وبقدرة بعض الناس على قراءة افكار الآخرين عبر حاسة تتجاوز اللغة . . . لعل هذا الرجل يملك تلك المقدرة او لا يملكها . . لكن تلك الحاسة يجب ان تخضع لمساعدة العلم ، لا ان تسيرها الخرافات المتوارثة**) . . .

قال الشيخ وطفان بصوت يشبه ايقاع ريح الخريف : قلبك يا ابني مشحون بالعاصفة . . . انصحك بالصلاة قبل ان تنام . . .

وسرت رعدة برد في أوصال نسيم . . . (**انه بالتأكيد قادر على قراءة الافكار . انه**

بالتأكيد يملك قوى تبدو خارقة . لكن العلم يفهم بعضها ، ويحاول الاحاطة ببعضها الآخر . . هذه القدرات عمرها عشرات آلاف السنين . . . وعلم الباراسايكولوجي ما زال يحبو في اعوامه الأولى نسبياً . . . وربما تكشف الاسرار كلها ، سأظل ارتعد من وقت إلى آخر ، حين تمس روحي كهاربه الغامضة التي اعيها احياناً تخترقني وتسبر قاع نفسي وتعري خواطري وربما اسراري . . .) .

كرر الشيخ وطفان : قلبك يا ابني مشحون بالعاصفة منذ ايام . . . احذر العنف يا نسيم . .

هرب سريعاً من الغرفة (**هل يمكن ان يكون قد قرأ شهيتي الى قتل رغيد ؟**) . . . ارتجف ، واحس بأنه وحيد ومحاصر وبحاجة الى الحنان . . ولا يدري لماذا تذكر امه .

●●●

انعقد لسان كفى حين شاهدت قلعة الذهب . وحتى خليل سقط في وهدة صمت مذهول غاضب ، وبدا بيت نديم لعينيها فقيراً يستحق جمع التبرعات ! الترتيبات الأمنية قبل الدخول خلقت جواً من الرهبة قطعه سائق التاكسي بتلاوة بعض الشتائم واللعنات . . ثم انبسطت لعينيها ، الحديقة الشاسعة التي يشتعل عشبها ذهباً في اضاءة خاصة خلابة . . . فالباب الكبير المذهب المثقل بالنحت والتماثيل . . فالخادمان الراكعان امام المدخل ، وفي يد كل منهما اسفنجة مبللة بالماء المعطر لمسح احذية الداخلين كي تصير جديرة بملامسة قدسية معبد الذهب ! ذهل خليل ولم يفهم لماذا يركع الرجلان هكذا في ملابس مضحكة ، الا حينما ارشد نسيم كفى الى رفع قدمها كي يتسنى للراكع مسح اخمص الحذاء . حين جاء دور خليل اجفل . الخادم الثاني رفع له قدمه بنفسه ، ولاحظه نسيم مرتبكاً يقول للخادم : « استغفر الله يا اخي . . . سأفعل ذلك بنفسي إذا كان ضرورياً » . . تضايقت كفى من زوجها (الجلف) ، وراقبته باحتقار وهو يخلع حذاءه بنفسه ويفسد الطقوس الراقية بمشاركته في العملية التي بدا على وجهه التقزز العميق منها . فرح نسيم به ، لاحظه ، واحسه قريباً منه ، والتقت نظراتهما في ومضة تفاهم كأنهما تعارفا منذ اعوام . . نظرة تشبه المصافحة العميقة الود .

نسيته كفى ثانية وهي تخطو الى حلمها ، كأنها تخطو داخل عالم احد اعلانات السجائر المقرونة بعالم خرافي من الترف والبذخ . . . انتشت ، وتلفـتت حولها : اهذا بيت ام متحف اللوفر ؟ أهذا قصر ام قلعة وهمية شيدها جني الف ليلة وليلة ؟ أهذه غرف أم منـاجم ؟ سقطت في دوامة البذخ الاسطوري ، وصارت تتحسس الطنافس والستائر الحريرية شبه حالمة . . واستيقظت حين قادها نسيم الى حلقة من الجلوس تضم صاحب القصر وبقية المدعوين : نديم ودنيا . انحنت باحترام لابتسامة رغيد الماكرة ، وخضرة عينيه الشبيهة بالدمن في المقابر وصوته يعلن بكل فخر : انا رغيد الزهران . اهلاً بكم في بيتي المتواضع . لا يدري خليل لماذا تذكر اسطورة الرخ ، واحس بانه سقط سهواً في كهفه المرعب ، وصحا من مرحلة الدهشة الرافضة، وقبل ان يدخل ثانية في مرحلة الغثيان عاجله رغيد بكأس من ماء النار . . ومن يرفض شيئاً من يد رغيد بك ، سماً كان أم علقماً ؟

دخل نسيم ودار على الحاضرين للمرة الثالثة بكؤوس النار، وكان رغيد حريصاً على تجنب الكحول احياناً ، لا بسبب مرضه بالسكري ، بل لرغبته في ان يثمل الجميع ويظل هو صاحياً . التقت نظرات نسيم بعيني دنيا (**لا تخافي . لن ابوح بسرك لزوجك . اجل ، لمحتك خارجة من غرفة نوم رغيد ، لكن ذلك لا يهمني ولعل زوجك لا يجهله . . . ما يحيرني هو انني لمحتك ايضاً خارجة من بيت امير النيلي ؟ ما لعبتك ؟ عالمها مختلف فهل انت حائرة ام جاسوسة ؟ ولماذا تمتدين بينهما كجسر مستحيل؟ . . لا توفيقية بينهما . . . فهل تختارين ام تنهارين ؟**) . . . ناول الكأس لكفى (**كم انت جميلة يا سيدتي . سنراك قريباً في غرفة نوم رغيد بك بالتأكيد . . . زوجات الموظفين لهن «خصم»، في أعمارهن . . . انهن المسنات الوحيدات اللواتي يشرفن السرير ، ولعل السبب لا يرجع الى شهوة الجسد بل السلطة . . . انه يمتلك الرجال ونساءهم**) . . .

قدم الكأس لنديم ، فخليل الذي بدا كغريق (**ايها اللبناني الشقي ، اية رياح قذفت بك الى هنا . . انا وانت ، ماذا نفعل هنا ووطننا يحترق ؟ . . . لا تبدو مستمتعاً لا مبالياً كنديم . . . هل هي لعنة اللقمة التي قذفت بك الى هنا مثلي ؟**) . . . بعد الكأس الثالثة ، وصلت المدعوة الأخرى : ليلى السباك . تتقن دوماً اختيار توقيت حضورها .

بدت كفى متوهجة الجمال حين اعلن رغيد اعجابه بحسنها ، وسعادته بلقائها وهي ابنة صديقه القديم المرحوم البيتموني . . . ولم يبد فرحه بلقاء خليل بعدما زودته ليلى (هاتفياً وفورياً) بمعلوماتها عن ولائه لأمير النيلي (**نديم يجهل ذلك فيما يبدو . النساء اكثر قدرة على**

التجسس ونبش الاسرار) ابدى اعجابه ايضاً بالخاتم الجديد في يد دنيا ، وهو الذي يلحظ التفاصيل حين يتعلق الأمر بالذهب والماس . . وقالت له دنيا معتذرة : لقد سرق الخاتم الذي قدمته لي هدية . . . سرق من وسط بيتي في حفل عشاء . . شهقت كفى في دهشة بدت حقيقية حتى تعجب خليل من قدرتها على التمثيل وقالت : ذلك الخاتم البديع الذي كنت ترتدينه ليلة السهرة سُرق ؟

ــ اجل .

ــ من اخذه ؟ الخادمات ؟

ــ لا ادري حقاً . لست واثقة . سأسأل الشيخ وطفان .

ــ من هو الشيخ وطفان ؟

ـ الم تسمعي به ؟ انه ساحر حقيقي . . له قوى خارقة حقاً . . كل من تعامل معه يؤمن بذلك . . تدخّل خليل : لبعض الناس قوى خارقة اثبت العلم حقيقة وجودها ، وبطلان علاقتها بالشعوذة وبالسحر . انها تندرج كلها تحت لواء علم جديد هو « الباراسايكولوجي » ، ولدى الناس جميعاً طاقات خارقة اذا ركزوا على تنميتها ، وكتب هذا العلم تملأ اليوم المكتبات ويجدون فيها التفسير لمظاهر كثيرة مدهشة طالما نسبها البشر الى السحر . . كنت في مكتبتي احرص على ترويجها وارفض بيع كتب السحر . قاطعه نديم دونما اعجاب بمحاضرته العلمية : الشيخ وطفان يقيم معظم الوقت في القصر هنا . الباشا يؤمن بطاقاته وسحره ، وسترون انه كفيل بكشف الفاعل . . . ذعرت كفى التي تؤمن بالمنجمين (البرّاجين) منذ طفولتها ، كما اسرتها والجيران والاجداد ، وقال رغيد لدنيا : سينضم الينا بعد العشاء لكنه مشغول الآن باستخراج بعض الكنوز. . والخاتم غير (حرزان) ، وسرقته مناسبة لاهديك شيئاً جديداً .

سرت دنيا بذلك ، أما كفى فكادت تطير فرحاً ، وتنكب على يد رغيد لتقبلها . ليلى ظلت صامتة وهادئة ، مثل امرأة منومة مسحورة . . بل مثل امرأة آلية برمجت نفسها ذاتياً . . على التدمير . لم تبد حيّة مثل دنيا . . . ولا سعيدة مبهورة مثل كفى . وتساءل خليل : ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ ما الذي تفعله بحياة امير ؟ تذكر الألم البالغ الذي اخفاه امير بصعوبة في مكتبها ، ولا مبالاتها ، وغمرته نقمة عدوانية تجاهها ، تجلت في تجاهله لها حين خاطبته وسألته عن موعد سفره وصقر . كررت السؤال بالهدوء ذاته ودون ان ترفع صوتها ، فتنبه رغيد لها وصمت الجميع فاضطر للاجابة : ذلك يتوقف عليك وعلى

سرعتك في انجاز التأشيرات . . . قالت ليلى ساخرة : هل انت متلهف للسفر ؟

ـ لا ادري . .

تدخل نديم قائلاً : وكيف يتلهف للسفر رجل لديه زوجة فاتنة مثل كفى . . قالت كفى وقد نهد صدرها بلا مبالاة شهية : انا راضية . . . إذا كانت ضرورات عمله تفرض ذلك. سأله رغيد بلهجة محايدة وهو يشهر سيجاره الضخم فيسارع نديم الى اطفاء سيجاره : كيف وجدت عملك يا خليل ؟

ـ لا بأس . . صقر شاب طيب القلب . . . (لم يتابع فيقول : انه مدلل وتافه ومدمن) . .

قال نديم : اظن ان سفركما متعذر قبل رحيل الشيخ هلال . . . هل تعرفه . . .

أجاب خليل : اجل . . . شاهدته هذا الصباح وكان يتشاجر وشقيقه . . لم اقصد التلصص ، لكننا كنا على الشرفة ولم يلحظانا . . .

سرّ رغيد بالمعلومات السريعة الوصول وشجع خليل : استمر يا صديقي . . . لا تشعر بالحرج لأنك سمعت ما سمعت . . . الشيخان صديقان عزيزان علي ، ويهمني ان افعل ما يعزز صداقتهما . . لا احب شجار الاخوة . . .

ـ انك محق ، خصوصاً وقد كنت انت موضوع شجارهما . . .

احاط رغيد كتف خليل بذراعه في هيمنة مزورة المودة ، بينما نهض خليل تلقائياً ، واعتذر رغيد من ضيوفه قائلاً : تابعوا حواركم البهيج ولا تشغلوا بالكم بهموم العمل . . . اما نديم ، الذي مهمته الأولى تلبية اوامر رغيد فقد شعر بالغبطة لنجاحه السريع في توظيف جاسوسه والحصول على تقرير منذ الزيارات الأولى . . وغمرت قلبه بهجة تحولت الى فيض من اللطف والعواطف صبها مطراً من الحنان فوق رأس كفى وجسدها . . .

ـ كم انت جميلة الليلة يا سيدة كفى . . اليس كذلك يا دنيا ؟

قالت ليلى التي سبق ولاحظت اهتمام رغيد بها : انها حقاً كذلك . . . (**عيناها جميلتان ، لكن الغباء يقطر منها . غباء ممزوج بدهاء نسائي صغير. انها سردينة متواضعة وشهية سرعان ما يتم التهامها في موائد عالمنا**). . .

حين جلسوا الى مائدة العشاء ، فرض (البروتوكول) جلوس خليل الى جانب دنيا ، واسعده ذلك . . . ثمة شيء حزين في هذه المرأة يقربها منه ، شيء مكسور ورافض له طعم خيبة الأمل والرماد ، ام انه واهم ؟

كفى ظلت صامتة في الدقائق الأولى للعشاء وقد صعقتها حقيقة مدهشة في نظرها : ادوات المائدة كلها من الذهب شبه الخالص ، وخلف كل مدعو يقف خادم لتدليله (أم لمنعي من سرقة ملعقة ذهبية تذكاراً) . مناخ مرفه تتأجج فيه الشهوات . . وهي تتبادل نظرات الاعجاب ونديم ، وعصافير الشوق تطير من عينيها اليه في وهج الذهب . . وحين قدم اليها لفافة بين طبق وآخر ، احست انها تخطو ثانية داخل اعلان السجائر المترف إياه ، واحتلت مكان فتاة الاعلان ، وتقمصتها وارتدت ثيابها ونظرة العشق المتدفقة من عينيها إلى رفيق الصورة ـ وهو بالتأكيد نديم ـ والهليكوبتر خلفهما واحدى العواصم الاوروبية تشتعل بالمباهج والاضواء تحت اقدامهما وهما يستعدان لتبادل قبلة في ثياب مفرطة البهاء . . وقررت ان تبدل سجائرها في الغد لتتبنى سجائر الاعلان ، ولتكون في كل لحظة فتاته المعشوقة المرفهة ونجمة مجتمع القمة . . وهب نسيم الليل في الاعلان ، فسوت شعرها !

رغيد انصرف الى طعامه الخاص بحميته من مرضي الضغط والسكري ولكن الاطباق المعدة له بدت شهية اكثر من اطباق بقية المدعوين وقد اولاها الطباخ عناية فائقة . . وما دام رغيد قد صمت متلذذاً بكل لقمة ، متفرغاً لمتعته ، فقد خيم الصمت على الجميع معظم الوقت باستثناء بعض الحوارات الجانبية التي تجرأ بعضهم على تبادلها . .

ليلى اخفت امتعاضها باتقان . . فالمعلومات التي حملتها الى رغيد حول الصلة بين امير وخليل أضحت عديمة الجدوى بعدما نجح خليل في المهمة التي جندها له نـديم كعميل سري ، وحمل قبل دقائق الى رغيد بعض الاسرار التي يتلهف لمعرفتها . بدأت تفكر من جديد بعمل تبز فيه نديم . . انها الحرب بينها وبينه ، وبينه وبقية المعاونين . . وهي حرب يذكيها رغيد بنجاح ، ايماناً بمبدأ . . « فرق تسد» . . لا شيء يريحه غير « حرب المعاونين » فيما بينهم ، وهو يذكيها كلما هدأت ، لأنهم اذا لم يكرهـوا بعضهم بعضاً ، فسيتفـرغون لكراهيته . . ثم ان اذكاء جو التنافس فيما بينهم سيجعلهم يعملون اكثر ، لا مقابل ما يدفعه لهم فحسب ، بل مقابل احقادهم الصغيرة المتبادلة . . بل ان رغيد يذكي بـين موظفيـه ومعارفه نار الاحقاد الطائفية والحزبية والسياسية بحيث صاروا منقسمين فيما بينهم كأهل لبنان المقيمين فيه ، وربما اكثر . . ورغم انها لاحظت تلك اللعبة ، تجد نفسها اسيرتها كمن ينزلق ببطء داخل مستنقع رمال متحركة ، ولم يعد يملك لسقوطه شيئاً . .

خليل شعر بالاشمئزاز امام ذلك الهدر كله (هذا بذخ لن يغفره التـاريخ) والتبـذير الوقح . . تـذكر الفقـر في بلاده ، والحصـار التمويني ، والمجـاعات في العـالم ، وغص

بطعامه ، وحاول ان يكون مهذباً تمشياً مع واقع الاشياء . . سأل دنيا في محاولة لخلق حوار مائدة ضمن الاطار المتعارف عليه .

ـ الطقس لطيف . . أليس كذلك ؟

ـ أجل . جنيف رائعة هذا الشهر . انها بصورة عامة ناعمة الدفء صيفاً ، لكنها لا تطاق شتاء . . البرد فيها متوحش . .

ـ اولادك ، هل ألفوها . . .

(يا الهي . كيف تورطت في قول شيء تافه كهذا ؟ لقد اخبرتني من قبل انهما عاشا هنا حياتهما كلها . لماذا يحدثها كما لو كانت غريبة ، وقلبه يطير شوقاً الى مغادرة هذا القصر معها وشارع الغربة المذهبة فيه الى حيث يستطيعان ان يقولا شيئاً حقيقياً من القلب . انه بحاجة الى ان يشكو احزانه لمن يفهمها ، لأنثى تتدفق حناناً وألماً وغربة . . وهي تبدو له كذلك ، وليست مثل زوجته كفى السعيدة في سرادق الاحزان المرفهة هذا ، ولو لم تكن رقيقة ومتألمة ومتسامحة لما فتحت له قلبها) ، وهمست كمن يعري مأساته : لم يولد لي احد هنا بالمعنى الحقيقي . لقد حملت بالطفلين في بيروت ، فقد كنا ما نزال نزورها في العامين الاولين من زواجنا . . كأنما حملنا ابني وابنتي معنا من بيروت . . ولدتهما هنا؟ صحيح . . وتلك مصادفة جغرافية ، وقلما زرنا بعد ذلك ارض الوطن . والغريب اننا بعدها لم نرزق بولد هنا . . لقد اصابنا العقم . . راجعنا الاطباء أولاً ثم السحرة ولم يملك أحد لنا شيئاً . .

كان صوتها قد أصبح خافتاً جداً ، وهمس خليل : هذا غريب . . .

ـ ليس غريباً . . معظم اصحابنا المهاجرين اصيبوا بالعقم . .

كاد يبوح لها بسره . بأنه اصيب هو ايضاً بالعجز في الوطن يوم ضربوه وصادروا حريته وقمعوه كعصفور في طائرة مخطوفة . . لكنه قال لها : رزقك الله بولدين . . هذه نعمة . .

كانا يهمسان ، بينما تدور حوارات اخرى ثنائية خافتة بين الآخرين ، فلم يلتفت اليهما أحد . . نديم كان مشغولاً بغزل العيون والهمس مع كفى . . ورغيد كان يستجوب ليلى عن اسم أم خليل وبرجه ليتأكد من عدم وجود خطأ فيما نقله لساحره . . وتابعت دنيا بعدما تلفتت حولها واطمأنت لانشغال الجميع : أولادنا غرباء عنا . . ربما لاننا لم نجد يوماً الوقت الكافي لمصادقتهما . . لقد انشغلت بمساعدة نديم منذ السنوات الأولى لزواجنا ، ولم اتذكر اولادي الا بعدما تأكدت من نجاح نديم في عمله . ابعدني ذلك عنهما حتى تعلقا بمربيتهما الزنجية اكثر مني . . واعترف لك بأنني طردتها ذات يوم غيرة منها رغم إخلاصها !

ـ ماذا تعنين ؟

ـ كانوا يحبونها كأم . . وتوهمت انها هي التي تدفع بهم الى كراهيتي فطردتها . . بعدها كرهوني اكثر ، وترسخ بعدهم عني . تصور . . ابنتي في السادسة عشرة من عمرها ، قالت لي الليلة انني أغار منها وأحسدها لأنها شابة وجميلة وستتزوج من رجل تحب . . كل ذلك لأنني عارضت زواجها من رفيق صفها العربي الفقير نسبياً ، فوالده موظف عادي في الأمم المتحدة . وانت تعرف ان الزواج لا يبنى على الحب وحده . . .

ـ بالتأكيد . . لكنه ايضاً لا يبنى على تحالفات المصالح وحدها . .

ـ وحين قلت لها انني أمها التي انجبتها ومن سواي تهمه مصلحتها ، اجابت : انت وسيلة انجاب في نظري . . وقد انتهت مهامك تحوي . . منذ زمن طويـل . . بل انها عرضت بي وقالت انها تفضل الزواج صغيرة على انشاء علاقات جسدية كرفيقاتها وغيرهن قبل الزواج ! ولامتني لأنني لم أعلمها لغتها الأم . قالت انها معجبة بالحضارة العربية ، وانني حولتها الى مستشرقة بدلاً من مواطنة . . كم تعذبني هذه الفتاة . انها في سن مبكرة جداً ، فكيف أدعها تتزوج لبنانياً فقيراً والبلد على كف عفريت ؟

ـ . . . .

ـ وقد آلمني حقاً هذا الحوار . . كنا في دربنا اليكم لنحضر الى هنا فاضطررت للسكوت ومتابعة العناية بهندامي . . صديقها يغذيها بالتمرد . انه طالب جامعي في العشرين من عمره ، يعلمها اللغة العربية والحب معاً على حد تعبيرها . . تقول انها هنا بلا جذور . . انه يسمم أفكارها ، وهي طفلة تعبث بحياتها . .

كاد خليل يقول لها : « اننا جميعاً نعبث بحياتنا » ولكن اقلقته كلماتها . . لم يفكر يوماً قبل الآن كيف ستكون صلتـه باولاده هنـا ، وهو المشغـول عنهم بالنضـال في الوطن ، والمشغول عنهم الآن بجمع المال لاقساطهم المدرسية في الغربة . . (**حوارنا يقربني منها ، لأنه يقربني من ذاتي وجرحي . هذه المرأة البيضاء السمينة كنز من التجارب والمشاعر ثم انها ليست بدينة بقدر ما توهمت في المرة الاولى ، ولا مترهلة . أراها اليوم اصغر سناً وارتاح لصحبتها وحدها من دون بقية زبائن الاحزان المذهّبة . . لماذا يشكو الأثـرياء أكـثر من الفقراء ؟**) .

بعد العشاء ، أصدر رغيد اوامره بحمل القهوة الى (تراس) البركة الذهبية . . تحت انظار التمثال .

بعدما اعلمته ليلى بالحوار الحميم بين خليل وأمير النيلي ، ازداد اهتمامه باستخدامه وايلامه في آن . . كانت ليلى اول من بدأ الحوار : هل قررت موعد ليلة عيد المليار الاول ؟ لم تسمعها كفى . . كانت تحدق في البركة الاخطبوطية الذهبية الكوكب غير مصدقة ما ترى.

ودنيا شاهدت ظلها في البركة المذهبة وتساءلت بغصّة : أيهما حقيقتي، أنا ، أم ظلي في الماء ؟ . خليل لاحظ التمثال منذ الوهلة الأولى فقد بدا ناشزاً وفي غير موضعه وسط ذلك الحشد من التماثيل الذهبية . .

أجاب رغيد : بالتأكيد . . قريباً جداً . .

ـ ما رأيك في تعيين كفى مساعدة لي ؟ ما دام زوجها سيسافر ، قد تجد المهنة مسلية ومربحة . .

(**لماذا لا يدعون زوجتي الحمقاء وشأنها ؟ من هي بالضبط ليلى هذه ؟ ما الذي يمكن ان يربط امير بامرأة مثلها ؟ يجب ان اسأل دنيا**) لو لم تكن ليلى واثقة من سرور رغيد بالفكرة لما اقترحتها . . لقد اقترحتها نظراته الخفية المعجبة بابنة الاصل ، بنت البيتموني . . ولعل سر اعجاب رغيد بليلى هو انها تقرأ افكاره وتلبي رغباته قبل ان يقولها . . وانه راض عنها ومنجذب إليها لا كساحة حرب ضد أمير فحسب، بل لأنها مفيدة حقاً . .

شعر نديم بالغيظ . . (**سيكون لقاؤها اكثر صعوبة . . هذه الخبيثة ليلى سارعت الى تجنيدها قبل ان تتاح لي الفرصة لذلك . . بدأت اخاف من منافستها لي . تمتاز علي بقدرتها على قراءة الأفكار . . فيها شيء من الشيخ وطفان ، شيء غامض يحبه رغيد . . ثم انها مصرة على النجاح . . منذ افترقت عن أمير ، تبدلت بصورة جذرية . . كنا ندعوها للسهرات للترفيه عن كبار السن بطرافتها وفرادتها ، وها هي تكشف يوماً بعد آخر عن مواهب رجالية « بيزنسمانية » . . لقد استطاعت وحدها ان تحظى بعقود عمل مع العملاقين في آن معاً : رغيد الزهران والشيخ صخر الغنمالي . . هذا لم يحدث لاحد من قبل . . والشيخ صخر معجب بها ، حائر في أمرها ويتوهمها اجنبية متزوجة سابقاً من عربي تارة ، وعربية متزوجة من أجنبي تارة أخرى ، وهي لا تؤكد ولا تنفي شيئاً . . حسناً . . ساضرب انا ايضاً ضربتي ، واثبت لرغيد انه لا غنى له عني**) . .

اخرج من جيبه احدى الصحف وقال لرغيد : هذه نسخة نادرة . . احدى صحف

بيروت حملها هارب عن طريق قبرص وصل إلى جنيف هذا المساء . . فيها خبر قد يهمك . .

ـ لا شيء يهمني في بيروت . . غير وصول شحنة الامدادات التي تعرف . .

تدخلت كفى : كم انت طيب القلب . تشحن المعونات والمساعدات الطبية لهم؟

رمقت دنيا كفى بنظرة ذات معنى ، لكن رغيد بدا مسروراً . انه يحب الاطراء والتملق ، ويعرف ان كفى ليست ذكية بما يكفي لتكون ساخرة . . الحمقاء تعني ما تقول ، وهذا يسره . . (**هذه امرأة يحب معظم الاذكياء والاثرياء حضورها في سهراتهم ، فهي توفر عليهم ضرورة التنبه للملاحظات الخبيثة الجارحة . . انها صادقة في اعجابها بذهبهم وكنوزهم ، وتخترع لهم فضائل موهومة . . يحب كثيراً ان يبدو بطلاً في انظار الناس . . كهذا مثلاً**) . . والتفت الى تمثال عبد الناصر . وسألته كفى المتنبهة لكل ومضة في عينيه ، قائمة على خدمة مزاجه بكل سعادة : لماذا تحتفظ بهذا التمثال هنا ؟ إنه ليس من الذهب . وحده ليس من الذهب ، هل تحبه الى هذا المدى ؟

انتفض نديم ، وتقلصت دنيا داخل جسدها وكلاهما يعرف مدى كراهيته لصاحب التمثال وحدقت ليلى في الأرض المذهبة مطرقة ، بما يشبه الخجل وقد طار امام عينيها قرش مثقوب وظل معلقاً في الفضاء . وأجاب رغيد متنشياً : طبعاً احبه يا كفى . . كنت صغيرة جداً في ذلك الزمان او لعلك لم تولدي بعد . . ولكنني احبه لأنه احد الاسباب الاولى لسعادتي في الحياة : لنجاحي وثرائي . . المليون دولار الأول جمعته بفضله . . حدث ذلك في الايام الأخيرة للوحدة بين سوريا ومصر . . كان يدعي انه ينوي توحيد العالم العربي وبدأ بسوريا . . قال ابي طارت الثروات والاملاك المتبقية هناك واطل شبح التأميم . . طمأنته . كان قد اشترى هذا التمثال من فنان عربي فقير اسمه مفيد النيلي . . هل سمعت به ؟

ـ لا . . سمعت بشخص آخر من آل النيلي . . أمير النيلي . . ولا أحبه .

ـ هذا جيد . . وهل سمعت بجمال عبد الناصر والوحدة ؟

ـ تقريباً . . ولا اميل اليه . يقال انه كان ديكتاتورياً وخرب التجارة والارزاق . . هل ارغم مفيد النيلي على نحت تمثاله ؟

ـ لا لم يرغمه . نحته المسكين عام ١٩٥٦ بكل ما في قلبه من عشق مخلص لعبد الناصر في ذلك الزمان حين خدع الناس كلهم تقريباً باستثناء امثالنا . اشتراه والدي منه خشية لا حباً ، فصار ملكاً لنا وحملته الى دمشق واستأجرت منزلاً صغيراً في حي « السبع بحرات »

قرب شارع بغداد . . وجئت بـ « فنان » من نمط آخر . . وطلبت منه ان يصنع له قالباً ويصب عنه تماثيل كثيرة من الجبس . . لم نهتم بأن تكون مادتها من النوع الذي يدوم طويلاً لأنني لم اتوقع ان تطول الوحدة والحاجة الى هذه التماثيل هناك ، ثم وظفت قمع اجهزة عبد الناصر للناس وحرمانها لهم من مجرد الشكوى ، وصرت أبيعها لهم ! كان موظف المبيعات يذهب الى مكاتب كبار التجار والأثرياء واصحاب رؤوس الاموال ويقترح عليهم شراءها بثمن باهظ جداً بالنسبة لتكاليف صنعها . . ألف دولار للتمثال . . حسناً . . لم يكن يشهر مسدساً على رؤوسهم ، لكنه كان يفهمهم بصورة غير مباشرة ان ثمة رغبة رسمية في حضور هذه التماثيل داخل مكاتبهم . . وبادرة « حسن نية » ستؤخذ بعين الاعتبار من قبل الاجهزة . . وقبل ان تدري بنا الاجهزة ، بعنا ألفاً وخمسماية تمثال ٍ ثمنها مليون دولار ونصف المليون ، اي اكثر من مليون دولار ربحاً صافياً لي . . . تضايق التجار طبعاً لكن احداً منهم لم يجرؤ على التذمر ، بل انهم تبنوا الامر فيما بعد ، بل وتظاهروا بأنهم بحثوا عن التمثال طوعاً ، بل وحباً بصاحبه . . وقد زاد الأمر في مخاوفهم وربما احقادهم ، ولكن ما ذنبي اذا كانوا قد أذعنوا ؟ ثم ان التجارة شطارة . .

وضحكت كفى ملء قلبها : فعلاً . . والدي كان يقول ذلك ايضاً . . ما احلى حكاياك . . لم يجرؤ نديم على التثاؤب رغم انه كان قد سمع القصة للمرة الالف . .

واسترسل رغيد قائلاً : آه . . رحمه الله صديقنا البيتموني . .

سأل خليل وقد بدا متوتراً ومستفزاً : هل النحات مفيد النيلي هو والد امير النيلي ؟

ـ أجل ، هل تعرفه ؟

لا يدري لماذا لم يسارع الى الانكار : نعم قليلاً .

ومضى في رأسه خاطر : هل نقلت ليلى الى رغيد خبر اللقاء في مكتبها ، وما قاله له ؟ نظر اليها ، ووجد عينيها بابين موصدين .

نهض ومشى صوب التمثال . لاحظ وجود قرش مثقوب صدىء الى جانبه خلف القضبان الذهبية ، كتب على وجهه الاول فلسطين ١٩٤٦ بالعربية والعبرية والانكليزية ، مد يده وتناوله دونما استئذان وقلبه ، فقرأ على وجهه الثاني ١٠ ملات . قال : هذا قرش لا يقدر بثمن . ما حكايته هو الآخر يا استاذ رغيد ؟

أجفلت ليلى حين فتح الباشا فمه ليتكلم ، لكنه قال : حكايته في السهرة القادمة . . لكل سهرة اقصوصة لطيفة . . والمسلسل لا ينتهي . .

شردت ليلى (لماذا يهول أمير الامور ، ويحـول القرش العتيق العـادي الى قضية ، ويأتيني الى مكتبي وفي عينيه أحزان عطيل يوم ابلغ بمنديل ديدمونـة ؟ حتام تـطول لعبة الصمت والحقد بيننا ؟ كيف اقول له انني صرت امرأة اخرى ؟ ألم يفهم ؟) . .

عاد نديم محاولاً التقاط طرف خيط الحوار الذي اضاعه لحظة شهر جريدته كسيف في « حرب المعاونين » يوجه به ضربة الى رضى رغيد المتنامي عن اسلوب ليلى في العمل : انظر يا باشا الى هذه الصورة في الجريدة البيروتية التي حدثتك عنها . . قالت كفى متملقة : باشا ؟ . . كم يليق بك هذا اللقب .

اطرق خليل وجهه خجلاً من سلوك كفى .

اخرج رغيد من جيبه نظارة ذهبية الاطارات وضعها على عينيه ، حدق في الصحيفة وقرأ قليلاً ثم رفع نظراته الى نديم ، وسرت كهارب تفاهم صامت ربما هي وليدة (طول العشرة) ورغبة نديم في إرضاء سيده بأي ثمن . .

وأعلن رغيد : بحرية الزهران . .

نطق بالاسم ، وصمت قليلاً كأنما ليدرس وقعه الموسيقي وجرسه . . لم يقل أحد شيئاً وإنما بدا الفضول في العيون المتطلعة الى ما جاء في الصحيفة عن سيدة او طفلة تدعى بحرية الزهران يبدو أن أمرها يهمه وتحمل اسمه وقد تكون قريبته . .

تابع رغيد : بحرية الزهران . فتاة فقيرة مهجرة ، اصيب المبنى الذي تقطنه واسرتها ومئات المهجرين ـ على ذمة الجريدة ـ وطار بقنبلة تفريغية . . تحطم المبنى بأكمله على رؤوس الناس كما لو داسته قدم جني . . البنت نجت ، كانت فيما يبدو خارج المبنى ، قادمة للاحتماء به او راجعة الى بيتها ويبدو انها حين تهدم البناء رأته ، ووجدوها تركض كالمجنونة حول الانقاض . . المسكينة . . يقال انها انهارت وفقدت النطق وفقدت كل اسرتها في الدنيا . . هذا كل ما ترويه الصحيفة . . هل تظن انها قريبتي ؟

ـ ربما . . بل بالتأكيد . . انظر الى صورتها البديعة .

ـ اذن يجب ان أساعدها . . سأحضرها الى سويسرا للمعالجة من الانهيـار العصبي والخرس . وهتفت كفى معجبة : يا لك من انسـان نبيل كبـير القلب . . بارك الله في امثالك . .

سر رغيد بها . . هذا هو بالضبط الانطباع الذي يريد ان يتركه عند الاكثرية المتوسطة الذكاء مثلها . . إذن فكرة تلميع صورته اعلامياً ليست رديئة . . وقد تساهم في تـوفير

المناخات الملائمة لاعماله وتعهداته . . ولكن ، هل تنطلي الكذبة على هلال ؟ سيحاول ولن يخسر شيئاً . . سيحاول . .

تأملت كفى صورة الفتاة وقالت : انها خارقة الجمال . . أعني ، بعد القصف والجوع وبدون ماكياج وتصفيفة شعر . . وتبدو حلوة إلى هذا المدى ؟

قال نديم : سأتولى امرها . . سأبعث برسول من مكتبنا في قبرص او اثينا لجلبها . .

تدخلت ليلى : سأعد الاوراق الخاصة بتأشيرة الدخول الى سويسرا . . السفارة مغلقة الآن في بيروت كما تعلمون . . ربما أضطر لاجراء معاملة تبني يمكن إلغاؤها فيما بعد طبعاً . .

ضايق نديم ان تختطف منه الكرة ، فقال : انجزت ذلك كله هذا الصباح . . جواز سفرها في انتظارها في قبرص وعليه ختم خروج من لبنان ، وتأشيرة دخول الى سويسرا بصفة سائحة . . انها في الثامنة عشرة من عمرها وليست قاصراً . .

ردد رغيد : قريبتي المسكينة اليتيمة بحرية الزهران .

وبدا كأنه صدق كذبته ، اذ ارتجف صوته . .

وترقرقت الدموع في عيني كفى وقالت : يا لك من محسن كريم . .

أسعده كلامها . .

شعر بأنه ثمل بمجده وروعته . فأكد انه سيقيم لها حفل استقبال كبير بوصولها ، ولن يتخلى عنها حتى تشفى (هو الرائع العظيم) ! واشتعلت في قلبه أحقاده على موجات التبديل في العالم العربي التي كادت تطيح بثرائه ، وغمرته موجة من الشفقة على الذات الممتزجة شماتة نحو الآخرين وقال : الذين يتباكون اليوم على لبنان ويدعون حبه هم سبب مصائبه . .

قال خليل بأسى وقد ومض في عينيه برق المحاريث وفاحت رائحة الزعتر البري والتبغ : لقد احتلت اسرائيل جنوب لبنان . . سقطت صيدا . . و . . .

قاطعه رغيد : لقد قاسى الجنوبيون زمناً طويلاً من الانفلاش الفلسطيني ، وعانوا في صيدا من التجاوزات والممارسات البشعة . . لقد استعبدوا الجنوب باسم تحرير فلسطين . . سيتخلص الناس منهم الآن . .

تابع خليل متجاهلاً : واسرائيل تقصف بيروت بجنون تمهيداً لاحتلالها كما يبدو . .

– بيروت رهينة الفلسطينيين المسلحين واعوانهم . . واهل بيروت لا يتوقون الى شيء توقهم الى التحرر من المافيا الفلسطينية المدججة بالسلاح . . انكما محظوظان لهربكما على

الطائرة الأخيرة كما فهمت من نديم . .

اشتعل دم الغضب في عروق خليل ، وقرر مناقشة رغيد بأي ثمن : ولكن هذا المنطق غير صحيح . . والصورة التي ترسمها خاطئة والتعميم لا يجوز هكذا . .

تدخلت كفى : بيروت جحيم . . ما زلت اشعر بالدهشة كلما ضغطت زر الكهرباء هنا ، فأضاء نوراً . . أو أدرت صنبور الماء فتدفق الماء حقاً لا النمل . . ما زلت ادهش حين ارى الناس يمشون في الشوارع هنا ليلاً . . لقد نسينا طعم الحياة والسلام . حتى في الملجأ لم يكونوا ليدعونا في سلام . مرة والقصف يهز الدنيا دخل الى الملجأ مسلحان وسرقا من الجميع كل ما يملكون . نهبانا والقصف جردنا من كل مقاومة اوردة فعل . . كان مشهداً مضحكاً . . لم يضحك احد .

تجاهلها رغيد وتابع بلؤم شامت : المسلحون واعوانهم ينصبون السلاح الثقيل فوق سطوح البيوت والجوامع والكنائس والمستشفيات والمدارس التي تعج بالمهجرين المساكين ، وبالقرب من دور الايتام والعجزة . . سلوكهم يعبر عن لامبالاة حقيقية بحب الناس الذين احاطوهم بالعطاء . . واستخفاف بأرواحهم وممتلكاتهم وبالثمن الذي تدفعه المدينة واهلها . . سيخلفون بيروت أرضاً محروقة . . وسيفعلون ذلك بكل مدينة تحتضنهم . . ستكشف الايام لكم ذلك .

احتقن وجه خليل ، وفتح فمه ليجيب ، ولكنه فوجىء بنظرات نديم وليلى ودنيا المحذرة . . ونظرة نسيم الذي كان يدور بالقهوة على الضيوف ، وقد تصادف دخوله وعبارة خليل الاحتجاجية الاولى . نظرة نسيم المتواطئة اطمأن الى تحذيرها فصمت .

(أقذف برغيد الى بركة الذهب . . . اقفز فوقه لاستمتع بخنقه ببطء ، واضغط بيدي على رأسه لابقيه تحت الماء واصرخ به : ماذا عن الثروات التي تنفقونها لانعاش تناقضاتنا ، واحياء الطائفية والعشائرية وبث روح التفرقة وافتعال قتال ؟ . . يطفو رأس رغيد فوق الماء صارخاً : أرأيت ؟ كلكم ارهابي عاجز عن الحوار . . لماذا لا ترد على كلماتي بمثلها ؟ ها انت تخنقني بعد محاكمة فردية قررت بعدها انني خائن وها انت تنفذ بيدك حكم الاعدام . . كل انسان لديكم خائن او بطل . . شهيد او قتيل وغد . . كلكم ينادي بالديمقراطية شرط ان يضع المسدس في رأس خصمه لحظة الحوار . .

ـ ماذا عن الخطيئة الاصلية في فلسطين ؟ طرد شعب آمن من وطنه وتشريد مليون انسان ، ثم التخلي عنهم . . ثم ترشيح بلادنا العربية قطراً بعد آخر ليكون فلسطين اخرى

تبتلعها اسرائيل ؟ . . ماذا تريد ان نفعل ؟ نتاجر بمقدساتنا لنجمع المليون الأول ، لنهاجر ونضرب في الارض حاملين الوطن داخل حقيبة ، لينبت اطفالنا كالطحالب غرباء بلا جذور ؟ . . ماذا سوى ان نقاوم ؟ . . اخطاء ؟ من الطبيعي ان تكون ثمة اخطاء ما دمنا نعمل وكلنا متخلف ، لكننا لن نتقبل الشماتة من قلب حاقد . . سنتقبل النقد من موقع الوطنية لا الخيانة . . نتقبله من امير النيلي لا من رغيد الزهران . .

ـ لقد حول الفلسطينيون بيروت الى مدينة بائسة وعشقوا حكمهم لها . . وعلموكم احتقار الديمقراطية وحرية الكلمة ، وعودوكم على بيع اقلامكم واصواتكم . .

ـ انهم لم يختاروا بيروت . . وجدوا انفسهم فيها . . ثم ان لغة التعميم مرفوضة . . ثم انهم لم يجعلوها بائسة . . كانت كذلك . . هل تعرف شيئاً عن مئات آلاف الفقراء فيها ، وحزام البؤس الذي كان يزنر تخمتها . . ولم نبعهم اقلامنا . . . معظمنا لم يفعل . . كنا نعني حقاً ما نقول . . وما زلنا . .

ـ ها انت تحاول قتلي لمجرد انني ابديت رأياً مغايراً لرأيك . . . أليس ذلك ضد ما ينادي به نبيكم أمير النيلي ؟

ـ حسناً لعلي اخطأت في محاولة قتلك ، ولعلي اخطأت في عدم انجازه . . سأفكر بالأمر . .

ـ اليس هذا ما تمارسونه فيما بينكم انتم الاصدقاء ؟ لست غاضباً منكم . . اعرف ان هذه طريقتكم الوحيدة للحوار . .

ـ لا تطلب منا حواراً بالشوكة والسكين ، وانتم تحترفون ابادتنا . .

بين جملة واخرى اغطس رأس رغيد تحت الماء غاضباً مقهوراً ، واصرخ : الآن اخترت توقيت الشماتة بي وانا مشرد وضعيف ومقهور ووطني يجتاحه العدو . . سأقتلك . . فيك شيء يثير الشهية الى العنف والتدمير . . سأقتلك في بركتك الذهبية ، في موضع رأس الاخطبوط منها ، على مرأى من ذهبك ، وتماثيلك ، والتمثال السجين المحاط بالقضبان الذهبية) . .

لم يقل خليل شيئاً وكان ما يزال جالساً في مكانه يرقب نفسه في البركة وهو يخنق رغيد . . . أما كفى فكانت فيما يبدو تسرد حكاية مصرع ابنتهما وداد في معرض الاعتذار عن الجملة الاعتراضية التي قالها زوجها مخالفاً فيها بعض الشيء آراء الباشا المصيبة دائماً . . تكهرب جو المكان ، كأن رغيد وعى بعض ما يدور في رأس خليل . . لم يكن مبتلاً ، ولم

يسقط في البركة ولم يشارف على الاختناق ، ولم يصرخ خليل في وجهه ، فقط تسارعت انفاسه . . كان ذلك كافياً ليلتقط رغيد موجته ، وتسري في عروقه متعة الشماتة . **(هذا ثائر آخر مكسور القلب والجانح ، فأدر سكينك في جرحه يا رغيد وأهنه واستمتع بلذة الكراهية . . انها أطيب مذاقاً من لذة التمجيد والاعجاب التي تأكلها من الصحن الازرق في عيني كفى . . . لذة الكراهية حريفة الطعم والمذاق ، تشبه طعم المقوي الجنسي الذي يزودك به الشيخ وطفان ولها المفعول ذاته . . انها تنشط همتك وتصقل مواهبك العملية) .**

تبدو غبطة مفاجئة على وجه رغيد . . ليلى تهرول خلف كرة الانشراح التي غادرت الملعب ، تلتقطها وتعود بها بسرعة وتقذفها بين يدي رغيد قائلة : إذن ستنضم كفى الى فريق الاعداد للحفلة العظيمة ، ليلة المليار الاول يا باشا . .

تذكر رغيد ملياره ، فانتشى وقال : ستسعدني مشاركة كفى . ومن يدري . قد تصلح بحرية للمساعدة . . واذا وجدت السيدة دنيا فسحة من الوقت للمشاركة . . سيسعدني ذلك . .

أجابت دنيا بجفاء : بالتأكيد سأفعل . .

اضافت ليلى : ليلة المليار ستكون ليلة العمر يا باشا سيتحدث فيها الناس عن مآثرك . .

قال نديم : سنشيد جامعاً وكنيسة في تلك المناسبة يا باشا . .

ـ سيأتي الاثرياء من أطراف الارض قاطبة . . . شرط ان يمتلكوا ملياراً فما فوق . . وقد ندعو بعض الفقراء من اصحاب مئات الملايين مثلاً . .

يردد الكورس : بالتأكيد يا باشا . .

ـ سأدعو فقراء آخرين من أهل الفكر والقلم الهاربين من بلاد لا تعرف قيمتهم . . سندعو أمير النيلي مثلاً . . و . .

(ارتجف خليل غاضباً بصمت صارخاً بلا صوت : ستدعوه لتشمت بفقره . . انك تثير الشهية الى العنف حقاً) .

تساءل رغيد : لن يتسع القصر للضيوف . . ماذا سنفعل يا للي . . ؟

ـ حجزت منذ الآن الفندق الضخم المجاور باكمله لمدة خمسة ايام لضيوفنا يا باشا .

ـ انك موهوبة يا عزيزتي . . ساترك لك التفاصيل كلها . .

ـ الطعام سيأتي على متن طائرات خاصة مبردة . . . الفاكهة ستحضر من اقطار الارض كافة .

تدخلت كفى متحمسة بطفولة كأنها تعد حفلة عيد ميلاد احد اولادها : سنزين البيت بالورق الملون والازهار والبالونات يا باشا .

قالت ليلى : رغيد بك مصاب بالحساسية من الازهار . . انه مرهف ، وغبارها يسبب له السعال . . ولذا اوصيت معامل « فان ستيف وآربلز » على ألف زهرة مذهبة لتزيين المكان . .

ـ هذه فكرة مدهشة . . تعرفين كم احب اللون الذهبي . .

ودخل الساحر فجأة ، وانتهت حفلة المزايدة على ربح رضى (الباشا)، وصمت الجميع . .

كفى ذعرت قليلاً حين صافحته، وحدق في وجهها بعينيه العجيبتين، عينه اليمنى بنية واليسرى خضراء . . لم تر من قبل انساناً كهذا ، لكل عين لون مختلف . . وجسده الشبحي الشاهق القامة ، المختفي تحت عباءة طويلة كانما تركض داخلها الرياح والشهقات والاشباح . .

ـ بركاتك سيدي الشيخ وطفان . .

صافحه خليل ، وحدق في وجهه . لا يدري لماذا وجده لا يشبه الصورة التقليدية للساحر . . بدا له مذعوراً وخائفاً !! . . تبادلا نظرات طويلة ، وصار خليل واثقاً ان الرعب وحده يطل من عينيه ، وظل يتأمله محاولاً عبثاً اختراق قناع اللحية ومعرفة هذا الرجل الغامض مثل جدار صلد بلا نوافذ ولا ابواب . . .

لقد شاهده من قبل لكنه لا يذكر متى واين . . انه واثق من ذلك . . وكلما حاولت ذاكرته الامساك بصورة من الماضي انزلقت كسمكة زئبقية .

وقفت دنيا في حضرته، وحتى رغيد . . دنيا كانت واثقة من انه لن يبوح بسرها الى زوجها : انها جاءته لربطه عن كل انثى سواها . . . فهو لا يبوح بالاسرار . كان واضحاً : كلهم يخافه . . كلهم دون استثناء . . خليل كان وحده ممتلئاً بالدهشة ، كمن التقى بشخص لا يعرفه ، ولكنه سبق ان شاهده في احلامه مرات عديدة . . . في قلبه شهية لمعرفة المزيد عنه بعدما سمعهم في السهرات يحدثون عن مآثره . . تراه يعرفه حقاً ؟ اين شاهده ؟ انه واثق من انه شاهده ، ربما في زي آخر ، ولكن اين اين اين ؟

جلسوا قليلاً فيما يشبه الخشوع ، واعتذر الساحر عن عدم البقاء طويلاً ، فهو الليلة متعب . جاء لتحية الضيوف القادمين من لبنان ، وسينسحب .

(كيف لم يلحظ رغيد ان ضيفه خليل هو صاحب الصورة التي طلب مني تدمير صاحبها وفشلت ؟ . ثمة سحر غامض قوي يحمي هذا العادي الذي يشبه الجميع)

بكل تهذيب حياهم ومضى مخلفاً على كرسيه حضوراً بارداً مرعباً . . واجوبة غامضة على اسئلة كفى الطفولية : ما حقيقة السحر يا سيدي؟

ـ السحر حقيقة ما دمت تؤمنين بها . . وانا ساحر قادر لانكم تؤمنون بسحري . . سري ؟ انتم سري .

قالت دنيا : يجب ان يرتاح الباشا . . لقد اطلنا السهرة فمعذرة . .

ودعهم رغيد بحفاوة خاصة لكفى ، وهمس في اذن نديم : الشخص الذي سيتولى احضار بحرية من بيروت ، لماذا لا يتولى ايضاً تنظيم سلسلة جديدة من حوادث السيارات المتفجرة ؟ . . لقد اثبتت فعالية خاصة . . ما تكاد سيارة تنفجر وتقتل مئات الضحايا حتى تتزايد طلبات الفئات كلها على السلاح ، وكل فئة تظن ان الاخرى فخختها . .

ـ حاضر . أمرك يا سيدي . .

حين غادروا المكان ، لاحظ خليل اجراءات الخروج المشددة الامنية كما في الدخول إلى قلعة الذهب. لكنه بعد حواره ورغيد ـ من جانب واحد ـ لم يدهش لذلك . . انه هو ايضاً يشتهي قتله بيديه من النظرة الاولى لكنه لا يريد سرقة شيء .

في طريق العودة ، اشتعلت عواطف كفى مجدداً في السيارة الجديدة الفارهة التي تنساب دنيا صامتة من الفخامة والهدوء الفاخر . . تذكرت سيارة زوجها المهترئة الكثيرة الضجيج . غصت وهي تتأمل نديم يقود سيارته بيد ، ويتحدث على التلفون بالاخرى . .

حياة اخرى هي الوجاهة . . حياة تحبها بقدر ما تمقت عالم سيارة خليل . . ما اروع نديم وعالمه . يا للحيوية والسطوة . . إنها تحبه . . تحبه . . سعيدة بحضوره وبحضور الهاتف في السيارة ! . . . قال لها مباهياً : التلفزيون أمامك . . تستطيعين الاستمتاع به اذا اردت . . والبار الى جانبه . فكرت بغصة **(دنيا امرأة محظوظة بزوج مثله . لكنها لا تعي ذلك كما هو واضح . ليتني مكانها)**

ضغطت الزر التلفزيوني ، وعلى الشاشة الزجاجية بدت بيروت تحترق . . لم ترفع الصوت . .

وحولت نظرها عن الصورة الى النافذة الزجاجية للسيارة ، وكانت تعادل في حجمها شاشة التلفزيون ، وصارت تتأمل مباهج سويسرا وهي تركض في الدروب الآمنة المضاءة . . وتتخيل حصتها من تلك السعادة الآتية كلها . .

وتسمرت نظرات خليل على الشاسة ، وطفرت دموع الذل من حنجرته الى عينيه . . مسحها في الظلمة بصمت هادىء مطبق . . سألته كفى : كم الساعة ؟ قال : الثانية عشرة والنصف .

ـ متى تصحح ساعتك ؟

أطبق شفتيه باحكام وقال بلا صوت : لن اصححها انها بالتأكيد صحيحة .

اهملته وقالت مخاطبة نديم : يا له من ساحر مرعب . . أليس كذلك . .

دمدم نديم : انه بالتأكيد ساحر مرعب . . مخيف . .

***

(آه كم انا خائف . . مذعور . . الرعب يلتهمني . . تحدث لي اشياء لم اعد افهمها . . لم اعد أحكم حواسي ولا دماغي . . ثمة لحظات تفلت فيها الخيوط مني كما حدث لحظة شاهدت خليل) . .

حدق الساحر وطفان من النافذة . سيارة الضيوف تغادر المكان . هدأت روحه قليلاً

(اشعر بأن اعدائي يطاردونني الى هنا . . يرتدون اجساد وجوه مألوفة . . يتقمصون اشخاصاً يمكن ان أحبهم ، خصيصاً للايقاع بي . . آه ماذا يحدث لي ؟ . . لقد جمعت ثروة والآن لم اعد اذكر لماذا ، وما حاجتي الى النقود وانا منفي هكذا في ارض الجان . . كنت سعيداً . . في البداية على الاقل يوم كنت دجالاً . . لقد فوجئت بوجودهم ، وبانني عبثت بقبور يقطنها حضور ما . . ثم صادقتهم ، وعاشرت نساء الجان . . فماذا حدث لي فجأة . . هل عنبرة جنية من قبيلة مضادة ، تقمصت جسد الحبيبة القديمة وجاءت تعبث بي ؟ ولماذا عاودتني الكوابيس منذ دست في يدي بالحجر الشرير الاخضر المسحور على هيئة زمردة ؟ . .

وان لم تكن عنبرة من الجان ، فكيف اختفت هكذا فجأة ؟ . .

لقد جمعت كل ما تبقى لي من شجاعة ، وهتفت اليها في بيتها وقيل لي انها سافرت . . هتفت ثانية فلم يجب احد . . ذهبت اليها فوجدت القصر موصداً والغبار مكوماً على

النوافذ ومقابض المداخل، والعنكبوت الجهنمي يتكاثر ويتناسل امام عيني حتى لم يبق من الدار خلال دقائق غير مستعمرة عناكب عملاقة تزحف فيها الافاعي والديدان والعقارب ، وهرولت هارباً والتماثيل تركض خلفي وتزأر . . واليوم يتقمص عدوي المارد جسد وجه مألوف عادي مسكين هو خليل . . . كأن الجني الذي ينوي تدميري يتقمص ذاكرتي . .
آه كم انا مذعور . . خائف) .

●●●

سمعت دنيا صوتاً يناديها . . . كانت بين النوم واليقظة . ارهفت السمع . (اني واهمة) . . . ما كادت تغطس في بركة النوم من جديد حتى عاد الصوت النسائي المألوف يناديها . . .

نهضت من فراشها . . الزوج نائم في غرفته المجاورة . . . منذ زمن بعيد وكل منهما ينام في غرفة مستقلة . . . نظرت الى ساعتها : انها الرابعة والثلث فجراً . .

عاد الصوت يناديها هامساً كما لو كان طالعاً من بئر عميقة . . . مشت كالمنومة فوق الموجات الصوتية ، ثم لحقت بالصدى ، ووجدت نفسها واقفة امام لوحتها . . . اللوحة التي رسمتها بنفسها لصبية كانتها ذات يوم . .

قالت لها صبية اللوحة : دنيا . . . اصبح نومك ثقيلاً ، وكنت تصحين لسقوط ريشة عصفور قرب فراشك . . .

- . . . . . .

- يبدو انك اكثرت من الشراب كعادتك . . لا اذكر انك كنت تذوقين الخمرة . . . .

- . . . . .

- جسدك مترهل . . . لماذا لا تعملين كما كنت من زمان ؟ . . .

- . . . . . .

- ماذا تصنعين بنفسك وبي ؟

- . . . . . .

حدقت دنيا مذهولة . . .

هل يمكن للوحتها ان تخاطبها حقاً ، ام تراها حالمة ؟ هل بـدأت تدخـل في مرحلة الوساوس والكوابيس؟ . . . اهذه نهاية ادمان الخمرة ؟ . .

شعرت بوجع يشبه الخدر في ركبتيها . . . لم تعودا تقويان على حملها . . .

انهارت فوق المقعد المواجه للوحة . . احست بأنها تختنق . . . مدت يدها ، وخلعت عن عنقها سلسالها الذهبي النحيل والماسة الصغيرة التي تتوسطه . . . وضعته الى جانبها فوق الطاولة . . .

اللوحة تناديها : دنيا . . هل عدت الى النوم ؟

ـ لا . . . ولكنني ايضاً لا اصدق ما يدور . . .

ـ تظنين انك نائمة او مجنونة ؟

ـ بالتأكيد . . .

ـ لست نائمة . . انت للمرة الاولى منذ اعوام صاحية حقاً . . ولست مجنونة في هذه اللحظة ، لكنك كنت كذلك طوال الاعوام الماضية منذ فراقنا. . . .

ـ هذه مزحة سمجة . . من يحاول ايهامي بأن اللوحة تكلمني ؟

تلفتت حولها . . لعلها ابنتها التي تعلن كرهها لها قد دبرت لها تلك اللعبة العابثة . . .

نهضت الى غرف الاولاد ، فالزوج . . الكل غارق في نومـه ، واللوحة تنـاديها من جديد . . . تأملتها ، فشاهدت شفتيها تتحركان حقاً ، وملامح وجهها كذلك واهـدابها ترتعش . . . ويدها تشير مهددة خارج اطار اللوحة .

عادت اليها : حسناً . . . ماذا تريدين . . . لنفترض انك انت التي تنطقين حقاً ، لماذا تضايقينني ؟

ـ اضايقك ؟ . . . لقد دمرت حياتي ، وتعتبين لانني اضايقك؟

ـ كيف ؟ انا دمرت حياتك ؟

ـ اجل ! . . . كنت صبية حرة ، حية ، ممتلئة آمالاً . . كانت الموهبة هي التي تتدفق في عروقي لا الخمرة. . . انظري ماذا فعلت بي، واية عبودية أرزح فـي اغلالها. . . انظري ماذا فعلت بالصبية التي كنتها ذات يوم . . .

ـ ماذا فعلت ؟ كنا فقراء ، وصرنا اغنياء . . .

ـ لم نكن فقراء حقاً . . . كان في مقدوري ان اعمل واعيل نفسي . . وكنت سأعمل شيئاً احبه واحترمه . . هذه هي الحياة . . .

ـ ولكنني اعمل . . . .

ـ كنت اتمنى ان تكون مهنتي معرفة الحقيقة وخدمة الحق ، فوظفتني لطمس الحقائق وازهاق الصدق . . . ورفع راية الباطل عالياً في كل حقل . . .

ـ لم يحدث ذلك بالضبط . . لقد تزوجت . . .

ـ اتسمين هذا زواجاً ؟ انت موظفة في مؤسسة مالية تسمينها زواجاً . . . انت موظفة استقبالات . . . سكرتيرة علاقات عامة . . .

ـ غير صحيح . . . انا ام اولاده . . . اننا اسرة . .

ـ كنت اداة انجاب كما قالت لك ابنتك هذا الصباح . . لقد كنت الممر وانتهى الامر . . .

ـ انها فتاة فاسدة . . لم احرمها يوماً من شيء . . .

ـ حرمتها صحبتك في الطفولة ، وصداقتك في المراهقة . . فكرهتك . . وابنك لا يحبك ولا يكرهك ، انه مقيم داخل علبة تلفيزيونه . . . مقيم داخل عالمه الوهمي : العاب الانتلفيزيون . . . والاتاري . . . يغادرها احياناً الى اقربائه الآخرين داخل الفليبرز ، يركض كالكرة المجنونة بين النقاط الملونة . . . دماه الآلية اقرب اليه منك . . هل لاحظت مجموعة الناس الآليين (الروبوتس) التي يفخر بها ؟ هذه اسرته الحقيقية . . .

ـ ولكنني مشغولة منهكة . . . لا اجد لحظة فراغ واحدة . . .

ـ انت منهكة لانك تمارسين ما تكرهين . . هل تحبين حقاً اولئك الناس الذين يحيطون بك ؟

ـ لا . . . لا حوار حقيقياً بيننا . .

ـ لكنك تكرسين وقتك لارضائهم . . ترتدين الثياب التي تعجبهم . . . تشترين الحلي التي سيحسدون . . . تقضين نصف يومك عند الحلاق ، وتبدلين شعرك الاسود الى لون آخر لأن الشعر الاسود ليس موضة الموسم . . . تختنقين برائحة تلك المواد الكيمياوية التي تحيل سواده الى بياض ليتم صبغه باللون الذي يرضي زمرتك . . .

ـ انني مضطره لمسايرة الوسط الذي اعيش فيه . .

ـ الخطأ هو في اختيارك له . .

ـ لم اختره . . . هذا عالم الاغنياء . . .

ـ الخطأ هو في عدم اختيارك لعالمك الحق . .

ـ لقد وقفت الى جانب زوجي . . . وهذا عالمه . .

ـ لقد شجعته . . فخسرته . . في هذا العالم لا صداقة ولا محبة . . خواء . . . خواء مخيف . . .

ـ . . . .

ـ وبدلاً من الهرب الى العمل ، الى حقيقتك الاولى تابعت الهرب الى امام . . الى الخمرة . . .

ـ . . . .

ـ تشعرين بالوحدة والغربة . . . محرومة من الود الحقيقي مع زوجك او اولادك . . . او صحبكم . . . واذا وجدت صديقاً يريحك حضوره مثل خليل ، لا تجدين له وقتاً في زحامك الزوجي . . .

ـ . . .

ـ طلقيه . . .

ـ فات الاوان . . . لقد الفت حياة الكسل المزدحمة بالهرولة . . . حسناً . . لأقل انني الفت كوني ثرية . .

ـ طلقيه . . الم تسمعي بانسان يبدأ حياته من جديد ؟ انت محسودة لكنك فاشلة . . . تكرهين حياتك هذه ، فغادريها . .

ـ لا اقدر . . ليس في مقدور أي انسان ان يقرر انه اخطأ دربه منذ أكثر من ثماني عشرة سنة . . . وانه سيعود الى النقطة التي بدأ فيها الخطأ ليصحح مسيرة حياته . . .

ـ طلقيه . . .

ـ لا اقدر . . لم اعد صغيرة بما يكفي لأبدأ من جديد . . . ولست بعد كبيرة بما يكفي لأنسى . .

ـ طلقيه . . .

ـ حسناً . . . وماذا لو طلقته ؟ هل الغي اولادي من سجلات المواليد واقول : كانوا غلطة مطبعية ؟ هل امسك بالممحاة وامحو عن عمري ثمانية عشر عاماً وزوجاً واولاداً كما يمحو الفنان خطأً رسمه بالقلم الرصاص خطأً على لوحته ، وقرر العودة عنه . .

ـ اذن لا امل لنا ؟ الا يمكنك تصحيح مسارها بعض الشيء ؟

ـ لا اظن ذلك . . فدعيني في سلام . . .

اطبقت اللوحة شفتيها ، وهطلت من عينها اليسرى دمعة واحدة فقط . . . تماماً كما كانت تفعل دنيا حين تبكي يوم كانت صغيرة . . . وطالما سحر العشاق بتلك الدمعة اليتيمة المضحكة تنحدر من عين واحدة . . كأن عينها الاخرى قدت من صخر ولا سبيل للدموع اليها . . واعادت فتاة اللوحة يدها الى الداخل ، واسترخت اصابعها في الوضعية التي كانت عليها . .

نهضت دنيا وعادت لتتمدد في فراشها ، واشاحت بعينيها عن خيوط الفجر الاولى الصيفية المبكرة . . . حين كانت صغيرة كانت تحب الفجر ولا تمقته كاليوم وتحب ان ترى الاشياء في ضوئه على حقيقتها . . فاذا راقصها حبيب في (ستيريو) ما ، عادت اليه صباح اليوم التالي وحاولت رؤيته في ضوء الشمس . . (راقصني وديع . . كان فقيراً وشاعراً وسيظل كذلك . . طرت معه فوق غيمة وردية ، وبدأت اتحسس النجوم ، وحين قطفها ونثرها في شعري احسستني اميرة العشق المتوجة . . .

صباح اليوم التالي ذهبت الى الستيريو . كان بابه مقفلاً . ظللت جالسة امام بابه حتى الظهر ، حين اتى موظف يحمل مفاتيحه تمهيداً لتنظيفه . قلت له انني نسيت كتابي في الداخل ولدي امتحان ملح . . . توسلت اليه ان يدعني ادخل لاحضاره . . سألني اين كنت اجلس وقال انه سيحضره لي ، ورفض السماح لي بالدخول . . .

لحقت به ، وكان يرفع الستائر ، وانهمرت الشمس مطراً مضيئاً يغسل الاوهام . . . بدت المقاعد الوثيرة ـ التي كانت في الليل كفراش الازهار ـ عتيقة وموسخة ببقع الخمرة والقيء واشياء اخرى فيها ما يذكر بفراش مومس . . . اما المصابيح التي كان نورها الملون «البسيكاديليك» كواكب معلقة راقصة في مهرجان كوني، فقد كان الغبار يكسوها والاسلاك البشعة تتدلى في (الفضاء الكوني) سابقاً ، وحين حدقت في مقعد ليلتنا السابقة ، شاهدت الصراصير تركض فوق كلمات الشعر التي تساقطت من شفاهنا وجيوبنا . . . وانطلقت هاربة كالمجنونة وصوت الموظف يقول غاضباً : لاكتب هنا يا آنستي . . لم اجد شيئاً . . .

اما انا فقد وجدت شيئاً . . واضعته . . قررت ليلتها ان حباً لايقوى على الحياة الا في الستيريو ، وسط الانوار الاصطناعية وضبابات الاوهام ليس حباً . . . ورفضت لقاء وديع الا خارج المرقص . . فهجرني وكتب قصيدة رائعة ورسمت لوحة جيدة وافترقنا) . . . .

آه كم كنت احب التحديق في الحقيقة مهما كانت جارحة ، فلماذا لم اعد اجرؤ اليوم على

التحديق في حياتي الحالية ووجهي السابق ؟ . . . .

استيقظت دنيا ويد تهزها . . . انه نديم وقد ارتدى ثيابه واستعد للخروج . . . نهضت مرهقة . قال : نسيت ان أبلغك البارحة . . لدينا ضيوف الليلة . . ستة اشخاص على العشاء الساعة التاسعة الا ربعاً . . صرخت في وجهه : نسيت ان تقول « صباح الخير » . . .

- كففنا عن ذلك منذ زمن طويل توفيراً للوقت . . هل نسيت ؟

- وهل تظنني ادير مطعماً هنا ؟ . .

- طبعاً . . هذا جزء من شراكتنا . . ماذا تبدل ؟

- اليس من حقي ان اعرف اسماء الضيوف ؟

- ما الفرق ؟ انهم قادمون لضرورات العمل . . .

- الم تلحظ اننا بلا اصدقاء . . اعني اصدقاء نستمتع حقاً بصحبتهم ، لا اصدقاء « ننتفع » بصداقتهم . . .

- هذه مساوىء المهنة . . . حين قررنا جمع ثروة ، كنا نعرف ذلك . . .

- لم اكن اعرف مدى قسوة ذلك . . ماذا لو مرضنا ؟ لو اصابتنا مصيبة ؟ لن نجد صديقاً حقيقياً يواسينا . . .

- لا وجود لشيء كهذا على اية حال . وسيواسينا مالنا وثراؤنا . . .

- لم أعد اطيق الاستمرار هكذا . . بدأت اكرهك واكره نفسي . .

- تكرهينني منذ زمن بعيد . . . منذ وظفت رجل الوكالة لملاحقتي وعرفت انني اخونك . . فلماذا افتعال الدراما الآن ، وانا مشغول . . .

- لقد دفعت بي الى احتقار نفسي . . .

- لانك ذهبت الى الشيخ وطفان في الفندق لايذائي ؟ يدهشك انني اعرف ذلك ؟ انا ايضاً وظفت جاسوساً يتبعك . . . هذا جزء من حياتنا كزوجين ثريين . . والآن ، انا ذاهب ، كوني جاهزة في الثامنة والنصف فقد يأتي احدهم مبكراً . . .

- لا يهمك شعوري . . . .

- دنيا . . ماذا دهاك . . . تتصرفين وكأنك رابعة العدوية وقد غرر احدهم بها . . كأنك رجعت طفلة . . . منذ ثلاث عشرة سنة لم يدر بيننا حوار كهذا . . . يوم قررت

تطليقي بعد أعوام قليلة من زواجنا ثم بدلت رأيك ورجعت من اجل الاولاد على حـد زعمك . . .

ـ بعدما توسلت الي كي اعود . . هل نسيت دموعك؟

ـ ما الفرق . ذلك كله جزء من ماض بعيد بعيد . . انت الآن في الاربعين . . . هل نسيت ؟ . . .

ـ مأساتنا اننا حليفان ولسنا حبيبين ولا حتى صديقين . . .

ـ يعرف كل منا صاحبه اكثر مما ينبغي ، والى المدى الذي يجعل الحب مستحيلاً . . . كلانا بشع . .

ـ لست بشعة الى هذا المدى . . .

ـ انت اكثر بشاعة . . حصلت على المال والآن تريدين التنصل من دفع الثمن . . .

قالها ، وغادر الغرفة غاضباً وصفق الباب خلفه . . .

لا . . لن ترضخ . . . وقد لا تستطيع بدء حياتها من جديد لكنها ستسعى لتصحيح مسارها بعض الشيء . . هذا ممكن . . غير ممكن . . ممكن . . غير ممكن . . لماذا تشاجرت وزوجها ؟ ما جدوى ذلك ؟ انه الحلم . . تذكرت الحلم دفعة واحدة . . . تلك اللوحة ، منذ دخلت بيتنا كادت تدمره . . . تسللت الى احلامي وحولتني الى امرأة عدوانية تتشاجر وزوجهـا كلما وجدا وقتاً لـذلـك . . . يا لـه من حلم . . صـارت تحاور اللوحـات في احلامها . . . انها بداية درب الجنون . . .

تدخل الخادمة وتقـول لها : وجـدت سلسالـك هذا في الصـالون فـوق الطاولـة يا سيدتي . . .

صعقت وهي تتنـاوله منهـا . . . نهضت من فراشهـا مضطربـة . التقت بابنتهـا في الممر . من زمان لم تقل لها ابنتها صباح الخير . منذ طردت المربية ! . انها عادة تتحاشى اللقاء بها . ما بالها هذه المرة تبدو كأنها تعمدت ذلك وتمسك بيدها وعلى وجهها امارات الحـزن والخوف لتقـول : لست انا التي عبثت بلوحتـك . . اقسم لك . . اعـرف انك ستتهمينني ، لكنني لم افعل . . . لوحتك هذه هي الشيء الوحيد الذي يخصك واحبه . . .

ـ ماذا بها . . . اللوحة ؟

ـ ثمة من رسم لها دمعة تحت عينها اليسرى . . ليست رديئة ولم تشوه اللوحة . . . ولكن . . .

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟
ـ اقسم لك انني لم افعل ذلك . . لو فعلت لاعترفت فأنا لا ابالي بغضبك . . لكنني اقول لك الحقيقة . . تعرفين كم احب الحقيقة . . . والصدق . . . . وربما لذلك اكرهك احياناً ، ولكن ليس الى حد تشويه تلك اللوحة الجيدة .

دخلت دنيا بصمت الى غرفة الحمام واقفلت الباب وراءها . . . تنهدت بارتياح حين انفردت بنفسها . غسلت وجهها بالماء البارد ، وصداع اليم يمزقها . . . اللعنة على الخمرة ، وصباحات ما بعد الخمرة . . . وذلك الشعور البائس بالاعياء والغثيان والصداع والانهيار . . ليتها تقدر على وضع رأسها بأكمله تحت الماء البارد ، ولكنها تخشى افساد تصفيفة شعرها . . ضيوف المساء قادمون ، والزحام على اشده عند الحلاق في عطلة نهاية الاسبوع . . اكتفت بغسل وجهها بالماء البارد ثانية (حسناً . ربما لم تكن ابنتي هي التي عبثت باللوحة . . لعلي كنت ثملة ورسمت لها دمعة . ام ان الحلم بدأ يتداخل والحقيقة في حياتي المشطورة ؟ لا . لا يمكن ان يكون ذلك كله قد حدث . . انها الاعيب ابنتي . . ولكن ، كيف افسر وجود سلسالي الذهبي هناك ؟ وهل سرقته ابنتي ايضاً من داخل الحلم لتضعه هناك ؟ . . . ام انني مشيت في نومي حقاً وتركته قرب اللوحة وفعلت ذلك كله دون ان ادري؟) . . . ظلت تفتش عن تبرير منطقي للأشياء، وومض في رأسها خاطر . . . ماذا لو ان ما حدث البارحة ، حدث حقاً دون ان تكون قد تحركت من فراشها ، والسلسال نسيته في السهرة قبل ذلك ؟ . . . تمنت لو يكون خليل قريباً منها. تروي له ما حدث . . خليل او امير . . . أي صديق معني بثقوب الروح . . . غريب ما وقع في بيتها ، ولكن ، الا يمكن لهذه الأشياء ان تحدث في عالمنا ؟

والعجيب انها وجدت علبة الأصباغ مفتوحة ومبعثرة دون ان تذكر انها لمستها . . ولكن ، الم تكن تؤمن من زمان بوجود قوى خفية في الإنسان ذاته قادرة على مخاطبة النبات وربما شحن الجماد بالحياة ؟ هل يمكن ان تكون قد حركت الريشة حقاً بشحنات عذابها وقهرها ، ورسمت الدمعة دون ان ترسمها ؟ ولو شاهد احدهم الريشة لحظتها لتوهم ان شبحاً يحركها ؟ اهذا ما يحدث احياناً للشيخ وطفان حين تتحرك الاشياء في الفراغ تحت نظراته ؟ أحقاً ان هذا الكون هو فقط ما نحيط به حين نحدق في الاشياء بنظرة سطحية سريعة عابرة ، ونحن نتسابق في الدرب الى الذهب ، راكضين كالحمير خلف جزرة ذهبية ؟

آه . . . صداعها . . . ويجب ان تعد قائمة الطعام للمساء . . . لا وقت للتفكير بهذه

الأشياء . . لا وقت للاحساس . . لا وقت لشيء . . (اين انت يا بيكاسو، يا كلبي اللطيف . يا صديقي الوحيد ؟ . . بيكاسو . . تعال يا حبيبي . . رافق صديقتك المزقة نصفين الى صالون التجميل فهي ما تزال مشغولة بمحاولة تنحيف ردفها عن هموم العالم واسراره . . . وبعده الى الحلاق ، حلاقي فحلاقك . . . فالخياط . . فالمقهى . . . فالحلاق . . فالمساج . . . لا وقت للحزن . . لا وقت للفرح . . لا وقت للتأمل . . لا وقت للصداقة . . لا وقت للذكرى . . . لا وقت للموت . . لا وقت لشيء . . اسرع يا بيكاسو . . اسرع)

●●●

اخرج صقر من جيبه علبة ذهبية . تناول منها كيساً صغيراً وورقة من فئة المائة دولار ، وخليل يحدق متسائلاً . لم يجب عن التساؤل الصامت بغير تلك الضحكة الهستيرية صمت بعدها فجأة . سكب بعض محتويات الكيس فوق الجريدة. حدق خليل فرأى خبراً عن بيروت وصورة لبعض دمارها وكومة صغيرة من مسحوق ابيض فوق لهيب الحريق في الصورة . . . قسم صقر المسحوق الأبيض الى قسمين فأربعة مستعيناً بطرف ورقة المائة دولار . ثم مزق الورقة ، ولف جزءاً منها بشكل انبوب دقيق (كالشاليمو). وضع طرف الانبوب فوق الربع الأول من المسحوق الأبيض وقرب وجهه من الطرف الثاني للانبوب وادخله في منخره الايمن وتنفس بقوة في شهيق مسموع . . . رفع (الانبوب) ثانية ليضعه فوق الربع الثاني وكرر الشيء ذاته ، بعدما ادخله هذه المرة في منخره الايسر . . . فرك انفه بشدة ، واغمض عينيه بنشوة . .

وسأل خليل : هل شممت الكوكايين من قبل ؟

ـ لا . . .

ـ هذا رائع . . كونك لا تعرف شيئاً يسعدني . سأعلمك واثقفك . . .

ـ ولكن . . .

ـ هيا شم ما تبقى . . خذ . . .

كاد خليل يرمي بالمسحوق اللعين في وجهه ويركض هارباً بالجريدة ليقرأ اخبار

بيروت . . لكنه تذكر اقساط الأولاد ، والاجرة الباهظة لجناح الفندق ، ونقود كفى التي اوشكت على النفاد ، وتذكر انه قادم اليوم متحيناً الفرصة لطلب سلفة على راتبه . . فنفذ الأمر ، وشم . . ضايقته المادة الغريبة في انفه ، فصار يفركه . قال صقر : حذار . . . لا تعطس . .

قاوم خليل رغبة ضارية في السعال والعطس ما لبثت ان تبددت وحل محلها شعور عميق بالمخدر في انفه ، فحنجرته . . . وساوره بعض الضيق وهو يبتلع لعابه مع احتجاجاته الخرساء . . .

رشفا القهوة بصمت ، وبعد دقائق شعر خليل انه في صحة ممتازة . . . وانه سعيد وقوي ونشيط ، كأنه غادر الثالثة والثلاثين مقلعاً في مركبة الزمن الى الوراء . . . وها هو في الثالثة والعشرين . . . خامره مرح دافىء ، وصار قلبه يرقص في صدره كعصفور فرح بطيرانه . . وغمره شعور بديع بالحرية واللامبالاة . . .

سأله صقر : هل استطعت الاقلاع ام انك بحاجة الى المزيد . . .

ــ انني اطير . . .

ــ لم يعد هذا المقدار يكفيني للطيران . . .

ــ انها المرة الأولى بالنسبة لي . . لا تنس ذلك . . .

اعاد صقر الكرة ، ثم قرع الجرس وطلب فنجاناً آخر من القهوة . . .

حدق خليل عبر النافذة ، وشاهد الشجرة كأنه لم ير شجرة من قبل . . . ذلك الجذع البديع ، الأوراق الخضر التي تومض تحت اشعة الشمس مثل آلاف المرايا التي ترسل شارات سرية الى كواكب اخرى . . .

امسك بالعلبة الذهبية التي اخرج منها صقر مسحوق النسيان الأبيض ، وركزها تحت اشعة الشمس وبدأ يرسل نورها فوق الحائط المجاور . . . فالسقف . . .

سأله صقر : ماذا تفعل ؟

ــ ابعث رسائلي بالشيفرة . .

ــ ماذا تقول فيها ؟

ــ S.O.S النجدة . . .

ــ وماذا ايضاً . . .

ــ يا سكان الكواكب الأخرى . . . أنا قادم . . . جهزوا الوليمة . . .

ضحكا معاً هذه المرة . . . وبدا ان صقر سعيد بصحبته . . . واقل تأثراً منه بمسحوق الفرح ، اذ جره من الكوكب فجأة الى الأرض وسأله : تبـدو اصغر سنـاً . . . اقل من الثلاثين . .

ــ انا خالد . . . ازلي . . . سرمدي . . ويظل عمري عشرين سنة . . .

ــ الك اولاد حقاً ؟ . . .

كاد يصفعه . . أهـذا أوان الحديث عن الاولاد ؟ . . تذكر شيئاً نسيه ، واحس بأنه قادر على الوقاحة والجرأة والعنف فأجاب : اجل . . . وهذا يذكرني . . . انني بحاجة الى سلفة . . . لا املك فرنكاً سويسرياً واحداً . . .

اخرج صقر من جيبه مجموعة من الأوراق النقديـة . . . ركز خليـل نظره بصعـوبة عليها ، وقرأ على واحدة منها رقم الف . . . عشر اوراق او عشرون ورقة من فئة الألف فرنك . . . مد يده واخذها قائلاً : انني بحاجة اليها كلها . . . اليس معك المزيد ؟ ضحك صقر ضحكته الهستيرية ، وافرغ محتويات جيوبه كلها ، فأخذ خليل المال كله الذي يحمله دون تردد ، والعلبة الذهبية ايضاً وأعاد لصقر الكيس الصغير المليء بالمسحـوق الأبيض وحزمة من المفاتيح . . وعلبة دواء . . واحتفظ بما تبقى كله . . . .

دخل صخر فقال الابـن : ارجوك يا ابي . . انا مفلس . . . النجدة . . .

ــ كنت البارحة كذلك ايضاً . . . وانجدتك . .

ــ مدد يا ابي . . . مدد . . .

ــ لا احد يقول لي شيئاً آخر . . . نسائي واولادي وأصحابي . . . لا احد يطلب مني شيئاً آخر . . . لا أحد يأخذ مني قرحتي مثلاً . .

قال خليل بجرأة معابثاً : لماذا لا تجرب الشيخ وطفان . . .

ــ هذا ما فعلته بي عقاقير الشيخ وطفان . . .

سمع هلال وهو يلحق بهم عبارة : الشيخ وطفان ، فسأل خليل : هل هو حقاً كما يقولون ؟ قادر على شفاء المرضى . . . انت شاب عصري ومتعلم . . . ماذا تقول ؟

ــ اقول ما قاله لزوجتي : انا ساحر قادر لأنكم تؤمنون بسحري . .

قالها وهو يقلد صوت الشيخ ، فانفجر الجميع ضاحكين الا الشيخ صخر الذي قال : لا حرمة لشيء عند ابناء هذا الجيل . . .

تدخل هلال : كذب المنجمون ولو صدقوا . . .

قال صخر متحدياً : هذه ليست آية قرآنية . عبارة المنجمون غير مذكورة في القرآن .
ألح هلال : ثمة اشارات كثيرة الى السحر وتذكّر يا خليل ان تزودني بها . . .
دمدم خليل : نعم نعم . وانسحب صقر مسرعاً ، ولحق به خليل . . حين غادرا الغرفة قال له الأول : انها حقاً المرة الأولى لك مع مسحوق النجوم هذا . . . الآن صدقتك . . . كيف جرؤت على تقليد صوت الشيخ وطفان ؟
ــ كدت اقلد صوت والدك ايضاً . . . وعمك . . . واجدادك . .
ــ هيا بنا نغادر هذا المكان قبل ان تفضحني . . .
اخرج صقر من جيبه علبة دواء ، وابتلع قرصاً دونما جرعة ماء واعطى آخر لخليل الذي قال : متشكر . . . لست مريضاً . .
اقلع صقر بسيارته واصر : وأنا لست مريضاً . ابتلعه . . .
فابتلعه واكد : ولكنني لست مريضاً. . .
ــ حسناً سأعترف . انا مريض بحب الحياة . . وهذا دوائي . . . انه يجعل الحياة تتأجج في جسدي . .
ــ ولكنها كذلك . . انت في الثالثة والعشرين من عمرك . . . او اقل . .
ــ ذلك لا يكفي . حبوب التنشيط تفعل فيك ما تفعله انت بالسيارة حين توسع قليلاً فوهة تدفق البنزين . . ويزداد الاحتراق في علبة الانفجار . . .
تأمل خليل يده ، وفوجىء بعروقها زرقاء ونافرة وخيل اليه ان حشرة ما تمشي فوقها تحت جلده ، وحاول طردها ثم نسيها . . .
صقر يقود السيارة بسرعة خارقة . . وخليل لا يشعر بالخوف كعادته بل بالنشوة ـ وهو الذي يكره الذين يحولون الشوارع الى حلبة سباق ـ بل ويتمنى لو يوقفهما شرطي سير ليسخر منه وربما يضربه ! . . . أهذا ما فعله المخدر به ؟
ــ هل انت جائع ؟
ــ لا . .
ــ حسناً لنذهب الى مطعم ولا نأكل . . فالآن موعد الغداء . . .
ذهبا الى المطعم العربي الذي كان يفترض ان يعمل محاسباً فيه وطردوه . . . (الجرسون) المتعجرف لم يظل كذلك حين شاهد سيارة صقر الفخمة . . . بل استقبلهما باحترام بالغ ، وفتح لهما الابواب ، ومد الراحتين ليمشيا فوقهما إذا لم ترض احذيتهما عن

ملمس (الموكيت) ، ولم يبد على وجهه انه تذكر خليل . ولماذا يتذكره ، وهو الذي كان مجرد عاطل آخر عن العمل جاء يتوسل لقمة حلالاً وطرد ؟ . . . شعر خليل بحزن عدواني ، **(لماذا يحتقر ابناء الطبقة الفقيرة بعضهم بعضاً ، ويبادرون الثري باحترام لا يستحقه دائماً ؟ أم أن هذه هي مهنة الفقراء في المجتمعات الاستهلاكية ؟)** . . .

شربا ماء النار ، وطلبا طعاماً لن يأكلاه لأنهما لا يشعران بالجوع . . لكن صقر انب (الجرسون) حين تأخر في احضاره ، وزجره وقرر شراء المطعم كي يطرده . . ثم ضجرا ، وقال صقر : ما رأيك باقتحام بيت ؟

ــ فكرة جميلة . . .

ــ واغتصاب سيدة . . .

ــ اترك هذه المهمة لك . .

ــ ولكنك ستراقبنا . . .

ــ ليس من عادتي التلصص !

ــ ارجوك ان تفعل . . انه يمتعني .

ــ حسناً سأفعل اذا كان ذلك بعضاً من مهنتي ! . . .

ــ ماذا لو كانت السيدة صديقتي الراقصة الفرنسية التي استأجرت لها ورفيقتها شقة فاخرة ؟

ــ الذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه . . .

ضحكا . . .

سأله خليل : هل تعني ذلك حقاً . . .

ــ اجل . . . انه يروقني . . . فكرة الاغتصاب تثيرني . . .

ــ ولكنك تعرفها . . وهي تعرفك . . .

ـ لن تعرفني حين ارتدي ذلك القناع المكسيكي . . ولن تجرؤ على ان تتذكرك فيما بعد . . . سنلهو قليلاً . . .

غادرا المطعم . لاحظ خليل ان يديه كانتا ترتجفان وهو يدفع الحساب . . . قلبه يقرع مثل طبل افريقي في غابة . . المدينة استحالت غابة ويتمنى لو يحمل رمحه ويركض بين الاشجار حتى شاطىء النهر ، يقتل الفهود التي يلقاها في دربه ثم يركب تمساحاً يقله الى الشاطىء الآخر حيث اشجار التفاح والأفاعي . . . يراقص افعى ، ويعصر تفاحة بيده ،

يخمرها تحت الشمس المحرقة ويسقيها لافعاه الزرقاء العينين الناعمة اللسان . . .

يتوقف صقر في مرآب تحت ذلك المبنى الفخم الذي طالما مر به خليل وتساءل من جدير بأن يقطنه ويطل من نوافذه . . . وهو يقطنه . . خليل شخصياً يمتلكه الآن ، ويتحرك نحو النافذة المشتهاة ، الحريرية الستائر يزيحها ويطل منها ليتأمل مشهد البحيرة ويجمعها ومراكبها وسابحاتها وطيورها وخضرتها وازهارها . . كم الحياة حلوة ومثيرة . . .

يستخرج صقر من الصندوق الخلفي للسيارة قناعاً لوجه شيطان ، يرتديه ، ويعطي قناعاً آخر لخليل . . ثم يستخرج سكيناً ومسدساً ، فيجفل خليل ، ويسارع صقر فيطعنه في صدره ، في موضع القلب تماماً بالسكين ، ويغور نصلها داخل مقبضها ويضحك صقر: انها لعبة . . . يستعملونها في السيرك . . وبدلاً من ان يدخل نصلها في صدرك ، يعود الى غمده . . . (**وكانت معظم السكاكين التي هاجمنا العدو بها كهذه . . . سلاح فاسد لرجال حمقى**) . . كاد يغرق في الحزن ، لكن صقر شهر عليه المسدس ، وضغط الزناد ، فغسل الماء وجهه وانتعش ضاحكاً وقد استعاد طفولته . قال صقر . . . « هذا الآخر دمية ايضاً . . تعال نلهو ، ما رأيك بهذا المسدس الآخر ؟» شهره واطلق عليه النار . كاد ضجيج الطلقة وصداها في المرآب يصم اذنيه ، ويغمى عليه ذعراً ، نظر الى صدره حيث اصابته الطلقة فشاهد بقعة سوداء محروقة ولكنه لا ينزف . . ضحك طويلاً . . بجذل : انه مسدس صوتي فقط . فلنهرب قبل حضور الناس والشرطة .

توجها نحو المصعد . ارتدى خليل قناعه وتمنى الا يكون المصعد خالياً من الناس . . شعر برغبة عابثة في ان يخيف شخصاً عاقلاً (أو يتوهم نفسه كذلك) وأن يضحك طويلاً . . . لسوء الحظ لم يلتقيا بأحد في المصعد أو الممشى . . .

فتح صقر باب (الشقة) بمفتاحه الخاص بهدوء لص ، وتسللا الى الداخل . . .

كانت مارلين في دربها الى الصالة حين فاجأها صقر . . . اغلق فمها ، وتولى خليل ربط يديها الى الوراء بزنار ثوبها المنزلي الذي انفتح عن كوكب اشقر الحسن كالعنب الأبيض الشفاف النضر لحظة القطاف . . . ثم تناول منديلاً عقصت به شعرها واحكمه فوق فمها . . . لم يصدق خليل انه يفعل ذلك ، لكنه كان يمارسه باتقان ، كأن المسحوق حوله الى رجلين ، احدهما يعبث كطفل متوحش والآخر يرقبه كمن يرقب فيلماً مسلياً .

حين سمعت تيريزا الجلبة ، تقدمت من الدهليز ، فصوب خليل مسدسه الى رأسها ، وكان صقر يهدد صاحبتها بسكينه . . . قالت تيريزا بصوت هادىء : ماذا تريدان . لا

تؤذيانا وسنعطيكما كل ما معنا . . .

لم يجب أحدهما بكلمة .

لم يلتفت صقر صوب تيريزا وانما صفع مارلين وجرها من شعرها صوب الغرفة الأخرى . صرخت متوجعة بصوت خنقه الذعر .

. . . لم يشعر خليل بالمتعة وهو يرى نظرة رعب حقيقية تطل من عيونها . .

وغاب صقر ومارلين في الغرفة الأخرى وترك الباب مفتوحاً . . . وشاهدها خليل مرمية على الفراش، مملكة من البياض المذعور،عبثاً تقاوم ، وتنهار اسوارها وتفتح ابوابها للغزاة . . . وكان ما يزال يسدد مسدسه المائي الى رأس صاحبتها المذعورة التي حاولت الهرب فصفعها . . (لم اصفع مخلوقاً من قبل . اي وحش يقطنني ، تكفيه ذرتان من مسحوق ابيض ليستيقظ ؟) وغمره خوف مفاجىء من نفسه ، ومنها . . . ماذا لو هربت حقاً واتصلت بالبوليس ؟ . . اهذه نهايتك يا خليل ؟ أهذه نهاية الصمود ؟ . . .

بعد الف سنة ، وربما ثانية واحدة ، بعدما انفق صقر شهقاته ومارلين دموعها ، رفع القناع عن رأسه وانفجر ضاحكاً . . . وانفجرت الراقصتان في بكاء هستيري ، طرب له صقر لكنه صرخ في مارلين مؤنباً : « ايتها الحمقاء . . الم تميزي اسلوبي في امتلاكك ؟ لم أعد ارغب فيك بعد اليوم » ثم التفت وقال لخليل : الآن دورك . . . إذا احببت . .

ــ اشكرك . . في مناسبة اخرى . . سأترككم الآن . . .

ضحك صقر تلك الضحكة الضائعة بين شهقة الجذل والموت ، وقال : احب الرجل الذي يعرف متى ينسحب . . . سنتابع لهونا قليلاً ، فلتيريزا حصتها ايضاً قبل ان اتخلص منها . . تصور . . مارلين لم تميزني . . وانت يا خليل لن اكون بحاجة لحضورك بقية اليوم . . احضر غداً باكراً . . حوالى الساعة الثانية عشرة ظهراً . . .

خلع خليل قناعه وترك مسدسه وغادر المكان . . .

في مرآة المصعد ، خيل اليه ان القناع ما زال يغطي وجهه ، فقد شاهد فيها وجه شيطان . . وسمع ضحكته . . ومن جديد عادت الحشرات السود الصغيرة تركض تحت جلد يده . . .

وغادر البناء وهو يركض مذعوراً وشعر بأنه فقد اعز ما يملكه الرجل والمرأة معاً . . .

مرت به سيارة مسرعة لمح فيها زوجته كفى جالسة الى جانب نديم : امعن النظر ،

لكن السيارة كانت قد اختفت . . انها سيارة نديم . . . انها اوهام الكوكايين . . لا . . نعم . . لا . . نعم . . نعم . .

***

تنهدت كفى بدلال غصن تعب من ثماره ، واشتاق للمسات القطاف . . والريح المجنونة والمطر العابث وعناق العاصفة . . .

(هل كان ضرورياً ان نهدر الوقت في الجلوس على الشرفة والتهام الطعام وشرب ماء النار تحضيراً للجو ؟

ألا يعرف انني (جاهزة) منذ خمسة اعوام ، انتظره منذ غادر خليل جسدي ولم يعد ، يجتاحني طوفان الجوع الى المحاريث والزرع والسنابل وليالي الحصاد وعذوبة الشهقة على حد منجل الحب . . . لو جرني من يدي في الطائرة الى المقعد الخلفي ، لارتميت امامه مدينة بلا اسوار ترحب بالفاتح . . .

صحيح ان الطعام كان شهياً . . . وشرفة فندق الـ (بيل فو) تعتلي امواج البحيرة الخرافية الجمال . . صحيح ان ماء النار يسهل الأمور ، كالحوار اللطيف ، وكلمات الحب الهامسة التي تدغدغ الغرور . . ولكنني تعبت من مرحلة (التعبئة) . . . والمناورات . . متى نقدم على المعركة (بالذخيرة الحية) . .

ــ متى يعود زوجك ؟

ــ لا ادري . . .

ــ ماذا ستقولين له ؟

ــ لا ادري . . .

ــ ستقولين الحقيقة ؟

ــ ربما . . .

ــ ارجوك الا تفعلي ذلك . . . انه الآن يعمل معنا . . . اعني مع شريك الباشا الشيخ صخر وابنه . لا نريد ان تتدخل العلاقات العاطفية في شؤون العمل . . .

ــ حسناً لن افعل . .

ها هو يوضب خط الرجعة . . يمد رأسه من خلف المتراس ثم يحجم . . ما الذي يخيفه ؟ . . وهل عليها ان تجره من مستنقع التفاصيل الى لب الموضوع ؟ . . متى ينتهي من

كتابة الهوامش المملة بالفاكهة والحلوى والقهوة ، ويبدأ بخط تلك العبارة التي استيقظت في قلبها حية نضرة ، كأنها نامت اعواماً ، ثم فتحت عينيها على وقع انفاسه . . . اهو حقاً مرتبك ، ام يتظاهر بذلك ؟ احتراماً لها ؟ تراه يتظاهر بالبراءة ليوهمها انها الأولى والاخيرة والحادثة فريدة في حياته ولن ينسى إلى الابد؟ . ليكن ما يكون ، انها مشتعلة ، ملتهبة ، ولن تستجوب الاطفائي عن اوضاعه العاطفية . . . حسبه ان يطفىء نارها . . .

بعد ساعة ونصف ، غادرت كفى غرفة النوم الفاخرة في الفندق وقد زادت نارها اضطراماً . . . كان نديم رجلاً من القطن . . . أنامله ماهرة في العزف . . انفاسه تعرف اين تطلق صفاراتها . . . لكنها كانت بحاجة الى شيء آخر لم يعد يملكه . . . ما زالت تحبه . . لا تريد ان تفقد هذا الاحساس الجميل ، وستمنحه فرصة اخرى . . .

تحب صورته في خاطرها ، وكان عليه ان يكون في حجمها . . ولم . . .

***

حين انزلها نديم امام موقف التاكسي ، كي تستقل سيارة مستقلة تحملها الى الفندق تنهد بارتياح . . . هذه المرأة الرهيبة بحاجة الى فريق عمل يرضيها . . . في جسدها مجاعة ، وهو منهك . . انها ما تزال « جوهرة خاماً » لما تصقل . . . الخبرة التي اكسبه الزمن اياها لم تعوضه معها عما سرقه الزمن منه . . . وعى للمرة الأولى انه تقدم في السن حقاً ، ولم يعد في مقدوره ارضاء فتاة عشرينية تطل على ثلاثيناتها بزخم شرس . . .

ولكن رغبته فيها تعاظمت . . . لن يهزم أمام اسوارها المرمرية . . .

هل آن الأوان ليلجأ هو ايضاً الى الشيخ وطفان ؟

***

تمدد خليل فوق مقعد الحديقة العامة (الجرانج) ، والغروب بدأ يهبط فوق المدينة ، ودمه يهبط في عروقه بعدما اصطخب طويلاً داخل تلك الأوعية المسكينة كبحر هائج في مضيق . . انتهت مرحلة الطيران والهياج والقوة ، والمياه تنحسر عن الصخور والشطآن والمضيقات مخلفة جثث الاصداف والقتلى وطيور البحر الصريعة وبقايا المراكب . . .

لقد هام على وجهه طويلاً . . كان يحس بقوة خارقة تتفجر من أعماقه ، ونشوة خاصة تلفه . . طاف في جنيف القديمة وازقتها الحلوة ومشى حتى متحف الاثينيه ثم مشى طويلاً من

متحف الى آخر ، ومن جنة الى اخرى ، ودخل معرضاً فنياً ، واستمتع بأصوات التماثيل وحفيف الأشجار في ريح اللوحات ، ومشى ومشى حتى وجد نفسه في هذه الحديقة ، فطاف بورودها النادرة حوضاً بعد آخر ، ولكل حوض اسمه المدون الى جانبه ، ثم تذكر الجثث المكومة في بيروت مجهولة الهوية وبلا اسماء ، تدفن بالجملة في قبور جماعية لا يزيد احدها في اتساعه عن الحوض الخاص بالزهرة المسماة (وردة ماريا كالاس)، فلعن عالماً تعمر بعض اقطاره البيوت للورود وتحيطها بالزجاج والشاش خوفاً عليهـا من البرد ، ولا تجد الجثث في اقطار اخرى قبراً ، ولا اهلها بيتاً . . . وذلك كله يحدث على كوكب واحد . . .

تلك اللحظة داهمه هبوط مفاجىء والشمس تتلو فعل الندامة إثر يوم آخر من المذابح والأحزان شهدتها في أماكن كثيرة ، والغروب يرمي عباءته الرمادية فوق الجراح والافراح معاً . . . وداهمه حس مفاجىء بالبرد والخواء . . بدأ يرتجف . . . غادر الحديقة التي حان وقت اغلاقها ليرتمي على مقعد آخر على الرصيف المقابل للحديقة لصق البحيرة ، وقد ودعه لدى خروجه سنجابان جميلان يطارد أحدهما الآخر فوق شجرة سامقة كأشجار الاساطير بدت اغصانها العليا ممتدة في السماء . . .

ولكنه الآن جائـع . . ومتعب . . . يرتجف بـرداً وفي اعماقـه خواء بـائس وعطش مرير . . استعاد احداث نهاره ، فشعر بخجل حقيقي يزنر صدره . هل يمكن ان يكون قد فعل تلك الحقارات كلها ؟ . . تحسس النقود في جيبه فوجدها . . . إذن فعل كل ما فعل . . اللعنة ! . . .

دخل غرفة الهاتف للمرة العاشرة منذ الظهر . . هذه المرة استطاع ان يتذكـر الرقم الهاتفي لامير . . (**ارجوك يا الهي دعه يحدثني . . . ليكن في البيت . . ليكن هاتفه غير معطل . . . ليت الرقم (يعلّق) . . . هذه جنيف ايها الاحمق ، والهواتف تعمل**) . . .

جاءه صوت امير . . . انهار كمن ادخل رأسه وكتفيه في اطار النجاة وصار في مقدوره الاستسلام لترف اغماءة . . .

ــ ارجوك يا امير . . هل استطيع الحضور . . .

ــ بالتأكيد . . كنت اتوقعك . . .

ــ هل انت وحدك . . .

ــ لا غريب عندي . . . سجل العنوان . . .

التاكسي . شوارع . وقوف . عداد . نقود . مصعد . جرس . . . يرن الجرس عدة

مرات دون ان يلحظ ان الباب مفتوح على مصراعيه . . . وصوت يصرخ من الداخل : ادخل . . ادخل .

***

«لقد تأخر خليل . . . » . . .

تدور كفى في غرفة الفندق الفخمة . . انها قلقة ، فالنقود تكاد تذوي ، ولا امل في مساعدة نديم بعدما حدث اليوم . . . لن تكون بينهما علاقة حب في أي يوم . . تعرف بغريزتها الانثوية ان رجلاً مثله لن يغفر لها لأنها لم تستمتع . . ولم تتظاهر بذلك . . .

لقد اوقفته على الجدار مثل تلميذ كسول في درس الحب . . . فوجئت ، فلم تحسن التصرف . . . لم يكن في مقدورها بعد خمسة اعوام من المجاعة ان تخفي خيبتها بمائدته . . . كانت تظنها عامرة . . وإذا بها حافلة بكل ثمين ، باستثناء الطعام . . .

انها الآن مفلسة . . ذكروها اليوم في الفندق ـ بكل تهذيب ـ بضرورة دفع الفاتورة . . بالاحرى ، تركوا لها الفاتورة مع المفتاح ، وعبارة لطيفة تتوجها ، تقول ما معناه ، «ادفعي أو ارحلي الى السجن » . . . دفعت . . . وتبقى القليل . . ما لا يكفي لأكثر من أربع ليال . . . (**ذهبت السكرة وجاءت الفكرة**) . . . وقد زاد في قلقها ، انها بعد عودتها الخائبة من كوكب نديم ، ذهبت في رحلة اخرى خائبة . لقد فكرت في بيع الخاتم المسروق ، وتسديد فاتورة الفندق ببعض ثمنه ، وعرضته على احد باعة المجوهرات وقلبها ينبض ذعراً . . ادعت انها تلقته هدية ، وتريد ان تعرف ثمنه التقريبي لتحسن رد الهدية وشراء ما يوازيها ثمناً ، فتأمل الخاتم تحت المكبر وعبس وخافت وندمت وتخيلته سيهرع الى الشارع صارخاً «سارقة» ، وينادي البوليس والناس ، لكنه قال : هذه ليست ماسة حقيقية . . . انها زجاج خاص . . . ماس اصطناعي لا قيمة له . . . ندعوه هنا «ديميليت» . . له مظهر الماس ، وسعر الكريستال ! . . .

إذن خسرا خط الدفاع الاخير . . . سيجوعان ، وحين تنتهي الاسابيع الستة في المدرسة ستطالبها الادارة بعشرة آلاف فرنك سويسري للقسط الجديد ، أو تقذف بطفليها في وجهها . . .

«لقد تأخر خليل» . . .

دهمها ذعر . . . كادت تنساه في الايام الماضية . . . كانت ثملة ، ومحفظتها عامرة

وقلبها مترع بخمرة الحب . . . اليوم انكسرت الخابية ، وخوت المحفظة . . . دهمها شوق الى طفليها . . .

اتصلت بالمدرسة هاتفياً . طلبت التحدث اليهما . رفضت عاملة السنترال ، وابلغتها ان الحياة هنا منظمة وثمة وقت محدد لمكالمة الأولاد . . بين الواحدة والثانية في فرصة الظهر ، بعد الغداء . . اللعنة . . . لم يحدث لها من قبل ان حرمت منهما . . اشتعل في اعماقها احساس ملتهب . . . هاجت اشواقها نحو طفليها . . . وخليل . . . يبدو انها لا تكرهه بقدر ما تتوهم . . . ولكنها تكره عالمه وتخاذله وعجزه ، وعدم جرأته على قطف مباهج هذه الحياة التي نمر بها مرة واحدة . . . لا تتكرر. . . طال انتظارها فلجأت الى التلفزيون . . . نشرة الاخبار ، ولبنان يحتل الفقرة الأولى . . . لا تريد ان ترى ملعب العنف هذا بعد اليوم . . . تكره ما فعله به ابناؤه والعرب والغرب والشرق والشمال والجنوب . . . انها تفضل اي مصير باستثناء العودة الى ذلك الجحيم الأرضي ، حيث يقتل الاطفال دونما ذنب . . . هاجمتها صورة وداد . . . هربت منها الى محطة الفيديو التي يبث الفندق عليها الافلام ودونما توقف . . . هذا فيلم عاطفي . . ألان ديلون يقبل كاترين دونوف في باريس . . والسيارة تمضي بهما في شوارع مضاءة نظيفة جميلة . . . لماذا هي محرومة من الحياة في مدينة كهذه مع رجل كهذا ؟ . . . دخلت الى الفيلم . . . رمت بكاترين دونوف خارج الشاشة وحلت محلها . . . انها هي الآن الجالسة الى جانبه في السيارة . . . يضمها ألان ديلون ويقول لها انه يحبها . . . وتتابع معه احداث الفيلم ، ترافقه الى فندق جورج الخامس . . يصفعها . . تصفعه . . يقبلها . تقبله . يتبادلان حباً حاراً مشبوباً ، لا كحب نديم الذابل المتلاشي في غرفة الفندق الأخرى . يأتي الاشرار لاختطافهما . . ما همها ما دامت مع حبيبها . . . يحاولون قتله . . . تمسك بقضيب الحديد الذي تستعمله لتحريك نار الموقد (الشومينيه). . تضرب به الشرير . . . انها بطلة ومعشوقة . .

تدخل عاملة توضيب الغرف فجأة . . .

تترك ألان ديلون وحيداً يواجه مصيره، وتستقبل الخادمة بغضب. تعتذر الأخرى. جاءت توضب الغرفة . لم تجد على الباب لوحة (عدم الازعاج) . تخرج الخادمة. تعود إلى الفيديو. لا تجد ألان ديلون بانتظارها. ذهب. تفكر بزوجها. . . لعله الوحيد في هذه المدينة الذي يهمه امرها حقاً . . انه ليس رديئاً بقدر ما تتصور احياناً. . . ولكنه رجل ضعيف، وهي تعبت من الضعفاء في مدينة متوحشة علمتها عشق الرجال الاقوياء. .

خليل مكسور مثل مركب لفظه البحر العاتي . . تخيلته يأتيها محملاً بثروة من الشهوات والأوراق النقدية . . تحب احلام اليقظة . . (سأغمره بحناني . سيعطيني النقود ويقول انها وسخة. تلتهب عواطفي، واغطي بالأوراق المالية صدري وكتفي. يجفل. . . ويهرب الى النوم) . . آه، ليته يحضر باكراً الليلة. . . انها مذعورة مما ينتظرهما. . . كانت تريد ان تتحدث اليه عن الخاتم المزيف. . هدية رغيد الزهران الى دنيا الغفير، وتخبره المفاجأة الكبرى: الخاتم السوليتير فصه من (الديميليت) لا من الماس! تعرف ان ذلك لن يدهشه. . لعله سيشعر بالشماتة. . . او عدم الاهتمام. . حتى لو ايقظته ونقلت اليه النبأ، سيعود الى النوم واللامبالاة تقطر من صوته. . . لن يقفز في الهواء، ويترنح من اثر الصدمة كما حدث لها. . سيقول ببساطة: هل يدهشك ذلك حقاً؟ ماذا تتوقعين من اناس كأولئك؟ وسيرجع الى النوم. . .

احست بالزلزال. . . بصفارة الانذار الأولى تنطلق داخل رأسها، وبالارض لم تعد صلبة تحت قدميها. . .

كانت تظن انها عادت الى الأمان، ووجدت قومها الذين تنتمي اليهم اصحاب الأصول وأولاد الحلال . . .

وإذا بهم. . .

كانت تظن انها امسكت بحلمها بعد طول عناء. . .

وإذا بها تتجسس عليه، وتكتشف انه مخيف هو الآخر. . كأنه مرادف بمعنى ما لكوابيسها. .

إذن اولئك الناس ايضاً. . . .

سقطت في هوة ذعر غامض. . . وعت للمرة الأولى انها هنا أيضاً تمشي في حقل ألغام لكنه من نمط آخر. . . وانها هربت من كوابيس الوطن لتكتشف كوابيس الغربة. . .

وجاءها صوت من اعماقها ساخراً (لكنك سرقت الخاتم، هل نسيت ذلك؟). .

ربما كانت لرغيد الزهران اسبابه الخاصة لاهداء دنيا خاتماً مزيفاً، وربما كانت دنيا تدري ذلك . . . (تلك قضية شخصية بينهما ما شأنك انت بهذا كله ؟ . . وإذا وجدتهم اشراراً فتذكري انك اسوأ الجميع . . . حتى الآن) . .

***

باب بيت امير مفتوح على مصراعيه ، كذراعين خشبيتين ترحبـان بأي قـادم . . لا « احتياطيات أمنية » ولا حراس بالرغم من محاولة اغتيال امير الفاشلة . . .

دخل متردداً . بدا المكان لعينيه مثل فندق ابيض . . والرجال جلوس في حلقة على الأرض كما في بيت جده في القرية . . عبثاً يركز نظراته في وجوه الحضور . . انه منهـك ومسحوق مثل حبة توم في جرن . . دار على عقبيه وفكر بالهرب . . غمره ذعر مفاجىء جوهره الخجل . . يد على ذراعه . . وأمير يجره الى الداخل مرحباً . . .

طالعه وجه نسيم ولم يدهش ولم يتضايق . . شاهد وجهاً آخر لا يعرفه ، ووجه مستدير مرهف ركب فوق جسد مستدير هائل السمنة . . واحدهم ينادي تلك الكتلة اللحمية : يا بسام .

انتقل من منتهى الذعر الى اقصى الطمأنينة . . امير هناك واصدقاء أمير احبابه . . .

غمره ارتياح عميق كمن عاد إلى وطنه . . واسترخى في مقعد شبه منعزل قاده اليه امير في احدى الزوايا . . تأمل المكان . . . لا اثاث غيررف الكتب ، والارائك على الارض . . لكن الجدران بيضاء ونظيفة ، وهو عبثاً يركز نظراته في تلك الخارطة على الجدار المقـابل له . . . لا يدري لماذا تخونه حواسه كأنها خجلة به . يلمح عبر الباب المفتوح غرفة نوم فيها فراش مد فوق الأرض . . بل مجموعة من (الفرش) كما في فندق للفقراء . . تذكر بيت جده في القرية واغمض عينيه . .

قال امير : تبدو في حالة بائسة . . .

نهض الرجل البدين واحضر له كأساً من الماء وقال له عابسـاً : انا بسـام . . بسام دمعة . . .

ـ شكراً لك . . . اعني . . . تشرفنا . . .

ابتلع كـوب الماء دفعـة واحدة . . انتعش قليـلاً . . . بسام دمعـة . . . يذكـر هذا الاسم . . . قال بسام ورائحة الخمرة تفوح من فمه : هل سمعت بي ؟

ـ أجل . . .

ـ تذكر اين ؟

ـ لا . . . اظن انك الفت كتاباً ما . . .

ـ ارأيت ؟ يتذكروني كما يتذكرون الكتاب الاموات . . قلت لكم انني مت وانتهى الأمر ، لكن احداً لا يريد ان يصدق . . .

ـ معذرة . . . لو سألتني في وقت آخر ربما لتذكرت . .

ـ لا . . . كنت انت مراهقاً يوم مت انا . . . لست من الجيل الذي يعرف حكايتي . . . ثم انني قضيت الاعوام العشرة الأخيرة في جامعة كامبردج وسواها .

ـ كان يعد اطروحة للدكتوراه . . انه محام لامع ايضاً . .

ـ لم اكن احضر شيئاً حقاً . . كنت هارباً بانتظار زمن افضل . . . يأتي الشبان ويتخرجون وينتشرون في الكرة الارضية يفعلون شراً او خيراً وانا انتظر زمناً يناسبني . . عصراً يتلاءم ومزاجي الخاص . . .

قال امير بصوت حازم : كفى يا بسام . . .

اصر بسام ثملاً : اريد ان اعرف بنفسي . . انا هارب من الوطن العربي منذ عام ١٩٦٧ . . منذ نشرت كتابي « نقد العقل السلفي » . . وهارب من لبنان منذ عام ١٩٧٥ . . احب النضال بالمراسلة ، لا لضرورات المرحلة ، ولكن لأنني جبان . . اكتب الرسائل الى اصدقائي واحدثهم عن ظروف النضال الصعبة في انكلترا وسويسرا . . واتاجر بأمجاد كتابي الأثري « نقد العقل السلفي » . .

مد يده ليتناول كأساً اخرى من النبيذ ، فانتزعها منه نسيم حين اشار اليه امير بذلك . .

ـ انك مرهق . . لماذا لا تجرب النوم ؟

ـ سأذهب لأكتب قليلاً في مؤلفي الجديد . . . الم تقرأ مؤلفي الأول . . . والأخير ؟ . . . آه . . . نسيت انك كنت طفلاً يومئذ . . . اللعنة . . كم تكبرون بسرعة . . .

امسك به امير ، وجره من يده الى الغرفة المجاورة . قال نسيم : انه يستضيفه عنده منذ عام . . . سكير طيب القلب مفكر مهدور . . .

ظل خليل صامتاً . . . منهكاً كنورس طار عبر عاصفة رعدية واحرق البرق جناحيه . . . سأله : ما بك يا استاذ خليل ؟ . .

ـ كما ترى . . .

ـ هل تريد مزيداً من الماء ؟

ـ ارجوك . .

دخل امير وقال : نسيم شاب شجاع . . . انه يعد اطروحته سراً . . ارجوك الا تطلع

رغيد على ذلك . . . فالوقت غير مناسب لطرده . . . فهو المعيل الوحيد لأسرة كبيرة مهجرة . . .

قال خليل كمن يدفع وصمة : انا اشي بنسيم عند رغيد ؟ . . . اموت جوعاً قبل ذلك !

ناوله نسيم كوباً من الماء وقال : اعرف انك لن تفعل . . . واردف مشيراً الى ليلة العشاء في بيت رغيد : لقد انصت الى ردك عليه ويدي ترتجف بالقهوة . . . اخبرت امير بالأمر . . . وكيف دافعت عن قضية فلسطين وسط استنكار الجميع لافسادك مزاج الباشا رغيد .

. . . خليل ابتسم بوهن . . . حاول ان يقول انه قتل رغيد في لحظة حلم . . ولكن عجز عن شرح امر معقد كهذا . . . تمنى ان ينقل لهما حواره الصامت ورغيد تلك الليلة . . ولكن . . قال امير : ماذا بك . . تبدو وكأنك تعمل حمالاً في مرفأ هونغ كونغ . . .

ـ يا ليت . . . يا ليتني كذلك . .

ـ ماذا حدث ؟ . . .

قال نسيم معتذراً وقد لاحظ عزوف خليل عن الكلام امامه ، وحدس انه يخفي سراً ما :علي ان امضي الآن . . .

سأله خليل : كنت في اجازة ؟

ـ لا . . . بصفتي « معاون ساحر» ، كنت احضر خفاشاً للشيخ وطفان . . . اشتريته نهاراً ، ثم تذكرت ان بوسعي الادعاء ان ذلك غير ممكن الا ليلاً . . . وانتهزت الفرصة للحضور ، كما افعل دائماً كلما طلب الي احضار خفاش او جرذ او قنفذ . . . لولا الساحر لرسبت . . .

ـ لماذا الخفاش ؟ . .

ـ سيكون بحاجة اليه لشفاء « بحرية » احدى قريبات رغيد الزهران . . . فقدت اسرتها في الحرب ففقدت النطق وضاع عقلها ، وسيأتي بها لتبنيها . . . انه ملاك كما ترى ! .

قال خليل : انه كاذب . . بحرية ليست قريبته . . مجرد تشابه في الاسماء استغله نديم . . اكتشفاها في احدى الصحف ، والله وحده يعلم كيف سيستغلانها . . .

ـ مبدئياً لتلميع صورة رغيد البشعة . . . وبعد ذلك سيوظفانها فيما تصلح له . . .

ـ اللعنة . . .

قـال امير لنسيم مـودعاً : اذن اتفقنـا على مـوعد انـطلاق التظاهـرة . . . بـاشـروا بالتنظيم . . . قم بما تستطيع من اتصالات . . . وغداً يصحو بسام وقد يقوم بواجبه . . . ساتحدث الى خليل بالامر . . . اعتقد انه سيساعدنا . . .

ـ انه واحد منا . . انا واثق من ذلك . . .

مضى نسيم ، واقترب امير من خليل وسأله بغتة : ماذا تعاطيت ؟ انك منهار . . . ماذا فعلت بنفسك ؟

ـ الكـوكـايـين . . . وقـرص دواء منبـه لا اعـرفـه . . اشعـر بـوجـع في حنجـرتي كـالاختناق . . . منـذ الشمة الأولى دهمني شلل في حنجـرتي وعجزت حتى عن ابتـلاع لعابي . .

ـ هذه هي المرة الأولى ؟

ـ اجل . . .

ـ هل خلفتها كوارث قضائية . . اعني متاعب مع البوليس ؟ . . .

ـ لا . . . اغتصب صقر عشيقتيه بعدما اقتحم شقته الخاصة ، وساعدته في التهديد بالسكين والمسدس . . .

ـ هذا خطير . . .

ـ انها دمى . . . كان يرتدي قناعاً . . كنا نرتديها . . ويريد اللعب . . .

ـ شاركت ؟

ـ لم استطع . .

ـ طردك من العمل . . .

ـ سر بتقاعسي . . بدا اكثر فحولة . . اجزل لي العطاء . . .

ـ كوكايين . . . هل تعرف ان هذا امر بالغ الخطورة ؟ . . .

ـ اني منهك . . .

ـ يجب ان نجد لك عملاً آخر . . .

اخرج النقود من جيبه والعلبة الذهبية وكومها عـلى الارض امام امـير ثروة صغيـرة وسأله : اي عمل يدر عليك هذا في يوم واحد ؟

سارع امير الى تغطيتها عن عيون الحضور ، وكانوا لاهين عنهما بحوار يعلو ويخفت كالهدير .

تابع امير : وهل انت بحاجة اليهـا . . . هل تـرغب انت ايضاً في ان تكـون ثريـاً كنديم ؟ .

ـ لن يضايقني ان اكون ثرياً . . . ولكن . . ليس على هذا النحو . . .

ـ لماذا الثراء ؟

ـ نفقـات اولادي في المدرسـة . . وزوجتي . . ملابسهـا . . حـلاقهـا . . الفنـدق الضخم . . . سينتهي بي الأمر الى السجن اذا لم احصل على المال . . .

ـ اهدأ قليلاً . . ستتدبر الأمر . . .

ـ ليتني اجد شقة متواضعة . . . واترك العمل عند اولئك الناس . . .

ـ هذا صعب . . في جنيف لا يؤجرونك شقة غير مفروشة الا اذا كنت تملك اجازة عمل واقامة . . .

ـ ماذا افعل ؟

ـ سافكر بشيء ما . . . قالها امير وقد لاحظ انهيار خليل واستحالة متابعة اي حـوار منطقي بشأن التخطيط لحياته : بالمناسبة ، هل تقضي واسرتك اجازة نهاية الاسبوع معي وبسام ؟ . . . سنذهب بالقطار او الباص الى احدى القرى الهادئة . . .

ـ اذا سمح لي صقر باجازة . . . لقد افهمني نديم ان اجازاتنا هي مـواعيد نـومهم فقط . . .

ـ اسمـع يا خليـل . . . سأسـاعـدك ، وكي انجـح في ذلـك اريـد منـك الا تمس الكوكايين . . . تظاهر بانك تشاركه ولا تفعل ، ريثما اجد لك عملاً آخر . . عملاً شريفاً يدر بالتأكيد نقوداً اقل بكثير . . .

ـ ساقنع زوجتي بان ذلك افضل لنا . . . لكنني لست واثقاً من انها ستفهم . . . ثمة شيء آخر مروع نسيت ان اصارحك به . . اظنني شاهدتها ونـديم في سيارتـه . . أظنها تخونني . . .

ـ هل شاهدتها قبل ام بعد تناولك المخدر ؟

ـ بعده . .

ـ لعلك كنت (تهلوس) . انك منهك . . . اذهب ونم . . . دعني اتدبر الأمر . . .

فقط ، لا تتناول الكوكايين ولا تبتلع تلك الحبوب . . . في افضل الاحوال ، سينتهي بك الامر الى مصح ما ، هذا اذا كنت تملك نفقاته . . .

ضغط امير زر التلفزيون وتابع يقول : اننا ننظم تظاهرة عربية احتجاجاً على غزو اسرائيل للبنان . . . الصمت الجماهيري العربي مخجل حقاً . . .

همهم خليل ، ولا يدري اذا كان قد اصدر صوتاً مسموعاً :

البعض تبلد . . والبعض الآخر مقموع وممنوع من ابداء رأيه . . .

بدأت نشرة الاخبار الاخيرة . . . غرق خليل في مستنقع الرمال المتحركة ثم طفا . . . غرق وطفا . . . وشاهد طائرات في مطار بيروت الدولي تحترق وعليها شارة شركة (الميدل ايست) المألوفة . . . تذكر انه شاهد الطائرتين تجثمان على ارض المطار لحظة اقلاع طائرته الاخيرة . . . تذكر القصف ، والمطاردة . . . غمره حزن عميق . . . روى ما حدث له لامير بصوت لاهث متقطع . . روى كل شيء منذ البداية او احدى البدايات . . .

قال الآخر : انها الخطة . . . ان يطارد بعضنا بعضاً بينما يتابعون هم ابتلاع القتيل والقاتل معاً . .

غمرته من جديد الرمال المتحركة . سمع امير يتحدث على الهاتف طالباً حضور سيارة تاكسي . . قال : افضل ان امشي . . . اشعر انني محاصر . . سأختنق . .

ـ كيف تمشي ، وانت لا تقوى على الوقوف ؟ . . . اتصل بي غداً ، حين تكون صاحياً ، وستحدث بالتفصيل عن التظاهرة . . .

ـ سأفعل بالتأكيد .

ـ لست مضطراً . . .

ـ انني مضطر . . . كي لا انسى من انا . . .

●●●

تناول رغيد طعام الافطار في فراشه . . بدأ بالبيضة التي حملها اليه نسيم من ساحره وعدداً من حبات الحمص . . بيضة مسلوقة كتبت عليها عبارة ما بخط طلسمي . . لم يحاول قراءتها كي لا يبطل السحر . . كان قد طلب من ساحره وصفة لحل المربوط وفسخ السحر ،

فما دام هو يسحر خصومه ، لماذا لا يكون لخصومه ساحر خاص بالكيد له وإيذائه؟

ابدى مخاوفه هذه للشيخ وطفان ، فطمأنه . . . وازدادت متاعب نسيم . . . كان عليه ان يحمل الحمص الى غرفة الساحر ، واناء من الرصاص . . . كتب الساحر طلسماً في قعر الاناء ونقع فيه حبات الحمص . . . اما البيضة المسلوقة فكتب عليها في اليوم الأول عبارة « سحروا اعين الناس الى عظيم ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » ، واكلها رغيد بشراهة ، وكتب عليها في اليوم التالي « او لم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » ، وكتب عليها في اليوم الثالث « كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز » . .

وكان لا بد من حمل اناء « السلق » الى الساحر ليكتب في قعره اشياء وطلاسم ، ونسيم ينتقل بين المطبخ وجناح الساحر منهكاً ، ويمعن النظر في قعر الاناء بينما النيران تتأجج تحته والماء يغلي والبيضة تقفز مذعورة ويخيل اليه أن في داخلها صوص ينادي طالباً النجدة من هذا الجحيم ، واحياناً يحس انه هو حبيس تلك البيضة وللصوص الاصفر الصغير وجهه ، ويقرأ في قعر الاناء عبر الابخرة ، (. . . بطلته عنك بالواحد وما عمله لك الاثنين ابطلته عنك بالاثنين الليل والنهار وما عمل لك بالثلاثة ابطلته عنك بالثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وما عمل لك الاربعة ابطلته عنك بالاربعة التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم . . .) . . .

ونسيم قلق على اسرته في بيروت ، ولم تصله اخبار اخوته التسعة ولا يدري احياء هم ام اموات ، يركض في دهاليز العصور الوسطى لقلعة الذهب يتلقى الاوامر العجيبة ويلبيها ويزيح عينيه كلما دخل غرفة الساحر عن الكرة الزجاجية اللعينة ويتذكر شاشة التلفزيون الزجاجية ووطنه يحترق داخلها . . . ورغيد يطلب معونته لارتداء القميص الثقيل الواقي من الرصاص قبل مغادرته قلعته ، وليعلق في عنقه وعلى صدره عشرات التمائم والادعية والطلاسم التي اعدها الساحر الاعظم . . . كالاوسمة .

احقاً يحدث هذا في عصرنا ؟ طالما دهش نسيم ، بل انه ظن الامر في البداية نكتة ، لكن امير اطلعه على ان زبائن الساحر يأتون من فئات الشعب كلها . . . سياسيون وقادة وزعماء ، ثوار ورجعيون ، اغنياء وفقراء ، عباقرة وحمقى ، راقصات ومحصنات ، عجائز وفتيات . . .

احقاً يحدث ذلك له ؟

منذ أيام حمّلوه صورة رجل بدوي مهيب الطلعة وطلبوا منه الذهاب الى فنان لنحتها على الشمع الخام ، وفعل ، واول البارحة طلبوا منه احضار لوح رصاص صغير وحنتيت . . . وفعل . . انهم يحرقون دمى الناس لاحراقهم بالحمى ، ويرسمون صورهم على الرصاص ليفتت الصداع رؤوسهم . لطالما فكر بمغادرة هذا المكان قبل ان يرتكب حماقة ، والاقامة موقتاً في بيت امير ، بين المساكين والمرفوضين ، والمتعبين ، حيث يأتي متى يشاء ، ويمضي متى يشاء ، ولكنه بحاجة الى المال . . . وقد يضطر للانفاق على اخت جريح في بيروت . . . او جنازة شقيق . . . انه قلق قلق قلق . . الصحف لا تتحدث عن الاموات هناك الا بالارقام . . . ولكن اهل الضحايا يشتهون معرفة الاسماء حرفاً حرفاً . .

هذا العالم يتابع هذيانه العصري و « العصر ـ وسطوي » ولا يبالي حقاً بالقيم التي يتشدق بها . . لا يبالي بالقتيل الا اسرته . . . الكل يتشدق بالانسانية وينسى الانسان ، ويحب شعوب الأرض ويكره الناس . الزعماء يناضلون لأجل الجماهير وينسون الافراد . . . صحيح ، (**لا يحن على العود الا قشره**) . . .

تنفس الصعداء حين تأهب رغيد لمغادرة المنزل ، لكنه بدل رأيه فجأة . . . قال انه يريد اجراء مخابرة هاتفية ، وقد يزور جناح الساحر ، والقميص المضاد للرصاص ثقيل يضايقه . . . وكان لا بد من تكرار طقوس خلع الثياب . . .

(**اللعنة ، ما اقسى ذل اللقمة . . .**

لماذا اخترت الدرب الصعبة ، ولم اعمل ساحراً مثلاً ؟ اقتني بعض الكتب الصفر وانفذ التعاليم بحرفيتها ، واريح رأسي وجيبي ، ويرضى عني الجميع ، اليمين واليسار ، الرجعية ومعظم الثوار . . .

فات الاوان . . فقد اجتزت العتبة في الدرب نحو خرم الابرة) . . .

***

ـ يلو نديم . . ما اخبار خليل عن آل الغنمالي ؟

كانت له طريقة خاصة في لفظ عبارة آلو . . . يقولها بلا مبالاة فتتحول الى يلو . . وهذه الـ « يلو » ترعب نديم . تعني ان رغيد غير راض وسيثير المتاعب .

ـ صحته غير جيدة . . . هلال يتأهب للسفر ، وهو مصر على تلزيم المطار لسوانا في مناقصة علنية . . .

ـ نشترك فيها وترسو علينا . . .
ـ سيتدخل ضدنا . . .
ـ هل جربت الراقصة ؟
ـ فشلت ، هلال رجل فاضل حقاً . . .
ـ يا له من وغد ، لا يحب النساء . . .
ـ يتزوج بالحلال . . . لم يستطع جواسيسي التقاط نقطة ضعف واحدة ننفذ منها إليه . . .
ـ غير ممكن . . جرب الغرور وحب العظمة . . ارسل اليه بحلوة لتؤدي « نمرة » الصحافية . .
ـ جربت . رفض مقابلتها . . .
ـ دعه يراها . . فقد . . .
ـ ارسلتها الى قاعة الانتظار عند طبيبه . عرفته على نفسها وطلبت حواراً . صرفها بكل تهذيب .
ـ وصخر ؟
ـ عاجز امامه . . . هلال الاقوى . . . الناس معه ، وكلمته محترمة . . صخر يكاد يكون منبوذاً من قومه . . .
ـ هل يحاول حقاً اقناع شقيقه اللعين ، ام انه غير مبال بمليار جديد ؟
ـ يقول خليل انه يبدو لا مبالياً . . . انه لا يكرهك ، لكنه فيما يبدو لن يدخل في شجار واخيه لأجلك .
ـ ساخرب بيته . . .

كان نسيم ينصت الى المخابرة (مصادفة) . . وفرك يديه بسعادة وقال : بدأت حرب الديناصورات . . سأنقل النبأ الى امير . .

هرول رغيد الى ساحره بعد المخابرة الهاتفية المخيبة لآماله .

ـ ارجوك ، يا سيدي . . . اريد خراب دار العدو الذي كنت اظنه صديقاً . . . لا اريد شيئاً اكثر مما اريد ذلك . . . اريد خراب بيت صخر الغنمالي وشقيقه .
ـ هذا طلب كبير . . سينفذه الاسياد شرط ان يكون عادلاً ومحقاً . . . ما انا الا اداة . . .

انهمرت دموع رغيد وكان قادراً على البكاء حين يشاء لاتفه الاسباب : انه طلب محق . . وعادل . . قال الساحر محذراً : لهذه القوى حكمتها وأسرارها . . انا اعمى وهي تبصر . . . انا جاهل وهي تعرف . . . ستنفذ المطلوب حرفياً . . . انا وسيط ، وهي الصاعقة التي تختار ما تضرب . . انك تطلب خراب بيت الظالم وهلاكه . . وسيكون لنا ذلك باذنه ، ولكن هل انت واثق من انه ظالم ؟

ـ بالطبع . . . انه لا يعمل شيئاً لأجل شراكتنا . . ميزته انه ولد في بلد غني ، وتلك صدفة . . . غير ذلك لا شيء . . له نفوذ ، اما الاعمال فأنا انفذها واديرها واهرول ليل نهار ثم يحظى بنصف الارباح . . . والآن يريد التخلي عني ، ولا يبذل اي مجهود جاد للاحتفاظ بصديق العمر . . .

ـ حسناً . . سأفعل . .

ـ ها انا انتظر . . .

ـ سيستغرق ذلك بعض الوقت . . .

ـ سانتظر « ابداً » او « ابدين » او ثلاثة . . . المهم تدمير هلال اللعين . . والانتقام من خيانة صخر لي ، ولا مبالاته بي . . .

***

جلس الساحر وطفان يكتب صامتاً بالحبر الاسود فوق قطعة قماش حمراء . .

« . . . ومكروا مكراً ومكرنا مكراً فانظر كيف كانت عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين . . » .

ثم اشعل ناراً وبخوراً وجاء صوته من كهف مرعبة ، وهبت ريح باردة من انفاسه : « دحا اوف كهل نكر ملود لو يملودكيمل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلك » . . . قرأها ١٢ مرة ، وكل مرة ، كان يبدأها بأحد اسماء الجان ويتلو بقيتها فيها بعد سطراً بعد آخر على النحو التالي ، متبعاً هذا الخاتم (الجدول السحري) الذي توارثه عن الاسلاف والاجداد : «دحاأوف كهل نكر مارد لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلق اوف كهل فكر ملود لو يملود كيحل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلق دحا كهل نكر ملو ديملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل اوهلق دحا اوف نكر ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهل او هلق ادح او كهل

ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل أهلق دحا اوف كهل نكر لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل او هلق دحا اوف كهل نكر ملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل او هلق دحا اوف كهل نكر ملود لو يملود دمصل اهلل ادح اهلل او هلق دحااوف كهل تنكر ملود لو يملود كيمل اهلل ادح اهلل أو هلق دحا اوف كهل نكر ملود لو يملود كيمل دمصل ادح اهلل او هلق دحا أوف كهل نكر ملود لو يملود كيمل بمصل اهلل اهلل او هلق دحا أوف كهل نكر ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح او هلق دحا اوف كهل ملود لو يملود كيمل دمصل اهلل ادح اهلل» .

. . . كان رغيد ينصت اليه وانفاسه تتسارع وهو يتأمل نصف وجهه في المرآة المقابلة له ، وابخرة البخور تتعالى وسعل ، وشعر بحرارة الجمر تحت البخور والساحر يذكي اوارها بغرائب الأعشاب والاخشاب واللبان وفجأة انكسرت المرآة وتصادف ذلك لحظة انتهاء الساحر من تلاوة ادعيته الخاصة بـ «البغضة والفراق والاسقام والخصوم وهلاك الخصم وخراب العدو» . . .

قال رغيد شبه مذعور : سنبدل المرآة . . لعلها لم تحتمل حرارة الجمر ولهب البخور واللبان . .

جلس الساحر منهكاً، كمن حمل جبلاً وطار به سبعة بحار. . .

قال رغيد : هل استطيع ان اطلب شيئاً آخر . . .

ــ قل. . .

ــ لا اريد خراب بيته فحسب ، بل وخراب صحبته وشقيقه التوأم هلال . . .

ــ ولكننا فعلنا ذلك من قبل.

- ارجوك تكراره بطلسم أكثر قوة . . صخر يتحاشى الشجار .

ــ ما اليوم ؟

ــ الأربعاء . . .

ــ حسناً . سأنفذ ذلك الآن . . .

فاحت رائحة لبان وكبريت وزفت وحلتيت وصبر ومر ، وكاد نسيم يسعل في موضعه خلف الباب حيث وقف (مصادفة) وكان يمر بالمكان ولا يقصد التلصص - كما يؤكد باستمرار لأمير : « لدي شهوة لا تقاوم لمعرفة كل ما يدور حولي ، اجدني ، دوماً مصادفة وسط الأحداث» . . وأخرج الساحر حنظلة وصار يعزم ويكتب فوقها وصوته يأتي ويغيب . . .

«هموش مدقهر فشوش . . . مرقوش شقرش شقهورش . . . هموش . . . ما اشنع القتل . . . ما اوفر الخرير . . . ما اصعب عزرائيل . . ما اضيق القبر . . . ما اصعب الفراق عبس وتولى كذلك يولي صخر بن صلفة الغنمالي من هلال بن صلفة الغنمالي ان جاءه الأعمى كذلك يعمى صخر بن صلفة الغنمالي عن هلال بن صلفة الغنمالي اللهم اجعلها في وجهه متعصبة بليدة وعلى ظهرها جلدة فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ثلاث مرات اللهم اجعلها في وجهه كلبة جارية بحق اطاريش ابن مارش توكل بهم يا سلغ يا ابن ملخ الق بينهم العداوة والبغضاء بين صخر بن صلفة الغنمالي وهلال بن صلفة الغنمالي كلما اوقدوا ناراً للحرب اشعلها ابليس بينهم بشره ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب» . . .

استراح الساحر وطفان قليلاً . . . ثم قال بعد طول لهاث : خذ هذه الحنظلة ، وهذه الخرقة الحمراء ، وقل لنسيم ان يدفنها في حديقة بيت صخر الغنمالي . . .

وانطلق نسيم هارباً مذعوراً على رؤوس اصابعه . . . وقال رغيد : هذا الامر سيتولاه خليل الدرع . . .

ــ حسناً . . . هل من شيء آخر اليوم ؟ تمثال الشمع هذا ، هل تريد تنفيذ الحكم به ؟ هل احرقه بعزلة المقابر المهجورة واتلو تعاويذي ؟

ــ اجل . . . انها صورة هلال . . الوجه له . . .

ــ سأنقش عليها ما يلزم ، ثم يدفنها نسيم «في قبر لا يزار» . . . فيصاب صاحب الصورة بالهلاك اذا كان من الظالمين .

ــ اشكرك يا سيدي . . . انه لكذلك . . سندفن التمثال في قبر أم للي سبوك . . لقد اعلمتني انها لا تزور قبر امها قط .

ــ ولوح الرصاص هذا لمن . . . قلت لي انك تريد تسليط الصداع على رأس عدو ظالم . .

ــ هذا لتسليط الصداع على رأس صخر . . وجلس الساحر . رسم جدولاً على اللوح الرصاصي ، وكتب داخل مربعات الجدول ارقاماً وطلاسم واسماء جان وعفاريت وفي المربعات الاخيرة عبارات «اصرعوا . رأس . صخر . ابن . صلفة . » كلمة في كل مربع . . . وعند الطرف الايسر للمستطيل رسم ما يشبه الجدول الذي ينبع ويصب من الضلع نفسه ، وكتب فيه تعاويذ وأرقاماً : دم مرّ ٢١١٩٩ . . .

ثم اشعل بخوراً وحنتيت وقرأ عليه قسماً ٢١ مرة ، ورغيد مستمتع في جلسته المتأججة حقداً ولهيباً ، ثم التفت الشيخ وطفان اليه وقال: دع نسيم يدفنه تحت سندان حداد . . . وكلما ضرب الحداد هوت الضربة فوق رأس صخر اينما كان . . .

سرى الارهاق في عروق الساحر ، وبدا الوهن في ارتجاف صوته ، فقال رغيد وهو يفرك يديه مبتهجاً : معذرة . . اثقلت عليك اليوم . . .

ـ لا بأس . .

ـ هل تريد ان اقلك الى الفندق ؟ اني ذاهب الى المطار . . الفندق على دربي . . .

ـ انا اليوم منهك . . . لست قادراً على قضاء حاجات الناس . . .

ـ طالما رجوتك ان ترتاح هنا . . وتدعهم وشأنهم . . انهم يرهقونك . . . اولئك الناس وتفاهاتهم . . . الصحافيون وملاحقتهم لك لأجل صفحات الابراج . . . انت الآن ثري وفي قمة الشهرة . . لماذا لا ترتاح قليلاً ؟ . . .

ـ . . . . . .

ـ معذرة . . . . علي ان اذهب لاستقبال بحرية . . قريبتي بحرية الزهران . . .

ارتجف الساحر كأن سوطاً لامرئياً لسعه فوق ظهره ، وسأل بصوت واهن · لم تحضر لي اسم امها لاقرأ طالعها . . .

ـ اكتشفت انهم زوروا لها جواز السفر . . . اضطر رجالي الى ذلك ، بعدما تعذرت معرفة اية معلومات منها . . . فالبنت صارت خرساء منذ انهار البناء امامها في القصف ودفن اهلها تحته . . .

ـ اذن لن ندري . . . .

ـ ستقرأ افكارها . . .

ـ سأحاول . . . .

ـ وحدسك ؟

ـ لا يطمئنني . . . .

ـ انها فتاة صغيرة مسكينة . . . . لن تستطيع ايذاءنا . . . على اية حال يمكن التخلص منها في أي وقت . . . .

ـ لا ادري . . .

ـ هل حسبت لي موعد سهرة . . ليلة المليار الأول . . . أعني «ليلة العاشق» كما

اسمتها ليلى السباك واصحابي . . . . بصفتي عاشقاً للذهب . . .

ــ حسبت . . . .

ــ ماذا وجدت . . .

ــ الثامن والعشرون من ايلول ليلة غير مناسبة . . . رغم رغبتك فيها وتفضيلك لها .

ــ لماذا ؟

ــ الافلاك ستكون ضدك . . . .

ــ ما هو انسب وقت . . . .

ــ اقرب من ذلك بكثير . . سأحسبه لك . . .

ــ تأجيل السهرة ممكن . . . وتقريب الموعد ممكن . . . سأطيع كل ما تأمر به . . .

ــ بورك فيك . سأستشير النجوم . . وربما (المندل) ايضاً . .

ــ افعل ما تراه مناسباً . معذرة لانصرافي على عجل . . . نسيت ان اذكر انك مدعو الى السهرة بعد اربعة أيام على شرف قريبتي بحرية الزهران . . . سأقدمها للمجتمع الراقي . .

ــ تعرف انني لا أحضر السهرات . .

ــ اعرف . . . لكنني دائماً حريص على دعوتك . . الى اللقاء . .

ــ رافقتك السلامة . . .

***

بحرية الزهران . . .

صبية جريح ، فقدت النطق فلماذا هو مذعور منها هكذا ؟ . . . لماذا احس بسيخ من النار الحامية في احشائه حين علم بقرب وصولها ؟ . ستكون هنا بعد ساعات ؟ ما شأنه بها ؟

لماذا سرت ريح حارة اطاحت بأوراقه السحرية وزلزلت غرفته لحظة نطق رغيد باسمها للمرة الأولى ؟ . . .

لماذا احرقت صورتها اصابعه ؟ . . . لماذا اعادته الى دنيا المخاوف والقلق بعدما كان هانئاً في جنته بين الشياطين والمردة وإلى جانبه قرينته اميرة الجان ؟ لماذا اعادت الزلزال الى دنياه وهو كاد (يسلو) عنبرة ؟

حاول ان يطمئن نفسه . . . (**ان صورتها تشبه الى حد خارق صورة رفيقتي اميرة الجان التي اخترتها لنفسي حبيبة وقرينة**) .

لا امس انسية ولا اقرب امرأة الا اذا حلت في جسدها .

(اقترب عمي من المرأة الممددة على الأريكة، التي توسلت اليه دواء ضد العقم . . . كنت صغيراً ، ربما في العاشرة من عمري ، اتلصص على مهنة السحر بعدما قبلت امي بأن اعمل مساعداً لعمي . . . لقد حضرت الجلستين السابقتين ، حين ابلغ عمي الزبونة ان عفريتاً يحتل رحمها ويجب طرده . . . في الزيارة الثالثة طردني بعدما حملت اليه زيتاً وطيباً وبخوراً وكبريتاً . . . ووسط الابخرة، والادعية التي كان يتلوها وهو يجس كل عضو من اعضاء جسدها صارت المرأة ترتجف كأن عفريتاً يقطنها حقاً ، ثم كتب عمي نوناً مقلوبة على جبينها وهو يتابع تدليكها حتى موضع اقامة العفريت الذي يمنعها من الحمل ، وتبدل صوتها كأن العفريت صار ينطق من حنجرتها ، ومزقت ثوبها ، فاعتلى عمي العفريت الذي يسكنها ، وصارا يهتزان فوق الأريكة ، والأصوات تعلو . . . والعفريت ينوح ويتوسل وعمي يئن ويصارعه ، والمرأة ترتجف . . وحين دخلت امي وشاهدتها بكت وصرخت ولعنت الساعة التي قبلت فيها بالزواج منه . . . فصفعها وطردها من الغرفة ، وطلب منها الا تتدخل يوماً في طقوسه لطرد الشياطين ومعالجة العقم . . . . وظلت المرأة تترد علينا حتى تم طرد العفريت وحملت . . . . وذاع صيته . . . وتدفقت علينا النساء . . . . وكان لكل منهن علاجها المختلف ، لكنني حين كبرت ، لاحظت ان الجني المشاكس كان ينتقي الجميلات . . . . فيضطر عمي لمصارعته عاري اليدين والجسد) . .

***

لجأ وطفان الى حمامه . . . كان يجد في دفء الماء حناناً آسراً يرأف بأوجاع روحه كلما تنازعتها المشاعر الغامضة . . . وداخل بخاره المعطر ، تحنو نفسه على اغواره المترعة بالشهوات المتناقضة والرغبات . . غطس في الماء الحار المزرق بالأملاح والعطور كمن يلجأ الى بحر رفيق . . لا . . لن يذهب ثانية الى غانية «شارع برن» حتى ولو تقمصتها حبيبته اميرة الجان . . سيداوي نفسه بنفسه (طال بحثي في منطقة «الباكيه» عن المكتبة الوحيدة في جنيف المخصصة لمبيع كتب السحر فقط كما قالت لي عنبرة حين مرت بها مصادفة . لا ادري ما الذي جذبني لمشاهدتها . اخفيت بقية وجهي خلف نظارة سوداء وغطيت رأسي بالعقال وبدوت كأي ثري عربي في عباءتي الحريرية البيضاء المذهبة ، هدية صخر الغنمالي . . طال تجوالي ولم اجد المكتبة ، ولم يضايقني ذلك . . . كنت محتاجاً

للخروج الى دنيا الناس وملامستهم ، انا الذي نشأت في حي شعبي مزدحم وانتهى بي الأمر الى قصر وفندق فخم العزلة . . . سعدت برؤية ربات البيوت حاملات رغيف الخبز السويسري الطويل كالعصا ، راكضات بأرداف انسية شهية . . . والاطفال ، يتفجرون صحة وحماساً . . منذ دهور لم امس طفلاً غير مريض . . . وعند تقاطع شارع برن مع احد تفرعاته ، لمحت مقهى رصيف عند نهاية الشارع يفور حياة وصخباً . . اتجهت صوبه وفوجئت بالمكتبة قربه . . . صحيح انني لا اقرأ الفرنسية جيداً ولكنني افهم بعضها ولا اجهل ايضاً ابجديتها . . . . ثم انني عرفت المكان من الكرات الكريستالية المعروضة للبيع في الواجهة الى جانب كتب رسمت على اغلفتها شارات سحرية خاصة لا اجهلها . . . ودمى . . . وتعاويذ سحرية جاهزة . . . توقفت احدق في الكتب ، والكرات ، وبقية الأدوات العصرية للتنجيم وللتنويم المغناطيسي ، مثل كرات الفولاذ (الستينلس) وأشكال هندسية اخرى متدلية من سلاسل لها قاعدة تحفظ توازنها بطريقة علمية . . . وبينما كنت اتأملها وافكر بتجديد شباب مهنتي وادخال التكنولوجيا اليها ، وربما شراء بعض الكتب الحديثة وتوظيف مترجم وكومبيوتر يساعدني في حساباتي الفلكية ، لمحت في زجاج الواجهة صورة امرأة تتمشى على الرصيف المقابل داخل بقعة شمس . . . كانت بقعة الشمس تحيط بها مثل كرة سحرية زجاجية شفافة مشعة . . . خفق قلبي للرصيف الثاني . . . لم اعد ابصر الكتب امامي ، صرت ارى شبحها حقيقياً أكثر من أي كتاب آخر . . . . امرأة الرصيف الثاني تنادي غابات منسية في اعماقي . . . هجرت رصيف السحر ومضيت الى سحرها . . . شقراء ، هيفاء القامة ، باهرة الجمال . . . ذلك السحر الأوروبي الذي نحبه ونذوب أمام دفء وهجه ونتهمه (منافقين) بالبرود . . . قررت ان اتبعها الى آخر الدنيا ، لكنها طلبت مني ان اتبعها الى غرفتها اذا كنت املك ٣٠٠ فرنك ! . . . فمضيت عنها . . . لحقت بي وقالت : حسناً ٢٥٠ فرنكاً يناسبك؟ . . هرولت راكضاً بعيداً عنها . . ولم اعد الا بعدما تيقنت من تقمص اميرة الجان لجسدها الخارق البهاء) .

خلف وطفان في المياه الزرق دفق توتره ، وغادره شبه مبتهج ، يفكر بمأساته وثرائه وربما بحياة جديدة بعيداً عن ذكريات الوطن ومهنة السحر معاً . . .

فوق مرآة الحمام المغطاة بالبخار ، فوجىء بكتابة ما ، كأنها رسالة خطها الجان بالشيفرة . . . قرأ عبارة : « فلسطين » وتحتها توقيع والده بهجت . . . وعبارة «لبنان» وتحتها توقيع شقيقيه كنعان وغيلان . . . «العرب» وتحتها توقيع شقيقه برقان . صعق ! من

فعل ذلك ؟ انه واثق من ان احداً لم يدخل الحمام . . نسيم ؟ لكنه يخافه ويجهل سره البائس . . . الجان ؟ غير معقول . . . هو يعرف اكثر من سواه ان ذلك غير معقول . . . وحارسه الجني جبار ، الا اذا كان قد بدأ ينقلب عليه ! غير ممكن ام ان ذلك ممكن ؟ ولطول ما عبث بأرضهم وزار مقابرهم وناداهم ظهروا عليه وقهروا عفريته ؟ . . . فتح باب الحمام ووقف على العتبة مذهولاً . طالما كان حائراً ، فهل بدأت مرحلة اليقين ؟ . . طالما ظن نفسه حالماً حين يأخذ بيد رفيقته اميرة الجان ويطوف معها في بساتين المتعة واللذة . . . احلام اليقظة التي لها طعم الحقيقة في نفس محروم منذ طفولته الا في الاحلام . . . فهل بدأ الحلم يصير حقيقته والصحو وهماً عابراً؟ . . . هل ثمة حقاً عالم آخر ، عبث به طويلاً ، دون ان يدري ، وصار من بعض حروفه الخفية وطلاسمه الغامضة السحرية ؟ غير ممكن . التفسير الوحيد المنطقي ، هو انه في غفلة عن نفسه ، مشى كما يمشي النائم وافرغ دخيلة نفسه في المرآة . . . اجل . . انه هو الذي كتب العبارات ما دام لا تفسير منطقياً آخر لذلك . . . ولكن ، لماذا كانت العبارات مكتوبة بثلاثة انماط مختلفة وخطوط مختلفة ، كأنما كتبها اشخاص ثلاثة سواه ، وكلهم له خط يغاير خطه ؟ . . انه واثق من ذلك . . . سيأتي بخبير في الخط قبل ان يفقد رشده ! حدق في المرآة ثانية ليتأكد من ذلك . . كان البخار قد مضى عبر باب الحمام المفتوح . .

وعادت صفحة المرآة فضية محايدة . .

اقلقه هاجس : بحرية الزهران تطأ ارض المطار الآن . يستطيع ان يراها عبر الجدران . . يراها بوضوح ويحس حضورها . . . ولعلها تعي حضوره ، وإلا ، فلماذا كتبت له برقية انذار فوق المرآة ؟ . . .

***

تفجر الحر من كل مكان ، كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء . . . دخل نديم الى المطار بخطى يجلدها الدفء الشرس اللامألوف . . . تنهد بضيق . وقف خلف الزجاج الملاصق لقاعة الوصول في المطار . لقد هبطت الطائرة القادمة من قبرص وبعد دقائق سيرى بحرية الزهران ويعرف هل ارتكب خطأ باحضارها الى هنا ، ام انها ستسهم حقاً في تلميع صورة رغيد أمام الرأي العام العربي ؟ . . العرق يتصبب من جبينه . . حر . . جنيف حارة اليوم كأنما احتلتها رياح صحراوية ، أم هو واهم ؟

شاهد الموظف ترافقه فتاة فارعة الطول . . . وبدت له للوهلة الأولى فتاة خارقة الجمال ، قد يحقق بحضورها اكثر من مغنم . . .

هرع نحو باب الاستقبال . اطلت بحرية . . . مسح العرق المتصبب منه بمنديله الحريري . . اقتربت بحرية . . . وصلت بحرية . . . هبت من شعرها رائحة الغابات ، وسالت من شفتيها انهار اللبن والعسل ، وطارت العصافير من اطراف اصابعها . . . وامتدت في عينيها آفاق بحر دافىء مسكون بالاسرار واللؤلؤ . . . كان ثوبها البسيط الاسود يكاد يتلاشى عند خصرها الضامر ثم يحتضن استدارة تلال خرافية الوهاد ، ويكشف عن جسد فتي نضر مشدود ، وعن آثار جراح لما تندمل . . . جراح دقيقة تكاد تغطي الذراعين والصدر وما يكشف الثوب عنه من حسن ، جراح دقيقة كالمسامات التي تتعرق دماً ، واحسها نائية . . . (**أهذه آثار جراح الزجاج المتطاير ؟**) . . . مد يده لمصافحتها . . . لم تصافحه ، وبدت وكأنها تنظر عبره كما لو لم يكن موجوداً . قال الموظف : انها مريضة . . اخرستها الصدمة . . .

(**هذا جيد اعلامياً . ستتولى شفاء هذا الجمال الحزين**) . مشت الى جانبه نحو السيارة حيث رغيد ينتظر وغير مراسل ومصور صحافي من المجلات والوكالات . . . . ليس واهماً . . . ثمة اتون يشتعل اليوم من شمس جنيف كأن رياح الوطن تزفر انفاسها هنا . . . نظر اليها ثانية ، بدت له مختلفة . . . لم يحسها هذه المرة حضوراً نائياً ، بل شعر بأنها قريبة منه ، وانه يعرفها ، ورقصت داخل عينيها صورة امه ، وسمع في تنهدها صوت تنفس ابيه . . . هاجمته صورة الزقاق البيروتي العتيق حيث نشأ ، والبيت القديم الذي ما يزال والداه يتمسكان به . . . واحس بالندم العميق حينها وعى انه لم يحاول السؤال عنهما . . احياء أم اموات ؟ طمرهما القصف أم ماتا جوعاً ؟ . . . اللعنة . . صحيح انه مشغول ولكن كيف يمكن للمرء ان ينشغل عن أشياء تسكنه حقاً وتقطن اعماقه ؟ أي عذاب يحيط به لحظة يعي انه غرق في التفاهات ونسي الجوهر ؟ . . شيء ما في حضور بحرية كاد يدفع به الى البكاء والندم والحيرة ، وحين حركت شعرها البديع هبت منه هذه المرة رائحة الحرائق والبارود .

وحين استلمها رغيد منه مستسلماً بسعادة لعدسات الصحافة من خلف زجاج سيارته المضاد للرصاص ، مضى نديم الى سيارته مهدوداً ، كمن ضربته صاعقة حارة رعدية واحرقت زينة اشجاره واوراقها واغصانها ، ولم تترك له غير الجذور المنسية يحدق فيها ذاهلاً : آه كيف نسيت ؟ أمي . . ابي . . . بيتي . . وطني . . . اما زالوا احياء ؟ أم قتلتهم

شحنتي الاخيرة للاسلحة ؟ . . .

كأنه في صيف بيروت . . العرق يتصبب غزيراً منه ، وثمة حجر ثقيل يجثم على صدره ويكاد يخنقه . . حجر شاسع مثل «حجر الحبلى» في بعلبك . . آه بعلبك . . . كيف نسي ؟ كيف كيف حدث ذلك له ؟ وما الذي اعاد اليه ذاكرته ؟ . . . اي سحر مر به ومزق الستائر عن ماضيه مثل ضربة سيف عربي في فيلم شاهده طفلاً . . . فيلم علاء الدين ؟ السندباد ؟ . . . (**انني اهذي . . . لدي موعد للقاء عمل بالغ الأهمية وانا جالس في سيارتي اهذي . . . اي سحر لامسني بعصاه اللامرئية ؟**) . . . .

ادار محرك سيارته ، وجهاز التبريد فيها ، وخيل اليه ان الماكينات ايضاً اصيبت بالجنون ومسها سحر غامض . . والا ، فلماذا يزفر المبرد رياحاً حارة وينفخها في وجهه بشراسة ؟

* * *

تفجر الحر من كل مكان كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء .

فرح نسيم بالدفء ، وفاحت رائحة ارض حميمة كذكرى عبير بشرة الام . . . تدفقت الرياح غامضة الحرارة لتطرد الصقيع الشيطاني الذي ينسكب ليل نهار من جدران القصر ولوحاته ودهاليزه وستائره . . . وسارع نسيم الى النوافذ يفتحها وانصب شعاع الشمس نهراً من فرح حنون لا مألوف . .

عبر النافذة ، شاهد السيارة تتوقف . السائق يهرول ويفتح الباب . رغيد (يرتدي) سيجاره ويمد يده ليساعد بحرية على الهبوط ، وهي تهبط دون ان تلتقط اليد الممدودة اليها ، وتكاد تتعثر . . .

هرول نسيم الى الباب مستقبلاً . .

كانت الشمس تطل من خلفها ، وتظلل بعض ملامحها ، ولكن هب حضورها في قلبه المثخن بالغربة ومر على تضاريس جرحه كالبلسم . . . شيء ما في كهارب حضورها يريحه ويوقفه على حافة الفرح والاسى معاً . . .وحينما استدارت وجلست منهكة فوق اقرب مقعد اليها ، انسكب النور من وجهها او عليه (لا يدري) ، وشاهد تلك الملامح باهرة الحسن حتى الغرابة والفرادة ، والانيسة المألوفة حتى انها تذكره بامه وشقيقاته فيغص نسيم ويكاد يبكي . . . فيها شيء غامض كأنها في كل لحظة تبدل وجهاً ، ففي النظرة الثانية اليها لاحظ نسيم جراحها وكأنها لم تكن موجودة لحظة دخولها . . .جراح ورضوض ، كأنما زحفت فوق حطام

الزجاج والليالي عشرة اعوام . . . في النظرة الثالثة لم يـر في وجهها غير شموخ قمم جبلية نائية مثلجة . . . حملته ملامحها ورمت به في قرية من قرى وطنه الجبلية ، وهبت روائح اشجار السنديان والارز ، واصابه ما يشبه الدوار . . . وزجره رغيد طالباً منه الكف عن التحديق بالست بحرية ، طالبـاً منه اعداد الشاي ، واغلاق النوافذ والستائر . . .

ونسيم يغادر الغرفة ، رمقها بنظرة اخيرة ، فشاهد وجهاً جديداً من وجوههـا . . . رمقت رغيد بما يشبه الكراهية ، فتدفق من حضورها بحر عاصف يجتاح الشواطىء ويدمر وفاحت رائحة الامواج في الغرفة وخيل الى نسيم ان الماء المالح يغسل وجهه وهو يغـرق ويغرق . . .

حين عاد بالشاي ، دهش وقد جاءه صوت رغيد مختلف اللهجة حتى كاد لا يميزه . . . كان يسألها عن حالها مرتجف النبرات كما لـو كهربـه حضورهـا الآسر . . . لم تجب بغير الصمت ، لكن يدها كانت ترتجف حين تناولت فنجان الشاي . رفعته الى شفتيها مستعينة باليد الأخرى ، لكنه سقط على الارض وانكسر . . .

وللمرة الأولى لا يزمجر رغيد غضبـاً لتحطيم فنجـان ثمين (روزنتـال) وإنما سـارع للاطمئنان الى ان الرذاذ الساخن لم يحرق قدميها ، وحين اغمضت عينيها فيما يشبه اغماضة اغماء ، صرخ رغيد : اهتف بسرعة الى طبيبي ودعه يحضر حالاً ، وقل للشيخ وطفان ان يهبط الينا الآن . . . هرول نسيم مرتاعاً ، وظل رغيد يتأمل تلك الصبية التي بدت طفلة حين اغمضت عينيها . . وللمرة الأولى في حياته ، احس بطعم القلق من اجل انسان آخر ، باستثناء والده . . . وشعر ببعض الهلع ، وتذكر امه التي لم يعرفها ابداً . . . امه التي ماتت وهي تضعه ، وخلفته شبه اخرس مع النساء حين يتعلق الامر بحديث القلب . . ولكنه لم يشعر مرة بالحاجة الى لحظة حميمة مع امرأة. . . فهو يراهن جميعاً ديكورات حلوة لعالم رجال الاعمال ، او ادوات . . .

مـع بحريـة ، شعر بـالحاجـة الى لغة مختلفـة ، ووعى في اللحـظة ذاتهـا (اميتـه) الانسانية . . .

كل ذلك وهو يتحسس جبينها المحموم بشهوة مكسورة على حافة عتبة الحنان . . . هل يمكن ان يحدث ذلك له حقاً ، هو رغيد الزهران ؟ . . .

***

حدث شيء اذهل نسيم . . .

لقد دخل الى غرفة الشيخ وطفان ، فوجده جالساً امام كرته السحرية ، يحدق فيها كما لو كان يرى عبرها . . . كأنها مجرد اداة للتركيز ، بينما تجوس نظرات الساحر في أماكن أخرى متجاوزة الجدران والمسافات كالحدس والتخاطر . .

وفوجىء بقول الشيخ وطفان : اعرف انك جئت تدعوني اليها . . . لقد شهدت لحظة وصولها الى المطار . . . وشاهدتها تلسع بسوط سحرها نديم فتشله لدقائق . . . وشاهدتها في السيارة تتلو تعاويذها بلا صوت وتشل عقل رغيد وتعميه عن حقيقتها . . . وشاهدت كأس الشاي تتحطم بين يديها لوهج سيالاتها الروحية ، لا لسقوطها على الارض كما توهمتها . . . وشاهدت رغيد يبعث بك إلي . . .

غادر نسيم الغرفة ولم ينبس ببنت حرقة قلب او ذهول او شفة ! . . .

وطمأن نفسه (**لعله كان يتلصص على حضورها . . تلك البنت اللبنانية المسكينة الجريح ، لماذا اعلن عليها رفضه وسحره حتى قبل ان يلمحها ؟ هل يخشى ان تذكره بشيء في وطنه يرغب في نسيانه ؟**) . . . .

***

« اهيموش مدقهر أهيموش مدقهر جمرش جمرش قشقوش قشقوش طهيش طهيش قنش مهرقنش مهرصيعي صيعي » . .

وكان الساحر يقرأ وبيده سكين كتب عليها هذا الطلسم ٤٣١١٩١٩٤٤١١١١١٩ و ١١١١٦١١ هـ هـ ، وقد امسك بيده الاخرى خفاشاً ملفوفاً بخرقة اودعها ثلاث ريشات حمام وفلفلات وثلاث اوراق كزبرة ، وذبحه . . ثم وضع الجميع داخل كوز فخار . رن الجرس ، وطلب من نسيم وضع المزيج في الفرن حتى الحرق ، ثم اعادته . وحين اعاده نسيم ، بخر الساحر الاناء من جديد ، وعزم عليه ، ثم اخذ منه مقدار قمحة ، وطلب من نسيم ان يدسها في طعام بحرية فرفض قائلاً : لا اقدر . . .

قال وطفان : لكني آمرك . . .

اكد نسيم الرفض معتذراً : اخشى ان يصيبها سوء واتورط مع البوليس السويسري . . .

واردف وهو يتجه صوب الباب لمغادرة الغرفة : افعل ما شئت بنفسك . . قال

الساحر : لن يصيبها اي سوء . . هـذا طلسم للمحبة ، اذا تنـاولته فـارقتها عـدوانيتها نحونا . .

ـ ولكنها ليست عدوانية . . . انها صبية مريضة دمرتها الحـرب . . . لماذا لا تـدعها وشأنها ؟

ـ لانها لن تدعنا وشأننا . . . لقد زرعها خصم قوي لنا ، وستجلب دماري والباشا وكل من حولها . . .

ـ انا شخصياً اطمئن اليها . . المسكينة وصلت البارحة فقط منهكة . . دعوها وشأنها .

وغادر نسيم الغرفة نصف مشفق على الشيخ وطفان (**انه فيما يبدو مصاب بجنون العظمة والاضطهاد معاً . . ولا ادري ما الذي استفزه في بحرية المسكينة**) . . .

***

كيف ادس في طعامها طلسم المحبة بنفسي ، وانا لا اجرؤ على الدخول الى غرفتها ؟ . . كيف اقول ذلك لنسيم ؟ . . . من يصدق انني اخشى هذه المجنونة الصغيرة ، التي تدعي فقدان النطق وهي ليست بخرساء . . . كيف اقول لهم انني لا اجرؤ على ان ادس في طعامها بوصفة للمحبة ، علها تحبني وتشفق علي وتكف عن تعذيبي منذ وصولها الى جنيف . . بل قبل ذلك . (**غادر رغيد الغرفة البارحة وخلفني وحيداً معها لأقرأ عليها تعـاويذ تبعـد الكوابيس عنها ، كي لا تصرخ في الليل ثانية وتوقظني وتوقظه . . . وتزرع بصرخـاتها المخاوف والقلق في حياتنا . . . لم نوقظ نسيم ، ولعله لم يسمع صرخاتها في جناح الخدم بالطابق الأول والا لحضر بالتأكيد . جلست امامها . . كان الطبيب قد خـدرها وغـادر الغرفة . . . يا لجمالها . . سبحان الخالق كم تبدو وديعة وهي نائمة كم تشبه قرينتي اميرة الجان ، كأنها تقمصت جسداً انسياً . . . فجأة فتحت عينيها وحـدقت في وجهي . . لا ادري لماذا غمرني حزن عميق . . . بدأت اقرأ تعاويذي لاعادة النطق الى هذا الجمـال الخارق . . . وانا اقرأ شعرت بـأن قواي تخـونني ، والجان ينحسـرون عني ولا يشدون بأزري . . . لم اشعر بالسطوة كعادتي ، بل ازددت وعياً بحقيقتي . . . كنت اقرأ واقرأ واكاد انسى انها امامي واعي كم انا مسكين ووحيد ، سليل اسرة فقيرة من السحرة كانت عفيفة الكف وكنت جشعاً . . كم حاولت مصيراً آخر كاخوتي ، وفشلت ، وكم مارست السحر على مضض وانا اكتب اشعاري سراً فوق الرياح والظلمات والنسيـان . .كم انا**

جبان ، يخيفني عمي ، وتخيفني بيروت ، وكم انا وحيد بعدما احرقوا كل شيء . . كل شيء . . ولم يتركوا لي غير كتب الاسرة العتيقة التي طالما رفضتها من قبل . . احرقوا كل ما لمسوه . . احرقوا كل من احببت ومن كرهت ولم يخلفوا لي غير وريقات الاجداد الصفر . . فهل كنت املك غير اللجوء اليها ؟ . . والآن ، وانا احاول مداواة انسية غامضة ، ماذا املك امامها غير تلك الكتب العتيقة التي قرأت فيها بعد ، وتعلمت ونفذت تعاليمها حرفياً دون ان ادري ما اذا كنت احبها ام لا . . قانعاً بها ، ام لا . . لم اغربل خيرها من شرها ، ولا منطقها من سخيفها ، حملتها كما هي ، وحافظت عليها كما هي . . لم يتركوا لي خياراً آخر . . لم يتركوا لي سواها ، ولـم يتركوا لي طاقة لمراجعتها . . منهكاً كنت ، كغريق لا يستجوب اليد التي تنتشله ولا يناقشها . . بل ينفذ . . وكنت انفذ ، وشياطينها تعاكسني . . تابعت قراءة تعاويذي لاعادة النطق الى هذا الجمال الخارق . . وارتجت الارض فجأة ، وانطفأت الشمعة وعم الظلام وشعرت بانني سقطت في بئر ، وجاءني صوت العفريت الذي يسكنها مقلداً صوتاً مذكراً لا اذكره ، يدعي انه ابي ويروي لي كيف مات في فلسطين حين انفجر المدفع بين يديه وهو يحشوه بالسلاح الفاسد . . . ثم جاءني صوت اخي غيلان ، وهو يروي لي كيف قتل على شاطىء نهر ، وبعض رفاقه ، وكم تعذب ونزف وحيداً وضربه الاسرائيليون فوق جراحه ، ثم تبدل صوتها وكأنها مسكونة بعشرات العفاريت وجاءني صوت كنعان يعوي ألماً والدبابة تطحنه داخل عجينة السيارة ، فصوت برقان يروي لي مصرعه . . كيف قتله اعز صحبه خوفاً من وشاية لم يكن ينوي القيام بها . . . وكم آلمته الرصاصة التي استقرت في بطنه واراحته التي استقرت في اذنه . . ثم اشتعلت بحرية في الظلمة ، وصار لها وجه امي وهي تنتحب وتحترق . . وتلتهب امام عيني من جديد . . فهجمت عليها ، وعزمت ، واستدعيت ملوك الجان ، وقيدتها بسحرهم ودهنت جسدها بمراهمي وعقاقيري ، وعليّ في المرة القادمة غسلها بدم الطيور وانا ارقيها بالبخور ، حتى تهدأ عفاريتها اللامتناهية الاصوات والوجوه . . . اجل . . سأطلب من نسيم إحضار دم ناقة ودم طيور واقيم الطقوس الخاصة بطرد الجني منها . . غادرتها ملطخاً بالمراهم والعرق ، اغتسل واتساءل : من يريد هلاكي ؟ اي جني حقد علي فارسل لي هذه الجثة الآدمية التي تنطق بألف لسان ولسان ؟ . . في البداية ارسلوا خليل لهلاكي وها هم اليوم يبعثون بسحر اقوى في جسد مستكين بكليته لهم . . ولكن لعلها مجنونة ، ومن الافضل ان اداوي جنونها . . ولكن ان كانت مجنونة لا اكثر ، فمن كشف لها اسراري

واطلعها على سر عذابي ؟ ام ان الاصوات كانت تأتي من حنجرتي وانا ساقط تحت سحر نظرتها المظلمة البياض القاتلة ؟ . . هل انكشفت بصيرتي فجأة امام ماض هربت منه ؟ ولماذا يحدث لي ذلك مع وصولها ؟

ما هي بحرية تلك ؟ انسية ام جنية ؟ صديقة ام عدوة ؟ . . ولماذا تعذبني هكذا ؟ ولماذا حدست خطرها لحظة سمعت باسمها وشاهدت صورتها في الصحيفة البيروتية ، كأنني اعرفها منذ دهور ؟ . .

يجب ان يحضر لي نسيم دم إبل وطيور . . . وسأجرب معها تعاويذ طرد الجان . . وسأجرب علاج الجنون . . سأحاول كل شيء دفاعاً عن نفسي امامها والا احرقتني بسحرها ودمرتني لأهيم في ارض الجان لا حول لي ولا قوة ، ذليلاً عاجزاً عن مغادرة المرآة الى الابد ، والخروج الى عالم الناس . . لن ادع تلك الانسية المجهولة باهرة الحسن تدمرني . .

ربما كان من الأفضل تأمين دماء الطيور والابل دونما معرفة نسيم . . سأطلب ذلك الى رغيد مباشرة . . فنسيم الاحمق لا يؤمن بي ، ولا يلحظ انها منذ وصولها احتلته بجني صغير ووظفته خادماً لها . . انها خطرة . . خطرة . . وسأقنع رغيد بضرورة زراعة التباريد بين جلده ولحمه لتحميه منها اذا داعبته وعرته من تعاويذي المزروعة في ثيابه . . سأفهمه ان التباريد في السحر المغربي تحمي الرجل حتى من الموت اذا اصيب بالرصاص . . وهي تعاويذ لا يتجاوز حجمها حبة الفستقة، ولن يؤلمه كثيراً زرعها تحت جلده . . واذا كان جباناً يخشى الألم ، فليزرعها له طبيبه السويسري المعقم بعد تخديره . سأذهب اليه الآن واحدثه بالأمر . .)

●●●

ما زال الحر يتفجر من كل مكان كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء ، ولا حديث لوسائل الاعلام في جنيف الا عن موجة الحر (الكانيكول) التي ضربت هذا الصيف ١٩٨٢ محطمة ارقاماً قياسية لم تشهدها البلاد منذ ربع قرن . . والسهرة عامرة ، والراقصة تتلوى جميلة افعوانية معتقة ، ولعلها نصف هرمة ، كأنها كاهنة العشق المحموم منذ دهور وفيها ما

يتجاوز الزمن الارضي . . والعرق يتصبب منها . يتأملها رغيد دون ان يراها . .

عيناه ممتلئتان بصورة بحرية ، بجمالها الحزين المكسور وجراحها الساطعة ، وفصاحة عجزها عن النطق ، وصراخها المذعور ليلاً وهي تعبر كوابيسها وحيدة دون ان يملك الطبيب لها شيئاً غير الادوية المهدئة والمنومة ، ودون ان يملك الشيخ وطفان غير تعاويذه وذبائحه والدم الذي يغطي به جسدها الخرافي البهاء في ظلمة البخور واللبان ونبض عتمة المخاوف والقلق . . آه ليتها تشفى وتنطق . . لم يعد يعرف بالضبط ما الذي يريده منها . . يريد ان تكف نائية هكذا . . غامضة ، وحزينة وطفلة هكذا . . يريد ان يجد ثقباً في روحها ينفذ منه اليها بطريقة ما . . لا يدري كيف يمتلكها . . لا يدري اذا كان حقاً يريد ان يمتلكها ككل شيء آخر عبر حياته ، ولعل قلقه الفاحش امامها ليس اكثر من شهوة مطلقة للامتلاك . . لامتلاكها هي . . هي المطلق والبساطة . . هي بحرية . . وفيها شيء يتجاوز حسنها الباهر زرع الاضطراب في روحه منذ وصولها . . شيء يجهل اسمه لكنه يؤثر في كل من يـراها بطريقة ما : خليل . . نديم . . للي . . كفى . . نسيم . . كلهم وسواهم احسوا بما يشبه الصدمة الكهربائية امام حضورها حين دفعهم الفضول للمجيء وتهنئتهـا (بالسـلامة) واحداً بعد الآخر . . هل هي حقاً مسحورة كما يؤكد الشيخ وطفان ؟ هل حلت فيها روح شيطانية جاءت تدمره ؟ وان كانت كذلـك ، ما الذي يجعله يتمسـك بها ولا يـطيق فكرة إبعادها رغم ايمانه بالسحر و بصدق وطفان ؟ أهذا هو السحر ؟

الراقصة ما تزال تتلوى جميلة افعوانية . يتأملها نديم بنشوة رغم انه يعلن باستمرار في المجتمعات الراقية انه يحب الباليه ويكره رقص هز البطن . . المدعـوون يصفقون ثملين والاحتفال قائم ، لكن المحتفى بها لن تحضر الحفل . . شعر رغيد ببعض الامتعاض . . كان يرغب في تقديمها للناس ، لا لتشيد المجلات في صفحاتها الاجتماعية بكرم اصله ، وحسن وفادته لقريبته اللبنانية الجريح التي ابيد اهلها ، كما كان ينوي ، ولكن لانه صار يحب ايقاع حضورها الى جانبه حتى ولو كانت قنبلة موقوتة . لقد احضرها كي يمتدحه الناس ويقـولوا : صحيح انه ليس لبنانياً ، لكنه يرعى فروع الاسرة في اي قطر عربي آخر ! . . وها هو يكاد ينسى السبب الاساسي لاحضارها . . . على اية حال ، اشادت الصحافة به يوم استقبلها في المطار ، ونشرت صورهما معاً . . لم يغادر يومها سيارته المصفحة لضرورات امنية ، لكن الصور كانت جميلة عبر النافذة ، على اية حال ستنشر المجلات الصديقة بعض مشاهد الحفل ،وسيذكرهم بضرورة تدوين المناسبة . .يجب الا ينسى مصالحه . . والمليار الثاني

الذي ينوي جمعه كفيل باعادته الى جادة الهدوء البارد والصواب . . . فلينس بحرية وليهتم بشؤونه . . اخرج من جيبه آلة تسجيل صغيرة ، وضغط على زرها مسجلاً الامر . . وقد الصقها بفمه ، حين هاجت الراقصة كما في الزار ، وبادلتها الموسيقى جنوناً بآخر . . هكذا هو طوال النهار ، يملأ الشريط بما يمر بباله من اوامر ، ويتولى نديم التنفيذ . للي ليست سيئة ايضاً . . هي التي تعهدت توضيب السهرة ، وكل شيء مدهش . . الراقصة العربية المعروفة التي جلبتها من بلدها . . والمطربة الكبيرة التي (تصادف) انها تغني في باريس ، فطارت ليلة تمارضت فيها خصيصاً لاحياء السهرة ، بعدما افهمتها ليلى ان رغيد بك سيعوضها عن اجرها من الملهى ، ومن عشيقها الثري ، وحصيلة (الشكشكة) حين يدس الزبائن المعجبون بالنقود بين نهديها .

لأجل تجديد الأواني الذهبية والفضية احضرت للي فريقاً خصيصاً لتلميعها قبل الحفل . . فبدا القصر كتلة مشتعلة من وهج الذهب المطعم بالفضة . . افضل ما في للي انها تعمل بسرعة ، ولا تخلف بقايا . . لقد استطاع انتزاعها من امير ، ولا بد من امتلاكها مرة ، مرة واحدة فقط . . لا يحب الا الصبايا الصغيرات ، ولكن للضرورة احكام ، وسيكون جسدها ساحة حرب لا اكثر يسجل فيها نصراً إضافياً على امير . . سيغرس راياته فوق التلال والوهاد التي طالما جاس فيها امير وقبلها قبلة العاشق لارضه . . سيعلمه ان لا شيء مقدساً ، والكل سواء . . والشيطان هو نفسه الملاك ، ولكن زاوية الرؤيا هي وحدها التي تختلف . .

ثم ان للي لا تبدو سيئة كأنثى . . صحيح ان سر اهتمامه بها يرجع الى انها كانت حبيبة امير . . ولكنها بحد ذاتها ليست رديئة . . ذوق امير في النساء افضل من ذوقه في السياسة . . وهي تبدو بالغة الجاذبية . . ماتت امها ونسى ان يعزيها . . ليته فعل . . بوده ان يرى وجه امرأة قوية مثلها يتألم . . ان متعته وهو يرقب احزان الآخرين لا توازيها متعة . . صحيح ان احداً لا يحبه ، وهو وحيد ، ولكن ذلك بالتالي يحصنه ضد الحزن الذي يجلبه لنا الاحباب حينما يمرضون او يموتون . . من المحزن ان نحب انسياً قابلاً للموت ، ولكن ذلك لم يحدث له من قبل لحسن الحظ الا فيما يتعلق بحبه لنفسه . . حتى بحرية ، لا يستطيع ان يسمي شعوره الغامض نحوها حباً ، ولكنها بالتأكيد تزرع القلق تحت جلده ، « كالتباريد » التي زرعها هذا الصباح في لحمه تنفيذاً لنصيحة ساحره . .

العرق يتصبب من جسد الراقصة ، وتبدو شهية كأنها في رقصتها خلعت عن جسدها

عشرة اعوام من عمرها في طقوس سحرية . .

يلتف حولها جمع من مدعويه . . هذا شريكه الممكن لمشروع جر المياه في احد الاقطار يبدو راضياً . . والآخر شريكه الحالي في بواخر نقل النفط . . والثالث صقر الغنمالي . . يجب ان يرقب معجبيها ، فقد يوظف الامر في صفقة ما . . صقر انسحب سريعاً . . لعله لاحظ انها في سن والدته ، وعاد الى موضعه عند قدمي كوكو . وعادت الراقصة لتتوسط الحلبة بعدما طالبوها بالتجديد . . ها هي ترقص وصقر لا يرفع عينيه اليها . . من الواضح انه معجب جداً بزوجة خليل وهذا امر يمكن ايضاً توظيفه لصفقة المطار اذا توفي الشيخ صخر مثلاً فجأة او في حادث . . اجل كأنه مغرم بكفى التي اختار الحضور لها اسم الدلع اللائق بها «كوكو» واعترضت لأن «كوكو شانيل» نحيلة وبشعة ، واصر الحضور على ان لها ذكاء كوكو واناقتها، وتم تعميد الاسم بزجاجة شمبانيا . . كان يرقب خليل . . لم يبد راضياً عن تحويل زوجته من كفى الى كوكو . . الاحمق . . يبدو من ذلك النمط (العنيد والغبي) من الرجال . . هذا مؤسف لانه ذكي وبريء مما يؤهله للحلول محل نديم وقت يحين الآوان . . يتذكر مشهداً مماثلاً منذ حوالى خمسة عشر عاماً . يوم تم تعميد دنيا نجمة مجتمع ، واسموها (دادو) . . انها تبدو ذابلة مؤخراً ، فارقتها سرعة البديهة وسحر الحضور . . لعلها عاشقة ، تحب شاباً في سن ابنها . . لا بأس ، ستدفع ، وسيطيع ، وستنتعش ثم تنسى . . ام تراها استهلكت نفسها وانتهى الأمر ؟ . . جميلة حقاً هذه الـ (كوكو) ، متألقة سعادة ونشوة في الثوب الذهبي الذي اهداها اياه خصيصاً للسهرة ، وبعث به الى فندقها ضمن اطار خطة رفع مستوى الاناقة لدى زوجات موظفيه الجميلات ، لأغراض كثيرة ، هي في اسوأ الحالات للتباهي بأن زوجات موظفيه ومساعديه يرتدين ثياباً افضل من زوجات موظفي الآخرين . . وخليل (محسوب) عليه رغم انه (رسمياً) يعمل مع صقر . . ونديم كان اول من قدمه للناس بناء على اوامره هو . . احب يومها اجراء تجربة مصغرة هناك قبل ان يغامر بدعوتها . . وها هي كوكو تجتاز اختباراً بعد آخر بنجاح . . الثوب الذهبي اشعلته بوردة حمراء . . وقد رشت شعرها برذاذ الذهب ، وابرزت سحر عينيها بماكياج شفاف ذهبي . . ترى ماذا تفعل كوكو اذا علمت انها صارت جزءاً من اللعبة، وساحة من ساحات اثبات الفحولة الذكورية، وفحولة المال والوجاهة؟ . . لعلها ستستمتع، ولن تفهم (ايديولوجيا) اللعبة . انها ذكية بما يكفي لتجميل نفسها ، وامتلائها دوماً بسعادة خارقة امام اعجاب الرجال بها . . انها فرحة ونصف حمقاء . . ومن الواضح ان خليل يرى

ذلك بوضوح ، ويبدو مهموماً ، وذلك يزيد من جمالها في عينيه . . اجل ، سيتذوقها مرة كصاحب مطعم يتذوق الطعام قبل تقديمه للآخرين . . لن يكتفي (بتقرير) نديم حول الامر ، رغم تأكيداته انها قادرة على التهام شباب صقر في اسبوع . . وبعد كل ما بذله نديم يومها لانجاز المهمة ، بدت وكأنها تنتظر منه ان يبدأ من جديد كما روى له مذعوراً وهو يتوسل جرعة من الشيخ وطفان تعينه على لقاء آخر . سيجربها بنفسه وسيستعين بخبرة الشيخ وطفان ووصفته التي لا تناسب مرضه . . اللعنة على مرض الضغط . نسي ابتلاع قرص الدواء . . اخرجه من جيبه سراً . . لا يجب ان يلحظ احد انه مريض . . عليه اقناعهم جميعاً بأنه سيعيش ابداً ، والا هربت المشاريع . . وعندها ـ يا للمصيبة ـ لن يكون في مقدوره جمع المليار الثاني . . تأكد من ان القرص كان في موضعه المختوم من الورقة . . انه يشك بالناس جميعاً ويخشى ان يستبدله احدهم بقرص من السم . . ثمة من سيقتله ، ولن يجعل الامر سهلاً . . وهو يزيد من تدابيره الامنية يوماً بعد آخر ، ولم يعد يثق حتى بنسيم . . وضيوفه لا يدرون انهم يمرون داخل دهليز خاص بكشف الاسلحة ، يقبع موظف خلف ستارته المخملية لأنهم يكونون مشغولين بتأمل التحف الذهبية على الجانب الآخر . .

انتهت الرقصة . . الجميع يصفق باستثناء خليل . . (**لا يعجبه شيء هذا الشاب الفج**) . . صقر يصفق لجمال كوكو وعيناه لا تغادران تلالها الشامخة . . اللعنة ، انتهى الرقص وضجيج الموسيقى ، والآن يبدأ الكلام وعليه ان يحدث الجميع ولا يقول شيئاً لأحد ، وينصت لكل الهمسات التي لا يفترض ان يسمعها . .

ـ اين ضيفة الشرف ؟ . .

ـ اصيبت بنكسة فاضطر الطبيب لحقنها بكميات كبيرة مهدئة من الفاليوم ، لم يكن يكذب ، لكنه لم يقل لهم ايضاً انه ترك ساحره وهو يعالجها بدم الخفاش والابل بعدما غادرها الطبيب ، (**غطى وطفان جسدها شبه العاري بالدم وهو يقرأ تعاويذه ويرتجف لقوة العفريت الذي يقول انه يسكنها ونسيم يرتجف غضباً كأننا نغتصب اخته ، ولعله كان سيضربه لو لم اسارع لطرده من الغرفة . . هذا الصبي لا يؤمن بالسحر ولا يفهم شيئاً عن القوى الأخرى الغامضة التي تتحكم بهذا الكون . . يظن « رأس المال » وحده المفتاح . .**)

بدا صقر ثملاً بحسن كوكو ، فاتجه اليه رغيد ، واخذه من ذراعه وقرر ان يطلب

مساعدته بخصوص قضية المطار . فمن المتعارف عليه في مناخات كهذه ان كوكو تخصه ، وبدون رضاه لن ينال صقر قضمة من وصاها . . انها تقاليد دنيا رجال الاعمال ! . . ومشيا نحو الشرفة . . . صقر يفكر بكوكو ، ورغيد بالمطار ! . .

وما كادا يخطوان حتى التف حولها عقد جديد من المعجبين الذين له مصالح معهم (انها كنز . . تذكرني بدنيا القديمة . . اما لي فشيء آخر ، ومن الواضح انها ترفض ان تكون دمية او لعبة وتطمح الى ان تكون واحدة من اللاعبين . . انها ذكر مسجون في جسد انثى . .) تضايق رغيد لان صقر شاهق القامة ، وهو لا يحب المشي الى جانب من هو اطول قامة . . واقترح ان يجلسا قليلاً . . وسأله عن سبب غياب والده الشيخ صخر فقال : انه مصاب بصداع أليم .

حلقة اخرى تحيط بالمطربة الشهيرة . . كان خليل قد شاهد صورها فقط ، وذهل وهو يراها عن قرب ، شبيهة بمومياء مطلية بالدهان الابيض وفوق رأسها (باروكة) من القش الاحمر . . هرب بعيداً عنها . . التقت نظراته بعيني دنيا . . شيء ما في هذه المرأة يشده اليها . . شيء ما يميزها . . يرى النساء في هذا الحفل وكل حفل آخر متشابهات جداً . . مازال يعجز عن التمييز بين واحدة واخرى ، كأن لزوجات الأثرياء كلهن وجهاً موحداً تفرضه الموضة على الشعر والوجه . . بل ان لهن وجهاً موحد التقاطيع يفرضه طبيب التجميل على الانف وعلى بقية ملامح الوجه لدى شدّها . . ولهن كلهن التعبير ذاته : السرور البالغ المصطنع ، والود الشديد الكاذب ، والتظاهر بالانصات الى الآخرين بلذة بينما كل منهن تتجول وحيدة داخل خزانة ثيابها . . وتقارن . .

دنيا بدت له مختلفة منذ اللقاء الأول ، وكل لقاء يؤكد هذا الانطباع . . تبدو الليلة حزينة ونائية ، اتجه نحوها ، وكانت تتحدث الى ليلى وظل من النفور المتبادل يخيم على وقفتهما . . سارعت ليلى الى الانسحاب ، قبل وصوله بلحظات . . انها متوهجة وبارعة الذكاء ، ولعلها لا تريد شهوداً على الحوار . . دنيا ذابلة ، تقطر حناناً وهي تحدق في وجهه : كيف حالك ؟

ـ كحالك . .

شعر انه يستطيع ان يحبها ، اذا رمقته ثانية بتلك النظرة الدافئة غير المزيفة . . انه لا يستطيع ان يقاوم نظرة امرأة ناضجة حنون كما تتهمه كفى . . ولعلها على حق هذه المرة على الاقل . .

ـ تبدين غير سعيدة . .
ـ وانت ايضاً . . لا تبدو في قمة السعادة . .
نبشت احزانه . . ما اعظم خبث النساء ، كلمة واحدة ، ويتبادلن الادوار معك . . يستجوبن القاضي والمدعي العام وهن جالسات باسى في قفص المتهمين ! . .
سألته مؤكدة : هذا ليس عالمك . . .
ـ لا . .
تنهدت : وليس عالمي . . انت مازلت قادراً على الانسحاب . . انا تورطت . .
ـ الانسحاب ليس سهلاً . . ثم ، الى اين اذهب ؟
ـ تعود الى بيروت حين تتوقف الحرب . .
ـ لكنني لم اجيء هارباً من الحرب . .
ـ كيف ؟
ـ اضطررت للسفر . . اني هارب من حرب القمع . .
ـ في بيروت ؟
ـ اجل . . كنا نخشى على عروبة لبنان ، وكي نؤكدها قرر البعض ممارسة القمع كمعظم بقية العرب ! . .
ـ لم تعد عروبة لبنان وحدها على المحك ، بل عروبة بقية العرب ايضاً . . ان احداً من القادرين لم يحرك ساكناً . .
ـ انه امر مخز حقاً . . ولم نعد نجرؤ على الافصاح عنه . . صرنا نُقتل بيد اصدقائنا قبل اعدائنا . .
ـ هل تعرف ان الذين حاولوا اغتيال امير النيلي لم يكونوا اعداءه ، بل اصدقاء الامس ؟
ـ اعرف . .
ـ وخلافه معهم كان بسبب الحرية . . لقد تجرأ وانتقد ممارساتهم الارهابية من موقع المحب . . قال انهم يحررون الوطن ولكن من الحرية . . فحاولوا تحريره من حياته !
ـ اعرف . .
ـ بل ان اعداءه قرروا السماح لابنه بالمجيء لزيارته . .
ـ انها خطوة ليبرالية المظهر المقصود منها خلق وهم (الديمقراطية) . . والتظاهر بأنهم يعاملون الناس بالتساوي . .

ـ ولكنهم لم يحاولوا قتله وابنه . .

ـ انهم يذكون نار الخلافات ليدفعوا بسواهم الى تنفيذ ذلك . . حتى اذا انهار كل ما بنيناه ، حتى ولو ثبت لنا ان المرحلة الماضية كلها كانت خاطئة لكنهم ليسوا بالبديل . .

ـ ولكن ، كيف نطالب الآخرين بالوقوف الى جانبنا ، ونحن لا يقف احدنا الى جانب الآخر ؟ . .

ـ نحن ؟ كنت اظنك بعيدة عن ذلك كله . .

ـ وانا ايضاً توهمت ذلك . . . ولكن . . .

ـ اننا ننظم تظاهرة للعرب في جنيف احتجاجاً على غزو اسرائيل للبنان ، ولا مبالاة معظم العرب ، هل تشاركين فيها ؟

ـ لا اجرؤ . . اتمنى . . سأحاول . .

ـ هذا جيد.اذا لم اتمكن من الاتصال بك ، اتصلي بامير النيلي . . ساعطيك رقمه . .

ـ اعرفه . .

ـ كيف ؟ . .

ـ كنا صديقين كما ذكرت لك قبل أن أمضي في درب اخرى . . اعرف رقمه ، بل وعنوان بيته . . وقد ذهبت اليه أكثر من مرة ولم اجرؤ على الدخول . . اظن ان نسيم لمحني ذات يوم . .

اضافت بمرارة شبه ساخرة : هل تعرف انني كنت واحدة من (المناضلات) لتحرير المرأة العربية ، وكنت رسامة هائلة ، وكنت . . وكنت . . .

بدأت المطربة تغني مترنحة فوق صدر ثري عربي وهي تدلله : غالي يا الأسمر غالي/ غالي يا شاغل بالي انت الحبيب الأول / وانت اللي غيرك مالي .

تقزز خليل لهذا النمط من التسول الغنائي المكرر والممجوج لكنه تابع ودنيا حوارهما هامسين وسط صخب المجموعة وزعيق الذين استخف بهم الطرب . . ونهضت كوكبة من المدعوات ، احطن بالمطربة ، نافسن الراقصة هزاً بالارداف والنهود ، وتمايلاً ، وعلى رأسهن كوكو التي بزت الراقصة المحترفة وسرقت النظرات والشهقات والشهوات ، ولاحظ خليل زوجته تمارس (رياضتها المفضلة) ورغيد يرقبها بجذل ، وصقر يلتهمها بنظراته ويفرك انفه نشوة (لا بد وانه استرق شمة كوكايين على الشرفة . لعل رغيد ضيّفه بها قبل ان يشعل السيجار لنفسه) . .

خليل قال لدنيا متجاهلاً قرفه من سلوك زوجته : وماذا حدث لذلك كله بعد زواجك ؟

ـ ظننته انتهى . . ولكن . . .

ـ اين الرفيقات ؟

ـ منهن من تفرغت للانجاب ، او الاثراء . . ومنهن من تابعت . . ليلى مثلاً . . ظلت اصيلة ، ولا ادري ما الذي بدلها . . انها تحاول اليوم ان تكون ثرية وعبدة مثلي ، لحظة بدأت احاول ان اكون مثلها ! . .

ـ كنتما تتشاجران ؟

ـ تقريباً . . سألتها عن امير . . صار اسمه يستفزها . .

ـ وبقية الرفيقات ؟

ـ استطاع زوجي تدمير حلقتي الصغيرة . . معظم ازواجهن صار من موظفي رغيد . . الخوف على الرزق يمنعهن من الاستمرار ، فزوجي لا يخفي عدم تشجيعه ورغيد لهذا النمط من التيارات المتحررة . . لقد وظفوا الازواج لكم فم الزوجات . . وضاقت الحلقة حولي . .

ـ افهم ما تعنينه . . هذا يحدث للرجال ايضاً بمعنى ما . .

ـ لم اكن اظنني سأتبدل . . يوم بدأت رسم الرجال عراة ، هاجمني النقاد ، ولم اجد من يدافع عني غير امير . . قال ببساطة لماذا نصفق لفنان يرسم عارية ، ونرفض فنانة ترسم عارياً ؟ . . المبدأ هو نفسه والمهم هو الفن . . حاكموها اذا كان رسمها عارياً من الفن . . طالما شجعني امير . .

يهاجمها صوت المطربة :

غالي حبيبي الأسمر / يسوي عيوني واكثر / مثل الغزال مضمر / تشغل البال الخالي .

ويلحظان بقرف انها تحاول تقليد لهجة قطر عربي استدراراً رخيصاً لهدايا اثريائه . . تنطلي الاكذوبة العارية ، كأنما يشفع لها عري المطربة ، ويبدأ سباق الكرم على من يدفع اكثر (شكشكة) للصدر العاري . .

يتبادل خليل ودنيا نظرات الاسى . . تسأله : وانت ما حكايتك ؟

يجيبها ضاحكاً : باختصار ام بالتفصيل ؟

ـ بالتفصيل . .

ـ اوصاني ابي القروي مرة ان اقول الصدق . . ولا اقول غير الصدق ففعلت . . هذا كل شيء !

ـ حسناً . . اروها لي باختصار . .

ـ مرة قلت الصدق لصحبي . . قلت لهم : شعاراتكم تنادي بالثورة ، اي بالفرح والمحبة والتضحية والسلام ، واسماؤكم لا تثير غير الذعر . . لماذا انت ابو الاهوال ؟ وانت ابو الجماجم ؟ العنكبوت . عاشق الموت . الدبشة . ابو الرعب . هل نحن عصابة المركيز دي ساد ؟ لماذا لا تتركونني اسمي نفسي : ابو الفقير أو أبو الفرح . ابو الحنان . ابو الشمس . . او شيء من هذا القبيل . . الا تلاحظون اننا نتسبب في قتل عدد هائل من الفقراء والابرياء ولم نقتل مرة (هدفاً) ثورياً حقيقياً معلناً؟ اننا مطالبون باعادة النظر في مفهوم الارهاب (التحريري) . .

ـ ثم ؟ . . .

ـ ومرة شطبت عن هويتي (تذكرتي الشخصية) عبارة المذهب وقررت ان ديني علاقة بيني وبين خالقي . . فصرت اضرب على الحواجز كلها . . ضربني المسلم والمسيحي . . اما بعض الحواجز التقدمية التي تنادي بالعلمانية وغيرها من الشعارات المتطورة ، فلم تكتف بضربي بل كانت فيما بعد تعتقلني وتحقق معي !! . .

ـ ثم . . .

ـ لعلك تعرفين بقية الحكاية من الصحف . . ولكن . . هذه بعض النكات التي دفعت ثمناً لها ضلعاً مكسوراً وشهوراً في السجن . . سأروي لك ما تبقى في جلسة سمر اخرى . .

فاجأهما رغيد بالجرم المشهود يضحكان . . قال لخليل كمن يصدر امراً : زوجتك تتقن الرقص لماذا لا تغني لنا انت ؟

كانت في لهجته رغبة مبطنة في إذلال خليل . . وسارع رغيد الى شده من ذراعه وهو يقول بصوت مرتفع : صفقوا لخليل . . صوته جميل وسيغني لنا . . ولا يدري كيف وجد المسكين نفسه وسط جمع يدفعه نحو منتصف القاعة ، وعشرات النساء ذوات الوجه الموحد يصرخن في وجهه باصوات تلطخها حمرة شفاه دموية : غن لنا . . غن لنا . . التقت نظراته بنسيم الذي كان يدور بالكؤوس على المدعوين . . شعر بدفء صداقة ، بشريان سري يضخ الدم الى رعب وجهه وخجله وحرجه . . ربطت امرأة الشال حول خصرها استعداداً للرقص ، واقتربت منه الراقصة الاخرى المحترفة علناً لتساهم في انجاح (الوصلة

الغنائية) ، وبدأ التصفيق ، وغنى خليل كما كان يغني دائماً حينما يخاف الظلام طفلاً ، ويواجه من يخوفه او يحاول سحقه . . غنى بصوته القروي الاجش فجأة : يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما . . ليس بعد الليل إلا فجر . . (الى آخره) .

ساد الصمت فجأة . . ذهل الحاضرون . . تجمدت الراقصة ، وانصبت على وجهه نظرات العتب سامة كاوية . . حدث ذلك كله في ثوان ، لكن رغيد سارع الى انقاذ السهرة ، صفق لخليل ضاحكاً قائلاً : روحك المرحة شاسعة الخيال . . ورافقه الجميع تصفيقاً وضحكاً ورقصاً وتطريباً ، وكل يغني على هواه . . ونسوا خليل واغنيته . . لكن رغيد رمقه بنظرة ترجمتها دنيا له : يقول انه سيصفي حسابه معك فيما بعد . .لا تخشه . . انه ضعيف امام الصدق . . كل ما في الأمر انه سيدفع المزيد لشرائك . .

وكأنما جددت (نكتة) خليل شباب السهرة ، او استفزت مخاوف سرية في صدور الحاضرين سرعان ما سحقوها بالمزيد من الضوضاء والعربدة والجنون الراقص . . واعلنت « المطربة » انها تملك « مفتاحاً فنياً » هاماً تعتبره رأسمالها الفني . فبامكانها ان تغني اغان خليجية وليبية وسودانية ومصرية ولبنانية وعراقية . . إلى آخره . . فصوتها « جامعة عربية فنية » يجد فيها كل ضالته وهي فخورة بذلك . . وطلب منها احدهم اغنية (خليجية) ، فسارعت الى تلبية الرغبة المذهبة ، وصوتها مدجج باردافها التي تضبط الايقاع . . وتعالت شهقات الاستحسان . . .

وفجأة ، سرى الصمت تدريجياً في المكان واتجهت الانظار كلها نحو السلم الذي يقود الى الطابق العلوي . . وكانت تهبط صبية شبه عارية يغطي الدم جسدها وآثار جراحها نصف المندملة . .

كان جمالها ساطعاً ومهيباً ، كأنها ترتدي عشرات الاثواب . . شعرها الطويل فاحم السواد متمرد كدهور تتماوج في ليل ، وجهها خال من المساحيق والابتسامات ، خال من تعابير الخير او الشر كالطبيعة ، لكنه يفور حياة رغم النظرة المنومة في عيني صاحبتها . . وبدا جسدها مثل تمثال فني خارق الجمال يعبر عن الشباب ويخلده وثاباً دونما جلبه . . لكنه تمثال مشى غابات من الحرائق والعذابات والاهوال . . ومر بسبع طبقات للجحيم ، ولعله ما زال . .

همهم البعض متسائلاً : أهذه احدى مفاجآت رغيد الحلوة للسهرة ؟ . .

وصرخ رغيد : بحرية . . ماذا تفعلين هنا ؟ . .

لم يبد انها سمعته . . مرت به وبالجمع دون ان تلمح أحداً منهم . . سامية العري ترتدي جراحها وتمضي . .

ذهل الحاضرون . . كانت جميلة الى المدى الذي انسى البعض جراحها وهول مشهد الدم الذي يكسوها . . فيها شيء خاص يثير في بعض الرجال حب التملك وشهية الافتراس ويرجعهم الى حقيقتهم ، حاملين هراواتهم وراكضين في غابات ما قبل التاريخ ويثير الاسى والصحو في بعضهم الآخر . . . وفي نظراتها شيء يثير شهية بعض النساء الى البراءة الأولى والحنان ويذكرهن بها . . ويذكر بعضهن الآخر بشهوات حارة منسية . .

حاول رغيد تحويل المشهد الى نكتة وقال : اقدم لكم قريبتي بحرية الزهـران بثياب الحرب ، كما وصلت من بيروت . . احبت حضور الحفل الذي اقيم على شرفها وهي ترتدي زيها الوطني . .

لم يضحك احد . . لم يتنفس احد . . تابعت بحرية مشيتها المهيبة نحو الشرفة كفراشة تفتش عن هواء نقي ، وقبل ان تنحدر فوق السلم نحو الحديقة ، التفتت اليهم وحدقت فيهم كمن يتأمل وحشاً واحداً له عشرات الوجوه والاجساد فرمقتهم بنظرة اجمالية تقطر احتقاراً وتأنيباً ولا مبالاة . . او هكذا خيل اليهم ، ثم استعادت عيناها مظهرهما الزجاجي ومضت حتى ابتلعها الظلام . .

لحق بها نسيم اسيان القلب ، راكضاً كمجنون لمح امه تغادر قبرها وتمشي في الشوارع ، وحين حاذاها ، نظرت اليه ، ثم نظرت عبره . .

خلع معطف الخادم وغطى به كتفيها برفق واحاط به عريها المستور . . وخيل اليه انها ابتسمت شبه ابتسامة . .

صمت ثقيل شل الحضور ، حتى بعدما هرعت دنيـا اليها وشـاهدهـا بعضهم وهي ترجعها الى القصر من باب آخر . . .

وانسحبـوا واحداً بعـد الآخر . . ولاحظ خليـل ان الازهار التي تـزين رأس كفى وصدرها قد ذبلت وجفت . . وكذلك الزهور في رؤوس بقية النساء وفي عروات الرجال . . اما كلاب الحراسة ، فقد انطلقت تعوي باصوات تشبه انتحاباً بشرياً مريراً . .

***

صبيحة اليوم التالي ، قرر الساحر : سأداويها . . سأحضر لها علاجاً خاصاً بالجنون . .

كان هبوطها عارية مغطاة بالدم مبعث احراج لرغيد ، وقد جاءه بعد السهرة غاضباً كما لم يكن من قبل .

رن الجرس. جاء نسيم متذمراً . قال له الساحر : احضر لي اوقية من عين الجمل . نصف رطل من اللوز . اوقية من الصنوبر ، زيت طيب . حجر كحل . روث جاف لكلب .

قال نسيم : معذرة يا سيدي ، لن يكون الحصول على عيون الجمال سهلاً في جنيف ، فهل انت بحاجة ماسة اليها ؟

ـ هذا علاج الجنون كما تقول كتبي . .

ـ الجنون ؟ من المجنون ؟

ـ بحرية . .

ـ ليست مجنونة . انها بنت مسكينة منهارة ، دفن اهلها امام عينيها . . انها بحاجة الى الراحة والسلام . . الا تذكر الكتب شيئاً عن ذلك ؟

ـ ربما . . لست متأكداً . .

ـ لماذا لا تستريح انت ايضاً يا سيدي الشيخ ؟ سمعتك البارحة تتحدث باصوات عديدة . . وكنت امر مصادفة بالممشى ، وانا امسح الغبار عن التماثيل . . انت الذي استفزيت المسكينة ودفعت بها الى الهرب شبه عارية . . كانت نصف مخدرة فلم تلحظ ما فعلته بها . .

ـ لم اكن انا الذي اتحدث . . هي التي كانت تفعل ذلك . . اعني العفاريت التي تقطنها وتسبب جنونها . . هذا ما تفسر به الكتب حالتها . .

ـ وبماذا ايضاً تنصح الكتب ؟

ـ علينا ان نحلق شعرها عند وسط الرأس . . كي نضع هناك العلاج الذي سأعده من المواد التي امليتها عليك . . وسنقطر لها بضع نقاط في اذنها . . . ستساعدني . . .

ـ اساعدك على حلق شعرها ؟

ـ اجل ! انها خطرة . . مجنونة . . مدمرة . .

قال نسيم بهدوء مخيف : اسمع يا شيخ وطفان . . اذا لمست انت او سواك شعرة من

رأسها سأبلغ البوليس . . تذكر انك في سويسرا ، لا في ارض الجان . . اقسم بالله العظيم ، اذ مس احد هذه المسكينة ، قتلته . .

غادر نسيم الغرفة وهو يرتجف غضباً . . (**ما الذي يثير جنون الرجال امام هذه الانسانة الممزقة ؟ ولماذا يبدو رغيد بالغ القلق منذ وصولها ؟ لماذا يخشى الساحر أن تقتله فجأة ؟ لماذا يتوهمون المسكينة الجريح عميلة سرية ماهرة . . للشياطين ؟!. . لقد هدموا وطنها ، واحضروها سبية مذبوحة الصوت ، فماذا يريدون منها الآن اولئك الاوغاد ؟**).

اما الساحر فتأكد من ان الشيطان الذي يقطن بحرية هو من أقوى ملوكهم . . ها هو يستولي على روح نسيم ويوظفه حارساً عليها . .

وسرت في جسده رعدة . . انه يخشاها ، ويخشى نسيم . . ولكنه لا يكرهها ، بل يشتهي وصالها ، ويتمنى ان تكف عن تعذيبه واستنطاق ذاكرته وقراءة افكاره والعبث بروحه . . من يدس في طعامها بوصفة جلب المحبوب ؟. .

●●●

ما زال الحر يتفجر من كل مكان ، كأنه رسالة نارية غامضة من الصحراء . . وشيء ما في بحرية لم يغادر خليل .

شيء ما في مشيتها الدامية ليلة السهرة في بيت رغيد اعاده الى صوابه رغم مسحوق النسيان الذي يزكمه صخر به . . شيء ما في نزفها وكبريائها وترفع جرحها الصامت ذكره باولاده . . بوطنه . . بزمنه القديم ، زمن الاحلام الكبيرة والطموح الشاسع . حزن وهو يراها سبية هكذا . قرر : سأفتش عن عمل آخر . . سأحاول تصحيح مسار حياتي وكفى ، رفيقة شقائي . .

شيء ما في بحرية ذكره ـ بالحاح ـ بأولاده ، فذهب اليهم صبيحة اليوم التالي للسهرة والتقاهم في الباحة بين (صف) وآخر .

كان الحر متوحشاً ، كما هي حاله منذ وصول بحرية . . ومذياع التاكسي يندب (الكانيكول) الذي اجتاح جنيف فجأة برياح صحراوية لم يألفها اهلها . . وجاء رامي وفادي بثياب رياضية تكشف عن جسدين رقيقين هشين تخيل خليل المتفجرات تخترقهما . .

ودمع قلبه وهو يتذكر وداد . لم يسأل الطفلان عن امهما ، رغم انها لم تزرهما منذ ايام طويلة . . بديا في حالة هدوء بائسة شبيهة باللامبالاة .

سألهما خليل : هل الطعام هنا جيد ؟

ــ نعم . .

ــ هل الدراسة منتظمة ؟

ــ نعم . .

ــ هل لكما اصدقاء ؟

ــ نعم . .

ــ هل تذهبان في نزهات ، وتلعبان كرة القدم ؟

ــ نعم . .

ــ هل انتما إذن سعيدان في جنيف ؟

ــ لا . .

ــ ماذا تريدان ؟

ــ نريد العودة الى بيروت !! . .

ــ لماذا ؟ . .

صمتا ، وارتمى رامي في احضانه ، بينما مشى فادي بعيداً وهو يضرب الحصى بقدمه ! . .

***

بعد زيارته الحزينة لأولاده ، لم يعد خليل الى الفندق . منذ فتح عينيه صبيحة السهرة انسل من غرفة الفندق قبل ان تلحظه زوجته . قرر ان يكون وحيداً ليرى مأزقه بصفاء . لم يقل لكفى ان مخدومه انعم عليه باجازة يومين لانشغاله بشحنة من الحسناوات وصلت من الشرق الأقصى . لو عرفت لخططت لاوقات فراغه ، ولارغمته على قضاء الساعات امام واجهات المخازن الفخمة في شارع الرون ، تتأمل الفراء والمجوهرات والثياب الفاخرة وتشهق وتتحسر وتخطط . .

كان بحاجة الى ان يخلو الى نفسه . . غادر مدرسة اولاده الى محطة القطار ، فمحطة الكورنافان ،وانحدر في شارع الألب حتى ضفة البحيرة في شارع (كي دي مون بلان) . .

دخل الى حديقة (برينزويك) العامة ، وجلس على احد المقاعد . . توج بؤسه بسيجارة مترعة بالنيكوتين والقطران . . حدق في الشارع المزدحم بالسيارات الذي تفصله عنه درجات عديدة ، والبحيرة عند الرصيف الثاني ولم ير شيئاً حقاً . . ركضت فوق عينيه بيروت وهي تحترق كما يشاهدها كل ليلة في التلفزيون . . (هل كان المخطط يقتضي بأن تجتاحنا اسرائيل ونحن بين هارب ومقتول ومقموع وسجين ؟ لقد قدمنا كل شيء من اجل القضية ، حتى الحرية اعتبرناها قضية هامشية ، والديمقراطية ليست لها الأولوية . . وها نحن قد فقدنا الحرية ولم نستعد الأرض، بل خسرنا مزيداً من الأرض. لقد اضطررت للسفر هرباً من ارهاب الصديق، وها هو العدو يأتي بارهابه وانا غائب.. لقد بدأت الخطيئة يوم رضينا بالتخلي عن الديمقراطية لتكون الأولوية لضرورات التحرير . . غاب عن بالنا ان شعباً من العبيد لا يستطيع تحرير ارض سواه ولا ارضه . .) ما زال يتحرك في بيروت لا في جنيف . . والساعة الالكترونية الجديدة التي تكرمت زوجته باهدائها اليه لن تبدل زمنه ومكانه . . حدق في ارقامها التي تقفز كل ثانية لتحدد الزمن بدقة ، فلم يبصر غير رقم واحد يتكرر : الساعة الثانية عشرة والنصف . . . ما زال هناك ، وكل قذيفة تسقط فوق بيروت تنفجر داخل رأسه شخصياً والبيوت المتداعية تنهار داخل عينيه . . انه يقطن داخل تلك العلبة المربعة المسحورة الملقبة بالتلفزيون ، وكل مساء بل كلما حانت له الفرصة يخطو عبر واجهتها الزجاجية الشفافة الى الداخل ، لتنقله الى بيروت كما آلة الزمن . . شخص ما يخاطبه .يرفع رأسه . انه شاب ياباني الملامح والى جانبه رفيقته . . يمد الشاب اليه يده بالكاميرا ويتحدث اليه باليابانية . . يفهم الايماءة ، انهما يرجوانه التقاط صورة لهما . . يشيران الى الزر الذي يفترض ان يضغطه ، فيتناول خليل الكاميرا وسط ضحكاتهما المترعة بالشكر والنشوة . . .

شابان لعلهما في شهر العسل . . احاطهما خليل بالمربع الصغير وفوجيء بالأزهار تحف بهما والنافورة الجميلة خلفهما كأنه يلحظ المرئيات للمرة الأولى ، وضغط الزر المنشود ، فقفزت المرأة في رشاقة تقطر سعادة وتقدمت نحوه لتأخذ الكاميرا وتدمدم شاكرة . . لحظات ، واختفيا فوق غمامة السعادة . . (لهما بيت سيعودان اليه ، ويستعيدان في أمنه مشاهداتهما الحلوة في الخارج . . . اما انا ، فلا . . .) .

سقط في حزنه . . . لم ير الأزهار حقاً من قبل . . ولا النافورة . . ولا الاشجار السامقة . . ولا الحديقة الغناء بتماثيلها البديعة . . ولن يتصور هنا مثلهما فهو مشرد بائس لا

سائح ، لا يدري هل سيعود يوماً الى وطنه ام لا ، وهل سيكون جيرانه وصحبه احياء ليريهم صوره في جنيف ويحكي لهم مناسبة كل صورة سعيداً بمتعة التذكر الى حد اضجارهم بلحظات سعادته التي اعتقلها في صور، فهو الآن يعيش اكثر لحظات عمره بؤساً وقلقاً . . يوم كان في السجن توهم ان هذه اللحظات هي ذروة بؤسه . . . تلك المسيرة اليومية من قبو الاحتجاز ، فالسلم الى غرفة التحقيق (اللطيف) ، فالدهاليز حيث الجدران كاتمة لاصوات صراخ التعذيب . . . لم يخطر بباله ان بمقدور المرء ان يكون مطلق السراح في حديقة كالجنة ، صحته جيدة ، وثمة حسناء امامه تعرض جسدها لأشعة الشمس ، ويكون في الوقت ذاته حزيناً وممزقاً . . يتفجر في قلبه الرعب الأعظم الذي لم يجرؤ على مجرد التفكير به من قبل : الاسرائيليون يحاصرون بيروت وقد يحتلونها ، فهل يمنعونه من العودة وسواه ؟ هل يسمح فقط بالبقاء لمن هم في الداخل ، ويمنع الهاربون من العودة ؟ ألم يحدث شيء كهذا من قبل في فلسطين ؟ . . هل سيتحول الى لاجيء مشرد ؟ هل سيحرم من العودة الى وطنه ؟ . . شعر بسيخ من النار يخترق احشاءه ويؤلمه كما كانت تفعل ضربة الجلاد على بطنه . . . اجل . . ان ذعره الأكبر الذي يطارده منذ أيام هو ببساطة هذا الأمر . . ان يحرم من العودة الى وطنه . . . ان يتحول بمعنى ما الى سبية كبحرية التي اخرستها الصدمة وشلت حنجرتها . .

توج بؤسه بسيجارة جديدة ، وحاول الهرب من ذلك الخاطر المرعب الذي يقذف به في بئر سوداء بلا قرار، السقوط فيها بلا نهاية ، يهوي ويهوي ولا يصل الى القاع الشهي لينال رحمة تحطيم جمجمته وخلاصه من ذلك العذاب الابدي . . . هل يمكن ان يجد نفسه وقد تحول الى لاجيء ، وهو الذي كان هارباً من الموت لا اكثر ؟ . . ألم يكن الموت هناك أهون من هذا الاحتضار اليومي البطيء ، وكأس الذل التي يتجرعها كل يوم قطرة بعد أخرى . . . ؟

شعر بالغثيان . . . احساس غير مريح يهاجمه في معدته ، وببعض التقرح في منخريه . . . انه المخدر اللعين الكوكايين الذي يرغمه صخر على مشاركته إياه . . . سيدمر صحته ومعدته مقابل حفنة من المال ينفقها على بؤسه في الفندق ، وسلام اطفاله التعساء في المدرسة بعدما استنفدوا الفرحة الأولى لملامسة اشياء جديدة ، والاحذية الحمر المفضلة لدى كفى . .

عبثاً يتطلع حوله بألفة . . . كأن الشمس التي تطالعه شمس اخرى لم يلتق بها من

قبل . . تأمل يده . . بدت له وكأنه لا يعرفها . . . تذكر زوجته فأحس وجهها غريباً لم يره من قبل . . حتى حياته الماضية بدت له نائية كأنها تخص رجلاً آخر . . . انه واقف على تخوم الجنون ، يجيل نظرة عقل باردة في الأشياء (لا اعرف احداً . . لم يمسني احد . لم يقترب مني مخلوق قط . انا وحيد . وحيد . لم اعرف دفء الصداقة . لم اشارك احداً غرس الوردة في الخبز وشرب الموسيقى في كؤوس النبيذ . لم . . ولم . . ولم . .) .

تمسك بالمقعد . . تأمله . انه من الخشب المدهون بالأخضر . . الأزهار الى يمينه حمراء وبيضاء وصفراء ومزروعة على شكل أجنحة فراشة . . . (اني غائب . . . غائب عن حاضري ساقط في فخ الألم والذعر . . الذعر من ان اصير لاجئاً بلا وطن . . . طالما تشدقت بان كل بيت مريح هو وطني . . طالما صرحت بانني انادي بالوحدة العربية كخطوة صغيرة في درب الوحدة الكونية . . وها انا ارتجف مثل طفل صغير احن الى عتبة بيتنا المهترئة التي دفنت جدتي تحت حجرها ذات يوم حرزاً يجلب الحظ ، فتعثر والدي به وكسر يده . .) . .

حاول خليل ان يتذكر لون المقاعد في ردهة الفندق وفشل . . . لون جدار الحمام . . . رائحة الغرفة . . ملمس المناشف . . لون جدران بيت نديم . . لون سيارته . . رائحة الستائر المخملية في بيت رغيد . . شكل (الميتر) في مطعم الموفنبيك بشارع ساندرييه . لم تستطع حواسه التقاط شيء . . كأنه يعوم طوال وقته في خواء الغم ، داخل رحم احزانه . . . كأنه لم يطأ جنيف بقدميه . . لم يزر متحفاً من تلك التي طالما اشتهى رؤية كنوزها . . لم يذهب الى متحف البيتي باليه ليرى معرض بيكاسو . لم يدخل الى مكتبة واحدة الا لشراء جريدة . . مكتبة (نافيل) يمر بها ولا يدخل اليها كما حلم دائماً ليتعلم كيف يرتب مكتبته ذات يوم . . كأنه يرفض كونه هنا . . ولكنه هنا ، يتعاطى الكوكايين وصقر ، ويرافق كفى الى السهرات (اعيش هامشاً على دفتر الزمن . اتحرك خارج المنفى وخارج الوطن . محروم من حضارة المنفى ، ومحروم من انتماء الوطن) . . ما جدوى الحسرات والعبرات ؟ فليحاول تنظيم حياته قليلاً ما دام الهرب مستحيلاً والعودة الآن الى بيروت غير ممكنة . . . ألم يحزم امره منذ الصباح على تصحيح مسار حياته ؟ لماذا لا يحاول مثلاً الانتقال من الفندق الى شقة صغيرة ؟ ولماذا لا يقطن الاولاد معهم بدلاً من البقاء في المدرسة الداخلية كأيتام الاثرياء ؟ لماذا لا يكون ايجابياً بعض الشيء ؟ . .

لا يدري لماذا هاجمته من جديد صورة بحرية ، عارية الا من الجراح ، وهي تمشي في

سهرة رغيد كأميرة المعذبين ، وترفل في احزانها . . . احس بحنان جارف نحوها . . . كم هي قريبة من قلبه وكم زوجته بعيدة نائية . . في حضور بحرية برقية ما من بيروت مكتوبة بالجرح والدم والصمت . . . كأنها تمثلها . . . وكأن كل من يغادر بيروت هو مثلها . . عار الا من جراحه واحزانه الخرساء . . مرمي في الفراغ ، يتناهشه الناس ويفتشون كيف يمكن لجيفته ان تكون صالحة للاستعمال لهم ! . . .

ارتجف قهراً . . لن يألف يوماً هذا الصيف الأوروبي المثلج تارة ، الحار اخرى . . وشيء ما في الرياح الدافئة يعيده الى صيف بلاده وربيعها . ماذا أصابه ؟ من زمان ، كان يتوق الى السفر ويراه نافذة مفتوحة على الحلم . . .

(قالت لي فيفيان : جئت اودعك . سأرافق اسرتي إلى اوروبا . . .

ــ يا لك من محظوظة .

ــ وانت ماذا ستفعل بعطلتك ؟ . .

ــ سأذهب الى قريتي . .

كانت فيفيان حبي الأول، لكنني امتلأت حقداً غامضاً لأنها ذاهبة لترى هذا الكوكب وانا لا املك أكثر من اجرة (البوسطة) الى الضيعة . . قلت لها : سأودعك ، ولكنه الوداع الاخير . . لا اريد ان اراك بعد اليوم . .

لم تكن لحيتي قد طلعت بعد ، لكنني قررت ان اكون حاسماً كالرجال . وبكت هي بحرقة ثلاثة عشر عاماً من الاكتناز ، وظللت صامتاً . سألتني : وإذا لم أسافر مع اهلي ، هل سنظل نلتقي ؟

ــ لا . . لقد انتهى كل شيء . .

ــ لماذا ؟

ــ لا ادري .

ــ هل تشعر نحوي «بالحقد الطبقي»؟

ــ من علمك هذه العبارة ؟

ــ والدي ، وكان على حق . قال انك لا تستطيع ان تحبني في أي يوم ، انا أو أية فتاة اخرى من طبقتي . ونصحني بالابتعاد عنك .

ــ لعله على حق . وداعاً يا فيفيان .

ــ اورفوار . .

تلك الليلة عدت الى البيت ومعي خارطة كبيرة . . مددتها على فراشي بدلاً من جسد فيفيان كما كنت أحلم ، وبدأت أقرأ اسماء المدن التي طالما سمعت حكايات دافئة مبهرة عنها ، وعن مقاهيها واغانيها ومطاراتها ومحطاتها . . وبدت لي اسماء المدن كاسماء النساء ، شهية ومرغوبة . . لندن . فيينا . باريس . جنيف . زيوريخ . بانكوك . لينينغراد . صوفيا . استوكهولم . هونولولو . وكان كل اسم يقذف بي في مباهج لامتناهيـة . . . وظل التأمل في الخرائط يمدني بالحلم والاشواق حتى كبرت . . ويوم استلمت مكتبتي افردت رفاً خاصاً لبيع الكتب السياحية عن بلاد اللّه الأخرى) .

وها أنا جالس في جنيف ، وقد يحملني صقر الى تلك المدن الشهية كلها او بعضها ، والذعر يجتاحني بدلاً من الفرح والترقب . . لماذا ؟ . . . ألأن اللاجىء لا يستطيع ان يكون سائحاً ؟

***

استيقظت كوكو ذلك الصباح ونشوة ليلة البارحة ما تزال تأخذ بلبها . . كانت نجمة السهرة التي افسدها خليل باغنيته السمجة «يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما » ، وامعنت بحرية في تدميرها بتصرفها الأرعن غير اللائق . . .

سمعت صوت زوجها في الحمام ، يحلق ذقنه ، فتظاهرت بالنوم . لا تشعر بالرغبة في رؤيته هذا الصباح . . اغمضت عينيها . . . تريد ان تخلو الى نفسها وتفكر بمستقبلها . . لا تدري لماذا تذكرت بحرية . لم تر فيها غير جراحها التي شوهت جمالها ، وقلة تهذيبها نحو قوم (اشراف) يحسنون اليها، وسوء سلوكها ليلة سهرة البارحة مما يؤكد وضاعة اصلها ، وعدم وجود قرابة دم بينها وبين المحسن الكبير الباشا رغيد . . وقررت وعيناها مغمضتان وحفيف ثياب خليل وهو يرتديها يخدش اذنيها ، قررت فيما يشبه القسم (لن ادع بيروت تشوه جمالي وتضيع صوابي وتفسد سعادتي بعد اليوم . سأعيش في هذه الجنة الأرضية وسأستمتع بالحياة حتى الثمالة . لن ادع اولادي يتحولون الى قيد ، ولن ادع ذكرى وداد تمزقني كوجه بحرية ، فقد تألمت بما يكفي لعدة اعمار . ولن اعود مع الاحمق خليل الى بيروت إذا قرر ذلك . لن اعود يوماً الى بيروت قبل ان تعود بيروت الى نفسها . . وسأستمتع بالحياة حتى الثمالة . . سأستمتع بالحياة . . الحياة . . ولن احرم نفسي بعد اليوم من نشوة) . . . ثمة أيام يصحو المرء فيها وكل ما في جسده متوهج حياة ، وتوقاً الى ما لا يدريه . . هكذا صحت كوكو ذلك

الصباح بعد طول نوم . . . لقد اغفت ثانية بعدما مضى خليل ، وحلمت بمباهج ممنوعة . . . غادرت الفندق فهاجمها الحر الغامض وذلك الجمال الخارق قادماً من البحيرة والاشجار وذرى الجبال النائية . . . مرت بامرأتين مسنتين تثرثران امام باب كنيسة جميلة عتيقة ، وفي حديقة الكنيسة طائران يمارسان حبهما على مرأى من تمثال الملاك . . كان الطائر يدور حول انثاه وينفش ريشه ثم يعتليها في عناق مشبوب ، وتمثال الملاك لا يشيح بوجهه ، والشمس تغمرهما برضاها . . توقفت قليلاً ترقبهما ، ثم جلست في احد المقاهي وطلبت كأساً من ماء النار بدلاً من قهوة الصباح . . .

ابتلعته ، فاشتعلت حواسها بشهوات السنوات الخمس العجاف ، والتقت نظراتها بعيني ذلك الشاب الايطالي الصغير الجالس في الطرف الثاني المعتم من المقهى . . كان وسيماً وانيقاً ، يشبه نجم اعلان عن سجائر مترفة . . تذكرت التتابع المنطقي : نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء . . ف . . . واشتعلت بالرغبات الغامضة ، وعصفت بها انواء عاصفة مدارية حارة . .

حدقت نحوه ثانية فلم تجده في مقعده . . . شعرت بلذعة اسى ، وبندم صغير . . وفوجئت به واقفاً الى جانبها . يقول شيئاً ما بلغه تجهلها ، ويشير الى المقعد الآخر الفارغ . . . ابتسمت . جلس . حدق فيها مولهاً ، وقال شيئاً . . ادركت انه يتحدث باللغة الايطالية ، ويغازلها . . توهجت . . مد يده ومس شعرها برفق . . كان يتكلم ، وكانت تفهم ولا تفهم ، وهزت رأسها موافقة .

دفع الحساب ، وجذبها من يدها ، فنهضت معه ، وطاف حولها ليفسح لها مجال الخروج امامه ، وتذكرت الطائر الذي كان يحوم حول انثاه في فناء الكنيسة . . . قال شيئاً آخر ، وهزت رأسها موافقة ، ورقصة الطائر تلهبها . . نشرت جناحيها وحاولت ان تطير بعيداً لكنه احاط كتفيها بيده ، واسدل جناحه الكبير فوق جسدها المرتجف . .

حين جذبها من يدها الى الفندق القريب من المقهى في شارع «كيه دي مون بلان» رافقته مستسلمة . حين ضمتها الغرفة ، كانت تتأمله بشوق وفضول . . بدا لعينيها طائراً بديع الجناحين قادراً على التحليق طويلاً ، شاباً نضراً يصغرها بأعوام ولعله في مطلع عشريناته . . . وحين نقرها فوق شفتيها في قبلة دعوة ، استجابت وهبت تواكب طيرانه الى ارض المتعة والفرح . . شاهدت تمثال الملاك يحدق بها كما كان يحدق في عصفوري الفناء العاشقين ، نظرة ضائعة بين اللامبالاة والرضى . . . آه كم تفتقد ذلك الشعور النضر

الكاوي ، ذلك الطيران بين القارات ، والتحليق فوق الغابات الاستوائية ، المطر الدافىء يبلل وجهيهما ، وفوهات البراكين تتأجج ويتدحرجان ، ويتمسك كل منهما بالآخر خوفاً من النجاة . . . وكان صوته يأتيها عبر العصور منادياً مستنجداً : آموري ميا . . . آموري . . ولعلها الكلمة الوحيدة الايطالية التي تفهمها . . . وحلقا ثانية . . . آموري . . آموري ميا . . .

واحست بذلك التدفق الكوني الشرس ، وانفجرت الألعاب النارية الملونة داخل رأسها وقررت في لحظة صدق : هذه هي الحقيقة الوحيدة الاكيدة ، وكل شيء آخر مزور ومزيف ، او قابل للتزوير وللعبة خداع الذات . . الا هذا الاحساس المنشب اظافره في كل ما هو أنا . . . هذه اللحظة الفريدة التي تتكرر دون ان تتكرر . . . اغمضت عينيها وهي تهمس : آموري . . . آموري ميا . . . خليل يحاول اقناعها بكل شيء آخر ، وبأي شيء آخر . . لا بديل مقبولاً عن تلك اللحظة . . .

فتحت عينيها بحثاً عن طائرها ، وكلها رغبة في اقلاع جديد وطيران آخر حول الكرة الأرضية . .

فوجئت بأنه ارتدى ثيابه وها هو يحصي بعض النقود . . . تركها لها الى جانب الفراش ، ومضى ! . . .

غسلتها شلالات من الماء المثلج وتدفقت من عينيها . . . ارتجفت برداً ووحشة وارتدت ثيابها بسرعة . . .

بكل هدوء ، تناولت النقود الايطالية التي خلفها لها الشاب ، وطوتها ووضعتها داخل حاملة نهديها ، حيث كانت جدتها تودع نقودها . . . وغادرت الغرفة مسرعة . .

وحين وطأت ارض الشارع ، هبت ريح مفاجئة كالزوبعة . . واحست انها طائر حائر ، تتقاذفه رياح العالم وتطير به الى شمال الليل وجنوب الحنين وشرق الحيرة وغرب الحزن . . وتركت الريح تملأ شراعها . . . وصارت تمشي كيفما نفخت بها الريح ، كعصفور يطير على غير هدى ، وقد ضيع بوصلة الهجرات وتاه عن سربه . .

اقترب منها غريب آخر . . وسيم آخر . . طائر آخر . . كانت ما تزال عطشى وجائعة الى ذلك الطيران بين القارات ، الذي حرمت منه خمسة اعوام ، وحام طائرها حولها ، وقال شيئاً ، فهزت رأسها موافقة ، وشهية التحليق تلهبها . . ضمها اليه امام حديقة برينزويك فاستجابت له بحرارة ادهشته ، واسندت رأسها الى كتفه وهي تمضي معه الى بيته او فندقه أو

كهفه . . . وخيل اليها ان نظرات ما تخترقها . . التفتت الى الحديقة الملاصقة للرصيف والقت بنظرة سريعة عامة فلم تر احداً تعرفه . . فعادت الى طائرها ، تلامس جناحيه وتتحسسهما . . وتحلم بإيقاع البراكين والزلازل . .

تذكرت نديم . . . وقررت مساعدته في تنشيط جناحيه الصدئين . . . انها لا تلومه . . مع امرأة من رماد مثل دنيا ، اي زوج لا يتحول الى قارة ثلج ؟ . . مع نساء مقيتات كأرض مفروشة بالجثث والدماء مثل بحرية ، من يشتهي التقاط سكر المباهج ؟؟ . . .

***

طالت جلسة خليل في الحديقة . . لقد (خطط) لبقايا حياته . قرر الا يستسلم . تذكر كل مخلوق يعرفه في جنيف وقرر قرع الابواب كلها حتى لو طرد . . ذلك خير من انزلاقه في بالوعة المخدر مع صقر . . .

مرت به كوكبة اخرى من السواح اليابانيين تلتقط الصور التذكارية ، والنساء في ثياب الاستحمام يعرضن اجسادهن البضة لدفء لم يألفه صيفهن وشمس يشتهينها . . (انا لست سائحاً ، وسيظل الدفء يوجعني كأنفاس امي الحارة القادمة عبر القارات من البعيد البعيد والغابر . .

متعة السياحة ان يكون لي وطن ، انطلق منه واعرف انني سأعود اليه . . اما انا فلا اعرف ان كانت اسرائيل ستسمح لي بالعودة الى وطني أم لا . . . وسيحدث ذلك كله لي ولسواي امام انظار العالم (المتحضر) كما حدث من قبل للفلسطينيين . . ولن يبالي بي احد حقاً . .

لقد ضيعنا لبنان ، ولم نسترد فلسطين . . . ولكن ، لم انا متشائم الى هذا المدى ؟ . . . لعل العرب يخططون للدفاع عن لبنان الذي كان عربياً كما ارادوه ودفع ضريبة العروبة عنهم جميعاً . . . لعل لديهم خطة سرية للعمل ، وسيضربون فجأة . . اجل . . لا يمكن ان تحتل اسرائيل عاصمة عربية هي بيروت من غير ان يتصدى لها مائة وخمسون مليون عربي . . .

كم انا متشائم ، اتجنى على امتي وبعض انظمتها . . لا . . لن تجرؤ اسرائيل على دخول بيروت . . كفاك يا قلبي تفتيشاً عن المنغصات . . . كن ايجابياً وعد الى ارض الواقع . . فتش عن بيت . . وعن عمل آخر . . ريثما تعود الى الوطن . . . واستمتع بهذه

الجنة الأرضية التي تصادف انك تضع قدميك فوق ترابها) . . .

رفع خليل رأسه وحدق من جديد في الرصيف والبحيرة كمن يراهما للمرة الأولى . . . الأمواج البشرية المتلاطمة تتوالى ، جمال وصحة وثراء وكلاب مدللة . . .

وهذه التي تستند برأسها على كتف الشاب الغربي الوسيم تشبه كفى . . ترفع رأسها وتضحك وهي تقذف بشعرها الى الوراء . . يا الهي انها كفى . . كفى نفسها مع غريب جديد لعلها ستنسل معه الى غرفة في احد الفنادق كما فعلت يوم لمحها مع الغريب الآخر نديم . . . تأملها خليل كأنه لا يعرفها . . . ولم يشعر بشيء . . . لا بالغيرة ولا الغضب ولا الاسى . . . لا شيء غير احساس بارد هامد كأنـه مخدر يتعفن ثم انـه يشعر بـالعالم كله يخونه . . فلماذا يبالي بخيانتها وحدها . . . ووجد نفسه يتمتم **(من يهن يسهـل الهوان عليه/ ما لجـرح بميت ايلام)** . . . التفتت كفى صـوب الحديقـة . اخفى وجهه خلف جريدته . . . لم يكن يريد ان ترى انه رآها !! . . .

●●●

استيقظ خليل بعد نوم مزدحم بالكوابيس . . . شاهد بحرية تنزف والساحر وطفان يطعنها بسكين من ذهب ، ودنيا تحاول ان تحول بينهما ، وطفليه يصرخان ويمسكان بطرف ثوبها . . .

وقبل ان يفتح عينيه مد يده لتناول سيجارة ، اشعلها ، وفوجىء بكفى وقد ارتدت ثيابها وتأهبت للخروج . . . لم يقل شيئاً ، أما هي فقد سارعت الى الباب شبه هاربة وهي تقول : انا ذاهبة الى (بون جينيه) لشراء ثوب لحفلة الشاي بعد الظهر . . . الى اللقاء .

هل هي ذاهبة حقاً الى (بون جينيه) فقط ؟ وهل ستعود فيما بعد الى الفندق مباشرة ام انها ستذهب الى مكان آخـر ؟ ما شـأنه بـذلك ؟ هي ملوثـة ؟ وهو ايضـاً ملوث فكيف يحاكمها ؟ جسدها مستباح ؟ كل ما في حياته مستباح . . . وطنه واسرته وعمره وجسـده مستباح لثلج صقر . . . (الكوكايين او الثلج كما يدعوه صقر) ، أو « مسحوق النسيان » أو «رماد النجوم» أو الأسـماء الأخرى كلهـا التي يخترعـونها لذلـك السم اللعين الـذي بدأ يدمر معدته واعصابه ومنخريه رغم انه لم يعاقره غير مرات قليلة . . .

يرن الهاتف . انه صقر الممتلىء جزلاً بوصول الممثلة الغربية الشهيرة لقضاء ليلتين معه في سويسرا ، بعدما اتصل بها خليل داعياً ولم يصدق إمكانية حضورها . صقر ليس بحاجة اليه لا اليوم ولا غداً . . . وذلك لا يعني ان (السكرتير خليل) حر . . عليه ان يلازم الهاتف ، فقد يبدل رأيه فجأة . . ذهل خليل . لم يصدق ان ممثلة جميلة وشهيرة وثرية مثلها ، تفعل (ذلك) مقابل المال . لقد سطر الرسالة اليها منذ أيام خجلاً ، ولم يتوقع رداً لكنه لم يجرؤ على مناقشة صقر . وها هي تحضر . كل شيء عليه بطاقة لامرئية تحمل ثمن صاحبه في هذا الزمن الرديء . . كل شيء . . حتى هو المسكين تم شراؤه وعليه ملازمة الهاتف (**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ . .**) . .

لم يقلها خليل ، بل قال بدماثة : حاضر . . وخيل اليه ان صوته صار يشبه صوت نديم . لكنه نهض من فراشه وارتدى ثيابه بسرعة وغادر الفندق من غير ان يتناول طعام الافطار او يحلق ذقنه . .

اشترى الصحف المحلية ، «لاسويس» و «تريبون دي جنيف» ولجأ الى مقهى (ميديتيرانه) مقابل محطة الكورنافان . . . قرأ أخبار بلده ، فاشتعلت النيران فوق فنجان النسكافيه بالحليب الذي يتجرعه ، وبكى طفل يقطنه ، ثم انتقل مباشرة الى صفحة الاعلانات المبوبة عن البيوت ، المعروضة للايجار او للبيع .

ثمة اعلانات موجهة الى الاثرياء عن بيع شقق فاخرة للاجانب في «سان سيرغ» و «نيون» وسواهما من الأماكن المسموح للاجانب بالتملك فيها فتجاوزها ، وصار يفتش عن الممكن والأكثر تواضعاً بكثير . . . عن عمود عناوين الشقق المفروشة وسط جنيف نفسها . . لن يدفع قسطاً آخر لمدرسة الاثرياء هذه ، ولن يرمي بأطفاله الى حياة اليتامى المدللين في القسم الداخلي وانما سيقطنون جميعاً معاً . . وسيحاول الحاقهم باحدى تلك المدارس الرسمية المجانية في جنيف والتي اخبره امير انها افضل من المدارس الخاصة . . ستعود كفى لتكون أماً وربة منزل بدلاً من مشروع غانية وزانية وعاهرة . . وضع بقلمه اشارات قرب ارقام هواتف البيوت المتواضعة (المعقولة) ، ثم مضى الى مركز البريد الرئيسي . . في قاعة التلفونات احتوته احدى العلب الخاصة بالمخابرات المحلية وبدأ يجرب حظه . هذا مؤجر لا يجيب . وهذا يجيب ويقول ان البيت تم تأجيره . كثيرون يتخلصون منه لأن لكنته الفرنسية تكشف انه غريب . . يضيق صدره ويغادر العلبة ليتمشى في شارع «ميشيل روزيه» ثم يعود الى الهاتف ، فيطرد ، أو لا يجيبه احد ، فيخرج ويمشي ويعود ويطرد

ويمشي ويعود ويطرد . . يوم كالكوابيس . . . واخيراً قبلت احدى المؤجرات بضرب موعد له في رقم ٥١٥ شارع الدليس .

***

ارغم كفى على مرافقته بعد الظهر . .

توقف بهما التاكسي أمام ٥١٥ شارع الدليس . حي بعيد نسبياً عن المناطق السياحية الفخمة التي يحلو لكفى التجوال فيها . سألته بدهشة . ما الذي جاء بنا الى هنا . . ما هي مفاجأتك لي ؟

هبطا . قال لها : سنستأجر شقة مفروشة هنا . .

ـ هنا . . في هذا الحي البائس . كأننا لسنا في جنيف . . .

لكنها استسلمت ورافقته دونما مزيد من جدال . . . ورمقته بنظرة لا تخلو من السخرية . . .

استقبلتهما مدام «فومهالرهون» لاهثة كمن لا يجد وقتاً للتنفس . لم تدعهما للجلوس وانما تفرغت للرد على الهاتف الذي كان لا يترك لهما مجالاً للكلام . . الكل يريد الشقة وهي تضرب المواعيد . تذكر خليل ما سبق وسمعه عن ازمة السكن في جنيف . واخيراً حملت مفاتيحها ورافقاها داخل مصعد اثري لمشاهدة الشقة اياها في الطابق الأعلى . . بدت لكفى مكاناً عتيقاً بائساً ينزف رطوبة وعفناً كما بيتها في بيروت . . .

سألت مدام «فومهالرهون»: هل لديكما أولاد ؟

ـ ولدان لكنهما في المدرسة الداخلية .

ثم اعلنت مدام «فومهالرهون» انها تريد اجرة ثلاثة اشهر مقدماً وستؤجرهما الشقة لمجرد انهما هنا ، فقد ورثت مجموعة من البيوت في العواصم المختلفة ، وكلما ماتت عمة عانس ورثتها ولم تعد تجد الوقت الكافي لاجراء مراسيم الدفن وانتقال الثروة ، ووافق خليل متلهفاً لاحضار اولاده من المدرسة والخلاص من نير صقر واجرة الفندق الباهظة التي ستحوله الى عبد لآل الغنمالي والزهران الى الابد ، ولم يبال بنظرة الرفض والازدراء المطلة من عيني زوجته . . . حزم امره بسرعة وقال انه سيستأجر الشقة حالاً .

هبطا من جديد الى شقة مدام «فومهالرهون» التي سارعت لاحضار الأوراق المطلوب توقيعها ، ثم انشغلت بالرد على الهاتف . . زبون آخر ، وها هي تقول له ان الشقة تم تأجيرها كما قيل له ذلك مراراً هذا الصباح . . ازدادت رغبته في التمسك بهذا البيت وقالت

كفى : انه بيت غير صالح للسكن . . . الاقامة هنا مستحيلة .
ــ والعمل مع صقر مستحيل . لا بد من مكان متواضع نبدأ منه . . . العمل مع رغيد مستحيل ايضاً . . .

عادت مدام «فومهالرهون» بالأوراق وطلبت من خليل بطاقة اقامته واجازة عمله .

ــ لم احصل عليها بعد . . ربما بعد اسبوع .

ــ آسفة . القانون يمنع تأجير بيت لشخص لا يحمل هذه الوثائق . . .

ــ ولكن ، أين يذهب المرء ريثما يجد عملاً مناسباً .

ــ الى الفندق طبعاً !! . . أو (السرفيس ابارتمنتس) الشبيهة بالفنادق .

وتنهدت كفى شامتة كمن غادر كابوساً ، وتنهد خليل دامي الفؤاد مثل فأر اطبقت عليه للتو الاسنان المدببة للفخ . . .

لقد كان يعرف منذ البداية انه سيتخبط في فخه . . . لكنه حاول . . . لم يجد شيئاً آخر يفعله في لحظات صحوه غير ذلك . . . انه عبثاً يصارع مصيره ، بينما تقضي كفى وقتها في الاستسلام لقدرها والاستمتاع به الى اقصى الحدود . . . وها هو مهزوم وبائس . . ولكنه لن . . .

سيحاول التفتيش عن عمل آخر ، عن عمل غير مهين ، سيحاول ان يبدأ من اول السطر ، كأنه لم يلتق بنديم ، ولم يعمل وصقر ، ولم تألف كفى متع الثراء الضائعة منذ فارقت اهلها والمستعادة منذ التقت بآل الزهران والغفير . .

سيفتش . . . المهم ان يظل صقر مشغولاً عنه بجينا صوفيا ، الممثلة الشهيرة . . .

انه بحاجة الى بعض الوقت ليلتقط انفاسه . . . سيلجأ مجدداً الى امير والى اي مخلوق آخر يعرفه في جنيف . . الى نجيب مدير البنك الذي كان يتردد على مكتبته قبل نقله الى فرع جنيف . . وصديق الدراسة بديع الذي يعمل الآن في الأمم المتحدة . . .

سيقرع الابواب الأخرى كلها قبل ان يعاجله صقر بحفنة من (الثلج) تضيع صوابه . . . او ما تبقى منه . . . سيبدأ غداً صباحاً . . . وسيتصل بهما فور عودته الى الفندق . . .

***

السماء تهدد بذلك المطر الصيفي المداري الحار غير المألوف في جنيف . . . كفى تبدو

باهرة الحسن في معطفها الشفاف الواقي من المطر ، وثيابها البالغة الاناقة ومظهرها الشبيه بزوجة مليونير .

رحب بهما مدير البنك الاستاذ نجيب وهش وبش ودعاهما للجلوس وطلب لهما القهوة وضيف خليل بسيجارة ثم صارحه بأنه يذكر وجهه لكنه لا يذكر اين التقيا من قبل . . .

ــ في المكتبة . . كنت صاحب «مكتبة الحرية» . . . وانا الآن مشرد .

لم يبد الاستاذ نجيب مسروراً بذلك . . . تناول اداة وقص بها رأس السيجار بحقد من يقطع رأس رجل عدو وتبدلت لهجته قليلاً . . . كان قد دعاهما الى الجلوس وانتهى الأمر . . . لقد احتاط دوماً للتهرب من «فقراء الغربة» الذين يأتونه باستمرار طلباً للمساعدة ، وقد تزايد عددهم بصورة خارقة هذا الصيف منذ الاجتياح الاسرائيلي لبيروت ، لكن ملابس الزوجة الحسناء ومظهرها خدعه . . . بدا خليل لعينيه كأحد الذين اثروا في سنوات الحرب بعد فقر ، والذين طالما قرأ اسماءهم كزعماء لمنظمات (ثورية) ثم حضروا اليه طالبين فتح حساب سري شخصي ، واودعوا بنكه مبالغ طائلة . . . ولكن ارتباك خليل اثار قلقه . . «مشرد» ؟ حسناً . ذلك خارج الموضوع . . المهم بالنسبة اليه ، أهو مشرد «غني» أم «فقير»؟ . . .

ــ هل تريد ايداع ثروتك عندنا ؟ . .

ــ لطفك وحسن وفادتك يشجعني على مصارحتك بالامر . . انا في الحقيقة فقير . . . افتش عن عمل لاحصل على اقامة واستطيع بالتالي استئجار شقة ، واستعيد اولادي من المدرسة الداخلية .

ارتجف صوت خليل وشعر بقهر غاضب يتصاعد من اعماقه . ها هو يذل نفسه ويشرح احواله لرجل بدلته الايام فيما يبدو . . .

فجأة تبدل وجه الاستاذ نجيب . . . حدق فيهما مستنكراً . تجاهلهما . . . تذكر موعداً هاماً كان قد نسيه . . . لم يساعد الزوجة على ارتداء معطفها كما تقضي اللياقات بذلك وهو الذي ساعدها على خلعه لحظة دخلت وبدت ثرية ، وإنما كاد يرمي به في وجهها . . . احسا بأنه يكنسهما من الغرفة نحو الباب ، وهو يقول : سنبحث في وضعكما في وقت آخر . . لقد نسيت اجتماع مجلس الادارة . . اتصل بسكرتيرتي لتحديد موعد . . .

قالت كفى بصوت يرتجف قهراً : لسنا على عجل ، فزوجي يعمل الآن سكرتيراً لابن الغنمالي الكبير ، وقد اوصى به رغيد الزهران . .

توقف الاستاذ نجيب امام الباب وقال بدهشة : الغنمالي ؟ والزهران ؟ ما المشكلة اذن ؟ ثمة سوء تفاهم بيننا . . تفضلا . . استطيع توفير بعض الدقائق . . .

التفتت كفى بحثاً عن خليل . . كان قد سبقها الى المصعد وجسده يرتجف تحت سياط ذل الغربة . ولم تدهش حين صار يغني داخل المصعد : موطني موطني . . الشباب لن يكلّ . . . .

لكن بقية الركاب دهشوا قليلاً !

***

كان الاستاذ بديع قد رحب بخليل حين هتف اليه ، وقال له انه مشتاق واصر على دعوته وزوجته للغداء . . .

حاول خليل اقناعه بزيارة قصيرة في المكتب يحدثه خلالها في امر يخصه . قرر ان يكون هذه المرة مباشراً ويذهب بنفسه كي لا يواجه الاذلال في حال الطرد أو رفض المساعدة كما حدث له منذ نصف ساعة ، لكن بديع احتفى به ورحب ، واصر على دعوته للغداء . . . وسيمر بهما في الفندق ظهراً . . .

(إذن لم تمت الروابط الانسانية بين الناس . . مدير البنك تجاهلني . . بديع رحب بي . . انها الحياة . . . ثمة من يهتم بك لمجرد انك انسان ، لا لما يمكن ان «يستعملك» لأجله) . . .

سيارة انيقة . زوجة شاحبة . بديع استطاع الحصول على كرش معتدل في جنيف يزيد في هيئة الوجاهة التي تقمصته .

جلس خليل الى جانب بديع في المقعد الامامي ، وجلست زوجته ندى الى جانب كفى في المقعد الخلفي . . جلسة منافية للأصول الأوروبية سر خليل بها . . . كان مصمماً على ان يتحدث وبديع «رجلاً لرجل» ، بصورة مباشرة ، قبل ان يخدع بحسن مظهرهما وفخامة فندقهما . . .

السيدات بدأن الحوار أولاً ، بالشكوى طبعاً . كفى تشكو من فظاعة الحياة في بيروت ، وندى تشكو من فظاعتها في جنيف ! . . . لماذا ؟ «الايونات» في جنيف سلبية ، تسبب الصداع والأمراض والدليل في الكتب . . . وتدفقت ندى تشرح اسماء الكتب التي تستفيض في تحليل مساوىء الحياة في جنيف ، تلك الجنة الأرضية بنظر كفى . . . وبدت

ندى تعيسة ومريضة ، يتصبب منها عرق بارد وترمق المشاهد الطبيعية الخارقة الجمال على جانبي الطريق بنفور بالغ . . . قال خليل محاولاً تبديل وجهة الحوار : لعلك تفتقدين بيروت . . .

ــ اكره بيروت وجنيف معاً . . . لقد طلبت من زوجي نقلنا من جنيف الى اي مكان آخر في العالم باستثناء هنا . . وهناك .

قال بديع : نملك بيتاً جميلاً في حي الاتينيه . . والاولاد في المدرسة يتعلمون . . لكن ندى تكره جنيف وهي مصممة على تركها . . تريد مني تقديم طلب بهذا المعنى الى مؤسستي . . . سينقلوننا الى تانزانيا . .

ــ أي مكان في العالم افضل من هذا الجحيم . . .

ذهلت كفى ، وحار خليل كيف يتابع الحوار . . فقد تدفق حزن حقيقي من صوت ندى ، وكانت شكواها من الحياة في جنيف لا تتوقف . . وبدت وكأنها تعاني من مشكلة . . . وهو الذي جاء حاملاً مشكلته الى اصدقائه (المستقرين) في جنيف . .

قال بديع : نحن في طريقنا الى مونترو الآن . . سنمر بلوزان وسنتناول الغداء في مونترو او فيفي . انها مناطق خلابة على بحيرة ليمان . . عوالم كالحلم . .

قال خليل : الآن موعد الاخبار . . ما رأيك في سماعها ؟

اجاب بديع : قررنا مقاطعة اخبار بيروت . . .

ــ وهل ذلك ممكن ؟

ــ اهلنا في طرابلس لا في بيروت . . واهل بيروت يستحقون ما اصابهم . . (اللي بايده الله يزيده) . . هم الذين (احضروا الدب الى كرمهم) . . .

تضايق خليل . . . لم يستطع السكوت : أياً كانت اخطاء بعض قادة المقاومة في لبنان ، لا نستطيع ان نشمت بها او نغسل ايدينا منها . . .

ــ انت الجنوبي تقول ذلك ؟ اهلك الذين قاسوا من الانفلاش الفلسطيني زمناً طويلاً ، وعانوا تجربة صيدا البشعة منذ حوالى الشهرين . . قبل الاحتلال الاسرائيلي بأسابيع . .

ــ ربما . . لكن ذلك لن يجعلنا يوماً نقبل بإسرائيل أو ننزلها منزلة المخلِّص . . ان رفض التجاوزات التي قام بها بعض الفلسطينيين لا كلهم ، لا يجوز ان يتحول الى توجه نحو اسرائيل ، ولم نسألها يوماً عضداً نستقوي به على «السلطة الفلسطينية» . . . جنوب لبنان سيبقى ولن يتحول يوماً الى شمال الجليل كما تشتهي اسرائيل .

تنهدت كفى بصوت مسموع . . . يتابع خليل : ان الجنوبي يحسن التميز (الوطني) مهما عانى ، ورفضه للتجاوزات لم يحجب عن عينيه يوماً العدو الفعلي . . .

(هذا هو زوجي . حين يبدأ بحديث السياسة لا يختمه . . . لعله نسي لماذا نحن هنا . . .) .

يقول بديع : انا (قرفان) من كل ما يحدث . . ولن اعود الى لبنان الذي تم تدميره بحجة تغريبه أو تعريبه . . وقد عاهدت نفسي على عدم الاستماع لنشرات الاخبار . . سيواجه لبنان حرب المابة عام ، ولدي اعوام قليلة اعيشها على هذا الكوكب واستمتع بها . . .

قالت ندى بصورة مفاجئة : كل ما يهمك هو استمتاعك . انك لا تفكر باولادك أو بأسرتك . .

فوجىء خليل بلهجتها وعدوانيتها ، وذهلت كفى التي الفت اخفاء مشاعر الكراهية العائلية في حضور الناس كما تقضي بذلك تقاليد آل البيتموني . ودار حوار غامض بين ندى وزوجها ، تكيل فيه ندى الاتهامات وبديع يتحاشى غضبها ويلاطفها حتى كادت كفى تحسدها على رقة زوجها . . .

وأخيراً وصلا الى «مونترو» ، ولم تتح الفرصة لخليل لشرح مشكلته . حين استقرا على الطاولة المشرفة على «بحيرة ليمان» الباهرة الزرقة ، وقرر خليل ان يبدأ طرح مشكلته . . قال : اننا نفتش عن بيت . .

قاطعته ندى : لا تحاول . البيوت نادرة في جنيف . اضاف بديع : ثم انك بحاجة الى اقامة واجازة عمل قبل ان يرضى أحد بتأجيرك بيتاً . . وهذه امور عسيرة جداً هنا . . .

حسناً . هذا بالضبط ما يريد ان يطلبه من بديع . . انه بحاجة الى بطاقة اقامة ، أي إلى عمل شريف . . سيطلب اليه ذلك الآن مباشرة .

حضر الجرسون وافسد الفرصة . . .

ربع ساعة من الشجار بين بديع وندى حول اختيار نوع النبيذ ورداءة ذوق زوجها في هذا المجال ، ثم اختيار صنف السمك ، وهي تحب الترويت وهو يفضل الصول . . واخيراً تخلص خليل من (ورطة) الطعام ، وآن الأوان لشرح مشكلته . .

قالت ندى فجأة : مشكلتنا هي انني لم اعد اطيق جنيف ، وقد نصحني طبيبي النفساني بمغادرتها ، اما بديع فمصر على البقاء وهو يدمرني بذلك . .

قال بديع : معذرة. سأعود بعد لحظة . .

وانسحب مسرعاً قبل ان تعترض ندى . . .

حدق خليل في البحيرة الجميلة ، والمراكب البيض تنبت فوق صفحتها ، والجبال الخضر تؤطر المشهد الخرافي عند الافق ، وغمره حس عميق بالاسى . . تذكر بحيرة القرعون الجميلة في وطنه ، ونهر الليطاني الذي تصر اسرائيل على ابتلاعه . . . وقالت كفى : انك تعيشين في النعيم . . لا اتمنى شيئاً غير بيت امتلكه في جنيف . . وسأبقى هنا الى الابد . . .

قالت ندى متوترة : معذرة . . لقد تأخر بديع . . سأذهب لاطمئن عليه . . .

وانسحبت .

تبادل خليل وكفى نظرات الدهشة . . ظلا صامتين برهة ، وعادت ندى بعد قليل وقد غاض الدم من وجهها وتصبب من جبينها عرق بارد وهي تقول كمن به مس : لم اجده . . انه ليس هناك . .

ـ من ؟

ـ بديع . .

ـ ماذا به ؟

ـ لم اجده في غرفة الهاتف . . .

ـ لعله في الحمام . . . لسنا في بيروت لتقلقي عليه . . لن يختطفه احد في مونترو . لم تضحك للنكتة . قالت : ارجوك ان تذهب وتتفقده في الحمام الخاص بالرجال .

دهش خليل لغرابة الطلب ، لكنه نهض . اما كفى فقد بدأت بالتهام الطعام الشهي الذي احضره الجرسون . عاد خليل وقال ببساطة : لم اجده في الحمام . لعله ذهب لشراء سجائر . .

بدت ندى مضطربة وغاضبة ، ودعت خليل لالتهام طعامه قبل ان يبرد ففعل . احس بان شيئاً لا يفهمه يدور حوله . . قلق وعدم استقرار ، وهو الذي استنجد بصديقه (المستقر) في جنيف ليساعده في زلزاله . .

قالت ندى فجأة وهي تنظر في ساعة يدها الكارتييه السبور : عشرون دقيقة ولم يعد .

لم يفهم خليل لماذا تحصي الدقائق ، وغرقت كفى في لامبالاتها العفوية بالآخرين ومشاكلهم كبيرها وصغيرها . . فجأة نهضت ندى وقالت : يجب ان نفتش عنه . . فارق

خليل صحنه الشهي موجع القلب ، ورافقها . . غادرا المقهى ومشت ندى صوب الفندق الفخم « الجراند اوتيل » على الرصيف الثاني . . وفجأة ظهر (المفقود) وقال لخليل معتذراً : آسف . . ذهبت لاحضار سجائري . . . قالت ندى : انت كاذب . . كنت قادماً من ناحية الفندق لا من ناحية السيارة . .

ـ لم اجد بقية من سجائر في السيارة ، فذهبت اشتري سواها . . .

ـ انت كاذب . . انك تدمر حياتي بكذبك . . ذهبت لتتصل بها هاتفياً . . .

ـ اسكتي الآن . . لدينا ضيوف . . دعوتهم لأجلك لترطيب الجو . . انني احاول المستحيل لتهدئة خاطرك . .

ـ لن اسكت . . سأفضحك امامهم وامام العالم . .

وانفجرت تبكي وترتجف وسط الشارع . . فرافقها بديع الى السيارة وهو يشتم (جنس النساء) ويشتمها ، وظل خليل واقفاً وسط الرصيف مذهولاً كمن سقط فجأة وسط مسرحية لا يعرف عنها شيئاً ولا يدري دوره بالضبط فيها . .

توج ذهوله بسيجارة ، وعاد بديع اليه معتذراً ، متجهاً صوب المقهى لدفع الحساب واحضار كفى . . .

حين ضمتهم السيارة من جديد ، قال مضيفه في محاولة لتجاوز ما كان : سنتابع الدرب نحو بلدة «فيفي» ـ Vevey ـ فالطريق اليها جميلة جداً . .

وانفجرت ندى تبكي : اريد العودة الى البيت . لقد ذهبت واتصلت بها هاتفياً . . اعرف انك كلمتها . .

ـ انت يا ندى التي اقتحمت مركز عملها ، وضربتها وهشمتها وسببت لها فضيحة . . وتريدين الا اسأل عنها . .

ـ وعدتني بالا تحدثها بعد اليوم . .

ـ وعدك بذلك قبل ان تذهبي اليها في مقر عملها وتضربيها وتسببي فضيحة لها ولي . .

ـ انها تستحق ذلك . . لماذا تسرق زوجي مني ؟ . .

ـ لم تسرقني . . اننا صديقان لا اكثر . .

ـ هذا ما توهمته حتى احضر لي « المخبر » مواعيد زياراتك لها . .

التفت بديع الى خليل شاكياً : تصور . . لقد كلفت تحرياً خاصاً بملاحقتي وانفقت ثروة على ذلك . .

ـ انفقتها من مالي الخاص . . وعلى اية حال اكتشفت بنفسي خيانتك ، وفشل التحري في ذلك . . اكتشفت بالحدس . .

واحتدمت المشاجرة . . وقرر بديع تحكيم خليل وكفى . . سيذهبان بهما الى البيت وسيروي كل منهما الحكاية من وجهة نظره !! . .

هذا ما كان ينقص خليل ! . .

ساعة . . ساعتان . . ثلاث ساعات في بيت جميل . . وندى تحكي وتبكي وبديع يدافع عن نفسه ويحكي ويبكي ، وكفى تتأمل المكان الجميل بغصة وتكاد تبكي حسداً لجمال بيتهما ، وخليل مذهول وقد صعقته المفاجأة . .

وحين عرض بديع ايصالهما الى الفندق بسيارته بدل التاكسي ، قال خليل لنفسه : ها قد سنحت الفرصة . سأعرض عليه حاجتي في السيارة بعدما عملت طوال النهار لديه « كمستشار زوجي » لكن ندى اصرت على مرافقة زوجها كي لا يمر بغريمتها كعادته كلما وجد حجة لمغادرة البيت . . وتابعا شجارهما في السيارة حتى لحظة الوداع امام باب الفندق . . واحس خليل بطعم مر في فمه لعله ذل الغربة . . وسارع الى التلفزيون للاستماع الى نشرة اخبار الوطن ، وكان الوطن يتابع حريقه ، ولما يتدخل العرب في الحرب بعد . . وكل يتابع شجاره الزوجي او السياسي او العقائدي . . او لامبالاته . . والوطن يتحول الى رماد شيئاً فشيئاً . . وقبل ان ينام غنى بصوت خافت : بلادي بلادي بلاي / لك روحي وفؤادي . .

وتظاهرت كفى بانها لم تسمعه . . اغمضت عينيها واستحضرت صورة الايطالي الوسيم ، وعبارته : « آموري » رافقتها الى ارض المباهج السرية .

كل ما في عالم خليل كئيب ، يذكرها باولئك المسلحين الذين تكرههم جميعاً دونما استثناء وتتمنى لهم الشر كله . تستحضر من جديد صورة دي انجيليس لتغطي وجه خليل ، وتغرق في دفء صوته الآتي من الذاكرة : آموري . . آموري ميا . . وتقرر : لا حقيقة في هذا الكون غير الحب الحسي .

●●●

ـ متى ليلة المليار ؟ هل حددت لي موعداً؟ . . . للي تلح من اجل تحديد موعد . . كي تطبع البطاقات وتدعو الناس وتعد الوليمة . . اجاب الساحر وطفان حائراً : لا ادري ماذا

يحدث للمندل . . . كلما جربت الحسابات ليوم ٢٨ ايلول ، او لأي يوم في شهر ايلول ، تقذف الماء والزيت في وجهي قوة سحرية . . انت تريد ليلة ٢٨ ايلول ، لكن الافلاك تأبى ذلك . . .

ـ ماذا يقول « الاسياد ؟ » . .

ـ لقد قمت بحساباتي وفقاً للأفلاك والجداول السحرية . حددت اسم الشهر العربي الماضي هلالا . . واخذت حرفه . . وكان يوم ٢٨ حرفه الغين على قاعدة ابجد . . .

ثم حددت منزلة القمر ، واخذت حرف تلك المنزلة . . ثم عدت الى حرف الامهات اي اول حرف في اسم المرحومة والدتك ، والى عدد احرف اسمك . . .

ـ حسناً يا سيدي الشيخ . . . انا اصدقك فدعني من التفاصيل . . . وقل لي باختصار : متى ؟

ـ في اقرب وقت . . .

ـ لماذا ؟

ـ لا ادري . . لم يحدث لي ذلك من قبل . . . هل تذكر يوم سألني احمد الغنمالي شقيق صخر الاصغر عما اذا كان العام الآتي سيغير رئيس دولة صاحبه ام لا ؟ . . .

ـ اذكر . .

ـ يومها كان وقت السؤال اليوم الرابع والعشرين من شوال . . والقمر وقت السؤال بمنزلة الرشا . . .وكان علينا ان نعرف هل الكتاب الاعظم للمشتري وزحل الآتي يحملان التغيير . . . تذكر اننا اخذنا وقتها حرف اليوم الرابع والعشرين فكان « الخاء المعجمة » وكان حرف المنزلة في الجدول الغين المعجمة وحرف الطالع الهاء . . . وهو الثلث الأول من برج الاسد . . وحرف الاسم الميم من احمد لأن السؤال واقع في الثلث الأخير من شوال وبه كانت الامهات الاربع بهذا الترتيب هكذا (خ غ هـ م) ، وبالعودة الى الجدول كان الجواب : (يغير حاكم دولة . . اشد تغييراً من غيرها وكون الخراب فيها آتٍ بلا ريب) وهو ٥٦ حرفاً وبعد خروج الجواب هذا احتجنا الى اخراج الجواب الثاني وهو : هل الجواب الذي خرج في خصوص هذه المسألة قضاء مبرم ام معلق . .

ـ اتوسل اليك يا سيدي الشيخ . . انت الفلكي ولست انا . . . فقط قل لي متى . . .

ـ كنت احاول ان اشرح لك . . . لا ادري ماذا يحدث . . كلما حاولت تأخير ليلة الملیار حتى الخريف ، يأتيني نذير غريب . . .

ـ ماذا يقول ؟

ـ يقول ان صاحب العيد لن يحضره . .

ـ ماذا يعني ذلك ؟

ـ قد يكون ثمة سفر مكتوباً عليك . . . ولا مفر من المكتوب . .

ـ سفر ؟ لا انوي السفر الى اي مكان . . .

ـ لا ادري . . حساباتي كلها تشير علي بالعجلة يا باشا . .

ـ وفي العجلة السلامة وفي التأني الندامة . . كان ذلك شعاري دائماً . . وهو ايضاً شعاري الآن بخصوص البدء بجمع المليار الثاني قبل ليلة الاحتفال بالمليار الأول . . . .

ـ بارك الله في مالك الحلال وقوّاك على صنع الخير والبركة . . .

ـ شكراًيا سيدي الشيخ . . . سيكون ما ارتأيت . سنحتفل بليلة المليار في اسرع وقت تسمح به الاستعدادات . . .

●●●

عبثاً تطرد دنيا من عينيها صورة بحرية . . . عبثاً تغادرها الى براري النوم النائية . . ام تراه الحر غير المألوف هو الذي يضايقها ؟ . . .

تتقلب في سريرها ارقة معذبة . . .

منذ وصول بحرية ، لم تعرف طعم النوم حتى الرديء منه . . . (**تنهار الهواجس في رأسي كل ليلة وتتكسر داخله مثل آنية ضخمة من الكريستال لا أدري من يحطمها وسط جمجمتي**) . . .

بحرية . . . تتذكرها وهي تهبط الدرج دامية كأن مسامها تنزف وجلدها مغطى بالجراح ، ورائحة الحرائق تفوح لحظة عبورها للقاعة . . . لم تكتب صحيفة عن الحدث الرهيب : عن صبية يطلى جسدها بدم الابل والخفاش وتعذب باسم الحنان وتقمع باسم الوصاية والرعاية ، ويدعي قرابتها رجل جاء بها ليستغلها . وزوجها (اللعين) نديم هو المسؤول . . والحاضرون جميعاً ينتمون الى (مافيا) رغيد ، وبالتالي لن يقول احد كلمة حق خارج دائرة الهمس . . . (**أليس هذا الواقع تلخيصاً لما يدور في بيروت الآن محاصراً**

بالصمت واللامبالاة الثرثارة إلا « فيما ندر » ؟ . . وتلك « الندرة » ، أليست مثلي ، خائفة مقموعة ، وربما ايضاً خاطئة صغيرة نادمة ، او غير نادمة ؟) . . .

سمعت صوتاً يناديها . . . انها لوحتها تناديها . . هـذا الهمس (الشبحي) صارت تعـرفه جيـداً . . منذ التقت بجـراح بحريـة ، ولوحتهـا لم تدعهـا تـرقـد في سـلام ليلة واحدة . . . . كل ليلة تناديها ، تشكو لها حالها ، تؤنبها على ما فعلته بها . . تحاسبها لأنها دمرت الفتاة الصبية التي كانتها ذات يوم ، كما دمرت فيما بعد صلتها بأولادها . . . وها هي ابنتها تحصي الايام الباقية لدراستها ، ولاتقانها اللغة العربية قبل رحيلها الى الوطن . . . وابنها . . فقدته بمعنى ما . . . صار غريباً عنها . .

عاد الصوت الهامس يعذبها : دنيا . . هل انت نائمة ؟ . .

سدت اذنيها بأصبعيها ، فصار صوت اللوحة يأتيها اكثر ارتفاعاً . . .

ـ دنيا . . . هل انت ثملة ونائمة كعادتك ؟

(نعم انا ثملة كعادتي ، لكنني لست نائمة . . لم اعرف طعم السلام لحظة واحدة منذ نظرت بحرية في وجهي حين لحقت بها الى الحديقة واقنعتها بالعودة معي الى القصر من المدخل الثاني . . . ارتجفت شفتها السفلى ، كأنها تكاد تبكي ، او تريد ان تقول شيئاً ، وانطلقت من عينيها تلك النظرة الكاوية السابرة للغور ، وتراءت لي في قاعها قوة مؤنبة وقاسية وجبارة الشحنة . . ولكنني احسست بحنان جارف ينبع من اعماقي نحوها ،كأن ضربتها القاسية فجرت ما تبقى من ينابيعي الدفينة المنسية . . . ووجدتني اقول لنسيم : هذا ليس عدلاً . . . ما يحدث لهذه الفتاة هو ظلم . . . وكلنا مجرم) . . .

عاد الصوت يناديها : دنيا . . . اما زلت تغطين في نومك الثقيل؟ . . . .

نهضت ومضت الى الصالون ، واضاءت مصباحاً جانبياً ، وحدقت في لوحتها ، فلم تجد داخلها احداً . كانت اللوحة قد تحولت الى صفحة من البياض المطلق . جلست على الكرسي وقد ضيعت المفاجأة صوابها ، فوجدت « فتاة اللوحة » جالسة في المقعد المقابل ، جميلة ، نحيلة ، متأججة حياة ، وقد مسحت الدمعة عن خدها . .

تألمت دنيا بعمق وهي ترى نفسها قبـل اعوام بعيـدة جالسـة (امامهـا) ، بصباهـا الوثاب ، وشعرها غـير المصبوغ ، ونـظراتها المبـاشرة البعيـدة عن التزلف ، ونحـوها ، واسلوبها الخاص في وضع السبابة والابهام على ذقنها حين تقرر السخرية من تافه ما ، اوحين تتخذ قراراً هاماً . . . قالت لها فتاة اللوحة الجالسة على المقعد امامها : حتام تتهربين من

اتخاذ قرار حاسم ؟

ـ لا اتهرب . . . انني عاجزة ! . . .

ـ لماذا ؟

ـ لا ادري . . .

ـ سأقول لك لماذا . . .

ـ لا تقولي لي شيئاً بعد الآن ، اعرف كل ما يمكن ان يقال لامرأة مثلي ، فوفري انفاسك وانفاسي . انني ابذل كل ما بوسعي . . . هذا كل ما استطيع ان اقوله لك . . .

ـ حسناً . . اذا لم تفعلي شيئاً ، سأغادر اللوحة ولن اعود اليها . . ولن تجديني لحظة تكونين بأمس الحاجة إلي . . . ساتخلى عنك وادعك وحيدة . . ولن تقوم لك بعدها قائمة . . هذا كل ما استطيع قوله لك ! . . .

ومدت « فتاة اللوحة » يدها واطفأت المصباح ، فغرقت دنيا في الظلام . . . سقطت على سلالم الظلام . . هوت طويلاً . . وحاولت الصراخ او طلب النجدة ، فلم تجد لنفسها صوتاً . . . ضاع صوتها كما ضاع صوت بحرية . .

بعد دهور من السقوط احست بيد تهزها . . فتحت عينيها . وجدت الخادمة توقظها ، وتتأمل بسخرية نومها فوق المقعد المواجه للوحتها في غرفة الصالون، وزجاجة ماء النار الى يمينها شبه خاوية . . . قالت لها الخادمة بلهجة ذات معنى : « عودي الى غرفتك يا سيدتي قبل ان يستيقظ احد ويجدك هنا » . . .

ونهضت وصداع اليم يمزق نصف رأسها . . هذا الصداع النصفي لا يحتمل . . يجب ان تزور طبيباً . . كل يوم تقرر ان تفعل ذلك ، ثم تبتلع عدة اقراص من الاسبرين وتنادي بيكاسو وتحمله الى مزين شعره وتمضي الى النادي وترمي بجسدها نصف المترهل بين اسنان الماكينات لتدلكها ، وتنشغل عن حياتها بتصغير حجم مؤخرتها وردفيها . .

ما كادت تدخل الى حمامها حتى سمعت اصوات تحطيم اشياء . . . دفنت رأسها تحت الماء البارد ، وكل ضربة تزيد في اوجاعها ، وقررت ان احداً لم يستيقظ بعد ، والدنيا فجر ، ولم يحن وقت تكسير اي شيء . . لكن الاصوات تعالت وخيل اليها انها قادمة من غرفة ابنها . . . ذهبت اليه على رؤوس اصابعها ، وفتحت الباب بهدوء فقد تكون واهمة وتجد من يؤنبها على حماقة ايقاظه . .

لم تكن واهمة . . فوجئت بابنها باهر يدمر مجموعته الخاصة من دمى البشر الآليين

(الروبوتس) وهو طالما اعتبرها اسرته الخاصة . . .

لم يرها . . .

ولاحظت للمرة الأولى انه صار اطول قامة منها . . وانه كبر في غفلة عنها وعن دماه . . . وانه يرتدي ملابس (البانك) ويتبنى تسريحتهم المجنونة الهستيرية . . . وانه صبغ شعره باللونين البرتقالي والازرق . . . وانه حين نادته لم يعرفها . . . واجابها باشعال لفافة حشيش ، جلس يدخنها امامها بهدوء وكأنه لا يراها . . وحين جلست مقابله ، رفع في وجهها قدميه ، فلم تعد ترى غير المسامير الناتئة من حذائه (البانك) الخاص بتلك الملابس ، واسوارته الجلدية السوداء التي تلف معصمه والمسامير الفضية نفسها تحيط بها . . .

وحين حدقت في وجهه ، وجدته مغطى بالكدمات الزرق والدم لما يجف عن جرح قرب عينه . . غطت فمها بيدها ، وهربت الى غرفتها وهي تبكي . . . **(يا الهي ماذا فعلت بنفسي وباسرتي ؟ وهل هربت بباهر من بيروت كي يقتل هنا في شجار اكثر عبثية بين فئة البانكس ؟ . . . ماذا فعلت بباهر واخته ؟ ماذا فعلت بنفسي ؟) .**

***

فتح امير الباب ، ولم تبد الدهشة على وجهه حين شاهد دنيا . . . . ادهشها ذلك . . قال ببساطة كأنه غادرها البارحة : اهلا دنيا . . قالت محرجة : لم تنسني ! . كأنك كنت تنتظرني . . .

ـ كنت واثقاً من حضورك . . . لكنك تأخرت قليلاً . . . حوالى خمسة عشر عاماً . . . أو اكثر قليلاً . ضحكا . . . لم تفارقه روح المرح الاخاذة . غمرها انس عميق كمن يعود الى بيت سبق ان اقام فيه وسكنه في ايام سعادته . . . اضاف : حين اتصلت هاتفياً ، وسألت عن عنواني لتزوريني ذات يوم ، عرفت انك ستحضرين حالاً . . . فأنا اعرف انك تعرفين عنواني من قبل . . وانك طالما جئت ولم تدخلي . . . وهكذا طردت زواري . . وارتديت افضل وجوهي لك . . وخلعت نظارتي وانتعلت ابتسامتي . . .

ضحكا . . . قالت : خمسة عشر عاماً ؟ لا . . . التقينا منذ اشهر او اعوام في بيت رغيد . . .

ـ ليلتها لم تكوني انت ، ولم اكن انا . .

ـ طلب منك اصدار مجلة يموِّلها ورفضت . . .

ـ كنت اعرف عنه ما يكفي لكرهه . . . لكن الحياة روضتني فذهبت اليه لاستمع الى ما لديه . . من الافضل ان يعرف المرء ما يدور حوله ولو لم يكن ينوي ان يكون طرفاً . . .

ـ ثم انسحبت بسرعة معتذراً لحظة وصولنا . . .

ـ كان قد طاف بي في القصر . . . وتعمد اطلاعي على بركة البطر الذهبية . . فالتمثال . . . كان ينوي قهري واذلالي . . . اصر على ان اقرأ توقيع المرحوم ابي على قاعدته ، وتاريخ نحته . .

ـ ولماذا غضبت . . . لا اذكرك مغرماً « بوثن » جمال عبد الناصر . . .

ـ قد تكون لي مآخذي على الممارسات غير الديمقراطية لحاشيته ومدى مسؤوليته عنها ، لكنه مهما قلنا فيه يظل رمزاً وحدوياً ونضالياً . . انه اشرف بكثير من امثال رغيد الزهران الذين يباهون بذكائهم ويأخذون عليه (آدميته) . . . معذرة فزوجك يعمل معه . . . وربما . .

ـ لا تعتذر . . . مع اشخاص كرغيد ، يحار المرء ما اذا كان يحبهم ام يكرههم حتى وهو يضاجعهم . .

ـ لم تتبدلي كثيراً . . . ما زلت حادة الصدق . .

ـ لست سعيدة بذلك . . .

ـ شيء آخر آلمني في ذلك اللقاء . . هو انه لم يذلني كوحدوي بل اذلني كانسان . . انه يعامل تمثالاً نحته ابي مثل سبية من سباياه . . . كأنه يغتصب ابداع ابي واجدادي وفناني وطني جميعاً . . . وانت بينهم . . . ثم سخر من تسمية ابي لي بـ « امير » وهو الفقير وانا كذلك . .

ـ كنت للأسف واحدة من فناني الوطن . . . ولكني . . . انهرت . .

ـ لماذا توقفت عن الرسم ؟ لقد وقفنا الى جانبك فتخليت عنا وعن فنك وعن نفسك . . .

ـ ارجوك ، لا تقل هذا . . انك تؤلمني . .

ـ لهذا جئت الي . . . جئت كي انعش ذاكرتك . . كي اقول لك انك كنت حقيقية واصيلة ، وانك اخطأت حين قايضت ابداعك بالذهب . . .

ـ كان ياما كان . . .

ـ لن انسى يوماً معرضك الأول ، وليلة الافتتاح . . لن انسى وجوه النقاد المتزمتين ، وهم يطوفون بين لوحاتك التي لم ترسمي فيها سوى رجال عراة . . . ذلك على الاقل كان كل ما شاهدوه . . العري الرجالي ترسمه امرأة دونما ورقة توت . . .

ـ كنت جريئة . . .

ـ صعقوا . . جلدوك في مقالاتهم النقدية . . . سلخوا فروة رأسك وعالجوا دماغك بالادوية والعقاقير على طريقة الهنود الحمر ، وحين خيل اليهم انهم قلصوه في عملية (شرينكينغ) ، علقوه على ابواب الصحف المحافظة . . . ربطوك بأذناب احصنتهم وطافوا بك نوادي المدينة ومقاهيها وشهروا بك . . . امرأة ترسم الرجال عراة ؟ غير مسموح . . .

ـ وجئت انت . . . ودافعت عني . . وقفت الى جانبي وافهمتهم انني ارسم الروح لا العري ، كما نحت مايكل انجلو روح الشباب الوثابة في تمثاله العاري دافيد المنشورة نسخه في ساحات فلورنسا والمحفوظ في متحفها داخل زجاج مضاد للرصاص . . . سألتهم يومها هل سيطالبون بتوزيع المايوهات على تماثيل الشوارع في المدن التي تحترم الفن ؟ . . وهل سينشئون مصنعاً للثياب الداخلية الخاصة بالتماثيل واللوحات في روما وموسكو وباريس ولندن . . . ومتاحف العالم وشوارعه . . .

ـ طلبت منهم محاسبتك كانسان رسم ، لا كانثى رسمت ذكراً . . . لقد الفوا ان يرسم الرجال نساء عاريات على مر التاريخ ، ولم يلحظوا الامكانية الأخرى . . ان تفعل المرأة الشيء ذاته . . . وحين فعلته انت جن جنونهم . . لم يلحظوا فنك سلباً او ايجاباً ، بل بدأت ثورتهم قبل ذلك . . . لمجرد انك امرأة رسمت رجلاً عارياً . . اعتبروا ذلك اعتداء على حقوقهم ، ولم يلحظوا انك ببساطة كنت تمارسين حقاً مشتركاً او خطأً مشتركاً . . .

ـ كان زمناً جميلاً . . .

ـ تقولين هذا الآن . . . نسيت كم خوفوك ؟ . . . هل دفعوا بك للهرب الى الزواج ؟ . . . هذا ما اظنه . . .

ـ ربما . . لم اعد اذكر . . . .

ـ ترسمين الآن ؟

ـ اشياء قليلة يرضى عنها مجتمعي . . ارسم (فيتراي) نوافذ حديقة الازهار الشتوية . . ارسم فوق زجاجها اشياء تزيينية . . . بجعة هنا . . قرنفلة هناك . . بطة

هنا . . . بركة هناك . .
ـ وماذا ايضاً . .
ـ ارسم احياناً فوق الوسائد الحريرية لصالوناتنا . . . رسوماً تزيينية غبية تعجب الضيوف . .
ـ اللعنة ! . . كنت تشتعلين ناراً وتمرداً . .
ـ ارسم لشغل (الكانافاه) . . ثم انفذه بالابرة لوناً لوناً . . . رسوم تمثل عائلات سعيدة في الصيد ، او قرب شجرة الميلاد . .
ـ اللعنة . . . كنت فنانة حقيقية . . .
انفجرت فجأة تبكي . . .
اقترب منها وقبلها فوق جبينها . ضمها الى صدره بحنان . غادرها فجأة وهو يقول : سأتركك . . جربي البكاء قليلاً وفكري كثيراً . . . سأشتري بعض الصحف واعود . . .
ـ فات الاوان . . .
ـ بالتأكيد لا . . . والا لما كنت هنا . .
ـ فات الاوان . . .
ـ ربما بدأت الآن بدايتك الحقيقية . . .
ـ فات الأوان . . . توسخت . . .
ـ كلنا موسخ . . ليس بيننا من يجرؤ على ادانتك . . . .
ـ انت غير موسخ . .
ـ انني موسخ بالحقد والغيرة . .
ـ ليلى ؟
ـ اجل . . .
ـ تلك الحمقاء . . . تريد تبادل الادوار معي . . ليس بالضبط . . . لنقل انها تريد تبادل الادوار مع زوجي . . .
ـ اجل . . هذه هي المشكلة ببساطة . .
ـ حاولت ان احدثها . . ان اجرها للحديث حول ذلك . . .
ـ ماذا قالت ؟
ـ غضبت ! . . ورفضت ، وتحاشتني . . .

ـ غضبت ؟ . . اذن ثمة امل . . .

ـ لا امل . . . من يسبح في تلك البركة المذهبة لا يغادرها قط كما كان . . .

ـ ثمة امل . . .

ـ انت مشهور بتفاؤلك . . . لا امل لي ولا لها . . . غطسنا في الماء الملوث وسبحنا في بركة الذهب ولا شفاء لنا . . .

قرع الباب . . . دخل نسيم كالمجنون ، صارخاً دون ان يلحظ دنيا: ارجوك يا أمير . . رغيد ،وذلك الساحر المجنون . . سيقتلان بحرية . . ثم التفت وشاهد دنيا ، فضرب رأسه بيده وقال : معذرة ، لم ادر ان لديك ضيفة .

ـ لا تخف . . . لن تقول كلمة واحدة . . .

ـ ولكن . . .

ـ اياً كان ما شاهدته . . اياً كان ما كان . . انها واحدة منا ، وستبقى . . .

تدخلت دنيا : ما الحكاية يا نسيم . . اقسم لك على الكتمان . .

قال بلهجة ذات معنى وقلبه لما يطمئن ولن يطمئن يوماً لامرأة من طينتها : سأبادلك يا سيدتي كتماناً بآخر . . لن اقول انني شاهدتك هنا ، وبالمقابل لن تقولي شيئاً . .

قالت : حسناً . ضعها في هذا القالب ما دام ذلك يطمئنك . . ماذا حدث ؟

ـ بحرية . . يريد الساحر ان يحلق شعر رأسها ليضع روث الكلب وعين الجمل وبقية عقاقيره المقرفة لمداواتها من الجنون . . . سيدفعان بها الى الجنون حقاً . .

ـ اللعنة علي لأنني لفت نظر نديم الى صورتها في تلك الصحيفة البيروتية وقد نبهني تشابه الاسماء بينها وبين رغيد الزهران . . واللعنة على نديم الذي قرر احضارها . .

قال نسيم : لماذا فعل ذلك ؟ ما زال يحيرني امر حضورها . . هل هي حقاً قريبة الزهران ؟

ـ اراد زوجي تلميع صورة رغيد اعلامياً . . . « انظروا الثري الكبير يساعد لبنانية منكوبة » الى آخره . . . الناس يحبون مواقف مؤثرة سينمائية كهذه ، ولا احد سأله عن دوره في نكبتها . . . وهل القذيفة التي دمرت بيتها وقتلت اسرتها هي من ذلك السلاح الذي يبيعه للطرفين المتقاتلين هناك . . .

ـ تعرفين الكثير . . .

ـ اعرف ما يكفي لحمايتها . . لن اسمح لأحد بمس تلك الطفلة المسكينة ، ولو هدمت

المعبد على رأسي ورؤوسهم جميعاً . . .

ـ فيها شيء يثير جنون رغيد ووطفان . . . اخشى ان يقدما على شيء . . .

ـ سأكون معظم اوقاتي مع ليلى في القصر استعداداً لحفلة ليلة المليار . . . سأتحدث اليه اذا اقتضى الأمر . . .

ـ الساحر يتهمها بان شيطاناً يسكنها وهو بالتالي يخاطب هذا الشيطان ويعذب بحرية متوهماً انه يعذب شيطانها كلما ذهب إلى غرفتها . . . المسكينة مصابة بخرس موقت اثر صدمة ، ومنهارة عصبياً ، وبحاجة إلى علاج طبي في مناخ غير هستيري . . . لقد سمعت صوت الساحر قادماً من غرفتها . . كان هو يتحدث إلى نفسه بأصوات متعددة ، وليست هي التي كانت تنطق . . . انه يقضي معظم وقته معها . . لم يعد يذهب إلى الفندق ولا يغادرها . . انه مهووس بها . .

ـ ورغيد ، ما موقفه؟

ـ مهووس بها هو ايضاً على طريقته . . . لكنه يجهل الرفق والحنان . . . وكلما حاول غمرها بالذهب ذعرت . . . لا فارق في نظرها بين السبيكة وقطعة الحجر . . . ولا بين التبر والتراب . . . انه مهووس بها . . الكل مهووس بها . . لا يراها رجل الا ويطير صوابه . .

قال امير مداعباً : هذا واضح في سلوكك . . . اجاب نسيم : حسناً . . وانا ايضاً . . انني اهيم بها حباً ، ولكنني اشتهي عافيتها لا دمارها . .

قالت دنيا : وانا ايضاً . . . هذه الفتاة تعني لي شيئاً . . . لا . . ليست الشفقة هي ما احسه تجاهها ولكن المسؤولية . . اشعر بالمسؤولية نحوها بمعنى ما . . ولن اسمح لأحد بايذائها . . واذا جرب احدهم ، سأستضيفها في بيتي واعالجها ريثما تكون اعادتها ممكنة الى بلدها ، وقد تهدأ الأحوال ونكتشف حياً في اسرتها . . وقد تستعيد القدرة على النطق . . .

سأل امير : هل انت واثق من انها لم تكن خرساء من قبل ؟

ـ لا أحد يعرف شيئاً بالضبط عنها فيما يبدو . . . ولكن الطبيب أكد ان خرسها ليس لعلة جسدية بل لصدمة نفسية . . ورغيد أرسل من يتحرى عنها . .

ـ إلى ذلك الجحيم ؟ من يرضى بالذهاب إلى بيروت الآن؟

ـ سيدفع . . وسيجد جائعاً يذهب . . . لقد ألهبت فضوله وكراهيته وحبه في آن . . .

قالت دنيا : وداعاً يا امير . . . لدي ارتباط ويجب ان امضي . .

سألها امير : هل ستشاركيننا في التظاهرة احتجاجاً على غزو اسرائيل للبنان وحصار بيروت وقصفها وتدميرها ؟ سننطلق من ساحة مولار في قلب جنيف القديمة ، وقد حصلنا

على ترخيص من السلطات . . . ستكون تظاهرة سلمية كما تعلمين . . .

ـ سأكون هناك . . .

اردف امير : بالمناسبة . . دعوت خليل واسرته لقضاء اجازة فقراء في آنسي يوم الاحد . . . هل يمكن ان ترافقينا؟ . .

ـ سأكون معكم بأي ثمن . . .

شد امير على يدها مودعاً ، وقبل جبينها ، وهمس بعذوبة : انتظر مكالمتك لنتفق على التفاصيل . . فهزت برأسها موافقة ، وصافحت نسيم الذي بدا كطفل مدهوش ، وحين مضت قال له امير : ما زلت شاباً صغيراً . . . سيعلمك الزمن بعض مفاجآت الطبيعة البشرية . . . سيعلمك ايضاً الحنان والغفران . . تذكر يا نسيم : الحنان والغفران . . .

ـ ولكنني شاهدتها تغادر غرفة نوم رغيد مرات عديدة . . .

ـ ربما اعادها ذلك الينا . . . ربما كانت الاخطاء الفادحة وحدها تكشف للناس حقيقتهم . . .

ـ والسيدة ليلى . . . هل تظنها ستمر بالدرب نفسها ؟ . اجاب امير : لا اظن . . فهي ترفض امتهان انوثتها ، لكنها للأسف قبلت بامتهان انسانيتها كما يفعل بعض الرجال . . . في رأسها الصغير عقل رجل . .

ـ هل دعوتها للمشاركة في التظاهرة ؟

ـ لا . . . لن تحضر . . لديها فضيلة التمسك باخطائها . . . انها بمعنى ما تشبهني . . . مواقعنا متناقضة واسلوبنا واحد . يا نسيم ، لقد خسرنا ليلى .

قال نسيم بنزق الشباب : هي التي خسرتنا وخسرتك . . .

ـ لست واثقاً بعد من ذلك . . .

قال نسيم مبدلاً الموضوع الذي يعرف انه يؤلم امير : وابنك ، متى يحضر ؟ . .

ـ في اية لحظة . . . لقد منحوه التأشيرة وسمحت له السلطات بالسفر . . . اظنه ينتظر صدور نتائج امتحانات عامة الدراسي . . .

ـ هل سيشاركنا في التظاهرة ؟

ـ لا ادري . . . لا اعرف ابني . . . منذ اربعة اعوام لم اره ، ونعرف أن رسائلنا مراقبة ، لذا لا نكتب غير التفاهات . . . عشرة اعوام وانا منفي حتى من قلوب اولادي . . . لا اراهم الا نادراً وهم بمثابة رهائن هناك . .

ـ وبسام . . اين هو ؟

ـ لا ادري . . . لم يعد في الليلة الماضية . . . انه يزداد سقوطاً داخل زجاجة الخمر ، وذات يوم لن يعرف كيف يغادرها . . .

ـ واطروحته ؟

ـ اكذوبة . . . لقد غادر بيروت عام ١٩٧٥ فور نشوب الحرب ، ولم يكن صغيراً . . . لكنه قرر العودة الى الدراسة كأنما هرباً من اتخاذ قرار . . . وطال الانتظار . . . انه متفرج ، . اي انه حي مع وقف التنفيذ . . . هرب خوفاً من رصاصة تقتله ، وهو يمارس الانتحار هنا كل ليلة . . .

ـ سيقتله الانتظار . . .

ـ انه ليس قذراً . ليس من ذلك النمط الذي غادر بلده خوفاً من التورط تمهيداً للانضمام الى الرابح ـ اياً كان ـ فيما بعد . . . في اعماقه يقطن هاملت صغير . . . انه حقاً عاجز عن اتخاذ اي قرار . . .

قال نسيم : مسكين : . ان الاشياء واضحة في رأسي اكثر مما ينبغي . . .

ـ هكذا الشبان دوماً . . . وهم لذلك معرضون لارتكاب الحماقات اكثر من سواهم . . . لكن الحياة تفاجئهم دائماً بالآخرين ، وبأنفسهم . . .

ـ ماذا تعني . .

ـ لا اعني تبريد حماسك واطفاء نار همتك . . . ولكن تذكر ان الاسود والابيض ليسا اللونين الوحيدين في هذا الكوكب . . . واحبب حبيبك هوناً ما ، عسى ان يكون بغيضك يوماً ما . . .

ـ لن يحدث ذلك لي في اي يوم . . . اني ثابت على موضعي . . .

ـ الدنيا ليست ثابتة . . . وكي تظل ثابتاً حقاً سيكون عليك ان تتحرك كابرة البوصلة . . . ابرة البوصلة وحدها تتحرك من غير ان تخون ذاتها . . . بل انها تبدل موقعها احياناً كي يظل اتجاهها ثابتاً . . .

ـ هل تظن ان حكمة البوصلة تقتضي دعوة دنيا وكفى في نزهة واحدة ؟ الا تعرف ان كفى صارت الست كوكو ، وانها نجمة صاعدة في عالم نديم وامثاله ؟ كيف تدعو جاسوسة لاجازة نهاية الاسبوع ، ستخبر نديم بسر دنيا ، وقد تعود دنيا لخيانتنا وتكشف سر خليل . .

ـ لن تعود دنيا الى خيانتنا . . . اعرف الطبيعة البشرية بما يكفي لتأكيد ذلك . .

ـ هل صار في مقدوري ان اثق بها ؟

ـ ليس اكثر مما ينبغي . . . انا اثق بها وبالمقابل لن يضايقني فضح بعض الاسرار واعادة خلط الاوراق . . . هذا زمن الفضح .

ـ هل استطيع ان اطلب منها خدمة مثلاً ؟

ـ ماذا تريد ؟

ـ ان تسرق جواز سفر بحرية من حوزة نديم !! . . .

ـ لماذا ؟ هل تنوي اختطافها ؟ . .

ـ قد نضطر الى تخليصها من جنون الساحر . . . من يدري . . .

ـ سافاتح دنيا بالأمر في نزهة الاحد . . . لكنني سأحتفظ بجواز سفرها عندي اذا تمكنت دنيا من الحصول عليه . . . لا اطمئن الى رعونة الشباب وطيشه . . ثم انك تبدو عاشقاً . .

ـ انني اكثر من عاشق . . . واقل من ذلك . . .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اشتهي سلام بحرية ولا اشتهي وصالها . . . فيها شيء يذكرني بشقيقاتي وامي . . .

ـ هذا يعني انك تحبها حباً حقيقياً . . .

ـ لا ادري بالضبط . . . انني على اتم استعداد للموت من اجل سعادتها ، بي او بدوني . . .

ـ هل هي جميلة الى هذا المدى ؟

ـ انها بالتأكيد كذلك . . . ولكن جمالها هو اقل ما فيها . . ثمة ضوء يشع من حضورها . . . كهارب توقظ في اعماقك ازماناً منسية من الحرية الشاسعة . . .

ـ تقصد انها مسحورة؟

ـ انها تخرج السحر من اعماقك انت ، او مايكمن داخلك . . . كأنها مخزن للطاقة يفجر حقيقة كل من يلسها . . ويدفع بالأمور الى حافاتها النهائية . . . المتأزمة . . . تبدو لي احيانا واعية لكل ما يدور حولها . . . وتبدو تارة اخرى شبيهة بقوة قاسية لا مبالية : كالطبيعة . .

ـ اعتقد انني افهمك . . كل منكم يراها بصورة مختلفة . خليل يرى فيها مصيراً ممكناً لاولاده ، وقد اقلقته فقضى يوميه الاخيرين باحثاً عن مخرج من ورطته . . .

ـ وهل وجد شيئاً . .

ـ لا أدري بعد . . .

ـ لقد كان مشهداً مروعاً . . . هبوطها الى الحفلة مغطاة بالدم . . . لكن احداً لم يبال حقاً بمصيرها ، ثم انهم يثقون بالساحر ويخشونه . . .

ـ ورغيد . . . أليس اذكى من ان ينطلي عليه جنون ساحره ؟

ـ انه كالطفل بين يديه . . لقد خلبت بحرية لبه ، لكنه يوماً بعد يوم يكاد يصدق ما يقوله عنها ساحره ، لا طبيبه السويسري . . .

ـ والشيخ وطفان ؟

ـ تارة يشتهي ودها ، ويحاول ارغامي على دس تعويذة الحب في طعامها ، وتارة اخرى يبدو قانعاً بجنونها ، لكن رأيه استقر اليوم على انها مسكونة بعفاريت شديدة البأس تخطط لهلاكه . . . وبات يكرهها ويخشاها ، وهذا ما قد يدفعه الى سلوك ارعن . . . اتوسل اليك ، لا تنس حكاية جواز سفرها . . .

ـ اعدك بان افعل . . .

ـ هل يمكن ان تطلب ذلك الى خليل ايضاً ؟

ـ ماذا بوسع المسكين ان يفعل ؟

ـ لا يضيرني قرع الابواب كلها . . .

ـ خليل سيرحل في اية لحظة مع صقر . . . لقد انجزت ليلى التأشيرات . . سيرحل ، الا اذا نجح في مسعاه ووجد عملاً .

ـ ارجو ذلك . . . ولكن هل حصل على اجازة عمل من صقر ؟ سيسهل ذلك اموراً كثيرة . . .

ـ لقد مر بي اول البارحة في زيارة خاطفة ولم يمكث طويلاً ، وليلى المحنكة لم تنجز غير التأشيرات له ولأسرته ايضاً ، كي يظل خليل تحت رحمة الغنمالي ، دونما اجازة عمل وتحت طائلة ترحيله وعائلته في حال عدم الرضى عن سلوكها ! . . ولكنه كان يمني النفس بلقاء صديقين من بيروت . . . لم يقل لي المزيد من التفاصيل فقد كان المسكين مشغولاً باستخراج عبارات « منجمون »و « تنجيم » و « سحرة » في القرآن . . لقد طلب هلال الغنمالي ذلك منه ليقرر هل يستشير الشيخ وطفان في امر مرضه ام لا ! ! . . .

ـ وطننا تأكله النيران ، وثمة من هو مشغول بمعرفة جنس الملائكة ، والسحر حلال ام

حرام . . . لا احد يبالي حقاً بما يحدث لنا . . . وحدهم عرب الأرض المحتلة خرجوا في تظاهرات احتجاج على غزو لبنان . . .

ـ لا تفقد ثقتك يا نسيم بشعبك وامتك مهما حدث . . . امتنا قد تضيع وقتاً او تتخدر ، لكنها لن تموت ولن تفقد اصالتها . . .

صمت نسيم على مضض . كان يعرف ان امير لا يسمح لأحد بالتشكيك في امته . . . وانه ينطلق من الايمان بها . . وهذا سر تفاؤله ! . .

●●●

آه ما اطول حبل الكذب . . . ذهل خليل وهو يرقب طـاقة صقـر على الاستمتـاع بالكذب . . كان يودع عمه هلال ويقول : انا مسافر يا عمي لانجاز معاملات التسجيل في لندن . . سأعود الى الدراسة . . .

صدقه هلال وقال : بورك فيك . . ها انت تعود الى اصلك . . . لم يكن في اسرتنا (صايع) قبل ان تصيب لوثة اوروبا اخي المسكين . .

دخل صخر وسمع العبارة الاخيرة وبدا في حالة هياج : لا اسمح لك بالحديث عني بهذه اللهجة امام احد اولادي . . .

ـ لقد علمت اليوم بأمر حريمك . . . الجناح الذي استأجرته لهم في الفندق ، والرمال التي غطيتم بها سجاد المشى (الموكيت) . . هـذا غير معقـول يا اخي . . . واذا بليتم بالمعاصي فاستتروا . . . ثم اننا في شهر رمضان المبارك . .

ـ لقد ابعدت اسرتي عن البيت لأجل راحتك . . وانت تراقبني وتتجسس علي ؟

ـ لم اتجسس عليك . . . قضيتك لم تعد بحاجة الى جاسوس . . . انها تحتاج الى شراء جريدة . . . خذ . . . اقرأ . . . ناوله صحيفة سويسـرية . . . شاهد فيها صـورة مديـر الفندق ، ثم صور نساء حاشيته يطبخن داخل حمام الفندق الفاخر ، وصور بعض اولاده يعبثون في الشوارع ليلة احد اعياد جنيف . . .

قال هلال غاضباً : اقرأ . . . قد تكون مصاباً بعمى الالوان ولن تستمتع بالصور كما يجب ، لكن الحروف مطبوعة بالاسود فوق الأبيض . . .

اجاب صخر بلا مبالاة مصطنعة : تعرفها يا اخي . . . انها تلك الصحافية الأجنبية شارلوت بارنز التي تطاردني سعياً وراء المال . . . سبق لها ان الفت كتاباً كاملاً عن الاثرياء العرب من النمط ذاته . . . انها محترفة في هذا المجال وهي اليوم تسعى الى تأليف الجزء الثاني من الكتاب .

ـ أياً كانت دوافعها ، لو لم تجد نقطة ضعف لديك لما كشفتها . . . لا تهمني نواياها ، المهم فضائحنا . . . وخزينا امام ابناء بلدنا واهل الأرض . . . .

ـ لا تخف . . . اولاد بلادنا لا يقرأون الصحف السويسرية . . .

ـ انت واهم يا اخي . . . مصر على عمى الالوان . . انهم يقرأون ويفهمون ويحقدون وثمة من سينقل اليهم هذا الكلام ويترجمه ، ولن يغفروا لنا ممارسات كهذه بينما الفلسطينيون يُذبحون واللبنانيون يُذبحون ، والمجاهدون من جنسيات اخرى يموتون معهم ونحن نلهو في شهر رمضان في فنادق سويسرا . . .

ـ استغفر الله . . . اننا لم نله في رمضان . . النساء يطبخن في حمامات الفندق طعامنا الوطني لأجل السحور . . . . اننا نتعذب ونصوم نهاراً طويلاً طويلاً ولنا ثواب على ذلك . . . الم تلحظ ان الشمس لا تغيب هنا قبل التاسعة ليلاً . . .

ـ لماذا تصرف الأموال لتحويل جنيف الى شبيه بأرض الوطن ، وتجعل منا سخرية للغريب ، بدلاً من انفاقها لتحويل اوطاننا الى جنات كجنيف ؟ . . . لماذا يرقص أولادك في شوارع اعيادهم ويبذرون النقود ويرشون الدهان الملون على وجوه الناس ويصابون بهستيريا الفرح هنا . . . لماذا لا نعود جميعاً الى الوطن ونحتفل باعياده ؟

ـ لاننا نعيش في اوطان كئيبة لا مساحة فيها للفرح والحرية . . لان اعيادنا طقوس كآبة ، وزيارات مقابر ، وواجبات اجتماعية تخنقك وتحتاج بعدها الى اجازة . . .

ـ انها كذلك لاننا نحن صنعنا منها ما هي عليه . . . لا يضير الانسان ان يتذكر موته ، ليعيش حياته كأنه سيموت غداً . . . في المقابر حكمة لا تفسد الا المتع السطحية . . .

ـ احب المتع السطحية ، احب الوطن لكنني اختنق هناك . . . نساؤه يخنقنني ، رجاله ، تقاليده ، قد اكون مخطئاً لكن وطني ايضاً ليس على حق . . .

غضب هلال وارتجف وصرخ في وجه اخيه مقسماً على الرحيل : وجودي هنا للاستشفاء يمرضني . . لم اعد اطيق فضائحكم . .

ومد يداً مرتجفة الى خليل تحمل الجريدة وقال له آمراً : اقرأ لهم ، وترجم . حدثهم عن

سعادة مدير الفندق الشهير ، وعدم نكرانه في الوقت ذاته صلاته كيهودي باسرائيل وتبرعاته لها . . . انه يتبرع لاسرائيل من اموالنا . . . انهم يقتلون العرب في بيروت بأموالنا نحن التي نبذرها . . . اقرأ لهم ما تقوله عاملات التنظيف عن وساخاتنا واولادنا واحتقارهن لسلبية نسائنا الغارقات في الكسل والذهب . . . حسناً فعلت ابنة العم زوجتك حين حملت اولادها وعادت بهم الى بلدهم وللمتهم من شوارع ماربيا وسان تروبيز ونيس تحت جناح تلك المدرسة في الوطن . . .

ـ تلك المدرسة عمرها رغيد . . . تذكر ذلك قبل ان تحرمنا من تعهد المطار . . . « شغل الترابية » وحده يقدر بـ ٥٠ مليون متر مكعب من «الترابة» . . من سوانا يقدر على ذلك ؟ . .

ازداد هلال هياجاً : خزاك الله . . جعلت منا سخرية للغريب والقريب ، وتريد ان تربح مزيداً من المال تنفقه على خلاعتك وبذخك . . قسماً بالله لن اسمح لقرش بان يمس يدك قبل ان تعود الى الصراط المستقيم . . . ولن ابقى في هذا البيت النجس لحظة واحدة بعد اليوم . .

قال خليل فجأة : طلبت مني يا شيخ هلال ان ابحث لك عن عبارة « كذب المنجمون ولو صدقوا » في القرآن . . . لقد فعلت . . انها غير موجودة . ولم ترد عبارة « منجمون » او « تنجيم » في القرآن . . لكن عبارات « سحر » وساحر وردت بكثرة . . . عبارة « سحر » وردت في ثلاث وعشرين آية كريمة . . وعبارة « ساحر » وردت في ثلاث عشرة آية . . كما وردت مشتقاتها في « سور » كثيرة . . وهذا جدول بها يا سيدي هدية وداع مني . . .

وذهلوا جميعاً حين مد خليل يده بورقة الى هلال فيها سجل دقيق بما سبق ان طلبه الرجل ذات لحظة ، ونسيه . . .

قال هلال : انك لست رديئاً بقدر ما يتصور المرء .

تلقى خليل الاهانة ، وظل صامتاً . . .

اضاف هلال : اني آسف لسوء ظني بك . . وبابناء شعبك جميعاً . . . لم يقل خليل حرفاً واحداً . . ظل مطرق الرأس حزيناً .

(أجل . . . اننا نعبر عن انفسنا بشكل رديء ، ونسيء الى سمعتنا بايدينا ، في حين يتقن بعض العرب لعبة الازدواجية ويبدون افضل مما هم . . . آه ما جدوى ان اقول شيئاً بعدما تقاتلنا وذبح الجار جاره في وطننا ، وباع بعضنا نفسه في الغربة من اجل حفنة من الخطايا . . .)

كان الشيخ صخر أول من التقط انفاسه ، منتهزاً فرصة هدوء شقيقه ، وقال له مخاطباً : أرجوك . . . الا ترحل . . . سنستشير الشيخ وطفان بشأن مرضك . . .

ـ انتم مرضي . . . واني لراحل . . ثم انني لم امعن النظر في تلك الآيات لأقرر ما اذا كانت تنفي وجود السحر ، او تلعنه ام لا . . . ولكنني بالتأكيد راحل . .

غمز صقر سكرتيره خليل باشارة ذات معنى (اتبعني) ، وغادرا الغرفة ، فلحق به خليل وهو يدمدم معتذراً : عن اذنكم . . .

وقال له صقر حين غيبهما الممشى : هل صدقت اننا ذاهبان الى المدرسة ؟ اننا ذاهبان للاستمتاع بعجائب الدنيا السبع . . . ما دام عمي مسافراً فلن نسافر الآن وسنؤجل رحلتنا واطوف بك في متع سويسرا اولاً . . .

ـ كما تشاء . . .

ـ بدلت رأيي ! سنرحل

ـ كما تشاء . . .

سنوات وسنوات ونحن ننتظر الفرج منهم ، وهم يلصقون نقودهم فوق اعيننا كي لا نرى ما يفعلون ، ويحشون بها افواهنا كي لا ننطق . . . سنوات وسنوات وهم يتحدثون عن « عروبة لبنان » بدلاً من « عروبة العرب » وعن « تعريب لبنان » الذي دفع ابناؤه دمهم توكيداً لهذه العروبة . . . فماذا عن عروبة بقية العرب ؟

ما اطول حبل الكذب . . . وما اكثر سطوته واتباعه . . . اما الصدق الذي ابتلاه به الوالد ، فشهيد منسي بلا قبر ولا شاهدة . . .

ركبا في السيارة ، وانطلقت بهما قرب الموضع الذي دفن فيه خليل (الخرقة) كما صدرت اليه الأوامر من قبل رغيد تلبية لمشيئة الساحر . . . لم يصدق انه تسلل في الظلمة وقام بهذا العمل الوضيع كأي كلب يحفر في الارض بحثاً عن قطعة عظم دفينة . . . حينما يشم ذلك المسحوق الابيض السحري يصير قادراً على كل شيء الا الخجل . . .

اذن لن يسافرا اليوم وقد لا يسافران ابداً . . . ها قد بدل صقر رأيه ، ولم يأبه به ، فهو دمية اضافية اشتراها والده له من مخازن « رغيد ليمتد» . . .

قال له صقر : لن اكون بحاجة اليك في عطلة نهاية الاسبوع . . . تذكرت سيمفونية ناقصة سأنجزها بنفسي . . .

ضحك ضحكته اياها الضائعة بين شهقة العبث والجزل والموت ، وسرت رعدة في

جسد خليل . . . كان قد تحاشى (الشمة اليومية) الارغامية لمسحوق الطيران الابيض ، وحواسه متنبهة ومتوازنة . واردف صقر : اما صاحبنا السائق فسأكون بحاجة اليه في عطلة نهاية الاسبوع . قل له ذلك . . . نقل خليل ذلك للسائق السويسري ، فرد الآخر بكل تهذيب وقال اشياء كثيرة . . فهم صقر ، وصعق ، وقال لخليل وهو يرتجف : يرفض مرافقتي ويتمسك باجازته ؟ يريد ان يقضيها مع اسرته ؟ يقول ان لديه برامجه للعطلة ؟ يحاول توكيد حريته بغض النظر عن رتبته الاجتماعية ؟ يرفض توكيداً لانسانيته ؟ الوغد . . سأطرده الآن . .

ـ لا تستطيع قبل ان تبلغه ذلك وفقاً للاجراءات القانونية هنا ، وتدفع له تعويضاته . . . صحيح انه سائق ، ولكن ثمة من يحميه هنا . . انه سويسري .

ـ من يحميه مني ؟

ـ القانون . النقابة . سلطات بلده . . . صحيح ان السواح يحبون سويسرا لكنها مفصلة على مقاس اهلها لا السواح . . .

ـ تتحدث كواعظ . . دمك ثقيل . . خذ شمة اخرى . .

***

حين غادر خليل الغرفة ، فتح هلال الورقة المطوية بعناية ، وقرأ بامعان كل ما سطره فيها ذلك اللبناني الشقي ، وكانت تحمل عنوان : السحر في القرآن . ويتبعها جدول فيه : اللفظة ، الآية ، رقمها ، السورة ، رقمها .

قرأ الشيخ هلال هذه الآيات التي استخرجها له خليل من القرآن الكريم . . . قرأها بامعان ، وهو يتذكر النص الكامل للسور . . . فقد سبق ان حفظ القرآن في طفولته . . . ثم دفن وجهه بين يديه طويلاً ، والشيخ صخر جالس امامه صامتاً حابساً انفاسه ، وقد تدفق في قلبه الطفولي حبه العميق لشقيقه مشوباً بالندم لشجارهما . . .

واخيراً كسر هلال ابريق الصمت وقال : سأسافر دون ان ارى ساحرك .

ـ كما تشاء يا اخي . . . ارجوك الا تظل غاضباً . . .

ـ حين اقرأ كلام الله تصفو نفسي . . . لكنني غاضب من نفسي . . لقد ظلمت هذا الرجل اللبناني المسكين وقسوت في معاملته . . .

ـ لا بأس . . . هذا جزء من مهنته . . . ان يتحمل اخطاءنا . . .

ـ لنا وقفة امام الحق معاً . . . لقد أسأت فهم ظروفه وسلوكه . . . صقر هو الظالم لا خليل . . صمت الشيخ صخر ولم يدافع عن ابنه ، لا يدري لماذا . . .

اخرج هلال من جيبه دفتر شيكاته ، وسطر كلمات ووقع ، ووضعه في مظروف صغير . . والى جانب الثروة الصغيرة التي اهداها لخليل ، ترك بطاقة كتب عليها : آسف يا ابني . كلنا نخطىء احياناً . واذا اوصدت الابواب في وجهك ، بابي مفتوح . وكانت البطاقة تحمل عنوان الشيخ هلال في وطنه .

اغلق المظروف وكتب عليه اسم خليل ، واعطاه لشقيقه قائلاً : هذا لخليل . . . لا تنس . . .

وضعه صخر على طاولة غرفة المكتبة ، ونسيه لحظة افلتته يده ! . .

●●●

وقف خليل امام رف (المظاريف) في مخازن (البلاسيت) الكبيرة . . . كان بحاجة إلى مظروف واحد يودع فيه بطاقات الهوية اللبنانية له ولاولاده خوفاً عليها من الضياع بين اكوام الفوضى في غرفة الفندق وسط جوارب كفى المذهبة واحذيتها الحمر التي كانت تتكاثر يومياً كالأرانب . . .

وجد الحجم المناسب يباع في رزمة تحتوي على مابة مظروف . . . وهو بحاجة الى مظروف واحد فقط . . . قرر ان يفاوض موظفة البيع حول ذلك . . . شرح لها حاجته بلغته الفرنسية الجيدة ، ولكن المشوبة بلكنة غريبة بالطبع . . . زجرته ورفضت بحث الامر معه واهانته متعرضة لعدم فهم الاجانب المتخلفين لفكرة (السوبر ماركت) حيث يباع كل شيء اوتوماتيكياً كما هو وبالسعر المدون عليه . ووقف خجلاً كالتلميذ المذنب الكسول يستمع الى تقريعها وخيل اليه انه يحمل على رأسه قبعة لها اذنا حمار. وقطع تأنيبها وصول شاب بدا واضحاً انه (ابن بلد) ورقيق الحال يريد الطلب ذاته . . مظروفاً واحداً وليس مستعداً لشراء المائة . . وقبل ان تلقي عليه اكثر من سطر من المحاضرة ذاتها ، جابهها بالصراخ والاحتجاج ولعن مخازن (البلاسيت) التي يفترض انها شعبية لكنها تستغل الناس وقرر فضح امرها امام الملأ والتشهير بها وبمؤسستها ، ورفع شكوى للمدير وللبوليس . .

وحاولت البائعة مناقشته فصرخ في وجهها وتابع غضبه الشفهي بلهجة (الأرجو) لفرنسية العامية ، واذعنت البائعة له حين هز لها احد المسؤولين برأسه موافقاً ، وكان اضحاً انه حارس يتظاهر بانه احد الزبائن . . .

وظن خليل ان ما هو مباح لذلك المواطن مباح له ، فعاد يطلب منها الشيء ذاته طالباً المساواة ، لكنها صبت جام غضبها على رأسه وكررت ما قالته في المرة الأولى متجاهلة حادثتها مع مواطنها . . .

وشعر خليل بذل الغربة نصلاً يخترقه حتى قاع روحه . . . في جيبه من المال ما يكفي لشراء كل ما في (البلاسيت) من مظاريف ، لكنه عاجز عن شراء الاحترام او المساواة ، في حين استطاع الرجل الآخر تحصيل حقه في كل شيء وليس في جيوبه على الأرجح اكثر من فرنك واحد . . .

لعن الله ذل الغربة . . أليس الوطن هو المكان الذي لا يستطيع احد تحقيرك فيه ؟ تستطيع ان تكون فقيراً وتعيش في بلادك موفور الكرامة من حيث المبدأ على الأقل . . . وذلك مستحيل في اي مكان آخر . . . الا اذا كنت من طبقة (الجت ست) ، فالمال يتنقل معززاً مكرماً في كل مكان تقريباً . .

دهمه من جديد ذلك الذعر البائس المرير : هل ستمنعه اسرائيل من العودة الى وطنه ؟ . . حين غادر (البلاسيت) مشى عشر دقائق حتى جزيرة « جان جاك روسو » التي تتوسط نهر الرون . . كان المكان شبه مقفر وريح (الكانيكول) تلسع الوجوه بنار سرية تحملها . . وامام عيني تمثال روسو صرخ خليل بأعلى صوته : لعنك الله يا بيغن . . . عسى ان يصيبك حزن في حياتك وبؤس كالذي سببته لنا . . .

لم يلتفت حارس الحديقة ، وتابع البجع الابيض تهاديه على صفحة البحيرة . . التمثال وحده بدا ان جفنه رف . . وربما دمعت عينه . . ام انه يتعرق حراً ؟ . . غادر الحديقة وهو يغني : « نحن الشباب لنا الغد » بصوت حزين مكسور كأوتار صدئة في عود منسي . .

حين عاد خليل الى الفندق ، وجد اوامر من صقر : سنسافر بعد غد عند الفجر . . . وهوى خليل في بئر ذل بائس : اذن سيرحل بعدما فشل في الحصول على اي بديل . . . انها الأوامر . . . انه ذل الغربة . . وثمة من يجدك محظوظاً لأنك وجدت من ينفق عليك مقابل اهانتك . . . سيرافق صقر ويدلله كصبي مفسود . . وستتفرغ كفى لخدمة رغيد في فريق العمل الذي تديره ليلى استعداداً لليلة المليار . . وقد تجد بعض فراغ تهرب فيه من حيرتها واحزانها الى نشوة الجسد . . اما هو فحيرته واحزانه عطلت لديه نشوة الجسد ، كأنه يحمل اعضاءه كلها في رأسه المعذب المهدود . ذل الوطن اولاً ، والآن ذل الغربة . . .

لا يدري لماذا تذكر بحرية . . . تلك الغريبة مثله ، ماذا تملك لأمرها ؟ . . تلك

الساقطة في فخ العنكبوت الذهبية القاطنة في الوكر المرعب ، كيف تواجه ذل الغربة ، ممزقة الجسد والذاكرة والروح ، هامدة الصوت ؟ . . أليس في دربه ليصير مثلها ، هو وابناء شعبه من السبايا المنذورة للقمع والتمزيق والاذلال ؟ . . .

●●●

مساء حار ، وجنيف تزفر انفاساً صحراوية يسمونها «الكانيكول» . . . . وهذا بيت يليق بها ان تقطنه . . . لقد حدست منذ البداية الذوق المرهف لنديم ، وتأكدت الآن من ذلك . . .

كل ما فيه يليق بكفى البيتموني ، بدءاً بجرس الباب الموسيقي ، مروراً بجرس الهاتف الخاص الرنين وانتهاء بصوت الخادمة ليليان وهي تقول لها : « وي مادام » . . . حاضر مدام كوكو . . .

حين هتف نديم وواعدها على اللقاء في عنوان تجهله ، توهمت انها في الدرب الى فندق آخر . . . لكنها وجدت نفسها امام مبنى سكني باهر الفخامة ، مدخله مرايا ، وكاميرات تلفزيونية لأمان السكان ، وباطنه صدفة تليق بلؤلؤة مثلها . . . كان ينتظرها امام الباب ، وارشدها الى (الكود) السري لفتحه كي يكون في مقدورها الحضور متى شاءت . . .

قال لها : « هذه شقتي الخاصة السرية . . . اعتبريها ملكاً لك » . ويا لها من (دوبلكس) خرافي الأناقة والفخامة . . . المقاعد المخملية ، والوسائد الحريرية ، و (الموكيت) الثري كعشب ابيض ، فالسلم الذي يقود الى غرفتي نوم . . . وغرفة النوم واحة حب ، والستائر ترقص مغناجة لتكمل رقصة السرير الدائري الذي يتوسط الغرفة ، ويدور بضغطة فوق زر كهربائي ، وفي « السقف ـ المرآة » شاهدت حسنها باهراً كما لم يكن ابداً . . .

اشعل الثراء بوهجه مشاعرها ، فانكبت على جسد نديم الصدىء تزيل بشفتيها عنه الرماد والغبار وتكنس زواياه بشعرها واهدابها . . . ها هو ينبض ويحلق معها وصوت الموسيقى يضيع مع تأوهات نشوتها بالطيران الدافىء المسحور ، ونديم يفرد جناحيه نسراً يحملها الى قمم لا مألوفة . . . (ادوية الشيخ وطفان فعالة حقاً . . . ما يحدث لي لا

يصدق . . . لقد نسيت طعم هذه النشوة الشابة منذ زمن بعيد . . . كفى تتوهمني فحلاً ولا ادري لماذا يسعدني ذلك ! . .) . . . .

نهضت الى الحمام كأنما لتطمئن الى جمالها . . . مرت بغرفة صغيرة مخصصة لخزائن الثياب . . . كم حلمت بأن تكون لها غرفة كهذه تقود الى الحمام ، وتتسع لمئات (الفساتين) ولا شيء غير الاناقة والمرايا . . . الحمام جنة نسائية . . هذه مرآة مكبرة لترى وجهها تحت مجهر التجميل . . . سشوار للشعر . . ميزان للرشاقة . . . اللعنة على خليل الذي حرمها وعاء يليق بها . . . لن تغادر هذه الجنة من اجل أي مخلوق . . . ستبقى في هذه الشقة مع مالكها ، نديم او سواه ، لا فرق . . .

اججت اكتشافاتها لخزائن الثياب عواطفها من جديد وهي تتخيلها ممتلئة (بفساتين) للسهرة تخصها ، وبمئات الاحذية الحمر ذات الكعب العالي ، فغسلت وجهها ، واصلحت زينة عينيها بماكياج جديد وجدته قرب مرآة الحمام ، وعادت الى جناحي نديم تحرضهما على طيران جديد . . ووجدته يحلق بها من قمة الى اخرى . . . وهي تطلب المزيد . . . المزيد . . .

وفجأة شعر نديم ان قلبه يكاد ينفجر . . . **(لكل شيء حدود . . حتى عقاقير الشيخ وطفان . . الا شهوات هذه المرآة اللامتناهية فلا حدود لها) . . .**

انقذه رنين الهاتف . . . وجدها فرصة لاستعادة مظهره الجاد . . . وسارع الى ارتداء ثيابه والهرب من براثنها لعمل طارىء كما ادعى . . .

سألها متظاهراً بالبراءة : هل يضايقك ان يحضر ضيفي لزيارتي هنا ؟ انه ثري عربي كبير وثمة عمل لا يمكن تأجيله . . .

تمددت داخل قرص مرآة السقف ونشرت اعلام عينيها الزرق فوق قممها البيض وقالت وهي تتقلب بنشوة : اهلاً به . . . هنا أو في الصالون تحت. . .

وضحكت لنكتتها . . . .

اما نديم فلم يضحك . كان ذلك ببساطة مخططه ، اليوم او غداً . . وكان يعرف انها ستستجيب بنشوة لذلك ، وهذا افضل انواع الغواني . . . ستستمتع (بعملها) وتمتع ، وسيساهم ذلك في المردود العام لاعماله . . . المضيفات الجميلات ضرورة في دنيا (البيزنس) لاصحاب الملايين الطامحين بالمليارات . . .

●●●

فجر حار ، وجنيف تزفر انفاساً صحراوية . . . يبدو بسام منهكاً وهو يقول لأمير : جئت اودعك . . .

كان امير قد نهض في الصباح الباكر جداً ، للقاء خليل واسرته ودنيا ، امام موقف الباص الذي سيقلهم الى « آنسي » لقضاء اجازة الاحد . . . فوجىء بوصول بسام ، ورائحة الخمرة ما تزال تفوح منه ، وبدلاً من ان يعتذر هذه المرة كعادته ، قال جازماً : جئت اودعك .

حاول امير (تبريد) الموقف ريثما يهدأ بسام وتنجلي (النوبة) : ظننتك سترافقنا الى « آنسي » .

ـ لن ارافقك الى اي مكان يا امير . . ولن اخرج في تظاهرتك . . سأخرج الى الابد من حياتك ، وسأخرجك من دورتي الدموية انت وما تمثله . . .

ـ ماذا حدث فجأة ؟

ـ انني خائف . . يزداد خوفي يوماً بعد الآخر . . .

ـ ولكنك لا تفعل شيئاً . . .

ـ قررت ان افعل شيئاً . . . سأهرب الى كندا او استراليا . . . سأنسى كل شيء عن زمني الماضي . . . سأنسى كل شيء عن هذا المكان . . .

قالها وهو يشير بيده الى خارطة العالم العربي التي تتصدر وحدها الجدران العارية . . وتابع ضارباً على قاعدة تمثال فارغة : وسأنسى كل شيء عن تمثال والدك الذي تحلم باستعادته وقد اعددت له قاعدته هذه . . كل شيء عن تظاهراتك اللامجدية . . . وكتبك وروادك وحلقاتك الفكرية . . . ذلك كله لا يجدي . . .

ـ والهرب ، هل يجدي ؟

صمت بسام حانقاً . همس امير مستسلماً : كما تشاء يا اخي . . . لك الحق بعد اعوام من التأمل ان تتخذ قراراً ما . . . وانا سعيد لأنك فعلت ذلك اخيراً ، أياً كان ذلك القرار . .

مد يده ، وصافحه بود حزين . . . هوى بسام دمعة بجثته الضخمة في احد المقعدين الوحيدين في البيت ، بينما غادره امير متجهاً الى ساحة تجمع (الباصات) عند تقاطع شارعي « تالبرغ » و « الالب» .

نهض بسام يلملم حاجياته القليلة في حقيبة . . . منذ رحل وهو يحمل حقيبتين . .

واحدة سوداء مغلقة تضم بعض ثيابه الانيقة نسبياً الخاصة بالمناسبات (الاحتفالية) ، والأخرى رمادية تضم بقية اشيائه . . في اليوم الاول لرحيله ، فتح الحقيبة الرمادية ، وعلق اشياءها في خزانة الفندق ، وترك السوداء مغلقة ، وقال لنفسه : سأعود قريباً الى وطني ، فلماذا افتحها واغرق في الفوضى ؟ . . ومرت الاعوام ، وهو لا يمس الحقيبة السوداء ولا يفتحها ، بل يتنقل بها من مكان الى آخر . . والغريب ان احداً من موظفي الجمارك لم يطلب منه يوماً فتحها ، كأنها وهمية ولا مرئية ، وهو وحده يراها ويحسها . . . ولا يفتحها كأن الغربة ستنطلق منها وترغمه على الاعتراف بها كمصير نهائي .

فتح بسام خزانة ملصقة بالجدار . . . اخرج منها الحقيبة السوداء المغلقة منذ ذلك الزمن الغابر ، فالأخرى الرمادية التي بدأ يجمع اشياءه القليلة فيها ببطء اثقله الغم .

(هذه الحقيبة السوداء لم تعد تحمل داخلها غير الحزن . . لم اعد اذكر ما فيها من ملابس ، ولم تعد ثياب الزمن الغابر بقادرة على احتواء جثتي التي تضاعف وزنها كأنني بدين بالهم ، فلماذا احملها معي مصراً على الا افتحها الا حين اعود الى بيروت ؟ . . . يوم غادر العرب الاندلس حملوا معهم مفاتيح بيوتهم وذهبت البيوت وبقيت المفاتيح فعلقوها على جدران المنافي ، فهل سأعلق حقيبتي على جدار منفاي الآتي ؟ . . . اما زالت الاشياء كما هي داخلها ، راقدة كالاكفان ، ام ان العث اتى عليها ، وتكاثرت الديدان وسطها كما لو كانت تضم جثة ، واية جثة . . . جثة عمري الماضي كله ، عمري الغابر المتألق المتوهج . . .

كيف حاصروني وحولوني الى كائن مذعور يخاف اصابعه التي قد تكتب وتقول الحق ويخاف رأسه الذي قد يفكر فيعالجه كل ليلة بضربة من بلطة الخمرة والدوار والصداع . . .

منذ البداية حوصرت . . . منذ عام ١٩٦٧ يوم صدر كتابي « نقد العقل السلفي » جروني الى المحكمة وشنقوني على اعمدة الصحف . . . ثم ذهبت المحاكم وانتعشت الاغتيالات تعذيباً ، ولم تعد تعرف حذاء من عليك ان تلعق لتحيا بعدما تكاثرت الاحذية والجزمات فوق رؤوسنا . . . وانا رجل لي جسد ثور وقلب طفل . . . جبان . . اخاف التعذيب والقتل والاذلال . . هذا ما حدث لبعض الرجال . . لكثير منهم لو اعترفوا بحقيقة مشاعرهم . . . امير من طينة نادرة لا يرعبها الموت وأنا لست كذلك . . . في البداية قلت لنفسي : سأهرب تحت ستار الدكتوراه وانتظر هدوء الأحوال في بيروت . . . وتركت هذه الحقيبة السوداء مغلقة . . كان مجرد فتحها يتضمن اقراراً باستسلامي لحقيقة

الغربة كحل نهائي . . وعجزت عن ذلك كما عجزت عن العودة ، وحلقات الحصار يزداد عددها هناك وشعاراتها . . . وجعت ، ورفضت الانضمام الى رغيد الزهران ، لكنني أيضاً عاجز عن المشي في تظاهرة امير النيلي . . . وكلما اقترب موعد التظاهرة ازداد هرباً إلى عنق زجاجة تخدرني . . .

انني ببساطة رجل لا يريد ان يموت مقتولاً . . . المحاماة مهنتي واحب مقارعة الحجة بالحجة ولا اصلح لحرب العصابات ، وها هم جنود بيغن يحاصرون بيروت لابتلاع المجانين الذين يقتتلون منذ اعوام فيما بينهم ويبيدون كل ما حولهم : المنطق والعدو والصديق والطفل والوردة . . .

اريد أن اهرب . . وان انسى . . . أ. ن. س. ى . . . اريد ان اموت بالشيخوخة في مكان ما على هذا الكوكب . . اي مكان) . . .

دفن بسام وجهه بين يديه بعض الوقت ، ثم اخرج علبة سجائره فوجدها فارغة .

تذكر ان امير اكتشف مكاناً يبيع السجائر يوم الأحد لكنه لا يفتح ابوابه قبل التاسعة . . . دار في البيت كالشبح بانتظار اقتراب التاسعة ، واحس بغصة وهو يتذكر ان امير كان يخرج صباح كل احد من كل اسبوع لشراء الصحف وسجائره بينما هو يتابع نومه مخموراً . . . وشعر بأنه سيفتقده ، ولكنه تعب من الخوف . . تعب من عدم القيام بخطوة الى الوراء او الى الامام لأن كل خطوة تقود الى خلل في هذا الزمن الرديء . . . وهو قد حزم امره على مغادرة الشطرنج العربي بأكمله . . . سيتحول الى كونغارو في اوستراليا ، أو قطعة جليد في كندا . . او دب في القطب . . المهم ان يخرج من المتاهة . . .

انها التاسعة اخيراً . . . سيختنق اذا لم يدخن لفافة سيجارة كاملة بعدما انجز تدخين بقايا الاعقاب في (المنافض) كلها . . في العادة يخرج امير فيحضر له سجائره والصحف ، وهو ينام ثملاً اما اليوم فدوره . غادر البيت . ما كاد يمشي عدة خطوات حتى اقترب منه رجل على دراجة نارية كأنه ينتظره ويعتزم ان يدهسه . توقف على الرصيف منتظراً مروره . توقف الآخر ايضاً . الشوارع خاوية . لا مارة . اخرج رجل الدراجة النارية مسدساً . ذهل بسام واحس انه يشهد فيلماً رديئاً . لمح المسدس مسدداً اليه ، ولم يصرخ فقد غلبته الدهشة واراد ان يقول شيئاً فلم يفلح ، ومر كل شيء بسرعة خارقة . . . وشعر بشيء يلتمع امام عينيه ، ولم يحس بنفسه يسقط على الرصيف والدم يتدفق ببطء من ثقب في جبينه . . .

وآخر في خده . . . ولم يسمع احد صوت الرصاص ، فقد كان المسدس مزوداً بكاتم للصوت .

وانطلق الرجل «الشرق ـ اوسطي » الملامح على دراجته النارية .

***

تمددت دنيا فوق العشب الاخضر وغمرتها سعادة وهاجة . . . احست بأن شعرها صار عشباً اخضر يتسلل الى قلب تراب تلك الحديقة الآسرة الجمال ، واعضاء جسدها شرايين توصلها بالدورة الدموية لايقاع مباهج الفقراء والبسطاء الذين يزدحم المكان بهم ، والذين كانوا قومها ايام كانت فتاة اللوحة العتيقة . . اما كفى فقد استرخت كقطة جميلة تتقن ألاعيب الشراسة المفاجئة ، وتأملت امير ، الرجل الذي تكره ، بعين جديدة لا ينبض فيها ود انساني ، بل شهوات نسائية خاصة . .

(هذا رجل اراه للمرة الاولى ، بعدما قضيت سبعة اعوام وانا اكرهه واغار من حب زوجي له . . . وها انا بعد ساعتين من اللقاء الأول اسقط تحت سطوة جاذبيته الجسدية الخارقة العفوية . . . . فيه شيء خاص حميم يثير الشهية الى امتلاكه . . شيء لا يملكه نديم ولا خليل ولا روبرتو دي انجيليس ، الصبي الايطالي الوسيم الذي يحلو العبث معه وبه . . . شيء يبعث على الرغبة في تدمير مشاعر الثقة والطمأنينة اللتين تقطران منه . . كنت اتصور امير عجوزاً بغيضاً لا ينطق الا بالنحوية ، ولا يتحدث بغير الفلسفة . . وها هو امامي بسيط كالتراب . . شاب كالازهار . . عفوي كهذه البحيرة المتوحشة المتواضعة . . ليس رديئاً كذكر ! . . . انه من فصيلة يحلو لي تجريبها . . كان منظره طريفاً منذ ساعة ، ورامي وفادي يقفزان فوقه كالكلاب الصغيرة وهو يتمرغ معهما في العشب الرطب مثل كائن آخر دافىء من كائنات الطبيعة المحيطة بنا . . . رغم نعاسي . . رغم كراهيتي للجلوس في الحدائق العامة مع الطبقة العاملة التافهة العادية . . رغم بغضي للباص الذي ركبناه الى هنا بدلاً من سيارة نديم الفارهة . . رغم كل شيء اجد امير كرجل وسيماً ، ولا عجب ان تطارده دنيا بحضورها معنا) . نهض امير وقال : سأذهب لشراء بعض السندويشات للغداء . .

ارتجفت كفى تقززاً . انها تكره الرجال الذين يقدمون لها الشطائر للغداء بعدما الفت الوجبات الملكية بالملاعق الذهبية .

قال خليل : سأرافقك . . .

ـ لا . ابق حيث انت .

ـ ولكن . . . .

ـ الشطائر رخيصة في الحدائق العامة . . . الضروريات هنا معقولة الثمن . . اما الكماليات فباهظة . . ثم انني لست فقيراً الى هذا المدى . . .

تضايقت كوكو لـ (قلة ذوق) امير المباهي برخص دعوته ! . . . قررت شطبه نهائياً عن قائمة عشاقها الممكنين .

الح خليل : سأرافقك . .

لم يكن يريد ان يبقى وحيداً وكفى . . . لقد فجر جمال الطبيعة احزانه ولا يريد ان يوجه كلمة جارحة اليها . . . ولا يريد ان يطالعه وجه دنيا المتفجر بفرحة هستيرية مقلقة ، كأنها قد تتداعى في اية لحظة . . .

مضيا ، وتقلبت كفى على العشب وحدقت في سماء (آنسي) الشفافة الزرقة . . . . وتجنبت اي حوار ودنيا . . لكنها تتوق الى مشاهدة وجه نديم حين تبلغه ان دنيا تحاول ان تحل مكان ليلى في حياة امير !

سار الرجلان بصمت ، وقال خليل : كيف وجدتها ؟

ـ انها سيدة غير شريرة . . . تستحق ان تبذل مجهوداً اضافياً لكسبها . .

ـ ان اتحول الى نسخة عن نديم والعق حذاء رغيد ؟

ـ لم اطلب منك ان تتبدل . .

ـ وكيف ابدلها ؟

ـ وليس المطلوب تبديلها بل توعيتها . من الواضح انها تتأجج حياة ، فدعها تكتشف ان بوسع المرء ان يكون شريفاً وسعيداً متوهجاً في آن معاً . .

ـ بدأت اشك انا نفسي بذلك . .

ضحكا. عادا إلى صمتهما حتى بلغا أجمة شاسعة بالالعاب الخاصة بالأطفال. . وكان رامي يمتطي حصاناً وفادي يقود صاروخاً فضائياً واللعبة تدور بها وتعلو وتهبط وصياح الاطفال يتماوج مع رقصتها . . .

وقفا يتأملانها . . .

(كنت اعرف ان كفى بين ذراعي الأوربي الغريب في فراش ما . تابعت السير الى

بيت امير . . . لم ارو له التفاصيل ، ولم يسأل . . صرخت وانا ارتجف : انني اخسر كل شيء . . وطني وزوجتي واطفالي وصحتي . . كل شيء يتداعى ولم اعد اعرف من اين ابدأ اصلاح ذلك الدمار كله . . . قال بسام وهو الشفاف الذي يدرك حاجة المعذبين للانفراد بأمير : انا ذاهب لمتابعة العدل على اطروحتي . . .

صار مجرد حديثه عن (الاطروحة) شبيهاً بالنكتة بعدما تحولت الى مشروع هاملتي وحجة للهرب من اتخاذ قرار . . . لكننا لم نضحك . .

قال امير وكأنه حدس هواجسي : لماذا لا تقبل دعوتي لقضاء عطلة الاحد معي ؟ لقد سبق ان ألححت عليك كي تقضي يوماً عائلياً واسرتك . . . سأدعوكما الى نزهة . . الى بلدة آنسي . . سنذهب بالباص . . ساعة واحدة بالسيارة وسط طبيعة خلابة ، فبحيرة جميلة كبحيرة جنيف ، لكنها شعبية ، جمالها عفوي بلا صناعة لجذب السواح . . . انها تزخر يوم الأحد بجماهير الكادحين والبسطاء وبينهم عمال عرب ومهاجرون . . ما رأيك بجلب الاطفال من سجنهم الذهبي في المدرسة الداخلية ؟ ليلى ستتولى امر التأشيرات في ساعة واحدة . . لا تنس انك سكرتير الغنمالي . .

ـ ما الفائدة ؟ ما جدوى ذلك كله ؟

ـ لا شيء . . سيرضيني ان تقبل دعوتي . . وان اتعرف على كفى . . اريد ان اراها عبر عيني انا لا عينيك وخيباتك وحكايا نسيم عن سهراتكم)

تتوقف اللعبة الكهربائية عن الدوران . يجدد الطفلان دوراً آخر ويبقيان في اماكنهما ، يلحظان الوالد ولا يكلمانه وكل منهما مشغول بعالم مباهج بريئة لم يألفها في بيروت ، كمواليد الحرب في كل مكان . . .

وعاد صوت امير كالصدى في اذني خليل (لا شيء . . سيرضيني ان تقبل دعوتي . . وان اتعرف الى كفى) . .

ولكن اشياء كثيرة تبدلت منذ الصباح . . لقد صار قانعاً ان كفى ضجرة تحاول ان تتسلى بأمير لكنه لا يرضيها . . حتى وجود فادي ورامي لم يعد مهماً جداً . . انها تتوق الى (مناخ) آخر . اما دنيا فتستطيع ان تستمتع بمباهج الحياة الاساسية كالشمس والطيور والازهار بغض النظر عن الذهب . . .

فقد كان الباص الذي ركبوه صباحاً في المحطة غير ذهبي . . لكن دنيا ابدت فرحة طفلة حين تحرك في موعده المحدد بلا تأخير . . . ولم يكن ينساب بصمت مثل سيارة نديم ، لكنها

بدت سعيدة وضاحكة تنصت لصخب الطفلين رامي وفادي وتراقبهما يقفزان فوق حضن امير وسط نظرات الاوروبيين البسطاء المحبين للاطفال . . وحين تجاوزوا الحدود السويسرية فالفرنسية من غير ان يذلهما ضابط او يحقرهما مسؤول كما يحدث للمواطنين العرب في معظم (البوابات) العربية على الحدود التي يفترض انها وهمية ، أبدت حماساً للاحترام الذي يلقاه المواطن العادي في تلك البلاد حتى الفقير . . وبدت وكأنها تفهم للمرة الاولى بوضوح ومن جديد ما يتحدث اميرعنه في كتبه . . . كأنها كانت تعي المأساة ولا تجد غير الوسيلة التقليدية لحلها : الثراء . . وثمة خيط من الوضوح يتسلل ليضيء لها الاشياء عبر التجربة المعاشة . . اما كفى فتثاءبت ، ولم تفهم شيئاً غير انها لا تريد العودة الى (حياة البوسطة) . .

دنيا كانت تقفز مع طفليه فوق جسور آنسي المعلقة كما في صور (البندقية) على حد تعبيرها ، ولم تزم شفتيها طالبة ركوب تاكسي (كما تفعل كفى في بيروت متأنفة من القمامة والمسلحين الذين يتطاول بعضهم على النساء بأكثر من الغزل الشفهي في واضحة النهار) . . . وحين وصلا الى الحديقة العامة المطلة على البحيرة ، لم تبد دنيا اقل اعجاباً بها من بحيرة ليمان ، رغم بساطة المكان واهله وسواحه . . . كأنها يوم تزوجت نديم قرنت الفقر خطأ بالتخلف ، ولم يخطر ببالها من قبل ان المطلوب ليس تحويل الناس جميعاً الى اثرياء وإنما تحويل الوطن الى مكان غير متخلف صالح للعيش الكريم لغير الاثرياء ايضاً . . . أمير يريد كفى ان تعي ذلك لا دنيا وحدها ، لكنها بدت واقفة خارج ذلك كله . . كأنها تصبر على بلواها لأن خليل مسافر غداً ! . .

وشعر خليل بأن اعجابه بأمير يتنامى . . ذلك الرجل الذي يتقن (فن الفعل) اتقانه لفن الكلمة . . . كأنه في دعوته لهم الى آنسي ، المكان الجميل البسيط ، اراد امتحان كفى ودنيا وكشف دخيلتهما . . . هل تفتشان عن جوهر الفرح ، ام عن قشرته ؟ هل سترفضان آنسي لمجرد انها خالية من فندق له خمس نجوم ، وهل ستضجرهما الرحلة لمجرد ان الوسيلة كانت الباص لا الكاديلاك ؟ . .

توقفا امام بائع الشطائر والمرطبات . . .

قال خليل : لقد رسبت كفى في امتحانك ، اما دنيا فقد اجتازته بنجاح .

اجاب امير : بنجاح مبالغ فيه . . وهذا يقلقني . كأنها تحيا ردة فعل لا أكثر ، وعندما تدنو لحظة الصحو ، لا ادري كيف تواجهها .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني انها اسعد مما ينبغي لانسان عاقل . كأنها تنتقم من ماضيها ، لكنها لم تبدأ بعد بتصحيحه . . . انها الآن فرحة كأية مراهقة تتحدى ، ولكن ماذا بعد ان تنتهي نزهة آنسي وتظاهرة لبنان ؟ نديم لن يسمح لها بأن تظل زوجته ، وتكون ذاتها العتيقة . . فهل هي قادرة على الوقوف على قدميها وحيدة من جديد ؟

ـ لماذا لا تقدر ؟ .

ـ لا احد يستطيع الغاء ثمانية عشر عاماً من عمره بجرة قلم ، او بقرار عقلاني مهما كان قانعاً بزيفها . . فالزيف يطالنا خلال هذه الفترة الطويلة ، ويأكل من طاقاتنا ، واذا عدنا الى حيث كنا فقد نفشل في اتخاذ درب جديدة . . . بهذا المعنى يدفع المرء ثمن اخطائه . . . لا تكفي العودة عن الخطأ لالغائه . . . .

ـ اذن ستنكسر دنيا ؟

ـ لا ادري . . . كل ما اقوله هو انها اسعد مما ينبغي لانها لا تلحظ امكان فشلها . . وهذا امر غير مطمئن . .

ـ كنتما تتهامسان . . هل لديها صورة واضحة عما ستفعله ؟

ـ كنا نتحدث عن بحرية . رجوتها (مصادرة) جواز سفرها من حوزة نديم ، فنسيم يخشى عليها من جنون الساحر . . . انه يفكر بتعذيبها تحت لواء تعذيب الجني الذي يسكنها ، ويريد معالجتها من الجنون بحلق شعرها . . اشياء من هذا القبيل . . . قررنا ان وجود جواز سفرها بين ايدينا سيسهل امر اعادتها الى وطنها . . وسيتصل نسيم بأسرته لتستعلم عن مصير اقاربها . .

ـ هل وافقت؟

ـ وافقت بحماس مطلق النظير مما اقلقني . . . لا ارتاح الى السلوك الذي يتخذ شكل (النوبة) . . .

عادا بالشطائر والمرطبات فوجدا كفى تهز قدميها بنزق ، ودنيا نائمة على العشب بسلام ، جميلة مثل طائر وديع ، وقد انطوى جسدها بعض الشيء كأنها أنست الى رحم الغابة ، ومناخ البسطاء الذين يفورون في دروبها .

همس امير الخليل وهو يتأمل كفى : لا اعرف بالضبط ما الذي فعلته هذه المرأة بنفسها

وبك ، لكنها بالتأكيد ليست شريرة . . . لعلها ضالة او حائرة ، لكنها تستحق منك بعض العناء . . .

قبل العودة مساء ، تنزهوا في مركب مزدحم بالناس وبدت دنيا سعيدة كـأنها وسط اسرتها تقطر عذوبة وألفة . . . اما كفى فكانت تتطلع الى ساعة يدها بين وقت وآخر ، وتحصي الساعات الباقية لسفر زوجها وصقر . . وتصلي كي لا يبدل صقر رأيه ثانية !! . . وبين وقت وآخر ، كانت تهز بمحرمتها امام وجهها في شكوى صامتة من الحر « الكانيكولي» الذي دهم المنطقة كلها . . كانت تفضل قضاء يومها في مكان فاخر مكيف الهواء . . هذا ذوق الرجل الذي ابتلت نفسها بالزواج منه !

***

وحين استقروا في الباص الأخير للعودة ، نامت كفى ضجراً هاربة من الأيدي الخشنة المحيطة بها الى احلامها وهمسة « اموري ميا » ، ونام الطفلان تعباً وقد لـوحت الشمس الاوروبية الصيفية خدودهما الغضة . . وقالت دنيا لامير بامتنان : هذا يوم من اسعد ايام حياتي . . لا ادري كيف . . . كنت سعيدة ومسترخية . . لا احاول اثبات شيء لأحد ولا احسد احداً على ثرائه . . اني آسفة لما يمكن ان يكون قد بدر مني نحوك فيما مضى من تقصير شبيه بالاهمال والنسيان . .

اشار اليها بأصبعه ان تصمت . . لم يكن يريدهـا ان تخرج شحنـة الوعي تلك من صدرها وتستريح وتنسى . . كان يريد لومضة السعادة تلك ان تثير فضولها . . لكنها كعادتها كانت متأججة ونارية : لم اصدق يـوماً ان في مقـدور المرء ان يكـون فقيراً وسعيـداً الا اليوم . . .

قال امير : هذا ممكن شرط ان يعيش في وطن يغتني الناس برعايته لهم . .

وتدخل خليل : وذلك لا يتم الا اذا عمل الناس على تبديل واقعهم . .

وبدا الضجر فجأة على وجه دنيا ، في حين التقت نظرات امير وخليل وكأن كلاً منهما يقول للآخر : لقد افسدنا الدرس « غير المباشر » . . . اللعنة ، هل كان ضرورياً ان يقول كل منا جملته التعليمية التقريرية المباشرة الاخيرة؟ . .

وهمس امير بالفرنسية ضاحكاً : « ديفورماسيون بروفسيونيل » . . . يا للتشويه المهني ! . . .

***

ودع امير ضيوفه في محطة الباص وترك دنيا تعتمد على ذاتها بركوب تاكسي على الاقل ، ومشى صوب بيته . . . لا يدري لماذا ذكرته دنيا اليوم بحبيبته الغادرة ليلى . . ذات يوم كانت ليلى حائرة مثلها ، وواقفة على مفترق الطرق . . . اما اليوم فيبدو انها لم تعد حائرة . . لقد خسرها الى الابد ، اما خليل فما زال امامه الفرصة لاستعادة كفى تلك الجميلة المرشحة للتعفن . . . مشكلة خليل مع كفى انه لا يعرف كيف يحدثها بلغتها ويساعدها على اكتشاف الطيبة في ذاتها . . انه جلف ومباشر يقول الحق ولو قطعوا رقبته ، وهو لذلك بالذات يحبه . .

تابع سيره ، وقد تأجج شوقه الى اولاده واسرته بعد يوم عائلي مترع بصخب الطفلين وشيء ما في رامي ذكره بطفولة ابنه الذي لم يره شاباً الا في الصور . . . يوم فارقه كان في سن رامي . . .

حين وصل الى بيته ، فوجىء بالشرطة تنتظره امام الباب . . . والجيران . . والصحافة . . . وومض (فلاش) الكاميرات امام عينيه . . . فغطى وجهه بيديه . .

ماذا حدث ؟ لقد غادر بيته باكراً جداً في السادسة والنصف على غير عادته ، فماذا يمكن ان يكون قد حدث ؟ . . . وكيف يتوج يوم أليف كهذا بحضور البوليس والصحافة والجيران وبعض تلامذته ؟ . .

لقد اطلق احدهم الرصاص من مسدس كاتم للصوت على بسام . . في التاسعة صباحاً موعد مغادرته للبيت كل احد . . . لكن بسام قلما يغادر البيت يوم الأحد ، فلماذا خرج اليوم ؟ ليصرع بدلاً منه ؟ . . .

بعد ساعات من الاجراءات المعهودة المقلقة ، وجد امير نفسه وحيداً مع حقيقة موجعة : لقد قتلوا بسام خطأ . . . كانوا يريدونه هو . . كمنوا امام الباب ، واطلقوا النار على الرأس الذي اطل في موعد خروجه المألوف . . وتصادف هذه المرة انه رأس بسام . . بسام الذي هرب من وطنه مذعوراً ، وجمد حياته ثمانية اعوام في ثلاجة الأحداث ، منتظراً كهاملت ان تحل الاشياء نفسها بنفسها خوفاً من ان يموت بلا مبرر . . . فمات بلا

مبـرر ! . . . ولم يقم يوماً بأي عمل كي لا يُعَاقَب . . . وتحضير اطروحة هو العمل الوحيد الذي لا تعاقب عليه الاطراف كلها احداً ، في حين كان امير طوال الوقت يكتب ويكتب كمن يدعو الموت ليزوره ، ويحيـا ويقول صـدقه بـأي ثمن . . وفي المرة الاولى اطلقـوا الرصاص عليـه واخطأوا التصـويب . . . وفي المرة الثـانية احسنـوا التصويب واخـطأوا الرجل ! . .

وقـرر امير الـطلب الى ابنه عـدم الحضور . . والبقـاء حيث هو . . مـاذا لـو جـاء لزيارته ، و . . .

يعرف امير ان موته ضرورة كي تسكت الاصوات النادرة الباقية التي تطالب بالديمقراطية بصدق ، لا من اجل قبض ثمن السكوت . . . سيقتلونه ، فمتى يحاولون من جديد؟

لن يشغل باله بهذه التفاصيل الصغيرة التافهة . . سيتابع دربه وليكن ما يكون . . .

لكنه حزين حقاً من أجل بسام . . . لقد آواه في بيته ريثما يخرجه من حيرته . . . ولم يكن يدري انه يصدر عليه حكم الاعدام . . . ويخرج به من الحيرة المزمنة الى اليقين الاكيد القاطع . . . وبالذات في اليوم الذي قرر فيه بسام انقاذ رأسه بالهجرة . . .

لقد ظل خائفاً من القتـل دونما مبـرر حتى قاده هـذا الخوف الى حتفـه . . . ومات عبثاً . . . ميتة خالية من اي مدلول او معنى ، وكان ممكناً ان يكون الآن حياً في بيروت وفعالاً يعيش حياة مجدية . . . ولكن المصادفة نكتة ساخـرة وصامتـة لأنها متوجـة بكاتم للصوت . . . .

***

حين هبطت كفى من (البوسطة) تنهدت بارتياح ، وعاهـدت نفسها عـلى الا تطأ بقدميها سيارة عامة بعد اليوم . . اياً كان الثمن . . حتى ولو كان ذلك يعني فراقها وطفليها اللذين تقبلهما مودعة وقد جرهما خليل الى «محطة الكورنافان» ليذهب بهما بالقطار الى مـدرستهما « كوليدج دي ليمار » . . . لم ترافقهما وخليل . . كانت بحاجة للهرولة الى غرفة الفندق الفاخرة لتتحسس مخمل الجدران وتصدق انها غادرت كابوس الفقر الممكن . . لقد حزمت امرها . . اما ان (يصحو) خليل وينضم الى الطبقة التي تعرف كيف تعيش ، والا فإنه سيفقدها . . ولن يستطيع تهديدها بحرمانها من اولادها . . لقد حرمهـا من وداد ، وقلبها المحطم غير قابل للتحطيم ثانية . . على اية حال سيكبران ويمضيان بعيداً عنها اذا كانا

سينموان تحت ظل والدهما وتأثيره . . . بخبث نسائي عفوي ومض ذلك كله في عينيها وهي تقبل فادي ورامي وقررت : سأعوّد نفسي منذ الآن على فراقهما ولن يبتزني خليل بهما . . .

مضى خليل بالولدين ، ولم يطلب من كفى ان ترافقه . كان بحاجة الى ان يخلو الى نفسه بعد هذا اليوم الفاضح . . .

ودع فادي ورامي وغصة تنمو في اعماقه . . لم يحلم يوماً بانه سيودع ولداً في مدرسة داخلية . . واين ؟ في جنيف . . . ولاحظ انهما تعلقا برقبته عدة ثوان اطول من العادة لحظة الفراق . . .

عاد الى القطار . . . اغمض عينيه . . . نبتت تحت جفنيه كفى بضجرها وتقززها من يوم العطلة المثالي هذا في نظره . . . بدأت صباحها بمحاولة مغازلة امير وجذب انتباهه . . انه يفهمها جيداً . . ثم قرفت منه فجأة وعزفت عن الجميع . . لم تخاطب دنيا بكلمة ، اما الأخرى فكانت مشغولة بفرحة هستيرية يتمنى لها ان تدوم وتكون عميقة الجذور . . . من الواضح ان كفى غادرت عالمه نهائياً . . كانت تنظر إلى الناس في الحدائق العامة بتقزز ، الى العمال ومتوسطي الحال والفقراء ، الوجوه العادية المتشابهة ، الايدي الخشنة التي تعرف ملمس قسوة الحياة والمهاجرين العرب والفرنسيين البسطاء . . وتتوق لمغادرة المكان ، فكيف يفهمها بعد اليوم ان هذا العالم الذي تمقت هو العالم الذي ينتمي اليه ؟

وصل الى الفندق البغيض . في الغرفة كانت كفى في انتظاره وفي عينيها نظرة شماتة وهي تناوله رسالة . قرأ فيها ثلاثة عبارات : احضر حالاً . صقر .

***

استقبله صقر في غرفة المكتبة بوجه جديد . . . وجه بالغ القسوة ، في نظرته الباردة الكاوية ما ذكره برغيد الزهران . وقال له باحتقار : ألم آمرك بأن تلازم الهاتف ؟ هل نسيت انك موظف عندي ؟ . . . الا تفهم انني سيدك وعليك ان تطيع سيدك في كل وقت دونما مناقشة ؟ . . . لم تكن الكلمات هي التي اوجعت خليل بقدر اسلوب صقر في التفوه بها ، وتعابير وجهه المفرطة الصرامة حتى حدود اللامبالاة به كإنسان . . .

بل انه ذهل وهو يرى هذا الوجه الجديد لصقر . . كان يظنه مجرد ولد صغير ومدمن (مفسود) . . . ولم يكن يدري انه يخفي في أعماقه ديكتاتوراً صغيراً . .

هرب خليل بانظاره من صقر الى الجدار ، فالنافذة ، فطاولة المكتبة ، وفوجىء

بمظروف يحمل اسمه . . . ودون ان يرف له جفن مد يده وتناول المظروف وفتحه ، فوجد (الشيك) الهدية من هلال ، مرفقاً ببطاقة الاعتذار . . اذهلته المفاجأة وقرر في ومضة برق ذهنية : « سأخفي هذا الشيك عن كفى . . سيكون ثمناً لبطاقات العودة الى الوطن » . وحاول ان يطلع صقر على الشيك لكن الرجل الآخر تجاهل حركة خليل او لم يلحظها ، وتابع كلامه باللهجة السامة نفسها : انني انتظرك منذ ساعة . سنرحل الآن . . .

فتح خليل فمه ليقول شيئاً عن وداع اولاده . . كان يريد التملص بوسيلة ما . . . صعقه وجه صقر الآخر واخافه ووعى انه يسقط في فخ لم يلحظه من قبل قد يكون اكثر خطورة مما توهم . . لكن صقر عاجله بالضربة الأخيرة : اذا كنت لا تحمل جواز سفرك معك ، فسنمر بالفندق في دربنا الى المطار لجلبه . لست بحاجة الى ثياب . . كل شيء جاهز ، ولن اسمح لك ثانية بتخريب توقيت عبثي او عملي . . . تذكر انني الرجل الذي سيدير اعمال صخر الغنمالي اذا مرض او اعتزل . . . قد نلعب معاً احياناً ، ولكن لا تنس في أية لحظة انني السيد !

●●●

جلست بحرية في صالة القصر الكبيرة ، مسمرة امام شاشة التلفزيون وبيروت تحترق امام عينيها . . .

منذ وصولها، فرضت على القصر اخبار بيروت، فهي تلاصق الشاشة الصغيرة وتطارد شبح بيروت فيها ، ورغيد لا يرفض لها طلباً .

هذا التطور اسعد نسيم الذي ازداد انكباباً على تنظيف الأواني الفضية والذهبية والسيفر والجاليه التي تفيض بها الردهة الشاسعة ونظراته معلقة بالتلفزيون واخبار بلده . . ولم يعد مضطراً للاختباء في غرفته او المطبخ متذرعاً بالاكاذيب كي لا تفوته نشرات الاخبار في (القنوات) كلها وباللغات كلها . . كل ما عليه الآن ان يفعله هو ان يضغط الازرار المناسبة في الوقت المناسب شرط ان يكون رغيد غائباً . . . في البداية تأملته بحرية وهو يقدم على ذلك للمرة الأولى بنظرة متواطئة ودية . . ثم اتقنت ذلك بنفسها بسرعة خارقة . . كأنها ليست مخدرة ، ولا منهارة ، ولا مريضة بقدر ما تبدو . . . انها لا تدع واحدة من نشرات

الاخبار بالفرنسية والايطالية والألمانية تفوتها ، وتلتقي نظراتها كلما التقطت محطة جديدة مثل برق تفاهم ينبع من عينيها ليصب في قلبه . . .

كانا يتأملان صور القصف المجنون ، ولم يفهم نسيم شيئاً مما يقوله المذيع بالألمانية لكنه عرف الموقع المقصوف . . انه الحي الذي تقيم اسرته فيه . . الانفجارات تتلاحق وهذه القذيفة الاخيرة خيل إليه انها دكت المبنى اياه . . تراه سيرى اخوته احياء بعد اليوم ؟ . . سقطت يده عن جسده وتدحرج الابريق الذهبي الذي كان يتشاغل بتلميعه . . تصادف ذلك لحظة دخول رغيد الذي زجره بشدة ، وشتم التلفزيون وبيروت واخبارها ولم يجرؤ على توجيه تأنيب لبحرية ، فقال لنسيم كل ما كان يشتهي اسماعها اياه من محاضرة عن ضرورة نسيان بلد ينهار والتمسك بنعمة اللّه التي منّ عليهم بها في الغربة ، اي به طبعاً . . ومن سواه ؟ . .

غادر نسيم الصالة ولم يغادرها ، وتابع عمله في غرفة الطعام حيث يستطيع ان يرى ويسمع دون ان يراه رغيد . . . انه لا يملك الا ان يحوم حول بحرية مثل كلبها الحارس . . ولا يدري لماذا . . كأن رسالة من الوطن موشومة على جسدها القوي الفتي المصدع . . ام انه ببساطة واقع تحت سطوة جمالها الباهر كرغيد؟ . . .

اخرج رغيد علبة من المخمل الارجواني اللون وفتحها فتأجج داخلها بريق عقد ذهبي مطعم بالماس وسوار وخاتم وقرط .

تطلعت بحرية نحوها كلها بلامبالاة ، ثم عادت بانظارها الى شاشة التلفزيون . . .

امتلأ رغيد بالغضب وبحب الامتلاك ، وقال لها بصوت جهد ان يكون هادئاً رغم اهانتها له التي لم يألفها من امرأة من قبل : انها من الذهب الخالص والماس النادر . . انها من صنع «بولغاري» الصائغ الكبير . . .

ظلت صامتة ولم ترتعش في وجهها خلجة . تناول العقد الذهبي واحاط به عنقها . لم تعترض ولم تبال . . ظلت متحجرة كتمثال باهر الحسن . . وظلت على حالها حين تناول يدها الغضة واحاط اصبعها بالخاتم الثمين ، ثم ثبّت القرطين في اذنيها وتحسس الخدين المضيئين حسناً وشباباً ، واحاط معصمها بسواره . . . ظلت هادئة ونائية ولامبالية . . . تطلعت الى يديها بنظرة خاطفة ، ولم يبد اي تعبير على وجهها . . .

نهض رغيد غاضباً ومضى الى غرفته . . . بعد ساعة ، قرع نسيم الباب ، صرخ رغيد : اذهب الى الجحيم اياً كنت .

قال نسيم : معذرة ، انه بخصوص الست بحرية . . .

ـ ادخل . .

دخل نسيم وامارات القلق على وجهه . . .

ـ ماذا عن الست بحرية ؟

ـ جلدها متورم ومن الواضح انها تتألم . .

هبطا معاً الى الردهة . . .

كانت بحرية كما فارقها قبل ساعة . جلستها ذاتها ونظراتها الزجاجية نفسها . . باستثناء ورم محمر على عنقها حيث العقد ممتد الى منبت النهدين، واحمرار شديد في الاذنين والخدين ، والاعراض ذاتها تبدو في اليد اليمنى حول السوار وفي اصابع اليسرى المتورمة حول الخاتم . . لم ير نسيم شيئاً كهذا من قبل ، وقال مذعوراً وقد فارقه حذره : أهذا تسمم ؟ . .

صرخ به رغيد : اخرس يا احمق واستدع الطبيب . . والشيخ وطفان . . .

وظل رغيد يذرع الصالة ذهاباً وإياباً ، وحزن حاقد يملأ قلبه برغبة لا حد لها في امتلاك ود بحرية . . للمرة الأولى يهدي امرأة حلية غير مزيفة ، وللمرة الأولى لا يلقى شكراً ويجزى باللامبالاة الشبيهة بالاحتقار . . . لم يهد امرأة من قبل ذهباً حقيقياً ، فالنساء لا يستأهلن الذهب الحبيب الى قلبه . . . وها هي بحرية ، الصبية الوحيدة التي منحها ذهبه ترفضه بالصمت وبرسائل الرفض المكتوبة على جلدها ورماً واحمراراً . .

وصل الطبيب اما الشيخ وطفان فطرد نسيم من الغرفة قائلاً انه غير مستعد الليلة لعفريت بحرية ! فحصها بعدما انتزع عنها تلك الثروة الصغيرة . . وقال : انها «ارتيكاريا» . . لا شيء جدياً . .

ـ ماذا تعني ؟

ـ لديها حساسية ضد الذهب . . جلدها لا يستطيع ملامسة الذهب . . بعض الناس يعانون من حساسية ضد النايلون او غبار الطلع او ريش الطيور . . وهذه الفتاة لديها حساسية ضد الذهب . . علاجها الوحيد خلع هذه المجوهرات ، ولتتناول جرعة من هذا الدواء ريثما تزول النوبة . . تناول رغيد الوصفة ، وثبت نظارة القراءة على عينيه وقال متسائلاً بدهشة :

ـ أتاراكس ؟ هذا مهدىء قوي للأعصاب . . اعطوني جرعات منه قبل عملية زرع

الكلية استعداداً لتخديري . . انني ارقب ادويتي جيداً ولا انسى اسماً . .

ــ اجل . . يعطى احياناً قبل التخدير . . . بمقادير اكبر . .

ــ وهل الذهب لبحرية جسم غريب عنها يجب تخديرها قبل زرعه ؟ يا لها من مخلوقة عجيبة .

قال الطبيب : عفواً . . لم افهم . .

ــ لا شيء . . وانا ايضاً لم افهم . .

***

حين مضى الطبيب ، نادى رغيد خادمه نسيم ، وقدم له سيجاراً ولاطفه . . (ماذا **يريد مني الآن ؟ عين بحرية بعد كلية سري الدين ؟**) . .

ــ ماذا تريد يا سيدي . . .

ــ اريد ان اسألك . . اعني انني لا افهم بحرية وقد تفهمها انت اكثر مني . . انها اقرب اليك . . اعني انها مهجرة عاشت مع اهلها في الحرمان رغم نبل اصلها بصفتها قريبتي ، وأنت تسطيع ان تفهمها كما تفهم اختك . .

ــ تقريباً . . ماذا تريد؟ . .

ــ ما الذي يمكن ان يسعدها . . اعني ماذا يمكن ان يسعد اختك لو كانت مكانها ؟

ــ العودة الى الوطن طبعاً . . .

ــ ليس بمقدوري ان اعود ببحرية الى بيروت الآن . . ماذا استطيع ان افعله مؤقتاً . .

ــ لا شيء . . فقط دعها بسلام . .

ــ ولكنني احاول ادخال الفرح على قلبها ، ودوماً يحدث ما اعجز عن تفسيره . .

ــ مثلاً . .

ــ البارحة مثلاً حين ذهبت بها في نزهة بالهليكوبتر الى غشتاد وجلسنا لنتغدى في افخم مطاعمها بالجراند اوتيل ، احضرت لبحرية اثمن الطعام فعافته . . احضرت لها الكركند الثمين ، وما كاد الجرسون يحمل الادوات الخاصة بأكله من مثاقب ومقصات ومشارط وكلها من الفضة الخالصة حتى انفجرت باكية بذعر . .

ــ لعل المسكينة لم تشاهد مثل هذه الادوات الا في صالة الطوارىء بالمستشفى في بيروت وهي تحمل اليها طفلاً ينزف او جريحاً يتوجع . . .

ــ هذا ممكن . . ولكن . .

ــ ماذا ؟

ــ اهديتها تلك المرسيدس السوداء ، وبدلاً من ان تفرح بها وتقبلني ، انفجرت تبكي وهي تتحسس صندوقها الخلفي وتحاول فتحه . .

ــ لعل والدها او حبيبها اعيد اليها ذات يوم مقتولاً ومقطع الأوصال في الصندوق الخلفي لمرسيدس سوداء . . . او لعل امها قتلت في انفجار سيارة مشابهة مفخخة . . او لعل . .

ــ هذا يكفي . لا اريد سماع المزيد من قاموس المصائب البيروتية . . .

ــ لكن هذا يحدث لنا حقاً كل يوم . . .

ــ يجب ان اشحن المزيد من الاسلحة للاطراف كلها في بيروت . . . عسى ان اقتلكم جميعاً وادمر تلك المدينة المشاغبة واريحكم واستريح . . .

ــ هل تريد شيئاً آخر يا سيدي ؟

ــ لا . . . هل الشيخ وطفان في غرفته ؟

ــ اجل .

ــ سأذهب اليه . الحديث معه مريح . . والحوار معك لا يطاق . . .

حين صعد رغيد الى ساحره ، تسلل نسيم الى بحرية . ركع امامها ، وتناول يدها ذات الجلد المتورم الرافض ، وتحسسها بحنان . . تركتها له ، تأملته وقد تحولت عيناها من كرتين زجاجيتين غائمتين الى شعاعين من شمس ربيعية حنون . . . فارقتها تلك النظرة الزائغة ، واحسها تراه بوضوح ، ترى افكاره وتقرأ دخيلته . . فلماذا لا يقول لها بصوت مسموع : احبك ؟ لا يجرؤ . . . معها يطير قلبه بين الفرح والحزن . . . هبت رائحة الحرائق فجأة من شعرها فتذكر اسرته في بيروت المحاصرة . . .

تسلل الى الهاتف . قال لنفسه ان رغيد لن يشتمه اليوم حتى ولو ضبطه يحاول الاتصال ببيروت بعد تلك (الاستشارة العاطفية) . . ادار القرص طالباً الخط الخارجي ، فرقم هاتف بيروت الدولي ٩٦١ فرقم بيته . . . وللمرة الأولى حدثت المعجزة ورن الهاتف . . . لم يصدق نسيم اذنيه . . . منذ بدأ الغزو الاسرائيلي وهو يبذل المستحيل للاتصال ببيروت ويفشل ، في علب البريد الخشبية يحاول ساعات حين يتسنى له الهرب من رغيد وساحره ، ويفشل . . . وها هي بيروت تستجيب الآن من المرة الأولى . . . لن ينسى الايعاز الى اخته

للتحري عن بحرية . . . سيخبرها بما يعرف على قلته ، لعل وعسى . . الهاتف يرن ولا احد يجيب . . ما يكاد يفكر باعادة السماعة الى مكانها حتى يأتيه صوت اخته . . ينبض قلبه كجسد عصفور في الاعصار . . . لا يذكر ماذا قال لها بالضبط ، أو ما قالته . . كل ما يعيه ان السماعة كادت تسقط من يده وقد دمرته اخبار مروعة : شقيقه فواز جرح في «الرمول» وهو يقاتل الاسرائيليين في منطقة خلدة، وشقيقه الآخر هاني فجر نفسه في عملية انتحارية ضد جنود بيغن عند احد مداخل بيروت المحاصرة . . لم يكن فواز مدرباً جيداً حين حمل السلاح . . . قاتل وسواه من اللبنانيين ، وبعض الاشبال الفلسطينيين جنباً الى جنب ، فجرح . . . حالة فواز غير خطرة . . مد رغيد يده وضغط زر الهاتف قاطعاً المخابرة وصرخ به فجأة مؤنباً : « من اين لك الحق باستعمال هاتف سواك لمخابرات خارجية ؟ » لقد احصى رنين السماعة الأخرى ، وعرف منها ان نسيم اجرى مخابرة خارجية ! . . «هذا بيت وليس وقفاً للفقراء والوقحين » . . . تطلع اليه نسيم بذهول دون ان يسمع كلمة واحدة . . . اكد رغيد : « نعم . انا بخيل مع الفقراء ومسرف مع الاغنياء وهذا شأني . اكرهني اذا كان ذلك لا يعجبك . . . اقدم الهدايا حين اشاء لمن اشاء وقت اشاء . وهديتي اليوم لك ليست مكالمة هاتفية ، ولكنك تستطيع ان تجدها في غرفتك . انها تمثال سيذكرك بأن تتسلل الى بيت امير وانت تتوهم ان شاردة تفوتني او واردة . . . اذهب الى غرفتك تجد هديتك » . .

ظل نسيم ساقطاً في بئر الدهشة البائسة ، ولم يسمع كلمة مما قالها رغيد لكنه احس بالرغبة في قتله لمجرد ازاحته من دربه كي يركض الى غرفته ويخلو الى نفسه . . .

وحين دخل اليها ، لم يلحظ التمثال الذي تركه له رغيد فوق الفراش . . . حمله ووضعه على الأرض وتمدد واغمض عينيه . . .

لم يستوعب ان رغيد اراد قهره باهدائه نسخة عن تمثال «المناضل» الذي نحته والد امير ذات يوم لجمال عبد الناصر ، والذي يباهي رغيد بأنه جمع مليونه الأول من الاتجار به !! . . ولم يلحظه الا صباح اليوم التالي . . .

●●●

بحرية المستحيل . . .

تنزلق من بين اصابعي كحفنة رمل ملونة عبثاً اسرقها عن شطآن الزمن . . . تنزلق

هاربة كالعمر ، كالعافية ، كالشباب ، ككل الاشياء التي اعجز عن شرائها بملاييني . ادور حول قلعتها الحصينة بالصمت واللامبالاة الزاهدة . . افتش عن ثغرة انفذ منها الى ذلك البنيان المحكم لأخلخله ، فلا اجد اليها سبيلاً . . . ومثاقبي الذهبية لا تجدي مع رخام سكوتها . . .

مع هذه المرأة وحدها شعرت بالحيرة . . . كأنني ألامس الموت كلما لامست حبها المستحيل . . . فيها شيء يوقظ في فمي طعم الفشل . . . اجل . . الفشل . . . في حضورها شيء حاسم يؤكد لي انني انسان فاشل . . . وإذا لم اكرهها دمرتني ، وزلزلت عالمي الذهبي المتوازن فوق دبوس العمر القلق . . .

لعل ساحري على حق . . . لعلها مسحورة من صنع اعدائي . . لعل نديم يكيد لي باحضارها . . . منذ وصلت وانا عاجز عن اشتهاء سواها . . لم امس امرأة منذ وصولها ولا طفلة ، ولم اهجس الا بها . . .

لعله آن الأوان لكسر طلسم سحرها عني . . . إذا تركتها تستولي على روحي ، دمرتني .

اجل . . . الشيخ وطفان على حق . . . وسأفكر بوسيلة للتخلص منها بعد ليلة المليار . . . لا اريد اثارة المتاعب الآن . . . سأزوجها او اقتلها او ادعها تقتل في حادث سيارة . . .

ولكن . . . سينكسر ذلك الحلم الطفولي الذي عشته منذ حضورها . . . حلم لم اعرف له مثيلاً منذ كنت شاباً . . . وبحرية وحدها استطاعت ان تذكرني انني كنت ذات يوم يافعاً له احلام . . .

كم حلمت بها تمشي الى جانبي ليلة المليار ، يدها في يدي ، اتوجها بنفسي ، وآخذها الى جحيمي جوهرة مستحيلة كالوهم . . .

ولكن . . . . لا مفر من دفن هذا الحلم في جسد امرأة جديدة شهية ، تعبر غرفة نومي وتمضي الى سبيلها . . .

***

ــ اهلاً بالشيخ صخر . . . منذ زمن بعيد لم تشرفني بالزيارة . . .

ــ كان اخي هلال عندي كما تعرف . . . وقد تشاجرنا قبل سفره . . . ومرضت . . .

وما زال الصداع يمزق رأسي .

ــ سلامتك . . .

ــ شكراً للدعوة الى ليلة المليار . . . ساحضر طبعاً . .

ــ سيشرفني ذلك . .

ــ كلمت صقر . . هو في سياحة الآن . . سيعود خصيصاً لحضور السهرة . .

ــ لقد اعددت له غرفة في بيتي يستريح فيها . . . سيكون ضيفي . . .

ــ يبدو معجباً بزوجة خليل . . تلك السيدة العجوز . . . تعرف انـه لا يخفي عني شيئاً . . .

ــ كوكو ؟ ليست عجوزاً الى هذا الحد . . . انها في التاسعة والعشرين او الثلاثين . . . وهي جميلة . .

ــ اجل . . زرقاء العينين . . شاهدتها مرة في بيت نديم . .

ــ انها الآن هنا . . تعاون مسز سبوك في الاعداد للسهرة . . . اتريد رؤيتها ؟ . . .

ــ ليس الآن . . افضل رؤية قريبتك بحرية . . . جئت اسلم عليها . . بالمناسبة ، بقية الضيوف . . اين ينامون ؟

ــ استأجرت لهم الفندق الفخم القريب بأكمله . . ما رأيك ؟ . .

ــ فكرة جيدة . .

ــ فكرة مسز سبوك . . .

ــ وكيف صحة الآنسة بحرية . . .

ــ مسكينة . ما تزال تتألم لوقع الصدمة . . .

ــ انها جميلة . . . صبية صغيرة بريئة . . .

ــ لم تقع عيني على اجمل منها . . . لا يمكن لقريبتي الا ان تكون جميلة . . .

ــ هل فكرت بتزويجها . . . قد يساعد ذلك في علاجها . . .

قالها الشيخ صخر واصابعه تعبث بعصبية بحبات سبحته الفيروزية البديعة . تجاهل رغيد قصده وقال : تظن ذلك ؟ لم يخطر الامر ببالي . . فهي ما تزال مريضة . . انها لا تفارق غرفتها الا نادراً ، وتقضي وقتها تحدق في شاشة التلفزيون وتتسقط اخبار بيروت ، وحين ترى مشاهد الحرائق والدمار لا تبكي ولا تقول كلمة ، ويرتجف جسدها رغم ادوية الطبيب وتعاويذ الشيخ . .

ـ مسكين هذا الجمال . . لا يستحق هذا العذاب . . خسارة لبنان . . هل تعرف ان قصري الصيفي هناك مسروق . . . واصيب في القصف . . . قال رغيد بتجاهل العارف : مسروق ؟ من يجرؤ على ان يمس املاك الشيخ صخر ؟ . .

ـ ارأيت ؟ لا حرمة لشيء هناك . . . انا دهشت مثلك حين سمعت بالخبر ولم اصدقه . .

ـ اجل . . انه خبر لا يصدق . . .

ـ لنعد الى بحرية . . .

ـ لنعد الى المطار . . . منذ زمن بعيد لم نتحدث في شؤون العمل . . . الزواج بحاجة الى مال كما تعرف . . .

ـ لست فقيراً . . .

ـ ستكون . . اذا خضعت لمشيئة هلال . .

ـ اجل . . هذا غير مقبول . . .

انفرجت اسارير رغيد . . . تابع مؤكداً : هذا المطار يدر عشرين مليون دولار من الربح الصافي لك ، من غير ان تفعل شيئاً غير الحصول على موافقة العشيرة . . . ولك عندي الآن خمسة ملايين دولار حصتك من ارباح شركتنا لبيع السلاح . . العمل ناشط هذه الايام . . وهذا بالتأكيد يغطي نفقات زواج كزيجات الف ليلة وليلة . . . مع عروس صبية صغيرة خرافية الجمال . . .

ـ هل استطيع رؤية بحرية . . .

ـ بالتأكيد . . . وتستطيع لمسها ايضاً . . . سنعلن الخطبة ليلة المليار اذا احببت ، وسيكون مهرها قرار الموافقة على المشروع . . . مشروع المطار طبعاً . .

بدا صخر وكأنه حزم امره : حسناً ، سأتصل بوكيلي هناك بالتلكس . . سيكون رائعاً اعلان الخطبة ليلة المليار وسط الأصحاب والاحباب . . .

ـ سيحسدونك . . لم ير احد انسية بمثل جمالها . . . ولا جنية . . على ذمة الشيخ وطفان . . .

ضحكا . . .

الح صخر : ارجوك هل استطيع زيارتها للاطمئنان على صحتها ؟ . . .

ـ بالتأكيد . . . سارافقك . . .

لمحتهما دنيا يصعدان الى الطابق الأعلى . . حدست انهما ذاهبان الى بحرية ، ام تراهما ذاهبان الى الساحر ؟ غمزت نسيم . . . لم يكن بحاجة الى تنبيهها ، فقد (تصادف) انه كان يمسح الغبار عن التماثيل القريبة من الستارة . وقد سمع كل شيء . . . قال لدنيا بعد صعودهما : لا تخافي . . لن يدعه يلمس يدها . . سيزيد ذلك في التهاب اشواقه . . ولن يجرؤ على ايذائها قبل ليلة المليار . . لا يريد ان يعكر صفو ذلك اليوم شيء . . .

حين غادر الشيخ صخر قصر الزهران ، كانت (مسبحته) قد انتقلت الى جيب رغيد ، فإلى مجموعته الخاصة بممارسة هواية السرقة . . .

منذ وصلت بحرية لم يسرق سبحة ونسي عدة مرات تناول دواء الضغط وكثرت غاراته الليلية على البراد . ارتفع (السكري) في دمه . طاردته في كوابيسه . . . سيزيحها من حياته . . . لتكن ثمناً لصفقة المطار . . . ليحدث اي شيء . . المهم ان تغادر تلك الرقعة الغامضة المبهمة في اعماقه ، التي لا يدري عنها شيئاً لأنه لم يجد وقتاً لها وللذهب معاً . .

سيفرح ساحره بعودته ثانية الى النساء وخروجه من طلسم بحرية الشرير اللعنة . . .

***

انحنت كوكو بحنان نحو الساعة الذهبية الكبيرة وهي تختار لها موضعاً جديداً . . . كان رغيد في طريقه الى غرفته بعدما ودع صخر ، حين شاهدها تمثالاً من المرمر حاملاً آنية من الذهب . . . تمنى لو ترافقه الى فراشه او لو تبقى حيث هي ، ويمتلكها في تلك اللحظة بالذات . . فوق السجادة الوثيرة تحت اقدام التماثيل الذهبية . . . والتكات الذهبية لزمن الخلود . . ولكن ذلك غير ممكن الآن . . تحت انظار ذلك الفريق من النسوة العاملات بارشادات ليلى ، ولكن لم لا ؟ . . . لا . . . . ليس أمام دنيا التي ترمقه هذه الايام بنظرات غير لطيفة . . انها دون شك تغار من كوكو . . ام تراها تغار من بحرية ؟ لن يدري ابداً مع امرأة مثلها غامضة النظرات . . . حسناً . . لا مبرر لاثارة القلاقل بين النساء الآن . . . ليس قبل ليلة المليار بأيام معدودة . . انه بحاجة اليهن جميعاً الآن . . ولكن . . ربما تعود اليه الليلة بعد انصرافهن . . انها شهية ، والعمر هارب . . وبحرية مستحيلة . . . تقدمت منه دنيا ، وفي عينيها زوبعة . . ماذا تريد مني الآن ؟ لا وقت لدي اضيعه معها ، ولا اريد ان نتشاجر . . . بعد ليلة المليار الأول ، لدي حسابات كثيرة اسويها مع الجميع وانا في دربي لجمع المليار الثاني . . . ولكن ليس الآن . . .

قالت له دنيا : ما رأيك بأن نستضيف بحرية عندنا بعد ليلة المليار . . . قد تساعدها رفقة ابنتي . . انها قريبة من سنها . . . قد يساهم ذلك في تحسين صحتها تدريجياً . . وربما اعادة النطق اليها . .

قال لها : سنرى . . الأمور مرهونة بأوقاتها . . .

ومضى شبه هارب منها ، وقد امتلأ قلبه حقداً عليها (تريد ان تتدخل في شؤوني ؟ هكذا الناس ، بعد ان اشبعهم واملأ جيوبهم بالذهب (يتنمردون) . . . . نديم صار كسولاً ، كثير الاخطاء . لقد كان احضار بحرية غلطة . . . كل ما تمسه بيدها تحرقه . . تكاد تحرق اعصاب ساحري وكان مثالاً للتوازن . . تملأ نومي بالكوابيس ، وتثير حفيظة الناس علي . . نسيم صار وقحاً ، وخليل غنى « يا ظلام السجن » وافسد ليلتي يوم الاحتفال بوصولها . . والآن ، إذا فشل صخر في اقناع قومه بالصفقة ، يكون حضورها هدراً للوقت والاعصاب دونما اي مردود حتى على الصعيد الدعائي . . . فهي غير مضمونة على الاطلاق ، لا احد يدري ما يجول في خاطرها ، ولم اعد اجرؤ على مرافقتها الى الأماكن العامة . . وكل ما انفقته عليها من وقت ومال ضاع هباء . . ودنيا عادت تتقمص دور نصيرة المرأة ، بعدما ظننا اننا انتهينا من ذلك الى الابد يوم اشترينا ازواج بقية الشلة والمجلة التي كانت تنشر لهن ذلك الهراء . . . اذا فشل صخر في احضار التوقيع المطلوب ، لن اعرف كيف التخلص من بحرية . . قد لا تكون فكرة سيئة ترك الست دنيا تتعهدها . . ولكن لا . . . سيجد نديم باباً جديداً يدخل منه ثانية عالم صخر . . . علاقتنا لم تعد هذه الايام كما كانت . . . بعد ذلك الشجار بسبب غلطة احضار بحرية ، والتسرع في ذلك قبل التحري عنها جيداً . . . حسناً . . لن ادع هماً يفسد عيشي . . . ساتلهى عن ذلك كله بتصفية حسابي الليلة او غداً مع خليل . . . وساستمتع بذلك مع كوكو الجميلة . . . سأطلب بعض المساعدة من ساحري . . فقد قيل لي انها قد تلتهمني . .) . .

●●●

. . اقسمت عليك يا عنقود بحق الايمان والعهود والدواب السود والتوراة المنزلة على اليهود وبقدرة عالم الغيوب وبالاسم الذي يخرج له الماء من الحجر الجلمود ها لأكناس

لاكليس اكتونا التوتا أه أه توكل يا عنقود بجلب كفى بنت انيسة ورغيد ابن سهى اقسمت عليك بشملك تلاظ هلسكيك طيكال اجب يا عنقود بكفى ورغيد احضروا ايتها التوابع واتوني من الجبال والرمال والاودية الخوال ومن السحاب وكل مكان تونس منتكاش شريونية مريونية بحق هذه الاسماء عليكم ان تجلبوا كفى بنت انيسة الى رغيد ابن سهى . .

●●●

فليعترف . . . جسدها ليس اكثر من متراس يختبىء خلفه من بحرية ، وليس أكثر من ساحة حرب بينه وبين خليل . . تلال النهدين . . السهول الحريرية الرمال ، المنبسطة عند السفحين . . . الغابة . . . المغاور الدافئة الرطبة الملونة . . الانهار الجوفية الحارة . . . الرحيل اللامتناهي الى البعيد القريب . .

وها هي كوكو تتوسط فراشه وليمة للفرح . . . وقد زينت نفسها ببراعة انثوية حاذقة . . . تعرفه يحب الذهب ، وقد اختارت لشفتيها طلاء ذهبياً ، واحاطت عينيها الزرقاوين بظلال مذهبة ، فبدتا مثل فيروزتين نادرتين في حلية خارقة البهاء . . . الخدان طلتهما بالوردي المذهب ، وارتدت ثوب النوم غلالة شفافة من معدنه المفضل ، بعدما حولت صلابته الى طراوة حلم نشوة . .

بدت متأججة ومختلفة . . كلهن يأتينه في المرة الأولى ملتهبات بالفرح والحيوية ، ويخفنه بشهواتهن للحياة والثراء . . ومرة بعد اخرى ، يخبو البريق . . . ويصرن متشابهات ، مملات ، مسكونات بالمرارة الكاوية . . . كأنهن بحذقهن الانثوي يحدسن فيما بعد ان لا مكان لهن حقاً في هذا الركن الذهبي من العالم الا كديكورات ، او ساحات معارك . . . لسن محور حياة الرجال ، بل دمى هامشية ، والرجل لا يهدي امرأته حقاً معطف الفراء ، بل يهديه لنفسه ، ولصورته الاجتماعية كرمز لقوته الشرائية ، وهي تتولى حمله على كتفيها . . . وكل عطاء ، لا يهدف حقاً لامتاع المرأة ، وانما جوهره مباهاة الرجل بقدرته على البذخ استعراضاً لقوته . . فهل كوكو اذكى مما ينبغي لدمية ، ام ان ذكاءها لا يتعدى حدود دورها ، وستتابع لعبه بسعادة ؟ . .

(تقدم ايها الرجل ، لا تخف جسدها ، انه هش ومزور كالبالون ، لا صلابة روحية

تدعمه من الداخل ، ولا فكر يشحنه بـالاستمراريـة ، اثقبه كصبي يعبث بـالبالـون ، وستغادره الى الابد ابخرة الغرور والخيلاء ويتكور امامك على السرير كالخرقة الملونـة بالاصباغ . . . بالون آخر فارغ) . . تطلع رغيد اليها ثانية ، فوجـدها دميـة كالبـالون المنفوخ ، والهواء يغادره ، ويغادره ، وملامحه تبدو مضحكة .

تحاول كوكو ان تساعده على خلع معطفه الحريري . . لا يدري لماذا لا يشعر بالرغبة في ذلك . . لماذا لا يدعنه يخوض معركته ويغرس راياته ويهزم الرجال من غير ان يؤدي تلك المسرحية المكررة المضجرة . . . خلع الثياب ، والغزل وتبادل الانخاب ، واطفاء الانوار ، والآهات ، وبقية عدة التمثيلية . .

والاسئلة الممجوجة والحوار التقليدي : هل اعجبتك ؟

ــ طبعاً يا حلوتي .

ــ هل انا افضل من الاخريات ؟

ــ بالتأكيد .

ــ تحبني ؟

ــ الى الابد .

ــ هل ذقت متعة كهذه من قبل ؟

ــ ابداً ، كأنني لم اعرف النساء قبلك ! . . .

يخطو في حقولها . . يتمهل في رحلة صيده . . لا يقصد حقاً تشويقها ، لكن وجهاً مقطوعاً يحوم في عتمة الغرفة ويحول بينه وبينها . . وجه بحرية يأتيه ، ممتلئـاً بالغـرابة ، مشحوناً بالألم الغامض ، مسكوناً بالسرية المطلقة . . تجتاحه رغبة كاوية لاحتوائها لمضاجعة المستحيل . . . تعب من الدمى ، وسئم زوجات خصيانه . . . تذكر خليل وهو ينشد «يا ظلام السجن خيم» فدب الحقد في اوصاله واستعاد قدرته على العدوانية وتابع رحلته نحو التلال . . .

الهاتف يرن فجأة . . . **(من الأحمق الذي يضايقني في وقت كهذا ؟ لا بد ان الأمر خطير ، فقلائل يعرفون رقمي الهاتفي الخاص في غرفة النوم) . . .**

رفع السماعة . . جاءه صوت مشوش ، غـامض ، كأنـه من كوكـب آخـر ، يريـد التحدث الى كفى . . .

قال له : النمرة غلط . . واقفل السماعة . . . وانهمر فوقه مطر بارد تدفق من السقف

الحريري للفراش . . اذن ثمة من يتجسس على حياته الخاصة ، ويطارده ، ويعلن ذلك له ليخيفه . . .

سألته كفى بلا مبالاة ثملة : من ؟

ــ شخص يسأل عنك يا كوكو . . .

ــ عني ؟ . . . غير معقول . . .

ــ من يعرف انك هنا ؟

ــ لا احد . . .

ــ زوجك ؟

ــ بالتأكيد لا ؟ ثم انه مسافر . . .

ــ خليل لا يعرف على اية حال رقمي الهاتفي هذا . . . قالت خائفة : هل انت متأكد ؟

ــ اجل ! . . . شخص سأل عنك . .

ــ رجل ام امرأة . .

ــ لم يكن الصوت واضحاً . . .

ــ لعلها دنيا . . انها غيورة . . .

ــ هل اخبرتها بشيء ؟

ــ قلت لك لم أخبر احداً . . لعلها حدست . . قررت محاولة ازعاجنا . . .

ــ هل يعرف صقر انك هنا ؟

ــ لم اره . . اقسم لك . . . تعرف انه مسافر وزوجي ، وانني اقضي اوقاتي كلها هنا مع للي . . نعمل ليل نهار لتحضير سهرة ليلة المليار . . .

ــ خليل خارج جنيف ؟ . .

ــ انت تعرف انه مسافر . . .

ــ المكالمة جاءت من داخل سويسرا . . لم اسمع تكات المخابرات الخارجية . .

ــ ارأيت ؟

ــ من يعرف انك هنا ؟

ــ لا احد . . . اقسم لك . .

ــ من اوصلك ؟

ـ التاكسي . اسأل حراسك . . .

ـ حسناً . ارتدي ثيابك واذهبي بسرعة . . اريد ان افكر . . .

قرع الجرس . ومضى بنفسه الى الباب طالباً من نسيم توضيب السيارة للضيفة بينما كانت ترتدي ثيابها بسرعة ، وهي ترتجف قهراً وذعراً . .

ودعها على عجل ، واعطاها هدية صغيرة الحجم ملفوفة بورق ذهبي دستها في حقيبة يدها ، وهبطت بسرعة بانتظار السائق واحدى سيارات رغيد الخرافية .

وقف نسيم يشاركها الانتظار وشعرت ببعض الحرج (**حسناً . . لماذا يضايقني حضوره ؟ انه مجرد خادم لا اكثر . . ولن يجرؤ على اخبار خليل او اي مخلوق آخر**) . . .

وحينما مضت عاد نسيم الى غرفته وهو يفرك يديه عابثاً بمنديل سبق ان وضعه قبل لحظات فوق سماعة الهاتف حين تلفن الى غرفة رغيد . . . لقد احب خليل حقاً ليلة شاهده يغني «يا ظلام السجن خيم» وسط اولئك الوحوش والسجانين . . . رجل مثله لا يستحق ان تخونه زوجته مع وغد كرغيد ! . .

ستحوم الشكوك حول القلائل الذين يعرفون رقمه الهاتفي الخاص في غرفة النوم ، وهو في عدادهم . . .

لكن رغيد لن يكون واثقاً . . وهو لن يكررها ثانية . . . لقد عاهد نفسه على عدم التدخل فيما يدور حوله من وضاعات ، للخروج حياً من هذا الوكر . . . اسرته المسكينة لن تحتمل صدمة فقده ، بعد مصرع شقيقه وجرح الآخر . . وهو لن يموت بسبب امرأة مثل كوكو . . قد يموت من اجل بحرية . . . لا كوكو . ويجب الا ينسى ذلك ثانية . . . ويجب ان يسارع للتخلص من هذا الجحيم ، لأن شهيته الى خنق رغيد بيديه قد عاودته . . . وتمثال «المناضل» الذي (اهداه) اياه رغيد يهمس كل ليلة في اذنيه حين ينام : اقتله . . اقتله قبل ليلة المليار . . اقتله . . لا تدعه يستمتع بالمزيد من الجرائم . . تذكر سري الدين . . . تذكر شقيقك الذي فجر نفسه على اسوار بيروت كي لا تدوسها اسرائيل . . تذكر ان وجود رغيد مكرس لرفاهية العدو وفتح الدروب في وجهه الى عواصم عربية اخرى . . . .

●●●

تنهد الصباح دفئاً شرساً ، كأنه رسالة نارية مبهمة من ارض اخرى . دخل نسيم الى غرفة الساحر ، حاملاً له شاي الصباح كعادته . الغرفة مظلمة وخانقة ، وروائح البخور وعقاقير الشيخ وطفان الغريبة قد عششت في جنباتها ، وبدأت تتسلل عبر شقوق الباب الى الممشى وتكاد تستولي عليه مثل مخلوقات مظلمة لا مرئية تحمل رائحتها مناخات الاختناق والاسرار واللعنة ، هاجمة نحو باب جناح بحرية في الطابق نفسه . . .

اتجه نسيم صوب الستائر ، وجذبها لتدخل الشمس التي لم تغب عن سماء جنيف منذ وصول بحرية . . . وما كاد يفعل حتى صرخ به الشيخ وطفان من فراشه بصوت شبه مذعور : من طلب منك كشف الستائر وادخال النور . هيا . . . اسدلها بسرعة . . .

حدق نسيم في الساحر متسائلاً ، ودهش وهو يراه يتحاشى بقعة الضوء ، ويستر وجهه بيده وقد اشاح عنها . . فعاد نسيم يغلق الستائر وقد انتابه ذهول حقيقي . . . (يا الهي كم تبدل الشيخ وطفان . لقد نحل وجهه وطالت لحيته دونما تشذيب ، وانطفأت عيناه في بركتين حمراوين كأنه لم ينم منذ ايام ، والتهب شعره بثلج الشيب والتجاعيد الكثيرة سرت في ملامحه . . كأنه كبر عدة اعوام دفعة واحدة . . . لقد كنت اتحاشى النظر اليه تعبيراً عن غضبي على سلوكه نحو بحرية منذ حاول دس تعويذة العشق في طعامها ، ثم جرب اقساري على مساعدته في تعذيبها وحلق شعرها لمداواة جنونها المزعوم وطرد العفريت الموهوم الذي يسكنها ويضمر العداوة والدمار له ولرغيد . . هذه اول مرة انظر الى وجهه منذ وصول بحرية . . ولولا لون عينيه العجيبتين الغريبتين ، اليسرى الخضراء واليمنى البنية لما عرفته . . . ترى ما الذي يدور في عالمه السري المتوحش المسكون بالجان والعفاريت والاحقاد والاسرار ؟ ما الذي يدور داخل رأسه المغلق كصندوق تفور داخله حشرات مرعبة؟ يبدو كأنه يضمر شراً كبيراً . . . ولكن لمن ؟ للمسكينة بحرية ؟) . .

قال نسيم للشيخ وطفان بصوت جهد ان يبدو عادياً : لك رسالة .

ـ ضعها الى جانب الشاي . لا تقترب مني .

تعجب نسيم من السلوك العدواني لوطفان ، ومن نبرة الخوف الخفية في صوته المرتعد . . (هل يظنني انا ايضاً مسكوناً بعفريت ينوي تدميره ؟ هل بدأت عقدة الاضطهاد تستولي عليه جنباً الى جنب مع عقدة العظمة ؟ لم اكن اصدق ان في زمننا من يلجأ إلى السحرة ، ولو لم ار زبائن الشيخ وطفان من الاقوياء والاثرياء وحتى بعض الزعماء السياسيين من الاتجاهات كلها ، لما صدقت ان هذا الهذر ما يزال يدور في زمن احتلال لبنان

بعد فلسطين . . ولحظة فجّر اخي نفسه بالدبابة الاسرائيلية ، كان احد الزعماء العرب يستشير الساحر جالساً هنا كالطفل في حضرته) . .

قال نسيم بصوت مرتجف : اتصل بك الصحافي عدة مرات منذ الفجر الباكر . .

ـ امرتك بأن تقول له انني سافرت .

ـ فعلت . لم يصدق . يعرف انـك هنا . . لا شيء يخفى عـلى اولئك الصحـافيين الملاعين كما تعرف . قال انه سيتصل بك ثانية عند الظهر ويرجوك ان تكلمه . لم يعد في مقدورهم تزوير « الاوروسكوب » وهم يدفعون لك مبلغاً باهظاً ، ولا يحق لك فسخ العقد من جانب واحد قبل انذارهم كما يقول .

ـ دعني وشأني . سيبرد الشاي .

ـ هل تريد ان اناولك اياه في الفراش ؟

ـ قلت لك لا تقترب مني . اخرج . . .

كانت عينا نسيم قد الفتا الظلمة ، وصار في مقدوره ان يرى ان الساحر احاط سريره بنجمة خماسية رسمها بمسحوق احمر رشه حول سيقان الفراش .

اضاف الساحر : لا تطأ هذا الخط الاحمر . . . واحضر لي ليتراً من الكحول الابيض النقي . . .

وبينما نسيم يطيع الاوامر ويغادر الغرفة ، فاحت رائحة الكحول النقي وشاهد الساحر يفرك يديه بـ (الاسبيرتو) بشدة . . . **(إذن صار ينظف يديه عبثاً بالكحول ؟ انه يستهلك اكثر من ليتر كل يوم . . . حتى ظننته يشربها !! او يستعد لاحراق ذبيحة حيوانية بها. يا إلهي كم تبدل . لم يعد يدخن النارجيلة بالتبغ المزوج بالدبس . ولم يعد يطلب مني أن أعد له الشاي الأخضر وهو ينشد بصوته الجميل أغان مرحة لملوك الجان . ولم تعد اصـابعه المتوترة تتلهى بحبات سبحته الطويلة على طريقة النساك . . ولم يعد يصبغ كفيه بالحناء . . ولم . . ولم . . ولم . . كم تبدل . .) .**

***

حين غادر نسيم الغرفة ، نهض الشيخ وطفان من فراشه ، وبدا مثل شبح فارع القامة جسده قضيب طويل وقد لف عليه ما يشبه الكفن الأبيض المرعب . سارع الى الستائر يحكم اغلاقها . صار يكره ضوء النهار ويخشاه . . . يكره ان يراه احد في النور الساطع ، ويكره ان يرى نفسه في المرآة . . المرايا صارت تثير ذعره . . منذ طاردته بحرية الى داخلها واضرمت

النار في دهاليز مرايا العالم كله . . . (تلك الليلة نهضت من نومي مذعوراً . . كنت احلم بأنني امشي صوب غرفة بحرية وعفريتها يناديني بأصوات متعددة ، اصوات عجائز واطفال ورجال وحيوانات ووحوش وطيور وافاع . . . يناديني ويتحداني . . فتحت باب بحرية ، ودخلت ، وفي الظلمة شاهدتها بوضوح جثة آدمية غارقة في النوم بينما ينشط العفريت داخلها ويعمل على تدميري . . . ولم اكد اصل الى جانبها حتى فتحت عينيها الشاسعتين فجأة دون ان تتحرك ، واذا بعينيها مرآتان . . لا سواد فيهما ، ولا بياض عين ، وانما زرع العفريت في محجريها مرآتين براقتين ، شاهدت نفسي داخلهما رجلين ، وقد شبت النيران في رأسيهما . . . .

صرخت ذعراً ، وهربت من هذا السحر الرهيب الى غرفتي . اقفلت الباب وسورت سريري بالمسحوق السحري ورسمت النجمة التعويذة وقويتها بالتعازيم فصارت جداراً غير منظور يحميني ، ثم جلست في فراشي وامسكت بالمرآة ، وحدقت فيها ، وفوجئت بأن وجهي داخلها يشتعل بالنار . . . وجهي قناع يعوم داخل فراغ المرآة وقد شبت النار فيه . . . وتوجعت . . وصرخت بحنجرة ابن آوى كي لا اوقظ احداً ، وكي لا يميز نسيم او رغيد صوتي ويتوهمان انني جننت . . .) منذ تلك الليلة ، لا تطالعني مرآة إلا وارى فيها وجهي عائماً في الفراغ كقناع وقد شبت فيه النيران . . . آه برد الشاي . . . على اية حال لا شهية لي الى مأكل او شراب . . . لعل العفريت الذي يقطن نسيم لحراسة بحرية يتلقى الاوامر بتسميمي . . . لم اعد اجرؤ على الاكل الا برفقة رغيد ، بعد ان يتناول قبلي بضع لقيمات . . . ولم اعد اطيق صحبة رغيد او سواه من البشر . . . ولكن لا مفر من مجالسة رغيد وقت الطعام والا مت جوعاً . . . كم صرت امقت صحبة الناس ، انا الذي كنت مصراً على الذهاب الى الفندق لقضاء حاجاتهم . . . واللقاء بهم وبالصحافيين المشاغبين الطيبين . .

غسل الساحر يديه بالماء والصابون للمرة العاشرة ذلك الصباح دون ان يدري لماذا . واعاد ترتيب ادواته السحرية ، ومسح الغبار الموهوم عنها للمرة الالف منذ الليلة الماضية . . . لا يدري ماذا دهاه فجأة . . . صار يحس بالحاجة الى ترتيب الفوضى المحيطة به ، وقد رتبها للمرة المليون منذ وصول بحرية . . . ولم يعد يفعل شيئاً آخر غير غسل يديه ، وملازمة غرفته بعيداً عن النور والناس ، وترتيب (الترتيب العبثي) الغريب الذي يلازمه . . منذ وصول تلك المرأة المسكونة انكسرت دنياه ولم يعد يذهب الى غانيات « شارع

برن » الجميلات اللواتي كانت تتقمصهن عروس الجان . . لم يعد يشعر بالشهية نحو اية انثى غير بحرية ، ونسي عنبرة بعدما مسحتها بحرية من ذاكرته وعليه اولاً طرد الجني القوي العدو الذي استولى على جسدها ليكيد له . . جسدها النضر الشامخ الذي يرتجف بوهن عاشق وهو يدهنه بالمراهم ودم الخفاش والابل ويتلو تعاويذه . . . وتضيع الكلمات التي كانت مطواعة . . . لقد اضحى (يتأتىء) في حضورها ، وصار يبذل جهداً خارقاً كي لا (يتأتىء) في غيابها حين يكلم نسيم او رغيد . كيف دخلت صرختها صدره واستولت عليه واعادته حطاماً من التناقضات والذعر والرماد ؟ لقد مسحت حياته الحالية ، واعادته الى الماضي الغابر الموجع . . (**كأن ذلك الماضي حي، ومستمر ، وانا اتابعه في مكان ما ، مع اخوتي وابي وامي ، ورائحة بيروت المالحة . . كأنني اتساقط داخل عصور وازمان اخرى واحترق ، وتأتيني اصوات ذلك الزمن حية واكثر حياة من حاضري المقدد المحاصر بوجهي يحترق داخل المرآة . . . كأن زمني الجميل مع الجان كان وهماً انحسر . كأن بحرية مسكونة بعفريت بيروتي كان يكيد لأسرتنا منذ زمن بعيد . . . لا ادري . . . لم اعد ادري شيئاً غير اني منذ وصول بحرية منفي الى حيوات اخرى عشتها في الماضي . . . وصار الماضي الميت اكثر حياة من حياتي**) . .

اضاء الساحر مصباحاً خافتاً وتناول الرسالة بحذر . لعل عفريتها انتقل من كتابة الرسائل على المرايا الى الورق . كل شيء ممكن . قلبها مذعوراً ثم فتحها . وجد رسالة من البنك تضم (كشف حسابه) . . . قرأ الارقام مرات عديدة ولم يفهم شيئاً ثم تذكر ان ذلك يعني انه ثري . . يمتلك ثروة بستة أرقام . . لم يعد يذكر لماذا كان يريد جمع المال ، ولماذا كان همه امتلاك اكبر رقم ممكن . . لماذا ؟ لم يعد يذكر. لكنه يشعر بانه جائع ومذعور ووحيد ، وما يرعبه ان كل ما يحدث له مع بحرية يبدو له وكأنه يتكرر . . كأنه سبق ان حدث له من قبل . . وهو يعرف النهاية المأساوية لتلك الحكاية . . لا يذكر التفاصيل لكنه يعيها بغموض من يحاول تذكر حلم أو حياة سابقة كان قد تقمصها . . ذلك الاحساس الاكيد بأنه قد عاش هذا كله من قبل بمعنى ما يزيد في سقوطه اليائس شبه المستسلم في فخ التوحد والعزلة . . . صار مستوحداً ومتوحشاً ، يتحاشى الناس بعدما كان يسعى اليهم بالرغم من انف رغيد ، وتحاصره كلما نام كوابيس عالم غامض عبثي . . . ولم يعد متأكداً اين يبدأ الحلم وتنتهي الحقيقة ، ومتى يخطو إلى الكابوس ويمشي في المرآة ومتى يغادرهما . . . (**لقد انتصرت على الخوف بالسلطة . . وكنت سعيداً بين رعاياي . . . حتى عنبرة ، احزنتني مرة لكنها لم تهز**

صولجاني هكذا . . . وحكمت مملكة من الانس والجان . . . والآن كل شيء ينهار بسبب بحرية ، ولا ادري لماذا اتآكل من الداخل ، كأن نملاً مفترساً متوحشاً يلتهمني ليل نهار . . آه هذا الحر اللعين الذي رافق بحرية ، كرياح مسمومة تهب من عالم آخر . . . انني اختنق) .

تناول خرقة بيضاء ، ومسح بها العرق المتصبب عن جبينه . . وفوجيء بأن له لون الدم ! . . . (هل صرت اتعرق دماً ؟ ام انها تعبث بحواسي ؟)

تناول المرآة ثانية . نظر داخلها فلم ير صورته على الاطلاق كأنه ممحو من الدنيا ، وانما شاهد اشارة استفهام كبيرة مرسومة داخلها . . .

رن الجرس . دخل نسيم بعد دقائق وكان الساحر ما يزال يحدق في اشارة الاستفهام مذعوراً . قال لنسيم : خذ هذه المرآة ، وانظر داخلها .

نفذ نسيم الامر ودهشة حقيقية تستولي عليه . انها مجرد مرآة اخرى عادية ، شاهد فيها وجهه البائس وآثار الدموع السرية في عينيه منذ استشهاد شقيقه . سأله الساحر : ماذا ترى ؟

اجاب ببساطة : وجهي طبعاً .

ـ الا ترى شيئاً آخر ؟

ـ بالتأكيد لا .

استعاد الساحر المرآة ، فوجد شارة الاستفهام وقد تكاثرت حتى كادت تغطي السطح الزئبقي المخاتل لزجاجها . . ثم صارت تتحرك وتفور كديدان صغيرة تتأهب لالتهام جثته . . .

وصرف نسيم باشارة من يده ، دون ان ينطق بحرف واحد . . . بقية النهار ! . . . لكنه صنع دمية لبحرية . غرس الدبابيس فيها وعزم عليها واحرقها في المجمرة، فأحس بالنار تحرقه هو أيضاً . لكنه كرر ذلك مرات عديدة ! . . .

***

دخل نسيم الى غرفة بحرية حاملاً صينية الافطار . . كان منذ وصولها يكلمها وهو لا يدري ، تسمعه ام لا . . تنصت ام لا . . . ويحنو عليها كما لو كانت طفلته او امه ! . . . هبت رائحة البحر الصيفي الحار من سريرها حين تقلبت فيه . دوماً يشم رائحة البحر تفوح من غرفتها ومن حضورها الناري ، كمدينة محاصرة . كشف الستائر فتدفق النور . . .

نهضت كأنها ترحب بالضوء ، وتتجه صوبه بوجهها لتشرب من نبعه ، ثم التفتت الى نسيم . شاهدت وجهه وخيل اليه انها بدت مطمئنة وتثاءبت . .

قال لها : صباح الخير . .

ـ . . . صباح . . . الخير . . .

أهي حقاً نطقت ام خيل اليه ذلك ؟ . . . لا يدري . . . كان قد ادار ظهره لها ، وهو يقرب الطاولة من الفراش ويرتب فوقها آنية الطعام . .

كرر بود حقيقي : مليار صباح الخير . . .

ابتسمت . . . إنها تبتسم وليس واهماً . . لا . . ليس متأكداً ، ولكن طلعت شموس عديدة ، ونبتت البذور في التربة المحروقة وهطل مطر دافىء يحنو عليها فصارت اشجاراً واينعت فوقها البراعم والورود وتدفقت الينابيع وصدحت الطيور ذلك كله في اللحظة التي استغرقتها ابتسامتها غير المؤكدة ! قال وهو يرتب لها اواني الطعام دون ان ينظر اليها : نطقتِ ام لا . . ابتسمت ام لا . . . لا فرق . . . بوركت ايتها الطفلة المسكينة . . . وحماك الله من اولئك الاشرار جميعاً ايتها السيدة الكبيرة . . . طبيب يروح ، وآخر يجيء ، وكلهم يخدرك . . . ينومونك ليل نهار كأنهم يخشون صحوك . . . ولكن ، رغم تخديرهم المستمر لك ، احسك حية وهادئة كلغم ، وفيك ما يحرضني على الفعل . . . والقتل . . والحنان . .

نهضت من فراشها . . كانت جراح جسدها قد شفيت ، وبدت لعينيه وهي تمضي لتغسل وجهها قوية وصلبة . . . آلهة منحوتة من الصخر الاسمر من الصوان لا من الرخام ، تقدح شرراً حياً ، وتختزن في اعماقها سحر افروديت وصلابة زنوبيا واحزان إلكترا وحكمة اثينا وجموح كليوباترة . . . تطلّع من النافذة ، وخيل اليه انها ما تزال تركض في الغابة امامه كما تسري في عروق الليل والاشجار كل ليلة . . كأنه لمحها داخل تلك الاجمة ، ام تراها حقاً في الحمام ؟ عادت اليه ، وقد فارقتها نظرتها الزجاجية الزائغة . . . ثبتت نظرتها في وجهه كأنها تتأمله بإمعان . . تذكر انه منهك ومشعث الشعر ولعله يبدو عجوزاً في الثلاثين . . . قال لها بنزق الشباب : عمري خمس وعشرون سنة . . لكنني ابدو عجوزاً لانني رب اسرة . . تسعة اخوة وانا معيلهم الوحيد . كانوا تسعة واستشهد احدهم . . . نحن الفقراء نشيخ بسرعة يا حلوتي . . وكل ليلة عندنا هي «عيد المليار ضحية وشهيد» . .

تتأمله بصمت . . . يتابع : لا ادري سر ثرثرتي امامك . . انت الوحيدة من دون

الناس جميعاً التي افتح لها قلبي واعري لها بؤسي دونما خجل . . ولا ادري سر صمتك . . هل انت حقاً مريضة ، ام انك ترتدين الصمت ذكاء ودهـاء وحسن تخلص ؟ . . . هل اسمك بحرية ام حرية ؟ وهل انت مثلي ، مهجرة مسكينة في وطنك رمت بك المقادير الى هنا ام لا ؟ . . كل ما اعرفه هو انك بالتأكيد لست قريبة رغيد . . . وانني بالتأكيد سأفعل كل ما بوسعي لحمايتك منهم وليس لحمايتهم منك كما يشتهون . . . هل تلازمين فراشك ليـلاً حقـاً ، أم تخرجـين الى رعـايـاك من كـائنـات الـطبيعـة ؟ دومـاً يخيـل الي أنني ألمحك عند الفجر وانت تذوبين في ضباب الغابة الشفاف . . . لا اعتقد انـك تغادرين فراشك وانت مخدرة هكذا . . يـدهشني احيانـاً كيف تقوين عـلى النهوض والحـراك . . كـلي ايتهـا الغـاليـة . . . التهمي طعـامـك . . يجب ان تستـردي عـافيتـك بسـرعـة لتغادري هذا الجحيم معي اووحدك . . . واحذريهم . . . رغيد يحلم بامتلاك مستحيلك ، واخشى ان ينقلب حبه لك الى كراهية . . فالكراهيةحب يتقمص العبوس ، وربما الحقد والنقمة . الساحر ايضاً مجنون بك حباً وكراهية ، فاحذري منه ، لعله يحلم بقتلك . . . وانا احلم باطلاق سراحك . . عملياً احلم . . . واظنني قد نجحت في تحرير جواز سفرك منهم ، بحيث يصير رحيلك ممكناً . . . هل تسمعينني ؟ . . . . .

لم تجب ، ولم ترفع رأسها اليه . كانت تشرب الشاي بصمت . تذكر نسيم انه اطال البقاء في غرفتها ، وقد يلحظه رغيد ويهدده بالطرد كما فعل في مرة سابقة . . . همس مودعاً : استودعك الله ايتها الاميرة الفقيرة . . . اسمعي . . نسيت ان ابلغك نتائج فحوصاتك الطبية والمخبرية . . . لا مرض عضوياً لديك . هذا ما سمعت الطبيب يعلنه لرغيد . لا سببـاً فيزيولوجياً يمنعك من النطق . لست خرساء بالتأكيـد ، اذا كان يسـرك ان تعرفي ذلك . . ولا خطر عليك الآن منهم فكلهم مشغول بليلة المليار . . هل عرفت ان رغيد اعلنها لتتصادف وليلة عيد ميلادك ؟ هل هي حقاً ليلة عيد ميلادك ، وكيف يترافق مولد القامع والمقموع ، وعيد السكين والمطعون ؟ . . . هل تخفين لنا مفاجأة ليلتها كما فعلت ليلة حفل استقبالك ؟ حسناً . . .

اذا تصادف عيد ميلادك ليلتها حقاً ، بوركت تلك الليلة بك . . . وما دمت صامتة هكذا ، لا تجيبين وربما لا تسمعين ، سأقول لك انني احبك مليار مرة ، ولا اريد لهذا الحب شيئاً غير ان تقبلي عطائي . . . وفقير مثلي لا يملك غير التضحية بحياته لاجلك . . .

واردف وهو يغادر الغرفة : لكنني ارجو الا يكون ذلك ضرورياً . . . لا اظنهم يجرؤون

على ايذائك . . ليس الآن . . . هذا ما اكدته لي دنيا . .

خيل اليه وهو يطبق الباب انها قالت شيئاً عذباً، مثل نفحة ريح ربيعية . . دوماً يخيل اليه انها تكلمه عبر شفتيها المطبقتين بإحكام . . . وعاد الى المطبخ شبه ثمل بها وكان رغيد يرن جرس الانترفون ويشتمه بعدة لغات . . . لم يجب . . تأمل الصوت المنهمر المتدفق كنهر قاذورات . . . وظل صامتاً رافضاً مغادرة قارة سعادته ببحرية . . .

●●●

كم تكره هذا الحر الذي داهم جنيف ، وانشب مخالبه فيها . . .

استيقظت كفى مضطربة الروح متهمة الحر بالمسؤولية . . . منذ رحل زوجها وهي لا تفارق شقة نديم الفاخرة ، ولم تعد تزور فندقها الا لاحضار بعض ثيابها . كانت سعيدة ، حتى اكتشفت ان هدية رغيد لها مزورة ، كخاتم دنيا الذي سبق وسرقته . يوم عادت من ليلتها الفاشلة ورغيد ، انقضت ملهوفة لترى هديته اليها . . . وكانت نسخة عن خاتم دنيا الذي سبق وسرقته وما زال في حوزتها . . . ماس مزيف . . . زجاج . . . لا يساوي شيئاً . . . لم تصدق عينيها ، وذهبت مساء البارحة به الى الصائغ الذي قال عنه ما قاله عن الخاتم الآخر : ديميليت !

امتلأت قهراً ، وهاجمتها الكوابيس . حلمت بأن الساحر يسلمها الى رغيد ، ووجه رغيد في الحلم غريب . . . عيناه طولانيتان لاعرضانيتان كبقية الناس ، مشقوقتان حتى خديه . . . اسنانه سوداء مكسرة وشعره من القش . . ويهمس لها الساحر . . لا تقولي له انه كذلك فهو لا يعرف انه ميت . . . ثم يجرها من يدها ، ويمددها داخل تابوت ، ويقول لها انه سيروي لها حكاية لتنام . . . يغمض لها عينيها بيديه ويقول : كان يا ما كان في قديم الزمان . . كان شبح . . . كان شبح . . . هداياه وهم . . .

تناولت طعام الافطار وزاد في ضيقها ان نديم لم يمر بها كعادته كل صباح وبدت البحيرة لعينيها مثل « طشت » كبير ازرق للغسيل الوسخ . . . وحين لمست مقبض باب الغرفة لتغادرها تكهربت للمرة الأولى ، وفهمت ما كان يحدث لخليل باستمرار . . . .

فارقتها الشهية للعمل وللي في التحضير لليلة المليار ، وشعرت بقلق غامض . . كمن

تحولت جنته الى مستنقع رمال متحركة . . . ارتدت ثيابها بسرعة وقد قررت الذهاب لشراء ثوب جديد تغرق في حريره احزانها وتطلعت من النافذة وهي تنتظر المصعد ، فخيل اليها ان الابنية في الشارع مائلة قليلاً صوب الجبال . . . وانها ليست مستقيمة تماماً كما كانت تتوهم . . .

استيقظ في روحها قلق غامض ما كانت تعرفه في غمرة يقينها العتيق واطمئنانها للقاء قومها الراقين الذين تنتمي اليهم . . . لم تعد متأكدة من شيء . . . بلى . . . انها متأكدة من شيء واحد : حبها للثراء والرفاهية والماس والحرير يفوق حبها لأي شيء آخر في العالم . . . ومخادع غني خير من مخدوع فقير او مخادع فقير . . . ستتحاشى الالم قدر الامكان . تريد ان تحيا بسعادة ، وهي لم تعد تجد سعادتها الا قرب المال . . . لقد الفت انامل عجوز (المساج) التي تحضر لتدليك حسنها كل يوم كي لا تترهل نضارتها بعد اعوام من الاختباء في عفونة ملاجىء بيروت . . . والفت دبابيس الخبير الصيني الذي يغرسها في مفاتيح جسدها ، ويحررها من نوبات الصداع التي بدأت تداهمها في الايام الاخيرة ، ونوبات الشهية المفرطة للأكل التي استولت عليها في جنيف واضافت عدة كيلوغرامات مفاجئة الى وزنها . . . صحيح ان نديم وصحبه فرحوا بهذه الزيادة ووجدوها اضافة كيفية ونوعية الى مفاتنها ، لكنها حريصة على رشاقتها المرغوبة خارج حجرات النوم المغلقة ، وسط قاعات الكوكتيل وسهرات المجتمع . . . حين وصلت الى الباب الخارجي ، فوجئت بوصول نديم يرافقه ضيف ، وعلى سيارته الرولزرويس تبدو امارات وجاهة خارقة . . . نسيت كل شيء عن خاتم رغيد ومخاوفها ، ونبض قلبها للفريسة الآتية الى وكرها خصيصاً للاعجاب بها . . كم تحب سماع كلمات الاعجاب ، وكم تبذل من جهد انثوي لتستحق ذلك . . .

صافحت الضيف بزرقة عينيها ، وشهرت عليه اهدابها ، فارتجف صوته ، وسارع نديم وقد التقط (موجة) الاعجاب المتبادلة وتلا فعل التعارف بدلاً من فعل الندامة وتابع قائلاً : سيدة كوكو . . . هل تستطيعين تناول العشاء معنا ؟ هذا ضيف الباشا . . وصلته الدعوة لحضور ليلة المليار ، فقرر المجيء منذ الآن لقضاء اجازة في سويسرا . . .

ـ كم هذا لطيف . . .

لم يعرف احد بالضبط ما هو اللطيف ، وافترقوا وهم يعرفون ان كوكو ستسهر مع السيد عادل بكل سرور متبادل بين الثلاثة ! . . .

***

في ملهى « الماكسيموم » بهرها عادل بكرمه وسخائه . . دست بلفافة بين شفتيها منتشية بذلك للمرة الأولى ، وتذكرت انها طالما كانت تمقت رائحة سجائر زوجها وتشن حملة ضارية ضـد دخانـه هو شخصيـاً . . فدخـان الفقر والبؤس خـانق . . . ودخان الثـراء يشـرح الصدور . . وفاجأها عادل حين استل ورقة نقدية من فئة الالف فرنك واشعلها بـطرف ولاعته (الكارتييه) ، وقدمها اليها كي تشعل بها طرف لفـافتها . . . حتى نـديم اذهله المشهد . . اما هي فطار صوابها ، وحارت هل تطفىء ورقة الالف بيديها وتحتفظ بها دامعة ، ام تستمتع بالمشهد الذي طالما شاهدته في السينما وتمنت لو كانت البطلة . . كانت لحظة (خالدة) في نظرها ، شدت صدرها كما في الافلام المشابهة ، وتنهدت دخان اللفافة حتى آخر خلية في رئتيها وقلبها ، وامطرت عيناها شهوات زرقاً فوق عادل الذي لم يخف هيامه بها . . . وقرر نديم : حان وقت حديث العمل وعادل . . .

لكن الامر خرج من بين يديه . . . بدت كوكو كامرأة عاشقة حقاً ، كأن اخلاصها لكذبها يفوق حبها للخيانة ، وقد سرت عدوى حيوية شهواتها الى عادل . . . وازدادت رغبة نديم في الحصول عليها واستعدادتها من اذرع الرجال الذين يقدمهـا لهم . . . وفكر بغصة (**هذه امرأة اصيلة الوضاعة . تمارس الرذيلة بصدق حتى انها لا تلحظ ما تفعله ، والاطارات الاجتماعية تزيدها تأججاً . . . هل سينتهي بي الامر الى حب امرأة مدمـرة التفاهة مثلها ،.ومحترقة حارقة مثلها ؟**) قرر نديم ان يكسر قليلاً حدة الانسجام بينها وبين عادل ، فسألها : هل تصلك اخبار من خليل وصقر المسافرين ؟ اجابت ببساطة : خليل ؟ صقر ؟ من هما ؟ ودفنت وجهها في صدر عادل المزدهر سعادة بتأججها . . وللمرة الاولى احس نديم بما يشبه الغيرة ، ورافق ذلك شعور عميق بالرفض لغيرة حمقاء كهذه . . . وفي ومضة واحدة ، تحولت مشاعره كلها حقداً غامضاً على زوجته الخامدة دنيا . . .

لن يفهـم النساء ابداً . . . ولم يفهمهن يوماً رغم شهرته كزير نساء ذواقة . . .

(**المرأة الأولى التي احببتها انتحرت حين رفضوا تزويجها بي لأنني فقير . . والمرأة الثانية التي احببتها وتزوجتها تكاد اليوم تنتحر لانني لم اعد فقيراً . . وكوكو تقول انها تحب رجال الارض جميعاً لانها تحبني ، وهي تثبت ذلك عملياً مع كل رجل اقدمه لها . . آه لن افهم النساء ابداً**) . . .

وحين احاط به سرب من الراقصات تتدلى الرياش الملونة من رؤوسهن ومؤخراتهن كالذيول الناعمة لحيوانات غريبة ، حدق فيهن كأنه يراهن للمرة الاولى في حياته (لقـد

خربن حياتي منذ البداية وقمعنني بحبهن للثراء . هن اللواتي يفرضن الاحترام الاجتماعي العام لمقام الاغنياء . . وانا لبيت) . . .

وتذكر امه العجوز الرقيقة الصابرة على قسوة ابيه ، الصامدة في بيروت ، المستورة التي تداري مصائب الدهر بالصبر والكتمان ، وتحرك في اعماقه خنجر منسي اوجعه قليلاً . . وكأن عادل حدس الطعنة فقال له حين نهضت كوكو الى الحمام : لنعد الى حديث العمل يا صديقي . . . وكان عليهما ان يتبادلا (صراخ العمل) وسط ذلك الضوضاء الاحتفالي كله . . .

●●●

حين شاهد رغيد منذ ايام صورة بسام جثة هامدة في الصحف ، واميريغطي وجهه بيده ليخفيه عن عدسات المصورين امتلأ قلبه براحة عذبة لها مذاق الشماتة الشهي .

وحين شاهد اليوم صورة دنيا في الصحيفة ذاتها هذا الصباح ، وهي تمشي في التظاهرة الى جانب امير ، تناول عدسته المكبرة وقربها من الجريدة ليتأكد من انها حقاً اقترفت ذلك ، ولم يمتلىء قلبه بالراحة ، بل بالقلق . (**هذا الحر سيخنقني ، ومكيف الهواء يصيبني بالحساسية ، وسلوك دنيا ليس مفاجأة لي، وقد راقبتها تتبدل في الآونة الاخيرة ، لكنه ظاهرة خطيرة**) . .

هذه المرأة تعرف الكثير من الاسرار على طوال اعوام من التلاحم ، وليس من حقها ان تتصرف كأنها تملك ذاتها ، وتنحاز الى معسكر الخصم بكل بساطة . . ويجب ان يكون عقابها كجزاء الجواسيس الذين يخونون عصابتهم منتقلين الى عصابة اخرى . .

لكن موتها الآن (**حتى مصادفة في حادث سيارة مثلاً ، كموت سري الدين**) سيثير الشبهات والهمسات خصوصاً قبل ليلة المليار بأيام ، ولا بد من الانتظار قليلاً . . . وريثما يصير العلاج الحاسم ممكناً ، لا بد من بعض المسكنات . وهكذا استدعى رغيد معاونه نديم على عجل ، بصفته مسؤولاً عن جنوح زوجته مؤخراً . . انه يمنح كوكو وقتاً اكثر مما ينبغي ، وينسى مراقبة دنيا حتى باتت تشكل خطراً عليه شخصياً . . . ثم انها لم تعد تبالي حتى بالمظاهر . . وها هي تخرج في تظاهرة امير علناً ، وفي الصف الأول منها ، وتهتف من اجل

لبنان وضد اسرائيل كأنها تحاول ان تعاود سيرتها الأولى . . . الحمقاء لا تدري ان من يمر بقصره وعمره ، لا يغادرهما يوماً كما كان . . ولا امل له في النجاة . . .

سيكرر اصدار الاوامر الى نديم المهمل اللعين الآن . . .

وحين احضر له جواسيسه مشاهد التظاهرة على شريط (الفيديو) ، تـأمل الـوجوه كلها ، وحفظها وقرر ايذاء ما عرفه منها ، وبصورة خاصة خادمه نسيم ، لكن ضربة دنيا كانت الاشد ايلاماً . . . وبدت في سعادة هستيرية وهي تهتف للوطن ضد جلاديه وتدس بيدها في يد امير . . .

لذا كانت لهجته بالغة القسوة حين استدعى نديم ثانية ليريه شريطاً مسجلاً يهمه امره ، وجلس ينتظره في بركته الاخطبوطية المذهبة وزبد شهية الانتقام يفور حول شفتيه . . . ويجف كالملح المر . . .

* * *

ما زال الحر الغامض يقتحم صحوها ونومها كأنه رسالة نارية مبهمة من الصحراء . . .

ودنيا ما تزال حائرة ، هل تحب موجة (الكانيكول) هذه ام تمقتها . . . كما هو شأنها مع كل ما يحدث لها في الاسابيع الاخيرة . . .

انها تشعر بانها ضالة ، غادرت مستنقعها العتيق ولم تجد وعاء جديداً يحتويها . . . تقضي نهارها في التناقض . . . تلعب دور الثائرة حيناً ، ثم تهرول الى الحلاق لتلعب دور سيدة المجتمـع حيناً آخـر . . . تخرج في تـظاهرة قبـل الظهـر هاتفـة من اجل لبنـان والعرب والكادحين ، وتقضي مساءها في حفل الكوكتيل مع جلادي شعبها متسائلة برعب : ترى هل تظهر صوري في صحف الغد ؟ وهل سيلمحون وجهي في نشرة اخبار المساء وانا اتقدم الصفوف متأبطة ذراع امير النيلي ؟ اهذه النظرة الساخرة العدوانية في وجه ابنتي علامة احتقار لسلوكي المتناقض غير المتماسك ؟ . .

ها هي الآن في سيارتها الفاخرة ، والسائق يعود بها الى الفيللا بعد نهار آخر عبثي من التنقل بين القطب وخط الاستواء . . . (**آه كم انا منهكة ، لا اشتهي شيئاً غير مغطس فاتر ارمي بجسدي فيه واشطف عنه يوماً آخر من الحيرة والانهاك**) . . .

في الصباح ، فوجئت بهاتف من مخبرها السري الذي طالما كلفته امر التجسس على نديم من زمان . . . ايام الاحتضار الاخير « لحبها » ، او « لحبها تملك » نديم . . . ايام

التسلل الى الشيخ وطفان لمحاربة فحولة زوجها وعقدها عن كل انثى اخرى . . . ذهبت اليه في المكتب .

- (زوجك يخونك .

- لم يعد الأمر يهمني .

- لم تبلغيني امراً بوقف ملاحقته . لدي سلسلة من المعلومات التي تهمك ، ولم ابلغك شيئاً الا بعدما تأكدت تماماً من الامر . . .

- لم يعد الأمر يهمني . . .

- انه يخونك مع لبنانية جميلة اسمها كفى متزوجة من رجل سافر مؤخراً هو خليل الدرع . . .

- لم يعد الامر يهمني . . .

- انهما يخرجان معاً الى الاماكن العامة . . . يرافقهما الاصدقاء احياناً . . . رجال من اصحاب الثراء والنفوذ . . .

- لم يعد الامر يهمني .

- غادرت الفندق ، فندقها ، وصارت تقضي اوقاتها في شقة يملكها زوجك . . .

- لم يعد الامر يهمني . . . كف عن تعقبه . . . وسأدفع لك اتعابك الماضية كلها الآن) . . .

احقاً ان الامر لن يهمها حتى في المستقبل ؟ ألن تندم ذات يوم وتثور ، وهي التي ألفت تقلب مزاجها المستمر ، وسقوطها المفاجىء في آبار اليأس من آن الى آخر ؟ . . .

تأملت الدرب الجميلة صوب بيتها والسيارة تتحرك بها برشاقة نحو (الفيللا) ، هل في مقدورها حقاً الاستغناء عن هذا الترف كله ؟ ام انها ستخرج في تظاهرة الشتاء اليسارية وهي ترتدي معطف الفراء «الفيزون»؟ . . . .

هل في مقدورها حقاً ان تحمل مسؤولية ما تقدم عليه من اعمال ؟ (للمرة الأولى اخون مصلحتنا المشتركة ، زوجي وانا ، واقدم على عمل قد يسبب لنا خسارة مادية مباشرة ، وورطة كبيرة مع رب العمل الكبير الخطير رغيد . . . كان المخبر السري الخاص يحدثني عن خيانة زوجي لي ، وانا اخطط لخيانته بسرقة جواز سفر بحرية من « درج » مكتبته . . شيء ما في بحرية يذكرني بشبابي وصورتي في اللوحة التي رسمت فيها ذاتي ذات يوم . . . شيء ما فيها يأمرني ويعزف على اوتاري كلها كأم وكانسانة ، وحتى ككاهنة معبد غامض لا تملك الا ان تلبي . . وهكذا عدت الى البيت . . ارتحت وانا ارى نديم يغادره بسرعة وهو

يقول لي بخشونة :

ـ طلبني رغيد لأمر خطير . . .

فتحت غرفة المكتبة ، وسرقت جواز السفر . . . ارتجفت اصابعي ولم تتوقف . كيف اطمح للعودة الى الرسم بيد مرتجفة ؟ وذهبت بجواز السفر الى امير كما سبق ووعدته . . . لن يلحظ نديم اختفاءه قبل زمن طويل ، واذا لاحظ فلن يشك بي بالتأكيد لانه لم يسبق ان فعلت شيئاً كهذا من قبل) . . .

كم هي متعبة وتتوق لمغطس ماء معطر فاتر ملون وحي الفقاعات . طلبت من السائق ان يسرع قليلاً ، وفوق التلة لمحت بيتها « الجوهرة » . . . هل هي حقاً على استعداد للتخلي عن كل شيء في محاولة يائسة لاستعادة ذاتها ؟ وهل تبقّى الكثير من ذاتها لها ؟ سمعت فجأة صرير صوت الكابح ، ثم صوت اصطدام سيارة اخرى بسيارتها ، وقذف بها (الاصطدام) الى الامام قليلاً . . . بعد الصدمة الأولى ، سألها السائق اذا كانت بخير ، واكدت له ذلك ولم تكن تكذب . هبط السائق ، وذهب يتحدث بهدوء وسائق السيارة الاخرى . لم يصب احد بأذى غير الهياكل المعدنية الفخمة . فتحت دنيا الباب ، وتسللت بهدوء ومشت صوب بيتها . . . لم يكن ممكناً ختم يوم كهذا بغير اصطدام ما . . . وحسناً ان الصدمة كانت من نصيب السيارات . . .

ما كادت تمشي بضع دقائق حتى شعرت بأن الكعب (العالي) يقص لحم قدميها . لقد نسيت المشي . نسيت رائحة العشب . نسيت كيف تتحاشى دهس السيارات ، وهي ترتجف على الرصيف كلما مرت سيارة من خلفها وتجاوزتها ، فكيف تخرج الى عراء الحياة وحيدة من جديد وهي قد نسيت كيف تمشي على قدميها ؟ يا له من يوم . هتف زوجها بعد الظهر طالباً اعداد العشاء لبعض الضيوف وفي صوته نبرة حاقدة جديدة ، فاعتذرت منه عن ذلك . اصر ، فتراجعت ، وطلبت تأجيل الموعد الى الغد ، ثم غادرت البيت من جديد وامرت السائق بالتوجه الى مكتبة كبيرة ، اشترت منها عدة جديدة من ادوات الرسم الزيتي . . .

(آه كم انا متعبة . . . لم يعد في مقدوري مواصلة المسير والبيت على بعد خطوات . . .) تذكرت المغطس المتلىء بماء معطر تشطف فيه نهارها ورأسها من الداخل ، فخلعت حذاءها وتركته على الارض وتابعت المشي حتى وصلت . فتحت الباب

بمفتاحها ، شاهدت نديم جالساً عند المدخل يحدق فيها بصمت ساخر شامت ، ولم يكلمها ولم تكلمه ومضت الى غرفتها وقد تمزق جوربها . . وحين دخلت الى الحمام ، فوجئت بالمغطس ممتلئاً بالماء الدامي وجثة كلبها بيكاسو تتوسطه ، وقد جز رأسه عن جسده ، وعيناه مفتوحتان حتى آخرهما بهلع أسود دامع . . .

وصرخت بذعر ، وهربت راكضة من الحمام وهي تنوح . . مر بها ابنها باهر ولم يلتفت بل تابع مشيته الراقصة نحو غرفته وهو يداعب شعره المصبوغ بألوان مروعة ، وبعد لحظات كانت موسيقى (البانك) العالية تنافس صرخاتها المخنوقة . . اما نديم فلم تجده في موضعه ، وكانت تشير بيدها صوب الحمام . . . ويأتي صراخها خافتاً كأنه من حنجرة مقطوعة ورأس نصف مجزوز كرأس كلبها بيكاسو. . . وانهارت على ارض المدخل مغمى عليها . . .

حين صحت ، وجدت نفسها في فراشها ، وابنتها تقول لها بصوت محايد فاتر : لقد وصلت للتو ، وقال ابي انك مريضة فجئت اتفقدك .

صرخت دنيا ملتاعة : مريضة؟ لست مريضة، ولكن والدك ذبح كلبي ورمى به في مغطس الحمام . . . كنت اعرف انه سينتقم لخروجي في التظاهرة . . .

واشارت دنيا بيدها صوب حمامها وكانت ترتجف ، فمضت ابنتها الى الداخل . اضاءت النور . تحركت قليلاً وسمعت صوت خطاها ، وصوت جذبها للستارة (النايلون) للمغطس ، ثم عادت وهي تقول بفتور : لا جثث في حمامك ، ولا كلاب مذبوحة . هل انت واثقة من انك لم تفرطي في الشراب ؟

اذن انتهز نديم فرصة اغمائها ، ولملم كل شيء ليلقنها درساً . . . اعد كل شيء لتخويفها . هذه برقية انذار ، وهي لا تنكر ان جسدها يرتعد خوفاً . . . وقد فهمت كل حرف مكتوب فيها ، وقرأت ايضاً ما تحت السطور . . . قالت ابنتها مؤكدة : انت واهمة . . .

- حسناً . . اين بيكاسو ؟ . . .

غابت ابنتها عن الغرفة قليلاً ، وحين عادت قالت لها بلا مبالاة : لم اجده في البيت . . . لعله هرب . معذرة ، لدي بعض الدروس . . .

نهضت دنيا من فراشها وهي لا تقوى على الوقوف . اتجهت صوب الحمام. المغطس

نظيف ولا اثر للدماء . . ولا لجثة بيكاسو ! . . . ماذا تفعل غير اللجوء الى صديقتها الوحيدة ، زجاجة ماء النار ؟ . . .

●●●

ــ مدام سبوك . مسيو امير النيلي يسأل عنك من جديد . .
ــ ألم اطلب منك ان تقولي انني غير موجودة ؟
ــ قلت له ذلك البارحة ، وسأل عنك عشر مرات هذا الصباح .
ــ قولي له باستمرار : غير موجودة .
ــ سيعرف انني اكذب .
ــ هذا هو المقصود .
ــ حاضر .
ــ على اية حال لن تضطري للكذب مرة جديدة اليوم . انا ذاهبة الى الحلاق ، فقصر الباشا .

(لا اريد ان يقرع قلبي بصوته كمن يقرع تابوتاً ما زالت ساكنته تحتضر ، ولما تمت بعد . . ثمة جزء صغير مني ، جزء مجهول ما زال يحن الى زمن امير . . رقعة غامضة سرية في اعماقي لم تصلها جنود العقل ، وما زالت عاصية ترفع اعلام الشوق والولاء العتيق . . رقعة تتحرك في المسافة الشاسعة بين الوسادة والنوم ، وفي ابدية الكوابيس التي يضمني خلالها الى جحيمه العتيق كيقين وهمي . . . انني ارفضه بكل ما هو انا ، وافتقده بكل ما انتصل منه من ذاتي !) .

في دكان الحلاق الفخم ، كانت ليلى ترقب نفسها بدهشة ، وثلاثة بشريين يقومون على خدمة جسدها . . هذا يرتب شعرها ، وهذه تقلم اظافر يدها ، واخرى منكبة على اظافر قدميها ، وكلهم يلامسها **(من زمان كنت اتضايق من الأوضاع الحميمة في لحظات تجارية حتى ولو كانت خاوية من أي مضمون جنسي ، كنت اتضايق من اقتراب الحلاق من جسدي حين يمشطني ، ذلك الغريب الذي لا اعرفه وقد لا اطيق رائحة عطره او عرقه ، وكنت اخجل من مد قدمي لانسانة اخرى لتقلم اظافرها ما دمت لست مريضة ولا**

عاجزة ، وها انا اليوم ممددة بينهم كالجثة المتأنقة ، وخدر غريب من اللامبالاة السامة يسري في دورتي الدموية ، أتأملهم ولا ابالي ، وأتأمل وجهي في المرآة فيطالعني غريباً عني كأنني اراه للمرة الأولى واكاد اسأله : هل التقينا من قبل يا مدام للي ؟) . .

يسألها ألبيرتو شيئاً عن لون شعرها ، فتقول ما يلزم . . ويرن جرس زبونة اخرى انتهى وقت (بلياج) شعرها ، وتتعانق امرأتان لدودتان تتظاهران بالفرحة لهذا اللقاء المفاجىء عند الحلاق ، ويغني جوزف وهو يمشط اخرى والموسيقى تعلو والهاتف يعول وزبونة تتشاجر ونفسها واخرى تصعد الى غرفة (السمرة) الاصطناعية بأشعة خاصة، وليلى لا تزال مسترخية في هذا المناخ الذي طالما سخرت منه ورفضته واحتقرته (لم اعد اتذكر جهازي العصبي الا تحت الدوش البارد) . . لقد تعبت من صداقة الخاسرين . وتريد للمرة الأولى ان تحالف رابحاً (كانت لدي موهبة خاصة في الانحياز العفوي الى الخاسرين . كأنني امرأة الطيبين والموهوبين والاصيلين من الساقطين مادياً واجتماعياً وسلطوياً ودنيوياً . في تاريخي العملي كله لم احب مرة رابحاً او انجذب اليه . حين تشاجر امين ونبال وقفت الى جانب امين وربح نبال وتحول الى مليونير . حين اصطدم طلال وغسان وقفت الى جانب غسان فربح طلال طبعاً وصار رجل الأعمال الكبير وانسحب امين الى قريته وغسان الى مصحه العقلي . تاريخي كله انتصار لهزائمي، وقد تعبت من ذلك . . واليوم سأقف ببساطة الى جانب رغيد المنتصر ، لا امير حبيبي الميت مع وقف التنفيذ وحتى اشعار آخر ! . . . غداً ، حين يقتل امير ، ستجلس زوجته في (العزاء) محاطة بأولادها ، وسيذهب الرفاق اليها ويتجاهلونني . . انا رفيقة غربته وقهره وصراعه ، لن اجرؤ على الاقتراب من قبره الا سراً . . كيف تركت نفسي انزلق الى اكاذيب عالمه ؟ سيكون اصحابه اول من يحتقر علاقتي «اللاشرعية» به . الازدواجية تفتك بهم ، وفي الهوة بين اقوالهم وافعالهم سأسقط . . يشجعونني على الثورة ضد التقاليد ويباركون جنوني ، وإذا مات رجلي نبذوني فانا لست حتى ارملة . . ما اقسى عالم الرجال على اختلاف افكارهم واهوائهم ومشاربهم . . انهم يتفقون على شيء واحد : الاحتقار الضمني للمرأة . البروليتاريا وجدت من يدافع عنها، اما المرأة فقد وجدت من يوظف عذابها للدفاع عن ذكور البروليتاريا حتى اذا ما نجحت الثورة ، قطفها الرجل واعيدت المرأة الى صناديقها . حتى تثوير المرأة خدعة . كل شيء خدعة ، والحل البسيط هو في ان اعمل كرجل ، واحب كما يحب الرجال . . والرجل لا يحب المرأة الا في اوقات فراغه ، وخارج فترات بناء

مستقبله ، وأنا كذلك . لا وقت لدي الآن لأحب أمير أو أكرهه . . انني ابني مستقبلاً «زاهراً» بمقاييس الرجال . و إذا لم يعجبهم ما افعله ، فتلك ادانة لهم ولمقاييسهم . لقد تعبت . تعبت . دوماً امنح . علموني ان مهنتي كامرأة هي ان امنح . ثم حدث خلل بسيط . لاحظت ان احداً لا يحبني حقاً كانثى . اسرتي لا تحبني وتتلهف الى اغلاق ملفي الاجتماعي تحت خانة متزوجة . رفاقي لا يحبونني الا بقدر ما اصلح للاستعمال . وطني لا يحبني وقوانينه لا تساوي بيني وبين الرجل . وعلي ان ادفع الخوة الاجتماعية والاتاوات العائلية كي يلين قلب القانون ويمنحني حتى جواز سفر . هجرت وطني وسقطت في فخ امير ، المرادف لكل ما هربت منه . . في الفترة الأولى لرحيلي عن الوطن كنت امشي في كل تظاهرة القاها في شوارع الغربة ، دون ان اعرف هي تظاهرة لمن وضد ماذا ، فقد كنت بحد ذاتي تظاهرة قائمة بذاتها تمارس احتجاجها الداخلي على عالم مكرس لقمعها . . ثم سقطت من جديد تحت سطوة مغناطيسية الوطن ، ووجدت في امير وطناً آخر ، وطناً مقطراً في رجل . . جسراً الى زمن احرقته قبل ان اغادره من زمان . . . ولكنني اعي ان امير ليس لي وامي لم تكن لي وانما لسمعتها . ووطني ليس لي وابنتي ليست لي . ولا تستطيع المرأة ان تمتلك في هذا العالم غير رصيدها المصرفي . . . حتى الوطن ، يرحب «بالمغتربة الثرية» القوية العائدة ، ويرفض «المغتربة» الفقيرة «الزانية» . . . لقد علمني مجتمع الذكور ان لا حقيقة غير المال ، فما ذنبي اذا كنت قد فهمت درسهم جيداً ؟ لقد علمني الرجال ان الحب ضعف و « العقل زينة » فما ذنبي إذا كنت قد بدأت التجمل على طريقتهم) . . .

ايقظها صوت البيرتو :

ــ مدام للي . هل ارش «سبراي» على شعرك ؟

ــ بالتأكيد . . . ثبته كشعر الدمى . . . لا اريد لشعرة ان تتحرك من موضعها مصادفة او لنسمة . . . او بدون امري . . .

في دربها الى موعدها ، مرت السيارة مصادفة امام مقبرة «الجراند ساكونكس» حيث ترقد امها بوشمها البدوي الأزرق (لم ازرها بعد ، ولن . الوقوف امام قبرها يجعلني اعي هشاشتي . كانت «ماما» محصنة بعالمها ، ولم يكن داخلها مشروخاً . كانت تنتمي بكليتها الى هناك . . .) . . . ولا تدري لماذا تذكرت بغصة ان بيت فريدريك «صديق» ابنتها الذي

تساكنه قريب من مقبرة الجدة. .وشرفته تكاد تشرف عليها. . .ولا تدري لماذا تمنت لو يقطنان حياً آخر بعيداً عن مرمى النظر. . والشهقة .

●●●

اكتشفت كفى للمرة الأولى ، اية متعة هي ان تستولي المرأة تماماً على رجل قوي وثري . . . لا لأن حب الاثرياء يجعل مصاعب الحياة تهون ، و (كانيكول) الطقس الحار يتدفق ناعماً من مكيف السيارة ، والرغبات كلها تتحقق فحسب ، بل لأن امتلاك الرجل القوي شبيه بامتلاك عصا السلطة التي في يده . . . يصير السائق اكثر تهذيباً وانحناءته اكثر احتراماً ، وتصير الخادمة ليليان تقول : امرك يا سيدتي بحماس اكبر ، وبواب العمارة يقدم الخدمات ممتناً لأنها كلفته بها ، ومديرو اعماله يأتون الى شقتها ـ أي شقة نديم ـ للقاء عادل افندي ويقبلون يدها عند الدخول والخروج ويتسابقون الى ارضائها . . . وعادل يبدو سعيداً بها ، وقد وقع لنديم ما شاء من عقود ، و (شبه) انتقل من فندقه الى شقة نديم . . وكوكو قلما تزور فندقها ، وانما تكتفي باتصال هاتفي بين آن وآخر لتتأكد ان احداً سأل او لم يسأل عنها . . . وخليل لم يفعل ولو مرة واحدة منذ سفره . . . وقد وجدت في ذلك مبرراً كافياً لحياتها الرغدة في شقة نديم مع عادل ! . . . ولم يخطر في بالها انه قد يكون فعل ولم يترك اسمه ، او انه يقاسي من سجن صقر داخل قارورة مسحوق الجنون الأبيض ، فهي لا تحب ان تجلب الهم لرأسها الصغير الجميل . . .

غسلت عادل بنظرة زرقاء مشمسة تنم عن الاعتراف بالجميل . ها هو يرافقها لزيارة اولادها في (كوليدج دي ليمار) كي لا يضجرها الطريق . ما ألطفه واعذبه . كل ما فيه مختلف عن زوجها (الجلف) خليل حتى صار مقياس اعجابها بالرجال هو مدى بعدهم عن صفات شريك حياتها ، وبالاحرى شريك الجزء البائس من حياتها .

توقف السائق . لم يضايقها ان عادل سينتظرها داخل السيارة ، ولا يبدو متلهفاً للقاء اولادها . . . دخلت الى الباحة الأمامية المواجهة للمطعم . توقفت تحت شجرة تستظل بها وتنتظر خروج اولادها من فترة الغداء . . . لاحظت العدد الكبير من الطلاب العرب في

المدرسة الوجيهة . . . ثم مر بها طفلاها في مهرجان صخب من الاولاد ولم يلحظاها . . . وكان احدهم ينادي بنتاً صغيرة تمشي الى جانب رامي : وداد . . . وداد . . .

سقط الاسم في قلبها مثل سكين . لو ظلت ابنتها حية ، لكانت الآن في مثل سنها او اكبر قليلاً . لا تتذكر وداد الا ويشتعل قلبها حقداً على خليل . انها تعتبره مسؤولاً بمعنى ما عن مصرع ابنتهما ، هو والذين على شاكلته من (المشاغبين) . هو بالذات لأنه رفض اخراجها من جحيم بيروت قبل ذلك ، ولم يغادرها الا حين تهدده الخطر شخصياً ، ولم يمض انقاذاً لولديه او لها ، وإنما مضى لأنهم قرروا اغتياله وباشروا التنفيذ . التفتت وداد وركضت كعصفورة ، والتفت معها رامي ولمح امه ، فجاءها وفادي .

قبل ان تقبلها او تضمهما الى صدرها او تقول اي شيء ، سألتهما : وداد . . من هي وداد هذه ؟ اجابا بلا مبالاة : والدها صاحب البيت الكبير هناك . اسمه وهيب الواهب . شهقت . سألها فادي بلا مبالاة : تعرفينها ؟

ـ لا . لكنني اعرف والدها . (**انه احد زعماء «التقدميين» في بلدنا . لسانه لا يهدأ في الحديث عن فضائل الثورة وبؤس الناس . وها هي ابنته وداد تعيش هنا في أمان قصره الذي لا يدري البسطاء والحمقى امثالي انه موجود . آه كم اكرههم ، وأكره ادواتهم التنفيذية الحمقاء كخليل والد هذين الصبيين**) . .

امتلأت بغربة مفاجئة عن طفليها لمجرد ان والدهما هو خليل ، والتمع في رأسها خاطر لم يغب عن خلفية لاوعيها (**سيكونان مثله اذا كبرا في كنفه ، ولن يتركهما لي ، وعلي ان اودعهما صغيرين او كبيرين وان اعتاد دخولهما الى عالم الرجال المتوحش في بيروت**) وتجمعت في قلبها فجأة سحب الغم ممزوجة بنقمتها الدائمة على خليل . . . وكانت وداد الواهب قد غابت عن مرمى بصرها خلف الاشجار المحيطة بقصر والدها (البروليتاري) ، وكفى تضم ولديها الى صدرها فيبتعدان بسرعة خجلاً من رفاقهما على عادة الصبيان في تلك السن . . . واشتعلت اعماقها حقداً (**وداد ابنتي تقتل ببقايا قذائف معركة بين ازلام صاحب هذا القصر وحلفائه ، ووداد ابنته تحيا هنا بسلام لأن زوجي الأحمق يرفض ان يفهم . طالما قلت له انهم يستغلوننا وكان يحاضر باستمرار : «ثمة دجالون في كل اتجاه في اليمين واليسار . . . لكن ذلك لا يلغي القضية الحقيقية ، قضية الشعب ، ولا يلغي وجود تقدميين اصيلين يضحون بحياتهم حقاً لأجل الآخرين» . . . فليتفضل خليل اللعين**

وليدلني عليهم . وسأدله على قصر وهيب وعلى العشرات الشبيهة به المنثورة في احلى بقاع الأرض . . . وهيب ؟ هـذا رجل شعـاره ثورة حتى القصر ،لا ثـورة حتى النصر ، كما يدّعي) .

قال فادي : سنذهب في عطلة نهاية الاسبوع بالتلفريك الى الجبال . . .

وأضاف رامي : احب الرحلات المدرسية . .

سألتهما بحنان مفاجىء : هل تعرفان ما هو التلفريك ؟

نظرا اليها بعتاب الصغار لجهل الكبار : طبعاً . . . شاهدناه في التلفيزيون والصور ، وحدثنا عنه فريد .

ــ ومن هو فريد ؟

ــ رفيقنا في المدرسة . لقد ركبه من قبل وخاف كثيراً ، ولكنه سيأتي معنا .

ــ لماذا ؟

ــ لأنه يحب ان يخاف .

ــ وأنتما ؟

ــ لا نعرف . . . متى تأخذيننا الى آنسي ؟ اين بابا ؟

ــ مسافر في عمل . وحين يعود نأخذكما الى آنسي . . .

ــ عندي صف . انا ذاهب .

ــ وانا ايضاً .

عناق مختزل . قبلة سريعة ، وهرول الصبيان قبل ان يلحظا امتعاض وجه امهما لذكر آنسي **(لن اطأ تلك المدينة المتقشفة قبل ان يعمروا فيها فندقاً لائقاً لـه خمس نجوم . لن يرغمني احد بعد الآن على ان افعل ما ارفضه . مجنونة ؟ ربما . من ليس مجنـوناً بعـد الأعوام السبعة الاخيرة في بيروت ؟ سأقتحم حياتي مسلحة بشهواتي . سأمارس الحرية المطلقة في الحياة كما مارسها المسلحون في القتل ، وإذا وجدوا حياتي بشعـة ، فهم اكثر بشاعة وايذاء للناس مني . ما افعله هو المرادف الانثوي لما يفعلونه بالسلاح . انني اطلق العنان لغرائزي . . .) .**

القت نظرة اخيرة على قصر «المليونير الوردي» ، وعادت الى السيارة ، وحين شاهدت عادل نسيت غضبها كله دفعة واحدة ، وتركز وجودها في الاهتمام باعـادة ترتيب ربـطة

عنقه . . . يا للكارثة . . . انها مائلة قليلاً ، و (البوشيت) غير مطوية جيداً ! . . .

●●●

لقد سحرته تلك الطفلة الجهنمية الحسن بحرية ، وسلبت لبه . . .

منذ شاهدها الشيخ صخر نسي احزانه الماضية . . . نسي مصرع ابنه في طائرته الهليكوبتر الخاصة منذ اعوام . . . ونسي ابنه الثاني الذي عاد اليه منذ اشهر بعد رحلة الى الشرق الأقصى بوذياً متقشفاً ، لا يذوق اللحم ولا يقرب النساء ويمشي حافياً وقد لف جسده النحيل بخرقة صفراء ، حاملاً معه موسيقاه ودنياه منعزلاً في جناحه عدة اسابيع ، رحل بعدها ثانية واستقر هناك خادماً لأحد المعابد الوثنية . . .

كان الحر قد دفع بالشيخ الى اصدار اوامره ، فنصبت خيمة جميلة في ساحة القصر ، وها هو جالس في صدرها وحلاقه يصبغ له شعره بالسواد ويقترح عليه صبغ الشعر الكث لصدره ، أو للجزء الذي يبدو من قميصه المفتوح الأزرار . . . وليس ثمة ما لا يفعله لتراه بحرية شاباً ومليحاً . . .

لقد انسته غضبه على بعض الصحف العربية التي علمت بنبأ احتفالات ليلة المليار حتى قبل وصول الدعوة اليه ، ونشرت النبأ بصورة استفزازية . . وهو يتوقع ان يتصل به شقيقه الشيخ هلال مقرعاً ومؤنباً ، وقد يمنعه من حضورها . . . تلك الصحيفة ذكرت ان ٣٠٠ مليونير بينهم عدة (مليارديرات) قبلوا دعوة رغيد الزهران للاحتفال بليلة المليار الاسطورية . وان معظم اعضاء نادي الصقور الامبرطوري الذي يضم عدداً كبيراً من الاثرياء العرب قد تلقى الدعوة الى تلك السهرات الخرافية . . . وان الثروة الشخصية لعشرات اصحاب الملايين العرب الذين سيلبون الدعوة تتجاوز المائة مليار دولار . . . واوردت الصحيفة بعض الاسماء ولم تنسه ، لعنها الله . . .

فليكتبوا ما يحلو لهم ، المهم ان يحلو في عيني بحريه الخارقة الحسن ، الجذابة كساحرة اسطورية ، الهادئة كغروب صحراوي ، الفارعة العود كنخلة وطنه . . .

قريبها رغيد يريد «صفقة المطار» مهراً لها . . . حسناً . . سيرسل ذلك اللبناني الشاطر خليل الى شقيقه هلال لمحاولة اقناعه بتلك الصفقة ، سيرسله فور عودته من السفر وصقر ،

وسيفهمه ان ثمن الحصول على توقيع كهذا يؤمن له ثروة تضمن له مستقبله اللامع كرجل اعمال كبير . . .

حزن واحد لا تستطيع صورة بحرية ان تبدده ، هو حزنه لموت ناقته التي نفقت فجأة وانطفأت ، وانطوت على نفسها مثل نقطة سمراء صحراوية محاصرة بدوائر شاسعة من الخضرة العدوانية . . .

(لماذا نفقت ناقتي رغم الحر ؟ تراه ذكرها بالوطن هي ايضاً ؟) . . .

●●●

استيقظت ليلى مذعورة . . . انه جرس الباب يقرع بالحاح . كانت تنام وحيدة منذ ماتت امها البدوية ، وانتقلت ابنتها مريم لتعيش مع فريدريك خطيبها السويسري في فترة تجريبية قبل الزواج على عادة بعض الشبان هناك الذين تربت فيها بينهم وانتمت الى عالمهم وقيمهم .

نظرت الى ساعة يدها . . . كانت تشير الى ما بعد منتصف الليل . . . نظرت عبر العدسة الصغيرة المثبتة الى الباب ، فشاهدت وجه امير . . . دهشت قليلاً . . لم يحدث ان اقتحم ليلها هكذا حتى أيام غرامهما الأولى . . . . وليس من عادته ان يزور احداً الا بعد اتصال هاتفي مسبق . . ماذا دهاه ؟ . . . فتحت الباب وقالت نصف مذعورة : اهلاً امير . . هل حدث شيء . .

ــ جئت لنتحدث . .

لا تحب ان يضبطها احد خائفة . انتقلت من الذعر الى السخرية :

ــ نتحدث ؟ الآن ؟ منتصف الليل ؟ . ظننتك مصاص دماء غادر تابوته واخطأ طريقه الى بنك الدم . . .

لم يضحك .

ــ انت غاضب . . . وثمل . . .

ــ صحيح . .

لم يقل لها انه شعر بأن سلوكه معها صار كسلوك بسام مع الحياة : ينتظر ولا يتصرف .

وانه قرر ان يتحرك في اللحظة ذاتها حين اقتحمه هذا الخاطر .

سألته : ماذا حدث ؟

ـ تعرفين . . .

ـ لا اعرف . . . لا تقل لي انها بطاقة الدعوة . . .

ـ كيف تجرئين على ارسال بطاقة دعوة لي لحضور «ليلة المليار»؟ . .

ـ اعدتها لي وقد كتبت عليها : « كأني ما لثمت لها شفاها . . كأني ما وصلت ولم تصلني » . . . ما معنى ذلك الهراء . . . انا التي يفترض ان اكون غاضبة . .

ـ تعرفين رأيي برغيد ، وملياره المعصور من دم الشعب العربي وحروبه واضطراباته وقهره . . .

ـ اعرف انك حاقد عليه ، لأنه جمع مليونه الأول مستخدماً تمثال الوالد . . .

ـ لا انكر ذلك . . .

ـ عليك ان تحقد على اولئك الحمقى الجبناء، الذين يحنون رأسهم لكل حاكم. يشترون تمثاله على مضض ، ويصدرون به مكاتبهم والكراهية تقطر من صمتهم . . .

ـ اولئك ايضاً احتقرهم . . .

ـ ويجب ان يكون حقدك موجهاً نحو الحاكم نفسه الذي يرهبهم الى الحد الذي لا يجرؤون معه على قول رأيهم فيه . . .

ـ وهذا صحيح . . .

ـ أي ان عليك ان تكره عبد الناصر الذي خافه اعداؤه يومئذ ، وبلغ من خشيتهم ان اشتروا تماثيله مكرهين . . .

ـ لم يكن الرجل ارهابياً . . . ربما كانت له حاشية فاسدة . .

ـ كل ما فعله رغيد هو انه وظف ظاهرة الخوف وحولها الى تجارة . . .

ـ بدلاً من ان يمارس مهمته كمواطن انسان. . . بفضح الحاشية الفاسدة للحاكم الصالح الذي يواجه عشرات الجبهات ولا يستطيع التنبه لكل شاردة وواردة . .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه انسان . . .

ـ ولكنكم ترفعونه فوق مرتبة البشر . . .

ـ انه رمز وحدوي ونضالي . . . ونحن بالتأكيد نرفعه فوق منزلة رغيد الزهران

وامثاله ، لا فوق مرتبة بقية المناضلين والشرفاء .

ــ كلاهما مسؤول عن عدد لا يحصى من الضحايا . . .

ــ حتى اذا فرضنا ذلك جدلاً ، فان رغيد الزهران سيء النية ولا يقارن بعبد الناصر . . . مجرد المقارنة بينهما مرفوضة ، فالفارق بين الرجلين نوعي لا كمي . .

ــ هل جئت منتصف الليل لعقد مقارنة بين عبد الناصر ورغيد ؟

ــ ارفض مجرد اقتران اسميهما معاً . . . لا شيء مشتركاً بينهما ، وامكان عقد المقارنة مرفوض أصلاً . . .

ــ لم جئت اذن ؟

ــ جئت لاتعرف على الست للي سبوك . . . بدأت اصير سخرية لصحبي حين ادافع عن ليلى السباك . . . أخبروني انك صرت مخلوقة اخرى ، فجئت اتعرف اليها وانقذ نفسي . . . وجئت مفجوعاً بك لا اصدق ، كيف لا تخرجين معنا في التظاهرة احتجاجاً على غزو لبنان ؟ لا تريدينني كعاشق ؟ مفهوم . ولكن ، لماذا تتنصلين من شعبك العربي ؟

ــ انك ثمل ، عاشق ، ومقهور .

ــ اني كذلك ، انا كما قلت . . . ولكن ذلك لا يلغي السؤال : لماذا لم تشاركي في التظاهرة ؟ هل ستعيدين مأساة التخلي عن الوطن ؟ ماذا حدث لك ؟

ــ انا كما قيل لك ، صرت مخلوقة اخرى . .

ــ حدست ذلك منذ رضيت ببيع القرش الفلسطيني لرغيد . . . امرأة ذكية مثلك لا تجهل مدلول ما فعلت . . .

ــ لأن القرش هدية منك ؟

ــ لأن هذا القرش اثمن من ان يهدى لوضيع كرغيد . منحته لك ذات يوم حين توهمتك ترتفعين بسمو الى فهم مدلول عطاء كهذا . . .

ــ من حقي التصرف في هدية تلقيتها كما اشاء . . ومن حقي ان ابيعها . . . وهكذا كان . .

ــ لماذا ؟ لماذا فقدت اليقين ؟

ــ لأن الذين يتشدقون به لا يمارسونه ، وانما يعولون على حمقى امثالي لممارسته والموت لأجله فقيرة او شهيدة . . . أما هم فيعيشون كما يعيش رغيد ، ويقتلون كما يقتل ، وقد حاولوا قتلك . . . انهم يجمّلون وحشيتهم بالمُثُل ، ويفلسفون شهيتهم اللامتناهية

للافتراس السادي العربيدي . . . لقد قرفت من استعمالهم لنا . .

ــ ولكن . . .

ــ تعرف ان هذا صحيح . . . تعرف ان معظم النقود التي ترصد (للجماهير) تذهب الى جيوب افراد من الزعماء ينثرون الثروات كما يفعل رغيد . . . وبدلاً من فضحهم تتسترون عليهم بحجة «الروح المعنوية» والضرورات «التكتيكية» للمعركة «واللعبة الاستراتيجية» وغيرها من التعابير المخترعة لتغطية عورة عاركم .

ــ لا تستطيعين كراهية فلسطين لمجرد ان وغداً ما استغل الشعار ليصير ثرياً . . تظل هنالك حقيقة اسمها مليونا انسان عربي مشرد تم طردهم من ارضهم واحتلالها على ايدي منظمات تضمر المصير ذاته للعرب جميعاً . . . انك تنتقلين بسرعة فائقة من الاخطاء الفردية الى التعميم . . .

ــ لأن الخطأ ايضاً يجري تعميمه بسرعة . . . لقد بدأنا للعمل من اجل الحرية ، ثم تحولنا الى عصابات يقتل بعضها بعضاً . . . نادينا بالديمقراطية ثم صار كل منا يضع مسدسه فوق صدغ رفيقه قبل ان يسأله عن رأيه . . . او يفخخ علبة الاقتراع إذا لم يجر التصويت وفقاً لهواه . . .

ــ ثمة اخطاء . . .

ــ اخطاء كثيرة ، رهيبة ، يتراكم بعضها فوق بعض وتتحول من حفنة رمال الى سد . . .

ــ لكن لا مفر من الاخطاء اثناء الممارسة . .

ــ اننا لا نمشي باتجاه تصويب الخطأ ، بل نمعن في الاتجاه المعاكس بنسبة ٩٩,٩٩ بالمئة !

ــ الشعوب كلها حين . .

قاطعته : لقد حاول صحبك اغتيالك لا اعداؤك ، لمجرد وجهات نظر ابديتها حول الممارسات القمعية واللاديمقراطية . . . وبدلاً من الحوار ، امعنوا في غطرستهم . . . .

ــ اخطاء الافراد لا تعني الكفر بالمبادىء . . . بل تعني طرد المنحرفين وكف يدهم ومتابعة الطريق . .

ــ المبادىء ليست اشباحاً تتجول في خاطرنا . . . المبادىء تتقمص البشر ، ويصير مقاسها على مقاس سلوكهم وافعالهم . . .

ـ ولكنك . . .

ـ ولكنني معجبة بقول الشاعر البياتي: « اذهب الى الجحيم ايها الارهابي الصغير ، فأنت تفكر وتتحدث على شاكلة هؤلاء اللصوص والقتلة والافاكين الذين تنوي اغتيالهم وسلب السلطة منهم » . . .

ـ انك تهينينني . . .

ـ لا اتحدث عنك شخصياً . . . انت سقطت في شرك العادة . . . وطنيتك عادة ، حسن اخلاقك مجرد عادة اخرى بائسة . انك رجل متحجر في تمثال مناضل ، ولا فضل لك بعد اليوم في ذلك . . . أما انا فقد قررت ان اجدد اختياراتي . .

ـ ليلى . . .

ـ انت ميت . . . لقد مت وانتهى الأمر . سيقتلونك اليوم او غداً ، وكأي مشروع شهيد ، تحيا موتك اليومي وتتغذى من مجدك الآتي . . اما انا فأرضية . . . بشرية . . .

ـ ليلى . . .

ـ لست ليلى العامرية . . . والمبادىء التي تبشر بها صارت تبدو لي كالشعر . . .

ـ ليلى . . .

ـ اعي انني وحيدة . . . لعلي ارتكبت خطأ فادحاً يوم اخترت المنفى وهجرت وطني ، ولكن ذلك انقضى . . والآن ، وجدت وطناً جديداً . . .

ـ وقررت الانضمام الى شعب الـ « جت ست » ؟ .

ـ اجل . ان اصول اللعبة واضحة بينهم على الاقل . . ولها تقاليدها الراسخة . . . ثم ان الاثرياء يجدون من يخترع الاعذار لاخطائهم اكثر من الفقراء . . . لن اكون وحيدة وفقيرة . . . الفقر والوحدة لا يطاقان معاً . .

ـ ولكنك معنا لم تكوني وحيدة . . .

ـ معكم تعرت وحدتي . . . اكتشفت اي تناقض نتستر عليه . . . واي ارهاب نمارس باسم الحرية . .

ـ حسناً . . . بدأت افهم ما يقوله صحبي عنك . . .

ـ انتهت مهمتك ؟

ـ ليس تماماً . . . ألا تخجلون من اقامة سهرة المليار واسرائيل تحاصر عاصمة عربية وقد تقتحمها في أية لحظة ؟ . . . .

ــ سيكون ذلك يوماً سعيداً لسكانها . . . سيتخلصون من الارهاب وسيحظون ببعض الاستقرار وقد يتعلمون ممارسة الديمقراطية . . . ثم انها ليست مفاجأة الا لكم . . . كنتم مشغولين بصراعاتكم فيما بينكم . . .

صرخ في وجهها : اخرسي .

لم يرف لها هدب . قالت : هذا اسلوبكم في الحوار . . .

ــ لم اكن احلم ان حبيبتي ستتحول يوماً الى خائنة . . كيف ترددين هذا الهذيان الاستعماري غير الواقعي والمستحيل ؟ لا احد يستطيع انكار اخطاء المقاومة في لبنان ، وتجب معاقبة المسؤولين عنها ، لكن أحداً لا يستطيع انكار قوافل الشهداء الحقيقيين من الفلسطينيين واللبنانيين . . . اياً كانت مآسينا ، لا يحق لأحد ان يضيع الخيط بين الوطنية والخيانة العظمى ولا بين المقاومة والعدو . . . تتوهمين كبقية الحمقى ان اسرائيل جاءت تلعب دور المهدي العائد ؟ . . . ان اخطاءنا مهما بلغت لا يمكن تحويلها الى مبرر للخيانة . . . هذا ما لن اسمح به ابداً يا للي سبوك . . .

ــ يا لك من احمق محدود الذكاء . . .

ــ اجل ، كنت كذلك حين جئت احاورك . . . لم اكن ادري انك غادرت ارض الوطنية الى ارض الخيانة، وانت التي تستحقين ان يحلق شعرها ككل خائنة للوطن تتعاون والمحتل، لا المسكينة بحرية . . . .

ــ وانت ايضاً واقع في غرامها؟ . . . لا ألومك. لجسدها مقاييس ملكة جمال دولية . . ووجهها غامض وخارق الجمال . . وصمتها يزيدها سحراً . . وحتى النساء بدأن يقعن صرعى امامها . . . الست دنيا الغفير مثلاً، لم تبد عليها اعراض حب النساء الا بعد لقائها . . .

ــ اخجلي يا امرأة . . . انها تعطف عليها كابنتها . . . صرت مثلهم . . . تتوهمين المشاعر الانسانية تنحصر في امرين : الجنس والمال . . .

ــ جربت شيئاً آخر وفشلت . . .

ــ هذا خطأ . . .

ــ لا اتقن غير الخطأ . . . احببت الرجل الخطأ في الوقت الخطأ . . .

ــ وتصلحين ذلك كله بغلطة تفوقها بكثير . . غلطة اسمها رغيد الزهران . .

ــ انه انسان متحضر . . . وقد دعاك لحفل متحضر . . .

ـ دعاني ليذلني ويقهرني . . . لقد توليتِ دعوة الكثيرين امثالي من الفقراء والشرفاء . لتروي لديه متعة الحقد والكراهية والتشفي . . .

ـ ابداً . . . مجرد تهذيب اجتماعي . . .

ـ فظاعاتكم كلها تمارسونها من خلف قناع وتخترعون لها اسماء لطيفة . .

ـ سمعت ان ابنك قادم لزيارتك . . .

ـ اجل ! فهل تنوين ارسال بطاقة دعوة له تهذيباً ولياقة نحو الجيل الطالع . . ؟!

ـ فكرة غير سيئة . سأفعل . . سيسعد رغيد الزهران بلقاء مطلق النيلي حفيد النحات المشهور مفيد النيلي . . .

ـ يا لك من وضيعة . . . لقد كنت مشروع انسانة كبيرة ، وانتهيت جلادة صغيرة . . ألم تفكري لثانية بالمرور للتعزية ببسام ؟

ـ تعرف انني لا امارس هذه الطقوس السخيفة . . من اعزي ما دام بسام لن يكون هناك ؟

وكان امير ما يزال يرتجف قهراً . . وللمرة الأولى في حياته تمنى لو يموت انسان آخر قبله : رغيد .

قالت بصوت كسير : اسمع . . . انني منهكة . . التحضير للحفل يستنفد وقتي وجهدي . . . هل يمكن ان نؤجل شجارنا لوقت آخر ؟

ـ إذا تابعت عملك في ليلة المليار ، لن يكون لنا اي لقاء آخر . . .

ـ لا تقل هذا . . . سنظل صديقين .

ـ مع الخيانة ، لا تعايش . . .

ـ سنظل صديقين . . .

ـ لأجل مبادىء امرأة الأعمال الناجحة ؟ اكسبي كل صداقة ممكنة لوقت الحاجة ! . . لا . . انتهى الأمر . .

ـ لعلي بالغت قليلاً . . . وانت ايضاً بالغت . . .

اجابها : بعد ليلة المليار ستكونين بالنسبة الي للي سبوك نهائياً . . . وستموت ليلى السباك . . إذا لم تنسحبي قبل ذلك انتهى كل شيء . .

ـ سنبقى اصدقاء . .

ـ قلت لك ، لا صداقة مع الخيانة . .

ـ لم اخنك . . . انني مخلوقة غارقة في عملها كما يحدث لأي رجل يعمل .

ـ لم تخونيني ؟ ومن يبالي بعد اليوم ؟ حين تبيعين روحك للشيطان ، لا تبالين كثيراً حقاً بما تفعلينه بجسدك .

قالت تقلده بلهجة ساخرة : حين تبيعين روحك للشيطان . . . لا تبالين بجسدك . . . يا سلام . . انتم تعشقون الكلمات والالفاظ والشعارات حتى صارت عادة لديكم ، لكنها لم تبدل من واقع حياة الناس شيئاً . . بل على العكس . . . مهدت لظهور ارهاب جديد تحت مظلة الشعارات . . . لقد قررت . . . سأحاول النجاة منك ولو متأخرة . . . منكم جميعاً . . . هل صار النضال يعني اغلاق المدارس وخطف الناس واذلالهم وعصب عيونهم اثناء نقلهم الى السجون بين البيوت ؟ المجرمون يعفى عنهم في ظلكم لاسباب (سياسية) والابرياء يعاقبون لاسباب (سياسية) أيضاً . . كنتم في سباق الى الهزيمة . انتم الذين وجهتم بطاقة دعوة الى اسرائيل لغزو لبنان بتفتتكم وتحكّمكم برقاب الأكثرية . . ان عجزكم عن الارتقاء الى الممارسة الديمقراطية هو سبب مصائبكم . انكم تمارسون الارهاب فيما بينكم ونحن نكرهكم أياً كانت الشعارات التي تسترون خلفها ذلك التمزق . . . اني مع مقولة ذلك المفكر: «الثوارهم الذين لا يجدون لهم مقاعد في الحكم».

ـ قلت لك لا تنتقلي الى التعميم . . هذا حدث ، ولكن الحل ليس في الخيانة بل بمعاقبة المذنب . .

ـ دعني اعبر عن خيبتي ببعض اليسار والثورة . . عفواً ، لن اعمم ! . . كم تغنيتم بالحرية . . . حينما تتبع الثورة اساليب غير ديمقراطية تنكسر العلاقة بينها والمثقف ويزدهر المستزلم والارهابي . ملعونون اياً كانت اسماؤكم وشعاراتكم . . . ملعونون الى الابد يا من مارستم القهر باسم الشرعية، والقمع باسم الحرية . . .

قاطعها: وانت ما الذي تفهمينه عن الحرية ؟

اجابت بسرعة: الحرية التي ينشدها كل انسان على هذا الكوكب . حرية ان لا تُقتل اذا كان رأيك مغايراً .

ـ بما في ذلك حرية الخيانة ؟ ما هذا الكلام الفضفاض ؟ إذا لم نتعلم الحوار فلن نبلغ الى اي مكان . .

كانا قد تعبا . كل منهما يصرخ في الآخر كقطين ليليين يقتتلان تحت شجرة الرصيف المعتم . .

صرخت به وقد فقدت هدوءها : سأمارس كل حرية . . بما في ذلك حرية ان اكون عاهرة . . .

ــ احترقي بنار الذهب . . كوني من بعض سردينات البحار الملوثة المكرسة لعالم اسماك القرش . . لاثبات فحولتهم المالية والذكورية . . . في عالم الثراء النساء ديكورات وأدوات . . . او يغادرنه بشرف . .

ــ هل تغار على جسدي وتستر غيرتك بشعارات وطنية ؟

ــ لا يمكن ان اسقط الى هذا الدرك حتى لو اوجعتني بعض اللحظات غيرتي عليك كأنثى . . . لا يمكن أن اخون قوافل الشهداء والشبان الصغار الذين يموتون في هذه اللحظة في جنوب لبنان وضواحي بيروت مستبسلين للدفاع عن شرف العرب . .

قاطعته صارخة : شهداء العرب اسمهم الحرية الفكرية . الديمقراطية. العلمانية . وكل من يسقط ، يسقط لأن اولئك سقطوا . . .

ــ لو فرضنا جدلاً ان ذلك صحيح ، هل تقترحين ان نتحول جميعاً الى خونة ؟

ــ لن ادافع بعد اليوم عن مظلوم ينتظر لحظة احرره ليقتلني وجلاده معاً . . . .

ــ الا تخجلين من الثراء المدقع لأصحابك الجدد ؟ الا تحنين للفقر الفاحش الانساني لأصحاب الأمس ؟

ــ لماذا تراوغ ؟ إن القوى (الثورية) مارست . . . قاطعها صارخاً بدوره مصححاً : بعض القوى . .

ــ حسناً . بعض القوى (الثورية) مارست الديكتاتورية وقمع حرية الرأي (كالرجعية) تماماً . انهم لا يتحدثون عن حرية الكلمة الا اذا مسهم الأذى ، ويتحدثون عن حريتهم وحدهم . . .

ــ لم يكن رأيك جازماً وقاسياً من زمان . . . .

ــ حسناً . يقولون : من لا يصير تقدمياً في العشرين يكون بلا قلب . ومن يظل كذلك في الأربعين يكون بلا عقل . . .

ــ ها قد بدأت تزورين الأقوال وتفصلينها على مقاسك . . (يا خواجاية) !

ــ حسناً أنا (خواجاية) ، وانت تدافع عن حفنة من الخونة والحمقى والمكبوتين والعاشقين للسلطة كتعويض عن الجنس غير المباح . . . تحاول الترويج للديمقراطية

بالارهاب ونشر الحرية بممارسة القمع . . . كل مآسي الوطن تحدث باسم فلسطين ولا علاقة حقيقية لها بذلك . . . هل تكرهون ايها العرب اسرائيل حقاً ام تبغضون بعضكم بعضاً أكثر ؟ هل يشتهي الفلسطينيون امتلاك بيروت اكثر من حيفا ام لا او امتلاكهما معاً ؟ ليس بينكم جميعاً من سببت له اسرائيل الأذى بقدر ما سببتموه بعضكم لبعض . . . لا امل لك . . . .

شعر امير بدم حار يرتفع فجأة الى رأسه ، وبعينيه تغيمان وبصدره يضيق وانفاسه تتسارع وبألم حاد في الطرف الأيسر من صدره . . . حاول ان يقول شيئاً . لم يجد صوته الذي جاء اقرب الى الهمس : اخرسي ايتها الخائنة . . .

تابعت بشراسة : تتحدث دوماً عن التاريخ . انت احمق . اذا عقد العرب ذات يوم صلحاً مع اسرائيل ، سيجعل المؤرخون والمفكرون امثالك من السادات بطلاً للسلام ، وإذا لم نعقد صلحاً وتابعنا الحرب سيظل ناصرك بطلاً . . وكل شيء يمضي في درب الانهيار لأنكم مولعون بتدمير بعضكم بعضاً اكثر من تدمير من تدعونه عدوكم . . . انتم اعداء ذاتكم . . . اصابعكم تتشاجر فيما بينها . . . انتهى امركم . . .

كان امير يختنق . . . امام الخيانة ، خيانة المرأة الوحيدة التي احب بعمق . شعر بأن شيئاً في اعماقه يكاد ينفجر . . . قلبه المريض بالذات . . وجاءه صوت بسام . . (**اصفعها . . . قلت لك اصفعها**) . . . وكاد الوجع يشل كتفه اليسرى وذراعه . . . . ولا يدري كيف رفع فجأة يده اليسرى وصفعها بها . . صفعة مدوية . . . جمد كلاهما لبرهة طويلة ، وكل منهما يحدق في الآخر . . وكان امير اول من تحرك صوب الباب ، وغادر البيت ، وخيل اليه انه سمعها تهمس وهي تطبق الباب خلفه كلمة واحدة : شكراً .

●●●

لا يدري نسيم لماذا يبدو له الحوار اليوم في بيت امير نتفاً من حوار . . ام انه يطفو ويغرق ، وتأتيه الاصوات ثم تغيب ، فلا يسمع غير قصاصات افكار ؟ .

في بيت امير ، حين يلتقون عادة يفصحون عن نقدهم الذاتي بحرقة الملتاع لا ببرود الشامت . . وكلهم ابناء القضية ، وليس بينهم من لم يستضفه سجن اسرائيلي او عربي ما ،

لسبب او لآخر فكري نضالي . . لاحظ انهم منذ غزو اسرائيل للبنان قد فقدوا تماماً روح النكتة التي كانت تميزهم . فالعدوان الصهيوني على الشعبين اللبناني والفلسطيني هزيمة لحقت بالأمة العربية كلها .

جاءه صوت : عندما تنفصل الشعارات عن الواقع اليومي المعيوش لحياة الناس تصبح كالأوراق النقدية التي خسرت تغطيتها الذهبية . . تتحول الى ورق مطبوع غبي لا قيمة له . . انني اتوقع ردة فعل حادة من الجيل الطالع . . ستستهويه الايديولوجيات الرجعية وسيبتعد عن الايديولوجيات التقدمية ولو مرحلياً . . ستنمو المشاعر القطرية ، وسيتكرس الانزواء . .

وامامنا الآن مسؤولية اضافية لاعادة غرس مبادىء الوحدة العربية .

ـ سنخسر المعركة ثانية ما دامت حرية الرأي ، وهي الشرط الاساسي لنمو الافكار محرمة علينا . .

ـ لنعترف باخطائنا . . لقد مارسنا تحريماً مشابهاً حين تسلمنا السلطة هنا او هناك . . كأننا تبادلنا الكراسي مع حكام الامس واحتفظنا بالمؤسسات التي تكرس القمع . . لم نمارس الديمقراطية للجميع . . ولا حرية الصحافة . . وكل من لا تعجبنا افكاره كنا نتهمه بالخيانة والعمالة ونزج به في السجن او المنفى . . وكنا لا نعامل بعضنا بعضاً بطريقة افضل ، وانا شخصياً التقيت باعدائي السابقين في مقاهي الغربة . . وكلانا مطرود ومتهم بالخيانة ، ما حدث غير مقبول ، السكوت عنه جريمة لانه سيجر الى مآس أخرى . . .

ـ لقد نشأت اقطاعيات جديدة داخل بعض انظمتنا التقدمية . .

ـ يجب ان نحمي ثوراتنا من التحول الى انفجارت ذاتية انتحارية . . او الى عنف اعمى يأكل ذاته ، مسهلاً مهمة العدو المتلهف للغزو كلما سنحت الفرصة ووجد الحجة لذلك . .

سأله امير : ما رأيك يا نسيم ؟

ظل صامتاً . . لم يكن يميل كثيراً الى الحوارات التنظيرية ، وكمعظم ابناء جيله (العشرينيين) كان يتلهف للفعل . . قال بهدوء : افكر بالعودة الى بيروت ومقاتلة العدو الصهيوني . لا ارى عدواً آخر له الاولوية . لا ارى ان الدرب الى فلسطين يجب ان تمر من بيروت وانطلياس وطرابلس . . . الدرب اليها هي الخط المستقيم بدءاً بالسلك الشائك المكهرب الذي أقامته اسرائيل منذ أعوام بعدما ابتلعت اجزاء من أرض لبنان .

رد آخر : وماذا عن اسرائيل في الداخل ؟ ماذا عن المتحالفين معها من ابناء الوطن انفسهم ؟ صوت آخر : نحن سهلنا لهم ذلك . منحناهم كل اغراء كي يفكروا بالارتماء في احضان العدو . اخطاؤنا مسؤولة ايضاً .

ـ هل يبرر ذلك سهرات اهل بيروت الشرقية ورقصهم ومرحهم هذه الايام وشماتتهم (بالغربية) ، وقولهم : انتم دعوتم الفلسطينيين ونحن رفضناهم فسددوا فواتيركم ؟ . . اليست فاتورة العروبة مشتركة بين الجميع ؟

ـ من السهل اتهام كل انسان بالخيانة ، ولكن علينا في هذه الجلسة ان نعترف باخطائنا التي تقود البعض الى سلوك (رد الفعل الحاد) الشبيه من الخارج بخيانة اللامبـالاة على الاقل . هذا طبعاً لا ينفي وجود اقلية (خائنة) كما يحدث في البلاد كلهـا ، في العصور كلها . . .

ـ مهمتنا الليلة هي الكشف لا التبرير . . فلنتابع التركيز على اخطائنا . .

سقطت عبارة (التركيز) داخل رأس نسيم كالستارة . . . ولم يعد يفهم شيئاً غير نتف من الأصوات . . أحدهم يقول : كانوا يأخذون على لبنان لامبالاته كحياة الغواني وغنجهن . وها هو لبنان يثبت اليوم جديته وصرامته .

يغرق ويطفو .

يأتيه صوت آخر : بعض التقدميين يساعدون الرجعية في الانتصار عليهم . . خذوا الكتّاب كمثال . .

صوت : الزمن العربي يزداد عبثية وسخرية . .

صوت : انها مرحلة عابرة . . وسوف . . .

صوت : العربي يسقط في الحيرة والخوف . ثمة خطة لتغريبه عن هزائمه وتاريخه .

و . . . عاد يغرق ويطفو . .

(ماذا دهاني ؟ أهو قلقي الملح على بحرية من جنون الساحر ويأس رغيد ؟

أهي فجيعتي باستشهاد شقيقي ؟ أهو ذلك الحزن الغامض الذي تتدفق كهاربه من امير الجالس الى جانبي ؟ أهو افتقادي لحضور بسام المسكين الذي مات لمجرد انـه هرب من الموت ؟)

تأمل ما حوله فهاجمته وجوه : رغيد ، الشامت الأزلي ، نديم ، الانتهازي الأزلي ، دنيا . . الساحر . . ليلى . . طاقات ضلت طريقها . كما قال له أمير ذات مرة . وهو ، هل سيجد طريقه ؟ اي مستقبل ينتظره ؟ اي وطن ، وسبايا

وطنه تتقاسمهن القارات . وبحرية . . . حاول ان يخرج من شروده الى الارتباط بالمكان على الاقل . انه يحب بيت امير . هنا يحس بالراحة والسلام النسبيين وهو جالس على الأرض مع المساند والوسائد المتقشفة . . يتأمل خارطة العالم العربي على الجدار الابيض المقابل ، بدلاً من تلك اللوحات المذهبة الاطارات الغريبة المناخات المبثوثة في بيت رغيد الخانق كمتحف مهجور لأقوام غرباء . . (في الليل ، حينما ينعكس القمر فوق مياه الساقية العريضة التي تفصل بين قصر رغيد ومبنى « عبيده » ، يبدو لي دامياً بدلاً من فضياً . . كأنه خندق من خنادق العصور الوسطى التي كانت تزنر قلاعها وقد امتلأ بالجثث النازفة . . . وانا سجين ومعزول داخل القصر بعيداً عن قومي . . . والبوابة فوق الجسر الذي يربطنا بمبنى العمال والخدم والموظفين مقفل باتقان . . واشعر بالحصار . . محاصر انا بلوحات لا تخص اجدادي ومزاجي . . محاصر بجدران خانقة . . . محاصر بالساحر والجلاد . . محاصر بخوفي على بحرية . . محاصر بحديد الاسوار المكهربة بيني وبين زملائي الذين أتمنى السهر عندهم في المبنى الآخر . . محاصر بفقر اهلي وحاجتنا الى المال . . محاصر . . محاصر . .) لاحظ ان كل ما في بيت امير نقيض لقصر رغيد . . (حتى قاعدة التمثال هنا فارغة ، وفي القصر هناك تمثالان ، المنحوتة الحقيقية في البركة الذهبية لقهر الشعب العربي بأكمله ، نسخة عنها في غرفتي لقهري شخصياً) . كأنما حدس امير شرود نسيم ، فقال له هامساً : ماذا بك ؟

ـ لعلي نسيت ان اخبرك . . اهداني رغيد نسخة عن تمثال « المناضل » لقهري . وهي موجودة في غرفتي . هل تريدها هنا فوق هذه القاعدة ؟

ـ لا . هذه القاعدة تنتظر « المناضل » الاصلي الذي نحته ذات يوم ابي . . الصبر حرفتنا . . الصبر والعمل . . شيء آخر يقلقك . ماهو ؟ بحرية ؟

لم ينكر نسيم . هز رأسه بصمت (صبيحة يوم وصولها ، ادخلت الطعام الى غرفتها وكانت لا تزال مخدرة ونائمة . كشفت الستائر وسطعت الشمس من جسدها البديع . . تساءلت عن سر تلك الفتاة . اقتربت منها ، وتأملت يديها . اليد تكشف دوماً سر المهنة . لاحظت اظافرها العريضة غير المقلمة ، وامسكت بيدها ولم تستيقظ وكانت خشنة وصلدة كأيدي الكادحين . هذه يد تشي بفتاة عاملة ، تتعب وتشقى . . احسستها قريبة من قلبي ، وتذكرت يد امي . . . لقد كانت بالتأكيد كهذه يوم كانت امي شابة) . . .

تابع امير : جواز سفرها في حوزتي ، هل قلت لك ذلك ؟

قال نسيم فجأة : «الست» كوكو كانت ضيفة فراش رغيد، لكنني افسدت ليلتهما . انها لا تستحق رجلاً كخليل . .

- خليل لا يستحق كل ما يحدث له . اني قلق عليه من السفرة المفاجئة وصقر . .

- تراه عرف بمصرع بسام ؟

- لا ادري . . لم اره منذ ذلك اليوم . . . صقر يحاصره بالتأكيد . . . هذه اولى مبادىء الاستيلاء على فرد آخر . .

- او وطن آخر . . . بالمناسبة . . . ساحرنا في دربه الى الجنون فيما يبدو . . لولا عزلته لانكشف سره . . قال امير : لا تقس عليه . . . اننا لا نعرف ماذا حدث له بالضبط في بيروت . خليل اعلمني في نزهة آنسي انه رآه ذات لقاء وشقيقه في احد التنظيمات ، وانه كان يبدو خجلاً وصامتاً وضعيفاً وجباناً ، وقد تبدل كثيراً ولولا لون عينيه لما تذكره . . فانت لا ترى كل يوم رجلاً احدى عينيه خضراء والاخرى بنية . .

- يدعي في الصحف انه بدل لون عينيه البنية الى اخضر بنفسه وبسحره الخاص كمعجزته الشخصية الأولى.

- هذا غير صحيح . سألت طبيباً للعيون . ثمة اشخاص يولدون هكذا . انهم نادرون جداً لكن ذلك ممكن الحدوث . خليل يؤكد انه كان كذلك منذ شاهده قبل اعوام . . قبل ان يتحول من مشروع فاشل لثوري الى ساحر ناجح ينعم بالسلطة والثروة . .

- ثورة . . ثروة . . هل لاحظت ان الحروف هي نفسها ؟

- الاشياء كلها تتشابه أحياناً . المهم اسلوب التطبيق . الابجدية محدودة الحروف . امكانات الكلمات والافعال لامتناهية .

- بحرية . . حرية . . ترى ايهما اسمها الحقيقي . . .

- ها قد عدنا الى بحرية . . انك عاشق يا ابني . .

- وانت ، كيف تراها ما دمت لم ترها ؟

- أراها بدون اوهام وهلوسات . مجرد فتاة فقيرة عاملة وبالتأكيد ذكية واكثر صحواً مما تبدو ، وكل من حولها هستيري السلوك وستدفعون بها الى الجنون . . .

- هي التي تدفعنا جميعاً الى الجنون . .

- كلكم في سباق فيما يبدو . . . فابق خارج الحلبة ، واحرص عليها دونما عنف مجنون . .

ـ اعدك . . هل ستعطيني جواز سفرها ؟

ـ ساحتفظ به لكما او لها . . . لوقت الحاجة . المهم الا يلحظ نديم اختفاءه والا انتقم من دنيا . .

عاد احدهم من المطبخ حاملاً اقداح القهوة (وركوة) كبيرة ، ودار بها على الحضور ، وكان ذلك ايذاناً بانتهاء الأحاديث الجانبية والعودة الى الحوار الجماعي . . .

احدهم قال فجأة وهو يضغط زر التلفزيون : انه موعد الاخبار . . .

فصمتوا جميعاً وتعلقت عيونهم « بآنيت ليمان » وهي تنقل اخبار لبنان . . . وتجويع اهل بيروت وقطع الماء والكهرباء عنهم . . . وتذكر نسيم اسرته ، وشقيقه الجريح ، فدفن وجهه بين يديه وغل الحزن يأكله من الداخل . . .

بعد دقائق ، همس فجأة لامير : يجب ان امضي والا التهمتني عنكبوتي الذهبية . . .

رافقه امير الى الباب : ما اخباره ؟ سعيد بليلة المليار القريبة ؟

ـ عاشق مكسور الخاطر . يدعي انه اختار ليلة المليار بحيث تتوافق وليلة عيد ميلاد بحرية . .

ـ انه دجال . .

ـ انه مجنون مؤذ ومطلق السراح . . . ولكثرة ما يعشق نفسه ، يطرب لصوته حتى حين يتجشأ . .

لم يضحكا . سأل نسيم وهو يهبط السلم : هل وجدت مخطوطاً ما بين اوراق بسام ؟

ـ لم اجد غير دفتر ابيض الاوراق . . . لم يكتب غير الصمت المذعور . . .

ـ من يدري . لعله كتب مؤلفه بالحبر السري . لا اعتقد انه كان كاذباً . . . يجب ان نكتشف لغته . . . قال امير ساخراً مقلداً رغيد : لا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . . .

ومضى نسيم ولم يضحك . ذكرته العبارة بمصرع سري الدين . . . (**لقد فقدنا نهائياً روح النكتة**) .

(المدينة الاولى)

توهمت مرة انني وصقر راحلان حقاً الى عواصم اوروبا ، حيث المتاحف والكنوز الفنية التي طالما حلمت بمشاهدتها ولم يتح فقري لي ذلك . . .

وها انا في مدينة اجهلها . . واجهل اسمها . .

منذ اللحظة الاولى وعيت ان رحلتنا ستكون مختلفة ، وانها الى الجحيم لا الى الحضارة . . .

منذ فوجئت برحيلنا في طائرة خاصة ، وسط زحام حاشية صقر . بشر اجهلهم لهم وجوه متشابهة حتى التطابق . . . للنساء كلهن وجه واحد ، وللرجال وجه واحد مشابه لولا لحية او شارب اضافيان . . .

منذ شاهدت التمثال الذهبي لامرأة عارية بالحجم الطبيعي يتوسط الطائرة ارتعدت . . . احسسته وثناً ، يرحل به اتباعه وقد زج بـي بينهم . . . لاحظ صقر ضيقي وحيرتي في مجلسه وسط اولئك الناس المتشابهين ، كأنهم يرتدون القناع ذاته ، فعاجلني بشمة ثلجية من (السنو Snow) وكنت لما اصح من تلك التي ارغمني بقسوة على تعاطيها قبل صعود الطائرة حين اخطأت وكشفت له انني اخاف ركوب الطائرة الخاصة الصغيرة ـ رغم انني لم اجربها ! ـ لم يضحك لي كعادته تلك الضحكة الضائعة بين شهقة العبث والجذل والموت . غريب امره كم تبدل . تحول من طفل الى جلاد في غمضة عين ، كأنه اطمأن الى امتلاك روحي وانتهى من لعب دور الطفل معي الى دور الجلاد . ولم يكد ذلك الانفجار الحار داخل رأسي يهدأ قليلاً ، حتى غمز صقر احدى صديقاته مشيراً إلي . . .

اقتربت مني دافئة ، طرية كأفعى ، مدت لسانها وفوجئت بأنه كلسان الافاعي حقاً ، له شطران ، وذعرت ، وصرخت هلعاً ، ونظرت اليهم فلم يبالوا كأنهم لم يروا لسانها . . . وانحسر الثوب عن كل ناهد شهي عادت وغطته بسرعة مثل غيمة ما تكاد تغادر قمراً حتى تحجبه مرة اخرى ، واستيقظ في دمي عواء ذئاب نهمة منسية واستسلمت . . . ضمتني

اليها ، فشددتها الى جوعي التاريخي ، لكنني فوجئت ان جسدها استحال حزمة اسلاك شائكة لها شكل امرأة ، وكانت اطرافها المدببة تنغرس في لحمي كلما شدتني اليها وامعنت في ضمي وانا اصرخ وادفعها عني وبعض الحضور يرقبني ويضحك وبعضهم الآخر يشد اليه حزماً من الاسلاك الشائكة بصورة اجساد نساء . . .

في الفندق قال صقر انني ابدو متعباً ولا بد من كبسولة اضافية لتنشيطي . . . انه يستمتع بتدميري . . . رحت في شبه غيبوبة في الغرفة المجاورة . صحوت وتطلعت الى الساعة الالكترونية اللعينة التي اهدتني كفى إياها وفوجئت بانها كانت ترسم في الظلمة ارقام هاتفي في بيروت . ذعرت ، وهربت اليهم وحين دخل الجرسون جاراً امامه عربة الطعام الحديدية الى الغرفة ، فوجئت بانها منصة العمليات الجراحية في قسم الطوارىء الشعبي الذي انشأناه في حينا ببيروت ، وعافت نفسي الطعام . . الح علي صقر بان اتناول شيئاً وكذلك فعل صحبه الذين اضحت معابثتي احدى متعهم منذ بداية الرحلة . . قلت لهم انني اكره هذه الطاولات الحديدية التي تجر الى غرف الفنادق الفاخرة الشبيهة بمنصات المشرحة او طاولة العمليات . . . ضحكوا طويلاً مني . نظرت ثانية الى ساعتي الالكترونية وفوجئت بها بدلاً من ان تشير الى الوقت ، تشير من جديد الى رقمي الهاتفي في بيروت ، فقررت انتهاز الفرصة ، اية فرصة والاتصال باهلي هناك . عند منتصف الليل ، امام باب الملهى ، اكتشفت اننا في اثينا . سألتهم : هل سنذهب لمشاهدة الاكروبول والمتحف ؟

فضحكوا طويلاً وجروني معهم الى الملهى في حي « البلاكا » وفوجئت بالمكان محجوزاً لصقر وضيوفه وصحبه وانضمت الينا وجوه اخرى كثيرة مشابهة تماماً لوجوه حاشية الطائرة . . طعام وشرب وهرج ومرج وصحون تُحطَّم وضجيج وغانيات ورقص وغناء و « بوزوكي » و « اوزو » . . وتعبت . . وغافلتهم قليلاً ، وغادرت المكان . . .

سرت في درب ضيقة منحدرة شبه معتمة وخاوية . . هاجمتني ريح ليلية منعشة ، فاستعدت بعضاً من صحوي ، وبدأت احدق في واجهات مخازن شعبية ، وانا اتعثر بالارصفة العتيقة ذات النتوءات ، المرصوفة بحجارة تبدو غابرة . . تطلعت الى ساعتي ، وكانت تشير الى الرقم ذاته . .

فوجئت بدكان تحت الارض تقود اليه درجات عديدة مهترئة ، وفي واجهته الصغيرة العتيقة رفع العلم الاسرائيلي ، ولمحت البضاعة : آثار لبنان كلها للبيع والغبار تكوم عليها . . اعمدة بعلبك . . (خرايب) صور . . جوامع طرابلس . . مدرجات جبيل . . محتويات

المتحف في بيروت وكل ما شاهدته وانحنيت له في طفولتي . . وبدت الآثار في العتمة النسبية مكفنة بخيوط العنكبوت المغبرة وقد اغمي عليها او نامت ، باستثناء جرذ صغير كان يدور بينها كالمجنون خلف الواجهة الزجاجية . . جلست القرفصاء وتأملته ، فتوقف عن الركض ووقف مقابلي في الواجهة الزجاجية يتأملني ، وقد ارتجفت خياشيمه ، وتدفق حزن غامض من عينيه الكئيبتين . . .

احسست انني احدق في مرآة . . . وبكيت فبكى مثلي . وحين اخرجت منديلي لامسح وجهي اخرج منديله هو ايضاً وفعل الشيء ذاته ثم ادار ظهره لي ومضى . سرت بعدها طويلاً . . انحدرت في درب بدأت تتسع ، وعادت السيارات تزاحمني على رصيفي ، ثم وجدتني في ساحة شاسعة قدرت انها « السينتاغما » حين شاهدت مصابيح تضيء باسم « الميريديان » . . الفندق الذي حللنا فيه . . كنت اعرف هذه المعالم وسواها ايام رحيلي داخل الخرائط والكتب . . وها انا ارحل داخل الذل وامر بها عابراً .

حين دخلت الى الفندق فوجئت بموظف الاستقبال يعطيني مفتاحاً ، فاخذته وصعدت الى الغرفة وقد قادني اليها صبي المصعد حين لاحظ انني اترنح . . واضاء لي النور واغلق الباب خلفه حين خرج . .

لم اعرف كيف اعالج الهاتف اللعين ورأسي يدور هكذا فوق محوره ثم يعود كالمنطاد . . . طلبت ارقاماً وأرقاماً وجاءتني اصوات تنطق بلغات لا افهمها واخيراً خاطبني صوت بالانكليزية فقلت بالفرنسية انني اريد بيروت وقرأت الرقم من شاشة ساعتي . . لحظات ام دهور لا ادري . رن الهاتف وجاءني صوت اهلي ، فبكيت كالطفل وصرت انتحب وانتحبت زوجة عمي وقالت ان ابنها وابن عمي الآخر استشهدا في قريتنا الجنوبية . احدهما قاتل الاسرائيليين وحيداً كالمجنون فاطلقوا عليه قذيفة دبابة دمرته والبيت معاً ، والآخر لم يفعل شيئاً غير الاستسلام لكنهم قتلوه ايضاً . . بكيت طويلاً وسقطت في بئر عميق وارتميت في الفراش انتحب كما كنت افعل طفلاً وسراً . . . لا ادري كم من الوقت انقضى ، لكنهم ايقظوني واحاطوا بسريري كزبانية الجحيم وهم يضحكون مني معابثين ، وقد حملوا في ايديهم شوكاتهم الحديدية المرعبة بفروعها الثلاثة وقال صقر ضاحكاً : ايها الجرذ . . . لقد فتشنا عنك في كل مكان . . وابلغنا البوليس انك مفقود ، وانت نائم هنا في فراشي ؟ كيف وصلت الى هنا ؟ . .

ـ لا ادري . . . مشيت فوجدتني هنا . . .

وشعـرت فجأة بمغص مؤلم في بـطني ، وتقرح في منخـري ، وطلبت منهم احضـار طبيب ، وفوجئت بان الفجر قد طلع ، لكنهم احضروا زجاجة من ماء النار بدلاً من طعام الافطار وارغموني على ابتلاع نصفها وسط قهقهاتهم الساخرة القاسية داخل عيونهم الحمر . وشعرت بحاجة الى البكاء لا يوازيها غير خجلي الداخلي العميق امام ذلي هذا . . . انـه الاحساس ذاته الذي كان يخامرني امام الجلاد في السجون الباردة العارية من الاثاث . . وانهرت حين تذكرت مصرع ابني عمي ودمار ذلك البيت العتيق الذي طالما احببت . . وشعرت انني امقتهم اولئك الذين يحيطون بي . . التقط صقر شرارة الكراهية التي ومضت من اعماق روحي وربما من عيني ، وبدا سعيداً بها ، وفي وجهه تعبير ذكرني برغيد وهـو يمارس متعة الكراهية . . .

وفتحت ابواب الغرف بعضها على بعض ، وتابعوا مهرجانهم الهستيري . . . وجوه متشابهة ، لم اكن ادري هل تتبدل ام تبدل ثيابها . . اناس يحضرون وآخرون يمضون . . هل ثمة ورشات لاسعاد صقر ، تذهب (ورشة) وتأتي اخرى ؟ . . .

خذلني جسدي ، وتعلقت نظراتي بالأكروبول الذي توسط النافذة ، وتذكرت شهيتي لمشاهدة (الآجورا) ، موطن احدى الديمقراطيات الأولى عـلى هذا الكـوكب حيث كان سقراط وافلاطون وارسطو يتحركون بين الناس ويتحاورون ويتناقشون . . . أأنا في اثينا ، مهد الاغريق ولا ارى منها غير (شمة) وضمة وتكسير صحون في الأقبية ، وآثار بلادي تباع في المزادات . . . .

وجاء صوتي فجأة صارخاً : اريد الذهاب الى الآجورا . . . وانفجروا جميعاً ضاحكين وقال صقر باحتقار : لم تعد تصلح لشيء . . . ولكن لا بأس بك كمهرج احياناً . .

انه المساء او الفجر . . لم اعد ادري شيئاً غير اننا في قبو اللهـو ذاته ، وتلك المـرأة المجدولة من الاسلاك الشائكة تحاول تعذيبي بضمي اليها ، وانا اهرب منها والكل يضحك ساخراً . . .

امشي طويلاً . . . انحدر في الدرب الضيقة الخاوية شبه المعتمة اياها . . . تهاجمني تلك الريح الليلية الداكنة . . . اتعثر بالارصفة العتيقة ذات الـنتوءات المهترئة ، واكاد اعرف دربي الى الدكان اياها كمن يمشي خطى سبق ان سارها في حلم الليلة السابقة . . . العلم الاسرائيلي داخل الواجهة ولافتة تشير الى أن الدكـان تبيع الفـولكلور الاسرائيـلي ، وفي الداخل آثار وطني . . العمود البعلبكي الكبير الجميل بافريزه الذي طالما سحرني لم يكن

هناك . . ربما اشتراه احد هواة التحف . الجرذ كان هناك يدور بين تلك المعـالم والقلاع والكنائس والجوامع والمتاحف الغالية على قلبي وحين شاهدني جلس مقابلي خلف الواجهة الزجاجية للدكان ، وسألته : كيف صغرت هذه الآثار هكذا ؟ كـان العمود الـواحد في بعلبك يثقب قرص الشمس ، وكانت قلعة صيدا البحرية تحتوي الافق . . . كيف حدث ذلك لنا ؟ قال لي الجرذ وهو يضع يده على خده مثلي : حينـما تُقتلع من ارضها ، تـذبل وتصغر . . .

ـ صحيح . . .

ـ هذا يحدث للناس أيضاً . . .

ـ صحيح . . .

ـ من غادر دياره ، قل مقداره . .

ـ صحيح . . .

ـ الحجر في مكانه قنطار . . .

ـ صحيح . . .

ـ كيف تعرف ذلك ؟

ـ كيف لا اعرفه بعدما تحولت من رجل الى جرذ ؟ . . .

●●●

(المدينة الثانية)

يا له من رجل من برج الطاووس . انه يحاول احتلال روحي بقعة بعد اخرى ، وهو بالتأكيد بدأ ينجح في ذلك لأن اهتمامه بي تضاءل ، وقرر لي دوري النهائي في حياته : مهرج الرحلة . . .

في البداية ظننته صبياً مفسوداً ، ثم اكتشفت ان حب الامتلاك يحوله في فترة التعارف الأولى الى (ولد) لا يخلو من وهم دفء الالفة ـ كي لا اقول الصداقة ـ . . . وكلما استولى على رقعة جديدة من بقاع اعماقي ، زهد بي ، وعاملني كدمية تمّ كسرها . . اوكنفاية . . .

بالجد الممزوج بالهزل والكوكايين والترغيب والترهيب بالفقر ، وجـدت نفسي واحداً من اعوانه ، انا الذي حلمت في لحظة غباء (باصلاحه) ، ورمي زجاجات الكحول من غرفة المكتبة والاستعاضة عنها بكتب تثقفه . . . وها هو ينجح في ادهاشي . . يخلع امامي وجهاً بعد الآخر . . . واحتكاكنا معاً بعالمه الخارجي يكشف لي مدى سطوة هذا الغنمالي الصغير في المجالات كلها . . . له في كل مدينة حلقة تجله وتتوهمه رجل اعمال ناجحاً ، وحلقة اخرى من اصحاب الحاجات يشتري ولاءها ، و حلقة ثالثة من اصحاب الليل ، ولديه طاقة فيل على استيعاب ذلك المخدر الذي بدأ يفتك بمعدتي وحواسي ويذلني . . . ولم اعد اقول الصدق . . . لم اعد اقول شيئاً . . . تحولت الى جرذ في دكان بيع آثار وطني الذي يحترق ، بينما اموت هنا واحدة من ابشع ميتاتي كمدمن وقواد . . . واشهد ولادة نيرون جديد قد يفوق بجنونه العصري الانحطاط المتحفظ رغيد العجوز . . .

يلحظ صقر شرودي ، والطائرة الخاصة تقلع بنا الى حيث لا ادري . . . يومض في عينيه بريق اهتمام ، كصياد يلحظ هرب احد احصنته البرية السجين المعدة للترويض . . والغضب تصاعد في رأسي ، فركزته في طرف لفافتي ، واشعلتها .

قال صقر : التدخين ممنوع لحظة الاقلاع .

تجاهلته .

قال لي احدهم معابثاً : هل تعرفني ام انك مخدر وثمل دائماً ؟ التمع في رأسي وجه ابي كضربة فأس شطرتني نصفين وانا اتذكر بمرارة نصيحته التي لم اعد امارسها (لا تقل يا ابني غير الحق) ، وقلت للطاووس الآخر : اعرفك ؟ بالتأكيد لا . في الغربة لا احد يعرف الآخر ولا يذكره حتى ولو كان شقيقه . . .

وانفجروا جميعاً ضاحكين رغم المطب الهوائي الذي ارعبني ، وامر صقر : دمه ثقيل . اعطوه « شمة » . وتناولتها للمرة الأولى وانا اشعر بما يشبه الحاجة اليها . . واقلقني ذلك الشعور العابر كسرٍ ارتدى قناعاً ، محاولاً ان يعبر بسرعة الى النسيان . . .

وعبرت بسرعة الى الدفء والحرارة والصخب الهذياني . . .

واقتربت مني امرأة الاسلاك الشائكة واللسان الافعواني فصرخت هلعاً . جاءت اخرى صغيرة ، بريئة المظهر ، شفافة البشرة . . . شفافة حتى لتبدو اعصابها وعظامهـا عاريـة لنظراتي تحت بشرتها الضبابية وجسدها الزجاجي . . .

وفجأة لاحظت الحشرات تركض تحت جلدها ، وتغلي فوق عيني ، وفي موضع قلبها

شاهدت قنبلة موقوتة وسمعت بوضوح (تكاتها) وصرخت مذعوراً : قنبلة . . . . قنبلة موقوتة . . .

وقبل ان اشرح لهم اين نهض الجميع مذعورين وانطلقوا يهرولون في الطائرة ، وقال لي احدهم : اين زرعتها ايها الوغد ؟ وكنت قد نسّيت عم يسألني ودوار هائل يصطخب في رأسي كموج العاصفة ، وقلت له : نسيت . . .

وشتمني صقر بأقذع الالفاظ ، وتوزعنا في الطائرة جرذاناً وكل يبحث عن شيء اجهله ، وصرخ بي صقر : فتش معنا ايها الجرذ . . .

وسألته : عن اي شيء تريدني ان افتش . صرخ آخر : عن القنبلة يا (مسطول) . . . وانطلقت معهم افتش عن القنبلة ، ولكن اي قنبلة ؟ . . من قال ان في الطائرة قنبلة ؟ . .

ورأيتهم يطوفون حول التمثال الذهبي العاري مفتشين مثل قبيلة منقرضة تدور حول وثنها ، وهربت للتفتيش في بقية زوايا الطائرة . . . وانا أتحرك بحرية مجنون بين غرفة نوم صقر ومكتبته وحمامه واشهق امام ذلك الذهب كله . . . صنابير من الذهب في المراحيض ، والحمام مطعم بأحجار كريمة تزين ذهبه وفضته ، وغرفة السونا خرافة ، كأنها علبة مجوهرات ضخمة تتسع لرجل . . . اذن هذا يحدث حقاً ، وكنت اظنه غير موجود الا في الروايات واكاذيب الصحافة . . صنبور واحد يكفي لدفع اقساط اولادي مدى حياتهم ، والمرحاض وحده يكفي لتسليح اهل قريتي . . .وانفجرت أضحك بصوت مرتفع لافكاري الهزلية العتيقة هذه . . . . ولماذا اعلم اولادي ؟ عليهم بغبار النجوم ، شمة واحدة ، وتتبعثر الاحزان مثل كومة رمل في الريح . . يجب سوق الناس الى سلك التخدير الاجباري . . . سأفكر باصلاح شؤون هذا الكوكب على ضوء اكتشافاتي الاخيرة . . صنبور من الذهب ؟ . مرحاض من الذهب؟مدينة طائرة من الذهب ترحل الى الصيف او الشتاء وتختار فصولها كما قال صقر ، فالفصول عبودية الفقراء فقط اما الاثرياء فيختارون لكل يوم فصله وفقاً لمزاجهم . . البانيو مطعم بالاحجار الكريمة كي لا تنزلق قدم المستحم ؟ آه سينفجر رأسي . . . . اين انت يا صقر اللعين . . . انجدني بشمة اخرى . . . شمة اخرى . . . سأطلب النجدة . اشعل عود كبريت حتى يحترق ، وبفحمه اكتب على لفافتي « النجدة S.O.S » ، وافرغ زجاجة العطر من محتوياتها فوق الرخام واضع الرسالة داخل الزجاجة ، واملأ البانيو ببحر هائج ارمي اليه بالزجاجة . . فهل سيسارع احد الى انجادي ؟ اني بحاجة الى « شمة » . . اصرخ واركض كالاعمى : ارجوكم « شمة » . . سأموت برداً . . .

وسارعت يد لتحشو انفي بالمسحوق الابيض الثلجي ، فاشتعلت من جديد . . .

ولا ادري لماذا ، حين حدقت من زجاج الطائرة الشفاف تذكرت تلك النحلة السجين داخل زجاجة الكوكاكولا الشفافة وهي عبثاً تهرب من سجنها ، وجناحاها يتكسران مرة بعد اخرى في محاولتها المستميتة للتحليق من جديد في فضاء الحرية . . . الحرية . . . أطلقوا سراح السفن من بحارها . . أطلقوا سراحي . . آه الحرية . .

●●●

(المدينة الثالثة)

في المطار ، جاءت سيارة مسدلة الستائر ونقلتني وصقر وبعض افراد الحاشية الى احدى غرف المطار الرسمية من غير ان نمر بالقاعات المألوفة للمسافرين . . . اذن هذا يحدث حتى في مطارات اوروبا لا بيروت وحدها ؟ ام اننا لسنا في اوروبا ؟ لم اعد ادري . . دخل صقر وبعض صحبه الى غرفة شخص مهم كما هو واضح من جمال سكرتيرته ، وقاعة الانتظار الضخمة الملاصقة لمكتبه ، وامرني بالبقاء خارجاً كأي خادم اضافي .

جلست في المقعد الجلدي ، كان ناعماً كأنه جلد بشري . . . لا ادري لماذا تذكرت كفى . . تلك الحمقاء البائسة التي لم اهتف لها منذ سفري ، فأنا اعرف انها تخونني ، وذلك يؤلمني ، واعرف لماذا ، وهو امر يجتاحني بالخزي ولا احب التفكير به . . . زوجتي خائنة . . وانا مشروع مدمن . . . . معدتي بدأت تؤلمني ، ومنخري مقرح ، والتقلصات الموجعة تهاجم احشائي احياناً ، ولم اعد قادراً على قول الصدق . . .

(كفى ، اينما كنت ، كيفما كنت ، مغفورة خطاياك ايتها الضالة المسكينة . . .

ريشتان في مهب الريح كنا ، فبأي حق أحاكمك ؟ . . كلانا ملوث ، مدمر ، ضال ، فلتحم الاقدار طفلينا المسكينين ، ولتحم ذاكرتنا من نتف جسد طفلتنا الثالثة . . وداد . . .) .

سقطت في بئر معتمة من الاسى . . انها لحظة الهبوط اللعينة ، ولا املك « شمة » من رماد النجوم . . . انها عتبة الادمان . . . **(انتهى امرك يا خليل)** . . .

بدأت ارتجف قليلاً وانا اقلب احدى الصحف العتيقة المكومة في قاعة الانتظار . . . ها انا انهار . . . كان الحصـار فوق طاقتي . . . دائرة تحيط بها اخرى فأخرى فأخرى في الوطن والغربة الى ما لا نهاية ، وقد انكسرْت وأريد شمة والا ازدادت يدي ارتجافاً بالصحيفة ، ام تراني أتوهم وابالغ ؟ . . .

فجأة صحوت .

اهذه صورة امير في الصحيفة العتيقة ام تراني اهذي ؟ اهذا وجهه وهو يحاول ان يحميه من عدسات المصـورين ؟ اهذه جثة بسام على الرصيف ورأسـه غارق في الـدم ؟ . . . بصعوبة اقرأ الكلمات ونقاط سود تقفز امام عيني وحشرات تفور فوق السطور وبينها . . . لكنني قرأت ! . . . و . . . و . . .

وشاهدت وجهي يحل في الصورة محل وجه بسام ، الذي هرب من موته الأول الى موته الاخير العبثي العبثي العبثي . . . اللعنة عليك يا كفى . . .

- بل اللعنة عليك يا خليل

- هي التي . . .

- انت قبلت . . .

- هي . . .

- انت . . .

***

ازداد كل لحظة تقديراً لمواهب صقر في الحدس ، او قراءة الافكـار المسخرة لإذلال المحيطين به . . .

كيف حدس ما يدور في اعماقي منذ لحظة خروجه من المكتب في المطار ، دون ان ينظر في وجهي ؟ ولماذا قرر فجأة تقريبي اليه بعد طـول اذلال وابعاد ، واعلن : لـدي زيارة خاصة ، سيرافقني اليها خليل فقط .

ام تراها مصادفة لا اكثر ؟ . . .

كانت صغيرة جداً ، جميلة وشاحبة وقد زينت شعرها بوردة ذابلة ، ترتجف في فراشها وتبكي . قدمها صقر لي : حبيبتي الوحيدة الابدية هيلغا . . . ودوى صراخ طفل رضيع في الغرفة المجاورة ، وشرحت صديقتها الامر : لقد انجبته منذ ثلاثة ايام . . . وهو يبكـي باستمرار ، ونحن ايضاً ريثما يصل الطبيب . . .

قال صقر : اعترف بأنه ابني . . . وسأعتني به . . . لن يبكي بعد الآن ، ولسنا بحاجة الى طبيب . . قالت الصديقة وهي تدخن لفافة الحشيش : انه بحاجة الى حقنة مورفين . . .

صرخت بهلع عفوي : لماذا ؟ . . . حقنة مورفين لطفل في يومه الثالث ؟ لاحظ صقر بنقمة انني استعدت بعضاً من قدرتي على (رد الفعل) الطبيعي ، وقال متحدياً فخوراً : هيلغا تفضل المورفين . . . وما تقدر على احتماله قبل ان (تدوخ) يفوق طاقة معظم الناس . . .

تابعت الصديقة التي بدت كهيلغا مراهقة صغيرة : وقد ولد طفلها مدمناً . . . لم نكن نعرف ان ذلك ينتقل من الام الى الطفل . . . ولكن . . . صرخ صقر مبتهجاً : سأتزوج منك ذات يوم يا هيلغا . . . انت المرأة التي تصلح لي . . . المرأة التي تنجب اولاداً مثلي . . . هذا المدمن الصغير هو طفلي حقاً . .

جرتني الصديقة من يدي الى غرفة اخرى . . . كنت صاحياً ، اتظاهر بانني مخدر بعد ان نجحت في مغافلة صقر وعدم ابتلاع جرعة السم . . .

سألتني : وانت ايضاً ثري .

ـ انا فقير . . .

ـ ألست عربياً ؟

ـ بلى . . .

ـ أليس جميع العرب اثرياء ؟ . . .

ـ ثمة عرب آخرون ، وانا منهم . . .

غادرنا هيلغا وقد وعدها بالعودة في المساء ، وحين ضمتنا السيارة وتوجت بؤسي بسيجارة قال : يجب ان نغادر هذه المدينة الآن .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها قاصر . . وهذا قد يعني السجن . . .

ـ ولكنك وعدتها بالزواج . . .

ـ لم اعدها بشيء . . وانت لم تسمعني ! . . .

ـ . . . .

ـ وقد اعطتني صورنا معاً ، وبعض وريقات خططتها لها في مناسبات مختلفة بعدما

اقنعتها بانني ارغب في كتابة قصة حبنا وتخليدها . . . مع الصور . . .

ـ ما دام لا دليـل مادياً . . لماذا نرحل ؟

ـ لأنني ما زلت لا اثق بك . . . احياناً يستيقظ في داخلك شيء لا احبه ، واخشى ان يفعلها بي في المحكمة . . . مع القاصرات ، لا مزاح في هذا البلد ! . . .

واستدار نحوي وتأمل وجهي بعينين ثاقبتين وقال : لن اثق يوماً بك . لقد خدعني مظهرك البريء في البداية . . .

وكدت اقول له : شعور متبادل . . .

ولما حركت شفتي لأتكلم ، صرخ بي : اخرج لفافتك من فمـك حين تخـاطبني . . سئمت مظهرك (البلدي) وانت تتكلم والسيجارة ملصقة بشفتيك تتحرك مـع نبراتـك القذرة اللئيمة . . والرماد يتناثر منها . .

لم اقل شيئاً خوفاً من ان انفجر .

ادرت وجهي صوب نافذة السيارة ، وصرت اتأمل الشوارع التي كان الرحيل اليها حلماً ، وانا اخترقها داخل تابوتي الشفاف . . . وقد اطبقت شفتي بشدةعلى لفافتي ، والرماد يتساقط منها دقيقة بعد اخرى فوق ثيابي ولا انفضها ، ولم اخرجها من فمي الا حين لدعت جمرتها شفتي واحرقتها . .

●●●

(المدينة الرابعة)

استيقظت بعد نوم عميق . . ما كدت افتح عيني حتى ادركت ان صقـر اعلن علي الحرب الباردة .

فأمامي على الجدار ، شاهدت احدهم وقد الصق مقابلي صـورة عملاقـة بالألـوان (بوستر) لعشبة خضراء وقـد كتب اسمها العلمي تحتهـا : « اريثروكسيلون ـ كـوكا » ـ Erythroxylon Coca ، وهي التي يستخرج منها « الكوكايين » اللعين !

عبثاً يحاول صقر ان يفهم لماذا صرت ارفض بشراسة كل محاولة جديدة لتخديري . . لم اعد احاول التهرب او المراوغة حرصاً على لقمتي كما كنت افعل من قبل ، بل صرت

ارفض . السر يحيره : ما الذي حدث لي في قاعة الانتظار بالمطار بين اللحظة التي كنت اتسول فيها بنظراتي « شمة » حين خلفني كالجرذ وراءه عند السكرتيرة ، واللحظة التي تلتها بعد ذلك بنصف ساعة لا اكثر ، حين غادر مكتب الشخص المهم ، وعاد ووجدني وكل ما في سيالاتي الروحية يلعنه بصمت مطبق وكراهية مطلقة لا تخلو من كراهية لذاتي . . .

استجوبني صباحِ اليوم التالي ثانية بصورة مباشرة . . . حدقت فيه ولفافتي مغروسة في فمي ، وصمتنا طويلاً كذئبين شرسين ، وحين سقط الرماد على ثيابي قلت له واللفافة ما تزال في فمي : « لا شيء » . . . وسألني ثانية ، وعاودت صمتي حتى لسعت جمرة اللفافة المحترقة شفتي ، وقلت له « لا شيء » قبل ان ارمي بها ! . .

لقد استعاد اهتمامه بي ، وبالاستيلاء علي . . وها هو يتفنن في حربه النفسية . . كم اخطأت حين توهمته اكثر براءة واقل حيلة . . . والده الشيخ صخر ليس بالمقارنة به اكثر من مراهق طيب القلب . .

عدت احدق في « الاريثروكسيلون كوكا » . في دمي نداء مقموع يهمس باسمها . تذكرت جداراً مشابه البياض ولكن يتوسطه (بوستر) آخر . هو جدار امير الذي تغطيه خارطة العالم العربي . . . وكنت ارى خارطة عمري معها وفيها . مع صقر لا شيء غير بوستر (كوكا) اللعينة .

. . . قفزت من سريري ودفنت ارتجافي نصف المتوجع تحت (الدوش) برذاذه البارد . . . نظرت الى ساعتي الالكترونية التي اهدتني زوجتي اياها في محاولتها (تحضيري) و (عصرنتي) . . حدث لها ما حدث لساعتي السابقة العتيقة التي تمسكت عقاربها بزمن بيروت . . او بشيء مشابه . . صارت لها حياة عضوية مستقلة ، تكتب لي شاشتها كل شيء إلا الوقت . . واليوم ، بدلاً من ان تومض بالزمن ثانية بعد اخرى ، كانت تومض بحروف تحمل اسمي ولديّ على التوالي ، فادي رامي ، كأنها صارت مرتبطة بدورتي الدموية . . .

كانت محاولة الاتصال بهما عسيرة . . فأنا لا اعرف توقيت هنا ولا هناك . . ثم ان صقر ربط هواتف الحاشية بجهاز تنصت ، وانا قروي الاصل والطباع لا استطيع ان ابوح بمشاعري على شاشة تجسس ، حتى مشاعري نحو اولادي . . قررت ان اجرب ذلك في مناسبة اخرى . . .

ادهشني ان احداً لم يقرع بابي . . ثم وعيت ان خطة صقر لإذلالي قد تقتضي اهمالي ، وتركي وحيداً ، كأي جرذ مذعور لا يحمل نقوداً ولا جواز سفر ، ولا « شمة » كاد

يألفها . . . ولم اكن اعرف تماماً كم الساعة ، اهو المساء ام الصباح ، وحين شرّعت النافذة اكتشفت انني في الطابق العشرين او الثلاثين من فندق يمكن ان يكون في اية عاصمة اوروبية او اميركية . . . وتساءلت : هل بمقدوري الاقلاع عن تناول هذا السم بمفردي ، بارادتي ، ام صرت بحاجة إلى طبيب وعلاج ؟ هل تجاوزت العتبة واقلعت في نهر اللاعودة ؟

صقر فاته شيء في معتقلي هذا . . فاته ان يعطل جهاز التلفزيون . . ولم اكن اشتهي شيئاً آخر . . .

وحين عادوا بعد ساعات كنت قد رويت غليلي بالاستماع الى نشرات الاخبار كلها التي طالتها اصابعي وشاهدت جان جاك بايرو ، وفرانسين بوشي ، وانيت ليمان ، وميرييل كالام وغيرهن وغيرهم من المذيعات والمذيعين الذين الفتهم في هذا الصيف الحزين . اذن نحن في مكان ما قريب من سويسرا ، قادر على التقاط بث تلفزيونها ، أم ترانا عدنا الى مدينة سويسرية ما ؟ ولاحظت من نبرة المذيعين تعاطفهم وما يحدث لوطني . . . ما جدوى ذلك ؟ غداً ينسون او يقسرونهم على النسيان . . التعاطف لا يعيد وطناً . .

وهكذا ضبطتني حاشية صقر متلبساً بمراقبة التلفزيون ، وكانت بيروت تحترق .

سألني احد اولئك الذين وجوههم متشابهة تماماً كالقناع الموحد : هل تحب مشاهدة الافلام الحربية ؟ اطفىء هذا الفيديو السخيف .

قلت له : انني ارقب اخبار التلفزيون لا الفيديو . . وهذا ليس فيلماً . . انها بيروت تحترق . .

- تحترق ؟ لماذا ؟

- الغزو الاسرائيلي . . الم تسمع به . .

- لا . . لم اسمع به . .

- ثمة حرب في لبنان . .

- هل ثمة حرب حقاً . . لا اصدق ولا يهمني ذلك . .

- ولكن . . .

- ليس لدينا اي قصر في لبنان . . والدي حذر ، ونحن نفضل اوروبا منذ البداية . . .

قال صقر : انت محظوظ . . والدي عمر للأسف قصراً في « سوق الغرب » بدلاً من « الغرب» . . .

- دعنا من حديث بيروت . . استعدوا للذهاب الى السوق .

(وفهمت انه يعني سوق اللحم الابيض . . . والاسمر ايضاً) أضاف : غانيات العرب في هذه المدينة سينمن الليلة ثريات . سأمارس هواية « الشكشكة » واسعدهن .

قلت لصقر : انني مصاب بصداع . . هل استطيع البقاء ؟

اجاب صقر : لا . . . سنداوي صداعك (بالثلج) . . بغبار النجوم . . . بالست اريثروكسيلون كوكا .

ـ اشكرك . لست بحاجة اليها . . .

ـ تقلبك هو اطرف ما فيك . . . انك مهرج حقيقي ، خصوصاً حين تلعب دور المناضل المهتم بقضايا وطنه . . . سأقدم لك في محطتنا الثانية شخصاً يهمك امره . . . شاعر وطني مثلك . . . لعلك كنت تناضل لعرض كتبه في واجهتك الشهيرة بمكتبتك العقائدية قرب جامعة بيروت العربية . ستراه جيداً هذه المرة ، على حقيقته .

ذهلت . كيف عرف ذلك كله عني ؟

اردف قائلاً : لقد تحريت عنك ! هل تظنني حقاً ولداً ساذجاً مهمته تعليمك التزلج والسباحة وصيد الاسماك وتقشير الخيار ؟ . . .

كنت ارقبه ، والسيجارة ترتجف في فمي ، وصرخ بي فجأة : حين أكلمك تطفىء سيجارتك احتراماً ايها الوقح . . . وقبل ان اصفعه لاحظت احتقان وجهه ، وادركت انه بالغ في ابتلاع حبوبه المنبهة ، وجرعاته المخدرة فلذت بالصمت ارهاقاً وقرفاً . . وانقذنا دخول مجموعة جديدة من الناس ، بعضهم جاء (يتبرك) بعطاياه . .

صرت اعرف ان لصقر حلقة مدمنين تحيط به في كل مدينة . . اثرياء وصغار يحبون التجمع حول اكوام ذلك (الثلج) الابيض الذي يحرق المنخرين والرأس والقلب والمعدة ويقرحهما كما حدث لي . . . او كاد . . لكن ما ادهشني حقاً هو حضور مجموعة من رجال الاعمال في كل مدينة مررنا بها . . وكان صقر يرتدي معهم وجهاً مشابهاً لذلك الذي لمحته مرة ونسيته من زمان مع رغيد ، حين مشيا سوية الى الشرفة في سهرته . . ليلة « يا ظلام السجن خيم » . . بدا لي ان صقر هو المفضل في كل (سوبر ماركت جنس) مررنا بها في المدن الغربية ، وانه فارس تلك الاماكن (الحريمية) المقرفة كمسرف ومهذار . . . ولكنها لم تكن هاجسه الأوحد كما توهمت في البداية . . ولعل اخطر ما في صقر قدرته على استخدام عنصر المفاجأة والتحول من حمامة الى صقر في ومضة برق . . .

وبعدما مضى بعض زواره ، طلب مني مرافقته الى جناحه الخاص . .

كنت قد استطعت البقاء ٤٨ ساعة ، من غير ان اتنـاول السموم ايـاها من « غبـار النجوم » المختلفة . . . وصحا رأسي . . وصرت ارى بوضوح نسبي ، لا يفسده غير بقايا ذلك الضعف المتلهف لـ « شمة » لعينة . وما كاد صقر يغلق على نفسه باب جناحه حتى انهار فوق سريره يئن متوجعاً . . . انتابته نوبة تقلصات في فخذيه وصار يتلوى ويئن . . . وينتفض ملسوعاً كأن ثمة من يخيفه او يجلده . . جسست نبضه . . بدا لي سريعاً وخشيت ان يموت . .حدقت في عينيه المخيفتين وبدت لي حدقته متمددة كعيني قطة في الظلمة . . . ثم هاجمته نوبة غثيان ، وعبثاً حاول النوم . . . ظل ساعات يتوجع ، ورفض ان ابلغ احداً من حاشيته عما دهاه ، فادعيت امام الحاحهم على رؤيته ان لديه (زائرة) ورفض ان اتصل بطبيب . . . انتابه رعب عجيب : سيقتله الطبيب ، او سيسوقه اصحابه الى المصح . . ولا يريد ان يرى احداً من صحبه . . انهم يتآمرون عليه ويريدون قتله كي لا يصير حاكماً لبلده كما هو مؤكد لعظيم مثله بالرغم من عدم قرابته للاسرة الحاكمة !! . . إنه نابوليون سري ، يخبىء مواهبه كي لا يُقتل . والده الشيخ صخر يغار منه ايضاً ويسعى لهلاكه . . الكل يتآمر عليه ويريد مني ان اكتم ذلك وسيجزل لي العطاء ان لم اخنه وانفذ الخطة ! فأقسمت له على الكتمان . . . وظل يتلوى ويشتم مهدداً المتآمرين كلهم على عظمته ، حتى ادركـه النوم برحمته . . . .

تأملته ، حطام شاب . . وشاهدت فيه صورتي اذا استطاع ان يستولي نهائياً على روحي ويخضعني للمكه الثلجي المرعب . . .

سعدت بنومه . . .

انها الليلة الاولى التي اخلو فيهـا الى نفسي . . او بقايـاهـا . يمـزقني مصـرع ابنـاء عمي . . .

افتقد اولادي . . . وطني . . .

ترى ماذا تفعل كفى بنفسها ؟ . . . للاسف اعرف . . .

وبحرية ، ماذا يفعلون بها ؟ . . . لست واثقاً . .

وبيروت . . . لقد فعلوا بنا ذلك ، ليسهلوا ما سيفعلونه بها . . . اولئك الحمقى ، البريء منهم والعميل و . . .

هاجمت التلفزيون ، وادرت زره . . . ظهر المذيع على الشاشة ، وحدق في وجهي قليلاً ثم قال لي : نم ايها المسكين . لقد فاتتك نشرة الاخبار ، لكن بيروت كانت تحترق الليلة

ايضاً . . .

ـ ارجوك ، الا تستطيع ان تقدمها ثانية من اجلي ؟ . .

ـ آسف يا صديقي . . . سأطرد من عملي . . .

ـ ارجوك . . . حاول . . .

ـ لا اقدر . . ولكن ، ماذا تفعل انت هنا ؟ لماذا لا تذهب الى بيروت ؟

ـ احقاً انك انت المذيع تخاطبني ؟ هل يحدث ذلك للجميع ؟ . . .

ـ نعم . . لكنهم لا يلحظونه . . لا ينصتون جيداً . . المعذرة ، فأنا لا اقصد التدخل في شؤونك ، ولكن ماذا تفعل هنا ؟ . . .

ـ لا ادري يا صديقي . . . لم اعد ادري شيئاً . . .

ـ تذكر . . . كيف بدأ ذلك كله ؟

ـ كنا نتشاجر فيما بيننا ، وجاء العدو يلتهمنا جميعاً . .

ـ كأنك تبسط الامور . . . اعني انا مذيع الاخبار الدولية ، وألحظ علاقة ما بين ما كان يدور لديكم ، ومشيئة بلدان اخرى كبيرة . . .

ـ « دود الخل منه وفيه » . . . لو لم تكن قلوبنا ملأى بالثغرات لما وجدوا منفذاً الينا . . .

ـ انت حزين . . . اذهب ونم . .

ـ لا . . ارجوك . . ابق حيث انت على الشاشة . . اني بحاجة للحوار مع انسان صاح . . .

ـ لم اعد استطيع . . يجب ان اذهب . . .

ـ لا تدعني وحيداً . . . اريد ان اسر اليك بأشياء كثيرة . . .

ـ ادخل الي اذا شئت . . . اخط الى داخل العلبة وسنتحدث معاً حتى الصباح . . . بل حتى موعد البث التالي . . .

ـ سأفعل . . هات يدك . . . شكراً . . .

ـ يدك باردة . .

ـ وانت ايضاً . . .

●●●

(المدينة الخامسة)

كيف استيقظ صقر بكامل جبروته بعد تلك الليلة المريرة التشنجات والاوجاع ؟
لا أدري . .

كأنه لم يقض الليل وهو يتعذب وآثار المخدر تجلده ويبتلع الاقراص المهدئة ويبكي كالطفل امامي . . .

نهض جباراً ومتسلطاً اكثر من اي يوم مضى ، كأنه يريد اذلالي مقابل شهادتي على ذله البارحة ! . . . ام ان المخدر يعمل هكذا ؟ وبعدما كان يرتجف في الليلة السابقة ذعراً من محاولة اغتياله الاكيدة ، والمؤامرة التي تحاك ضده في الظلام من قبل اقرب الناس اليه ، وقد يكون والده الشيخ صخر خلفها غيرة من عظمته ، نهض اليوم كأي نابوليون في ذروة انتصاراته ، وابتلع بعضاً من اقراصه الملونة ، وشم وعطس وانتشى بمجده . . . وطار ، وطرنا معه ولكن في الطائرة .

قربني منه كي يتسنى له اذلالي : اما زلت مضرباً عن تناوله « مسحوق الفرح » ؟ لماذا يخيفك التخدير ؟ هل تظن انك كنت حقاً صاحياً من قبل ؟ هل تتوهمون في بيروت انكم جميعاً في حال من الصحو طوال هذه الاعوام ؟ . . . هل تظن شعبك الذي تتبجح به انت ومعلمك امير صاحياً ؟ . . ها هم يجتاحون وطنك ، ولم يرفع احد صوته ولا (مسطرته) في وجه اسرائيل . . . الكل مخدر . . . ولكن البركة في الشعراء والادباء الذين سيحولون هزيمتكم الى نصر . . من المنتصر ؟ طبعاً الجهة التي يقبض منها (العبقري) نقوداً او وجاهة او جوائز ادبية او رشوة بصورة ترجمات الى اللغات الحية . تعددت الصيغ والثمن واحد يزيد او ينقص . . وكل ذلك يمضي بانسجام داخل ماكينة التخدير ، و (البرغي) الصغير الذي يحاول ان يدور عكس الماكينة ينكسر . . . وستنكسر نهائياً اذا لم تتكيف مع آلة التخدير المنصوبة من « المحيط الى الخليج » تمشياً مع التعبير الذي تعشقونه . .

قلت له : ثمة اشياء مشتركة كثيرة بينك وبين رغيد الزهران . . . اعني ، اراؤكما متشابهة . . .

ـ اكتشفنا ذلك معاً مؤخراً . والدي لم يعد يصلح لادارة اعماله . . . لا بد من دم حديد كي يستمر العمل ونحصل على « صفقة المطار» . . .

ـ عمك الشيخ هلال يرفض . . .

ـ عمي كارثة في وجه التطور والعمران ، ولن تكون ازاحته صعبة بعد ان ارث اعمال ابي . . .

ـ هل ستقتله ؟

ـ لا . . . ستقوم بعض (القوى التقدمية) بذلك بالنيابة عنا ، ثم تصدر القيادة بياناً بالاستنكار والتنصل ، وملاحقة العناصر غير المنضبطة لمعاقبة الجاني ، وتمر الايام ، ويساهم التخدير في النسيان ، وسأبني للمرحوم عمي هلال جامعاً عن روحه يحمل اسمه مقابل المطار . . . التخدير يا احمق . . . مئات الملايين حياتهم قائمة على التخدير منذ مئات السنين . . . فلماذا لا تنام معهم وتريحهم وتستريح . . . خذ « شمة » . . . دمك ثقيل وانت صاح . . .

ازحت بوجهي ، واشعلت لفافتي .

انتزعها صقر من فمي ، وقرّب المنفضة لصق عيني واطفأها كما في حدقتي . . وقال بصوت بارد : اليوم سترى عباقرتك المثقفين في وصلة تخديرية . . وسيشاركونك ما تتوهمه مباذل ايها الاحمق الممل . . . وصفق بيديه ، ايذاناً بانتهاء الحوار . . . مشيراً الى حاشيته بالاقتراب . موسيقى . رقص . وتحولت الطائرة الى علبة تفور فيها عشرات الجرذان . . وفي اعماقي انكمش جرذ مذعوراً ، الى أية خيبة يذهب بي صقر ؟ التفت صوبي ، كأن المخدر يرهف بعض حواسه في لحظات نادرة تتحول الى قراءة افكار وقال : الم اعدك بأن احملك الى عجائب الدنيا السبع ؟ . . .

***

اذن لم يكن صقر يكذب حين قال بأنه سيمضي بي الى مهرجان شعري غنائي في احدى المدن الاوروبية مكرس لنصرة فلسطين ولبنان . . . ولم يكن يكذب حين قال ان شاعرنا « ارشيد النعيماقي » هو احد خطباء المهرجان . . . وسيسهر معنا فيها بعد . . .

لم اصدقه حتى ونحن في الدرب الى مبنى النشاطات في المدينة رقم ٥ . ارشيد ، الشاعر الكبير الجاد الملتزم ، هو صديق لشخص مثل صقر ؟ ما الذي يمكن ان يجمعهما ؟ والاول كرس شعره للثورة والفقراء والآخر كرس حياته لتدميرهما بعد امتصاص دمهما ؟ قال صقر في السيارة فجأة : والدي وعمي يساهمان في تمويل التنظيم الذي يمول ارشيد ايها الاحمق . الا تعرف ان للشعراء الوطنيين ايضاً نفقات ؟ زوجات . عشيقات . مطلقات . ثياباً حريرية

فاخرة . فواتير فنادق . بارات . مستشفيات . هل تظنهم يبدعون مجاناً حاملين صليب الانسانية حفاة ؟ انتهى يا احمق عصر الشعراء الجوالين والصعاليك . نحن الآن في صيف ١٩٨٢ ، لا سنة ٨٢ هجرية . الن تفهم ؟ . . .

لم افهم ولم اصدق حتى وصلنا الى المبنى الكبير . . . دخلنا وهو يجرني من يدي ، تتبعنا حاشية غير نسائية باستثناء المثقفات من الغانيات اللواتي نشرن مرة ما في صحيفة مغمورة ونلن ألقاباً ادبية اثر ذلك وفقاً لمؤهلاتهن الجسدية . .

قلت له وانا اخشى ان يتعرف الي احد المثقفين او الكتاب الذين احترمهم وانا في صحبة صقر : لم اعد ارغب في الذهاب الى الندوة . . . .

الح : بل سنذهب . سيفرح ارشيد بحضوري ، وسيبهجك ذلك . .

وحدث ما كنت اخشاه . فوجئت بالمفكر الوحدوي منير النوادمي وعبثاً ادرت وجهي ، ولكن يبدو انه عرفني فبدل اتجاه خطاه قادماً نحوي بذراعين مفتوحتين . . وشعرت بالخجل والعار . . سيراني مع صقر . . . وهتف « اهلاً اهلاً يا صديقي » وهو ما زال يتقدم نحوي بذراعين مفتوحتين ، ضم بهما صقر الى صدره ، ووقفت انا ذاهلاً وقد سقط فكي الأسفل المشدوه حتى حذائي . . وقدمه صقر الي ، فصافحني بوقار ولم اعرف ما اذا كان قد تذكرني ام لا . . انا الذي كنت افرش كتبه وامير وارشيد وغيرهم في واجهة مكتبتي . . . وزارني فيها مرة أو ربما مرتين . .

ووصلنا الى ردهة كبيرة تنفتح على اربع قاعات شاسعة . . في الاولى كانت ثمة امرأة ضخمة الجثة تغني بصوت جميل حزين ، وآلاف المستمعين جالسين بلا كراس وقد تحولت اجسادهم الى ما يشبه المقاعد المتحجرة كأنهم هنا منذ عصور يبكون ويصرخون آه . . وتمتزج آهاتهم بآهاتها ، وحين تلوّح المطربة بمنديلها وهي تنشد كمنوم مغناطيسي ، تستجيب مناديلهم والدموع تتسرب فوق العتبة كالجدول . . . وعلى مدخل القاعة علقت لوحة بخط قديم : غرفة الطرب . . .

في القاعة الثانية سمعت اصوات قرع الصنوج والطبول ، وشاهدت آلاف الرجال في ثياب ملونة يدورون ويدورون ويدورون حول انفسهم ويرددون عبارة واحدة وبين حين وآخر يشق احدهم ثوبه ويرتمي على الارض مغمى عليه ، والباقون يتابعون مسيرتهم صوب كوكب الاغماء . . على باب القاعة لافتة : غرفة الدراويش . . .

في القاعة الثالثة شاهدت رجالاً ونساء يجلسون في صفوف على طول الجدران لمقاعد

اديرت ظهورها الى القاعة ـ يا للعجب ـ وصار وجه كل جالس فيها موجهاً صوب الجدار ، وقد ادار ظهره لمائدة شاسعة نصبت خلف الحضور موازية للجدران ، وكومت عليها الأوراق والابحاث ، وكل يخاطب نفسه اويقرع جداره ، وبعضهم رسم على الجدار نافذة او جبلاً او كهفاً او قصراً او خيمة ، وكل يخاطب الجدار هامساً أو صارخاً ، ولا احد يلتفت صوب الآخر او يخاطبه ، وعلى باب القاعة لافتة : غرفة الدكاترة . . .

ووصلنا الى القاعة الرابعة ، وغرفة المهرجانات . . . حين دخلنا اليها ، كانت تموج ببضعة آلاف من العرب الذين يهدرون ويزفرون الغربة من صدورهم . . . وغمرني اطمئنان : لن يلحظني احد في صحبة صقر المخزية رغم اهتمام « النوادمي » بي . لقد ظنني بالتأكيد شخصاً آخر . لن يعرفني احد . . في الغربة ، لا احد يعرف الآخر ولا يذكره حتى ولو كان صديقه ، شرب في فناجين قهوته وعرض كتبه في واجهة مكتبته . . اجل في الغربة لا احد يعرف الا لقمته . . .

قدمني صقر الى بعض المتملقين هناك ـ الذين يحيطون به اينما ذهبنا مرحبين ـ على انني صديق صحافي . اجلسونا في الصفوف الأولى . حضر ارشيد شخصياً للترحاب بصقر واسفت لأنني كنت اعرض كتبه الى جانب مؤلفات امير في واجهة مكتبتي . ثم قلت لنفسي : ربما كان المسكين لا يعرف حقيقته ويظنه شاباً متحمساً ، وامكانية نصير .

كلمات . كلمات . خطب . اشعار مغناة . عشق خطابي وتفريغ لغوي . . احمال من البلاغة والبيان مشحونة خصيصاً لعرب الغربة . . فإلى النسيان يا اخوان . تصفيق . هياج . طرب كما في حفلات ام كلثوم من زمان . تفريغ للشحنات العاطفية الوطنية . صفقوا كفارة عن المشاركة في القتال فالصلح سيد الاحكام ولكن مع العدو قبل الصديق ! ابرياء وانذال . جماهير طيبة وساذجة ، وسحرة وحواة امثال ارشيد يغنون (المعاناة) ويرقّصونها للجماهير كأفيال السيرك .

ساعات محمومة ، تخللتها رسائل من بعض القادة السياسيين وبينهم اكثر من مسؤول عن غزو لبنان ممن كانت الهوة بين اهدافه المعلنة وسلوكه واعوانه احد اسباب الغربة التي نشأت مؤخراً بين الجماهير وبعض (المقاتلين) القتلة . . .

وارشيد ذكي ومبدع وهو بالتالي يعي دوره المسخر له في اللعبة ويرضى به . لماذا لا يخجل كما خجل ابي امام طفولتي عام ١٩٤٨ وخجلنا معاً عام ١٩٦٧ وانا الآن خجل امام اولادي في هذا الصيف المخزي لعام ١٩٨٢ ؟ . . تواريخ . . . تواريخ . . . تنهمر على

رأسي الكلمات ممزوجة باوراق روزنامة سوداء كالنعوات . . ويتابع ارشيد قراءة اشعاره وشاربه الكث الضخم يرتجف حبوراً بعدما انهالت الصرخات بطلب المزيد لتفريغ (الشحنة) حتى آخرها ، يعود بعدها كل الى وكره في الغربة ملتصقاً بأحزانه او امرأته او ذله او وحشته ، وليتدفق الشعر الآن من فم ارشيد مع التصفيق ، وليذهب آلاف الجرحى والمشردين الى بيوت الشعر الموزونة المقفاة (او المنثورة) للاقامة على شاطىء البحر الكامل او البسيط . . هذا يوسد رأسه للرجز ، وهذا يفترش الطباق ويلتحف بالجناس ويطعم اولاده السجع ، عاش الشعر والغزو الشعري المضاد . . تخدروا يا اولاد وعودوا الى ثقوبكم في الغربة . . .

احسست انني اختنق . . .

انزلق تاريخي امام عيني . . حياة تافهة نذرتها للصدق والحق . . . حياة غدر بها بعض الذين ادعوا النطق باسمها ، وركبوا على اكتافها . . .

شعرت فجأة بارهاق في الكتفين . . . وعيت فجأة ان ارشيد وامثاله يقطنون فوق كتفي وسواي ، ونحن نركض بهم لاحقين بلقمتنا وهم مسترخون ، بعضهم يكتب شعراً ويعاني ، بينما انا اعاني سوط جلادي واقبيته وكهوفه ، وهم لا يقولون شيئاً عن كل ما يعرفونه ، لكنهم يكتبون (البعض) الذي لا يغضب مولاهم الجالس فوق قمة رأسي . . . تذكرت ابنتي وداد الممزقة ، وقبل ان تتذكر دموعي دربها الى السواقي الجافة انتهى الحفل ، يحيط بنا (النجوم) ، وارشيد يخصني بنص قصيدته ما دمت صديقاً مرافقاً لصقر ! كثيرون يحذون حذوه . يعطونني قصائد خطوها في الغربة ، تتضمن حنيناً للوطن منظوماً مقفى او شجباً للغزو (طبخوه) بسرعة، او كليشيهات كتبت بحذق كي يصرخ المستمعون الآلاف اربع ساعات واكثر ويهتفون باسم فلسطين ولبنان وغير ذلك . . . ادوا قسطهم للعلى فإلى البارات . . قذفوني بنصوص معظمها متشابه ، وكلماتها فقدت مغزاها ودلالاتها ، وغداً تصفق الصحف الموالية . . ادوا قسطهم للمجد والشهرة والويل لي وللفقراء امثالي الذين لا يعرفون ما يدور في الكواليس . .

فبعد الندوة جاءت مرحلة الكواليس . . . تخلصوا من كابوسهم الوظيفي ، ومن آثار (الجريمة) فحملوني اشعارهم واوراقهم واحاطوا بصقر ، وخرجنا الى السيارات فالحانات كلها التي تمتد بين المنتدى والفندق كأنها محطات ارغامية ، و « شمة » لهذا ، ابرة مورفين لذاك ، الأخ لا يدخن الا الحشيشة ، والآخر يفضل الكحول . . والكل لا يرفض النساء ،

والبعض (يفضلهم) مسترجلات . . . وجناحنا في فندق «النوفابورك» يتسع لذلك كله . . . فقد حجزنا الطابق بأكمله لصقر وحاشيته وضيوفه من العباقرة النضاليين . .

وصقر تنهد بارتياح حين حط رحاله في غرفة (الوندر لاند سويت) ـ اي جناح ارض العجائب ـ المخملي الجدران والسقف والموكيت وكلها ارجواني امبراطوري، وتمدد على فراشه . . والشاعر ارشيد مارس (عفويته) الفنية ، وخلع بعض ثيابه وغطس في البانيو الملاصق للفراش الذي يهبط اليه المرء على سلم له ثلاث درجات ، ليستحم محاطاً بالثراء والابهة والمعجبين والنساء . غادرت (الوندر لاند سويت) الى غرفتي وانا احمل اكوام القصائد والخطب بين يدي . . . وقفت على الشرفة اتنفس الهواء النقي ، وشعرت برعدة برد قارسة تسري حتى قاع عظامي رغم حرارة الطقس و (الكانيكول) الذي ما زال يجتاح القارة . . . صرت ارتجف برداً ، عارياً ووحيداً في خلاء التاريخ . .

جلست على ارض الشرفة ! اشعلت القصائد والخطب بعود من كبريت بعدما كومتها على الأرض وصرت اتدفأ بنارها . . .

طالت جلستي ورأسي متحجر ، وافكاري ميتة مشتتاً ولا وعاء يحتويني . . عدت طفلاً الى حضن امي وهبت رائحتها المألوفة العتيقة ، وبكيت طويلاً بصمت وبلا دموع .

حين عدت الى غرفتي ، شاهدت الضوء الأحمر للهاتف يومض . رفعت السماعة ، فقالت العاملة ان (الوندر لاند سويت) طلبني ويريد ان اتصل به فور عودتي .

لم افعل . اريد العودة الى الزمان السابق لمعرفتي بهم . . . ليتني لم ارهم ولم اعرفهم ولم ار الوجه الآخر لكوابيس وطني ، في الغربة .

●●●

(المدينة السادسة)

تكريماً لصقر ، رافقنا ارشيد الى المدينة السادسة ، عاصمة اوروبية طالما حلمت بزيارة متاحفها ومكتباتها .

زود صقر نفسه بشمة ، شاركه اياها ارشيد ، وللمرة الاولى لم يحاول اقساري على

غريب هذا السيرك ، وحزين بعض الشيء . لم ار له مثيلاً في قارات اخرى . . .

ازيح نظراتي الى ركن آخر من السيرك ارى اثنين وعشرين رجلاً ، سجناء في قفص ينام في ركنه ضبع هائل الضخامة والبشاعة ، وهم يتشاجرون فيما بينهم على زعامة القفص ، وكلما استيقظ الضبع بين عقد وآخر من الزمان ينقض عليهم كي يلتهم احدهم ، ثم يعود الى ما يتوهمونه نوماً ، وهو يهضم ضحيته لتزداد قوته حين يلتهم الضحية الآتية او بعض جسدها . . وهم يتابعون الشجار فيما بينهم على زعامة القفص ، وحين يستنكف احدهم عن الشجار ويحاول لفت نظرهم الى الضبع ، يتفقون ضده ويسخرون منه ، وباستفزازهم له واهاناتهم ينسونه الضبع حين يعاديهم في ردة فعل عفوية ، وكلما صرخ بهم : الضبع . . . عاودوا استدراجه الى الدفاع عن نفسه . . . او اتفقوا مع ضبع آخر من خارج القفص ، وحشروه بين القضبان في زاوية بحيث تطاله مخالب ذلك الضبع الآخر ، وتجرحه ، ويسيل دمه مهدوراً في القفص نبعاً من الدم ، بينما يتابعون شجارهم على زعامة القفص وسط مستنقع الدم . ثمة رجل منهم كاد ينجز الضبع التهامه وآخر ينزف ، وثالث محشور في زاوية القفص وضبع آخر يجرحه عبر القضبان .

***

لم ار سيركاً كهذا من قبل . تَلَفَّتّ حولي فوجدت صقر متابعاً شخيره ، وارشيد طرباً لاشعاره ، والحاشية تتابع حياتها اليومية وتتثاءب وتلقي بين الحين والآخر نظرات ضجرة على برنامج السيرك. تأملت بقية المتفرجين،فوجدت معظمهم نائماً او مشغولاً بأموره الخاصة : هذا يحلق ذقنه وهمه ايجاد مكان يدق فيه مسماره بحيث يرى وجهه في المراة ، واذا تصادف ودق المسمار في كرسي جاره فإن الشجار ينشب ويقتتلون دون ان يتدخل رجال الشرطة الذين يحيطون بالناس كأدلاء سياحيين ولا يتدخلون لمنع الاعتداء او الشخير . . .

هذا انجز حلاقة ذقنه ، وآخر تنجب زوجته طفلاً وثالث يحمل امه المريضة على ظهره الى ساحر القرية ورابع يغني وخامس يحاضر ضد حبوب منع الحمل وسادس يبيع الأدوات الكهربائية المنزلية . . . وعالم من الفوضى اليومية والدسائس الصغيرة والشجارات والأكل والنوم والافراح المتواضعة والاحزان الصغيرة والاحلام الهشة . .

يا له من سيرك . . . المتفرج فيه يثير الفضول اكثر من اللاعب . . . ولاحظت ان رقعة السيرك نفسها تتحرك ببطء وتدور حول نفسها ، بحيث يتسنى للمشاهد رؤية كل شيء

متمتعاً (بالتنبلة) ، وغير مضطر الى ازاحة رأسه ولو في التفاتـة قد تفسـد نومـه . . . من الواضح ان النوم هو الوضع المثالي للمتفرج . . .

امامي الآن مجموعة كبيرة من اللاعبين في قفص سقفه من الحديد الصلد . . . السقف ينخفض ببطء وتدريجياً داخل القفص . اللاعبون ممدودون على ارض القفص يغطون في نوم عميق .

ووعيت في ومضة عين : اذا استمر السقف في الانخفاض بالسرعة ذاتها ، البـطيئة ولكن المستمرة ، التي قد لا تلحظها العين المجردة للوهلة الاولى لكن اي قياس علمي بسيط يؤكدها ، فسيطحن سقف القفص كل من فيه . . .

ارى بعض اللاعبين قد استيقظ ، وعبثاً يوقظ الباقين وينبههم الى هبوط سقف القفص المستمر . . . ينصتون وهم يتابعون التثاؤب والشخير ، ويتحركون فقط للنوم على الجانب الآخر لجسدهم ، واذا اصر احدهم على إيقاظ الباقين سخروا من تشاؤمه وطلبوا منه العودة الى النوم . . .

ولا ادري لماذا صرخت بشدة محذراً ، وضممت صوتي الى صوت احدهم . . . منذ زمن ما كنت قد كففت عن تنفيذ وصية والدي القروي التي دفعت ثمنها غالياً (لا تقل غير الحق يا ابني . قل الصدق دائماً مهما كان وسيكون) . ولم يسمعني احد في القفص لكن احد رجال الشرطة جاء يهددني هامساً : اصول السيرك تمنع اقلاق الراحة . اذا سمعت صوتك ثانية طردتك من السيرك الى الشارع . . . ولن يكون في مقدورك العودة ثانية . . .

ووعيت ان لرجال الشرطة مهمتهم وانا الذي توهمتهم في البداية لا يفعلون شيئاً . . . يبدو ان الجريمة الوحيدة هنا ليست القتل او عرقلة النظام بل عرقلة نوم النيام وقول الحق بصوت عال . . . يا له من سيرك عجيب غريب لم ار قط ما هو اطرف منه . . . رغم كل شيء ، تسللت بعد قليل نحو رجال القفص ، وقبل ان يلحظني رجل الشرطة همست في أذن احدهم بعدما ايقظتـه : السقف الحديـدي يكاد يسحقكم يـا سيدي . هـلا استيقظتم وحاولتم خلع احد القضبان ومغادرته . . . اذا تعاونتم جميعاً ، نجحتم في تحطيم القضبان بيسر . . . ابتسم في وجهي ساخراً لسذاجتي وقال : اطمئن يـا ابني . . . لن يصيبنا الا المكتوب . . . وهز معظم الباقين رؤوسهم وعادوا الى نومهم السعيد . .

وجرني رجل الشرطة من رقبتي واعادني الى موضعي وقال : التحدث مع اللاعبين

ذلك . . . شربت الشاي بصمت وقلت لنفسي : ان قلوب الناس جميعاً لا يمكن ان تخلو من الرحمة .

الشاي مر. فمي مر. مصرع اولاد عمي مـر ، الشهيد منهما والقتيل . ماذا افعل هنا . الشاي يهبط في معدتي ثقيلاً ، ثم تتوالى انفجارات غامضة داخل دورتي الدموية ، وينبت بركان داخل رأسي ، وقلبي يضرب جدران صدري بشدة محاولاً الهرب . . وارشيد وصقر ينفجران ضاحكين : هل اعجبك طعم الكوكايين في الشاي ؟ . . .

لا أدري كيف ظللت صامتاً . تـابع صقـر : دسسناه في شـرابك ، ولعلك تفضله هكذا ! . . هل اعجبك ؟ قال ارشيد : سيعجبك السيرك العربي في هذه المدينة . . الناس تزدحم كل يوم لمشاهدته ، يجب الا يفوتك . . .

دخلنا في موكب كبير الى « السيرك العربي » . لم اكن اعرف ان لدينا مهارات في هذا الحقل ايضاً . لقد شاهدت مرة السيرك الاميركي في بيروت والسيرك الروسي ايضاً في مدينة ما ، لكنني لم اكن اعرف ان العرب اسسوا السيرك الخاص بهم ايضاً . . رأسي بالون حار الأنواء ، يكاد يطير عني ، ولو وجدت حبلاً لربطته الى عنقي . اللعنة عليهما ، لقد دسا بالتأكيد كمية كبيرة من المخدر في الشاي ، لكنهما لن يتورطا بقتلي . . وامامي ساعات من العذاب ريثما يزول عني مفعوله ، وايام اوجاع ريثما تغادر جسدي امكانية الادمان . . . الادمان . . . ادمان ماذا ؟ لم اعد قادراً على التركيز . افرح لأن احدهم يقدم لي مقعداً ، والاضواء تطفأ والعرض يبدأ في رقعة شاسعة من الأرض كأنها تغطي بعض قارتين من الماء الى الماء . . . يا له من عرض مبتكر ، ففي كل ركن من السيرك الكبير يدور مشهد مختلف ، وانت تختار ما تحب ان تراه . . تختلط الصور داخل رأسي ، ويتراكم بعضها فوق بعض ، واحاول التركيز بصعوبة على المشـاهد . . . عبثـاً . . . اروح في اغماءة ثم اصحـو . أغرق وأطفو . . . صقر يشخر نائماً وقد اسند رأسه الى كتف ارشيد ، وارشيد يكتب في الظلام احدى قصائده . . . وهو يمليها على نفسه منتشياً بسماع صوته . عيناه مغمضتان لا يرى شيئاً من السيرك . لماذا اصطحبنا الى هنا ؟ ليراه الناس هنا وليقال انه يقوم بواجبه الوطني كشاعر وطني ؟ . . . ربما . هذا ليس شأني . . . ما دمت هنا ، فلاحاول التركيز على ما يدور امامي . . .

ارى عدداً من الرجال يركبون دراجات هوائية (بسكليت) ، بعدما ثبتوها الى الأرض ومزقوا اطاراتها ، يدورون باقدامهم فوقهـا بنشاط او كسـل ، لكن احداً لا يتحـرك من

موضعه بعدما ثبت دراجته الى الأرض بنفسه والتصق بها . . . اشعر بأن الدهور تتعاقب عليهم وتمر على المشهد بسرعة ، وكلما شاخ احدهم وسقط حل ابناؤه واحفاده محله ، واذا حاول احد الشبان الانطلاق بدراجته بعيداً ، منعه من ذلك رجال يحملون السياط وحاولوا ان يقنعوه بفضائل تثبيتها الى الأرض واذا رفض ارغموه على ان يحذو حذو آبائه واجداده ، لا يبدل موقعه ، لا يرفع بصره صوب الكواكب والنجوم ، يثقب اطاراته بنفسه ، يثبت الدراجة على الأرض ، ويركبها ، وبهمة فائقة يدير قدميه على (بدالاتها) ، حتى يشيخ ويموت ويتحول الى هيكل عظمي ويسقط على الارض رماداً فيحل الحفيد محله .

***

ارى في ركن آخر ماكينة ضخمة جداً يقوم على خدمتها الملايين من لاعبي السيرك ، اتبين فيها ساعة عربية قديمة ، لعلها الساعة التي اهداها هارون الرشيد ذات يوم الى شارلمان وادهش بها الغرب . لكن شيئاً عجيباً يحدث ، فالملايين القائمة على خدمتها تهرول بين الآلات دونما نظام وبعضهم يصطدم بالآخر ويتعثر به ويسقطون على الأرض بين قتيل ومغمى عليه ، ويتشاجرون ويضربون بعضهم بعضاً بمفصلات الماكينة ويحشر البعض رؤوس بني قومهم وسط الاسطوانات المسننة ، ومن تبقى من العاملين ، كل يتبع في عمله نمطاً مختلفاً وفقاً لأوامر رئيس ورشته . ومن الواضح ان رؤساء الورشات يكرهون بعضهم بعضاً ولا يخفون ذلك إذ يتبادلون الشتائم بواسطة فريق من الرجال كرس لتكون مهمته خاصة بذلك ، واحياناً يعلو الشجار بين موظفي التشاتم فيبدو كعواء الذئاب وكلما ارتفع صوت العواء تدفق الذهب من يد رئيس الورشة على ذئبه الخاص المبدع النباح . . . انتزعت نظراتي عن هذه الفوضى في ادارة الساعة حيث لا نظام ولا تخطيط ، وكل يلغي بعمله العشوائي ما سبق وحققه آخر ، وقد تداخلت المسننات وكادت تتكسر وتطلعت الى الساعة ففوجئت بأن عقاربها تمشي الى الوراء حيناً ، وتتوقف احياناً، واذا تحركت الى الامام مرة واحدة لثانية واحدة ، قام هياج عظيم وهرج ومرج وجاء مبعوثون من خارج السيرك العربي حاملين الخطط والنصائح وناثرين (الخبراء) لاصلاح عجلة العمل . . . وسرعان ما تتوقف عقارب الساعة او تتابع دورانها الى الوراء . . .

***

ممنوع . لو لم تكن في رفقة صقر باشا وارشيد العبقري لطردتك .

***

هذه مجموعة من النساء اللاعبات واطفالهن داخل قفص . . . مشغولات بفعالياتهن المألوفة : هذه استسلمت للماشطة ، واخرى تستحم وثالثة تطبخ ورابعة تغسل ثياب الاطفال . . وعجوز تعد الطعام واخرى تنشر الغسيل على حبال ربطت بين قضبان القفص (السيركي) المعد اصلاً لحفظ حيوانات السيرك ومنعها من الهرب . . . يتوسط القفص برميل كبير فيه ماء الحياة ، وفوق الرمل الذي يغطي الارض حولهن ثمة فتيل مشتعل ، ببطء ولكن باستمرار ، لاحقته بنظري فشاهدته مربوطاً بحزمة من الديناميت ستنفجر لا محالة متى وصلتها النار . . .

وتسللت اليهن وقلت لاقربهن الي : الا ترين حزمة المتفجرات ؟

قالت : وماذا تريدني ان افعل ؟ . . .

ـ اسكبي الماء على الديناميت . . .

ـ « ماء الحياة » الخاص بالنساء محرم استعماله لغير ما الفناه . . .

ـ حسناً . لن اناقش المحرمات فالوقت ضيق ، وقد يعاجلني رجل الشرطة بطردي . . لماذا لا تدسن الفتيل باقدامكن . . انها قوية كأقدام الرجال ، في حالة الخوف والحرص على الحياة على الأقل . . .

ـ الخوف ؟ من اي شيء ؟ . . .

ـ من الانفجار . . .

ـ اي انفجار ؟ . .

سألتني وهي ما تزال منكبة على تنظيف ارض القفص بهمة . .

ـ الفتيل المشتعل . . . الديناميت . .

ـ لم نألف التعامل مع هذه الأمور . . . اننا سيدات طيبات لا نتدخل فيما لا يعنينا . . . فلماذا تتدخل فيما لا يخصك من شؤون ؟

ـ كل ما يدور هنا يخصني . . . ويخصك بمقدار متساو ، الا تفهمين . . .

ـ عد الى مقاعد المتفرجين والا ناديت الشرطي !! . .

ـ انت تنادين الشرطي ، ليحمي انتحارك بالغباء . . . ومصرع اطفالك ؟ . . يا له من سيرك عجيب .

رحت في غيبوبة . . لعلها طالت اعواماً او قروناً او لحظات . . لا ادري . . لكن السيرك العربي في تلك العاصمة الأوروبية كان ما يزال يقدم استعراضه ، والزحام على اشده ، وكل شيء على حاله . . . واللاعبون يتابعون ادوارهم ، ومن يسقط يحل محله فريق جديد ، فالنساء يلدن في السيرك كالأرانب ، والعنصر البشري لا ينقص اي مدير من مدرائه . .

امامي الآن قفص شاسع يضم قرى جائعة من الفقراء . . . يصرخون جوعاً . . . وخلف القضبان جلس اثرياء في ثياب تاريخية كأنها عثمانية او هي اعتق من ذلك . . . وقد نصبت الموائد أمامهم وهم يلتهمون اكداس الطعام ولا يتوقفون لحظة عن الأكل . . . يحيط بهم قفص قضبانه من الفضة المكهربة ، وبابه من الذهب الصلد . . . يتابعون طقوس الشراهة دونما توقف ، وخواتمهم الثمينة المجوهرات ملوثة بالدهن والشحم والمرق ، ولا يلحظ احد جياع القفص الآخر ولا يسمعون صراخهم ، وفي الخارج رجال يرتدون ثياب الثوار ويشهرون الهراوات والفؤوس والمناجل وسكاكين (المقاصل) ، ويصرخون : الموت للخونة . . . الثورة لانقاذ الجماهير الكادحة والفقراء . . وفقراء القفص يهللون لهم . . . و (الثوار) القادمون لانقاذهم يهزون الباب الذهبي كالزلزال . . . وتعاطفت معهم وكدت اصرخ فرحاً حين تحطم الباب الذهبي ودخل الثوار . . . وهلل الفقراء من خلف جوعهم وامراضهم وحديد قفصهم وكدت اهلل معهم لكنني خفت ان يطردني الشرطي . . . وقتل الثوار تلك الجثث السمينة التي لم تكف عن الأكل قروناً حتى صار انتزاعها من داخل الكراسي صعباً ، وتم رميها على الأرض والتمثيل بجثثها والفقراء يصرخون : اطعمونا اولاً ثم الانتقام . . . لكن الثوار لم ينصتوا اليهم ، وبدوا وكأنهم نسوهم اذ انشغلوا بارتداء الثياب الحريرية الفاخرة لقتلاهم . . . وهكذا بعدما ارتدوا ثيابهم ، جلسوا في كراسيهم وكأنما مسهم سحر لحظة ملامسة «الكراسي» اذ صاروا يلتهمون الطعام بشراهة اكبر بسبب جوعهم الزمني الاطول عمراً ، وانشغلوا بالأكل والتزين بالمجوهرات عن كل شيء ، حتى بدوا وكأنهم نسوا الفقراء ، ولم تعد صرخاتهم تصل الى آذانهم كأنها من طبقة صوتية لم تعد تلتقطها موجاتهم الروحية ، وانتقلوا من «الثورة» الى «الثروة» ، وذهلت وانا ارقب الأشياء قد عادت تماماً كما كانت . . . كل ما في الامر ان ثرياً حل محله آخر كان فقيراً ، وبعضهم يعمل على ترميم الباب الذهبي العتيق الذي هدموه حين دخلوا . . . واللعبة مستمرة على حالها . . .

هذه (النمرة) الاخيرة عقدت لساني ، ولم ار في السيرك ما هو (اروع) منها . . . فقررت الخروج الى الكواليس ، لادخن لفافة واستريح قليلا قبل متابعة البرنامج . . . عند باب الخروج شاهدت رجلاً يسقط من عل عن خشبة قافزاً الى بركة ماء مرسومة على الأرض كالسراب الأزرق ، ويتمزق جسده حطاماً على رخامها الصلد ، ولا يبقى منه غير ثوب الاستحمام الأحمر المستورد . وشاهدت آخر وقد بدأ بتسلق السلم وهو في دربه الى الخشبة ليفعل ما فعل صاحبه ، فظننته لم يره وصرخت به : توقف . الا ترى ما حل بزميلك ؟ هذا سراب وليس ماء . . البركة مرسومة . قال لي غاضباً : لا تهدر وقتي يا خليل . . ما شأني به ؟ إنه ليس من ديني . . .

ــ القضية لا علاقة لها بالدين . . . الا ترى انكم تقفزون الى الموت ؟ سيحدث لك الشيء ذاته . . .

ــ لماذا ؟ ما علاقة ما حدث له بما سيحدث لي ؟

ــ القفزة واحدة والأرض واحدة ايها الأحمق . . .

ــ سامتلكها واصفي حسابي . . .

ــ وحده الموت سيمتلككم جميعاً . . الانتحار ليس انتصاراً . . . لماذا لا تتحاورون حول المشكلة ، وتتفاهمون ضد الذي نصب لكم هذا الشرك ـ السراب ؟ . .

ــ ابتعد عن دربنا ايها الاحمق . . الا ترى انك تعيق المسيرة ؟ . .

وفوجئت بصف طويل من الرجال يقتتل ويتزاحم للصعود على السلم والقفز . . .

ومضيت الى شأني . . إلى خارج السيرك ، اتمشى بين خيامه وادخن لفافتي وقد اخذ مني العجب كل مأخذ . . .

وسمعت همساً داخل خيمة صغيرة . اقتربت فشاهدت داخلها بعض الاطفال يلعبون بأدوات علمية خلسة . . قال احدهم : « سنهاجر الآن . لماذا لا تأتي معنا . . إذا لم نهرب من السيرك قتلونا ، سيتم ارغامنا على الدخول في تلك الالعاب المتخلفة . . او قتلنا حين نكبر » . . ووافقه رفاقه . . قال الصغير الذي يحاولون اقناعه : يجب ان نبقى ، ونعلم اهلنا معارفنا التي توصلنا اليها بينما هم يلهون بألاعيبهم . . يجب ان نساعدهم . .

ــ انهم يرفضون ذلك . انت تعرف ان كل طفل يرفض الاشتراك في الألعاب حين يكبر يقتل او ينبذ . . تعال نهاجر فأرض اللّه واسعة ، وثمة بلدان ترحب بمعارفنا واختراعاتنا . .

ــ اذهبوا بدوني . . قلبي لا يطاوعني على الحياة بعيداً عن السيرك رغم فظاعاته . هيا اذهبوا .

ودفن الصبي وجهه في احد الانابيب فيما تسلل الآخرون بصمت . . . وحين تيقن من ذهابهم انتحب . اقتربت منه وقلت : معذرة يا صديقي ، لكنني سمعت ما حدث . . .

ــ هل انت من رجال الشرطة ؟

ــ هل ابدو كذلك ؟

ــ لا اظن .

ــ احسنت . انهم يكرهونني على اية حال . . .

ــ يكرهون كل من لا يشارك في الألعاب او النوم . . .

ــ هل تلعبون لعبة ما ، رفاقك وانت ؟

ــ نحن علماء ، مخترعون . لا احد يثق بنا لأنهم يتوهموننا صغاراً . نبدو كذلك لأن عضلاتنا لا تنمو . . شيء ما في ماء هذا السيرك يحول الأعمال العقلية الى عاهة جسدية تحرم صاحبها القوة وبالتالي امكانية الاستمرار ، وتسهل ابادته او اعادته الى الطريق (القويمة) .

ــ تعني انك لست طفلاً ، لكنك تبدو كذلك ؟

ــ تقريباً . . هذا امر يصعب شرحه الآن . .

ــ ما هو اختراعك ؟

ــ بسيط جداً . اكتشفت سائلاً اذا شربه الانسان ، حدث تبدل في خلاياه بحيث يخترق حاجز الزمن . . . ما يدور بالضبط هو ان (الكروموزومات) يعاد تشكيلها في تقمصات متلاحقة بأسرع من الضوء ، وهكذا تتحرك داخل الزمن بحرية . . هل تفهمني . . .

ــ ليس بالضبط . . .

ــ اي انتقال اسرع من الضوء يجعلك تخترق حاجز الزمن وتتنقل بين العصور ، وإذا استطعت التحكم في هذا التنقل تستطيع ان تسافر في الزمن الى اي عصر تختاره . . . وهذا ما نجحت به . . والصيغة ابسط مما تتصور . . دعني اشرح لك . .

ــ لن افهم شيئاً . .

ــ ربما تصير اقدر على الفهم لو جربت . . هل تحب ان تجرب ؟ . .

قلت له مشفقاً وهو يناولني كأساً مرقمة المحتويات بخطوط عرضانية فيها محلول له لون

شفاف مضيء كأفق فجري : سأجرب يا صغيري . .

ـ حسناً . . . الى اي عصر تريد الذهاب؟

ـ اريد ان اكون اميراً عربياً في اسبانيا ايام عز العرب وعظمتهم وفتوحاتهم . . . اي قبل افتتاح هذا السيرك . .

ـ حسناً . . . تجرع من المحلول حتى هـذه الاشارة . . . لا تـزد نقطة واحـدة ولا تنقصها . . ستبقى في ذلك العصر ستين ثانية . دقيقة واحدة لا تزيد ولا تنقص ، نعاود حوارنا بعدها ثانية . . .

وفعلت كما قال لي الطفل . . . وكم كانت دهشتي حين وجدتني ارتـدي ثياب امـير عـربي ، وامشي في دروب كلها عمـران وخير وبـركة والنـاس يفـورون حـولي في ايقـاع سعيد . . . ولم تدهشني ثيابي او العصر الذي تسللت اليه او مشهد القصور والجوامع بقدر ما ادهشني احساسي الداخلي الذي لم اذقه مرة في حياتي : احساسي بأن الأرض صلبة تحت قدمي . بانني لست خائفاً ولا ذليلاً ، ولا محاصراً ولا مقموعاً . . انني حر ، حر ، حر . . . هذا الشعور لم اذقه من قبل . . عـلى ضوئـه بدت زرقـة السماء شيئـاً آخر . . الـوردة ، الشمس ، ضحكات الاطفال ، طيران العصافير ، خضرة الاشجار ، لكل شيء مـذاقه الآخر . . . مذاق لم اعرفه قط . . . من اعماقي يتدفق نهر من الطمأنينة والصلابة والعزم والثقة بالنفس . . . آه ما اعظم ان يتحسس المرء انسانيته وحريته بعيداً عن عقد الذعر او الشعور بالذنب . . . بعيداً عن دور القاتل او الضحية . . . كم انا سعيد . . . سيغمى علي انتعاشاً وفرحاً . . .

. . . وجدت نفسي من جديد في الخيمة داخل كواليس السيرك ، والطفل مشنوقـاً بسوط احد الحراس ، وقد زجرني صارخاً : كيف دخلت الى هنا . . اخرج وعد الى مقعدك بين المتفرجين . . . (إذن لم يكن الطفل الرجل كاذباً ؟) . . .

حين عدت ، وجدت العرض قد انتهى ، وصقر يتأهب للرحيل . . وأرشيد يصيح بسعادة : لقد انجزت كتابة قصيدة خارقة . . سيسكر الشعب العربي بها . . . هل تريد الاستئثار بها يا خليل ونشرها في مجلتك ؟ . . .

قال احد الحاشية : يجب ان نسارع في الخروج قبل بداية العرض التالي ، فالعروض في الحقيقة لا تتوقف تماماً ، واقلاق راحة السيرك ليست في صالحنا . . .

●●●

(المدينة السابعة)

بعد لحظة النشوة التي عشتها كأمير عربي حر في اسبانيا لم اعد اطيق شيئاً يذلني اياً كانت الاسباب والتبريرات . . . لم اعد اطيق ذلاً لاسباب تكتيكية او استراتيجية أو عائلية أو مرحلية إلى آخر ما اخترعته لغة الذل المتعفنة التي لم نعد نلحظ بشاعتها لكثرة ما تعايشنا معها ، تحت شعار الصبر مرة ، والتعقل مرات . . .

لقد ذقت طعم الحرية لثوان ، فهان في فمي طعم الموت اذا حرمت منها . . .

لقد تبدل كل شيء منذ وقفت على قمة العالم حراً وسيداً وقوياً وخالياً من مشاعر الذنب او العار او الجبن . . .

اعيدوا الي لحظة الحرية تلك ، وخذوا ما تبقى من حياتي الفانية . . .

لم احاول شرح شيء لصقر ، او حتى لأرشيد الذي ودعنا غير مأسوف عليه . . . انهما لن يصدقا ما حدث لي في السيرك العربي ، بل انهما انكرا اننا ذهبنا اصلاً الى اي سيرك . . . وادعيا انني رحت في غيبوبة اثر المخدر الذي دساه لي ، وكنت اهلوس وخافا ان اموت كي لا اسبب لهما المتاعب . . . وها نحن في لندن . . . ومن المطار ، الى دكان المجوهرات حيث اشترى صقر عقدين ثمينين من الماس والفيروز البديع الزرقة وسألني : الا يذكرك الفيروز بلون عيني زوجتك الجميلة كوكو ؟

ولم اجب . . .

نحن في لندن . . . والساعات تتوالى ، ولم نطأ بأقدامنا المتحف البريطاني . . . ولا (التيت غاليري) . . . ولا(الناشينال غاليري) ولا أي مكان من تلك التي طالما حلمت بملامستها .

مع صقر لا ألامس الا بشاعاتهم التي تروق له ، فيما يتحاشى ملامسة حضارتهم .

لا شيء غير جناحنا في الفندق الفاخر المطل على (الهايدبارك) ، وقصره الريفي في ضاحية ونتوورث، وحاشيته المهذار ورجال اعماله ، وطاولة الميسر في «كروك فورد» بحي «الماي فير» . . .

ليس معقولاً أن لا أرى من معالم لندن غير طاولة ميسر . . . كنت قد سمعت أن ملهى (البلاي بوي) قد اغلق ابوابه ، واذا بملاهي «البلاي بويز» - بالجملة - تملأ الجزء السياحي من المدينة ومعظمها مكرس لاسعاد اثريائنا . . . صرت اتلهف لقدوم «ليلة المليار» لأن ذلك

يعني عودتنا، واستعادة جواز سفري وحريتي من أسر صقر ومخدره . . .

صقر يربح الليلة . . . على طاولة الميسر . . صحيح انه خسر حين حاول ارغامي على شم (الثلج) أمام عينيه ، فعاودتني ذكرى ذلك الاحساس بفوران محموم متوهج والذل الذي يعقب ذلك ، لكنه ربح على طاولة الميسر ربح وربح وربح . . . اكداس من القطع الملونة المختلفة الاحجام طلب مني تبديلها له ، فعدت اليه وأنا أحمل ثروة من النقود تكفي اقساطاً لمدارس أولادي واولاد الحي حتى تخرجهم الجامعي . . غادرنا الكازينو والسائق يحمل له حقيبة ثقيلة كلها اوراق نقدية ينوء بها . . . لم ار شيئاً كهذا من قبل . بدا لا مبالياً بالمال ، وودع حاشيته كمن يصرف خدماً ، وقال لي اننا سنذهب الى زيارة يتوج بها ارباح الليلة ، وانتصاراتها .

بدت الزيارة في البداية عملاً لطيفاً . . زيارة عائلية لاسرة لبنانية . ولكن صقر لا يمكن ان يأتي (فضيلة) كهذه . جلست اترقب . الزوج كهل ، وزوجته لا تخلو من جمال ، وقلت لنفسي : لعل صقر مثل أي شاب صغير تجتذبه احياناً النساء الناضجات . . . ام تراه يفكر بصفقة عمل مع اللبناني المقيم في لندن ؟ البيت فخم والاثاث فاخر ، ولكن ما الذي جذب صقر الى هنا ، ولماذا يقدم احد العقدين الثمينين هدية للأم التي تورد وجهها فرحاً وهو يحيط به عنقها ؟ دخلت صبية ـ طفلة ، باهرة الحسن الشيطاني ، تلتهب في عينيها نار خضراء لا تضيء الا في عيون الصبايا لحظة مغادرة عتبة الطفولة ، وكانت كذلك بجسدها البكر المتفتح الواضح للعيان عبر الثياب (الرمزية) الشفافة التي علقتها الى كتفيها بخيطين رفيعين . . قلت لنفسي :

«لا يمكن . . . انها ما تزال طفلة . . لعلها لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها » . . . صافحتنا وقبلت امها بطفولة عذبة معلنة انها ذاهبة الى النوم . .

حين غادرت الغرفة ، تابع الكهل شكواه . احوال بيروت ، التي تزداد رداءة ، ولا سيولة ، وقد يضطر الى استئجار بيت آخر غير هذه الفيللا البديعة والباهظة الايجار . . وهو لا يملك ثمنها لشرائها بمحتوياتها ، والاستقرار فيها بدلاً من (البهدلة) وتشرد الكهولة . . بدت زوجته اكثر قوة منه وتماسكاً . . اما صقر، فقد سأله بهدوء : كم طلب المالك ثمناً لها بما فيها ؟

ـ نصف مليون جنيه استرليني . . مبلغ خرافي . . .

ـ ربما نستطيع تدبر الأمر ، فأنت صديق قديم لوالدي . .

ـ كيف ؟ لا استطيع استدانة المبلغ لأنني عاجز عن سداده اذا ظلت الاحوال في لبنان على حالها . . لم تعد املاكي هناك تساوي شيئاً هذه الايام . . .

ـ كنت افكر بابنتك . . . هل تسمح لي ؟

بدت الفرحة على وجه الكهل . من الواضح انه يطمح الى مصاهرة آل الغنمالي . الأم المحنكة بدت اقل تفاؤلاً .

قال الاب : بالتأكيد . . . يشرفني ان . . .

قاطعة صقر : لم اكن اتحدث عن الزواج . اني اتحدث عن شيء آخر . . . ليلة ما . . . الليلة مثلاً . .

وارتجف الأب ، بينما اخرج صقر دفتر شيكاته ، وحرر ورقة بنصف المليون استرليني ، قطعها من الدفتر ووضعها على الطاولة قائلاً بفحيح بارد : ما رأيك في ذهابك والسيدة الى السهرة ؟

صمت الرجل ، ونهضت الأم وتناولت الشيك ، قرأته بامعان ثم طوته ووضعته داخل حاملة نهدها ، ثم التفتت الى زوجها قائلة : هيا بنا . سنتأخر عن موعد السهرة . لا تنس مفتاح البيت ، فالخادمة في اجازة . . .

حين غادرا المكان ، نظر صقر صوب الطابق الأعلى وتناول« شمّة » وضحك تلك الضحكة الهستيرية الضائعة بين شهقة العبث والجذل والموت ، اما انا فقد غادرت البيت الى السيارة وجلست في المقعد الأمامي قرب السائق وظللنا صامتين . حين غادر صقر البيت بدوره بعد زمن طال أو قصر ، قال لي كمن يخاطب حوتاً أو دابة : سنعود الى هذا البيت مراراً يا خليل فيما يبدو . . . للعذارى سحر لا يخبو منذ الليلة الأولى ، والبكارة فكرة ، لا مجرد غشاء . . يزول الغشاء ، ويبقى تحدي الفكرة . . ولا بد من تكرار الزيارة . . .

لم اقل شيئاً . . .

. . . وفي طريق العودة الى الفندق مرت بنا السيارة فوق جسر واترلو الذي يعتلي نهر التايمز . طلب صقر من السائق التوقف . هبط من السيارة ترافقه حقيبة النقود ، ومضى نحو حافة النهر . ظننته سيقفز . وإذا به يخرج النقود من الحقيبة ، ينثرها في الرياح ويرمي بها الى النهر . . ثروة تكفي لمسح البؤس عن حياة مئات الفقراء ، وهو يتلذذ برميها في النهر . . نظرت اليه في الضوء الشاحب للشارع وقد انعقد لساني تماماً وتحولت اعصابي الى جديلة من التوتر المجنون . قال ساخراً وأنا اهبط من السيارة وهو يصرخ بصوت عال : الا تعرف ان

لعب الميسر حرام ؟ . . ها انا ارمي بارباحه الى النهر . . .

لا ادري ماذا دهاني . . وجدتني اقفز على صقر واحيط عنقه بيدي وقد تدفقت من عضلاتي انهار القهر والذل والحقد والغضب التي لم يعد احتواؤها ممكناً بعدما ذقت لحظة الحرية تلك . .

وصرت اضغط واضغط وقد جحظت عينا صقر فازددت شهية لايلامه حتى الموت كما يفعل بنا جميعاً . . . والسائق عبثاً يشدني عنه . . . ثم لم اعد اعي شيئاً . . .

في الفندق صحوت مقيداً ، والسائق الى جانبي يعتذر لأنه اضطر الى ضربي على رأسي بمفك البراغي . . كي لا اقتله . . وبدا مشفقاً علي ، متعاطفاً معي كأنني قمت بما قمت به بالنيابة عنه . . . اما صقر ، فقرر ان علينا ان نعود فوراً لنكون في جنيف «ليلة المليار» . . ولم يقل شيئاً حول (حادثة العنف) بيننا ، حين كدت اخنقه على شاطىء النهر لو لم يخلصه سائقه مني .

في الطائرة في طريق العودة ، شم كمية من (الثلج) أكبر من عادته ، وضحك ومرح وعابث حاشيته وتجاهلني تماماً . . .

وقررت وانا بين السماء والأرض : لن أعمل وهذا الرجل بعد اليوم ولن ارضى بطعم الذل في فمي ولو مت جوعاً . . . سيحولني الى قاتل ذليل ولا اريد ذلك . . . لن ، حتى ولو مت واولادي على جسر «المون بلان» .

وبدأت انشد : يا ظلام السجن خيم . . .

سألت المرأة التي جسدها جديلة اسلاك شائكة صقر : ما به ؟

ـ مجنون . .

ـ لماذا ؟

ـ لا ادري . . مجنون ككل الذين يتقاتلون في بيروت . . انهم مجرمون بالفطرة . . . لا همّ لهم غير الحرب والعدوان على جيرانهم .

ـ من يتقاتل في بيروت ؟ . .

ـ كلهم . . ثمة حرب . .

ـ توجد حرب في بيروت ؟ مع من ؟ .

ـ مع اسرائيل . . واهلها يفرون منها كالجرذان . . باخرة الشحن التي تتسع لخمسماية خروف صارت تنقل اليوم الفين من الهاربين . .

قالت المرأة : لم اسمع بذلك من قبل . . . كل ما اعرفه هو ان بيروت مدينة عصابات تحت كل الشعارات ، والعمل في ملاهيها لم يعد مأموناً . . لكنني لم اسمع بالحرب . وقالت جارتها : وانا ايضاً لم اسمع بذلك . . .

وقال كل افراد حاشية صقر ذوي الوجوه المتشابهة : ونحن ايضاً لم نسمع بوجود حرب في لبنان . .

وسأل أحدهم : وما شأننا بذلك ؟ هل لبنان بلد عربي ؟

وتابعت غنائي : يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما ، ليس بعد الليل إلا . .

***

ــ الو رغيد باشا . . . انا صقر باشا ، اكلمك من سيارتي . . . وقد غادرت مطار جنيف للتو . اني حريص جداً على حضور ليلة المليار بصفتي رجل اعمال .

ــ لماذا لا تحضر ما دمت قريباً هكذا ؟ كوكو هنا ، في انتظارك .

ــ كوكو ؟ أحمل لها هدية تليق بعينيها الزرقاوين . . .

ــ هل هتفت لتخبرني بذلك ؟

ــ بل لاخبرك بأنني انفقت الدفعة الأولى ، واريد دفعة اخرى منك ، خصوصاً وانني التقيت «بمفاتيح» جديدة لصفقة المطار . . هذه الصفقة سأنجزها بنفسي بدلاً عن الوالد . . .

ــ احضر الآن . . . ستلتقي بالوالد غداً ليلة ملياري الأول . . . ولن تشعر بالوقت ، سيمر كبرهة وجيزة بفضل كوكو . انها لا تخفي عني اعجابها بوسامتك . . ثم انها تحب الشبان الأصغر سناً منها . . .

ــ حسناً . . . ساحضر حالاً . . . لأجل عيني كوكو ! . . . بل سأمر باحدى الصديقات المشتاقات ثم آتي اليكما ولكنني اريد تحضيرك نفسياً منذ الآن . . . العمولة التي سأتقاضاها عن صفقة المطار ستكون ضعف التي يتقاضاها والدي عادة . . . الشيخ الغنمالي «جونيور» اسعاره مرتفعة وصفقاته مؤكدة الابرام . . .

ــ سنتحدث حول التفاصيل فيما بعد . . والآن ، ثق بي ، وسيكون كل شيء على ما يرام ، وكوكو في انتظارك . . .

وضحك صقر تلك الضحكة الضائعة بين شهقة العبث والجذل والموت والجنون ، ثم

اصدر امراً لسائقه بالاتجاه صوب بيت الصديقة فقصر رغيد ، وكان قصر الغنمالي على مرمى النظر ! انه ببساطة لا يفتقد والده ، ولا يفتقد احدا غير مبلغ هائل من المال يربحه من تسول رضى اسرة الغنمالي ، ريثما يرث اعمال والده . . . او بعضها . .

أما خليل فقد انصت الى المحاورة الهاتفية دون ان يـرف له جفن . لم يشعـر بأنهما يتحـدثان عن امـرأة تخصه هي زوجتـه . . . (**حينما أستحضر صـورة «كوكـو» الملونـة بالأصباغ ، الغارقة في الحرير والمخمل والجمال الوهاج الفاجر النـظرة ، اشعر انني لا اعرفها . . . وعبثاً استعيد في مخيلتي صورة تلك الطالبة العذبة زرقاء العينين التي كانت تتردد على مكتبتي بخفر عاشق . . . انها بالتأكيـد امرأة اخـرى . . . ماتت يـوم مصرع وداد**) . . . هرب بعينيـه الى نافذة السيارة . . . ازداد صدره ضيقاً . . والسحب الداكنة تغطي السماء برطوبة مظلمة . . وبعيداً . . ما وراء الافق . . خيل اليه انه يرى ما يشبه وميض البرق النائي القادم على رؤوس اصابعه . . . عارياً حتى من رعده . . مثل برقية صريحة مكتوبة بالصمت والضوء فوق ورق السماء المسود . .

●●●

(غداً ليلة المليار . . . غداً اتوج ملكاً من ملوك هذا الكوكب الذين يتحكمون بأقدار الرجال والشعوب . . غداً احقق حلمي ، وأبي المخلوق الوحيد الـذي احببت حقاً لن يكون هناك ليراني . . . ولا احد من افراد اسرتي الذين ضيعتهم واحداً بعد الآخر في غمرة صعودي . . وإذا عاد احدهم بحنانه سأدهش وارتبك . . بهذا المعنى تبدو بحرية قريبتي حقاً : متوحشة . بلا ذاكرة . شرسة وجريح . باهرة الجمال ، لم تقـع عين عليهـا الا وصعقت ، وطار صوابها بطريقة ما . . حتى الشيخ وطفان . . تكاد تضيعه . . فيها شيء شبيه بالذهب . . الشهية الى امتلاكها تفقدهم توازنهم كما كادت تفعل بي ، وتنسيهم كل ما عـداها . . فيهـا شيء من الـذهب ، سحـري ، ازلي ، مختلـف عن كـل مـا عـداه من المعادن . . . انها انثى كالأخريات لكنها مختلفة ، عصية ، صمتها جدار كالذي يسورون الذهب به . . لعلي في النهاية استحقها انا وحدي . . . الشيخ صخر لن يفهمها ، فهي في نظره مجرد انثى اخرى باهرة الحسن . . . ولكن ، اليست مجرد انثى اخرى باهرة الحسن في

نظري انا ايضاً ؟ لو كانت بشعة ، او مسنة ، هل كنت سأراها كالذهب ؟ . . . . الا يزيد مرضها الغامض وعزلتها الكئيبة في جاذبيتها ؟ . . . وهل سيكون علي قريباً ان اختار بينها وبين صفقة المطار ؟ ألا تبدو امرأة مستحيلة واقفة على خيط اللامبالاة الممدود بين الموت والحزن ؟ . . اليس امتلاك عوالم من الفجائع والثورات السرية كهذه مستحيلاً وبالتالي شهياً ؟

ولكن لماذا لا أرضى بالممكن ، اي بالمليار الثاني والمطار ، واترك لسواي نطح قلبها الصخري ؟ اللعنة عليها ، منذ وصلت ومشاعري تتأرجح بين اقصى الكراهية والرفض ومنتهى التوق والولع المجنون . . كأنني صرت اهيم بها كراهية ، انا ايضاً ، . . لقد ادخلت القلق الى حياتي . . والحيرة . . والكوابيس) . . .

أكل بيضته اليومية السحرية : كسرها فخرج منها طفل صغير يبكي ، فالتهمه بسرعة بعدما رش على عينيه الملح والبهار . ثم مضغ ببطء حبات الحمص التي كتب عليها ساحره وعلى قعر اناء طبخها طلاسم مضادة (لضربة العين) ، وارتدى قميصه المضاد للرصاص رغم «التباريد» المزروعة تحت جلده ، وتأهب لجولة في القصر والحديقة للإشراف على الاستعدادات لليلة المليار . نديم يطلبه الى رقمه الخاص في غرفة نومه . لا بد من ان القضية خطيرة . انه يحمل (بشارة) عن خراب بيت العدو . يقول بلهجة مستثارة : يبدو ان سحر الشيخ وطفان قادر حقاً على صنع العجائب . . لقد قتل احد ابناء الشيخ صخر عقاباً على لامبالاته بـ «صفقة المطار» وتخاذله . . .

قال رغيد منزعجاً ، كأنه فقد شريكه الأوحد الممكن : اي ابن ؟ من ؟ صقر ؟ لقد كلمني قبل قليل .

ــ لا . . . . صبي صغير . . .

ــ اين ؟

ــ في وطنه . . انه ابنه من ابنة عمه التي عادت باولادها الى الوطن ليتعلموا في المدرسة التي شيدناها . .

ــ ومتى مات ؟

ــ لا ادري بعد . . . للتو تلقيت النبأ بالتلكس من احد وكلائنا ثم انقطع الارسال . . . ساوافيك ببقية التفاصيل فور ورودها . .

ــ لا تقل لاحد انك اعلمتني بالأمر . . .

ـ لماذا توصيني بالكتمان ؟ أنت تعرف انني ألفته . . .
ـ ثمة اخطاء صغيرة . . . حدثت مؤخراً . . .
ـ إذا كنت تعني تدخل دنيا فيها لا يعنيها فثق انني ادبتها . . . قتلت كلبها وأوهمتها انها مجنونة ، ولدي مفاجآت اخرى لها . . . وقد بدأت تتخلخل من الداخل ، وسأحدثك عن التفاصيل فيها بعد . . ستری دنیا اليوم وقد عادت الى صوابها . .
ـ لم ارها اليوم بعد ، لكنني سأعرف لحظة تقع عيني عليها ، ان كان التأديب كافياً ام انها بحاجة الى جرعة اخرى ، وسأعلمك بالأمر لنتابع الضربات بسرعة . والمهم الآن ان تعلمني بالمزيد من التفاصيل عن مصرع ابن صخر . .
ـ لن يكون الا ما تشاء . . . بخصوص ابن صخر ، وكل شيء ودنيا . .
ـ ادبها . . ولا تقلق . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . .
أغلق سماعة الهاتف . خلع قميصه المضاد للرصاص وقرر البقاء . . . امتلأ قلبه بنشوة خارقة : إذن نجح سحر الشيخ وطفان . . . انه حقاً كما يشاع عنه ، يستحق كل رعاية واحترام . . . وهو الذي كاد يتخلى عنه اكراماً لخاطر بحرية ؟ . . . ذلك الشيخ كنز ، كنز من المعارف والقدرات . . ذلك المسكين الذي أهمله او كاد مؤخراً ، بعدما القت بحرية بسحرها غماً حول قلبه . . .
مضى اليه . قرع بابه . قرع مرات عديدة حتى اذن له الشيخ بالدخول . . . فوجىء به يجمع بعض حاجياته في حقيبة صغيرة . . واذهلته امارات المرض البادية على وجهه وملامح الكهولة التي داهمته في الاسابيع الاخيرة . .
ـ الى اين يا سيدي الشيخ . . هل انت مريض؟
ـ الى الفندق ، ريثما تنقضي ليلة الحفل .
ـ لماذا ؟
ـ لا أحب الجلبة ، ولا إرغب في مضايقة ضيوفك . .
ـ ولكن سيسعدهم حضورك . . معظمهم يتوق الى رؤيتك . .
ـ حسناً . . . سأقول لك الصدق . . . ما دامت بحرية في هذا القصر ، لن اطأه ثانية .

سكت رغيد . انه لا يحب ان يحدثه احد بهذه اللهجة ، حتى ولا ساحره المفضل . . . يوم وصلت بحرية ، لم يخطر بباله ان حلولها في الطابق نفسه سيضايق الساحر ، وكان قد

افرد له الجناح الايمن ، وحلت بحرية في الجناح الايسر . . . انها قلعة شاسعة تتسع للجميع ، ولكن حضور بحرية اقلق ساحره فيما يبدو اكثر مما ينبغي . . ام تراه على حق ؟

ــ انها مسكونة بالعفاريت والجان . . وانت لا تسمح لي بطردهم منها . . .

ــ قلت لك لا اريد متاعب ريثما تنتهي (الحفلة) . . شيء ما في هذه المرأة يدفع بالناس للدفاع عنها وطاعتها والحنان عليها ، والشفقة الظاهرية التي تبطن شهوة شرسة للامتلاك . . . لقد اوغرت صدر دنيا علي ، ونسيم ، وخليل ، وحتى نديم بدأ يخطىء منذ وصولها . . بل بمجرد احضارها . .

ــ ارأيت ؟ هذا يثبت ما أقوله لك . . . العفاريت التي تحتلها ذات سطوة وقوة . . . ترتدي الوجوه كلها ، فتبدو لاحدهم اماً وللآخر اختاً وللثالث حبيبة ، وتنطق باللغات كلها والاصوات كلها . . . تكلمك بلسان القلب والعقل والجسد ، وتقول لك كل ما يدمرك من كلام عذب او شرير . . . تنطق بالماضي ليقتلك الاسى او الندم وبالحاضر لتمتلكك عذابات الشهوات وبالمستقبل لتمتلىء ذعراً ووهناً . . ان التخلص منها مستحيل ، كالوطن . . فهي احياناً ترتدي قناع الوطن ايضاً . . . ألا ترى ما فعلته بطقس جنيف ؟ ألم تر السماء اليوم ؟

ــ اعدك بالتخلص منها . . بعد انقضاء الحفلة سنعيدها الى بيروت أو نزوجها وتمضي الى بيت آخر . . ثم ان المسكينة قد تموت في حادث سيارة او منتحرة . . . ما رأيك ؟

ــ لا راحة لي ما دامت حية ومسكونة بالعفاريت . . . لا سلام لي ما دامت متمردة . . لقد سخنت الرياح منذ وصولها وها هي السحب تتجمع اليوم في السماء سوداء كثيفة منذرة بشر خطير كما يقول «المندل» .

ــ سيكون لك ما تشاء بعد «ليلة المليار» . . . سأحضر كل ما طلبت . . . السياط ، اسياخ النار ، السلاسل . . .

ــ وسنعذب الشيطان الذي يسكنها حتى يغادر جثتها . . .

ــ كما تشاء . . .

ــ سنطرد نسيم كي لا يتدخل فيما لا يفهمه . .

ــ كما تشاء . . .

ــ سنعذب الشيطان عذاباً اليماً كي يغادرها . . والا كانت شؤماً عليك . .

ــ كما تشاء . . ثق بي وسيكون كل شي على ما يرام . جئت على اية حال لاشكرك .

لقد نجحنا في خراب بيت العدو . . ذلك سيجعله بائساً ، يلجأ الى تخدير النسيان الذي الفه عند النساء ، وسيكون بحاجة الى ملايين جديدة . . لقد سقط في قبضتنا . .

لم يبد ان الساحر وطفان كان ينصت لما يقوله رغيد ، فقد تابع كأن به مساً : لن اعود الا ساعة تربط في جناحها بالسلاسل الى الجدار . . . لن اترك شياطينها مطلقة السراح تسمم سيالاتي الروحية وتزرع فيها الذباب الأبيض والرياح المكهربة . . . وتشعل النيران في وجهي ، وتدس باعوانها داخل مرآتي ليتولوا تعذيبي داخل مملكتي . .

كان رغيد قد قرر تحاشي اي شجار ، أو أية فضيحة قبل «ليلة المليار» . . . ماذا يقول ضيوفه عن حسناء مربوطة بالسلاسل الى الجدار كما في العصور الوسطى ؟ وماذا يقول البوليس ؟ . . .

بعد انقضاء (الحفلة) ، سيبدل مكان إقامتها ، يزوجها للشيخ صخر او يحتفظ بها اسيرة محظية . . اما الآن فلا مجال لاثارة الفضائح . . فليذهب الساحر الى فندقه ، فهو ايضاً سيشعر بالوحشة هناك . . انه دوماً يعود اليه ، وثمة رابطة خاصة تشدهما ، كأنه لا حياة لاحدهما دونما رعاية الآخر . .

***

حين غادر الساحر البيت شعر رغيد بشيء من الذعر . . . لا يدري لماذا تشاءم ، كأنما فارقته تعويذته . . . تأمل السحب السود الداكنة والرطوبة الحارة التي تنفثها كأنفاس شيطانية ، وخيل اليه انه لمح ومضة برق بعيدة تلتمع كسيف خرافي . . بحرية شر ؟ ربما . . . ها هي تمزق عالمه ، ساحره يهجره ، دنيا تتحداه ، نسيم يتمرد ، مناخ جنيف يتبدل . . اصوات مبهمة تأتي من سماعات الهاتف وتحيل اجساد النساء امام عينيه الى رماد سيجار منته . . ذلك الصوت الذي جاءه عبر السماعة سائلاً عن كفى لم يكن أنسياً ! . . . لعلها شياطينها تستولي على الماكينات ، وتفسد ايضاً آلة الحراسة عند المدخل وكشف الاسلحة ، ولعلها سيالاتها الروحية هي التي افسدت جهاز الانذار في بركته المذهبة اول البارحة فانطلقت صفاراتها ليلاً لخطأ طارىء كما ادعى المصلح .

***

استيقظت دنيا كعادتها على ضربة من فأس الصداع ، وقد كاد النهار ينتصف . . كانت

قد اتخذت في الليلة الماضية قراراً بإصلاح علاقتها وابنها باهر . . دوماً تتخذ سلسلة من القرارات بينما هي تتجرع زجاجة ماء النار ، وفي النهار تضيع بين صداعها وهرولتها . . وخيباتها . . كاد الصداع يغلبها ، لكنها تماسكت ومضت نحو غرفة باهر ، قبل ان تغسل وجهها او تسرح شعرها او ترفع الستائر عن النافذة . تذكرت اغنية قديمة كانت تحبها ايام صباها « الآن او ابداً » ، سأكلمه واباسطه الآن والا فلن اقدر على ذلك ابداً في أي يوم آخر . . . الهوة تتسع بيننا ، ووالده اكثر انشغالاً مني ولا يكاد يلحظه . ولعله نسي اننا انجبنا ولدين . .

فتحت باب الغرفة . كان جالساً على مقعده وقد رفع قدميه كعادته فوق منضدة الدراسة ، وظهره موجه صوبها . لم يلتفت كأنه لم يسمعها . وقفت على العتبة، وقالت له كل ما كانت تشتهي ان تقوله عن اسفها لإهماله، وندمها ، وانشغالها بجمع المال لأجله واخته واحست الكلمات رثة لا تبرر ما كان ، بل وعت مدى جرمها وهي تحاول الاعتذار منه ، أما هو فلم يلتفت نحوها او ينطق بعبارة صفح ، بل ظل في جلسته تلك وصار يهتز فوق مقعده بلامبالاة ايقاعية ، وصعد الدم الى رأسها المفتت بالصداع ، وصرخت به : يا قليل التهذيب . . حين اكلمك التفت صوبي على الاقل . .

وفقط حين التفت ونظر اليها وفي وجهه امارات الدهشة لاحظت السماعتين اللتين تسدان تماماً مدخل اذنيه ، الخيطين الدقيقين المتدليين على صدره ، المتصلين بجهاز الراديو الترانزستور «الووكمان» الذي يجعل صاحبه يلوذ بموسيقاه ولا يسمع اصوات العالم الخارجي ! . . .

إذن لم يسمع حرفاً واحداً مما نزفته امام دنياه الموصدة ، التي نفته اليها بنفسها . الخادمة شاهدتها تعود صوب غرفتها دامعة وتحاشتها متظاهرة بتنظيف الأرض المرمرية الفاخرة بعد ازاحة السجاد الثمين عنها . .

(**عالم من العزلة الثرية . . سجون فخمة الديكور . . هذا ما صنعناه من بيتنا**) . لا تدري لماذا لجأت الى لوحتها ، وفوجئت وهي تلتهمها بنظراتها بسكين مغروسة في صدرها وقد مزقت قماش اللوحة !! . . . سكينها الخاصة بفتح الرسائل . . انهارت على المقعد امامها ، صرخت بابنتها التي كانت تحاول مغادرة الدار دونما مواجهة امها : تعالي ايتها الوحشة الصغيرة . .

اقتربت الصبية من امها وبادلتها نظرات الكراهية كامرأتين غريبتين ، والقت نظرة

لامبالية على اللوحة وقالت : هل ستتهمينني بذلك ايضاً ؟ مرة أبي هو المجرم ومرة أنا ؟

ـ إذن من فعل ذلك ؟

ـ أنت بالتأكيد فعلت ذلك يا سيدة دنيا ثابت ! . .

ـ أنا امزق لوحتي ؟

ـ حينما تثملين تغادرين شخصية مدام الغفير ويتلبسك الحس بالعظمة ، فتعودين دنيا ثابت الرسامة المنسية . انت فعلت ذلك بالتأكيد ، حين تتصارع المرأتان في داخلك ، بعد ابتلاعك زجاجة ماء النار ليلة البارحة . . وانت بالتأكيد اخذت كلبك بعيداً واتهمتنا بقتله . . لكل همومه فدعينا وشأننا . . ولكنني انصحك بمراجعة طبيب نفساني . . وهذا رأي صديقي ايضاً حين خبرته بأحوالك !

وغادرت الفتاة البيت لامبالية (**ما اعظم قدرة الصغار على القسوة . . . الابناء بالذات**)

فوجئت بصوت يخاطبها : « لكنك بالمقابل لم تكوني يوماً صديقتها ، فلماذا تتوقعين منها ان تعاملك كذلك ؟ » .

هل جاء الصوت من اعماقها ، ام ان اللوحة صارت تكلمها نهاراً ايضاً ؟ أهذا ليل ام نهار ، وتلك السحب السوداء المظلمة قد غزت السماء وسرت في المناخات عتمة الغروب . . آه لم تعد تدري . . . لا تدري شيئاً . . لا تدري من فعل هذا باللوحة . . تسألها بصوت عال ولا تدري صوت من يجيبها : « غير مهم . . فالآخرون لا يهدوننا حقاً الا اذا انكسرنا من الداخل » . . لا تدري الا ان عليها ان تهرول الى قصر رغيد . . «ليلة المليار» غداً وعليها ان تهرول . . . أهذا صوت اللوحة حقاً يخاطبها ام صوتها هي ام صوت يعبث بحواسها متعمداً ؟ لا تدري . . عليها ان تهرول . . ما جدوى ان تسجن نفسها في البيت في محاولة فاشلة لرسم لوحة ، واصابعها ترتجف امام القماش كطفل في عاصفة لم يألفها ؟ . . وأفكارها تتمزق وتتشتت وتعي فجأة كلما حاولت الرسم : لم اعد استطيع !! . .

اقتربت من اللوحة ، ولم تنتزع السكين ، بل تركتها في موضعها ، لعل الطعنة توقظ ضربات قلبها المحنط وتعيد الوعي لكبدها المشمع . . وسمعت صوتاً من خلفها يكلمها : « هذا لا يؤلم لكنني قلقة عليك » ، التفتت دنيا وذهلت حين شاهدت فتاة اللوحة جالسة على المقعد في موضعها بعدما غادرت الاطار وخوى قماش اللوحة من كل شيء الا من تمزيق عند

موضع صدر الصبية . . تابعت بصوت هامس : ضربات الخارج لا تؤلمني ولا تسبب لي جرحاً . . ولكن ، حذار من ان تتخاذلي انت . . اذا نجحوا في خلخلتك من الداخل ، انتهى امرنا معاً ! انت الخطر الوحيد الذي يهددني !

***

استيقظت كفى ثملة بخمرة الحياة . . . كشفت الستائر ولم تلحظ السحب الداكنة الكثيفة التي غطت السماء كعباءة سوداء . لم تجد عادل الى جانبها . . لقد ألفت حضوره ، لكن غيابه لا يضايقها . . امامها «ليلة المليار» غداً، حيث تتألق كأميرة من اميرات الليل وتختال فوق العيون المعجبة، وهي مشغولة بالتحضير لها عن عادل والسحب واولادها وخليل والدنيا كلها . . مشاغلها كثيرة . . وعليها ان تتأكد من ان الحلاق وجد الامشاط الخاصة بتسريحتها ، وبائع الاحذية يجب ان ينجز هذا المساء حذاء السهرة الشفاف المذهب . . ستكون مثل حلية ذهبية تزين طرف الليل ، وعليها ايضاً شراء تلك الشرائط الحريرية لخصر ثوبها ، والشال يجب انِ تجربه ليلاً لتتأكد من ان لونه لن يبهت مساء فقد اشترته في ضوء النهار . . . ما اكثر مسؤولياتها ومتاعبها ، وعليها ان تسارع بعد ذلك كله الى بيت رغيد لتتابع مساعدة للي على اعداد المكان لثلاثماية مليونير على الاقل ستلتقيهم غداً . . آه قلبها ينبض وينتشر في جسدها فرحاً حتى لتكاد تغص به وتختنق .

***

ما كادت تدخل القصر حتى التقت نسيم الذي لا يراها إلا وهي تمشي في الأرض مرحاً فسألها : كيف صحة ولديك بعد الحادث ؟

ــ أي حادث ؟

ــ هل انت جادة ؟

ــ هل انت جاد . . ماذا اصاب اولادي ؟

ــ اين تعيشين ؟

لم تجرؤ على ان تقول ، وتذكرت انها لم تطأ بقدمها الفندق منذ أيام ، والمدرسة لا تعرف لها عنواناً آخر . .

ــ ماذا بهما فادي ورامي ؟

ــ قرأت اسم احدهما في الصحف . تعطل التليفريك في رحلة مدرسية وهوى ، وثمة

قتلى وجرحى . . لقد اذاع التلفزيون النبأ في قنواته كلها . .

ـ لا اصدق . .

ـ هذا شأنك . ارجو المعذرة .

وانسحب بسرعة وهو غاضب (**اهذه ام وامي المسكينة كانت اماً ؟ الحمد لله لأن خليل سيعود اليوم ، والا لكان من واجبي الذهاب اليها والاهتمام بها . . أهذه أم ؟**) . .

هتفت الى الفندق . قالت عاملة الاستقبال : لك عدة رسائل هاتفية من «كوليدج دي ليمار» ، ومن مستشفى (باردينيان) . .

ـ ارجوك ان تقرئي لي الرسائل الآن . .

ـ حسناً . . هذه رسالة من المدرسة . . لحظة . . تقول : الرجاء الاتصال بالادارة لأمر هام يتعلق بابنك .

قطعت المخابرة ، واتصلت بالمدرسة . . قالوا لها وقالت لهم . . وادعت انها كانت مسافرة ، ولم يدعوا شيئاً ، وصارحوها ببساطة: رامي في المستشفى . اصيب في رحلة مدرسية . طرأ عطل على التليفريك ووقع حادث . قتل بعض الاطفال وجرح آخرون . هل جراح ابنها خطيرة؟ لا تدري . . ولكن اسمه ليس بين القتلى عليها ان تسأل المستشفى . .هذا رقمها . . ابنها الآخر؟ لا تجد اسمه بين القتلى او المصابين . هذا يعني انه في المدرسة وبخير . كان في عربة اخرى فيما يبدو . . على اية حال ، نفقات علاج رامي تتحملها المدرسة لأن الاقساط تتضمن تلقائياً مبلغاً خاصاً بالتأمين ضد الحوادث . . وابنها يشمله ذلك ! . .

تهتف الى المستشفى . الخط مشغول .

كالنمرة تدور حول الهاتف قلقة . . انها بحاجة الى انسان يقف قربها . . اي انسان . . جارتها . . امرأة عابرة من الشارع . . لم تألف مواجهة المصائب وحيدة . . لم تألف اسلوب السكرتيرة في تبليغ الناس بكوارثهم بصوت هادىء محايد . . تذكرت بوضوح انها صرخت في السكرتيرة على الهاتف : ولكننا في سويسرا . . فكيف يقع حادث في التليفريك ؟ . .

واجابت الأخرى بهدوء : الحوادث تقع في كل مكان . . والناس يجرحون ايضاً في سويسرا . .

حقيقة بدهية سهت عن بالها ، وهي ان الناس يمكن ان يموتوا حتى هنا . . وابنها ليس

حقاً في امان حتى هنا ما دام بشرياً . . . ليلى تروح وتجيء في القاعة المجاورة . . والرقم الهاتفي للمستشفى ما زال مشغولاً . . مضت الى ليلى ، واخبرتها بما حدث . قالت الاخرى بالفرنسية وببرود : « حسناً تستطيعين الحصول على إجازة اليوم اذا كان ابنك في حالة خطرة . لكنني بحاجة اليك يوم الغد . . ثمة عمل كثير يجب انجازه صبيحة الحفل . اهتفي ثانية الى المستشفى واعلميني » . . وغادرت للي الغرفة بسرعة . .

***

قرر رغيد الذهاب الى بركته الذهبية لتوجيه الدعوة للتمثال « المناضل » لحضور « ليلة المليار الأول » . . وسينتهز الفرصة لشكره على « المليون الأول » . .

فتح قفصه الذهبي بمفتاح لا يفارقه كأي سجان محترف ، وداهمه خاطر . . لماذا لا ينقله الى ردهة القصر لحضور السهرة ؟ . . ولكن لا . . سيضايق بحضوره معظم ضيوفه . . سيبقيه هنا وسيحتفلان معاً بعد انصراف الضيوف . سيلعبان بالقرش . . سيرميانه في الفضاء . . واذا سقط على الارض وكان وجهه الذي يحمل اسم فلسطين الى الأعلى ربح التمثال الرهان ، واذا كان الطرف الآخر الذي يحمل قيمة العملة الى الأعلى بالعبرية والانكليزية والعربية دونما ذكر لاسم فلسطين ، يربح رغيد ملياره الثاني . .

ـ يا باشا . .

التفت شبه مذعور . انها للي . . قالت : بدأ الضيوف بالوصول الى الفندق منذ اليوم . . اتصل بك « المليونير الاصفر » وادعيت انك خارج جنيف ، وستكون هنا غداً في موعد الحفلة . . واذا وصلت قبل ذلك ، ستتصل به . .

ـ حسناً فعلت يا لك من امرأة قديرة . . ساختار انا توقيت اللقاء . . يجب ان ارى « المليونير الأحمر » اولاً ، افضل انجاز الصفقات معه . . . انه عصري وحاسم لا يتردد في استعمال السكين ضد كل من يخرب صفقاتنا . .

(بدأت أفضل التعامل معه على امثال الشيخ صخر . . وشقيقه التوأم الكارثة هلال . . . رجال امثال هلال يمكن ان يعيدوني فقيراً لا املك الا عدة ملايين من الدولارات . . اما صقر فمدمن ، لا يمكن الاعتماد عليه في المدى البعيد ولكنه قد يؤمن « صفقة المطار » كما يدعي بعدما اعطيته قبل سفره سلفة كبيرة كدين من مال الصفقة ، سيضطر والده لدفعها اذا تنصل) .

سأل رغيد ليلى : هل وصلت دنيا ؟

ـ للتو . .

ـ تساعدك ؟

ـ بعض الشيء . . اعصابها متعبة واظنها بحاجة الى مصح . . ولكنها ستقوم بمهماتها خلال الساعات القليلة الباقية . .

ـ وكوكو ؟

ـ ممتازة لو لم تكتشف هذا الصباح حادث ابنها . . لكنني اخفيت الأمر عنها اطول وقت ممكن .

ـ انها لا تقرأ الصحف ، ولا ترقب التلفزيون ، ومخبري يقول انها قضت سهرة البارحة وعادل كالعادة في احدى علب الليل حتى الفجر ، ولم تمر بفندقها ، فكيف عرفت ابالأمر؟

ـ لا ادري . . لعلها سألت عنها في المدرسة . .

ـ او لعل نسيم اخبرها بذلك . . سأصفي حسابي مع هذا الوغد بعد غد . . بعد«ليلة المليار» . . .

اكدت ليلى : ستقوم كوكو بواجباتها ريثما تنقضي « ليلة المليار » . . جراح ابنها سطحية وبسيطة . . هكذا اعلموها حين اتصلت بالمستشفى تسأل عنه . .

قال رغيد : اهتمي بكوكو . . الضيوف يحبونها ، وصقر معجب بها ، وقد اكون بحاجة اليه في الاسابيع المقبلة . .

ـ اعددت للشيخ صقر الغرفة المجاورة لغرفتها . .

ـ هذا « بعد نظر » . .

ـ ما دام الشيخ وطفان قد مضى . . لماذا لا نكرم « المليونير الاحمر » ونستضيفه في جناحه ؟ . .

ـ فكرة ممتازة . . . ولكن . . ادوات السحر تملأ المكان . .

ـ لن يصل « الاحمر » قبل مساء الغد . . سنضع كل شيء في صندوق كبير نودعه اقبية القصر ، ونعيده الى مكانه بعد « ليلة المليار » . . ما رأيك يا باشا؟

ـ حسناً . . افعلي ما تجدينه مناسباً . . .

ـ معذرة يا باشا ، لكنني بحاجة الى « دفعة » نقدية . . لم يعد البنك راضياً بصرف شيكاتي فقد نفد رصيدي ، وانفقت كل رصيد الدفعة الأولى منك ، واستدنت مليوني دولار

كخدمة من مدير البنك ، ويجب ارسال شيكات للمطاعم .. لا تريد ان يفسدوا علينا الحفل ، مرسلين تحرياً بيده شيكات بلا رصيد ، تحمل توقيعي ..

ضحك كثيراً حتى انشرح صدره وانقبض قلبها ، وقال لها : ستكون نكتة « ليلة المليار » .. الاكل بالدين والشيكات بلا رصيد .. لا تخافي شيئاً .. وضبي جدولاً بحساباتك ، وغداً صباحاً تصبحين ثرية .. سأدفع لك النفقات واتعابك فجر ليلة المليار اي بعد اقل من ٢٤ ساعة .. فانا كريم مع الذين يحسنون خدمتي .. لا تقلقي يا للي ، ثقي بي وسيكون كل شيء على ما يرام وكما تشتهين .

- اذن سأنام الليلة فقيرة .. ومدينة يا باشا ؟

- انها ليلتك الاخيرة مع الدين والفقر ، والدفن فجراً في هذه القاعة .. سنتناول قهوة الصباح معاً ونراجع الترتيبات الاخيرة وتأخذين الشيك الأول الكبير حقاً في حياتك .. اريد فقط إلقاء نظرة اخيرة على اسماء المدعوين وخارطة طاولة الطعام وامكنة جلوسهم .. فقد نحدث بعض التعديلات ..

قالت ليلى قلقة : وقد اضطر لاجراء تعديلات على الحديقة .. السحب تنذر بعاصفة .. و « رجل التنبؤ بالطقس » في التلفزيون ايضاً .

كانا يتحدثان ويتمشيان عائدين من بركة الذهب الاخطبوطية الى القصر .. مر به كلبه فعوى وانطلق هارباً .. لا احد يحبه .. يعرف ذلك ، حتى كلابه تمقته ..

دخلا الى الردهة ، فتقدم منهما نسيم وابلغهما نبأ وصول الشيخ صقر ..

- متى ؟

- منذ دقائق .. ذهبت به الى غرفته ، قال انه مرهق وبحاجة الى الراحة ..

همس رغيد في اذن للي : هذا يعني انه بحاجة الى « شمة » جديدة ..

ثم أضاف بصوت مرتفع مخاطباً نسيم : قل لي يا نسيم ، هل عاد خليل معه ..

- اجل ، ثم انطلق راكضاً الى المستشفى لمشاهدة ابنه ..

- ومن قال له انه هناك ...

- انا فعلت .. ظننته يعرف ..

- « اللعنة عليك .. بدأت تصير ثرثاراً .. انت ايضاً بدأت تخطىء .. كنتم جميعاً دقيقين كالساعات السويسرية ، ماذا دهاكم منذ ... » وكاد يتابع : منذ وصول بحرية ، لكنه احجم فجأة ! ... مضى نسيم نحو المطبخ مسرعاً وقد استيقظ حقده كله على رغيد

قاتل سري الدين . . كيف لا يخبر اباً بجراح طفله ؟. قالت للي : سأدعي ان سكرتيرتي مسؤولة عن الخطأ وانها هي التي نسيت إرسال التلكس . .

ـ ولكن خليل توسل الي ابلاغه شخصياً اذا حدث لاسرته مكروه . . سيغضب هذا القروي الاصل المجنون ، ولا اريد مجنوناً اضافياً «ليلة المليار» . .

ـ سندعي انك أوكلت الي امر ذلك ، وطلبت انا من سكرتيرتي ان تتولى المهمة . . ولم تفعل . . وستعاقب بالطرد . .

ـ لا يستحق الامر خسارتها . . اظنه سيكتفي باعتذارك . .

ـ كنت سأتخلص منها على اية حال . . انها ثرثارة ، لا تحسن الكتمان . . ثم انني شاهدت صورتها في التظاهرة اياها الى جانب دنيا وامير . .

ـ انا معجب بحزمك . . . اعتقد اننا سنقوم معاً بعملية غربلة للموظفين بعد «ليلة المليار» . .

ـ انا تحت تصرفك . .

ـ نديم مثلاً . . بدأ يقلقني . .

ـ زوجته خطرة . . دنيا . .

قال رغيد مداعباً : هل تغارين منها يا للي ؟ لقد لازمت امير طوال التظاهرة ، وبعدها ، ولم تعد من عنده الى ما بعد منتصف الليل ..

ـ اغار منها ؟ تلك السكيرة الحمقاء المسكينة ؟ انها في دربها الى ممارسة التدمير الذاتي . . فالمصح العقلي . . ثم انني لا أغار من النساء . . . لا منافسة نسائياً بيني وبينهن . . حقل عملي هو نفسه حقل عمل الرجال . .

ـ على نديم ان يخشى منافستك . . بالمناسبة ، ما رأيك بخليل ؟

ـ لاي غرض ؟

ـ اعداده لتحمل بعض مسؤوليات نديم . .

ـ لا اظنه يصلح لذلك في المدى البعيد . . معدنه (فاسد) اذ لديه رغبة بلهاء في قول ما يتوهمه صدقاً . . . صحيح انه عاش حياته كلها في بيروت ، لكن اصله القروي ما يزال يطغى على سلوكه . . معدنه يفتقر الى المرونة والطراوة . . ثم انه مشروع رجل خطر . .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعني انه يستعصي على الترويض . . .

ـ هذا نمط يستهويني . الرجال كلهم للبيع ، ولكل ثمنه . . .

ـ هذا رجل احمق ولن يحدد لنفسه ثمناً . . انه يفضل التمسك بالخطأ العتيق على اكتشاف حياة جديدة . . .

ـ اظنه من الذين يبيعون انفسهم مجاناً . . اولئك يبدون عسيري المراس ، وفجأة يتداعون امامك وينهارون اذا لوحت لهم بالسلطة . . . انهم يعشقون السلطة ، ويكسون ذلك الوله بقناع شفاف من المبادىء العامة . .

ـ يبدو لي عنيداً ولا يؤمن جانبه . . هل تذكر كيف غنى في السهرة « يا ظلام السجن خيم » . . كان ذلك بشعاً . .

ـ سأجري له عملية تجميل فكرية . . ربما كان عناده بالذات يجتذبني . .

ـ انت ادرى برجالك . . يخيل الي انه لا يستحق هذا العناء وقد يسبب المتاعب لانه لا يمكن التكهن بسلوكه . . انه هو نفسه حائر ، وكأنه يفكر بمعنى حياته وربما يحلم بالخلود . .

امسك رغيد بتمثال ذهبي لتفاحة وقال : سأعلمه ان هذا هو الخلود . . سأضعه داخل يده واقول له امسك به ، هذا وحده يبقى . . يموت البشر والملوك والصعاليك ويبقى الذهب مبجلاً دائماً . . .

تدخل كوكو وعلى وجهها الجميل امارات التعب . . يسألها رغيد : كيف حال الصبي ؟ وقبل ان تجيب يسألها ثانية : هل التقيت خليل ؟

ـ لا . . هل وصل ؟

ـ لقد هرول كالمجنون الى المستشفى . . اخبره نسيم بالنبأ لحظة وصوله . . .

قالت كوكو ببساطة : يدهشني انه تابع رحلته وصقر دونما مبالاة بما يحدث لابنه . .

قال رغيد بتجاهل العارف : يبدو ان متع الحياة تنسي المرء اشياء كثيرة . .

شعرت بأنه يؤنبها . حسناً . هي وغدة لكن ذلك لا ينفي ان زوجها صار وغداً مثلها . . هي لا تتشدق بالمبادىء ، اما هو فيفعل !

بدت على وجهها سحب الغم ، كأنها تذكرت فجأة ان ابنها في المستشفى !

تدخل رغيد : كوكو . . ثمة مفاجأة تنتظرك في غرفتك . .

ـ سارة ؟

ـ بالطبع . . وهل في جعبتي غير ذلك ؟ لا تقلقي . . ثقي بي وسيكون كل شيء على ما يرام . .

ـ ما هي ؟ ما هي المفاجأة السارة ؟

ـ ثوب لسهرة الغد . .

مسحت دموعـها بسرعة ، وهرولت صوب الغرفة التي افردتها للي لها وللخليل «ليلة المليار»، وربما الليلة ايضاً اذا استدعت ضرورات العمل ذلك كما هو الارجح . .

قالت للي : أرأيت ما أعنيه ؟ هذه امرأة طرية العجينة وغير متشنجة ، تفرح بسرعة وتحزن بسرعة . . وليست كزوجها . . انها تصلح اكثر منه للتعاون . .

ـ ما الفائدة ؟ انها حمقاء . .

ـ من الصعب ان تلتقي بذكي سهل الترويض الا اذا كان هو نفسه قد اختار دربك . .

ـ تعنين انني لن اجد مثلك ؟

ـ بالتأكيد . .

انفجرا ضاحكين . . ذوت الضحكة تدريجياً حين دخل نديم فجأة ، وقد غادره تهذيبه (الارستقراطي) وبدا مثل وعل يركض مذعوراً في عاصفة رعدية . . قال مخاطباً رغيد دون ان يلتفت الى للي او يلحظها او يلقي عليها التحية : يجب ان اكلمك على انفراد . .

انسحبت للي بتهذيب مفرط : معذرة لدي ما افعله . .

قال رغيد وقد وعى كهارب الذعر المتدفقة من نديم : تعال نذهب الى غرفة المكتبة . .

مرا بنسيم فقال له رغيد : احمل الينا قهوة . . بسرعة . . الى غرفة المكتبة . .

في دربهما الى المكتبة ، التقيا بدنيا ، وكانت تبدو مضطربة ومن نظرتها تتطاير شرارة جنون . . صافحت رغيد ببرود ـ متبادل ـ ، ثم القت على نديم تحية تفيض لؤمـاً : لقد بكرت اليوم بمغادرة البيت . . ولكنك لم تجد الوقت مبكراً لارتكاب جريمة قتل . .

ـ لم افعل انا ذلك . . انت فعلته . . كنت تمشين في نومك وشاهدتك تحملين سكينك الخـاصة بفتـح الرسـائل ولم اجـرؤ على الاقتـراب منك . . انـك تتحولـين الى امرأتـين تتشاجران . . أنت أيضاً تخلصت من بيكاسو قبل ذلك دون ان تدري واتهمتني بذلك . .

ـ « انت كاذب » . . قالتها بوهن ، كأن اتهامه وجد ارضاً خصبة في اعماقها . . (لعلي فعلت ذلك وانا ثملة . . لعلي اريد حقاً التخلص من هذه اللوحة المسحورة المقلقة . . آه لم اعد اميز بين الوهم والحقيقة ، وبين الحلم والفعل . . تداخلت الأشياء ، واتعذب) . .

قال رغيد بسطوة : يمكنكما متابعة الشجار العائلي في البيت بعد ٤٨ ساعة . وريثما

تنقضي « ليلة المليار » امنعكما من تبادل الحوار .

***

حين ضمتهما غرفة المكتبة ، تنهد نديم وانهار في مقعده وهو يمسح بمنديله العرق البارد الذي يتصبب منه .

قال رغيد قلقاً : لقد بشرتني بموت ابن الشيخ صخر . . صقر هنا ، لكننا لن نخبره بمصرع احد اخوته ، وهو على اية حال قد لا يبالي ، وقد لا يخفي شماتته . . ثم انه مشغول بتناول جرعته « البيضاء » . . ما الذي يقلقك ؟

ـ انها كارثة . . . كارثة . . .

ـ ماذا حدث ؟

ـ المدرسة . . انهارت المدرسة التي عمرناها نحن . قتل ابن صخر تحت انقاضها ومعه عشرات الاولاد . . .

ـ ماذا ؟ انهارت المدرسة ؟

صمتا طويلاً ، طويلاً . . وحين استعاد نديم انفاسه كرر حكايته مضيفاً : لولا العطلة الصيفية لقتل المئات . . . كان ابن صخر ورفاقه في المكتبة التي تبرعنا بها لقراءات الصيف . .

ـ لا . . . لا اصدق . . .

عاد نديم الى مسح العراق المتصبب منه، ثم قال كالنواح : انهارت فجأة بعد عاصفة رملية ، لغش في مواد البناء . . لعل مهندسك بالغ قليلا هذه المرة ، لكن مسؤوليتك لا جدال فيها . . .

استل رغيد سيجاراً واشعله ولم يقل كلمة واحدة . . . سكت طويلاً ، بينما كان نديم يبتلع كأساً من ماء النار لم يقدمها اليه احد ، وهي المرة الأولى التي يخرق فيها قواعد (البروتوكول) امام « الباشا » !

صمتا طويلاً . دخل نسيم يحمل القهوة . رشف رغيد جرعة وقال : القهوة باردة . هل كنت واقفاً بها خلف الباب للتنصت كعادتك ؟

فوجىء نسيم . ذهل ، والتجأ الى الصمت . .

ـ هل تتوهم انني لا ألحظ كل شاردة وواردة ؟ . . . لنا حساب بعد « ليلة المليار » . .

والمسؤول الأول عنك هو من احضرك وزكاك . .

وتطلع رغيد الى نديم بكراهية اصيلة وكأنه يلومه على كل خطأ وقع على هذا الكوكب منذ زمن آدم . .

وغادر نسيم الغرفة لا يلوي على شيء . . . قال نديم : والآن ، ما العمل ؟ . . . هل نلغي « ليلة المليار » غداً كي لا يحولها الشيخ صخر الى فضيحة ؟ صمت رغيد طويلاً ثم قال كمن يصدر حكماً قاطعاً : الغاء «ليلة المليار» مستحيل . . لقد دعوت معظم حكام الارض الحقيقيين من ملوك المال ، وقد وصل بعضهم . . .

ـ مات عشرات الاولاد والاطفال هناك . .

ـ انهم يموتون كل يوم في كل مكان لاسباب مختلفة . . .

ـ انها كارثة . . لقد انتهينا . . الاهالي في حالة حزن وذهول ، ستعقبها بالتأكيد حالة هياج . . انتهينا . .

ـ انها مشكلة يجب ان تعالج . . . هذا كل ما في الأمر . . .

ـ لن يسكت صخر ولا هلال ولا قومهما عن الكارثة . . . سيدمرون اعمالنا في كل مكان . . انتهينا . . .

عاد رغيد الى صمته . . . غرق طويلاً في افكاره بينما كانت عضلات وجهه تتقلص وتنبسط ، وخيل الى نديم ان داخل هذا الرجل القوي كومبيوتر تضيء مصابيحه الحمر والزرق والبيض وتجري داخله عمليات حسابية معقدة دون ان يبدو على شاشته ما ينم عن النتيجة . . . واخيراً نطق الكومبيوتر بصوت هادىء محايد لا ينم عن شيء : اذهب الى غرفتك واسترح . . . سأناديك فيما بعد . لا تقل شيئاً لدنيا او لاي شخص آخر . . وحذار من إخبار صقر . . .

ـ ولكنهم سيعلمون . . انهيار مدرسة عمرناها ، ومصرع عشرات الاطفال لن يظل سراً . . . ستكتب الصحف عنه وتتناقله الالسن . . . وربما يتدخل الانتربول كطرف لاعتقال المسؤول . .

ـ لا تبح لاحد بكلمة . . ودعني اتصرف . . والاهم من ذلك كله . . . لا تقلق . . ثق بي ، وسيكون كل شيء على ما يرام . . . وكما تشتهي !

***

تأملت كفى الثوب الذهبي الشفافية ، العاري الكتفين ، الذي اهداها رغيد إياه ، ونسيت كل شيء عن همومها . . عن خليل الذي سارع الى المستشفى للاطمئنان الى ابنه ، قبل ان يراها او يصافحها او يسألها عن احوالها . .

ارتدت حريره الثمين الذي يكشف مفاتن خاصة في جيدها لم تلحظها من قبل كما لم تلحظ نظرات صقر المتلصصة عبر الستائر وهو واقف فوق الشرفة المشتركة لغرفتيهما . ارتمت فوق السرير ثملة بجمالها . . ودقيقة بعد اخرى ، بدأ مفعول الثوب البديع يغادرها كأنه مخدر بسيط بدأ يفقد تأثيره القوي السابق بسبب الاعتياد ، وهاجمتها من جديد صورة ابنها رامي . . تخيلته ممدداً في المستشفى . لقد اطمأنت الى جرحه البسيط ، ولكنها لامست الكابوس من جديد . . امكانية ضياع رامي في الغربة . . (انه بخير . فانسي الحادثة) . . . ولكن . . كل مصيبة او امكانية مصيبة تذكرها بوداد ، فيغمرها غم حقيقي (لا اريد ان تقع عيني بعد اليوم على ما يحرك الحزن في نفسي . لم اعد اقدر . لقد حزنت في بيروت بما يكفي لعدة حيوات . . . بكيت بالنيابة عن قبيلة من النساء .

عشت في عزلة مخاوفي بينما زوجي يرتع في السجن في بحبوحة مباهج عظمته الوهمية . تعبت من التعب ومن كل شيء . لست حمقاء بقدر ما ابدو ، وبقدر مـا يحلو لمن حولي التوهم دون ان يضايقني ذلك . لقد اخترت دربي وانتهى الامر وصار شعاري : يا رب . . « يا ربي نفسي » . . اريد ان اعيش عمراً من المباهج ، وليكن قصيراً او طويلاً . . ما الفرق . كم تبدلت اشياء منذ تبدل اسمي من كفى الى كوكو . اريد ان اتحرك داخل عمري من الآن فصاعداً كما تتحرك النساء الجميلات الملونات داخل صفحات مجلات الازياء . . واذا وقعت عيني على جريح ، فسأشيح بوجهي الى الرصيف المقابل ، والى اول واجهة دكان مجوهرات القاها في دربي . شر ان اتحاشى الألم ولا اساعدجريحاً ؟ ربما . . لكنني لست اعظم شراً من الذي جرحه ، او من حماقته التي قد تكون تسببت بجرحه . ان الناس لا يحاكمون الا السعداء . اما الذين يجلبون التعاسة لانفسهم ولسواهم امثال زوجي فيتفنن الشعراء والمفكرون امثال امير في اختراع الشعارات لهم وتزيين الجراح التي يسببونها لانفسهم ولسواهم ، بحيث يوهمون الحمقى ان الجرح احلى من الابتسامة . ليتني لم انجب اطفالاً ، فكل طفل هو مشروع بؤس كبير في هذا العالم المتوحش . . . ولكن ما كان قد كان . . والمهم ان اصر على النسيان . . . وان اهرب من كل ما يمكن ان يسبب الحزن لي . . . عادل سيسافر بعد«ليلة المليار»، وقد وعدني بشراء الشقة من نديم ، وتركي اقيم

فيها شرط ان اخلص له في فترات غيابه . قبلت، لكنني لن اخلص له وسأخونه كي لا اخون حقيقتي . لن اخلص الا لشهيتي المفرطة لنزواتي ومتعي الصغيرة والكبيرة) . .

كان صقر ما يزال يتأمل كفي ، وجسده يرتجف ربما لكثرة ما ابتلع من حبوب منشطة ، وهو يفرك الكوكايين في منخريه محاذراً عطسة مفاجئة .

نهضت فجأة من سريرها وقد داهمها خاطر مفاجىء ، استولى عليها وانساها كل ما عداه : ستجرب الثوب الذي اعدته بنفسها«لليلة المليار»،وسترتدي الذي تبدو فيه اجمل . . كلما ازداد عشاقها ، قلت شهيتها لطاعة رغيد او سواه . . كأن امرأة مجهولة في اعماقها تنمو وتزدهر ، وقد بدأت اظافرها ايضاً تكبر . . كأنها لم تكتشف ذاتها حقاً بعد ، بعدما دفنتها بيروت سبعة اعوام بلياليها تحت ركام الجثث المتناثرة والسيارات المتفجرة والقمامة والعويل والرصاص المتطاير احتفالاً وحداداً وفي الدرب الى المستشفى والى القبر . .

ما كادت تقف ثانية امام المرآة ، حتى شاهدت يداً ممدودة عبر ستائر الشرفة ، حاملة علبة مخملية ارجوانية وقد ازدهر داخلها عقد خرافي البهاء ، ازرق الاحجار ، يتأجج كأن حياة خاصة تعصف داخل معدنه الذهبي البراق . .

استدارت شبه مسحورة . . تخدرت حواسها واحزانها ولم تعد ترى غير الامواج التي تتحرك في بحار احجار الفيروز . . . . عقد كهذا على عنقها كفيل بابراز زرقة عينيها . . . وتحركت اليدبالعقد متقدمة صوبها ، وهي لا ترى سواه منومة ببهائه وشهيتها لامتلاكه ، وحين رفعت نظراتها اخيراً نحو وجه حامله بقامته الفارعة ، فوجئت بان له وجه شيطان مرعب يشبه القناع . . وقبل ان تصرخ كانت يد قوية تكم فمها وانفاسها ، وصوت مألوف لم تميز صاحبه يهمس : لا تصرخي . جئت اهديك هذا العقد . لا اقصد ايذاءك او تخويفك . لكن لي اسلوبي الخاص في كل شيء . . بما في ذلك تقديم الهدايا . . .

هدأت قليلاً . حدس ذلك من استرخاء ملامحها تحت يده بعض الشيء . . افلتها وهو يقول : استديري الى المرآة ، وانظري كيف صنع « كارتييه » هذا العقد خصيصاً لعينين كعينيك . .

« كارتييه » ؟ خدرها الاسم ، وكادت تشهق فرحاً وهي ترى العقد البديع يحط عليها مثل قاعدة خارقة البذخ لتمثال خارق الجمال هو رأسها الصغير . .

عاودها خوفها بعد ثوان ، وحدس هو ذلك حين شاهدها تغطي صدرها شبه العاري بكفيها ، فقال بلهجة آمرة : ارتدي معطفك . فارتدته بدهشة .

ـ ضعي على رأسك غطاء . . لفيه بالشال . .

ففعلت ، وهي تشعر انها تخطو داخل حلم هذياني . . وكانت السحب تزداد كثافة ، وخيل اليها ان الغرفة تظلم تدريجياً . . وعتمة شيطانية تهبط من السقف وتهطل من الدفء الرطب المشبوب لهذا اليوم المكهرب.

وشعرت بخزانات عنف مجهولة تنطلق داخلها ، كأن سيالات غامضة تتسلل اليها من الشيطان المجهول امامـها ، وتفتح ابواباً كانت موصدة في اعماقها .

وفجأة ، دون ان ينطق احدهما بكلمة ، ودون ان يخلع عنها معطفها او غطاء رأسها ، ارتمى على السرير وجرفها معه مثل جزيرة اختطفتها امواج مسحورة ، وفي لحظات كانت الامواج تهاجم مغاورها وطحالبها هائجة صاخبة . . واستسلمت الجزيرة للانواء ، تغرق وتطفو ، وقناع الشيطـان يروح ويجيء امام عينيها ، وارادت ان تعبر عن امتنانها لملامسة قاع البحر الخارق الاضاءات الحار الكاوي ، ولا تدري لماذا صفعته . . .

كانت صفعة قوية ازاحت القناع عن وجهه واوجعتها ! واذهلها ان تميز فيه صقر ، ذلك الشاب الصغير الوسيم الثري الذي طالما حلمت به كلما لاطفت جسدها . . صفعته مرة ثانية وهي تقهقه كمعتوهة ، واذهلها ان عنفها الشرس زاد بحـاره صخباً وهيـاجاً . . . صفعها بدوره فاشتعلت وجداً ، وكان الانسجام خارقاً بـين قسوتهـما الداخليـة المتبادلـة المنتشية . وعادت الامواج تغطي الجزيرة وتتخلل مغاورها وثقوب آبارها . . ابحار غامض مشوب بالالم ، وبمباهج اكتشاف الجانب البحري للجحيم . . انها في قاع البحر على حافة البركان والزلزال المائي المنصهر يتفجر . . وصقر مبهور بتلك المخلوقة الخارقة : لم يستقبل احد من قبل عدوانيته بهذا الترحاب المتوحش غير المزور . .

ويفتح الباب ، ومنه يطل وجه خليل!

حين شاهدته ، صرخت ببساطة : انه يغتصبني . . النجدة . . وازداد اعجاب صقر بها وهو يتأمل « حالاتها » السريعة التلون . . وجاء صوتها مخنوقاً ، وكأن خليل لم يسمعه ، فقد اغلق باب الغرفة خلفه واتجه صوب احد المقاعد ، وجلس وقد ادار ظهره لهما . . . كأنه لم يرهما ايضاً .

قفز صقر واقفاً ، واعاد قناعه ، الى موضعه بعناية ، وسوى ثيابه . . كفى جلست على طرف السرير وهي ما تزال ترتدي معطفها الصيفي والشال يغـطي شعرهـا . . لم تشعر بالحرج ، ولا بالارتباك . لم تشعر بأي شيء غير الرغبة في مغادرة الغرفة ، وبعض الدموع

اليسيرة تنهمر من عينيها الجميلتين ربما من باب اللياقة . . وخرجت ، بعدما صفقت الباب خلفها بشدة . . اما صقر ، فقال مخاطباً خليل ببرود : «كم تريد (خلواً) لتترك زوجتك لي ؟ اريدها لي . حدد المبلغ ، واعلمني بالرقم » . . وكاد صقر يغادر الغرفة عبر الشرفة كما اتى ، ثم بدل رأيه لسبب غامض وخرج من الباب الرئيسي بعدما خلع قناعه وحمله في يده . . ولم يلتفت خليل صوبه ولم يقل كلمة واحدة . . لقد صعقه ان يرى زوجته تخونه (عملياً) . كان يعرف ذلك كصورة ذهنية ، وحين واجه الأمر ، ضيع صوته واختلطت مشاعر سديمية في نفسه . .

***

حين غادرت كفى الغرفة ، التقت في الممشى بليلى ودنيا ، وهما ترتبان شرشفاً من الدانتيل تحت احد التماثيل بعدما بدلتا موضعه ، ولا تدري لماذا قالت لهما باكية : لقد اغتصبني صقر . . .

نظرت اليها المرأتان وفي وجهيهما امارات عدم التصديق . . .

قال ليلى بفتور : لم يغتصبك احد . صقر نائم في غرفته . كنت بالتأكيد تحلمين . حادثة ابنك هزت اعصابك وهذا طبيعي .

ولكن باب غرفتها فتح من جديد ، وغادرها صقر ، منسلاً الى غرفته المجاورة . . ولم ير النسوة الواقفات في آخر الممشى . . . ولم يلحظ الدهشة تعلو الوجوه . . .

حين غيبه الباب ، تابعت ليلى بقسوة : اعصابك متعبة . لم يغتصبك احد . أليس كذلك يا دنيا ؟

ظلت دنيا صامتة . تابعت ليلى : عقدك جميل يا كوكو . . ولكن الوقت غير مناسب لارتدائه . هيا بدلي ثيابك بسرعة ، وتعالي ساعدينا . . ثمة عمل كثير يجب انجازه . . .

***

عادت كفى الى الغرفة . بدلت ثيابها بيدين مرتجفتين . تمنت ان يخاطبها خليل . ان يقول اي شيء ليتشاجرا على الاقل . لم يلتفت صوبها . ظل في جلسته على مقعده وقد دفن رأسه بين يديه . . كادت تسأله عن صحة رامي ، لكنها تذكرت انه بخير وجراحه بسيطة . .

نادته : خليل . . .

لم يجب وقررت بصرامة (لا ابالي بما يحدث لاحد . « يا ربي نفسي » انا ، وانا فقط . لن ادع الالم ينخرني من الداخل وسأسكت الاصوات كلها في اعماقي لاظل سعيدة . غداً «ليلة المليار»، وسألتقي بـ ٣٠٠ مليونير على الاقل وابهرهم . لقد تفتحت امامي ابواب الحياة)

ولكنها غادرت الغرفة وهي تقول لنفسها بصوت عال : لعله مات . . هو أيضاً ! . . .

***

بعد ذلك اللقاء ورغيد الذي ينذر بعاصفة ، لجأ نديم الى غرفته (الموقتة) في القصر ، متأملاً السحب السود الحارة المنذرة بعاصفة هي ايضاً . حين دخلت دنيا الى الغرفة ظنته نائماً فهزته لتوقظه . لم يكن نائماً . . اغمض عينيه لحظة دخولها ليتحاشى الحوار واياها . . كانت احجار المدرسة المنهارة تتساقط فوق رأسه ، والفضيحة المدوية التي ما يلبث ان يعلم الناس بها جميعاً تهوي على عنقه كمقصلة تروح وتجيء .

تهزه : نديم . . انهض حدث شيء مروع . .

سألها : وانت ايضاً علمت بالأمر ؟ كيف ؟

قالت : شاهدته يغادر غرفتها . .

ـ عمن تتحدثين ؟

ـ وانت . عم تتحدث ؟

ـ لماذا ايقظتني ؟

ـ لقد اغتصب كفى . . صقر اغتصب كفى . . وخليل لعله . . .

قاطعها نديم غاضباً : تفاهات . . هذا كل ما يشغل بال النساء . . ما همنا ان كان اغتصبها ام لا . . ولماذا يغتصبها وهي تغازله امام عيني زوجها والناس كلهم منذ اللقاء الأول ؟ . .

ـ لا ادري لماذا . . لكنه اغتصبها . .

ـ ربما كانت المسرحية تمتعها . . دعيني وشأني . .

ـ لقد اغتصبها حقاً . . ليلى ترفض ان تشهد ، وانت تتظاهر باللامبالاة ، وتجهل انني اعرف علاقتك بها . .

ـ لكن ذلك غير صحيح . .

ـ انت كاذب . .

قال نديم يائساً : عمرنا كله كذبة كبيرة . . والآن ترفضين هذه الكذبة الصغيرة ؟ . . علاقتي بها . . علاقة صقر بها . . كلها تفاهات . . تجاوزيها كعادتك . .

ـ لم اعد اقدر . . وقتلك لبيكاسو لن يرهبني . . وطعنك لصورتي لن يبدلني . .

ـ اقسم انني لم افعل . . انت مشيت في نومك وطعنت الصورة . . وبيكاسو لا اعرف عنه شيئاً . . لعله هرب . . او دهسته سيارة . .

ـ لن توهمني بانني مجنونة . . ولن تجد مصحاً واحداً يقبل بسجني . .

ـ ارجوك يا دنيا . . دعينا من كوكو ، ومن لوحتك وكلبـك وفنك وتلك التفـاهات كلها . .

ـ اذا كانت هذه « تفاهات » ، ما الجدي في نظرك ؟ . . على اية حال ، سأقول مـا رأيت ، وسأشهد بالحق . . صقر اغتصب كوكو برضاها . أريد ان يعرف الجميع انك لست عشيقها الوحيد . . هذا انتقامي منكما .

(ادهشها صوتها وهي تقول ما تقوله ! ما الذي حدث لها وبدلها ؟ ولماذا عادت المشاعر تتدفق داخلها على غير هدى ؟ سلوكها مشوش ، وعاجزة عن ضبطه) يهددها نـديم : سيغضب رغيد . .

ـ لا يهمني . .

ـ سأدفع انا الثمن . .

ـ لا يجرؤ . . لا يجرؤ على ايذاء نملة . . سأهدده بدوري . .

قال بلهجة يائسة : ارجو ذلك . ارجو الا يجرؤ على ايذائي انـا على الاقـل ، قبل النملة ! . .

سألته ببعض الاهتمام : ماذا بك ؟ . .

دفن وجهه بين يديه . .

ـ ماذا حدث . قل لي . . اياً كان ما كان ، لقد عشنا معاً اعـواماً طـويلة . . هي شبابنا . . اي حياتنا . . ولن نحصل على سواها . لن يعيدها احد الينا لنبدأ من جديد . . لقد تورط كل منا بالآخر ماذا حدث ؟ . .

ـ هل انت صديقتي ؟

ـ لا ادري . . لكنني سأحاول ربما من اجل نفسي لا من اجلك . . بالتأكيد لم اعد حبيبتك ولكن . . . اولادنا مشتركون اي ان مصائبنا بمعنى ما ستظل مشتركة لوقت طويل . . قل لي . . ماذا حدث ؟

ـ دنيا . . اظنني سأواجه ورطة خطيرة . . سأبوح لك بسر . . لا تطلعي عليه احداً . . واذا اخبرك احد بالنبأ فتظاهري بانك كنت تجهلينه

ـ يكفيني تشويقاً . . ماذا حدث ؟

ـ رغيد سيكون حريصاً على رضى صقر اكثر من اي وقت مضى ، لأن الحرب ستقوم بينه وبين الاب الغنمالي . .

ـ لماذا ؟

ـ لان عبد الله احد ابنائه قتل البارحة . . انه ابنه من زوجته المحلية « صيتة » . . واظنها ابنة عمه او قريبته مما سيزيد في تعقيد الامور . .

ـ وما شأننا بذلك ؟ قبلها مات احد ابنائه المدللين في سقوط طائرته الخاصة الهليكوبتر . . وقبلها . . . قاطعها نديم : مات عبد الله حين انهارت المدرسة فوقه ، وعشرات سواه . . المدرسة التي عمرها رغيد . . أعني ، عمرناها . .

صمتت قليلاً . . همست بهدوء مذعور : ولكنك لست مسؤولاً . . رغيد هو المسؤول . . . هو او كبير مهندسيه . . لا شأن لنا بهذا . .

ـ بالتأكيد ، لكنني خائف . .

ـ لماذا ؟

ـ لا ادري بالضبط ، لكنني خائف . . لا بد من كبش فداء في احوال كهذه . . الديناصورات الكبيرة قد تقتتل فيما بينها ، وقد تجرح بعضها بعضاً . . لكن الامر ينتهي دائماً بأن يدوسوا بعض معاونيهم . . ويقدموا البعض الآخر كبش فداء . .

ـ لا تخف . . .

قالتها وهي ايضاً ترتجف ذعراً . . كانت قد عايشت مجتمع الديناصورات بما يكفي لتفهم جيداً ما يعنيه زوجها .

وفكرت بمغادرة الغرفة قبل ان تؤنبها ليلى التي تشكو باستمرار : « لا احد يعمل سواي من اجل ليلة المليار » . . .

كم تبدلت ليلى وصارت متسلطة وقاسية . . وربما حانت فرصتهـا الآن لقطف رأس نديم، والحلول مكانه . .

الكوارث كلها تبدأ بغلطة صغيرة . . لقد دعتها الى تلك السهرة نصف مشفقة ، كما تدعى اية مطلقة اربعينية فقيرة لترفه عن العجائز . . فالتقت برغيد . . واصطادته . . وها هي الآن تهدد رزقها وامنها . .

لا امان في بحار اسماك القرش . . ولا صديقات . .

ترتجف ذعراً وتكرر : لا تخف يا نديم . .

هل هي حقاً مشفقة على نديم ؟ ام شامتة ؟ لا تدري بالضبط . . كل ما تدريه هو انها خائفة ، كمن كانت تركب سيارة الرولزرويس المذهبة في حديقة حديثة ، للحيوانات مطلقة السراح ، وكانت تتقن قواعد اللعبة : تترك نوافذ السيارة مغلقة . لا تسرع كي لا تستفز الوحوش ، ولا تتوقف ايضاً . . وفجأة وجدت نفسها وحيدة في الغابة ، بلا سيارة ، وقد مضى الناس جميعاً ، وذهب القناصون الذين يوكـل اليهم امر قتـل اي حيوان في حـالة الطوارىء ، وانهارت قواعد اللعبة التي كانت ترسم خط سير الوحوش ومواعيد تخديرها ، وتضمن حماية راكبي السيارات المحصنة . .

وعليها ان تواجه فوضى الاشياء المفترسة من جديد . . وريثما تستعيد الغابة نظامها ، عليها ان تحمي رأسها وحيدة من اللحظة التي طالما اشتهتها : لحظة حريتها . .

* * *

كان رغيد في دربه الى سيارته حين لحقت به ليلى وهي تنوي ان تحدثه بشأن النقود . . وبدأت الحديث بلعب دور (الجاسوسة) استدراراً لثقته ، وتذكيراً له بحاجته اليهـا . . فهمست : ثمة متاعب . . صقر اغتصب كوكو . .

ـ هذا ما كان ينقصني . .

ـ لقد منعتها من الكلام . . افهمتها ان احداً لن يصدقها ، ولن اشهد معها . .

ـ من رآهما سواك . .

ـ لا احد . . باستثناء دنيا . . لكنني سأتكفل بها . .

ـ وخليل ؟

ـ لعله فعل . خيل الي انني لمحت شخصاً . . لست متأكدة . . كنت اعمل . . اظنه لما

يعد بعد . لو عاد خليل لاقترب والقى التحية . .

ـ انه بالتأكيد لم يعد . لو رآهما لما قبل بالسكوت . . تعرفينه . . والآن اسمعي يا ليلى . . لدي أعمال طارئة . . تولي انت كل شيء . . كوني شريكتي في حمل متاعبي . . ولن تندمي . .

كادت تطلب منه نقوداً . كانت قد قررت ان تلح . . لن تنتظر حتى الغد . . انها امرأة كثيرة الشكوك والمخاوف ، وتعرف ان توقيع شيكات بدون رصيد تعني الفضيحة والسجن . . صحيح ان رغيد سيدفع غداً فجراً كما وعدها ، لكنها حذرة وتصر على المبدأ . . عبارة « كوني شريكتي » كانت كالسحر . . خدرتها برهة ، ريثما غادرها رغيد وخلف لها صوته : اختاري انت مقاعد الضيوف ، واجلسيهم الى المائدة كما تشائين . . لدي عمل طارىء ولا اجد سواك سنداً . . .

وبينما كانت ليلى تفكر هل يعجبها اسم « ليلى الزهران » وتقرر انه ليس رديئاً ريثما تصبح واحدة من اغنى ارامل العالم، كان رغيد يتخلص من سائقه ، ويقود سيارته بنفسه بلا حراس . .

لا مفر من المغامرة لينجو من كارثة انهيار المدرسة وموت عبد الله . . ولن يدع تفاهات كهذه تفسد عيد ملياره الأول ، وملياره الثاني الاكيد .

***

دخل رغيد مجلس صخر والدموع تغطي وجهه وهو يصرخ : ما هذه المصيبة يا اخي صخر . . . جئت للتعزية . . .

صرخ صخر ملسوعاً : لا عزاء قبل ان اسلمك للمحاكمة . . . ستقضي بقية حياتك في السجن . . . لقد تسببت بموت ابني عبد الله تحت الانقاض وموت عشرات الاولاد . . .

ـ اهدأ يا صديقي . . . صبرك الله على مصابك . . . ثم التفت رغيد الى الجمع قائلاً : دعونا وحدنا قليلاً . . . فغادر الحاضرون الغرفة ، وكل منهم يسبق الآخر الى الباب . . . لا احد يرغب في ان يكون شاهداً على شجار « المليارين » ، فامزجة الاثرياء تتبدل كثيراً ، والشاهد يدفع الثمن ، وقد ينقله احدهما ـ دون ان يدري كيف ـ من منصة الشهادة الى قفص الاتهام . . . هذا ما يعرفه اهل المجلس بكل تأكيد . . قال صخر : كيف تجرؤ على الحضور الى بيتي . . . بعدما قتلت ابني . . . وخربت سمعتي في بلدي . . .

وقضيت علي لعنك الله . .

تابع رغيد نواحه : وكيف لا احضر الى بيت صديقي واخي وحبيبي في مصابه . . .

ـ الم يخبرك نديمك او حدسك انني سأسلمك للعدالة تقتص منك ؟ ستحاكم هناك ، واذا لم تذهب بنفسك ، اختطفتك وحملتك الى قاعة المحكمة بنفسي . . .

ـ لا الومك يا أخي . . . لو كنت مكانك لفعلت اكثر . . . ولكن نديم لم يقل لي شيئاً . . . المسكين . . . ضميره يؤنبه . . انه صامت كأنه اصيب بالخرس . . والندم يتصبب منه عرقاً . .

ـ ماذا تعني ؟

ـ نديم لعنة الله عليه . . . انه سبب الكارثة . . . لقد خدعنا معاً . . الم يصلك النبأ بعد ؟ الم يخبرك معاونوك بجرم نديم ؟

ـ ماذا ؟ .

ـ لقد جاء معترفاً . . . انها لعبته ، وقد شاركه المهندس إياه . . .

ـ سَأقتله بيدي اذا كان ذلك صحيحاً . . .

ـ لا ضرورة لتلطيخ يديك الطاهرتين به . . . لقد اقنعته بتسليم نفسه . . والاعتراف بجرمه . . . اما المهندس فسأعاقبه بيدي بعد انجازه بناء مشروعنا الكبير الحالي : المجمع السياحي . . .

ـ يا الهي . . . ظننتك انت مسؤولا . . . .

ـ سامحك الله يا اخي . . هل نسيت صحبتنا ؟ . . معقول ؟ ما كدت اسمع بالنبأ حتى جئت كالمجنون . . . بدون سائقي ولا حارسي . . . سأمضي الآن لأضمن تسليم نديم لنفسه ، ولتأخذ العدالة مجراها بوضوح دونما تلطيخ اسمينا الناصعين البريئين . .

رافقه صخر الى الباب غير مصدق . . . يعرف ان رغيد لا يمشي خطوة بدون حارسه وسائقه . . . فوجىء بالسيارة امام الباب ، فارغة ، محركها ما زال يدور وبابها مفتوح . . . غمرته طيبة قلبه ، فعانق رغيد وهو يبكي ابنه عبد الله ويقول : لعن الله الشيطان يا صديقي . . وسامح اخي هلال الذي ادخل هذا الشك في قلبي . . .

عبر النافذة شاهد الحضور عناق العملاقين ، مليار يضم اليه الآخر ، فاشاحوا بوجوههم خوفاً . . لا يريدون لعب دور الشهود في شجار او صلح بينهما . . .

قال رغيد : بحرية بحاجة الى الراحة . . . هل ترضى باستضافتها ليلتين ، الليلة وغداً

ريثما ينتهي كل شيء ؟ لن يكون بوسعها حضور «ليلة المليار» على اية حال، ولا مبرر له ما دمت لن تأتي . . وقد جربت الغاء السهرة حداداً على عبد الله لكن مدام سبوك افهمتني ان نصف الحضور قد وصلوا ، وليس من اصول الضيافة العربية طرد الضيوف . . . سنلغي طبعاً كل ما له علاقة بالطرب ، وستكون سهرة متقشفة . . . فهل يمكن ان تستضيف بحرية هذه الليلة وغداً ؟

ـ انها قريبتك ، اي قريبتي . . . وبيتي هو بيتك . . .

ـ وابنك هو ابني . . . رحمه الله . .

وعـاد رغيد الى البكاء قائلاً : سأرسل بحرية مساء . . . هل ستضايقك زيارات طبيبها ؟

ـ من يحرم طفلة مسكينة من علاجها ؟ شفاها الله ومتعها بالعافية . . ستكون امانة بين يدي . . .

ـ لو لم اكن واثقاً من ذلك لما وكلتك امرها . . .

ـ والشيخ وطفان . . . هل سيحضر السهرة ؟ . . . ام ان الضجيج يضايقه هو ايضاً ؟

ـ لقد غادر البيت منذ الصباح . . ذهب الى الفندق . . .

ـ انه رجل فاضل . . . سأذهب غداً لرؤيته هناك ، وقد ادعوه الى مجلسي الليلة . . .

ـ هل ستسافر الى الوطن لحضور الجنازة ؟

ـ لا استطيع . . . منعني طبيبي . . قرحتي تنزف ، وقد اضطر لاجراء عملية جراحية اذا لم تنفع معها العقاقير ، وتعاويذ الشيخ وطفان . .

ـ الى اللقاء يا صديقي . . . ومعذرة على هذه الزيارة غير اللبقة . . .

ـ لو انك فعلت اي شيء آخر ، لظللت اشك بك واحقد عليك . . . ولانتقمت لمصرع ابني . . .

واقلع رغيد بسيارته وضحكة شيطانية تملأ وجهه الدامع . . . ولم يكن ليكذب حين بكى او ضحك . . كان صادقاً في كذبه حتى الاخلاص . . .

***

شيء ما في هذا اليوم المختنق الخانق يفجر الاشياء . . .

. . . ولا تدري ليلى مبعث الضيق الغامض الذي استولى على قلبها غارساً مخالبه

المعدنية الشرسة . . .

لعلها مرهقة ، وهي تنظم جيشاً من الخدم والسقاة عليهم الحضور غداً وتمثيل ادوارهم على اتم وجه في ثياب مسرحية استأجرتها لهم بنفسها، واشرفت على تجربتها لهم كما طاردت كل صغيرة وكبيرة تخص الحفل ، بدءاً بالديكور والبروتوكول ومروراً بمواعيد وصول الطائرات الخاصة التي تحمل الطعام المستورد المتعدد الاصناف والفاكهة من اقطار الارض كلها ، بحيث تجتمع الفصول الاربعة على المائدة ، وانتهاء بأهل الطرب الذين سيزينون الحفل ومواعيد اطلالاتهم كي لا يسرق احد الكاميرا و (الشكشكة) ويدب شجارهم امام الحضور ، وتأمين مواقف سيارات (العظماء) الذين لا يمشون خطوة ، فلكل خطوة معناها وقد تسقط اسعار العملات في البورصة اذا لم يحسب احدهم مدلول خطوة غير مدروسة على رقعة شطرنج المليارات ، وسماجة الكهربائي الذي يوضب الميكروفون لاذاعة اسماء الحضور . . .

« ليلة المليار » يجب ان تحمل بصمة المليارات ابتداء بمناشف الحمام المطرزة باليد بخيوط الذهب حاملة تاريخ هذه المناسبة ، وانتهاء بـ (خدم العتبة) الذين يمسحون اخمص احذية الضيوف قبل دخولهم الى القصر نصف راكعين . .

لكن ضيقها كبير وشاسع ، ويتجاوز هذه التفاصيل كلها . . . ضيق واضح المعالم كالقبر ، وغامض كنهايات الافق . . ضيق له لون داكن مخنوق ، وطعمه شديد المرارة بين اسنانها المشدودة باحكام كفكي جثة متصلبة . . .

هل هي تلك السحب السود التي تتكاثر منذ الصباح كجند عدو غامض ، من بعض اعوانه الجراد البني . . . وتلك الرطوبة الجنائزية الجاثمة على القلوب كحجر القبر ؟ . . وتلك الومضات الشبيهة ببرق سري محجب ، ما تكاد تلمحه حتى يختفي ، مؤججاً في نفسها مخاوف غامضة : . . كمن يقرأ رسائل عدوانية بالتخاطر ؟ . . . ولكن ، لا . . هي امرأة عملية . . وكل موجة حر (كانيكولية) غير طبيعية لا بد من ان تنتهي بعاصفة رعدية هوجاء . . . فهل الذي يقلقها هو غياب الرعد وحضور البرق الخاطف والظلام ؟ ولماذا تحس ان السماء تظلم لها شخصياً ، والسحب تتكاثف لترعبها وحدها ؟ . . .

لماذا لا تعترف انها خائفة من رغيد . . . خائفة من ان يغدر بها كما غدر بسواها ، بعدما وقعت تلك الشيكات دونما رصيد . . . وبالمقابل ، لماذا لا تقر انها كانت تعرف مسبقاً ان مهنة « رجل الاعمال » تنطوي ضمناً على مغامرات يومية كهذه ، وانها حين اختارت دربها ،

رضيت ضمناً بعنصر المقامرة الـذي لا مفر منه كشرط لكل ربح باهظ ؟ (علمني الزمان انه غادر حقاً . . . لم اعد اطمئن لزمن القلب . اذكر رجالاً احببتهم بصدق لحظة قلتها لهم ، والآن عبثاً اتذكر اسماءهم كاملة . . اعرف رجالاً اسندت رأسي الى صدورهم ، وتوهمتها مرفئي الاخير ، وجاء يوم صار فيه الصديق عدواً وقلب الحبيب وكر دبابير . . . كانوا رجالاً لا يخلون من النبل والشهامة ، ولم اثق بهم تماماً . . . فكيف اثق الآن برجل من نمط رغيد ؟ وكيف وقعت شيكات بدون رصيد ؟ وماذا لو قال لي غداً : لن ادفع . إفعلي ما بوسعك ؟ . . لماذا يفعل ذلك بي ؟ ولماذا لا ؟) . .

حين عاد رغيد ، لحقت به للي وقد قررت عدم الانتظار حتى صباح اليوم التالي . . . يجب ان يدفع الآن . . . لن يكون بوسعها النوم اذا لم يفعل . . . ستقول لـه انها قضية مبدأ . . . وليكن ما يكون . . .

حين شاهدها اتجه نحوها قائلاً : للي . . . الحمد لله انك هنا . خشيت ان تكوني قد ذهبت الى الفندق . . اريد ان اتحدث اليك . .

ـ وانا ايضاً . . .

ـ للي يجب ان تساعديني . نديم قام بلعبة اختلاس كبيرة . . . عملية غش في مواد البناء . . . انهارت المدرسة التي عمرناها وقتل تحت انقاضها الصبي عبد الله ابن الشيخ صخر من زوجته وقريبته صبيته ، وقتل وجرح عشرات سواه . .

ـ هذا مربك وتوقيته سيء . . .

تابع رغيد : سأقنع نديم بالاعتراف وتسليم نفسه للقضاء . .

ـ ذلك خير للجميع . . وسيكون بوسعك مساعدته فيما بعد . . .

ـ هذا بالضبط ما انوي عمله . . . والآن ، اريد منك ايصال بحرية الى قصر الشيخ صخر . . . الضجيج يؤذيها . . . ولا اريد ان تهبط عارية ومخدرة كما فعلت ليلة السهرة اياها كما تذكرين . . .

ـ وستؤنس وحدة الاب المفجوع . . .

ـ ستلهيه قليلاً عن همه ، ريثما تمر «ليلة المليار» ونتفرغ له . . . لقد خدرت غضبه وحزنه قليلاً ، لكنه سيثور دونما شك حين يكلمه هلال وابناء قومه واسر بقية القتلى . . . انه طيب القلب ، كلمة (تأخذه) وكلمة اخرى تبدله فخذيها اليه . . .

ـ فكرة ممتازة . . . ولكن آمل الا تزعجه . . . تعرف ان بحرية لا تخلو من خطر

غامض . . . والا لما كره ساحرك الجبار حضورها . . .

ـ انها نصف مخدرة باستمرار . . . سأحرص على ان يتأكد الطبيب من ذلك بنفسه . . . . ثم ان (وجهها شر) وحضورها فأل سيء . . . اللعنة على الذي احضرها . . . لا اريدها هنا «ليلة المليار» ومن يدري اية كوارث تحملها ليلة ميلادها المشؤومة تلك ـ ان صح تاريخ جواز سفرها ـ .

ـ حسناً متى تريد ان اذهب بها ؟ . . .

ـ في اسرع وقت . . . المعذرة، هذا خليل واريد ان اتحدث اليه . . . ثمة عملية يجب ان يتولاها بالنيابة عن نديم . . .

وتركها فجأة كما حط عليها . . . ومضى نحو خليل شبه مبتسم . . . لقد قال لها ما عنده لكنها لم تقل ما عندها . . . حسناً . . سترجىء ذلك حتى المساء . . . وقبل موعد فتح البنوك غداً ، سيكون « شيك الثراء » في طريقه الى البنك . . . وستصير ثرية بتوقيع واحد من يد رغيد . . . ستغطي قيمة الشيكات التي وقعتها دونما رصيد منذ دقائق وسواها ، وستفيض ثروة من الفرنكات لحسابها الخاص . . . فالأسعار التي قدمتها في فواتيرها هي ثلاثة اضعاف الرقم الاصلي . . . وهي ليست بالضبط سارقة : انها تتقاضى اجرة اتعابها . . . على طريقتها . . .

لن تقدم خدمة بعد اليوم مجاناً ، اية خدمة . بل انها لن تصافح شخصاً دون ثمن مادي محسوس . . .

(لطالما وهبت دونما حساب . . فاكتشفت انني لم اكن اكثر من حمقاء ستموت وحيدة وفقيرة . . . الآن ، سأموت وحيدة وثرية . . . وهذا افضل) .

***

صافح رغيد خليل بحرارة غير مألوفة من رجل مثله **(ترى ماذا يريد مني الآن ؟ . . . اغادر الغرفة باحثاً عن نسيم ، فيطلع لي رغيد . . . يا له من حظ) . . .**

ـ الحمد لله على السلامة . . . لم ارك ظهراً . . .

ـ وصلت قبل قليل . . . كنت في المستشفى . .

ـ وكيف حاله ؟

ـ بخير . . . لكنه يعاني من رضوضه . . .

ـ لا تخف الاطفال يتعافون بسرعة . . . هل التقيت بكوكو ؟ . .

ـ لم ارها منذ سفري . . . (**لن اقول له انني لمحتها في الفراش وصقر في استقبال خاص اعداه لي !) . . .**

ـ انها هنا . . . لعلها ترتاح في غرفتها او تساعد بقية السيدات في العمل . . . اريد ان اتحدث اليك . . . تعال معي الى غرفة المكتبة . . . ثمة مهمة اضافية اريد ان اكلفك بها ، وستدر عليك مبلغاً اضافياً لم تحلم به . . . مهمة كان يفترض ان يقوم بها نديم ولم يعد ذلك في وسعه لاسباب طارئة ستعطله عن العمل زمناً ما . . . قالها رغيد وهو يتأمل وجه خليل المنهك ، ثم بدل رأيه فجأة حين وصلا الى المكتبة ، وحين سأله خليل دونما مواربة : ماذا تريد مني بالضبط ؟

اجابه رغيد : اريد منك ان تنام حتى موعد العشاء ، لأنك تبدو الآن كجثة متحركة . هل شاهدت وجهك في المرآة ؟

ـ لا اعرف كيف ابدو . . . اعرف كيف اشعر . . .

ـ حسناً . . اذهب الى النوم . . . سنتحدث ليلاً بعد العشاء . . . ثق بي ، وسيكون كل شيء على ما يرام . . .

كان رغيد المحنك قد ادرك بخبرته الطويلة في التعامل مع الرجال ان ابواب شهوات خليل في تلك اللحظة موصدة . . .

موصدة ارهاقاً ام رفضاً نهائياً ؟ لا يدري بعد . سيتركه لأصابع الراحة تدلك اعصابه المستنفرة كأشواك قنفذ ، ثم يجرب ثانية بعد العشاء . . . إن كارثة انهيار المدرسة يجب ان تعالج بسرعة ، وفي الوقت ذاته لا يجوز ان يفسد غياب نديم بقية الصفقات التي كان يديرها . . . . ولعل خليل يهتم ببعضها . . .

***

مساء الخير يا بحرية يا اغلى مخلوقة الى قـلـبي . . . تسمعـين ، او ، لا تسمعين ، تجيبين ، او ، لا تجيبين . . . . لك عمري اذا كان يصلح لشيء . .

أدخل نسيم اليها صينية عليها شاي بعد الظهر ، وهو يحدثها بصوت عال دون ان ينتظر رداً ، منذ وصلت وهو يخاطبها ويدللها بحنان دون ان ينتظر اي مقابـل . تأمـل وجهها الغامض الصلد وهمس : سمعت انهم سينقلونك الى قصر الشيخ صخر الغنمالي . لا مجال

الآن لسرد التفاصيل . لا تخافي لن يجرؤ احد على ايذائك وسأتبعك وسأحميك بأية وسيلة . . . ولكن احذري منهم على اية حال . خذي ، هذا عنوان امير النيلي ، وهو انسان نظيف يخاف عليك خوفي ، احتفظي به جيداً . لم تتبدل ملامحها الغامضة ، ولم تقل شيئاً . تابع كمن يخاطب نفسه: لا ادري ان كنت تسمعينني ام لا، تفهمينني ام لا ولكنني مصمم على محاولة مساعدتك . خذي بعض النقود للتاكسي اذا اضطررت للهرب . اعذريني ، لا املك المزيد . ودس العنوان والورقة النقدية في يدها ، وتأملها جيداً قبل ان يغادر الغرفة : تبدو متوهجة متألقة ، وقد استعادت عافيتها بعد تغذية جيدة لم تألفها وراحة لا يبدو انها عرفتها منذ طفولتها ، وعلاج . . . تبدو حية خارقة القوة ، كأن ذلك الساحر الذي يذوي في الجناح المقابل لم يقض لياليه منذ حضورها وهو يغرس الدبابيس السحرية في دميتها ويحرق في النار صورتها ويزرع تحت مطرقة الحداد صورتها محفورة في لوح من الرصاص كي يصيب العفريت الذي يقطنها الصداع كلما طرق الحداد . . كأنه لم يعمل ليل نهار كموظف سير للجان الذين يريد طردهم منها او ادخالهم اليها . . ضحك نسيم ملء قلبه للفكرة ، وطرب وهي تغمره بما يشبه ابتسامة ، وقبل ان يغادر الغرفة قال لها متوسلاً : عودي الى النوم . . . لا تقولي انك شفيت . . لا تكلمي احداً . . انهم يحضرونك لوليمة لن تسرنا . . . لا تتناولي بعد الآن الادوية المخدرة . . غافليهم وتخلصي منها . . احتفظي بصحوك في الايام القادمة . . . خيل اليه انها تعرف ما يُعَدّ لها . . وانها تمتلك صلابة داخلية يجهلونها ، هي التي تعذبت طويلاً عذاباً لم تفصح بسره لأحد . . كأنها تعي ان دورة الاحزان تتجدد . . . يتبدل وجه « العاشق ـ الجلاد » من رغيد الى صخر الى غيرها من الاسماء ، ويتبدل اسم الساحر من وطفان الى حمدان ويتبدل اسم القصر . . . .

وتظل الحرب نفسها تدور . . . وتظل بحرية معذبة ومتماسكة . . . ويظل الساحر معذباً ومجنوناً بعشقه الكاره لها . . .

هل يمكن ان يدوم ذلك الى الابد كالكوابيس ؟ اما من سلام لهذه السبية الممزقة حروباً ؟

***

ظل نسيم يحوم حول الباب الخارجي ، متظاهراً بتنظيف المدخل ، حتى شاهد ليلى ترافق بحرية الى السيارة الفاخرة التي توقفت امام الباب . لم يهبط رغيد لوداعها . (تراه

يتعذب هو ايضاً لفراقها ؟ وهل يقطن الالم في كل مكان ، حتى داخل قلوب الجلادين وموظفي التعذيب والقتلة ولو لبرهة عابرة ؟) . . . كانت السماء قد اظلمت بالسحب المتراكمة طبقات ، والتي تهرول كأرواح ضالة . . . وحين رفعت بحرية وجهها صوب القصر فيما يشبه نظرة وداع ، فالى الغيوم وتنهدت ، خيل اليه ان البرق ومض للمرة الأولى بوضوح خلف القصر بالضبط عند منتصفه مثل سيف اسطوري يكاد يشطره الى نصفين . . . ثم فارقتها نظرتها الزجاجية الغائمة كما خيل اليه ، وحدقت في وجه ليلى بنظرة فاتكة من تلك التي يصفها الناس بقولهم (لو كانت النظرات تقتل) ، وارتعد وقال لنفسه : لو . . . لسقطت ليلى رماداً . .

لكن ليلى سارعت تحثها على الصعود الى السيارة ، ولحقت بها بعدما تناولت حقيبتها الخفيفة الوزن من نسيم . .

وحين تحركت السيارة ، خيل اليه ان بحرية غمرته بنظرة حنان ومودة . . . ام تراه كان واهماً ؟ . . كاد قلبه يطير في صدره . . . لحظة عذبة دامعة . . احس بالحاجة الى ان يكلم صديقاً . . التفت خلفه فشاهد دنيا . انه لم يثق بها يوماً ولن يثق بها رغم تعليمات امير . سيحمل القهوة الى خليل . لقد اوصله الى غرفته دون ان يتبادلا غير كلمات مقتضبة . . . يحس بالحاجة الى ان يفتح له قلبه . . . بحرية . . شقيقيه . . اذا لم يكلم انساناً ، ستنفجر جوارحه الغضة واعوامه الشابة المضغوطة في معلبات الحكمة الارغامية ! . . .

***

« يا حادي العيس سلم لي على امي . . . واحكي لها ما جرى واشكي لها همي » . . .

يدندن خليل وحيداً في الغرفة التي افردتها ليلى له ولكفى ، بمناسبة «ليلة المليار» . . . يدندن اغنية على انغام لحن اليف حفظه عن جدته . . . اين هي الآن ؟ اسرته ؟ بيروت ؟ . . . لقد انتقل من جحيم الى آخر . . . كان يعود من السجن الى اسرته فيلتقيهم ، اما الآن فقد عاد ليجد طفله في المستشفى . . ويا له من لقاء مع زوجته . . . **(قال لي نسيم وهو يستقبلني : كيف حال رامي ؟ كنت اعرف انه بخير . زوجتك ؟ اعتقد انها ما تزال في صالة الاحتفالات الكبيرة ، تساعد في احصاء الآنية الذهبية واعداد المائدة من اجل « ليلة المليار» . . . قالها لي نسيم شبه معتذر لانها لم تزر الصبي في مستشفاه ، وهو**

يرشدني الى هذه الغرفة في شبكة عنكبوت الذهب ، وودعني مسرعاً امام الباب واعلن انه سيعود الي بالقهوة حين يتسنى له ذلك . وحين دخلت فوجئت بصقر الذي لم اصدق انني تخلصت منه ، يمتلك زوجتي ، ثم يسألني كم اريد ثمناً لمباركة ذلك !) . . .

« يا حادي العيس سلم لي على امي . . . واحكي لها ما جرى واشكي لها همي » . . .

يشعر بوجع كلما تنفس . . . ذلك المسحوق الابيض اللعين ادمى انفه ، وكاد يدمره . . . وها هو يهرب من كابوس الى آخر . . . من كوابيس بيروت الى كوابيس الغربة . . . ومن كوابيس صقر الهذيانية إلى كوابيس رغيد . . . ومن كوابيس مصرع وداد الى كابوس رضوض رامي . . . وكابوس الكوكايين رحلة في قارب الذعر. . . لقد نبتت الحشرات تحت جلده ، وشاهدها تركض على اصابعه ، وتأمل يديه كأنهما حيوان يجهله ولا يمت اليه بصلة ، ومشى على الخيط بين الجنون والتماسك في عتمة النفس الشيطانية الأسرار . . . وها هو قد عاد ليتلقفه رغيد متوهماً انه ضحية بشرية جديدة في معبد الذهب . . . لا يدري بالضبط بأي سيف ينوي ذبحه ، وقرباناً لأي مليار ، الثاني ام الثالث . . . لكن ذلك لن يحدث له كما حدث بمعنى ما لنديم ـ كما استشف من كلام رغيد ـ . . . انه ببساطة لا يدري لماذا عاد الى هنا ، بعدما قرر نهائياً العودة الى هناك . . . الى بلده . . اذا كان لا بد لرامي من الموت ، فليكن ذلك في وطنه ، لا في تلفريك الغربة معلقاً بين السماء والأرض . . . تطلع من النافذة . . . شاهد للي تمسك بحرية من ذراعها وتساعدها في الصعود الى السيارة خلسة ، كمن يحمل طفلاً ينوي رميه امام احدالابواب في الظلمة . . . يلحق بهما نسيم حاملاً حقيبة ، وشيء ما في وجهه يقول انه يشتهي التحدث الى بحرية ، وللي تحول بينهما ، وكل شيء يحدث بسرعة ، ويعود نسيم وهو لا يلوي على شيء ، ام خيل اليه ذلك كله ؟ شعر باضطراب عظيم . . ماذا يفعلون ببحرية ؟ الى اين ينقلونها ؟ لماذا ؟ تمدد فوق فراشه واغمض عينيه . . . لا لم يخيل اليه ذلك ، كما لم يخيل اليه انه لمح كفى تركب السيارة الى جانب نديم ذات يوم ، ولم يخيل اليه انه شاهدها تنسل الى الفندق وايطالياً غريباً يوم رحيله ، ولم يخيل اليه انه سأل عنها في الفندق ذات ليلة سفر وقيل له انها غير موجودة ، وكانت الساعة حوالى الثالثة فجراً . . . انه لم يبال حقاً يومئذ بذلك كله ، كما لم يغضب بما يكفي حين شاهد زوجته وصقر يتبادلان الحب الشرس ، وحين سأله صقر كم يريد (خلواً) لها ، فلماذا يستولي عليه الآن غضب محموم مفعم بالقلق وهو يراهم

(يشحنون) بحرية خلسة ؟ الم يختر رغيد «ليلة المليار» لأنها ليلة ميلادها المدون في جواز سفرها على الأقل ؟

ماذا حدث ؟ هل غضب عليها فجأة ؟ ولماذا ؟ سيبيعها ؟ ما شأنه بذلك ؟ ربما ذهبوا بها الى احد معاهد التجميل لاعدادها لسهرة الغد ؟ ام تراه يرغب في التخلص منها ؟ . . . (ما شأني بذلك ، انا الذي لم يحس بغير الشفقة وهو يرى زوجته تنتقل من رجل الى آخر ، وترتكب حماقات لا يدري مداها ؟ . . تعتب كفى لأنني لا اعرف الغيرة كما يجب . . . هذا صحيح . . لم يعد في قلبي موضع للغيرة كما يجب . . هذا صحيح . . لم يعد في قلبي موضع للغيرة على امرأة . . لم يبق في روحي مكان للشهوات والاهواء النسائية والقلق على رقعة جسد انثى منذ اذلّوا جسد وطني . . وحين ذقت طعم الحرية والكرامة لحظة عدت اميراً عربياً في اسبانيا صار استمرار ذلك هاجسي . . . مجنون انا ؟ ربما . . . اني مجنون بيروت ، مجنون لبنان ، مجنون الوطن لا مجنون ليلى ، ممتلىء قلقاً وجنوناً وهذياناً نحو تلك الشواطىء والحقول والجبال والناس الذين احبهم ولا اعرف اسماءهم او وجوههم . . . لم يعد في جسدي ما ينبض للجنس وانا ارى الجنس البشري يباد هكذا فوق ارضي . . كفى تقول انني مجنون . . واذا كان ذلك هو الجنون ، فاني كذلك . . . ثم ، لماذا يضايقني الامر ما دام لا يضايقها هي ؟ كرامتي ؟ ان كونها حمقاء لا يؤذي كرامتي اكثر مما يؤذي كرامتها . . . والآن يريد صقر ان يدفع لي « خلواً » كي اتخلى له عن عقار جسدها المرمري الفاخر ؟ فليذهبا الى الجحيم . لن انشغل بجسدها عن تلك الاجساد كلها التي تذل هناك وتحرق وتمزق . . . تريدني ان اقول لها بصدق : جسدك وطني وكرامتي . . . وتدعي ان ذلك هو الحب ! . . . ليتني استطيع ان احب بهذه الطريقة واسد الافق بجسدها وانشغل بحدوده عن حدودي وعن كل حدود اخرى واستريح . . . ولكن . . .) . .

دخل نسيم دون ان يقرع الباب ، حاملاً القهوة . . . نسي سكبها في الفناجين كما لو كانت عذراً للدخول لا اكثر . . . قال قلقاً : انهم يذهبون ببحرية . . .

ـ شاهدت ذلك . . .

ـ ليلى تحولت حقاً الى مدام سبوك . . . وصار لها وجه سجانة . . . لكنني دسست في يد بحرية بعنوان امير . . . قلت لها ان تتصل به اذا احاطها مكروه . . . ما اغباني . . . نسيت انها خرساء . . . ام تراها ليست كذلك ؟ بدت لي وكأنها تفهمني حقاً . لقد اطبقت بيدها على العنوان كأنها كانت تتوقع ذلك . . . لعلها تتظاهر بالخرس هرباً من اهل هذا المكان . .

_ اكره هذا المكان . . . اية ريح ملعونة قذفت بنا الى هنا ؟ لا اصدق انني سأنام هنا ليلتين . . . اتمنى لو استيقظ فأجد نفسي في فراشي في بيروت ولو تحت القصف . . .

_ انها الحرب . . . وبحرية واحدة من السبايا . . .

_ ما يؤلم هو انها مسلوبة الارادة وعاجزة عن الدفاع عن نفسها . . لقد ذهبوا بها الى آل الغنمالي . . .

_ سأتحدث الى ليلى حول ذلك اذا اردت . . .

_ ستطردك . . .

_ لن تستطيع ذلك بسهولة . . . سيكون عليها ان تتعاون معي بعد الآن . . رغيد ما يزال يحلم في أن اتعاون واياه .

_ بدلا من نديم ؟

_ تقريباً . . . كيف علمت ؟

_ خشيت . . انه فخ . . لم يعمل رجل معه الا وانتهى به الأمر الى السجن او الجنون او الاختفاء . . .

_ حتى ولو ظل نزيهاً عفيف الكف ؟ . .

_ اسمع يا خليل انت كأخي . . . وانا ضنين بك . . كلما انهرت تذكرتك وغنيت . . «يا ظلام السجن خيم» . . و « موطني موطني » . . استمد قوة حقيقية من ذلك . . . لا أريد لك نهاية كنديم . . . ستسمع اخباراً بشعة لا مجال لسردها في هذه اللحظات ، وسأعلمك بها حين اتسلل اليك ثانية ، لكن نديم سيدفع الثمن .

_ لن افعل ما فعله نديم . . لن افعل شيئاً . .

_ ربما لم يفعل المسكين شيئاً . . .

تذكر خليل المشهد اللامنسي : زوجته في السيارة الى جانب نديم . . . حسناً . . انه لا يبالي بذلك الى حد قتله ، لكنه ايضاً لن يرسل له بطاقة شكر بريدية . . . انه على الاقل (مغتاظ) . . كفى حمقاء ، وكان على نديم الا (يفعلها) . . . وهو الآن لن يبالي بمساعدته ، لن يكيد له لكنه ايضاً لن يقف الى جانبه . . .

قال لنسيم : ليس لدي ما يدفعني للتضحية بشيء من اجل نديم . . . سأستمع الى عرض رغيد ، وسأفعل ما اجده مناسباً لمصلحتي . . . وان كنت اعرف سلفاً ما الذي انوي القيام به . . .

ـ اي عمل مع رغيد لا يناسب مصلحة مخلوق حي الضمير مثلك . . احكم بنفسك ، ولكن حذار من غدره . . خطته الدائمة هي تقديم رجاله كبش فداء او جعل مساعديه يصطدمون بعضهم ببعض ، ويدمر احدهما الآخر . . . سيجعل منك اداة دماره ، ثم يغسل يديه من دمكما . .

ـ شكراً لك على اية حال . . . بيروت تحترق . . . الاسرائيليون يحاصرونها ويدمرونها ، ولعل اهلي واهلك ميتون ولا ندري ، وها نحن هنا نغرق في مستنقعات الذهب . . . كانما ثمة خطة لتهجيرنا من وطننا ، ثم الهائنا عنه . . .

ـ لا تدع شيئاً يلهيك عن غدر رغيد . . .

ـ طفلي المرمي في المستشفى يلهيني عن كل شيء . . .

حين غادر نسيم الغرفة شعر بالخيبة . . كان ينوي ان يحدث خليل عن اشياء اخرى كثيرة منها حكاية رغيد وزوجته ، وتلك الليلة المشؤومة ، وكيف اضطر للمغامرة بهاتف غامض لينتشلها من فراشه . . .

لا يدري لماذا لم يفعل . . . لعله اشفق على الرجل . . لن يقول لانسان وصل للتومن المستشفى مخلفاً ابنه في السرير : زوجتك تخونك . انه يكنّ له الود حقاً . . وقد احسه منهكاً ومتحفظاً ولا شهية لديه للمباسطة والمصارحة . .

اغلق الباب بهدوء مدحور ، وما كاد يمشي خطوة حتى فوجيء بخليل يلحق به الى المشى . . يضع يده على كتفه ويقول له : انني آسف حقاً . . افهمك جيداً واشكرك . . . لكنني اتعذب واتحول الى مشاكس . . .

امسك نسيم بساعده في مودة : افهمك . . . ولست افضل حالاً منك . لقد قتل اخي . فجر نفسه في عملية انتحارية ضد جنود اسرائيل الذين يحاصرون بيروت . . .

ـ احسده . . .

ـ واخي الآخر جريح . .

ـ احسده . . .

ـ وانت ما اخبار اهلك ؟

ـ احسد ابن عمي الذي قاتل الاسرائيليين حين اقتحموا قريته وقتلوه . . . وآسف لأجل الآخر الذي لم يقاتلهم وقتلوه ايضاً . . .

ـ هل شاهدت الاخبار ؟ انهم يرمون المناشير فوق بيروت الغربية محرضين سكانها على

الهرب . . . لقد تعب الناس ، وبعضهم يفرّ .

ـ لم اعد اشاهد شيئاً . . . صقر ورغيد وامثالهما يغرقونك بالمال والبؤس والهموم الفقاعية كي تتلهى عما يدور في وطنك . . . وفي اعماقك . . .

***

عاد خليل الى الغرفة ، وتمدد منهكاً في الفراش ـ الذي ما زال مشعثاً (لعراك) كفى وصقر ـ وصدره يضيق بتلك الغيوم المظلمة الحارة الرطبة التي تتدفق من السماء وتنسكب في دورته الدموية ، متوترة كشريان قبل انفجاره . . . حاول ان يفكر بدوامته ، لأنه وصل الى قرار عفوي سريع بالرحيل قبل ان يفكر بالتفاصيل . . . لكن الصور كانت تتداخل في رأسه حتى لم يعد يعي شيئاً . هل كان نائماً حقاً . . . لا يدري . . . فوجىء بكفى ، وجهها الجميل قريب ، والضياء الازرق ينسكب من عينيها نهر ود . .

غمرته الدهشة حين قالت له ببساطة : لقد افتقدتك ! . . . يوم حادث رامي كنت بحاجة ماسة اليك .

(هل هي مخبولة ؟ لقد فهم من رامي انها لم تزره) . سألها ببساطة : هل انت بخير ؟

ـ لا . وانت ؟

ـ وانا ايضاً . . . لست بخير . . .

قالت وكأنه لم ير شيئاً ، ولم يشهد نشوتها السادية الماسوكية وصقر وهما يخونانه بمتعة واضحة ، ولم يلتقيا قبل هذه اللحظة : حدث شيء آخر رهيب . . . يجب ان اطلعك عليه . .

ـ ما هو ؟ . . . .

لم تتردد . فوجىء بها تقتحمه بالنبأ ، كأنه خبر جديد : لقد ارتدى صقر قناعاً ، واهداني عقداً ، ثم اغتصبني . . .

قالتها وبدأت الدموع تنهمر من عينيها بسرعة . . .

أجابها ساخراً : غير معقول ! .

قالها وقد كاد ينفجر ضاحكاً رغم همومه كلها . هل يمكن لامرأة ان تتقن الكذب هكذا ؟ . .

تابعت : وانت ايضاً سترفض تصديقي ؟ فعلها هذه الظهيرة . ظننتك رأيته . . .

اقتحم الغرفة . . .

اشعل لفافة وتأملها باهتمام وسألها : كيف ؟

ـ انه يقيم في الغرفة المجاورة ، وجاء من باب الشرفة هذا . . .

ـ لا أصدق ! . . . (**ظننتكما منسجمين في مسرحية العنف . . .**) كاد يقول لها ذلك ثم صمت ، مذهولاً بقدرتها الخارقة على الكذب الصادق . . . تابعت : لا ألومك . . الذين شاهدوه رفضوا التصديق . للي مصممة على انني واهمة ، ودنيا رفضت الشهادة ضده وطلبت مني مهلة للتفكير . . .

تابع خليل سخريته : شاهدتاه ؟ . .

ـ صرختُ مستنجدة ، وهرب لحظة وصول شخص ما الى الغرفة . .

(**قصص نساء . . . لا شاغل لهن غير الجنس والجنس المضاد وخداع الزوج حتى اللحظة الاخيرة . . . اذن صرت تحلمين بالاغتصاب . . . وتستمتعين به حتى ادهشت صقر نفسه . . . وهو الآن يريدك ، وهذا عقابك وانت تجهلين اي عقاب هو ان يريدك صقر . ولن أقول لك شيئاً عن ذلك . ستكتشفين ذلك بنفسك يوم يعطيك جرعتك الأولى من « مسحوق الجنون »**) . . . ظل صامتاً يتأمل عقدها الذي اشتراه صقر ذات يوم في احدى المدن وكان برفقته . لم يخطر بباله انه سيطوق عنق زوجته بالذات . وتابعت : اقسم لك هذا صحيح . . . . للي ستنفي ذلك ، ودنيا ايضاً ، لكن ذلك حدث . . .

قالت ذلك ، وجفت دموعها تماما كأنها لم تكن تبكي قبل دقائق بحرارة ! . . .

قرر ان يقول لها شيئاً له معنى ، حتى ولو اعتبرته كارثة وعادت الى البكاء : اسمعي يا كفى . . . لقد قررت التوقف عن العمل وصقر . . . وارجو ان تؤجلي هذا الهراء ، فرأسي مشغول بأمور اخرى كثيرة منها طفلنا المرمي في المستشفى والآخر المرمي في المدرسة الداخلية . . لقد مزقتنا الغربة اكثر مما مزقتنا قذائف بيروت . . يجب ان نعيد النظر . . ان نتوقف قليلاً . . فالتيار يجرفنا من ورطة الى اخرى كل بمفرده . . . سأنام قليلاً . . . فدعيني وشأني وعودي الى صاحباتك النساء . . اعني ، لديكن مهمات كثيرة . . .

ـ انت ايضاً لا تصدقني . . . يا له من جحيم ! اجابها واللفافة ما زالت في فمه وقد بدأ رمادها يتساقط على صدره : تذكري يا كوكو انك بذلت كل جهد ليتم لك ذلك . . . غازلت الرجل وتماديت . . . فلماذا تشكين الآن ؟ . .

ـ حسناً . . انا حرة . . وحين تتم امور كهذه ، يجب ان تكون بموافقة الطرفين . . لا

ان يهاجمني ويغتصبني وعلى وجهه قناع الشيطان . . كدت اموت ذعراً .

صمت. اغمض عينيه متظاهراً بالنوم ريثما تغادر الغرفة . . لا يريد ان يتحادثا حول (الأمر) .

« اوف . . اوف . . اوف . . يا حادي العيس سلم لي على امي . . . واحكي لها ما جرى واشكي لها همي» . . .

***

يدور الشيخ وطفان محموماً وهو يعد بخوره وتعاويذه، والسحب الداكنة تبدو له اشباحاً شيطانية رمادية قادمة من جزر بحرية للاجهاز عليه بالحمى . . . انه مريض . . جسده يشتعل بالانفلونزا التي ليست اكثر من قناع لاحراقه بسحر عفاريت بحرية . . وعما قريب ستجلده بالبرق وتصرخ فيه بصوت يتوهمه الناس رعداً وتحيله رماداً الا اذا عزم ونادى اعوانه وجابهها بسحره المضاد . . وسيفعل الآن . . « يا نايلة يا هايلة يا بنت الملوك الصايلة بحق عصبتك المايلة واخواتك الثمانية اركبي جملك ودقي الطبيلة على باب الدويرة واحضري مجلسي في هذه الليلة بحق ابوك زحالف وامك زربونة يا سيخون يا ميهرون يا محضرون يا زهر الغصون اني آمنت بربكم فاسمعون العجل من قبل ان اقول شلهوب ملهوب انوخ ازرهيش راسين ام السحابين وبحق الهيطلوش الاكبر ووجهك الأقمر وشاماتك الاخضر اجيبيني واحضري بحق لكل نبأ مستقر الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . . .

هيلوخ هيلوخ شمهلوخ شمهلوخ باروخ باروخ يالوخا يالوخا عملاش عملاش شمهل شمهل يطط يطط كارو كارو طهش طهش عميقاقش شمهلوش نهش عنوخ عنوخ . . .

اجب ايها السيد طارش بحق هذه الاسماء بحق هقلقش ههلقش يا هيالش اجب يا طارش والا تكون الكلمات التي تلوتها عليك احراق بحرية بنت بحرية بنت الجان الوحا العجل الساعة . .

. . . تبشي سدرس غيكو بطو بهطورش لارش ابداش . . .

بيهوسر هيسر شمشمون بهوسر كل شمة بايدخ هودن انون . .

. . . دوده داي كركر ديان لخ ح س ياه وميتا لخ لخ ومشيعنا لخ اجب يا طارش وانت يا عامر . . . عمش هرماقش شمسورس اجوبه اهداليش كلمش شهش كلمارش اجب يا

زعزوع بحق هذه الاسماء عليك وحرمتها لديك الا ما اجبت وتوكلت ببحرية بنت بحرية بنت الجان حتى لا تهتدي بحق الاسماء المكتوبة على ورق الزيتون فاحترقت وتعلقت الاسماء بالقدرة وبحق الاسم الذي اوله آل وآخره ال وهو ال شلع يعو بوبيه يه يوه وه اه بيه بتكفه بتكافل بصعى كصعى مميال مطيعين لك يا ال جل زريال ما سمع اسمك روح وعصى الا احترق وصعق اجب يا زعزوع ولا تتخلف عن ما امرتك به طرفة عين بحق اهياشر اهيا ادوناي اصباؤت آل شداى الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة . . . »

يخفت صوت الساحر وطفان ، وتتلاشى قواه ويهذي (امامي عمل كثير . . . كثير . . . سحرها خطير . . اني عاجز امامه . . هذه التعاويذ لا تجدي مع عفاريتها . . اني بحاجة الى نباتات سحرية كثيرة . . . وبحاجة الى ان اتلو سحري عليها مباشرة بالصوت والنار ، وتقليب عفاريتها في جحيم بلاطي والا هزمتني . . انها تسرق صوتي من حنجرتي . . تسرق روحي من صدري نفساً بعد آخر . . . اعيش احتضاري ببطء لكنني اعي انتصارها . . . انها تسرق الكلمات عن لساني حتى صرت اثأثي واتلعثم . . تدمرني بالحمى والمرض . . تدمرني) . .

نهض الساحر عن مجمرته يهذي وقد استحال الى كتلة عذاب محشورة في جسد . . . وطاقة ارادية متفجرة : سأقاتلها . . سأواجهها واقاتلها وجهاً لوجه والا قضت علي . . .

كحيوان مفترس ينزف داخل قفصه يدور في جناحه الخاص داخل الفندق السويسري ، ويتعثر بالأثاث الفاخر وينهار على ركبتيه كمن تجلده سياط لا مرئية ، وقد شب في وجهه عذاب كالنار . .

(لا اقوى على بعدها . كأن عقابي هو حبي لخنجرها الذي ستغمده لا محالة في رمادي . . . امقتها، تلك الشيطانية الشريرة المدمرة، وما زلت اشتهي وصلها وحنانها وحبها المستحيل) . . .

احس الساحر انه يتقلب داخل بوتقة نارية منصهرة المعادن هي مشاعره المتأججة نحوها . . . وجاءه صوت من اعماقه (انك تضعف امامها . . . انها تهزمك . . . عد اليها وحارب عفاريتها ، والا فأنت هالك لا محالة) . . . وحين نظر الساحر الى المرآة تأكد من صدق ذلك . . . شاهد وجهه مشتعلاً بنار مزرقة شاحبة تتأجج لهيباً احمر تارة فبرتقالية فبنفسجية فزرقاء . . . نيران لها وحشية الوان قوس قزح طلع على ارض ضربها الزلزال . . . وكانت اقنعة وجهه تتبدل الى ملامح جده فوالده فشقيقه وكلهم يحترق . . .

جرس الهاتف يرن . انه ذلك الصحافي . الصحافيون الملاعين ، كيف اكتشفوا وجوده هنا ولما تنقض عليه دقائق ، ام ساعات ؟ لا يعرف الوقت . لا يعرف الا ان الشمس الاولى لفراقه وبحرية لما تغب بعد . . يصرخ في الصحافي بصوت له مخالب وانياب : قلت لك انني لست هنا . . واعنيها . . . اذا ضايقتني ثانية سلطت عليك الصداع . . . والرعاف . . .

يغلق سماعة الهاتف . . . يدور من جديد في قفصه المرفه (**كيف انتظر ليلتين والحمى تأكلني ، ريثما تنقضي «ليلة المليار» واعود الى قصر رغيد واصارع عفاريتها الصراع الأخير : نارها او ناري ؟ . . . كيف ، وهي تصليني بنارها من بعيد ، وانا عاجز عن سبر خططها ؟**) . .

جلس الى كرته الزجاجية . جمع طاقاته البشرية السرية اللامتناهية ، استدعاها كلها من كهوفها المجهولة في اصقاع كواكب النفس النائية ، واستحضر سيالاته الروحية من مداراتها الكونية . . واغمض عينيه بعدما اطلق تلك الطاقات كلها جنوداً صوب بيت رغيد . . . مركزاً قواه على تلك البقعة الأرضية من هذا الكوكب التائه بين ملايين السيارات . . . ودمدم بصوت لا صوت له (**موت . . . موت . . . خراب**) . .

كان قد صار من السهل عليه تحريك الاشياء الجامدة في الغرفة بنظرات من عينيه يركز فيها طاقته التي يملكها البشر جميعاً لكنهم يجهلون اسلوب استعمالها ، او تدريبها ، وقد اتقن ذلك في الأيام الاخيرة لعزلته وانهيار قشرته ـ الجسد .

يريد ان يزلزل بحرية في ذلك القصر المذهب . . . ان يجعلها تهتز في سريرها وتطير في فضاء الغرفة وتنزف على الجدران والسقف . . . (موت . . . موت . . . خراب) . .

الهاتف ثانية . . . تنهار اكوان الكواكب السود من مداراتها النارية ، ويداهمه الصداع من جديد . . . والذعر . . . ينظر الى الهاتف خائفاً كمن استيقظ من غيبوبة . . . يهرول الى الحمام ليغسل يديه بعناية . . انه بحاجة الى الكحول . . ما هذه الفوضى في الغرفة . . . ينشغل عن كل شيء بترتيبها . . الباب يقرع بشدة مراراً . . . ينتابه خوف محموم ويتصبب منه عرق بارد . . . يختبىء في فراشه ويغطي رأسه بالملاءات كما كان يفعل طفلاً . . لن يفتح الباب . . . انه خائف . . . يأتيه صوت مألوف : انا الشيخ صخر . . . ارجوك ان تفتح الباب يا شيخ وطفان . . . ارجوك . . انا بحاجة اليك . . . ينهض ويفتح الباب نصف ذاهل . . ينهار صخر فوق اول مقعد وينتحب : ابني عبد الله . . . قتلوه . . .

يخيل الى الشيخ وطفان انه سمع بالنبأ من قبل ، لكنه لا يذكر متى واين . . .

انه بحاجة الى كحول يغسل بها يديه . . . يدمدم : اريد كحولاً طبية . . الآن . . .

يصرخ الشيخ صخر : جاءني رغيد مدعياً انه بريء ، وصدقته ، ثم كلمني اخي هلال وقال انني حمار اذا صدقته ، وجئت اليك لتكشف لي الحقيقة . . . من المسؤول عن موت ابني لاقتله . . . رغيد ام نديم ام المهندس وحده ؟ . .

كانت هذه الاسماء تنزلق على صفحة ذاكرة الشيخ وطفان كالماء على حائط زجاجي . . . لا تخلف بصمة ولا أثراً غير الماء . . . من هو رغيد ؟ من هو نديم ؟ انه يتذكر هذه الاسماء بشكل غامض . . . تماماً كما تذكر صوت صخر ، وكما يتأمله فيبدو وجهه مألوفاً بعض الشيء ولكنه لا يفهم بالضبط عمن يتحدث وما الذي يعنيه . . .

يمضي الشيخ وطفان الى الحمام ليغسل يديه من جديد ، ويأتيه صوت ضيفه ملتاعاً : هل يمكن ان يفعلها بي رغيد ؟ ولو كان هو المجرم حقاً ، فلماذا يأتي ببحرية الى عريني ؟ . .

بحرية ! . . سمع وطفان اسم بحرية جيداً ، وشاهد وجهه في المرآة يشتعل وهو يتابع شطف يديه ببطء . . بحرية . .

قال بصوت مرتفع نصف مرتجف : بحرية . . هل قلت بحرية ؟

وعاد الى الغرفة ، فقال له الشيخ صخر متابعاً شكواه التي لم يسمع منها الساحر غير اسم بحرية : اجل . . سيأتي ببحرية الى بيتي لاستضيفها الليلة و«ليلة المليار» غداً . . . أرجوك ان تأتي معي . . . وتكشف لي اسم قاتل ابني . . وتعد لي عقاراً يخفف اوجاع معدتي . . . أرجوك . . . يا الهي ! . . تبدو محموماً ومريضاً انت ايضاً ! . .

اذن بحرية في حوزة هذا الرجل الذي يعرفه ولا يعرفه ؟ سيذهب اليها بالتأكيد . . . سيقاتلها على اية ارض تختارها . . . سيذهب الى اقاصي الجحيم لمحاربتها . . . لم يعد يذكر ان له مهمة اخرى . . .

يجيب بهدوء : سأذهب معك . . . قال صخر بفرح : كنت اعرف انك ستأتي معي ولن تخذلني . . . **(اذن بعثت الي برسولها . . . انها المبارزة الأخيرة . . . ولن اتخلف ، ولن ادعها تشوش حواسي . . . يجب ان اتذكر جيداً تعاويذي لأنادي اعواني . . . ويجب ان اوضب بخوري ونباتاتي السحرية التي تحمل اليهم صوتي اينما كانوا)** . . .

قال الشيخ وطفان لصخر بلهجة باردة : لي طلباتي . . .

ـ لك كل ما تشاء من مال وذهب . .

ـ لا اريد شيئاً من هذا . . . سجل عندك طلباتي واريدها كلها قبل الغروب الثاني للشمس . . .

دار الشيخ صخر في الغرفة بحثاً عن قلم وورقة ، ووجدها تحمل شعار الفندق وعنوانه ، فتذكر مكانه وزمانه ، كأن كهارب الشيخ وطفان كانت قد خرجت به الى اكوان اخرى ودمدم باعجاب صامت : يا له من ساحر مذهل ، طاقاته بلا حدود ، حتى وهو محموم بالانفلونزا . . هذا الطقس اللعين سيقتلنا جميعاً . قال وطفان : سجل عندك هذه العقاقير . واملاها عليه دون ان يخبره بأنها خاصة بتدمير بحرية لا بكشف قاتل عبد الله : فلفل . بذر خردل . جرجير . مرارة ذئب . صوفة سوداء . قلب بقرة حمراء . عفص . نحل منزوع الرغوة . زعفران شعر . عقدة ريح . كمون ابيض . حبة البركة . لبان ذكر . توم افرنجي . مر . شيح . صبر . بعر جمل . درهم مستكة . بذر بصل . اوقية لدنسج . اوقية خرنفش . اوقية دربل . اوقية سنقر . قرض صعيدي . عرق انطراب . اوقية نشارة ركب . سفوف الاصول . ورق البرنوف الاخضر . كحل . لوز . عين جمل . نترون سوداني . مدغة . درهمين غندزوت . زعفران . . واريد مداداً من : الزنجبار . الزنجفر . البياض والكافار . الزرنيخ الاخضر . . . واريد كحولاً طبية . . عدة ليترات من الكحول . . .

ـ معظم هذه العقاقير سيكون بين يديك هذا المساء . . . بل جميعها وسينقل رجالي ادواتك كلها الموجودة هنا ايضاً . . المهم ان تكشف لي قاتل ابني . شقيقي التوأم هلال يعتبر ممارسة السحر نوعاً من الكفر ولكن ثقتي بك مطلقة ، وقلبي يؤكد ما قاله شقيقي من ان رغيد هو المجرم ونديم مجرد كبش فداء ، وتابع الشيخ صخر : لكنني ارجوك ان تأتي معي الآن ، وتقبل ضيافتي ويجب ان نسارع في العودة قبل وصول بحرية . . . ارجوك . . . انك بحاجة الى رعاية طبية . . انك محموم حقاً ، وصوتك المزكوم يشي بالانفلونزا .

سقط اسم بحرية في بحيراته شهاباً من نار فقال : لست بحاجة الى رعاية طبية فأنا اعرف سر اوجاعي . سأداوي نفسي بنفسي ، وسآتي معك .

***

قرع نسيم الباب . صرخ صقر : اذهب أياً كنت . . .

امسكت يده دونما وعي بخنجره الذهبي . انه رجل عظيم ، وثمة من قد يحاول قتله اثناء نومه القلق . . .

كان قد ابتلع عدة اقراص منومة رمت به الى نوم كابوسي بائس . . .

قال نسيم : العشاء يا سيدي . . . ينتظرونك . . .

ـ اذهب الى الجحيم . . لست جائعاً . سأنام .

ـ اشكرك !

مضى نسيم وقلبه يشتعل قرفاً ، كان قد شاهد للتو في التلفزيون بيروت محاصرة ، تنهال عليها المناشير طالبة من اهلها مغادرتها . . وشاهد ارتال السيارات الهاربة التي تغادرها . . وتخيل نفسه راجعاً في سيارة على الجانب الآخر للطريق ، هارباً الى جحيم بيروت من جحيم (هنا) . . .

أما صقر ، فقد عاد الى نومه الكابوسي ، وعضلات فخذيه تنتفض وجسده بأكمله يعاني تقلصات حادة يخلفها مخدره في الجسد والروح . . . شعر بالغثيان من جديد . . **(اللعنة عليهم ، لماذا ايقظوني ؟ ألا يعرفون كم أضحى النوم عزيز المنال منذ بدأت امارس الطيران الابيض ؟ . . لماذا لا لذة دونما الم ؟ ولماذا لا تفهم النساء ذلك عادة ، وكوكو استثناء نادر يستحق الرعاية)** لكنه الآن يتوجع . . انها لحظات الهبوط اللعينة . اضاء النور . ابتلع حبة اخرى . . . تطلع الى صورة حبيبته التي لا تفارقه ، ولها جسد نبتة واسمها مكتوب تحت صورتها : Erythroxylon Coca . . يا حبيبتي كوكا . . هل تسمحين لي بالنوم قليلاً بعدما اغتصبت كوكو ؟ . . .

كان لا مفر له من ذلك . . لا بد من امتلاك الزوجة حين يكون الزوج حروناً ـ هكذا قرر في البداية قبل أن يذوق عسل كوكو ـ . . . ذلك قد ينفع في ترويضه . . . انه لم ير بغلاً عنيداً مثل خليل . . ولن يتخلى عنه بأي ثمن الا بعد ان يغتصب روحه . . . لن يدعه الا خرقة . . سيظل يحبه اذا لم يتحول الى خرقة . . انه بحاجة الى تدمير الناس كي لا يمسوا روحه بالمحبة او الحنان . . . هذا عالم لا مكان فيه الا للرجال الذين يشتريهم او يبيعهم وفقاً لارادته هو . . . وما تزال لخليل بقية من ارادة . . . رقعة خاصة داخل نفسه يتقوقع فيها من آن إلى آخر . . . وهو يريدها . . يريد اغتصابها بأية وسيلة . . . سيقتحمها بالمال او بالجسد . . لن يستريح قبل ان يمتلك تمرد خليل . . .

لقد عاد من رحلته هذه ، وهو اكثر عطشاً الى امتلاك ذلك النبع القروي الأصل .. وسيفعل . . .

ولكن كوكو فاجأته . . . انها امرأة خلقت لرجل مثله . . .

***

(هذا عشائي الأخير قبل تتويجي غداً«ليلة المليار» . قلبي ينبض فرحاً كقطار يركض مجنوناً في براري المجد والعظمة . . . انا رغيد الوحيد القصير القامة الخجول انتصرت) .

كان عشاء هادئاً ، بعد يوم طويل طويل أنهكهم جميعاً . . .

هادئاً فوق مخمل الطاولة وذهب الملاعق وسكون الخدم الذين يقدمون الاطباق وكأنهم يرقصون الباليه دونما موسيقى .

لكن البركان كان مشتعلاً في أعماقهم جميعاً . . . بصمت وتوتر يد تتأهب لطعنة . .

لم تلتق نظرات كفى بعيني نديم كما منذ اسابيع . . كان يحدق في طبقه واجماً نائياً ، ساهياً عنها وعن طعامه معاً ، يتأمل الأوراق التي حملها رغيد معه الى القاعة ، ووضعها جانباً على احد المقاعد مثل مسدس يهدده به **(هذه الاوراق اعرفها . . انها وثائق إدانتي بالاختلاس . تراه ينوي استعمالها لسجني هنا في سويسرا سجناً لا فكاك منه ، اذا رفضت الذهاب الى وطن صخر والاعتراف بجرم لم ارتكبه ؟ سيكون علي ان اختار بين دور كبش الفداء لرغيد ومهندسه ، ولانهيار مدرسة ومصرع عشرات الأولاد ، مقابل امكانية مساعدتي واخراجي من السجن هناك بموجب عفو ما يصدر بعد ان ينسى الناس ويغفر صخر ، او السجن المضمون هنا لمدة عشرة اعوام على الأقل دونما امل في هرب او ممارسة ضغوط على العدالة ؟ . . . اعرف السيناريو فقد سبق ان شاهدت رغيد يمارسه ومعاونه السابق ، وقد ساعدت يومئذ في تطبيقه ، بل وساهمت في اقتراحه ، وها أنا أسقط حياً في الفرن الذي شاركت ببنائه . . . تراه سينفذ هذا السيناريو ، ام سيرغمني على كتابة اعتراف يقتلني بعده ليبدو موتي انتحاراً ؟ ليس ثمة ما لا يفعله وانا ادرى الناس بذلك . كم اكره رغيد . . هذا الوحش الذي لا يشبع . . أكرهه ، واشتهي موته ، واتمنى قتله . . . . لو انهض الآن واخنقه . . . لو) . . .**

سعل رغيد بشدة وقد غص بالماء . فتوقف الجميع عن المضغ احتراماً للموقف . . .

وحين رش رغيد الملح فوق طعامه الخاص به الخالي منه نظراً لاصابته بمرض ارتفاع ضغط الدم شعرت ليلى بالشماتة (سيموت سريعاً اذا ثابر على التهام طعامه بهذه الشراهة ، ورش الملح هكذا ، والتسلل الى المطبخ بعد العشاء للأكل من البراد مباشرة كل ما يؤذي صحته . . بعد ان يتزوج مني قد لا اكون بحاجة الى قتله لأصير أغنى ارملة في العالم ، بدلاً من أكبر مديونة في العالم كما انا الليلة . . . ولكن ، اذا حاول ان يغدر بي ، ويورطني ، لن اركع واتوسل اليه انقاذي من جرم توقيع شيكات بلا رصيد ، وانما سأقتله . . . سأقتله . . لن أنام الليلة قبل ان يوقع لي شيكاً « يغطيني » في البنك وإذا هرب الى النوم سأذهب اليه واوقظه . غداً لن يجد وقتاً لي . . سيأتي ضيوفه منذ الصباح الباكر لعقد الصفقات. ان احداً منهم لم يأت حقاً للاحتفال«بليلة المليار» . . كلهم حضروا كمن يذهب الى مؤتمر خاص بتبادل المصالح لتنمية المليارات . . سأحدثه الليلة قبل ان ينام . . . لن أنام ما دمت تحت رحمته . . . ولن ادعه حياً اذا صمم على . . .) .

التمع البرق عبر النوافذ . . . وحبسوا انفاسهم بانتظار الرعد القادم . . . وتمنى خليل لو ينفجر المطر ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . .

كان الجو خانقاً ،خانقاً، رطوبة قبور تجثم على الصدور ، وحرارة حمى خفية تسري ، والبرق البعيدوعدبخيل بالمطر ، وبطبول الرعد التي لم تقرع مرة واحدة هذا اليوم المخنوق الطويل . . .

سأل رغيد خادمه نسيم بلا مبالاة : هل دعوت صقر الى المائدة ؟

اجاب نسيم : أجل .

ـ ماذا قال ؟

ـ قال لي : اذهب الى الجحيم .

رمقه رغيد بنظرة مسمومة ودمدم : هذب الفاظك . . .

وسكت نسيم ، وقد التقت نظراته بومضة ابتسامة متواطئة في عيني خليل (آه كم اكرهه ، هذا الوحش الذي يشرب الآن ماء النار ، مستخدماً كلية سري الدين . . . يشرب دم شقيقي القتيل ولعله قبض عمولة الجراح التي اصابت شقيقي الآخر من صفقة اسلحة للعدو كانت له يد فيها . . فهو يشحن ادوات الدمار لمن يشتري وللجميع دونما استثناء . . اكرهه وساحره . . وما يفعلونه بالسبية بحرية ، وبي ، وبخليل ، وبالغبية كفى ، و « الهستيرية » دنيا ، ولن اغفر قتله لسري الدين وعبثه بحياة المعذبين على اشرطة

الفيديو وشماتته بالمقهورين وشهوته لتدمير امير ، واذلال تمثال « المناضل » . . . انا من جيل لم يعرف عبد الناصر ، يقف حائراً بين الشهادات المتناقضة حوله ، لكنني احب العمل الفني لمفيا والد امير النيلي ، وارى فيه بحق تمثالاً لـ (المناضل) ، بغض النظر عما اذا كان النموذج الامثل له هو عبد الناصر ام لا . . . واكره رغيد ايضاً وأشتهي قتله وسيسعدني موته لأنه . .) . . . استيقظ من خواطره على صوت ليلى تنهره بقسوة : قلت لك اسكب للاستاذ خليل الماء . . ألا ترى ان قدحه فارغ ؟ . . .

سكب الماء لخليل ، ولاحظ انه كئيب وقد عافت نفسه الطعام ، والخادم يرفع اطباقه عن المائدة وهو لم يذق منها لقيمات . . . بعكس رغيد الذي انجز التهام طعامه الخاص بالريجيم وساهم في اكتساح كل ما مر بالمائدة من أطايب الدجاج والسمك واللحم والشحم وتأمله نسيم شامتاً (سيصاب الليلة بعسر الهضم ويتوجع ، ولن ينام ، وسيمرض غداً وتفوته «ليلة المليار») . . .

كفى كانت تنافس رغيد في شراهتها ، شراهة اضاءت وجنتيها الشابتين واضافت لكل خد وردة متفتحة ، وساهمت في تنمية استدارات جسدها البديع . . . ومن عينيها الزرقاوين انهمرت شلالات سعادة ، وخيبة أمل لفتور الجميع في هذا العشاء الكئيب (غداً «ليلة المليار» . . . غداً التقي بعشرات ، بل بمئات من اصحاب الملايين . . . إنها فرصتي للخروج من بيروت الى الأبد . . . غداً ارسخ «مجدي» ويصير في مقدوري الاقرار علناً وليس امام نفسي فقط ، بأن عادل ونديم وصقر وخليل ورغيد ، كلها أسماء متشابهة لرجل واحد لا يضايقني ان يبدل أجساده وأسماءه واقنعته وأساليبه ما دام قادراً على رعايتي بالرفاهية والمال والامان وفاكهة المتعة . . طفلي الجريح سأنساه لأنه سينساني على اية حال بعد اعوام حين يدفع به ابوه الى احدى الميليشيات تمهيداً لقتله ، ويجب ان انساه كي لا اتذكر وداد وبيروت والزجاج المحطم والجوع والنوم على الأرض في الملاجىء بين الصراصير والفئران والسعال وسطو المسلحين علينا . . يا رب نفسي . . . انا الى الابد . . لن اسمح لاحد بعد اليوم بمصادرة حياتي ، واذا لم يعجب خليل مسلكي فليذهب الى الجحيم ، واذا لم تعجب حياتي شقيقاتي واصهرتي فلينسوا اسمي . . . واذا حاول رغيد كبح جماحي وترويضي باسم صداقته لوالدي قتلته ذلك العجوز البشع البخيل الذي اهداني خاتماً مزيفاً كخاتم دنيا . . . وطردني من فراشه كذابة . . . سأختار رجالي بنفسي ، واذا تجرأ رغيد على توظيفي للترفيه عن اي ضيف محدد قتلته لأنه يحاول ان يأخذ دون ان يعطي

كمسلحي بيروت ! . . سأرفه عن الذي يروق لي . . . وسأكون عبدة لشهواتي وحدها . . . وسأقول لرغيد بصدق : انه مجرد رجل آخر في حياتي . . . ولكنه مهترىء لا يروق لي كحبيب او كسيد . . يا الهي لم اكن اعرف في بيروت انني قادرة على ذلك كله . مع صقر اكتشفت قدرتي السرية على ممارسة لذة الايلام والألم ، وربما قدرتي على القتل ايضاً) . . .

ظل الصمت سيد المائدة . . . وثمة صوت رياح حارة تهب منذرة بتبدل الطقس . . .

ووميض البرق يتلاحق بشدة ، مثل طيور اسطورية ضخمة تقترب بمناقيرها المحشوة بالرعد .

تقول ليلى : ليت المطر يهادننا ريثما تنقضي ليلة الغد . . . لقد اعددنا جلسة خاصة بالحديقة . . . ستكون جنة عربية ، وسيتدفق جدول اصطناعي من العسل يدور في حلقة الكترونية ، والى جانبه جدول آخر من اللبن . . . سينبهر ضيوفنا .

لم يجب احد . كان كل غارقاً في افكاره ، كأنهم ينصتون الى ما تحمله اليهم الريح من اخبار وتهديد . كأن البرق النائي كان يلامس مفاتيحهم النفسية ويخرج خباياها الدفينة متأججة . .

وحده رغيد بدا لاهياً عن الطقس وضيوفه ، وشهوات بعضهم لقتله او لمشاهدته ميتاً على الاقل . . . مشغولاً بعظمته وشراهته النادرة التي يتوج بها ليلته الاخيرة قبل «ليلة المليار» . . دنيا لاحظت بؤس زوجها ، وسعادة رغيد (اتمنى ان أراه ميتاً هذا الرغيد . لقد دمر حياتي ونديم . . دمر فيي . . دمرني من الداخل ، ولم اعد ادري بالضبط من أنا وماذا اريد ، لقد امتصني كالعلقة في سرير امراضه وشيخوخته واوهمني انه يسبغ علي شرفاً عظيماً حين يلمسني بيده «المباركة» كيد ميداس الذي لا يمس مخلوقاً الا ويحوله الى تمثال من ذهب . . لعلي تحولت الى تمثال ذهبي لا يدري ما يفعله في الليل . . . لعلي انا حقاً التي طعنت لوحتي بنفسي . . لعلي اهملت نديم حقاً وكنت السبب في هجره لجسدي المصاب باستمرار بالصداع وفقدان الشهية . . لعلي مسؤولة عن انهيار حياتي واسرتي ، ولعله آن الأوان لأنسى كل شيء عن امير وبحرية والفن والنقاد والادباء ، واحاول ترميم حياتي المصدعة واسرتي المكسورة . . . ذلك كله فعله بنا رغيد . .والآن يريد تدمير زوجي بطريقة ما . . . ولست واثقة من انني قادرة على الوقوف على قدمي بدونه . . لعلي أكره نديم لكنني الفته والفت كراهيتي له وحياتي معه ولم اعد اعرف كيف أبدأ من جديد ومن اين ابدأ . . . حاولت مع امير وعالمه وفشلت . . وحاولت اللامبالاة ببحرية وفشلت ، وحاولت هجر نديم وفشلت : سأموت بدونه كما انا ميتة معه . . ولن اسمح لرغيد بأن

يمتصه بعدما بصقني . . . سأقتله . . سأفضحه . . سأدمر القصر علي وعليه وعلى الاصحاب كلهم . . سأكشف كل ما اعرفه من اسرار . . . سأذهب اليه ليلاً وأكلمه . . . سأقول له انني سأطعنه كما طعن زوجي لوحتي وكلبي بناء على اوامره ـ او كما طعنتها بنفسي لا ادري ـ ، وانني صرت قادرة على قتله بعد كل ما كان . . سأقولها له : سأقتلك) . . .

حين انتهت الوجبة الشهية ، لم يبتلع رغيد ادويته ، فقد شعر بأنه خالد لا يمكن لشيء ان يؤذي عظمته حتى المرض (حتى اذا فكر صخر بقتلي انتقاماً او اذا سلط ساحري الناقم علي او اذا ادخلا بحرية في لعبتهما . . لا ابالي . . فكيدي عظيم) . . وحين وقف نهض الجميع باستثناء خليل الذي كان مشغولاً عن الجميع بأفكاره الخاصة . . لم يكن يفكر بقتل رغيد او بموته ، بل كان يفكر بحياته هو . . بعيداً عن ذلك كله . . . طفله يغادر المستشفى بعد غد . . فلماذا لا يعود الى الوطن حاملاً اسرته ؟ (وداد قتلت في بيروت ؟ ولكن رامي كاد يقتل في سويسرا ، معلقاً بين السماء والأرض . . . كلنا سنموت ذات يوم بطريقة ما ، ولكن الموت ليس واحداً حقاً . . . موت صقر من الكوكايين ليس كموت شقيق نسيم او موت ابني عمي الشهيدين . ليس صحيحاً انه تعددت الاسباب والموت واحد . . . بقائي هنا نوع من انواع الموت ، ويجب ان اذهب بعيداً . . . اضعت فرصتي لأكون ثرياً ، فرصة العمر ؟ . . ربما ، لكنني سأمضي بعيداً على أية حال) . . . لاحظ خليل تخلفه عن مواكبة (الكورس) فسارع الى الوقوف وهكذا نهضوا جميعاً عن المائدة ، وكل يستعد للذهاب الى غرفته الموقتة للنوم ، وفي فم معظمهم كلمات لم تقل يشتهون قولها لرغيد ، بالصوت او بالسكين . . . وهبت الرياح تلطم جدران القصر . . . رياح حارة فتحت احدى النوافذ فتطايرت الاكواب والشمعدانات والآنية عن المائدة كأن سحراً غامضاً يعبث بها ، ولكن رغيد لم يلتفت الى الحطام ، ولا الى البرق الذي بدا انه يزداد اقتراباً وتأججاً . . . صمت الجميع برهة وكل يستعد لمغادرة القاعة بعد سيدها طبعاً ، وقال رغيد بعدما شهر سيجاره الضخم : نديم . . . اريد ان اتحدث اليك قليلاً . . . رافقني الى قاعة البركة الذهبية . . .

تبادل نديم ودنيا نظرات تشبه الوداع . . . وحمل رغيد الاوراق التي تدين نديم وناوله اياها ليحملها عنه ، فمشى نديم كذاهب الى حتفه . . . بدا وهو يتسلق درجات السلم التي تقود الى الحديقة فالبركة كمن يتسلق سلم المشنقة ، حاملاً بيديه الاوراق التي تثبت عملية الاختلاس كمن يحمل صك اعدامه ! . . .

التفت رغيد اليهم وقال بصوت جهد ان يبدو مرحاً : تصبحون على خير . . . الى

اللقاء غداً ،«ليلة المليار» . . .

انجز رغيد فتح باب البركة الذهبية المصفح كخزائن البنوك ، بينما كان نديم يمسح العرق المتصبب منه ، وحين انفرد الرجلان قال رغيد لنديم دونما مقدمات : ستذهب الى السجن عوضاً عني .

لم تبد الدهشة على نديم . . . بدا وكأنه يتوقع ذلك ، بل ويتوق الى سماعه لينتهي من مرحلة الحيرة والشكوك . . . اذن لن يقتله ويترك الى جانبه اعترافاً بخطه يرغمه على كتابته قبل (انتحاره) . . .

حسناً . . ما دام سيتركه حياً ، ثمة امل في النجاة

ـ ولكنني لم افعل شيئاً ، لا علاقة لي بصفقة المدرسة او الغش في مواد البناء . . . لقد بـالغ مهنـدسك قليـلاً . . . وانت تعرف ذلـك . . . المهندس مسؤول والأمـر بالتـأكيد بمعرفتك ، وانا بريء من هذه الحكاية . .

ـ اعرف انك بريء من هذه الصفقة بالذات . . . لكنك لست بريئاً من سواها . . . ولدي الدليل . . .

أشار رغيد الى الاوراق التي تثبت تلاعب نديم بالحسابات والاختلاس واساءة الامانة وقال : اذا رفضت ان تسجن بدلاً عني لأجل المدرسة ، سجنت هنا على أية حال لأجل هذه . . .

ـ ولكن المهندس، لماذا لا يسجن هو بدلاً مني؟له علاقة مباشرة بالأمر على الاقل . . .

ـ لا استطيع سجنه الآن . . . انه ينفذ مشاريعنا في القطر العربي الآخر . . . مئات ملايين الدولارات تتوقف على انجاز ذلك المجمع السياحي . . .

ـ وانا ، يمكن الاستغناء عني . . . ولذا سأسجن لذنب لم ارتكبه ؟ . .

ـ بدلاً من ذنب ارتكبته . . .

ـ هذا ليس عدلاً . . .

ـ هذا مناسب للجميع . . . ستعترف بالذنب . . . وبأنك ومعاون المهندس شريكان في اللعبة . . . ستسجن ، ولكنني سأكون قادراً عل مساعدتك . . سأخرجك من السجن بعد عام وربما قبل ذلك ، حين ينسى الناس الحادثة . . سأحفظ لك ارباحك من المشاريع الباقية التي لن تتأثر بهذه الهزة . . سأرعى اسرتـك واولادك ، ولن يتشرد احـد او يعلن افلاس احد . . .

ـ ألا نستطيع ان نجد كبش فداء آخر ؟ لماذا اسجن لذنب لم ارتكبه ؟

ـ ستسجن لذنب ارتكبته . . كل ما في الأمر انني بدلت لك ذنباً بآخر ، ومكان السجن الى الافضل . .

ـ ولكنني اعترفت لك يومئذ بذنبي . . . كنت في ضائقة مالية ، وفجأة صارت نفقاتي لا تصدق . . . الحياة مع اصحابك الاثرياء باهظة جداً . . . لقد بدت يومها الكماليات التافهة كلها وكأنها ضروريات كالخبز . . . معطف الفراء . . السيارات . . الفيلا . . شاليه السان تروبيز . . . شاليه غشتاد . . كل شيء بدا ضرورة بين الاغنياء ، كما رغيف الخبز بين الفقراء . . . ثم تهدم بيت امي وابي العجوزين في الحرب اللبنانية الاولى كما تذكر . . . لم يكن في مقدوري ان اقول لهما لا ، خصوصاً وانني كنت اشعر بالذنب لأن القذيفة التي احرقت بيتهما كانت من النوع الذي اشحنه بنفسي الى بيروت . اختلست واعدت بناء البيت العتيق في الحي البيروتي الخطر وانا اعرف انه سيتهدم ثانية . . . لقد رفضا مغادرته ، وصمما على الاقامة في خيمة اذا لم اقدر على اعادة تعميره . . ضعفت . . . اخطأت . . لكنني عرضت عليك فيما بعد تصحيح غلطتي ورفضت انت . . هل تذكر ؟ طلبت انت مني اعتبار المبلغ « هدية » لأننا صديقان . .

ـ والآن تتخلى عن صداقتي وقت الحاجة ؟ . . ساعدني وسأساعدك . . هذا خير من سجنك في سويسرا ، حيث لا نفوذ لي مع احد . . سيأخذ العدل مجراه هنا ولن تغادر السجن الا بعد انقضاء فترة عقوبتك . . هناك ، اذا سجنت بالنيابة عني ، سأكون طليقاً لأساعدك واساعد نفسي ولن يتبدل شيء . . . ستنقل في الاسبوع الثاني الى مستشفى السجن . جناح خاص فاخر . كل ما تطلبه سيكون لك . . اعتبرها فترة راحة . . سأسعى لاصدار عفو عنك . . بل ان صخر سيسعى لذلك بنفسه . . انه طيب القلب ، ثم انه سيصاهرني . . . سأزوجه من بحرية ولن يرفض لي طلباً . . .

سكت نديم . . . طال الصمت ، ورغيد يضرب بيده فوق الاوراق التي تثبت اختلاس نديم ، وتودي به الى السجن لا محالة . . انه يعرف جيداً اصول اللعبة . . .

لقد سقط في الشبكة الذهبية للعنكبوت المحنك . صحيح انه لا يثق به ولكن معاداته تعني النهاية بالتأكيد . . . لا خيار امامه . . لقد باع روحه للشيطان ، ووقع الصك بماء الذهب ، وعليه الآن ان يقدم دمه . . .

ـ اما من وسيلة اخرى ؟

ـ لقد قَلّبتُ الاحتمالات كافة . . لم اجد شيئاً آخر اقل ايذاء لمصالحنا معاً . . خبر انهيار المدرسة سيكون مضغة الالسن غداً ، لذا ارجوك ودنيا مغادرة القصر غداً باكراً الى بيتكما ، وسأتصل بك بعد ترتيب امر تسليمك .

ـ وصفقة الاسلحة المستعجلة ؟ من يحل محلي فيها ؟

ـ خليل . . .

تذكر نديم انه لمح خليل ماشياً بينما كانت كوكو تداعبه في السيارة ، لقد التقت نظراتهما لثانية . لقد عرف وتجاهل ، والآن لن يحرك ساكناً لمساعدته . . على العكس من ذلك ، سيشمت به مهما تظاهر باللامبالاة . لا . . لن يساعده خليل . ولن يصدقه اذا قال انه لم يكن غير انبوب اختبار سخره رغيد لاكتشاف كوكو . . ومهمته تشبه مهمة ذواقة الخمرة . . . فهو يقدم تقريراً عن المرأة التالية لسيده ، باستثناء العذارى طبعاً . . لن يساعده احد . انه وحيد . دنيا تكرهه ، وقد ساهم رغيد في ترسيخ هذه الكراهية . اولاده لا يبالون به . نسيم لا يحترمه . خليل يمقته ، للي تريد ان تحل محله . . . سيتقاسمان جثته ، هي وخليل . . . سمكة القرش الجريح تلتهمها الاسماك الباقية . . .

ليعترف . . . لقد انتهى . . .

اخلص لرغيد ، ولكنه اخلص للخيانة . . . فانتهى . . .

قال رغيد بصوت حاسم : غداً اسلمك للشيخ صخر . سيتولى تسفيرك لمحاكمة عادلة . . سيعلم ضيوفي بالخبرين معاً في وقتين متقاربين او في وقت واحد ، انهيار المدرسة ، وانهيارك واعترافك . . وبذلك تسكت الأفواه تدريجياً وستهدأ الضجة عما قريب . لقد وعدني صخر بالرأفة بك بعدما شرحت له ظروفك . . . المخففة !!

ـ اذن رتبت كل شيء قبل استشارتي ؟

ـ كنت اعرف انك لن ترفض لي طلباً . . . اليس كذلك ؟

ـ . . .

ـ وتثبت انك رجلي الوحيد في الملمات . . . لا احد يحل مكانك . . .

ـ . . .

ـ ستعود وتجد مكانك شاغراً . . . سحابة وتنقضي . . . انها جزء من متاعب الاثراء . . .

- . . .

- لا تخش شيئاً . . . اعتمد علي . . . وستكون في امان . . . ثق بي وسيكون كل شيء على ما يرام . . .

ونهض رغيد ، وسكب لنفسه كأساً كبيرة من ماء النار . . .

وادرك نديم ان القضية انتهت بالنسبة الى رغيد ، وها هو يحتفل بالخاتمة . . .

انعكس ظل رغيد في بركة الذهب ، وبدا وسط الماء رجلاً ذهبياً طالعاً من اسطورة شريرة . . . شعر نديم برغبة شرسة في اغراقه ، وخنقه تحت الماء . . . (**ماذا لو مزقني اهالي الضحايا في المطار قبل المحاكمة ؟ ماذا لو قتلوني انتقاماً ؟ ان انهيار مدرسة امر لا يمكن ان يمر بالبساطة التي يصورها لي رغيد . انه يرسلني الى موتي على اية حال**) . . . كأنما حدس رغيد افكاره . قال بهدوء : لا تشته قتلي . . . موتي يعني دخولك السجن على اية حال . هذه الاوراق ليست سراً . . . ليلى مثلاً تعرف بأمرها كالمحامي . . . مصلحتك في حياتي انت وهي وكلكم . . . موتي يعني السجن لكما معاً . . . هذه دوماً وسيلتي الاولى لحماية نفسي . . .

وضحك بزهو . . . شعر بأن نديم يمقته ولذَّ له ذلك الاحساس وطاب ، واستعاد نشاطه وحبوره . . .

لا شيء مثل نشوة الكراهية المتبادلة . . . التفت نحو التمثال كأنه يغيظه شخصياً وقال له : كأسك . . .

وشرب نخبه بينما نهض نديم من مقعده يتأمل الشرنقة الذهبية واجماً محطماً . . . واشتعل في اعماقه بركان من الحقد والندم . . .

●●●

فجر « ليلة المليار » ، استيقظ من كان نائماً في قلعة الذهب على صرخة تفيض رأ حقيقياً . . . تبعتها صرخات متلاحقة .

نديم لم يكن نائماً . . . سمع الصرخة مذعورة مدوية لا تحمل كلمات واضحة محددة . . . ميز فيها صوت صقر قادماً من بعيد .

ابواب تفتح . اضواء تسطع . اقدام تهرول . . . دقيقة ، وتجمعوا كلهم في الردهة الكبيرة واحداً بعد الآخر، وصقر ما زال يصرخ بهلع مجنون . . . وجهه محتقن وعروقه نافرة: رغيـد . . . جثة رغيد . . . في البركة . . هبطت جائعاً افتش عن طعـام بعد مـا نمت البارحة باكراً دونما عشاء او غداء ، فوجدت الانوار مضاءة ، ومضيت صوب البركة . . . ووجدت جثته . . وجدته عائماً على وجه البركة . . .

لم يتحرك احد ، واكتفوا بالارتجاف برداً بعد ليلة من البرق والرعد والصواعق لم ينم احد فيها ، تصببت امطارها وقرعت النوافذ ورحلت برسالة الحر .

تابع صقر وهو يشير بأصبعه صوب بركة الذهب : انه هناك . . مقتول . . مخنوق . . . شاهدت جثته بعيني . . . انه مخيف . . . مخيف . . .

كان واضحاً ان صقر تناول جرعة لا بأس بها من «مسحوق الطيران الأبيض» . . . بدا مثل طفل مدلل مذعور رأى جثة للمرة الأولى . . . يـرتجف مرتعـداً ولصوتـه رنة نـواح وشكوى . . .

قال خليل : لعلك واهم . خيالات وأوهام وهلوسات هذا يحدث كما تعرف ، وأنت تفهم جيداً ما اعنيه . .

ــ انه هناك . . . تعالوا وانظروا بانفسكم . . .

وسط القاعة الشاسعة المذهبة ، والبركة البديعة ، كانت جثة رغيد عائمة فوق الماء ، متورمة الملامح ، مزرقة الوجه ، الشفتـان متصلبتان على ما يشبه ابتسامـة شامتـة . . . العينان مفتوحتان تحدقان بنظرة تشبه السخرية . . . كان ما يزال يرتدي ثياب البارحة التي شاهدوه فيها جميعاً وقت العشاء . . . وبدت جثته الطافية كأنها عائمة في رحم ذهبي المياه ، والقاعة مثل تابوت كبير من الذهب . . .

حدقت ليلى كمن اصابها مس . . . تطلعت فيهم واحداً بعد الآخر . . . كفى . . خليل . . دنيا . . نديم . . نسيم . . صقر . . وقـالت بهدوء مسعـور : حسناً . . من قتله ؟ قال نسيم بكراهية ساخرة : ولماذا تخاطبيننا كأنك المفتش في رواية بوليسية ؟ . . ولماذا نكون نحن الذين قتلناه لا انت مثلاً ؟ . .

التفتت ليلى الى نديم : لا توجد اسرار . . من الواضح ان نديم قتله . شاهدناه جميع يمضي واياه الى هنا بعد العشاء . .

تحولت الانظار كلها الى نديم . . بدا شاحباً ، يتلفت حولـه كمن يبحث عن شيء

ضائع . . . تابعت ليلى بقسوة : انت قتلته وانا اعرف لماذا . . وتركت كل شيء على حاله وهربت من مسرح جريمتك . . الاضواء على حالها ، والباب مفتوح . . .

انهار نديم فوق المقعد . ارتجف وهمس كمن يخاطب نفسه : لكنه كان حياً حين فارقته . . ربما كنت اشتهي البارحة موته ، لكنني لم اقتله . . .

قالت دنيا : لست مضطراً لقول شيء لها . . حسمت ليلى الأمر : انه بالتأكيد لم ينتحر ، وثمة جريمة . سأتصل بالبوليس . . والاسعاف . .

ونوح صقر : دعونا نغادر هذا المكان . . . تعالوا الى الردهة . .

ببرود قاس قالت ليلى : لا تمسوا شيئاً . . . لا تفسدوا سير التحقيق والأدلة والبصمات . .

قالت دنيا لزوجها : انهض عن هذا المقعد وارفع ذراعيك عن مسنديه . . سيجدون بصماتك . .

اجاب دامعاً : سيجدون بصماتي في كل مكان . . كنت معه البارحة هنا حقاً ، لكنني لم اقتله .

اقسم لكم انني لم اقتله .

***

هتف نسيم الى امير : صباح الفل . .

ـ ماذا دهاك ؟ توقظني في الخامسة فجراً لتقول لي صباح الفل !

ـ العوض بسلامتك . . رغيد فارقنا اخيراً . .

ـ ماذا ؟

ـ يبدو ان نديم قتله . . واخيراً . . قتل الدب سيده .

ـ هل انت متأكد ؟

ـ تقريباً . . . نحن الآن بانتظار وصول البوليس . . والاسعاف . . والصليب الأحمر والأخضر . . وربما المافيا . .

ـ انك اسعد مما ينبغي . . .

ـ لا يعكر فرحتي غير انني لم اقتله بنفسي . .

ـ ما ادرانا انك لم تفعل ؟ . .

لم يستجب نسيم للمداعبة . . . بدا وكأن الذعر استولى عليه . . .
ودع أمير ، واغلق سماعة الهاتف وجلس واجماً . . .
هل سيلحظون انه استبدل تمثالاً بآخر ؟ وهل ستلحظ ليلى او سواها ان القرش الفلسطيني اختفى ؟ . . هل سيتهم بالقتل ، لسرقة القرش واستبدال التمثال ؟ . .
(ولكنني لم اقتله . . .
وجدته مقتولاً حين دخلت الى بركة الذهب . . قبل ان اذهب الى النوم ، لمحت الأضواء مشعشعة في البركة وكانت الساعة تقارب الثانية فجراً . . . اقتربت لأستطلع . . حسناً ، كنت انوي استراق السمع والتجسس كعادتي لكنني لم ارتكب جريمة اكبر من ذلك باستثناء انني كنت ثملاً ، انا الذي لا يذوق الخمرة الا فيما ندر ، ويصحو في اليوم التالي نادماً تائباً . لم اسمع صوتاً . . خطوة اخرى الى الامام . . شاهدته عائماً فوق الماء المذهب كتلة من الأوساخ الهامدة داخل ثياب فاخرة مبتلة . . . شعرت بالفرح فقد بدا ميتاً . . . ومضت في ذهني عبارة : مقتول . . لعله قتل . . سررت لأنه قتل ، لأن سواي قام بالمهمة . . . لاحظت ان باب سجن تمثال «المناضل» كان مفتوحاً فهل خرج التمثال وقتله ؟ لعن اللّه الشيخ وطفان الذي زرع في نفسي الأفكار المرعبة والمستحيلة . المستحيلة ؟
أم تراها ابخرة الخمرة ؟ عدت مذعوراً الى غرفتي . . . ارتجف وارتجف . . مرت الدقائق بطيئة ولم اسمع صوتاً غير صراخ العاصفة وعويل الرياح الدامعة بالمطر . . . استعدت بعضاً من شجاعتي . إذن لم يكتشف الجثة احد ، ولن يحدث ذلك قبل الصباح الباكر وقت وصول السقاة والخادمات والطباخ . . . قررت أن افعل شيئاً طالما حلمت به . . ولا ادري من اين واتتني الشجاعة لذلك . . تراها ابخرة الخمرة المستولية على رأسي ؟ أم بالرغم منها ؟ لا ادري . . لقد حملت نسخة التمثال التي اهداني اياها رغيد لاذلالي وقهري ومضيت الى القاعة الذهبية . استبدلت بها التمثال الأصلي عن قاعدته والعرق يتصبب مني ، والمطر يلطم نوافذ البركة ، وحين شاهدت القرش الفلسطيني ، قررت ان تكون هديتي لأمير كاملة . . . مسحت بصماتي عن التمثال المزور وقاعدته . . كنت قد شاهدت من المسلسلات التلفزيونية البوليسية ما يكفي لتثقيفي بهذا المقدار . عدت الى غرفتي . . . وضعت التمثال الأصلي بدلاً عن النسخة المقلدة . . لن تلحظ الخادمات الفارق . . اخفيت القرش داخل علبة (النسكافيه) وطمرته بالقهوة . . . كنت في لحظة جنون مؤقتة . . مشهده ميتاً كأي ارضي آخر غمرتني بفرحة الاكتشاف . . اذن اولئك السفاحون

قابلون للقتل ، وجثتهم تبدو بائسة كجثة اي فقير . . . ولا يتدفق من عروقهم دم ازرق يلون البركة ، بل تزرق وجوههم كالقتلى جميعاً . . دب الفرح في اوصالي ممزوجاً بالذعر ، وامتلأت بجرأة خارقة عابرة . . .

لم انم . . تقيأت ودهمني الصداع . ندمت ، وارتعدت . . ماذا لو اتهمت بقتله ؟. كأنني اسديت للقاتل خدمة حين حملت بنفسي بعض ادلة الجريمة الى غرفتي . . . فكرت باعادة كل شيء الى موضعه ، ولكن خيل الي انني سمعت حركة ما . . . ثمة من يهبط ويصعد . . اقفلت بابي . . ماذا لو كان القاتل قد عاد لأنه نسي شيئاً ما مثلاً ؟ . . ولماذا لا يقتلني اذا شاهدته وتعرفت اليه ؟ . . وكيف لا اتعرف اليه ، وليس في القصر هذه الليلة سواي وخليل وزوجته ونديم وزوجته وصقر وليلى وباب الجسر بيننا والمبنى الآخر لرجال رغيد مغلق ؟ ولكن فرحتي بمصرعه غطت مخاوفي كلها كغيمة حنون . .

هل قتله نديم ؟ بالتأكيد . . .

ولكن ، ليته فعل ذلك منذ زمن بعيد . . بعيد . . . خليل لا يمكن ان يكون فعلها . . . انه يمر بمرحلة التدليل والافساد ولما يواجه مرحلة الاذلال الكلي بعد . . .

وليلى خاسرة بموته . . . كان يزداد اتكالاً عليها دون ان يلحظ ذلك . . . ام ان ثمة ما اجهله يدور بينهما ؟ . . . كفى هشة . . . ليست من النمط القادر على القتل خارج الفراش . . .

وأنا لم افعلها . . .

فمن قتله غير نديم ؟ . . .

صقر لم يفعلها بالتأكيد ، فهو لم يدر بانهيار المدرسة ومصرع شقيقه ، بعدما رفض البارحة الرد على هاتف والده وكان مخدراً . . . ام تراه كلم والده بعد نوم الآخرين واستيقظت فيه غريزة الثأر؟ بحرية لم تفعلها بالتأكيد، ويا له من حظ مبارك إبعادها الليلة عن القصر والا لأمطرها البوليس بالاسئلة ولاتهمها الساحر . . ولكن كونها خارج القصر قد لا يعفيها من التهمة اذا اصر الشيخ وطفان على جرمها تلك الغامضة السلوك . . ولديه عدد كبير من الشهود ، فمن تهبط الى سهرة اقيمت على شرفها عارية ومغطاة بالدم ترعب الضيوف ، يمكن ان تتهم بالقدوم من قصر الى آخر لارتكاب جريمة قتل . . فالشهود لا يعرفون حقيقة ما كان يدور بينها والساحر خلف الجدران الصامتة . . ام تراه الشيخ صخر ارسل من يقتله انتقاماً ؟ واعده على اللقاء في البركة الذهبية وجاء بنفسه وقتله ، أو أرسل

من ينوب عنه ؟ ألا يفسر ذلك ترك رغيد لباب البركة المصفح مفتوحاً ؟

اذا لم يكن نديم قد قتله ، فإنه بالتأكيد كان ينتظر قدوم شخص ما ، وهذا الشخص هو الذي واعده وقتله ، وربما كان رغيد استدعاه بنفسه . . فمن هو اذا لم يكن نديم قد فعلها ؟

ولكن القاتل لا بد من ان يكون احدنا في القصر . . . اذ كيف يدخل الشيخ صخر او بحرية لقتله من غير ان يراهما الحرس ؟ وكيف يخترقان الجدران المكهربة ، والبوابات المصفحة ؟ . . . قاتل محترف يبعث به صخر مثلاً يستطيع ذلك ، بقص السور المكهرب للحديقة . . والتسلل الى البركة حيث يكون رغيد في انتظار سيده ، وينجز المهمة بسرعة . . .

هذا يعني ان أي رجل قوي له نفوذه ويعرفه ، يمكن ان يكون واعد رغيد ليلاً في البركة ، لانجاز صفقة لا بد من ان تكون شهية جداً كطعم ، ثم ارسل من يقتله ، لمصلحة ما تجارية . . ربما لأنه يريد الانفراد بالصفقة وحده ، والتخلص من منافسه رغيد . «المليونير الاحمر» مثلاً يمكن ان يكون قد فعلها بعدما وجد وسيلة للانفراد بصفقة المطار . . . والمليونير الأصفر . . . وأي مليونير من اولئك الذين ينتظرون طلوع شمس هذا النهار للحضور والاحتفال . . . وإذا كان القاتل ذكياً ـ كما هو بالتأكيد ـ فانه قد يؤخر حضوره، ويواعد رغيد هاتفياً دون ان تكون طائرته الخاصة قد حطت بعد في مطار جنيف ، ويرسل قاتله المحترف لتتم الجريمة قبل وصوله (ريموت كونترول) بالتوجيه بعيد المدى . . .

الشيخ وطفان وحده من العالم الخارجي يمكن ان يكون فعلها دون قص شريط الحديقة . . . فهو قادر على تنويم الحراس مغناطيسياً بعينيه المرعبتين وعلى تعطيل صفارات الانذار وتحريك الازرار بنظراته . . وقد لاحظت مؤخراً انه كان يحرك بعض الاشياء الجامدة وحين أفاجئه بدخولي الى الغرفة يتركها تهوي . . . بل انه كان يزداد قوة سوداء مرعبة كلما ازداد مرضاً ونحولاً كأن طاقاته كانت تتغذى من جسده ، وعفريت غامض يقطنه حقاً ويمتص قواه الحيوية . . ولكن لماذا يقتل الشيخ وطفان رغيد ؟ لأنه ناقم عليه بشأن بحرية ؟ لأنه لم يطلق يده في شأن حلاقة شعرها وتعذيبها لطرد الشياطين منها ؟ ولكن ، لماذا يحضر من فندقه لقتله ، وهو القادر على ذلك في أية مناسبة اخرى ؟ . . ولماذا لا يدس له بالسم في احد العقاقير التي يتناولها رغيد من يده بكل سرور ؟ أم ان العلاقة بينهما

ساءت في الفترة الاخيرة بسبب بحرية ، وصار رغيد يشك حتى في ساحره ؟ . . ولكن ، لماذا يقتله الساحر وطفان بخنقه كأي آدمي آخر ، وهو القادر على تسليط الأوجاع والصداع والأوبئة على جسده ؟) . .

شعر نسيم بأن رأسه يكاد ينفجر لهذه الأفكار . . وامتلأ ندماً لأنه في نوبة جنون شاب بدّل التمثالين وسرق القرش . . فقد يلصقون التهمة به ، بناء على هذين الدليلين ، لمجرد انه خادم وفقير ولا يملك اجرة المحامي ، وسيسر ذلك الجميع ـ باستثناء خليل وامير ـ ولكنه يعرف بالتأكيد انه لم يقتله فهو لا يمشي في نـومه، فمن قتله اذن ؟ عـاد يفكر من جـديد بالاشخاص كلهم الذين ناموا داخل القصر ، وكان بـالتالي قتله اسهل عليهم من سواهم ، وامسك رأسه بين يديه وقد داهمه صداع مفاجىء .

(يبدو انني اكثرت من قراءة الروايات البوليسية اكثر مما ينبغي . . لست المفتش بوارو في روايات اجاثا كريستي لاحدد من الذي قتله . . المهم ان انجو برأسي هذه المرة . . .) .

نهض وغسل وجهه بالماء البارد ، وسارع الى ارتداء ثيابه .

(لعن اللّه الخمرة . لولا زجاجة النبيذ المعتقة التي فاضت من عشائهم ، فحملتها الى غـرفتي وشربتهـا ، لما وجـدت في نفسي الجرأة والـرعونـة لاستبدال التمثـالين وسـرقة القرش . . هل سأتهم بجريمة قتل لأنني اختلست عدة جرعات من ماء النار ؟ وهل سأدفع حياتي ثمناً لذلك ، بينما يسبح القاتل او القاتلة في الخمرة والخـطايا ؟ . . هـذا بالتـأكيد سيحدث . . . وحدهم الفقراء يعاقبون على ذنوبهم في كوكبنا . .) .

***

قالت دنيا مخاطبة ليلى ببعض اللؤم : هل استطيع الصعود الى غرفتي لتبديل ثيـاب النوم ؟ تدخل خليل : ما شأنها بك ؟ انها متهمة ككل واحد منا . . وانا ايضاً صاعد لتبديل ثيابي . . .

غادرا الغرفة ولم تفه ليلى بكلمة . . . وحده صقر كان ينتحب كالطفل وينوح مخبولاً : اريد ابي . . اريد العودة الى بيت ابي . . دعيني اذهب . . . وبالرغم من ان ليلى لم تجبه ولم تفعل شيئاً لمنعه من الذهاب ، لكنه جلس الى مقعده كأن قيوداً لامرئية تشده اليه . . . وهو ينوح : سيقتلونني انا ايضاً . . ثمة من يكره العظماء والاغنياء . . دعوني اذهب . . لعلي كنت المقصود بعملية الاغتيال . . بالتأكيد كانوا يريدون قتلي انا . . .

دخلت دنيا الى غرفتها . اخرجت اوراقاً من حقيبتها ، الأوراق التي تدين نديم والتي هدد رغيد بها زوجها في الليلة السابقة . سارعت بها الى الحمام . اشعلت الولاعة الذهبية . احرقتها ورقة بعد اخرى ، ثم تدفق شلال الماء ذاهباً بالبقايا . . . انتظرت قليلاً وتأكدت ان قطعة ورق أو هباب لم تعم فوق سطح الماء ، ثم عادت فضغطت الزر وتدفق الشلال من جديد . . .

غسلت يديها جيداً من الهباب ، وتأكدت من ان السواد لا يلطخ اظافرها من الداخل . . .

(اذن قتله نديم ؟ . . . لقد عاد حوالي منتصف الليل باكياً كالطفل . . . لم يقل لي انه قتله ، وإنما روى لي كيف سيزج به في السجن لذنب لم يرتكبه بعد ان يقسره على الاعتراف بمسؤولية انهيار المدرسة . . شعرت بانني اكرههما معاً ، ولكن . . . خفت . . امتلأت ذعراً ، وتدفقت مشاعر القلق من اعماقي على غير هدى ، واحسست انني بحاجة الى ان اخطط لحياتي وفراقي لنديم إذا تجرأت يوماً على ذلك ، ولم اعد قادرة على ان يخطط رغيد لها بعد الآن . . . انه يزيد الأمور تعقيداً ، وأنا اكاد انكسر ، وقد انكسر بالتأكيد لفراق نديم الذي قاسمته الكراهية والعيش والهفوات والسقطات لأعوام طويلة . .

ربما كنت ارغب في جرح مشاعر رغيد، لا في مساعدة نديم . . . لا ادري بالضبط . . . لم اقدر على النوم بعد الحكاية التي رواها لي نديم . . . إذن سيذهب نديم ليسجن هناك ، وسيتابع رغيد الاعيبه الى الأبد . . ثمة من سيسجن دوماً بالنيابة عنه ليحيا هو سارقاً منه حريته . . ومن سيموت بالنيابة عنه ليحيا هو سارقاً كليته او قلبه او عينه . . كنت مقهورة وغاضبة . . .

تقلبت في فراشي ارقة لمدة ساعة على الاقل . .

حوالى الواحدة صباحاً قلت لنديم : سأذهب اليه لأحدثه . . .

كان منهاراً . . لم يقل نعم او لا . . . ذهبت الى غرفة نوم رغيد التي اعرف جيداً وقرعت الباب طويلاً ولم يجب احد . . وادهشني ان الباب لم يكن مقفلاً ، حين ادرت مقبضه ، ولكنني لم اجد رغيد في الغرفة . هبطت الى الردهة . لا احد . شاهدت الانوار عبر النوافذ مضاءة في البركة الذهبية . مضيت اليه وقد سرني انه ما زال مستيقظاً . . فكرت لوهلة بأن اتوسل اليه ان يدعنا وشأننا ويأخذ كل دولار جمعناه بواسطته . . في دربي اليه تخيلتني اقتله . . اخنقه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد

حتى تتلاشى قواه ويضمحل بين يدي زنخاً ولزجاً . . وفوجئت به عائماً فوق الماء ، مخنوقاً ، وثمة من سبقني الى تحقيق هذه الأمنية . . صعقت . . تحجرت . . شاهدت الأوراق التي تدين زوجي على الطاولة . . . توهجت بالذعر ودبت في عروقي قوة استثنائية . . . بسرعة قلبتها . . بسرعة عرفتها . . . شاهدت توقيع نديم والجداول . . . الحسابات المغلوطة والاختلاس . . حملتها وعدت بها الى الغرفة . . .

قلت لنديم : إذن قتلته . .

لم يجب . ظل طويلاً صامتاً ثم قال : «ليتني جرؤت على ذلك . . . تمنيت أن أخنقه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد حتى تضمحل قواه . . . لكنني لم افعل» . . .

قلت له : ولكنه مقتول . . شاهدته ميتاً فوق البركة . . .

قال لي : مستحيل . غير ممكن . امثاله لا يموتون . انه يسخر منك . لعله شاهدك قادمة واحب العبث بك . . . فسارع الى الغطس في الماء . . .

ــ بثيابه ؟ هل يعقل ذلك ؟

ــ إذن أنت مذعورة وواهمة . . .

ــ تعال معي وانظر بنفسك . . .

قال : اني منهك . . .

تراجعت : ماذا لو كان مقتولاً حقاً ؟ ماذا لو وجدونا هناك ؟ سيتهموننا بذلك معاً . . .

لم أقل لنديم شيئاً عن الأوراق . . داهمني شلل مذعور . . . ظللت ارتجف في فراشي بصمت حتى انطلقت صرخة صقر . . وشعرت بالارتياح ، فقد كان الانتظار اقسى من اليقين . . .

إذن قتله ولم يقل لي . . . وها انا ازيل ادلة الجريمة . . . انني شريكته . . . لقد ورطني منذ بدء حياتنا ولم يعد بمقدوري الانسحاب . . . لماذا تدخلت بعدما كنت قد قررت مغادرة جحيمنا المتبادل ؟ . . . لا ادري . . . لا ادري . . . . لم اعد اعرف شيئاً . .) .

***

غسل نديم وجهه في الحمام الخاص بالضيوف الملحق بالردهة الكبيرة ، وانتحب في المنشفة وهو يجفف وجهه . . . وبقي في ثياب النوم التي ارتدى فوقها معطفه المنزلي (الروب دي شامبر) . . .

إذن قتلته دنيا . . .

(ماذا فعلت بها وبنفسي ؟

قتلته من غير ان تدري . . . كما طعنت لوحتها بالسكين دون ان تدري واتهمت بذلك ابنتها أولاً ، ثم استقر رأيها على انني المجرم ، وانني ارتكبت ذلك لتأديبها بناء على تعليمات رغيد . . . صحيح ان رغيد طلب مني (اعادة تأهيلها)، لكنني اكتفيت بقتل بيكاسو كلبها ، ولم افعل ذلك . . لم اطعن لوحتها . . . ولا اظن ان ابننا فعل ذلك ، مغادراً حقل القتل على شاشة الألعاب الفيديو - تلفزيونية واشرطة الأنتلفزيون الى شاشة الحياة واللوحات . . .

هي التي فعلتها من غير ان تدري .

سأشهد ضد تلك المسكينه . . . لقد دمرتها ودمرت نفسي . . . بدت لي الحياة لعبة كبيرة ، من لا يقدم على اغتصاب نصيبه منها يخسر حقه فيها وفي قبر لائق . . . وكل ما فعلته هو انني اخذت ما اعتقدته حصتي . . . وشجعت دنيا على مساعدتي . . . كيف انحدرنا الى هذا الدرك ؟ .

نعم . . . اشتهيت البارحة ان اخنقه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد حتى تتلاشى قواه ويضمحل بين يدي . . .

ولكنني لم افعل . . لم افعل . . .

كل الدلائل تشير الي . . . فهل تنقذني دنيا وتعترف ام تتركني اذهب الى السجن المؤبد في غمرة ادعائها محاولة انقاذي من سجن مؤقت ؟ هل قتلته لأتهم انا بالجريمة ؟ أهذا انتقامها ؟ ولكن ، ماذا لو كانت قد قتلته في احدى نوباتها العصبية ، ولم تعد تذكر ذلك حقاً ، تماماً كما فعلت ولوحتها ؟

وماذا لو انها بريئة ولم تقتله ؟ . . وما دمت لم افعل ذلك ، إذن فالقاتل حر وطليق بيننا . . . من هو ؟ خليل ؟ ولكن ، لا مصلحة له في ذلك . . .

نسيم ؟ ممكن . . . انه يمقتنا جميعاً . . ومنذ مصرع سري الدين وهو يتجنب النظر الى وجهي . .

ليلى ؟ قادرة على ذلك لو انهما متزوجان . . . اما الآن فلن ترث غير الديون . . .

صقر ؟ على الأرجح . . . انه واقع باستمرار تحت تأثير الكوكايين وسواه من مساحيق الجنون . . . هل قتله انتقاماً لمصرع شقيقه ؟. . هل علم بذلك، واستيقظت في نفسه قوانين القبيلة في عالم لا تحكمه غير شريعة الغاب؟. . . هل اقنع هلال الذكي شقيقه صخر بأن اعترافي مسرحية هزلية شكلية لن يصدقها احد ، ودفع به الى الانتقام ؟ هل ارسلوا بقاتل مأجور ؟

أنا المتهم الأول ، لكنني لم افعلها ، واعرف ان احداً لن يصدقني . . . والقاتل يعرف ذلك جيداً . . . وربما شجعه ذلك على تنفيذ خطته) . .

***

ترتدي كفى ثيابها مذعورة . . . بدت الغرفة لعينيها جحيماً رغم الذهب والرياش . . . اذن خسرت فرصتها «ليلة المليار» هذا المساء ، وفجر المليار دمر احلامها . . . قتل وجرائم . . .

لم تلتفت الى خليل الذي كان يرتدي ثيابه بسرعة ولم يخاطب احدهما الآخر . . أهذا ما يدور في هذه القصور التي طالما حلمت بها ؟ . .

على هذا الفراش اغتصبها صقر ، واستمتعت بذلك وهذا شأنها وحدها ، (من الخارج) كان واضحاً انه اغتصبها، فلماذا رفضوا كلهم الوقوف الى جانبها: زوجها ودنيا وليلى؟ حسناً لم تطالبهم بأن يكذبوا . . كل ما طلبته من ليلى ودنيا هو قول الصدق . . «قول الحق» . . فرفضوا . . .

(ولكن، لم انا غاضبة هكذا ؟ ألم يكن «قول الحق» مأخذي الاساسي على خليل ؟ هل اريد ان يقول الناس الصدق أم لا؟ أم اريده حين يكون لصالحي وارفضه حين لا يكون كذلك ؟

إذن قتله خليل . . . انه على الأرجح قاتله . . وحدي اعرف ان نديم غادر رغيد وهو ما زال حياً ، لأنه حدثني بعد ذلك على سماعة هذا الهاتف بالذات . . قال لي انه اعلم نديم قبل دقائق باستغنائه عن خدماته لأنه اساء الأمانة وتسبب في انهيار مدرسة او شيء من هذا القبيل ثم سألني ان كان خليل نائماً ووعدني بمنحه وظيفة جديدة مهمة واضافية بدلاً من نديم تدر علينا نقوداً كثيرة فشكرته وفرحت وقلت له انه يستحم لكنني سأناديه، فأمرني بأن

افعل . . . ولو قلت لـه انه يحتضر لـطلب ان اناديـه . . . ثم امره بمـوافاتـه الى بركـة الذهب . . .

وهبط خليل اليه بعد منتصف الليل . . . ربما حوالى الواحدة لا اذكر . . كل ما اذكره هو انني خفت لأن العاصفة انفجرت فجأة وانا وحدي . . وفكرت بالذهاب عبر الشرفة والاحتماء بجسد صقر ولكنني لم اجرؤ . . ثم ان خليل لم يتأخر كثيراً . كأنه عاد سريعاً او كأنني غفوت . . اذكر ذلك بشكل غامض. وحين سألته نصف نائمة بماذا تحدثا ؟ وماذا عرض عليه ؟ وكم الـراتب الشهري ؟ . . . النقـود . . المال . . العمـولات . . اجابني بهدوء : عرض علي شيئاً فقتلته . . .

ضحكت للنكتة مرغمة ، وقررت ان لا حاجة للشجار من اجل نكتة سمجة بعد يوم منهك كهذا ، ستعقبه ليلة الحفلة . . ومن الأفضل لجمال بشرتي ان اسكت وانام . . .

وكان نومي قلقاً . . حلمت بأنهم يغتصبونني وعلى رؤوسهم قناع الشيطان . . واحداً بعد الآخر . . . حتى ليلى كان لهـا في الحلم جسد رجـل . . . واستيقظت عـلى صراخ صقر . . . ولم اصدق ان خليل كان يعني ما يقول الا حين شاهدت جثة رغيد عائمة فوق فراش الذهب المائي . . .

ليتنـا بقينا في بيروت . . . الموت ، والقصف ، والذعر ، كل شيء خير من هـذه الجريمة . . لن ادعى الى الحفلات بعد الآن ، ما دمت زوجة لقاتل سجين . لقـد دمر مستقبلي الاجتماعي . ليته قتله بعدما طلقني وليس قبل ذلك . . انه لا يفكر بغير نفسه . . آه ماذا سيحل بي والطفلين ؟ كنت اظن الغنمالي سنداً ، ولكن هل يرضى بي بعد اليوم بعدما اصبحت زوجة لقاتل ؟ ومن يدعوني بعد الآن الى قصره ؟ ومن ينفق علي ؟ هل سيحكم خليل بالاعدام ؟ هل يطبق الاعدام في سويسرا ؟ لقد سألت عن كل شيء في هذا البلد الرائع الا . . هذا . . .

لم يخطر ببالي ان الأمر سينتهي بنا الى هذا الذل . . وقد اصير ارملة قاتل . . .

لن اشهد ضده فقد اتهم بكتم المعلومات . . . سأطبق فمي . . كنت نائمة ولا اعرف شيئاً . . . لا اريد ان اعرف ولا ان اصدق . . . . وإذا ادعى انه اخبرني باقتراف جريمته بعد عودته مباشرة من مسرحها ، سأقول لهم انه كاذب كاذب . . . ومن يصدق قاتلاً ، ويكذب براءة عيني الزرقاوين المبللتين بالدموع ؟ اللعنة على خليل . . . ما كـدت امد قدمي لاخطو فوق المسرح ولأتوج نجمة من نجوم «ليلة المليار» ، حتى هدم كل شيء على

رأسه ورأسي ، وأفسد مستقبلي الأكيد كنجمة مجتمع عالمية . . . لن اغفر ذلك له ، هذا الاحمق الذي ركل الثراء والنجاح ، وافسد عمري كله) .

***

(نعم قتلته . . وانا فخور بذلك . . . سأقولها في المحكمة . . . حين يناديني القاضي ويسألني : لماذا قتلته يا خليل الدرع ؟ سأقول له الحق . . سأقول : قتلته لأن طفلتي ماتت بقذيفة تقاضى هو عمولتها . . اطفال الحي كلهم ماتوا بقذائف سكب ثمنها ذهباً في بركته . . . قتلته لأنه طلب مني ان اشاركه مهمته القذرة وعمولته القذرة . . . اخرجني من بكائي على طفلي بعد منتصف الليل لاشاركه قذاراته ولاغوص معه في مستنقع شحن الأسلحة الى بيروت للطرفين المتقاتلين في آن معاً بعدما رمى بي في مستنقع مخدرات صقر ، وعهّر زوجتي . . كان فخوراً بأن حرب لبنان من ثمانية اعوام كونت الجزء الأكبر من ملياره الأول ، وعلى استمرارها يعول لجمع ملياره الثاني . . المشاريع العمرانية سيتخلى عنها بالتدريج ، فأنت تتورط اذا انهارت ودمرت وقتلت كما حدث للمدرسة ، أما بيع السلاح فهو العكس ، اذ انك تتقاضى ثمن مزيد من الدمار والانهيارات على حد تعبيره . .) .

انجز خليل ارتداء ثيابه بسرعة ، وغادر الغرفة من غير ان يقول لكفى كلمة واحدة . جلس في الردهة كتمثال منسي . . بعد زمن ما ، اخرجه نسيم من حالته الحجرية حين تقدم منه حاملاً فنجاناً من القهوة . . . ابتلعه خليل بصمت شاركه نسيم وجومه ، ثم قال له بمحبة : تفضل يا اخي . . . تعال نستنشق الهواء عند الباب . . .

ــ هل وصل البوليس ؟

ــ اجل . . والطبيب ايضاً . . . انهم في البركة ، وقد منعوا مغادرة المكان وحاصروا القصر . . .

مشى خليل مع نسيم . وحين ابتعدا قليلاً عن ذهول ليلى ونواح صقر ، قال خليل لنسيم ببساطة : انا قتلته !

ــ وأنا لم اسمعك تقول شيئاً . .

ــ لقد قتلته .

ــ من منا لم يشته قتله ؟ من منا لم يحلم بذلك ، وربما حاوله . . لكن نديم قتله . . يبدو منهاراً وسيعترف . . .

ـــ انا قتلته يا نسيم . . .

ـــ هل تعني ما تقول ؟ . .

ـــ البارحة بعد ان غادره نديم هتف الى غرفتي . أمرني بالنزول اليه . امرني بتولي بعض مهام نديم . اختار لي الأسلحة . صفقات الأسلحة الى الوطن . يتحدث عن لبنان كأنه رقعة شطرنج خاص بالرهان . . ينسى ان فيها بشراً يموتون ويتعذبون وانا وانت واخوتك واولاد عمي واهلنا منهم . . . يريد ان اتولى عمليات الشحن . . . عمولتي ستكون مرتفعة . . . واحد بالمئة والشحنة الأولى بعشرة ملايين دولار . . اي سأتقاضى مائة الف دولار عن الصفقة الأولى . . وإذا لم تقتل الشحنة الفتاكة غير ٢٠ الف انسان ، سأكون قد تقاضيت خمسة دولارات عن كل قتيل مثل ابنتي وداد مثلاً . . .

انتابني جنون مؤقت . لم اقل شيئاً . لم يلتفت الي ولم يبد مبالياً بما قد اقوله . . كان واثقاً من موافقتي ، وكنت قد صممت على ان اخنقه في بركة الذهب واغطس رأسه تحت الماء والفقاعات الذهبية تتصاعد حتى تتلاشى قواه ويضمحل بين يدي زنخاً ولزجاً . . . طالما راودني ذلك الحلم وصممت في تلك اللحظة على تحقيقه . .

ادار ظهره لي وابتلع كأساً اخرى من ماء النار . بدا سعيداً «بليلة الاحتفال» المرتقبة ، وقال لي ان الساعة جاوزت منتصف الليل وبدأ يوم المليار الأول . . . وهو يفرط في الشراب على غير عادته احتفالاً بذلك . . ظللت صامتاً . . فجأة ، سعل ، وسقط على ركبتيه امامي وتدحرجت الكأس من يده مكسورة ، وامسك بصدره منحنياً كأنما طعنه احدهم بسكين في معدته . . نظر الي مستنجداً وحاول ان يقول شيئاً ، فسمعت حشرجة ، ثم انهار على طرف البركة وسقط في الماء المذهب الشفاف . . . نظر الي مستنجداً ، ومد يده . . . قلت لنفسي : رجل كهذا يحمل بذور موته داخله ، وقد كبرت وحان قطافها . . . تأملته ووهج الذهب يرقص على اعضاء جسده وهو يتخبط وفي وجهه امارات ألم رهيب . . وبدا مذعوراً ، ومنهكاً مثل صوص صغير هرم مضحك وسط بيضة ذهبية جهنمية عملاقة ، عاجزاً عن السباحة ، مرتجفاً في ثيابه الضيقة وربطة عنقه الخانقة . . . مد يده نحوي ثانية . . .

لا ادري ماذا تملكني . . لم امد يدي اليه لأخرجه من الماء . . بل وضعت يدي اليمنى في الجيب اليمنى ويدي اليسرى في جيبي اليسرى وكدت اصفر حبوراً . تركته يغرق . . . سعدت بمشهده وهو يتعذب ويتخبط وحشرجته الذهبية تخفت . ظللت جامداً امام موته ،

ولم انقذه . . ولم افعل شيئاً . . بل انني صرت اغني بصوت خافت . . «يا ظلام السجن خيم» بينها نظرته الاخيرة تتوسل الي راكعة . . . قررت الحكم عليه بالاعـدام . . وحين استرخى جسده ، تأملت المكان وانا ما زلت اضع يدي في جيبي ودهشة عارمة تغمرني . . لم اكن أدري أنني قادر على ذلك العنف كله . . العنف البارد كبريق ذهب البركة . . العنف الذي عجزت بيروت نفسها عن تفجيره في نفسي تدفق بقسوة ماء الذهب في البركة . . وعيت انني انا ايضاً قادر على القتل . . مشدود في المسافة بين اللذة واللامبالاة وانا أتأمل الموت المائي الذهبي لرغيد . . . وبريق الرعب والذهب يومضان في بركتي عينيه الغاربتين . . . كم كان ذلك مفاجئاً ومذهلاً .

ومضيت الى غرفتي . وحين سألتني زوجتي ماذا اتفقنا رغيد وانا وكم سيدفع ، قلت لها انه لن يدفع شيئاً بعد الآن لأحد ولن يشحن سلاحاً لأحد لأنني قتلته . ولم تصدقني .

همس نسيم : انا أصدقك ، وأحسدك ، وأتوسل اليك : لا تقل شيئاً . لا يستحق هذا الحقير ان يموت احد بسبب مصرعه . . .

ــ ولكني اشعر بما يشبه الندم الآن . . . لم اقتل يوماً مخلوقاً . . طالما ناديت بالديمقراطية والحوار والعدالة ، وانتهى بي الأمر سفاحاً كأي ارهابي صغير . .

ــ لا تقل الآن شيئاً . .

ــ لماذا ؟ هل تشتهون رواية بوليسية ، يحقق فيها البوليس طويلاً وتدوخ معه انت وبقية نزلاء القصر ؟

ــ قلت لك اسكت يا اخي خليل . . ارجوك ان تسكت . لا تقل الآن شيئاً حتى نهاية التحقيق على الاقل .

ــ كنت مسالماً وانتهى بي الأمر قاتلاً وكان طموحي الوحيد ان اكون مناضلاً شريفاً . . . انني قاتل ، وقد غادرتني ابخرة نشوة خمرة الانتقام ، واعترف . . . اشعر بما يشبه الندم . . .

ــ انك لم تقتله . . . لم تدفع به الى البركة ، ولم تطلب منه ان يعب الخمرة اللعينة كالمعتوه فرحاً . . قتلته فرحة الجشع ، قتلته اشواقه«لليلة المليار» . قتلته وجبته الشرهة ليلة البارحة وفرحته بتدمير نديم وشماتته بموت ابن صخر . .

ــ حتى ولو لم اكن قد قتلته بيدي ، لكنني فعلت ذلك بمعنى ما . . . حتى ولو لم اكن

مسؤولاً امام القانـون عن انتزاع روحـه المدنسـة ، لكنني مسؤول امام نفسي عن رجس قتله . . .

ـــ ان رجس تركه حياً اكبر من رجس قتله . . ليس بيننا من لم يشته يوماً قتله ، فاهدأ يا اخي . . لقد ضرب مرة احد خدمه الفقراء بسبيكة من الذهب على رأسه وقتله ، وتولى المحامي الماهر تدبير امر براءته بسبيكة ذهب ثانية . . .

ـــ كلما التفت خلفي نحو البارحة شعرت بانني احدق في نهر الجحيم ، ولن اقوى على مغادرته مثل اورفيوس . . . انني اغرق في الندم . . . كيف اقترفت ذلك ؟

ـــ كيف لم يقترفه احد قبل الآن . . .

ـــ اني نادم . .

ـــ اني فخور بك . . اهدأ ولا تقل شيئاً لأحد . . دعني استطلع ما يدور . . .

●●●

يكاد الفجر يطلع والشيخ وطفان عاجز عن مغادرة فراشه (لقد قيدتني بحرية طوال الليل بسلاسل لا مرئية ، وجلدتني بسياط البرق ، واطلقت الجان يسرقون الـرياح من الجهات الاربع ، ويصبونها على نوافذي ممزوجة بالدموع البشرية المسكوبـة في الزلازل والاعاصير والمجاعات والاوبئة لأتوهم ما يدور مجرد عاصفة اخرى . . . وليخيل الي ان رقادي المحموم المعذب هو مجرد نوم بشري آخر .

لكنني ، منذ شاهدت احد عفاريتها يحتل الجسد الآدمي للشيخ صخر ، ويأتي الى الفندق ليدعوني ، عرفت انها الحرب الاخيرة . .

وحين شاهدت ابتسامة وجهها وهي تنتظرني في غرفتها المحروسة بثـلاث قطط من الجان ، تيقنت من ذلك . . كانت ابتسامة لا تظهـر على شفتيهـا نصف المسترخيتـين ، وبمقدوري وحدي ان اراها والمح الاسنان السود لعفريتها . . قال لي عفريتها الذي امتلك الشيخ صخر محاولاً خداعي : لم ينقض على وجودها في الغرفة دقائق حتى جاءتها قطط عبد الله تتمسح بها . . بعد ان تكشف لي قاتـل ابني ، اتمنى عليك ان تعـالج هـذه الصبية البريئة . وبالتأكيد لم اصدقه . . كانت تداعب حراسها القطط بيديها ، وتتـأمل شـاشة

الـتلفزيون كـأية ارضيـة اخرى ، والتفتت إلي حـين دخلت وعفريتهـا يمنحني ابتسامـة ساخرة ، فيما اجفل جسدها الذي اختَزِن له تعذيباً لا يصدق لتخليصه من عفريته) . .

حاول الشيخ وطفان ان ينهض من فراشه ، لكن الحمى كانت تلتهم قواه رغم محاولاته كلها للوقوف (يجب ان امضي اليها قبل طلوع الفجر . . الجن الذين ادعوهم لا يستجيبون الا في الظلام) لكنه لم يقو على النهوض (منذ وصلت من الفندق الى هذا القصر ، عرفت انها اعدت مسرح المعركة على هواها . . فجعلته مشابهاً لمسرحنا السابق ـ ولا اذكر اين كان ذلك بالضبط ـ هي الى يسار الردهة ، وانا في الطرف الآخر المقابل ، والممر الفاصل بيننا ضيق ونصف معتم . . . ومنذ لحظة وصولي قبل ساعات ، بدأت اعمل على استدعـاء اعواني ، وكلما ادخل الي الخادم عقاراً جديداً عـزمت به وقـد التهبت مجمرتي . وحـين جلست الى كـرتي الشفافـة التي لم يكن اجدادي يستعملونها ، والتي اتقنت اسـرارها ، استطعت ان اراها كما هي وان ادرس غرفتها جيداً . . صار في مقدوري ان أقرأ ما هو مكتوب داخل ورقة مغلقة بمجرد لمسها ، فكيف لا يكون بوسعي ان استدعي صورتهـا بقواي وكهاربي داخل كرتي الزجاجية ؟ ولماذا بدا ذلك غـريباً للشيـخ صخر حـين جاء يدعوني لمشاهدتها فقلت له انني اراها بوضوح داخل الكرة ؟ وحين لم يصدقني عفريته ، وصفت له الغرفة بكل تفاصيلها : الفراش الأبيض الذي يصعدون اليه بدرجات ثلاث ، والستائر الشفافة التي تنسدل من سقفه الخشبي في سبع طبقات ، لكنها الآن ليست مسدلة كلها ، ثمة اربع طبقات مسدلة ، ومعقوصة عن الجانبين بشرائط وردية ، وثمة نجفة ضخمة ، بديعة ، تتدلى من ركن الغرفة لا من منتصفها كما هو مألوف ، ومهندس ديكورك خارق الذوق . والجدار خلف الفراش تغطيه تلك الستائر الشفافة منحدرة من تاج خشبي مرصع بالصدف والذهب والنجفة تضيء مقعداً مريحاً ركز تحتها ، مقابل التلفزيون ، وبحرية ليست في فراشها بل هي جالسة ترقب الـتلفزيون . . غـرفة تليق حقـاً باميـرة الجان . . . وادعى عفريت صخر الذهول ، فخاطبته كآدمي وقلت له متجاهلاً انه بشري مسكون : ولماذا لا يدهشك ان ترى في الـتلفزيون صور الناس في قارة اخرى ، ويدهشك ان أرى صورتها في الغرفة المجاورة ؟

قال الـتلفزيون له محطات بث ، وثمة هوائي يلتقط الصورة عند المتفرج (الانتين) .

قلت له : البشر والجان كلهم محطات بث ، وانا وجدت الهوائي (الانتـين) الذي يلتقط صورهم . انه موجود في داخلي ، امده لا مرئياً كالكهرباء والموجات الصوتية الى اي

مكان ، والتقط اية صورة . . .

فبدت على وجهه دهشة صادقة لسحري القوي ، وتحديته . قلت له انني استطيع ان اصف له كل ما في الغرفة ، اذا تركني دقائق اركز قواي وانشر شاشتي اللاقطة واركز موجتها مع السيالات القادمة من الشخص الآخر .

وبدا وكأنه خاف ، فجذبني من يدي قائلاً : اريد ان تهتم الآن بقاتل ابني ، وسنفعل تلك التجارب كلها فيما بعد . .

أصررت على التحدي : بل سأصف لك غرفتها وثيابها ايضاً .

رفض بشدة فمشيت معه وهو يكرر : تعال لتحيتها الآن ، وسنفعل ذلك فيما بعد . .

ومشيت معه اليها ، وكانت الغرفة كما شاهدتها في كرتي . في الدور الأول كغرفتي ، ولها نافذة تطل على الحديقة المزروعة بورود متوحشة ، طولها يزيد على المتر وتصل حتى حدود النافذة . . . بعد وقوفي بلحظات « نبحت » القطة الأولى في مواء سري شيطاني ، وهربت قافزة من النافذة . وهربت الثانية فالثالثة . كنت قد كهربتهم واوجعت شياطينهم فهربوا ، وحين وجدت بحرية نفسها وقد تخلى عنها حراسها منذ الدقائق الأولى نظرت الي متظاهرة بالذعر ، وصبت في نظراتها الكبريت المنصهر والمعادن على وجهي . كدت اصرخ المأ ، لكنني ابعدت نظراتي عن وجهها الكريه المعبود ، وركزتها على السلسلة حاملة النجفة . . وسكبت كل ما في روحي من قوى لتفتيتها ، وكانت لها صلابة اكثر من فولاذية ، وانا الذي الفت كسر المرايا والنوافذ بنظراتي في الآونة الاخيرة وجدت مقاومة هائلة في سلسلة تلك النجفة المسحورة ، وقبل انفجار قلبي الذي صار يضرب ويتضخم هوت النجفة فجأة ، لكن شيطان بحرية كان خارق السرعة حين ازاح جسدها عن المقعد برشاقة ملايين القطط ، وتحطمت النجفة فوق المقعد . . ونجا العفريت ، وصرخ صخر مذعوراً . .

غادرت الغرفة ، وتركته راكعاً عند قدمي مولاته ليطمئن الى سلامتها . . وعدت الى غرفتي مذعوراً ارتجف : لقد انتصرت في الجولة الأولى . . سلطت النار علي واحرقتني ونجحت ، وفشلت في رد الضربة ، وجلست استعد لاحراقها بسحري ، واستدعي اعواني من مشارق الارض ومغاربها ، ومن باطنها ورياحها وبحارها وفضائها . . وحين جاء الشيخ صخر يدعوني للعشاء ويطمئنني (!) على بحرية صرخت به : دعني وشأني اعمل . فمضى وهو يدمدم كلاماً بلا معنى مثل : انا واثق من انك ستكشف لي عند الفجر

اسم قاتل ابني . . تصبح على خير) . .

كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تسري في السماء ، ودب الذعر في قلب الشيخ وطفان (اذا لم انتصر قبل طلوع الضوء ، انتهيت . لم تعد في جسدي قوة لانتظار الليلة التالية . . كيف استطاعت عاصفتها الحارة ان تقذف بي الى الفراش بعيداً عن مجمرتي ، وكيف قيدتني وعذبتني الليل بطوله ؟ بل انها دخلت الى غرفتي ، وحدقت في وجهي الذي يرتدي قناع الغيبوبة والحمى والهلوسة ، وكادت تصب على فراشي ليترات الكحول الاربعة لو لم يسارع ميمون الاسود الى إخافتها ، فغادرت الغرفة بسرعة وخلفتني لعذابي ، وأطلقت علي اصوات ابي واخوتي وامي من دهاليزي بعدما كسرت اقفال روحي ، وخرجت امي لتحترق من جديد امام عيني وقد فاحت منها رائحة الكاز واللحم المشتعل ، وهي تعول ، وانا ابكي ، وارى مصرع اخوتي غيلان وبرقان وكنعان يتكرر ودمهم يلطخ وجهي واختي ودعة تلتهب وعمي وابناء اخوتي وكلهم يصرخ وانا ابكي ، وأبي يسقط جريحاً ويحتضر وأنا مقيد لا أقوى على شيء . . اتمزق واتمزق . . وعرفت الميتة البشعة التي رصدتها لي : سأحترق بعذابي ، وسينفذ بي الحكم احبائي الذين طالما هربت منهم الى اراضي الجان والنسيان . . ستعيدني ارضياً قابلاً للعذاب والفناء وستتركني اموت قهراً) . . . .

نهض الساحر من فراشه رغم الحمى التي تعصف بجسده ، والنار التي شاهدها في المرآة وقد شبت في رأسه ، وحمل اوعية الكحول وقد دبت في جسده قوة خارقة ومضى بها صوب غرفة بحرية . . القصر نائم ، وباب الغرفة مفتوح كأنه يتحداه ، وما كاد يخطو الى الداخل حتى شعر بانه فقد قوة البصر وكالاعشى مضى صوب فراشها وسكب الكحول فوقه والستائر المتدلية منه . . . وشبت النار بسرعة خرافية كأنها كانت مستعرة لا مرئية منذ زمن بعيد وقد اظهرت نفسها الآن للعيان . . واحس بنفسه يشتعل كالوقود، ولم يدهشه فشله في الهرب كأنه وعى منذ زمن بعيد مصيره المحتوم هذا ، وكان يفتش عن بحرية ، ويحاول ان يطبق عينيه على مرأى وجهها محترقاً ، كوجهه . . . توجع ، ولم يعد في مقدوره ان يبصر شيئاً غير الظلام الكثيف وقد اندلعت فيه اوجاع خرافية . . .

ولم يصرخ . . .

لكنه قبل ان يتلاشى سمع صرخة غير بشرية شبيهة بعواء ذئب . . .

(اهذا صوتها ام صوتي ؟) . . .

الشيخ صخر سمع الصرخة ، ولم توقظه لانه لم يكن نائماً .

لم يَغْمِض جفناه في الليلة السابقة ، والبرق يلتمع ، والامطار الهاجمة كأفراس مائيا تنوح ، وقلبه يبكي مصرع عبد الله .

سمع الصرخة ،

لم يكن الصوت بشرياً ، وخيل اليه انه واهم ، لكنه شم رائحة حريق . . . وحين هبط شاهد كل نائم في القصر مهرولاً صوب غرفة بحرية . .

وكان المشهد عجيباً . . . الساحر كومة مشتعلة راكعة قرب فراش كالاتون ، والدخان قليل ، كأنما تنصهر الاشياء في بوتقة لا مرئية . . . كان حريقاً غريباً لم يشهد له مثيلاً لان النار توقفت من تلقاء نفسها ، أم ان الفضل لمهندسه الذي افهمه انه سيزود القصر بـ « موكيت » ضد النار ؟

وحين وصل رجال الاطفاء والاسعاف ، لم يكن ثمة حقاً ما يستدعي حضورهم ، لكنهم اعلموه بانهم وجدوا في الغرفة بقايا جثة واحدة لذكر . . . إذن اين بحرية ؟ . . هل تمكنت من الهرب عبر النافذة او الباب ، او انها لم تكن في الغرفة حين شب الحريق ؟ . . . وماذا كان الساحر يفعل في غرفتها ؟ . .

***

فجر المليار ،

رن جرس الهاتف في الصالة الكبيرة بقصر رغيد الزهران . كان (نزلاء) القصر قد التقوا فيها بعدما ارتدى معظمهم ثيابه ، بانتظار كلمة من المحقق . قفز نسيم مذعوراً ، وانتفض كل من سمع الرنين . كانت اعصابهم متوترة ، بانتظار ما سيفعله البوليس بهم ، والطبيب الشرعي المشغولان في بركة الذهب .

رفعت ليلى سماعة الهاتف وكانت ما تزال تتصرف وكأنها أرملة المرحوم ، او الوحيدة التي لا تطالها الشبهات . انصتت كثيراً ، وتحدثت قليلاً عبارات مثل : نعم . متى . وماذا اصابه ؟ وهي ، اين ذهبت ؟ ألم يرها أحد ؟ حسناً . سأبلغ صقر .

ثم اغلقت سماعة الهاتف وقالت لصقر بلهجة محايدة كصوت مذيعة تقرأ اخباراً لا تهمها : ضربت صاعقة غرفة بحرية في قصر والدك ، وشبت فيها النار وقتل الشيخ وطفان محترقاً ، ولم يجدوا اثراً لبحرية . يريد منك ان تذهب اليه حين تستيقظ .

صرخ بها صقر : ولماذا لم تقولي له انني لست نائماً ؟ وكيف اذهب اليه والبوليس منعنا من مغادرة المكان ؟ ولماذا لم تخبريه ان رغيد وجد مقتولاً ؟

ظلت صامتة . . ونزل الخبر كالصاعقة على الجميع دونما استثناء . . دهشوا جميعاً لوجود الساحر هناك، وموته في غرفة بحرية . . خليل ونسيم قلقا لاجل بحرية، ودنيا عجبت لكون الشيخ وطفان فانياً هو ايضاً ، ونديم تمنى لو قتلت بحرية ليتخلص من ورطة احضارها ، خصوصاً ان اوراقها مزورة وليست وريشة الزهران ، وكفى اسفت لانها لم تستشر الشيخ وطفان في بعض شؤونها العاطفية قبل مصرعه ، اما ليلى فردت كمن فقدت رشدها : بحرية قتلتهما . بحرية هي القاتلة . لا تمر بمكان الا كمرور النار وتخلف الموت والحريق والدمار خلفها . . .

كاد نسيم يرد عليها ، ويفهمها ان صناعة الموت من احتكار رغيد ، وان الساحر وطفان رجل خطر على نفسه قبل سواه ، وموته محروقاً هو النهاية غير المفاجئة . . وبحرية ضحية اخرى من ضحاياهما . . لكنه تذكر ورطته مع القرش والتمثال ، وامكانية اتهامه بالجريمة اذا بدل خليل رأيه ولم يعترف فصمت . اما خليل فغرق من جديد في أساه وندمه الخالص : كيف تحولت الى قاتل ؟ كيف صنعوا مني في النهاية قاتلاً ؟

***

فجر المليار ،

اطلت الشمس من ثقب بين الغيوم الحالكة السواد ، وطلع ضوء النهار على مطر حزين ، وثابر البرق البعيد على ارسال شاراته دونما رعد . . و (نزلاء) القصر ينتظرون ان يقول لهم البوليس شيئاً ما . . ان يحقق معهم . المهم خروجهم من ثلاجة الانتظار . . .

وكانت المفاجأة صاعقة لهم ، حين اطل احد الرجال الرسميين في ثياب مدنية وقال لهم ببساطة : تستطيعون الانصراف . . لقد كشف الطبيب على الجثة . . مات الرجل بالذبحة القلبية ، ولم يمت غرقاً . . لا توجد آثار عنف على الجثة ، ومن الواضح ان الذبحة دهمته وهو واقف على طرف البركة ، فسقط في الماء . . اذا رغب احدكم في مغادرة جنيف ، فالرجاء اعلامنا بذلك ريثما يتم تشريح الجثة والتأكد من التقرير المبدئي . . .

هكذا قال مفتش البوليس ، ولم يقل احد شيئاً . . فاضاف : اكتبوا لي اسماءكم

وعناوينكم على هذه الورقة ، ولا اظن اننا سنحتجزكم في جنيف لأكثر من ٤٨ ساعة ريثما تصدر شهادة الوفاة . مجرد شكليات . جمدوا جميعاً الا صقر . . انتابته نوبة جنون وصرخ : انا قتلته . . انا القاتل . . قال المفتش : لا توجد جريمة وبالتالي لا يوجد قاتل . .

تابع صقر صراخه : انا قتلته . . اؤكد لكم ذلك . . هذا سلاح الجريمة . .

وشهر صقر خنجره . .

فوجىء الجميع بذلك . . تقدم منه مفتش البوليس فهرول صقر هارباً الى غرفته وهو ينتحب وشهقت كوكو التي كانت تجهل حكايا إدمانه . . ولحق به رجل البوليس وهو يدمدم احدى الكليشيهات البوليسية التي تقال في وقت كهذا . . سمع منها خليل عبارة : في كل جريمة يتطوع كثيرون للعب دور القاتل . . لن افهم ذلك أبداً . . وكاد ينفجر ضاحكاً لكنه لم يجد في رئتيه الهواء الكافي لذلك .

***

صبيحة المليار ،

كأنما انفرطت حبات العقد باعلان موت رغيد موتاً طبيعياً ، وانتهى الأمر . . . وبعد اعلان البوليس لذلك، واطلاقه لـ (سراحهم) من الرعب، لم يخاطب احد الآخر، باستثناء نظرات الود المذهولة الفرح المتبادلة بين خليل ونسيم . . ولم يعلقوا بكلمة على اكتشاف البوليس للمخدر في غرفة صقر ، والطبيب الذي فحصه قسراً وقرر ان نقله الى المصح ضروري فوراً قبل ان تقتله الجرعات الكبيرة التي تعاطاها هذا الفجر . .

ليلى كانت اول من غادر المكان . لم تجمع حاجياتها ، ولم تعرض على خليل أو كفى أو نسيم ايصالهم بسيارتها ، وانما اندفعت بها وكادت تدهس احد الصحافيين وحملة الكاميرات الذين لا تدري كيف عرفوا بالنبأ . . . وشاهدت احد المدعوين من اصحاب الملايين قادماً يتسقط الاخبار ، واقفاً امام سيارته وسائقه (العتليت) يشير اليها بالوقوف فتجاهلته . كانت مشغولة عن ذلك كله بالكارثة التي ستحل بها (**اذن سيعرف مدير البنك بالنبأ لحظة فتح الابواب بعد اقل من ساعة . . وسأصير مطاردة لتوقيع شيكات دون رصيد**) . .

لم يتأخر أحد طويلاً بعدها . . . سارعوا الى جمع حاجياتهم وكلهم لا يقل لهفة عنها الى مغادرة قصر الموت هذا . . ولم يخاطب احدهم الآخر ، بل سارع كل الى الفرار من الكابوس . ولم يعرض (اصحاب السيارات) على (المشاة) ايصالهم حتى الى موقف الباص

او المحطة كما تقتضي اللياقات ، كأن كلاً منهم يريد الانفراد بنفسه في اسرع وقت لتهنئتها بالنجاة من تهمة قتل رجل كانت تشتهي تصفيته ، وتأمل الاحوال بعد مصرع الشيخ وطفان واختفاء بحرية . . .

وتجاهل نديم ، خليل وكفى ، حين مر بهما في حديقة القصر بسيارته وزوجته ، وانطلق وهو لا يلوي على شيء . . اما كفى فقالت تقرع خليل : قلت لك اطلب لنا تاكسياً . . واجابها : دعينا نغادر هذا المكان الملعون، وسأحملك على ظهري . . سأشتري لك القطار والمحطة . . فقط دعينا نغادر هذه البوابة . .

أحاط بهما الصحافيون لحظة خروجهما ، فغطى خليل رأسه بقميصه وسار شبه مهرول، اما كفى فتوقفت مستسلمة بسعادة لكاميراتهم ، وصارت تجيب عن اسئلتهم بصفتها ابنة البيتموني صديق المرحوم رغيد ، وضيفة الشرف « ليلة المليار » التي أُفردت لها غرفة خاصة في القصر . . . واجابت عن الأسئلة كلها واستفاضت وبكت فجلت بالدمع زرقة عينيها وهدبيها . .

وجاءت كوكبة اخرى من الصحافيين ، ففتحت حقيبة يدها وأصلحت زينة وجهها تمهيداً للصور . .

وحين كاد المنحنى يغيب خليل التفت صوبها ، وشاهدها تبتسم بحرارة لاحد المصورين . . ومضى وحيداً الى محطة القطار . .

وهناك التقى بنسيم الذي جلس صامتاً وقد ضم اليه حقيبته الكبيرة فانضم اليه . لم يسأله نسيم عن كفى ، وصعدا الى القطار معاً حين وصل ، وجلسا جنباً الى جنب ولم يتبادلا كلمة واحدة ، الا حين تحفز خليل للهبوط وسأله نسيم : الى أين ؟

- الى مستشفى ابني . وانت ؟
- الى بيت امير .
- سألحق بك فيما بعد .

***

صبيحة المليار ،

اية ريح قذفت اليه بتلك الحبيبة البغيضة المعبودة الغادرة ؟

فتح امير الباب فوجدها أمامه . . . ليلى جاءته كما حلم دوماً، دامعة، مشعثة الشعر،

جاءته بعد فوات الأوان ولكن كان عليها ان تأتي كي يريح كبرياءه . . ويقوى على دفنها في دهاليز الذاكرة . .

(**يحنطها . يمددها فرعونية باهرة الجمال وسط التابوت الذهبي في قلب الهرم ، يعطرها ، يزينها ، يقبل شفتيها الهامدتين ويقول لها احبك اكرهك احبك اكرهك ، ويودعها . يغادر الكهف ويغلق الباب جيداً بهدوء محاذراً ان يصدر اي صوت من داخل رأسه ، حيث شيد هرم نسيانها وخلودها**) . . . فوجىء بها وهو ما زال في ثياب النوم . قال لها : معذرة . . كنت اتوقع شخصاً آخر . . .

ـ لن اطيل البقاء . . اني بحاجة الى مليوني فرنك سويسري ، والا ذهبت الى السجن .

كرر عبارتها : « مليوني فرنك » ؟ تعرفين انني فقير . .

ـ الا تستطيع استعارتها من صندوق الرفاق ؟

ـ تعنين اختلسها ؟

ـ سأحاول اعادتها بسرعة . . لكنني لا اظن ذلك سهلاً بعد الآن . .

ـ ماذا حدث ؟ دعيني اخمن . . .

ـ قامرت وخسرت . .

ـ ورطك رغيد على عادته مع مساعديه . . . أليس كذلك ؟ هزت رأسها بالايجاب بصمت . .

ثم دمدمت : لم يكن يقصد ذلك . . لقد مات فجأة بالذبحة. على اية حال ، ما الفرق . اني متورطة . . شيكات بدون رصيد ثمن طعام شُحن ولن يأكله احد ، وكافيار سيقذف به من جديد الى البحار . . وانا معه . . بعد اقل من ساعة ، حين يفتح البنك أبوابه ، اسقط ميتة . لقد انتهيت . . .

ـ اني آسف . . بودي مساعدتك لكنني لا استطيع مد يدي الى مال الفقراء لدفع ثمن بطر الاغنياء . . لن احرم (الشباب) من معونات الاقساط الجامعية والرعاية الطبية واجرة العلاج والدواء لادفع ثمن عشاء ليلة المليار للمرحوم رغيد . . لماذا لا تذهبين الى الشيخ صخر او آخر من امثاله ؟

ـ لم يعد في مقدوري تكرار ذلك ثانية . .

ـ آسف يا ليلى . . آسف حقاً . .

غادرته بسرعة . اقتربت منه وطبعت على خده قبلة مفاجئة على الخد الأيسر . .

سبق له ان صفعها على الخد الايسر مرة . تذكر امير ذلك ، وقبل ان يقول شيئاً مضت بسرعة .

ظل بعد خروجها واقفاً ، مذهولاً ، وقد غادرته شهية الانتقام . . لقد حلم بتلك اللحظة طويلاً . . تمناها . . انتظرها . . وحينما حلت ، لم يستمتع بها . . لم يفرح ولم يحزن بل استولى عليه حس غامض بالخواء . .

. . لا حزن . . لا فرح . . لا شماتة . . لا ندم . . خواء . . . . خواء . . خواء له طعم الغياب المحتوم الذي صار مألوفاً لطول المعايشة . . كمن يألف يده . . . المقطوعة ! . .

***

حين وصل نسيم الى بيت امير خيل اليه انه شاهد ليلى وقد دفنت وجهها في مقود سيارتها . . التفت صوبها ليتأكد من انها هي ، فاقلعت السيارة بها بسرعة خارقة . . وقال لنفسه (**كأنها تفتش عن حادث سير تنتحر به**) . .

وحين شاهد وجه امير المكفهر ، تأكد له ان زائرة الصباح كانت ليلى التي سبقته اليه . . لم يقل شيئاً عنها . . . فلتذهب الى الجحيم . لم يحبها يوماً ، هي او دنيا او كفى . هذا النمط من النساء لا يروق له . . . لولا وجود نساء كأمه وبحرية لكره (جنسهن) . . وضع حقيبته الكبيرة جانباً .

وارتمى على المقعد الوحيد في البيت ، وجلس امير مقابله على الأرض فوق احدى الارائك وقال له : يا له من صباح . قبل ساعتين هتفت لتقول انه قتل ، وقد سمعت من (كاد يقول ليلى ولكنه امسك عن لفظ اسمها في اللحظة الأخيرة وتابع) ، سمعت انه مات بالذبحة القلبية .

ـ لقد اعترف لي خليل بانه قتله . لقد توهم المسكين انه قتله فقد كان معه حين اصابته الذبحة ولم يساعده وتركه يغرق متوهماً انه هو الذي قتله عمداً . وتوهمت بدوري اننا سنتقاسم تهمة القتل اذا عرفوا ما فعلته حين اكتشفت الجثة ليلاً قبل ان يكتشفها احد سواي . . .

ـ ماذا فعلت انت ايضاً ؟ ما هذا الجنون الذي استولى عليكما ليلة البارحة ؟

ـ انه الطقس . . .

ونهض نسيم ، وحمل حقيبته وفتحها . اخرج منها تمثال « المناضل » وحمله ، ووضعه

فوق القاعدة الفارغة التي طالما انتظرته قائلاً : هذه هي النسخة الاصلية التي نحتها والدك . حين اكتشفت جثة رغيد ، اكتشفت ايضاً ان باب قفص التمثال مفتوح ، فسارعت الى استبداله بالنسخة المزورة التي اهداني رغيد اياها خصيصاً لقهري واذلالي .

بدت في عيني امير ومضة فرحة هائلة تحولت الى دمعة جافة . . . اراد ان يقول شيئاً لنسيم لكنه لم يجد الكلمات . . كأن الابجدية اربع وثلاثون سمكة ملونة هاجرت من بحار قلبه ، وخلفت له صوت الريح في حنجرته . اكتفى بشهقة مكتومة . . .

وتابع نسيم : وهذه هدية اخرى اليك من قصر الموت .

ـ ما هذا ؟ علبة قهوة نسكافيه ؟ . لقد جننت حقاً . .

قالها بينما كان نسيم يقلب محتوياتها على الطاولة . . .

اخرج القرش من تحت كوم القهوة ، ونفخ عنه ما علق به وقال له : وهذا يعود الينا ايضاً . . .

ـ غامرت بحياتك ايها الاحمق لاجل قرش ؟

ـ لاجل قرش ؟ ليس تماماً . . . انت تعرف ذلك . . .

صمتا طويلاً ، ثم قال نسيم : لقد شب حريق في قصر الغنمالي قتل الساحر وطفان . . .

ـ اعرف ذلك . . .

ـ كيف ؟

ابتسم امير ابتسامة غامضة وقال باقتضاب : الاخبار تتنقل هذا الصباح بسرعة .

ـ وبحرية اختفت .

ـ . . . . . .

ـ لا اعرف مصيرها بالضبط . . .

ـ . . . . . .

ـ افكر بتعزية الشيخ صخر بابنه ، وعرض نفسي للعمل كخادم عنده ، فقد تظهر بحرية من جديد او اعرف شيئاً عن مصيرها . . . لعلها سجينته مثلاً ووجد في الحريق المزعوم مناسبة لاخفائها . . .

واخيراً تكلم امير ، وقال بهدوء وعلى شفتيه ابتسامة ثقة لا تخلو من الغموض ، وهو يؤكد كل كلمة كأنه لن يكررها ثانية : بحرية بخير ، ولست قلقاً عليها ، فاطمئن .

ـ ماذا تعني ؟ هل جاءتك سالمة ؟

لم يجب امير ، الح نسيم بنزق الشباب : ارجوك ان تفصح . لماذا لست قلقاً عليها ؟

ـ . . . . . .

ـ لقد اعطيتها اسمك وعنوانك . هل تخفي شيئاً عني ؟

ـ . . . . . .

ـ هل هي في مكان آمن ؟

ـ قلت لك اطمئن يا رجل . .

ـ هل تخفي شيئاً عني ؟ اني قلق عليها .

ـ وانا قلق عليك انت . قلت لك واكررها : بحرية بخير ولست قلقاً عليها ، فاطمئن . والآن قل لي : ما الذي ستفعله انت بنفسك ؟

ـ لا ادري بعد . لم تتح لي فرصة للتفكير . اظن انني سأعود الى الوطن .

ـ لن تعود قبل انجاز اطروحتك . الوطن بحاجة الى متعلمين ايضاً لا الى مقاتلين فحسب .

ـ لا تنس انني فقدت عملي .

ـ سنتدبر شيئاً في الفترة القليلة الباقية ريثما تتخرج من الجامعة .

ـ ربما . . .

ـ كنت اتمنى دعوتك للاقامة معي ، لكنني لا اريد لك مصيراً مشابهاً لمصير بسام . . . انا رجل مندور للموت ، ولا مفر من قتلي في هذه المرحلة ، انا او اي شخص مثلي ما زال يؤمن بان لا خلاص لنا الا بالديمقراطية وحرية الفكر . على اية حال ، انت الآن منهك ، وسنتحدث فيما بعد حول ذلك وامور اخرى كثيرة . انهض الآن ونم . . .

ـ نسيت ان اخبرك عما اصاب صاحبنا صقر اليوم . .

ـ امره لا يهمني . قل لي اين خليل ؟

ـ ذهب الى ابنه في المستشفى ، وسيحضر الينا بعد حين .

ـ وزوجته ؟

ـ لا ادري . لم تكن معه حين التقينا في المحطة . . .

ونهض نسيم واقفاً متأرجحاً وقد كاد يسقط ، وقال : يا الهي كم انا متعب . . . .

لم يسمعه امير . كان يتحسس بيديه تمثال « المناضل » ، وتوقيع والده ، والسطر

(الممحي) عنه ، وقد شرد بعيداً . . . كأنه دخل في ثقب القرش الفلسطيني العتيق الى نفق بعيد . . .

***

صبيحة المليار . . .

منهكَين عادا الى البيت . . مركبان دمرتها العاصفة بلهيبها الذهبي وقـذفت بهما الى شاطىء التيـه ، حطاماً وهباباً وبقايا اشرعة . . .

الى النافذة جلسا ، وبدت جنيف في القاع محايدة ولا مبالية . . والبحيرة ساكنة كأن فناناً مجنوناً رسمها فوق صفحة الأرض . . وفكرت دنيا (إذن لم يقتله) وتأملها نديم دوغماود **(إذن لم تقتله)** . .

مسح نديم رأسه بيديه ، وخيل الى دنيا ان اكوام الرماد تتنـاثر عن شعـره واهدابـه وتجاعيد خديه . . .

(كم هرمنا . . . هدرنا الزمن في ركضنا المجنون لتوفير الوقت واستعمال كل لحظة منه . لم نتوقف ثانية لنتساءل : لماذا ؟ إلى اين ؟ ماذا بعد ؟) . . .

قال نديم : غريب امر الهاتف . . . اولئك الأثرياء جميعاً في جنيف ولا احد يتصل ليسألني عما حدث لرغيد . . وعما سيحدث لي . . .

همست دنيـا : انا قـطعت الاتصالات الهـاتفية عن البيت ، وتخلصت من الشـريط التلفوني . . خيط الجنون اليومي . . .

ــ لماذا ؟

ــ لأتحدث اليك . لنتحاور . لم يحدث لنا ذلك منذ زمن بعيد . . . اننا نتخاطب ولا نتحاور . . .

(ها أنا أركض في السباق . . . نديم يركض . . . رغيد يركض . . . الذين اعرفهم جميعاً يهرولون نحو جبل مكهرب من الذهب تتصاعد منه لهبة خفية صاعقة . . . نهرول ونلهث ونهتف بـاسم الملك ميداس . . . يضـرب كل منـا احب اصدقـائـه اذا سنحت الفرصة . ندوس كل من يسقط ونتابع السباق . يحدثني نديم وهو راكض كالمجنون . يصدرالأوامر . . خمسة ضيوف على العشاء «الأنتيم» ، واحـرصي على دعـوة الراقصـة فلانة . ضيف على العشاء واحرصي على احضار « الشاعرة» فلانة فهو معجب بغنـائها

ورقصها . بدلي ثوبك . قصي شعرك . ارتدي الفراء . الخاتم الماسي . العقد المذهب . اركضي بسرعة . حاضر . اركض . اشتهي ان نجلس لحظة لنتحدث . ارجوك هل نستطيع ان نتبادل قبلة الى جانب الطريق . ان احدثك شيئاً عن قلبي وروحي وحيرتي ؟ . . . يصرخ بي : ذهب . . لا شيء غير الذهب . . . سباق . . اسرعي . . .

واسرعت واسرع . . . وذهب مع الذهب . . .

ولم يلحظ ان الرابح في هذا السباق يكرم بقتله ، وجائزته المرض والوحدة والغربة) . . .

ــ ارجوك يا نديم . . . ثمة امور يجب ان نقررها معاً ، كإنسانين متحضرين ، دونما شجار .

ــ حسناً . ماذا تريدين ؟

ــ اريد ان نغادر سباق الفئران الذي نحياه منذ زواجنا .

ــ ونرحل الى اوستراليا، ونشتري مزرعة ونربي الدواجن ونأكل ما نزرع ؟ انت حمقاء . . . الا تعرفين مشاكلي ؟

ــ هل نستطيع تبادل حوار واحد ، لمرة واحدة ، دون ان نقحم السخرية والشتائم ؟

ــ صعب ، لكنني سأحاول .

ــ ثمة أمر خطير اريد اطلاعك عليه .

ــ ما هو ؟

ــ سرقت . . . لأجلك .

ــ ماذا سرقت ؟

ــ الوثائق التي تدينك . . سرقت الأوراق اياها . . هبطت اليه لأحدثه . . لأتوسل اليه ان يدعك وشأنك ، او لأهدده ، وربما لاقتله . لا ادري بالضبط ، وعلى اية حال وجدته ميتاً ، فلم اتوسل ولم اهدد . . ووجدت الأوراق فحملتها وصعدت بها . .

ــ واين هي الآن ؟

ــ أتلفتها . . هناك . . قبل وصول الشرطة . . .

صمتنا طويلاً .

قال : اشكرك . انك سيدة نبيلة حقاً . . ثم اضاف بشيء من اللؤم : أليس هذا ما ترغبين في سماعه ؟ حسناً . والآن ماذا تريدين مقابل ذلك ؟

ـ ان نخرج معاً سالمين من نار الذهب . . .

ـ لا جدوى يا دنيا . . مغامرتك كلها غير مجدية . هل تتوهمين رغيد احمق الى هذا الحد ؟ هل تظنين ان هذه الأوراق هي النسخة الوحيدة ؟ انه داهية . . . لا ريب ان النسخة الأصلية في مكان ما ، بين يدي محام ما ، هي وسواها ، ومن المفترض أن تأخذ العدالة مجراها لحظة مقتله أو موته . . كان واثقاً من ان ثمة من يرغب في قتله ، وقد ينفذ ذلك ، وقد حرص دائماً على افهامنا جميعاً ان موته ليس نهاية متاعبنا ، بل البداية الأكيدة لها . . كان واثقاً من انه سيموت مقتولاً ، وقد رتب كل شيء انطلاقاً من ذلك . . لم يخطر بباله ولا ببالنا جميعاً انه سيموت كما يموت ملايين الناس كل عام . . كان يظن ميتته ستكون خاصة وتذكارية ، لا ميتة عادية . . .

ـ والنتيجة ؟

ـ هي انك قمت بخدمة لا مبرر لها . . . ثمة وثيقة اخرى في مكان ما تدينني بذلك الاختلاس . . ولا مفر من السجن . . . الا اذا عملت مع قوي آخر يحميني . . .

ـ تعني رغيداً آخر ؟

ـ بالضبط . . .

ـ ولماذا لا تنتظر قليلاً ؟ ربما تكون هذه هي النسخة الوحيدة . . .

ـ ربما لا . . . وعندئذ لن يستخدمني احد . . إذا سقطت تكاثرت السكاكين عليّ . تعرفين ان هذا شعار عالمنا . . . اما اذا كنت اعمل مع قوي آخر ، رغيد آخر ، فلدي فرصة لمساومة المحامي قبل وصول القضية ليدي القضاء السويسري الذي لا هرب منه . . .

ـ وماذا لو وصلت القضية الى القضاء ؟ سندفع المبلغ وتكون عقوبتك بالتالي قصيرة . . .

ـ ندفع المبلغ ؟ هل انت مجنونة ؟ لن افرط في فرنك او دولار واحد من ثروتي . . ثم انني اذا سجنت ، خسرت سمعتي المهنية كرجل اعمال بارع . ولن يستخدمني (مليارديرا) بعدها ، وسنعود الى نقطة الصفر .

ـ وماذا في ذلك ؟ سنرجع الى بيروت ، الى بيت والديك ، نرممه ونرمم حياتنا معاً . . .

ـ الآن ؟ في الخامسة والأربعين من عمرنا ؟ هل نسيت انهم في بيروت ايضاً يحتقرون الفقير ؟ رغم كل ما كان ، ما زال الشعار الأول : « معك قرش بتسوى قرش » . . حتى اذا

اضطررت للاختيار فانني سأختار السجن لا الفقر . . ولكنني لست مضطراً لخيار كهذا . . ولن نغادر الثراء الى جحيم الفقر والموت والقصف والتهجير . . .

ــ ولكننا نعيش في جحيم . . .

ــ تكلمي عن نفسك . . لا عني . . .

ــ انا شخصياً افضل ان نفقد ثروتنا وتذهب الى السجن مقابل عتقنا من هذا النير . . .

ــ وانا ممتن لأفكارك النيرة . . والآن دعيني ارمم شريط الهاتف ، وامد جسري للناس . . العزلة في صبيحة كهذه جريمة . . .

ــ انها فرصتنا للنجاة . . .

ــ انها ما تزال ليلة المليار بالنسبة لي . . . نصف اثرياء العالم هنا في جنيف ، والفرص كثيرة ، وانت تختارين هذا اليوم بالذات لعزلي ؟ تحاولين تدميري ؟ انك مجنونة ، مدمنة كحول ، عربيدة . . لا تصلحين زوجة لرجل مثلي . . .

قالت متهكمة : امرأة مثل كوكو تصلح زوجة لك .

اجابها بجدية : اشكرك لأنك لفت نظري الى ذلك . . . وقد افعل ، وتبقين انت لرعاية الأولاد ، وهي لرعاية الأعمال . . . كثيرون فعلوا ذلك ، والآن فقط ارى مدى حكمتهم . . . الزوجة الأولى تهترىء دوماً ريثما يصل زوجها الى القمة ، ويصير بالتالي بحاجة الى امرأة جديدة نضرة تقوى على ملاحقة ايقاع حياته .

عاودها احساسها الهيولي بذاتها . انها تتخبط من وعاء الى آخر ، ولا تعرف بالضبط ماذا تريد . كلمة تشجعها على كراهيته وطلب الطلاق وكلمة اخرى تقذف بها الى وعاء الغيرة وحب الامتلاك . . .

(آه ، لقد فقدت حقيقتي الداخلية ، ولم اعد واثقة من مشاعري المتقلبة) . . .

كانت احاسيسها تتلون بسرعة هائلة متنقلة بين الايقاعات كافة ، وداهمتها نزوة طارئة ملحة الى ان تشغله بنفسها ، بأي ثمن ، ووجدت نفسها تقول : اريد الطلاق . . . اليوم .

اجابها بفتور : آسف لا وقت لدي الآن اضيعه في تفاصيل كهذه . . علي الآن ان اقف على قدمي ، وبدلاً من مساعدتي تحاولين تهديمي . . .

ــ احاول انقاذ نفسي من تهديمك لنا معاً . . . انت متزوج من سباق الجرذان لا مني ، والطلاق تم وانتهى على اية حال . . . لقد اعطيتك فرصة لتنجو ، لننجو معاً . . سرقت

الوثائق لأجلك . . . ورضيت بالفقر شرط ان ترضى به . . السجن افضل من حياة بلا نقطة ضوء . . .

ـ اسكتي الآن . . لقد استيقظ (الأولاد) . . . لا نريد تشويش حياتهما بجنوننا . . .

ـ حياتهما ممزقة . . . لم يعودا عرباً ، ولن يصيرا اوروبيين في أي يوم . . . الا تفهم ؟

ـ ربما كان من الأفضل ان اتصل بالشيخ صخر واتفاهم وإياه . . . وأعود الى عملي القديم معه ، فالذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه .

ـ لم تعد لك حقيقة صلبة انت ايضاً . . . صرت نباتاً طفيلياً بحاجة للالتصاق بنبتة اكبر . . .

ـ سأشرح له الأمر وسيصدقني . . . سأقول له ان رغيد كذب عليه وارغمني على لعب دور كبش الفداء والدليل انتقام العناية الإلهية لي . سأثبت له براءتي من حكاية المدرسة . . انه طيب القلب ، ولعله في قرارة نفسه موقن من جرم رغيد . .

ـ اولادنا بلا جذور . . وانت بلا جذور . . . كائنات طفيلية تعوم في الهواء ذهبي الغبار ، وتحاول سرقة مكاسب الشعوب الأخرى ونعمها . .

ـ اعتقد ان الوقت مناسب لذلك . . . سأوهمه انني تلقيت عروضاً كثيرة ، لكنني افضل العودة اليه . .

ـ لن ننعم بديمقراطية لا نستحقها . . ولن ننعم بحرية لم ندفع ثمنها . . ان الاقامة في سويسرا لن تجعل منا سويسريين مهما كنا اثرياء . . لن ننعم بحياة سعيدة في أي مكان . .

ـ سأتصل بكوكو . . . كوكو الرائعة التي تصلح زوجة لرجل مثلي مصمم على النجاح دائماً . . اعجاب الشيخين بها ، صخر وصقر ليس خافياً . . لم يرها رجل إلا وبهرته . . . وقد اكون بحاجة اليها حين يغادر صقر مصحه . . .

ـ هل تستمع الى ما اقوله ؟

ـ هل تسمعين ما قلت ؟ . . .

ـ انك لا تحاورني . . .

ـ سأذهب للقاء الشيخ صخر . . . لا بد من التمسك به بعد سقوط رغيد . . . أو بأي مرادف مالي له . إذا لم اعد باكراً افرحي ، فهذا يعني انني وفقت في مسعاي . . مات رغيد الأول ، عاش رغيد الثاني . .

ـ سأذهب لشراء ريشة وألوان زيتية ، وسأعود الى الرسم . . . لا بد من التمسك

بالشيء الوحيد الذي تبقى لي بعد انهيار كل شيء . . .

ـ اجل . . . سأذهب الى الشيخ صخر للتعزية وجس النبض . . .

ـ سأذهب الى بائع الألوان . .

ـ هل ترافقينني ؟

ـ هل ترافقني ؟

ـ ارافقك ؟ اني مشغول . ماذا قلت يا دنيا ؟ الى اين تريدين ان ارافقك ؟

ـ وانت ماذا قلت ؟ الى اين كنت ترغب في ان ارافقك ؟. آه . . دعنا نحاول. . .

ـ نحاول ماذا ؟

ـ ان يسمع كل منا صوت الآخر حين يحاوره . . دعنا نجرب بناء حياتنا من جديد . . دعنا نجرب . . .

ـ انك ثملة . . . عند المساء تصحين ونتحدث . . . أو صباح الغد . .

ـ هذه المرة لست ثملة . . .

ـ ماذا كنت تشربين طوال الوقت في السيارة، ومنذ وصولنا، من تلك الزجاجة، دونما افطار؟ اسمعي يا دنيا . اعرف انني ارتكبت غلطة حين حملت اليك تلك اللوحة اللعينة في لحظة ضعف عاطفية نادرة . ولكننا دوماً ندفع ثمن هذا النوع من الاخطاء . . . وقد اتعبتني في الاسابيع الاخيرة . دعيني اصارحك : ربما كنت موهوبة فيما مضى وربما لا . . . ولكن ألا تفهمين، الموهبة ككل شيء، يصدأ اذا لم نستعمله؟ ألا تفهمين انك لا تستطيعين الغاء عقدين من حياتك بقرار والعودة الى نقطة في الماضي احببتها ؟ بذرة الموهبة تموت ايضاً إذا لم نتعهدها بالرعاية . لم يعد في مقدورك العودة الى الماضي . انتهى . لا مفر لك من الهروب إلى الأمام . . لن تقدري على استعادة فتاة اللوحة فأنت قتلتها .

ـ سأحاول . . . على الاقل سأحاول . . اما انت فترفض محاولة اي شيء . . .

ـ لقد تجاوزت المرحلة التجريبية منذ زمن بعيد . . . انا اعي معنى ان اكون على مشارف الخمسين من عمري . . معناه : لا رجوع . . لا أحد يبدأ من جديد في هذه السن . .

ـ بوسع المرء ان يبدأ من جديد في أية سن . . . بوسعه ان يحاول . . . وسأحاول . .

ـ خطب حماسية ، نظريات . كلامولوجيا . ما نفعله نكونه ، والباقي تبريرات لغوية . . . هل عدت لزيارة امير وأمثاله ؟

ــ اجل . . . فعلت وسأفعل . . .
ــ ماذا تجدين عند أحمق فقير كهذا ؟
ــ نقطة ضوء .

***

ليلة المليار . . .

وبدلاً من ان يلهو ، ها هو هنا شبه سجين . . . ليلة المليار ، الليلة الأولى لصقر في المصح ، وبلا كوكايين وقناع الشيطان . . .

لقد وجدوا المخدرات في غرفة الضيافة الخاصة به في القصر وسيعاقب باصلاحه . . . ولن تجدي ملايين ابيه نفعاً هنا . . .

ولكنه قتل رغيد . . قتله دفاعاً عن النفس لأن الآخر كان يغار منه . . لماذا لا يصدقه احد ؟ . . .

لماذا يضطهدونه ويحتقرونه ولا يلحظون عظمته السرية ؟ . . صحيح انه كتم عن الجميع مدى خطورته ، ولكنه كان يظن الأمر واضحاً لا يخفى الى هذا المدى . . .

لماذا يضطهدونه ويعذبونه ؟ . . لماذا يدعون انه يهلوس ويتوهم هذه الأفكار كلها بسبب «البنت البيضاء» ، مخدره الحبيب ، الذي يدعون انه حوله الى حطام؟ أي حطام؟ ألا يرون خلوده الآتي ومجده الحالي ؟

لماذا تخلى عنه خليل ، ورفض القول ان المخدرات له هو ؟ أليست هذه وظيفة موظفيه ؟ ان يسجنوا عنه ويعذبوا عنه ؟ لماذا لا يقوم احد بعمله ؟ كان سيجزل له العطاء . . . لكن ذلك الحقير رفض وتخلى عنه . . .

سيغادر المصح ذات يوم . . . وسيقطع رزقه في اوروبا . . . سيطارده ، وسيشتري كل مؤسسة يعمل فيها ليطرده منها . . . لن يهرب من انتقامه . . انتقامه . . انتقامه من . . . من اي شخص ؟ لقد نسي . . . نسي . . . لا يذكر غير انهم يعذبونه ويضطهدونه . يقيدونه . . يريد ان يمزق شيئاً . . اي شيء . . الوسادة . . الجدار . . . النافذة . . . الغيوم . . . وجهه . . . رقبته . . . الحشرات تركض تحت جلده . . . مئات الحشرات السود تهاجم عينيه . . . يصرخ : النجدة . . . النجدة . . .

تغرس الممرضة ابرتها الحادة في ذراعه . . . تملأ منخريه المقرحين بمرهم مرطب . . . يصرخ : لا اريد مرهماً . . . اريد «مسحوق الطيران» . . . اريد «الغبار الأبيض» ، «غبار السعادة» . . دعوني اطير . . لا تربطوني الى الأرض . . . لا اعرفها . . لا اعرف بشرها ومشاكلها وحكاياها . . منذ ولدت وابي يطير بي بعيداً . . . واريد ان استمر على طريقتي . . . واطير . . . اطير . . . النجدة يا كوكو . . انقذيني وسأعاقبك بقتلك وسيلذ لك ذلك ايتها العاقلة الوحيدة . .

***

ليلة المليار . . .

ودنيا تثمل وحيدة . . . وولداها يتحاشيان الاقتراب منها ثم يغادران البيت ، ونديم لم يعد منذ الصباح ، وهذا معناه انه دبر امره والشيخ صخر أو سواه من الأثرياء . .

(وكوكو صارت لا تخلو من الوقاحة . لقد سألت عنه وتركت رقمها الهاتفي : رقم الشقة الخاصة بزوجي . ولم تكلف نفسها عناء تحيتي او الاستفسار عني . تجاوزت اللياقات وعاملتني كأنني غير موجودة . حفنة من رماد . ماض انتهى . سيسعدني ان ارقبها يوم تتحول بدورها الى حفنة من رماد) .

حاولت الرسم بعد الظهر . عجزت عن ذلك . كانت يدها ترتجف ، وأعماقها تهرول مذعورة الى دهاليز عميقة . صرفت خادمتها ، وسعدت بمغادرة ولديها للبيت ، وادارت زر التلفزيون وجلست تلتهم الطعام بشراهة ولم تحس بشيء وهي ترقب موجز اخبار بعد الظهر وتسمع نبأ مصرع ليلى السباك في حادث سير غريب ، إذ اصطدمت بشاحنة كبيرة وهي مندفعة بأقصى سرعتها عكس اتجاه السير . . . ولم تبال بالتساؤل الذي طرحه المذيع : ترى هل هو انتحار كما بدا الأمر لسائق الشاحنة ؟

لم تشعر بالشماتة ولا بالفرح ، وإنما باللامبالاة ، كأنما ازدحمت اعماقها بالمشاعر ولم تبق امكنة لمشاعر جديدة . قامت الى فراشها ، ونامت ساعات واستيقظت وهاجس الرسم يوجعها : سأحاول الآن ثانية وإذا فشلت يكون نديم على حق . . .

حاولت ثانية . . . وكان فشلها في صحوة ما بعد النوم اكيداً . . . احست بانها كمن يفتش عن جوهرة في غابة لم يزرها منذ زمن غابر ، أو لم يزرها الا في حلم نصف منسي . . .

(ها قد درت دورة كاملة ، وعدت الى حيث بدأت . . . بل انني اشعر الآن باحباط

اكبر ، ولم اعد الى حيث بدأت بل ضاقت الدائرة علي . . . كأنني درت بشكل حلزوني . . . دورة اخرى او دورتان، وأصل الى مركز الحلقة ، وأدور حول نفسي كأي مجنون سقط في الهذيان . . . سأذهب الى امير . . .) .

سكبت كأساً اخرى من ماء النار وابتلعتها دفعة واحدة .

(لا . لن اذهب الى امير . اعرف كل ما يمكن ان يقوله لي . احفظ عن ظهر قلب الكلمات التشجيعية كلها التي يمكن ان تقال في مناسبة كهذه . . . كأن يؤكد لي انني اقسو على نفسي كثيراً حينما اقارنها بالصبية التي كانتها في الأزمان الغابرة ، وسيؤكد اننا ننظر الى صبانا بالعين ذاتها التي نستحضر بها موتانا . . عين الرضى . . . فنلغي عيوننا السابقة كلها ولا نحصي غير الحسنات . . . كلمات . . . كلمات . . . والحقيقة الوحيدة : اني تعيسة) . . .

حين شربت دنيا محتويات الزجاجة كلها ، نهضت كعادتها تتفقد ذاتها في لوحتها . . . ودهشت حين وجدت فتاة اللوحة قد اختفت منها كأنما غادرتها الى الأبد . . .

ولو كان الشيخ وطفان حياً لاتهمته ونديم بتدبير هذا السحر المكير . . .

أضاءت النور . . . اقتربت من اللوحة . . . لاحظت ان صورة الفتاة ما تزال كما هي ، لكن طبقة كثيفة من الضباب الرمادي المبيض غطت اللوحة وحجبتها . . .

صعقت . انهارت في مقعدها دقائق طويلة وهي ترتجف بدهشة ، انتظرت ان تخاطبها الفتاة كعادتها فلم تفعل . . . وبدت نائية نائية خلف تلك السنوات الضوئية من الظلام والضباب المتحجر . . .

نهضت ، ولمست اللوحة باصبعها ، وذهلت حين وجدت طبقة من الدهان الرمادي المبيض تغطيها . . . كأن ثمة من رسم فوق اللوحة طبقة من ضباب كادت الفتاة تختفي تحته تماماً . .

(هل يمكن ان اكون قد فعلت ذلك بنفسي وانا نائمة ؟) . . .

ارتجفت اسى حين ومض في ذهنها خاطر مرعب يشبه يقين لحظة الرؤيا :

لعلي ارى فتاة اللوحة للمرة الأخيرة ، وغداً صباحاً يبتلعها الضباب نهائياً . . .

ولم يكن عليها ان تنتظر حتى صباح اليوم التالي ، لأنها حين حدقت في اللوحة من جديد لم تر احداً فيها . لقد اختفت الفتاة تماماً ، ولم تخلف وراءها بياض القماش قبل رسمه ، بل لوناً بين الأبيض والرمادي . . . يشبه البياض الموسخ الذي يخلفه طفل على ورقته المدرسية

بعدما عبث بها طويلاً بأقلامه ثم حاول اصلاح لهوه بالممحاة . .
وغصت دنيا مذعورة .
(اذن لا شيء يمحو خطايانا حقاً ، ولا يمكن اختراق حاجز الزمن حقاً والجسر الذي نهدمه خلفنا لا يعاد بناؤه) .

لم يشعر خليل ان كابوس «ليلة المليار» انقضى الا لحظة أشـار رامي بيده المكسـورة والجبيرة البيضاء تحيط بها صوب اليابسة صارخاً : بيروت . . . بيروت . . . قبلها ، كان خليل يشعر ان الايام المتعاقبة بين طائرة جنيف الى لارنكا فالبحث عن مركب ، كلها ليلة واحدة طويلة طويلة . بدت تلك اليد الطفلة المضمدة ، كالسهم الأبيض الذي يشير الى وجهة السير . . . فادي كان مرمياً كالخرقة على ظهر المركب . دوار البحر استولى عليه ، وقد اسند رأسه الى ركبة امرأة لا يعرفها فحنت عليه فيما اسندت رأسها بدورها الى ركبة امرأة اخرى لا تعرفها مرمية مثلها فوق تلك الباخرة الصغيرة القادمة من قبرص والتي تتقاذفها الأمواج في الدرب الى بيروت . . . وقد تكوّم الناس بعضهم فوق بعض في باخرة المواشي تلك ، ذاهبين ربما الى الذبح اسوة بها . . . قبل ايام ، احترقت في الموضع ذاته باخرة هاربة بكل ركابها . . هكذا كان يروي احدهم ، وفي عرض البحر لاحت باخرة اخرى خارجة من بيروت صوب قبرص ، وتأملها خليل دونما حسد . . .

(اين المفر ؟ هربت مرة مثلهم وانتهى الأمر . ركبت ذلك الاتجاه ، وهرولت صوب الشاطىء الآخر للدنيا ، ولم اغادر حلقة الكوابيس . . كنت كمن تأرجح في المسافة بين كابوس وآخر . . .) . . .

رامي يصرخ فرحاً وهو ما زال يشير صوب بيروت بذلك السهم الأبيض الحي . . . .

نبض قلب خليل بدفء عميق . استعـاد حسه بـالكرامـة . . لن يكون لاجئـاً . . مشرداً . . لن يتسول بعد اليوم عملاً وبطاقة اقامة وتأشيرة دخول . . ولن . . ولن . . . وإذا وجد بيته مدمراً فسيقيم في خيمة فوق ارضه ريثما يعيد بناءه . . . هنا البداية ، لا فوق مقعد في مقهى رصيف عاصمة اوروبية ، ولا في مستنقع رغيد . أو أمثاله . .

ظل ممتلئاً حماساً وفرحاً والباخرة تقترب . ترسو . دهر من الانتظار . زحام . هبوط . دموع . زحام .

اسئلة . اجوبة . دخول . تاكسي . استمتع بالمساومة حول اجرة الطريق رغم انه كان يملك ما يفيض عن الاجرة . لقد استعمل (هدية) هلال لنفقات العودة . . . وكان يشع سعادة وحبوراً وهو يحدق في شوارع بلده المغسولة بالشمس والوجوه الأليفة ، حتى جاءت اللحظة الحرجة . . .

الحاجز الاسرائيلي . . .

كاد لا يصدق ان ذلك يحدث له حقاً .

للمرة الأولى في حياته يتوقف امام حاجز اسرائيلي في ارض وطنه (هنا حيث سبق وتقاتلنا فيها بيننا ارى الحاجز الاسرائيلي وقد احتل مكان الجميع . قبله كان ثمة حاجز محلي ، فآخر ، فآخر . . وبعد كل اقتتال يتبدل رجال الحاجز وشعاراته وصور الزعماء المتشابهة التي تتوج براميله ، والآن ذهب الجميع ، والحاجز الاسرائيلي ينتصب كأنه الخاتمة لتلك الدراما كلها) الخاتمة ؟ لا . لا . لا . . للمرة الأولى يرى جندياً اسرائيلياً . كان جندي الحاجز فتى صغير السن ، يشبه الشبان جميعاً في مثل سنه . . وربما لو التقى به في جنيف ، او لو داس على قدمه في لارنكا لاعتذر منه بكل تهذيب ولأشعل له لفافته . . . أما في تلك اللحظة ، فقد استولى عليه هاجس موجع : ولكن، ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟

وحين تأكد من ماهية الحاجز دهمته مشاعر الذل والغضب . . . كان الجنود الاسرائيليون قد اكتفوا بربط خيط رفيع يكاد لا يرى يعترض الطريق . . .

لا عارضة خشبية . . لا براميل . . مجرد خيط رفيع موسخ ابيض من الطرف الأيمن للرصيف الى الأيسر . . وخلف هذا الخيط تقف ارتال السيارات . . . مئات منها متجهة صوب درب الهرب . . . والسيارة التي تقله وحدها متجهة صوب درب العودة . . . شعر خليل بالخيط الرفيع الذي ربطه الاسرائيليون حاجزاً يحيط بعنقه حاداً مسنناً ويخنقه ، ولم يعد في مقدوره ان ينطق ، وسائق التاكسي اجاب عن اسئلة جنود الحاجز ، ويده ناولته جوازات السفر كأنما انفصلت عن الرأس وبقية الجسد ، وخليل يختنق وصدره يضيق وألم حاد يتفجر من اعماقه كما لو اغمد احدهم للتو خنجره في خاصرته . . والجندي يفتش السيارة للتأكد من خلوها من الطعام والماء احكاماً للحصار التمويني على من صمد من اهل بيروت . . .

(ارى مائة وسبعين مليون عربي مصطفين في الصحراء بعضهم خلف بعض ، وأنا بينهم ، وكلنا نقف جامدين امام خيط رفيع من القطن كخيط الحاجز هذا ، وككل الخيوط الواهية التي يقطبون بها الأزرار . . . نتشاجر فيما بيننا حول كيفية قطع الخيط . . . ينظّر بعض خطبائنا حول اسلوب قصه ومتى واين يجب ان يقص . . . من الطرف الأيمن ام الأيسر أم الوسط . . . وإذا حاول احدهم قصه مباشرة افتعل بعض المندسين شجاراً واياه ، ليضيع في خضم الشجارات الأخرى . . . تختلط الأصوات . . . نبدأ الاقتتال فيما بيننا ونقص رقاب بعضنا بعضاً ولا احد يقص الخيط . . . وفي فترات الهدوء النسبية يأتي من يتحسس الخيط تمهيداً لاجراء دراسة استراتيجية حول الأمر ، وآخر يلقي خطبة عصماء مطلعها : يا خيط يا خيط . . . فتحمله بعض الجموع على اكتافها وتركض به وتعلو الهتافات : يسقط الخيط . . . يسقط الخيط . .

وتمر جماعته باخرى لها هتافات مغايرة فيبدأ اطلاق النار لا على الخيط ولكن على بعضهم بعضاً ، ثم تقوم المعارك فيما بينهم ، والخيط حيث هو ، مجرد خيط رفيع لا اكثر . . . والنظريات كثيرة والخيط واحد) . . .

الكل صامت في التاكسي . رامي وفادي حبسا انفاسهما . . . لقد اقتربوا من البيت . . العيون تحدق من النوافذ . . . يرون الدمار . . . الدمار ، وآثار الحريق والانهيارات وبقايا المتاريس للشوارع المذبوحة على الهوية الدينية وسواها طوال سبعة اعوام من هستيريا الحرب . . (الأهلية؟) . . . اهذا ما يفعله الأهل حقاً بعضهم ببعض؟

للمرة الأولى يتذكر خليل لحظة اطلقوا الرصاص عليهم في المقبرة ولم يمت ويكاد يشعر انه ارتكب حماقة بالعودة الى بيروت . . . ولكن لا ، لن يقتتل لبناني وآخر ، وعربي وآخر بعد اليوم في بيروت . . . غير ممكن بعدما حدث . . ممكن ؟ لا . نعم .

(ها هو الخيط الرفيع يقطع شوارع عاصمة عربية اخرى ولا احد يحرك ساكناً حتى الآن . . . فهل يتابع الخيط الرفيع نموه عبر شوارع مدن اخرى واخرى ويستحيل شبكة عنكبوتية نتخبط في عذاباتها ؟ وإلى اي مصير اعود بأولادي ؟ إلى أي وطن ؟ ذلك الخراب كله ، الخراب الداخلي المرتسم في خراب الأبنية والأجساد ، هل يمكن ترميمه ؟ . . ألم أرتكب غلطة فادحة حين عدت باولادي من جنيف ؟ كان في مقدوري التفتيش عن عمل شريف متواضع ما دامت كفى هجرتني على اية حال ، والبقاء هناك بعيداً عن المأساة هنا ،

وعن امتدادها هناك في صخر وصقر ورغيد . . . فلماذا رجعت ؟) . .

والسيارة تمضي وكهارب الذهول تتصاعد ، ويكاد خليل يغرق في بئر ندم مظلمة . . .

(ماذا افعل وكل خطوة تقود الى خلل ؟ وإذا كان الهرب خطيئة ، أليست العودة الآن خطأً مميتاً ؟) . . .

وفوجىء بمشهد غريب . . .

فوق الخرائب كلها ، بين البيوت المتهدمة، شاهد خليل طائرة ورقية ملونة تطير وتعلو وتضيء تحت الشمس ببريق له وهج الذهب . . . وقد تدلى منها خيط ابيض له طعم البهجة لا الذل . . . كانت شيئاً غريباً وأليفاً ، راكضاً فوق صفحة الموات مثل طفل غادر رحم امه المحتضرة حياً . . وشهق بصرخة الولادة لحظة انهيارها ذبيحة . .

وتعلقت عيناه بالطائرة الورقية الملونة . . . وسمعوا صوت رصاصة وقال السائق . . لا تخافوا . . لا قنص . .

(اني اراهم . . يتجمعون . . يطلقون رصاصهم صوب الطائرة الورقية الملونة . . . . يريدون اسقاطها بأي ثمن وسط ذلك اليباس المحروق الشاسع) . . .

ولكن الطائرة الورقية الملونة تابعت تحليقها . . وظل خليل يتابعها بانظاره حتى احس بألم في رقبته . . وحين عاد بنظراته الى الأرض المحروقة ، خيل اليه انه لمح بحرية تركض بين خرائب البيوت بسرعة النار وعذوبة الطائرة الورقية الملونة . . تعدو والساحر وطفان يهرول خلفها وقد شبت النار في جسده . أم تراه كان واهما ؟

(سأبقى هنا . . . وليكن ما يكون . . إذا رحلنا جميعاً ، من يقص الخيط ؟) .

« تمت » ؟

بدأت كتابتها داخل رأسي يوم ٥/ ٥/ ١٩٨٣ .
باشرت تسطيرها على الورق يوم ٩/ ١١/ ١٩٨٣ ،
وتمت كتابتها كمسودة في ٢٥/ ١٢/ ١٩٨٣ .
عدت للعمل عليها يوم ٣١/ ٨/ ١٩٨٤ ،
وأنجزتها في ٢٥/ ٤/ ٨٥ الساعة ١٧, ٣فجراً .

اقرار باسماء المراجع

« التعاويذ السحرية » كلها في هذه الرواية نقلتها حرفياً عن أصولها في المكتبة الشعبية العربيـة ، من الكتب التالية :

١ ـ كتاب : النور الرباني في العلم الروحاني .
تأليف : الاستاذ الكبير عبد الفتاح السيد الطوخي مدير عام معهد الفتوح الفلكي.
الناشر : المكتبة الشعبية ـ بيروت .
تاريخ النشر : غير مدون .

***

٢ ـ كتاب : الجواهر اللماعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة.
تأليف : الاستاذ الكبير الشيخ علي ابو حي اللّه المرزوقي .
الناشر : المكتبة الشعبية ـ بيروت .
تاريخ النشر : غير مدون .

***

٣ ـ كتاب : تسخير الشياطين في وصال العاشقين .
تأليف : الاستاذ الكبير عبد الفتاح السيد الطوخي مدير عام معهد الفتوح الفلكي .
الناشر : المكتبة الشعبية ـ بيروت .
تاريخ النشر : غير مدون .

***

٤ ـ كتاب : اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان .
عنوان فرعي : يشتمل على كثير من مهمات الفوائد الروحانية والعزائم والطلاسم وأبواب المحبة وحل المربوط وعلى خلخلة الهوى الكبرى الصحيحة المجربة وخلاف ذلك واللّه أعلم .
الناشر : دار العلم للجميع .
اسم المؤلف : غير مدون .
تاريخ النشر : غير مدون .

***

٥ ـ كتاب : الكباريت في اخراج العفاريت (الطبعة الثالثة).
عنوان فرعي : يشتمل على القدرة الإلهية في المعالجة الروحانية ، ويليه: الحكمة الربانية في المعالجة الجنسية ، ويليه : كشف اللثام عن جعفر الامام ـ أسأل اللّه ان ينفع به العالمين آمين .
جمع وتأليف : الاستاذ عبد الفتاح السيد الطوخي مدير معهد الفتوح الفلكي لمصر والاقطار الشرقية .
الناشر : المكتبة الشعبية ـ بيروت .
تاريخ النشر : ١٣٩٢ هجرية/ ١٩٧٢ ميلادية .

مراجع عن المؤلفة صدرت عن
دار الطليعة ـ بيروت

- غادة السمان بلا أجنحة (طبعة ثالثة)............................. د. غالي شكري
- غادة السمان الحب والحرب .... د. الهام غالي
دراسة في علم الاجتماع الأدبي
- قضايا عربية في أدب غادة السمان.............................حنان عواد
تقديم البروفسور عيسى بلاطة
- تحرر المرأة عبر أعمال سيمون دو بوفوار وغادة السمان ....نجلاء نسيب الاختيار
- التمرد والالتزام في أدب غادة السمان.............................باولا دي كابوا
تقديم البروفسورة ايزابيلا كاميرا دافليتو



«ليلة المليار» واحدة من أهم الروايات العربية في حقبة الثمانينات.

د. رياض عصمت

في «ليلة المليار» تقف غادة السمان على قمة الزمن العربي، وتقبض على خارطة الهم العربي، وتنسل بلباقة إلى ضمير العقل العربي، وتتربع مليكة - تستحق التتويج - على عرش الرواية العربي.

فضل الأمين

«ليلة المليار» واحدة من أفضل الروايات العربية المعاصرة وأهمها.

د. محي الدين صبحي

عدا عن نسيجها اللغوي المميز الخاص بها، ما يذهلني هو خصوبة خيالها الذي لا ينضب. والخيال هو بدون شك العامل الأساسي الذي تدور حوله كل عبقرية الخلق للكاتب والتي، عند غادة السمان تصبح عبقرية متشربة بالذكاء والثقافة. وثمة ما يقرب غادة من كاتب حديث وعبقري هو ايتالو كالفينو لأنه كالكاتبة السورية هو ربما الكاتب الأكثر استخداماً للخيال واضعاً بينه وبين الواقع (وعي) الكاتب المرهف الحاد.

من دراسة بالايطالية
د. ايزابيلا كاميرا دافليتو

ربطت الكاتبة بشفافية مرهفة بين المستويات الوطنية والسياسية والانسانية. كما أوضحت تكامل الأبعاد السياسية وتداخلها... هذه النظرة التكاملية هي أهم ما يميز أدب غادة السمان الذي يقف شاهداً خالدا على أن الأدب النسائي تجاوز بكثير اهتمامات المرأة التقليدية الضيقة وفرد أجنحته ليضم الوطن والانسانية. ولكن هذا لا يلغي أبدا قدرة الكاتبة على تناول هذه الموضوعات من زاوية معينة أو حساسية مختلفة تعطي هذا الأدب لونه ونكهته المتميزتين.

د. بثينة شعبان

في «ليلة المليار» تبدو غادة السمان في حيوية كتابها الأول. وبعد كل هذه المسافة الشاسعة والوعرة تبدو خطوتها «الليلية» الأخيرة وكأنها في صباحها الأول. انها حيوية الداخل. حيوية التفتحات على الذات وعلى العالم وعلى الأشياء. حيوية الانتصار على الزمن والانتصار له وبه. وهذا بالذات ما يحفظ لكتاباتهاعلى امتداد السنوات نكهة طالعة من نضارة التجربة المعمقة التي من فرط التصاقها بواقعها الزمني تخترق إلى ما هو أبعد وأكثر (جوانية)، إلى نقاط الداخل الحادة والمظلمة حيث العري الأول والموت الأول والزمن الأول.

بول شاوول

منشورات غادة السمان